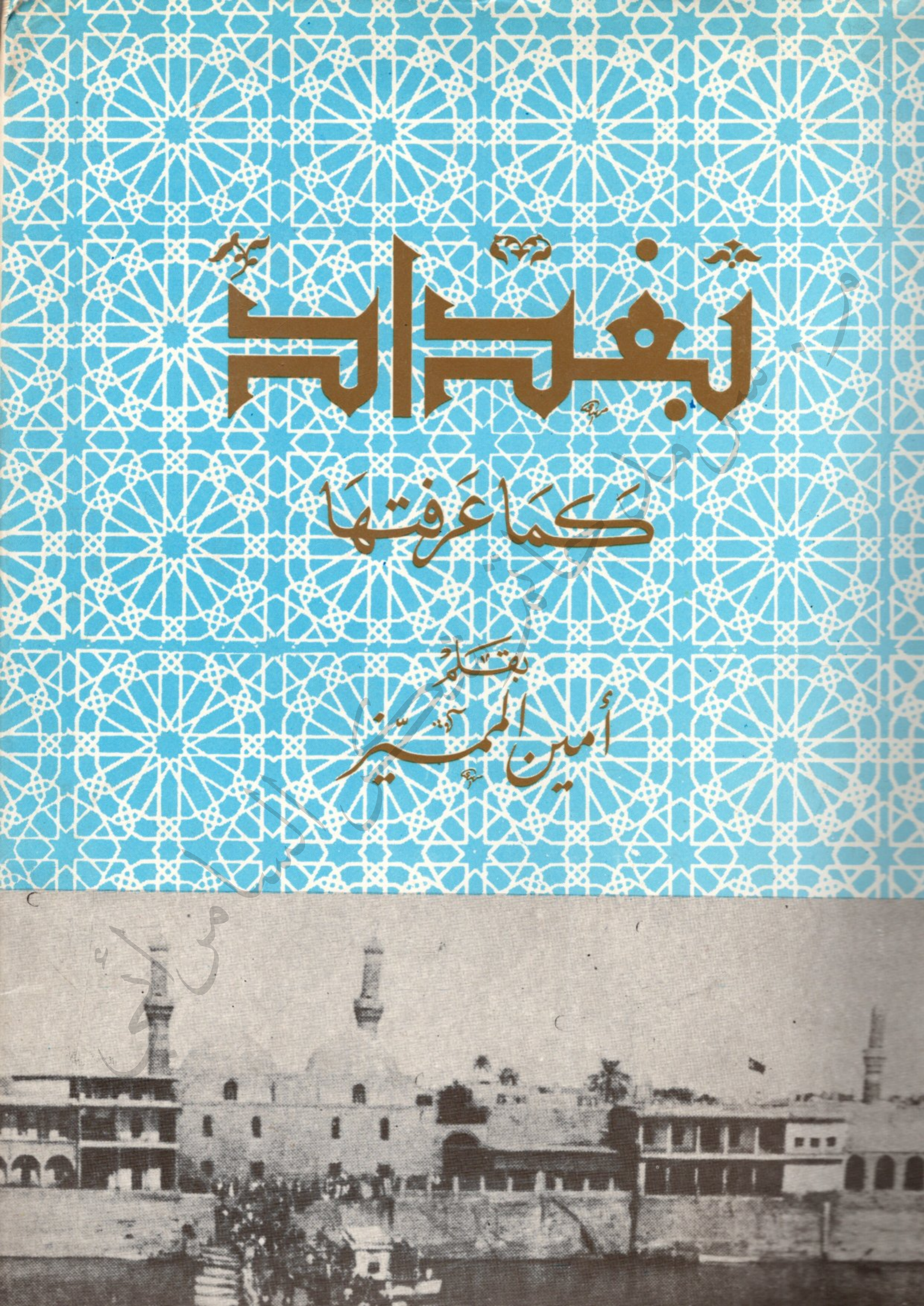

بغداد
كما عرفتها
بقلم
أمين المميز

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد

يوم الجمعة ٢٢/ شعبان/ ١٤٤٣هـ
٢٥ / ٣ / ٢٠٢٢م

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

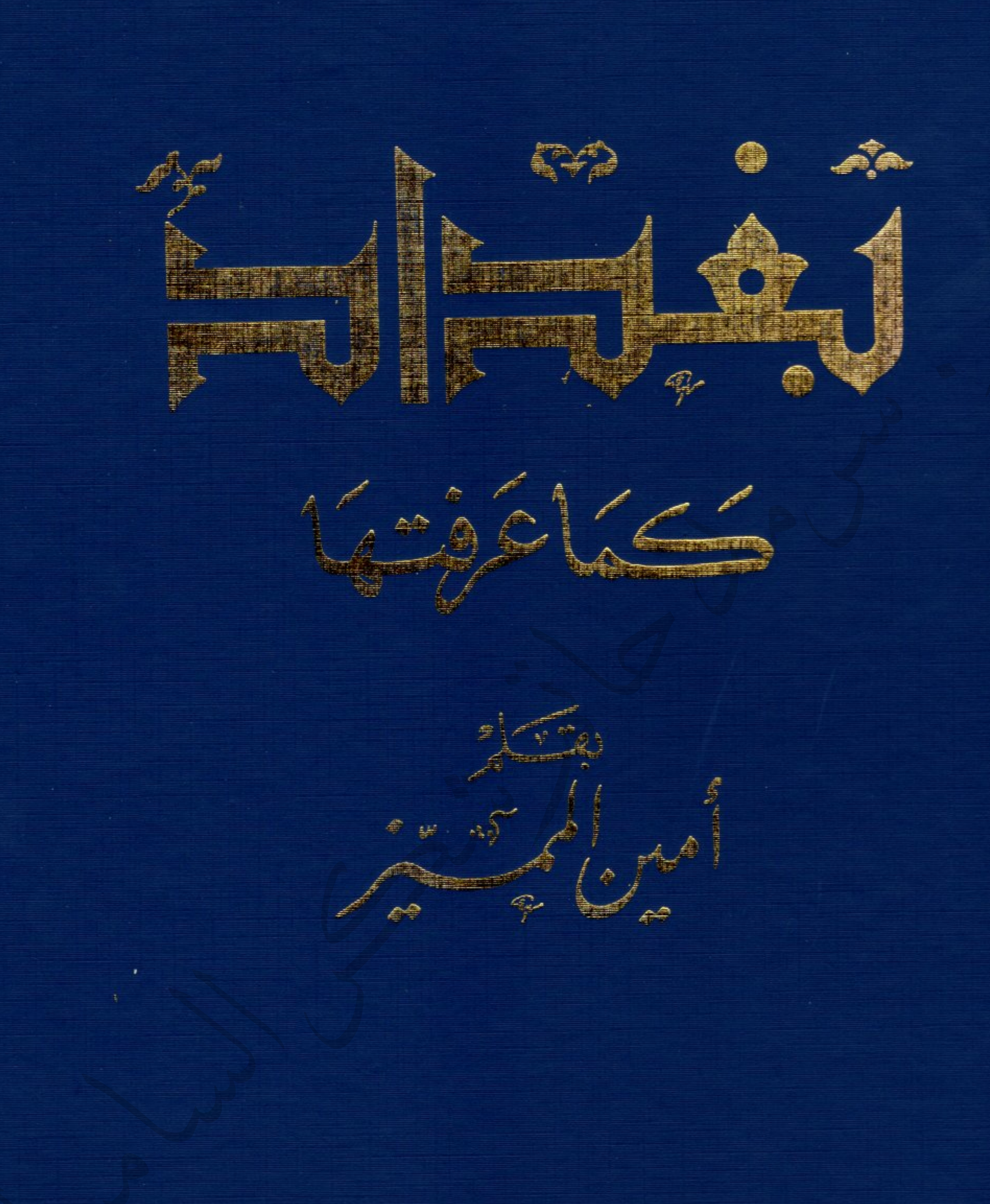
تصوير الوجه الأمامي للغلاف

منظور لجانب الرصافة في أواخر العهد العثماني، التقط من شرفة گهوة المميّز «المملكة» الواقعة في صوب الكرخ الى الشمال من الجسر بالقرب من گهوة المكّامة :

من اليسار :

- أقصى اليسار شريعة المكتب.
- مكتب الأعدادي العسكري (بناية المحاكم المدنية حالياً).
- دائرة الرديف التي اشغلت بعد الاحتلال من قبل الضابط الانكليزي المشرف على الجسر.
- ركبة الجسر المؤدية الى عگد الصخر والدنگچية وسائر أرجاء الرصافة.
- المنارة الشمالية لجامع الأصفية وقبتي الجامع وشبابيك الحرم، ثم المنارة الجنوبية. وكانت كل منارة من هاتين المنارتين بحوض واحد وفي العاصفة الهوجاء التي اجتاحت بغداد إبان سقوطها بيد القوات البريطانية في ١١ مارت ١٩١٧ طار القسم الأعلى من كل من المنارتين حتى الحوضين. وقد شيّد هذا الجامع (آصف زمانه) داود باشا آخر ولاة عهد المماليك فسمي الجامع بجامع الأصفية، وأعيد تجديده في عهد الحكم الوطني فشيدت منارة واحدة بحوضين عوضاً عن المنارتين، وهي المنارة القائمة في الوقت الحاضر.
- يتفرع من ركبة الجسر سلم يؤدي الى ممر ضيّق يخترق الجناح الصيفي لگهوة المميّز المحصور بين جامع الأصفية ونهر دجلة العظيم، ثم يؤدي الى سوگ السهان! والى الجناح الشتوي لگهوة المميّز والى الشريعة والادارة النهرية. وهذا السلم هو المنفذ الوحيد للجسر أثناء الفيضان، مروراً بسوگ السهان!
- الطاگ الذي يشاهد في التصوير يصل جامع الأصفية بالمدرسة المستنصرية، ويقوم فوق مدخل سوگ السهان [هكذا ورد اسم السوگ في سجلات الطابو والحجج الشرعية].
- الى يمين سوگ السهان يقع مدخل خان الدجاجة العائد لوقف عادلة خاتون، وهو في الأصل ربع الشافعية للمدرسة المستنصرية وقد تملكه المتولون على وقف عادلة خاتون أسوة بغيرهم من سراة بغداد الذين تملكوا أجزاءاً أخرى من المدرسة المستنصرية في العهود المظلمة بمشروعية الاستبدال بالنقد. ويتكون خان الكمرك هذا من قاعتين كبيرتين، استأجرهما دائرة الكمرك من وقف عادلة خاتون واتخذتهما مخزناً للبضائع، وقد تملكت مديرية الآثار العامة هاتين القاعتين وغيرهما من الأملاك المستخرجة من المدرسة المستنصرية بقرار من مجلس قيادة الثورة بعد ثورة ١٧ـ٣٠ تموز وأضيفت الى المستنصرية، وتمت صيانتها وترميمها وأعيدت الى ما كانت عليه في عهدها الزاهر.
- الى جنب خان الدجاجة يقع مدخل (إيوان دار القرآن) الذي كان مؤجراً الى (علوان الكاهجي) ثم الى أحد السراجين. وبعد انتقال دائرة الآثار من يد المس (بل) الى الأيدي الوطنية، أخلي المأجور من المستأجرين وجرى ترميمه وصيانته وإزالة الصخام من جدرانه وأضيف الى المدرسة المستنصرية. وتم ذلك على يد المرحوم ناجي الأصيل مدير الآثار العام وقتئذٍ.
- الى الجهة اليسرى من سوگ السهان يشاهد المار شباكاً كبيراً يشرف على السوگ ويطل على قبر في داخل الجامع، وكثيراً ما تشاهد على هذا الشباك الشموع والأقفال والخرق الملونة. وقد اختلف الناس في حقيقة المدفون في القبر، فمنهم من يقول أنه العالم البصري (ابو الحارث المحاسبي) ومنهم من يزعم أنه قبر (الكليني) أحد كبار علماء الامامية، وكثرة من المؤرخين يجزمون بأنه قبر الخليفة أبي جعفر المستنصر بالله، وذلك هو الأرجح.
- بقية الدكاكين على جهتي سوگ السهان مشغولة من قبل اليمنچية والسراجين وبائعي الأحذية الجَلَبْ والنعالات والكلاشات والقباقيب والآلية المستعملة، وبائعي الرشمات والأجراس والكراكيش واللجامات والهوندات والزناجيل وما شاكل ذلك من عُدَدْ الحيوانات ولوازمها.
- ثم يتفرع سوگ السهان الى فرعين، الفرع الرئيسي يؤدي الى سوگ المولەخانة ثم الى الجهة الجنوبية من سوگ السراي المؤدي الى سوگ الچوخچية والأسواگ الأخرى، و الفرع الجانبي يؤدي الى سوگ الفرج المحاذي للمدرسة المستنصرية وبابها الرئيسي.
- الى الجانب الأيمن من مدخل سوگ السهان يشاهد الجناح الشتوي والرئيسي لگهوة المميّز المحاذية للمدرسة المستنصرية والتي يمر بها السطر المحيط بجدار المدرسة حالياً.
- الى جنب گهوة المميّز تقع الادارة النهرية ويشاهد في الصورة العلم التركي مرفوعاً على السارية.
- الى يمين الصورة تشاهد مأذنة جامع الخفافين (مسجد الحظائر) التي تعد أقدم المآذن في بغداد.
- الى أقصى اليمين تقع گهوة المصبغة (گهوة الشط) وشريعة المصبغة.

تصميم الغلاف : عباس مظهر


بغداد
كما عرفتها
بقلم
أمين المميز

الطبعة الأولى ـ نيسان ١٩٨٥

* * *

* * *

رقم الايداع في المكتبة الوطنية/ ٥٧٠ لسنة ١٩٨٤

* * *

ثمن النسخة عشرة دنانير عراقية أو مايعادلها

* * *

طبع في مطابع دار آفاق عربيّة للصحافة والنشر
سبع ابكار ـ الأعظميّة

* * *

التجليد الفني في دار الحرية للطباعة
الصرافية ـ بغداد

* * *

بغداد كما عرفتها

شذرات من ذكرياتي

امين المميز

مؤلف

الانكليز كما عرفتهم

و

امريكا كما رأيتها

الحائز على الجائزة الأولى للمجمع العلمي العراقي لعام ١٩٥٢

و

المملكة العربية السعودية كما عرفتها

إلى

السيد الرئيس المهيب

صدام حسين

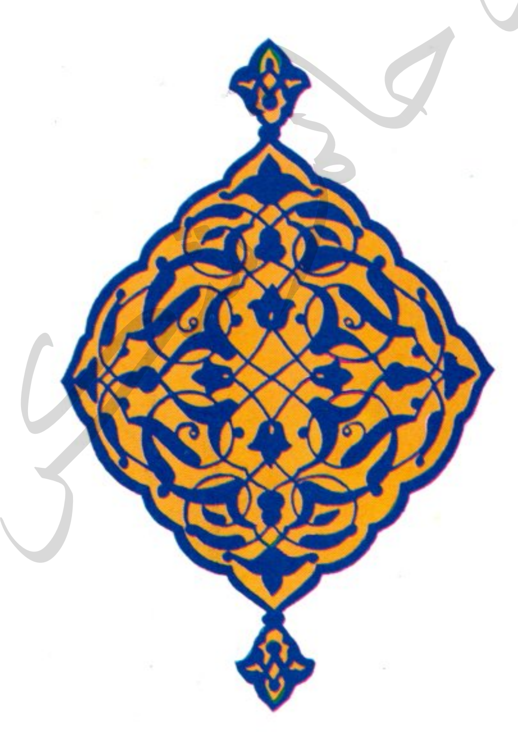
رئيس الجمهورية العراقية

اعترافاً بجميله لحماية بغداد من الغزاة

وحرصه على تاريخها وتراثها

أزجي هذا الكتاب





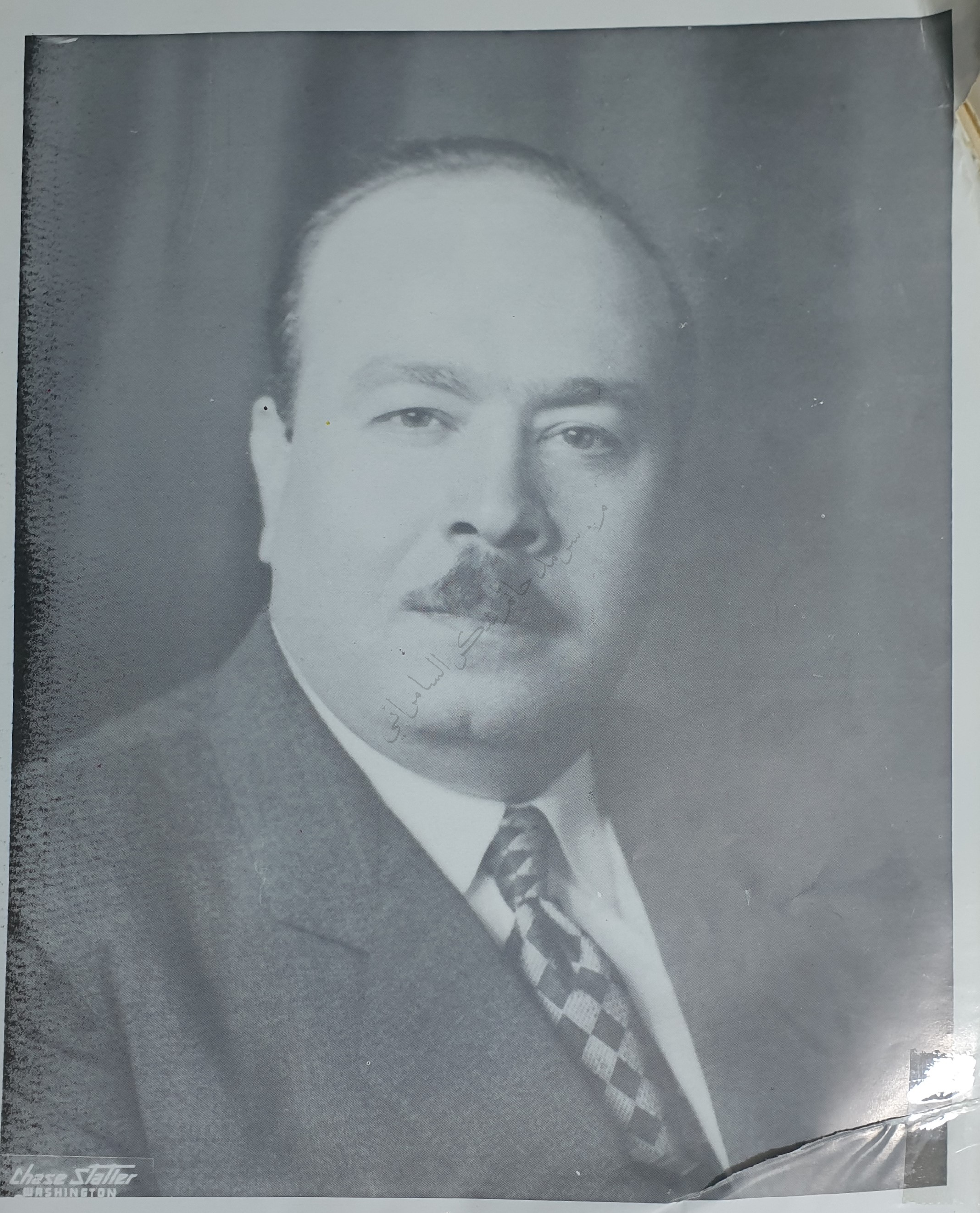
طبع على نفقة المؤلف الخاصة وخصصت الف
نسخة منه لمنفعة عوائل شهداء الجيش
الأبرار الذين فدوا أرواحهم الطاهرة ليعيش
العراق عزيزاً أبياً شامخاً منتصراً م



مدون الذكريات في خريف عمره في بغداد سنة ١٩٨٣



مدون الذكريات في عنفوان كهولته ، وزيراً مفوضاً في المملكة العربية السعودية سنة ١٩٥٤



مدون الذكريات في ربيع عمره، قنصلاً في نيويورك وممثلاً للعراق في هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩



مدون الذكريات، متخرجاً في المدرسة المأمونية سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

[لقد حصل التباس مطبعي في تسلسل تصاوير مدون الذكريات المعدّة أصلا وفق «التسلسل التنازلي» لتاريخ العمر. أي من الأعلى فالأدنى كما يلاحظ من التصويرين التاليين، وسيجري تصحيح الالتباس في الطبعة الثانية من الكتاب، إن شاء الله.]

(تصوير المصور الأهلي عبدالرحمن)



مدون الذكريات متخرجا في المدرسة الثانوية سنة ٢٨ - ١٩٢٩
(تصوير المصور عبّوش)



مدوّن الذكريات في أسعد سني حياته، طالباً في الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٣٣
(تصوير المصور داقوني، بيروت)



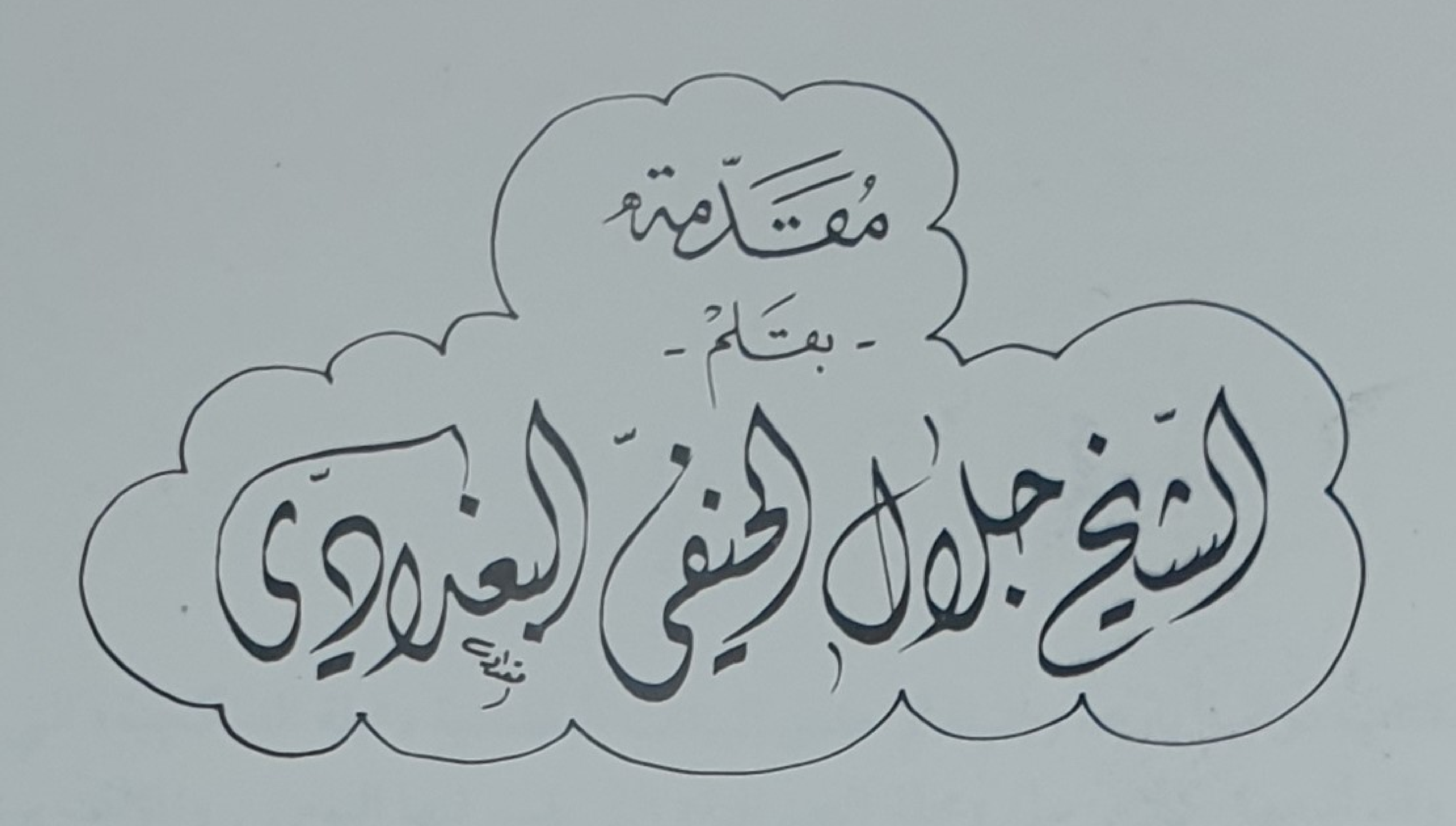
مدون الذكريات في يانع أيامه قائماً بأعمال المفوضية العراقية في لندن سنة ١٩٤٦



مدون الذكريات في شرخ شبابه ، ملحقاً في المفوضية العراقية في لندن سنة ١٩٣٦



مدون الذكريات في صدر صباه، طالباً في المدرسة الثانوية في بغداد سنة ١٩٢٦


مقدمة
- بقلم -
الشيخ جلال الحنفي البغدادي


بسم الله الرحمن الرحيم

في هذا الكتاب دراسة بارعة وجميلة لإحدى البيئات البغدادية «محلة الدنكچية» التي هي مسقط رأس المؤلف. . وقد أتبعها بكلام على «محلة الصرافية» التي يقيم فيها اليوم. . والمؤلف يرى أن تكون هذه البادرة عملاً مشجعاً للغير على القيام بدراسات بيئيّة لمحلات بغداد وأسواقها وأرجائها وسائر أحوالها والتقاليد والصفات المتوارثة لدى سكانها. . .

ويرى المؤلف ـ وقد أشار الى ذلك في مستهل كتابه ـ الفريد في بابه ـ أن تناول بغداد مقطعاً مقطعاً ومحلة محلة سيضمن الأحاطة بحياة هذه المدينة الخالدة من الناحية الفولكلورية خاصة ـ وهو لعمري رأي رشيد ونهج في البحث والتأليف جدّ سديد. . ذلك لأن فيه لمّاً دقيقاً لما هو متناثر من المعلومات النادرة في أذهان الناس مما لو اجتمع لكان منه للمدينة أروع الصور وأنقاها، وهذا ما يبعث النشوة حقاً في نفوس الأجيال التي لم يقدر لها أن تشهد من ذلك إلاّ القليل، وقد يكون هذا القليل أيضاً قد ضاع عليها فلم تشهده. .

ومن متابعة ما قصّه علينا المؤلف من قصص بيئته العزيزة نرى أن معظم الملامح القديمة لتلك البيئة قد تغيّر تغيّراً جذرياً وتبدل تبدلاً كلياً. . على أن مثل هذا التبدل لم يكن قد طرأ خصيصاً على «الدنكچية» وحدها بل انه طرأ كذلك على سائر أنحاء البلد من أقصـــاه الى أقصـــاه. . وما فينا من أحد لم يشعر بذلك. . غير أن الجيل الجديد يجهل الصور القديمة لحياة آبائه وأجداده فيها. . وهذا ما يحسن أن ينصرف إليه في التدوين والكتابة أبناء الأحياء البغدادية القديمة. . فمن بديهيّ القول أنا سنحصل من وراء ذلك على ثروة كبيرة من الذكريات الغنية التي كان التأريخ قبلها مشغولاً عن تناولها والكلام عليها لا إيجازاً ولا إطناباً. إن الأستاذ المميز قد كان قادراً على أن يوفي الموضوع حقه في كلامه على الإطار البيئي لمحلته «الدنكچية» التي هي جانب متميّز من جوانب بغداد المهمة، وهو مؤلف سبق له خوض آفاق التأليف المقروء، كما أنه معروف بالخبرة الملحوظة في اكتشاف دقائق الحياة في المدن العالمية التي قضى فيها فترات زمنية حسنة. ومن كتبه التي أدهشت القراء في هذا المجال: «أمريكا كما رآها. . والإنگليز كما عرفهم. . والسعودية كما عرفها. . .» وهو قادر على أن يكتب في تأريخ بغداد بيئياً وفولكلورياً وسياسياً على وجه الاستيعاب والاحاطة التامة ما يبزّ به الآخرين. ولكنه شاء أن يحصر معظم كلامه في حيّز محلته «الدنكچية» التي كانت ملعب صباه ومسقط رأسه وبذلك ترك المدينة لتكون موزعة على أكثر من باحث وكاتب يتولى الكلام على أنحائها وأرجائها فيكون أهل بغداد كلهم قد اشتركوا في كتابة تأريخ مدينتهم.

وانه اليوم ليستأهل أن يُعدّ في جمهرة الفولكلوريين بالإجماع بشهادة كتابه الذي سيبيت وثيقة تراثية نادرة، اضافة الى ما في صفحات الكتاب من حقائق وخفايا دبلوماسية ووثائق مهمة وقف عليها خلال عمله في لندن وباريس وأمريكا والشام والمملكة العربية السعودية مما يعدّ من أدق الوثائق السياسية وأندرها في التأريخ المعاصر، إذ إنَّ شهادة شاهد عيان في مثل هذه المسائل والوقائع قلّما تتهيأ لكل حادث مكتوب في صحف التأريخ لاسيما حين تتحقق في شاهد العيان مؤهلات صحة النقل ودقة الرواية كالذي هو متحقق في شخصية إبي إبراهيم المؤلف الذي اجتمعت له تلك المؤهلات كلها.

فالكتاب في الحقيقة أكثر اتساعاً مما وصف به، غير أن الجانب الفولكلوري فيه كان المحرك الأول للكتابة والتدوين وهو ما يعني جمهور الفولكلوريين بالدرجة الأولى.. ولكن القارىء إذا تابع قراءة فصول الكتاب وجد نفسه مشدوداً الى كل حرف بأكثر من خيط.. فانه في الحق كتاب كان قلمُ كاتبه أكثر حرصاً على تثبيت كلّ شيء يجول في خاطر البغدادي من خلال وجوده داخل بغداد وخارجها.

إن المؤلف وهو غزير المعلومات لم يكن عند حَدّ الاستجابة لذلك كله لما نلاحظه في أحاديثه ومروياته من الرغبة في الإيجاز الذي لا يبلّ غلة الصادي.. وقد تقلّب المؤلف الى - حدٍ ما - بين أكداس الأحداث والوقائع فأثرى التأريخ المعاصر ببعض ما يفتقر إليه من معلومات وقعت فيه على وجه التفصيل والتحقيق. واننا في أشد الحاجة لما يشبع فينا النهم الاعلامي الذي من بعض مآتيه تنحية الغموض عن مطالب ما تبرح تشغل بال الأجيال، سابقة ولاحقة.

والمؤلف حين يؤرخ للشخصيات التي تعرَّف عليها ولقيها وعايشها يورد من معالم حياة هؤلاء الناس ما يجعل القارىء يقرأ تأريخاً مجسّماً ملموساً باليد، وهذه مزية معروفة في المؤلف فليته يستغلّ أسلوبه في هذا الوجه فيحدّث قراءه الكثيرين بحديث علاقاته بالناس من أعداء وأصدقاء على حدّ سواء... وكنت أتمنىٰ كذلك أن يتناول المناطق المجاورة للدنگچية والصرافيّة، على وجه الإيجاز آونة والأطناب آونةً أخرىٰ.. فأن في ذلك تذكيراً أو ما يشبه التذكير لأبناء تلك المحلات يشحن فيهم الرغبة في الكلام على محلاتهم وادّكار ما مرّ من أحداث حياتهم فيها. فأن حياة المحلّة تمنح السكان نسباً له مثل شرف النسب العائلي.. ان المؤلف يذوب حنيناً الى بغداد - كأي بغدادي آخر - ومن هنا كانت لغته في كتابة مذكراته الموجزة لغة ذات تعبير شاعري تستوعبه النفس قبل الأذن.. فلقد وجدته قويّ التأثير واللعب بلبّ قرائه وأنا من بينهم حتماً.. فهو إن شاء أبكىٰ وإن شاء أضحك...

وليس غريباً أن يكون الأستاذ المميز قوي الآصِرة ببغداد فذلك خُلُق البغداديين كما قلنا من قبل، رغم أنه قضىٰ فترات من الزمن في أرقىٰ مدن العالم إذ كان يتنقل بينها في أعمال دبلوماسية ومهامّ سياسية دقيقة.. فلقد حمل أمين المميز في حقيبته الدبلوماسية «الدنگچية» كلها، بموله‌خانتها وخان جبنها وكاهيها وكبابها وهريستها وعدسها وهرطمانها.. بل رأيناه حمل يشماغ البغداديين وما إليه فما عتم أن اعتمر به في بعض مهرجانات لندن الصاخبة ولبس اليمني الذي هو يَمَني بغداد وإن كان يقال له يمني حَلَب، فهو مثل كبة حلب لا صلة لحلب بها وإنما هي بغدادية مئة بالمئة..

إن البغدادي قليل الهجرة الى آفاق المعمورة ـ لو كان ذلك في اختياره ـ فهو يحترق شوقاً ويلتهب التياعاً حين يفارق بغداد فتعنّ على باله أنحاء من باب الشيخ أو الفضل أو سوگ الغزل وتظل تداهمه ذكريات هذا الوطن العزيز على مرارة تلك الذكريات في بعض الأحيان . . .

وحين كنت أعمل في بكين وشنغهاي ، من مدن الصين الشعبية ، كان اسم بغداد عالقاً في ذهني فما يكاد يترك لي فترة أتذوق بها الحياة في تلك القارة العظيمة ، فكنت أكثر من التعبير عن تعلقي ببغداد في شعري ورسائلي . . وقد كتب إليّ الأستاذ صبحي البصّام قائلاً في أبيات من قصيدة له :

دعْ عنكَ بغداد التي من شحِّها ضنّت عليكَ بدافىء من شمسها

فرددت عليه من قصيدة طويلة :

أحببتُ بغداداً ولست إخالني مستبدلاً سعد السعود بنحسها
إني لأفديها بكل مدينةٍ في الخافقين بِجِنّها وبأنسها

تلك هي طبائع البغداديين ، فأن نار بلدهم خير من جنان الدنيا كلها لديهم . . وما يلام أحدهم على ذلك فلقد منح الله بلدتهم نكهة ما وجدوا لها مثلاً في بلدانه المنبثة في أرضه كلها على سعة أرضه ـ جلّ شأنه ـ وكثرة بلدانه . . .

على أن الحنين الى البلد والمحلّة أمرٌ فطريّ في الناس إلاّ من شذّ منهم عن هذه السُنّة . . فأن أبا العلاء المعرّي حين كان في الكرخ فخفق البرق ، حَنَّ الى بلدته وجَرّه ذلك الى أن ينفي صلته بالكرخ كل نفي فقال :

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهرُ قبل ليالِ

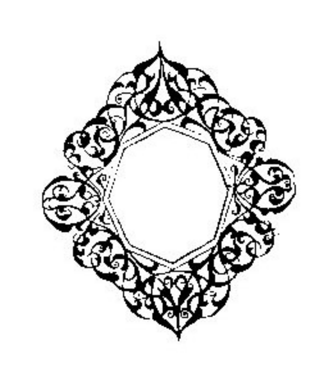
والتفت النبي ﴿ﷺ﴾ الى مكة وهو يغادرها قائلاً : «لولا أن قومك أخرجوني لما فارقتك» أو كما قال . . .

إن الأستاذ أمين المميز هذا الوجه البغدادي العريق يقدم لنا اليوم كتاباً فولكلورياً نادراً يعجّ بالذكريات البغدادية العزيزة على البغداديين حيثما كانوا . . فلنقرأ من بارع صحفه ما حَرَّر ولننظر من رائق صُوره الى ما صوّر . . ولنتملَّ في ذلك تأريخاً طريفاً لم يعتدْ كَتَبَةُ التأريخ ـ إلا من ندر ـ إثباته في مدوّناتهم ، وكأن للتأريخ في نظر القوم مهمة محددة لا يجوز تجاوزها ، بل كأن الفولكلور الذي هو عماد الوجه الشعبي في العالم ليس جديراً أن يكون يوماً ما شيئاً مذكوراً في الكتب . .

لقد بدأ الفولكلور ـ من عهد قريب غير بعيد ـ يجد له في البلاد العربية أكثر من موضع قدم ، وصار الباحثون فيه يجدون من الحريـة ما يحميهم من الاتهامات ويقيهم الغمـز واللمز وسخـرية الساخرين الذين كانوا يحسبون التدوين في مثل هـذه الجوانب من حياة العامـة نمطاً من التخلف العلمي ، فان العامة ـ عندهم ـ لا يستحقون أن يكونوا شيئاً مذكوراً ، في حين أن العقل الحديث بات يدرك أهمية الدراسات المماثلة حتى ما كان يعدّ من الخرافات والعـادات غير الحسنـة واللهجات والألعاب الصبيانيـة والأزياء والعنعنـات المقبولـة والمرفوضـة ، والطبخ الـذي يشـير الى الفقـر المدقع مما لا فن فيـه ولا مهارة ، والعلاجات المتخلفة وأنواع الحرف المتدنّية وما الى ذلك من ألفاظ الكفـر والمسابّـة والنداءات المستهجنـة والتعامـل العادل والـظالم بين النـاس في شتىٰ مستـويـاتهم الطبقية . . . ان هذا كله هو التأريخ الذي ننعىٰ على من سلف من سكان بلدنا انهم لم يهتموا بتدوين شيء من أشيائه ، فغمضت علينا الأخبار وعميَتْ الأنباء ، فلا نعلم من سيرة أسلافنا في ذات هذه المدينة ما نحمده أو لا نحمده ، أو ما نقيس عليه أو ندرس مجالات التطور فيه . . وحين يصدر كتاب الأستاذ المميز فستزداد أهميته فترةً بعد أخرىٰ وفاقاً لتطور علم الفولكلور واستداد ساعده وذيوع مكانته في العالم ، وسنجد الأجيال القادمة تؤاخذنا ان لا نكون قد أعرنا هذه النواحي المهمة ما هي جديرة به من الاهتمام ، وسيكون للحاج أمين المميز صيت في تلك العوالم من الزاوية الفولكلورية عِدْلَ صيته في سائر مؤلفاته القيّمة الأخرىٰ . .

واني إذ أقدم الكتاب دون أن أتوغل في تقريضه ، فـأني أترك أمـر التقريض للنقـاد الذين سينصفون مؤلفه الانصاف الحق الذي هو حري به وأهله . . فمرحباً بالمؤلف في جمهرة المؤلفين ذوي القدرة والتمكين والاستيعاب والاحاطة ، ومرحباً بكتابه القيم الجديد والرائع النفيس الثمين ، وليجزه الله وَلْيُثِبْهُ عنا وعن بغداد خير الجزاء وخير الثواب .

الشيخ جلال الحنفي البغدادي
جامع الخلفاء / بغداد ٨ شباط ١٩٨٤م
٧ (جمادى الأولىٰ ١٤٠٤ هـ)



استهلال

منذ أن أصدرت كتبي الثلاثة : (الإنگليز كما عرفتهم ، ١٩٤٤) و(أمريكا كما رأيتها ، ١٩٥٢) و(المملكة العربية السعودية كما عرفتها ، ١٩٦٣) تتوالىٰ عليّ الاستفسارات عما سيكون عنوان كتابي الرابع ، وعن أي بلد من البلدان الأجنبية سأكتب ، ولم يكن عندي جواب قطعي أو وعد محدد لهذه الاستفسارات والمناشدات ، لسبب بسيط هو أن صلتي بالبلدان الأجنبية قد انقطعت منذ انقطاعي عن السلك الخارجي العراقي سنة ١٩٥٨ ، وهو الذي كان المصدر والحافز لكتبي الثلاثة التي كان هدفي من وراء نشرها خدمة أبناء وطني وبني قومي بإطلاعهم علىٰ أحوال بلاد أخرىٰ لم يكتب الله لهم أن يزوروها ويتعرفوا على أهلها مثل ما كتبه الله لي ، ولم أبغِ من وراء ذلك ، شهد الله ، جزاءاً ولا شكوراً ، متمثلاً بقول معروف الرصافي :

إنما هذه المواطن أمٌّ	مستحقٌّ لها علينا الولاءُ
إن خدمنا فلا نريد جزاءاً	ومن الأمّ هل يُراد جزاءُ

ومن المناشدات التي علقت بذهني كانت مناشدة المغفور له الأمير زيد بن الحسين ، لما قدمت له مجموعة من مؤلفاتي . فبعد أن تصفح الكتب وعناوينها بادرني بالقول :

سيِّد أمين : متىٰ ستتحفنا بكتاب عن «العراق كما عرفته» أو «العراقيون كما عرفتهم» ، فكان جوابي :

سيدي : «لا أنا ولا أنت ولا غيرنا يستطيع أن يفي مثل هذا الموضوع كامل حقهِ ، وحجتي في ذلك كانت وما زالت وستبقىٰ الى أبد الآبدين ، هي أن العراق ، والشعب العراقي ، ظاهرة فريدة على وجه هذه البسيطة ، بماضيه اللامع وحاضره الناصع ومستقبله الساطع ، وأن الاحاطة بهذا الماضي والحاضر والمستقبل إحاطة تامة وموضوعية ليست بمقدور إنسان واحد ، إذ دونها خرط القتاد .

إذن ما الذي حملني على الخروج من عزلتي لاستذكار عهود طفولتي وصباي وشبابي وكهولتي وقد بلغت خريف عمري واعتكفت في داري ؟ إن الدافع لذلك هو الآتي بيانه :

في الأيام الثلاثة من الثامن حتى العاشر من شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨١ عقدت سلسلة من الندوات التي تعهدها ونظمها السيد أمين العاصمة وهيئة موظفي الأمانة وقد ضمت كبار المهندسين الاستشاريين العالميين من شتىٰ أرجاء الدنيا، وحضرها عدد كبير من أصحاب الخبرة في الهندسة والفن ورجال الفكر والعلم وذوي الرأي والمقام من العراقيين، وعلى رأسهم مهندس بغدادي عريق هو رفعت كامل الجادرجي، لدراسة تطوير مدينة بغداد لإعادتها الى سابق عهدها الزاهر. وقد ساهم السيد رئيس الجمهورية بهذه الندوات واشترك في المناقشات وأبدىٰ مطالعات صائبة، مؤكداً القول بأنه يبديها بصفته أحد العراقيين، وحسب، وذلك تفادياً من إحراج المهندسين الاستشاريين والمخططين ذوي الاختصاص وعدم إلزامهم بالتقيد بها. كما أبدىٰ بعض الحاضرين مطالعات وآراءاً وآمالاً عريضة حول كيفية بلوغ ذلك الهدف الطموح، كان بعضها يتّسم بالسذاجة والسطحية بشكل واضح.

كنت أشدّ ذهني الى شاشة التلفزيون وأصغي بكل جوارحي الى تلك المناقشات، ولكن سامح الله المترجم والمخرج ومهندسي الصوت الذين نغّصوا عليّ لذة الاستمتاع بما يقال، إذ اختلط حابل المترجم بنابل المتكلم بالإنگليزية «وأضاعوا عليّ المشيتين».

كانت ذاكرتي تشرد مني لتعود الى بغداد يوم فطنت عليها، لتذكرني كيف كان البغداديون يعيشون فيها في السنين الأُوَل من هذا القرن، وكيف يعيشون فيها اليوم وهم في السنين الثمانين منه، وكيف أتمنىٰ وأتوقع أن يعيش فيها أبناؤنا وأحفادنا والأجيال المتعاقبة من بعدهم بعد السنين «الألفين»، إذا ما تم تنفيذ الخطط والمشاريع التي تعدّ وتنفذ اليوم على قدم وساق.

وفي معالجتي لموضوع بغداد كما عرفتها واستذكاري لأيام طفولتي وصباي وشبابي وكهولتي فإني سأستميح القارىء الكريم عذراً إنْ أنا تحللت قليلاً عن الفصحىٰ وجنحت كثيراً نحو الدارجة والعاميّة وأكثرت من الاصطلاحات والمفردات والأحجيات والسواليف والأقوال المحلية واستشهدت كثيراً بالأمثال الشعبية وأسهبت في أمور شخصية صرفة وقضايا عائلية بحتة، وأفضيت أسراراً وأبديت آراءاً، رأيت من حق التأريخ عليّ أن لا أبقيها طي الكتمان، وقصدي من كل ذلك إعطاء بغداد خصوصياتها وخصائصها، وللبغدادي نشأته وخصاله وشمائله وسجاياه ومواقفه وعواطفه ووطنيته وقوميته وديانته وتديّنه وخدماته لوطنه وأمته، ولأرسم جهد المستطاع صورتها الحقيقية للفترة التي يعالجها هذا الاستعراض لحياة بغداد وحياة أحد قدامىٰ البغداديين.

كما أرجو أن أوضح بأن هذا الاستعراض ليس بحثاً أكاديمياً في تأريخ بغداد، ولا هو أطروحة لنيل شهادة عليا عن عهد من عهودها، ولا هو بالمذكرات أو اليوميات أو سيرة الحياة اليومية المتعارف عليها في عالم التأليف، ولا هو من الكتب التي إذا باشر القارىء بمطالعتها دبَّ فيه الكلل والملل وداهمه النعاس والضجر، فيلقيه جانباً لرتابة بحثه وتعقيد لغته وغزارة مادته، فما هو إلا أحجيات الزمان وسواليف العمر ومقارعات الدهر كتبتها بأسلوبي الخاص بالكتابة والتأليف. فمن القراء من يستحسن هذا الأسلوب ومنهم من يستاء منه، فللفريق الأول منهم أسدي الثناء والامتنان، ومن الفريق الثاني

استميح العذر وأسأله التسامح، فأن المؤلف مستهدَف، غير أني أود أن أقول للمستهدِفين ـ وأشهد الله على ما أقول ـ بأني لم أدون شيئاً في هذا الكتاب دعاية لأحد ولا نكاية بأحد، ولا حطّاً من قدرِ أحد أو تشهيراً بأحد، افتئآتاً، ولا اعلاءاًلشأن أحد تملّقاً، ولا تحت أي إكراه أو إغراء، وأن كل ما دونته هو بوحي من وجداني ووازعٍ من ضميري وحسب.

ان بعض القراء من البغداديين هم أكبر مني سناً ويفطنون على بغداد لأبعد مما أفطن عليه من معالمها وشخصياتها وأسلوب حياة أهلها. فمنهم من كان أفق معلوماته عن بغداد أوسع كثيراً من أفقي ـ الذي كان ضيقاً ومحدوداً لدرجةٍ ما بسبب فترات غيابي الطويل عنها ـ إما بداعي الدراسة أو بحكم الوظيفة أو بسبب أسفاري البعيدة وغياباتي الطويلة عنها أو لدواع أخرىٰ. فقد ينبري أحد أولئك القراء ليتساءل: وماذا عن الحادثة الفلانية، وماذا عن الشخص الفلاني؟ أو المحلّة الفلانية أو الموضوع الفلاني؟ فإن توقع القراء أن يقرأوا في هذا الكتاب كل ما يعرفه كلٌ منهم عن بغداد، خرج الكتاب عن موضوعه وهو: بغداد كما عرفتها أنا. وحتى معرفتي هذه عن بغداد هي ليست كل ما أعرفه عنها، فما هي إلا الذكريات والخاطرات التي عنّت على بالي وأنا ممسك بقلمي ومسطر ما يجول بخاطري ساعة التدوين، على الرغم من محاولاتي القاهرة لشحذ ذاكرتي للرجوع الى أقدم ما أذكره عن نفسي وعن بغداد وعن البُغادّة.

يلاحظ القارىء الكريم أن هذه الذكريات قد تجاوزت حدود الدنگچية والصرافية وبغداد والعراق الى أقطار عربية وأوروبية وأمريكية، والغرض من إيرادها هو إعطاء صورة متكاملة ودقيقة لعراقي عريق وتبيان دواخل عواطفه وبواطن شعوره وتفانيه وتضحيته وتحمله المتاعب والمشاق في سبيل وطنه وأمته، وللتأكيد على أن العراقيين هم من أكثر الشعوب والأقوام تعلقاً بتربة وطنهم وأشدّهم حنيناً إليها ووفاءاً لها واعتزازاً وفخراً بها، حيثما وجدوا في أصقاع المعمورة. وقد يذكر القراء ان كثيراً من العراقيين الذين اغتربوا واستوطنوا وتجنسوا وتوفوا في الاغتراب، كانوا يتمنون لو كتب الله لهم أن يدفنوا في تربة العراق وفي مساقط رؤوسهم بالذات، وكثير منهم من أوصوا بذلك قبل وفاتهم.

ولي مناشدة أخيرة: هي أن أناشد قدامىٰ البغداديين أن يكتبوا عن المحلات التي نشأوا وترعرعوا فيها وعن الشخصيات التي عاصروها وعن المعالم التي شاهدوها، وعن بغداد أيام طفولتهم وصباهم وشبابهم وفي الأسلوب الذي يختارونه: هذا يكتب عن محلة قنبر علي وذاك يكتب عن محلة باب الشيخ وآخر يكتب عن محلة صبابيغ الآل وآخر يكتب عن القراغول، وآخرون يكتبون عن الجعيفر والشيخ بشّار والشواكة وسوگ الجديد مثلاً، ثم يتولىٰ الشيخ جلال الحنفي والأستاذان عبدالحميد العلوچي وعزيز الحجية تنسيق هذه المعلومات وتوحيدها والإضافة إليها مما لديهم من معلومات شعبية وتراثية (فولكلورية) وهم الثقات البغداديّون المعاصرون، متّعنا الله بحياتهم وأمدَّ في أعمارهم، ليخرجوا بكتاب موحّد عن حياة بغداد والبغداديين في أوائل القرن الحالي، وذلك على غِرار «مذكرات فخري البارودي» المنشورة في دمشق عام ١٩٥١، وهو أول كتاب فولكلوري

وتراثي ، حسبما أعلم ، يصدر بالعربية عن الحياة في مدينة عربية ، بقلم ابن تلك المدينة ، في أوائل القرن الحالي.

ختاماً أسدي جزيل الشكر للأفاضل الذين شجعوني وآزروني في إخراج هذا الكتاب ، وأخص بالشكر الشيخ جلال الحنفي والأستاذ عبدالحميد العلوچي ، والأستاذ نعمان ماهر الكنعاني.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونِعمَ الوكيل ، وكل عام وبغداد الحبيبة والعراق العزيز الأبي المزدهر الشامخ بألف خير، وكما ينشدنا الفنان العراقي سعدون جابر :

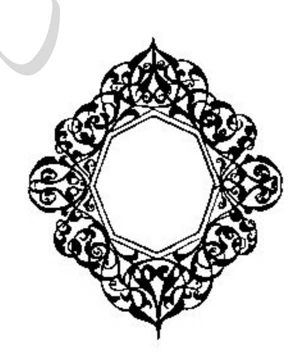
لــو نمــشــي طــول الــدَهَــرْ   مــا نِلگــه مثــل عــراگنــا عــراگ

وكما قال الشاعر الشعبي غازي ثجيل :

الله أكــبــر يــا الــعــراق   شــگــد عــزيــز تــرابــه

الصرّافية ، بغداد:١٧ تموز ١٩٨٤ الميلادية
١٨ شوال ١٤٠٤ الهجرية

أمين المميز





تصوير جوي لبغداد بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧

بَغدادُ الأمسِ،

بَغدادُ اليومِ،

بَغدادُ الغدِ،

أنا بغدادي أصلي(*) (جرّ كراع ودگّ الگاع)، ولدت سنة المشروطية (إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨) في محلة كانت تعرف في غابر الأزمان بالدنگچية، ثم صارت تسمىٰ (جديد حسن پاشا)، وكانت من كبريات محلات جانب الرصافة، سكنّاها أباً عن جد، وخبنّاها كابراً عن كابر لمئات السنين، ونشأتُ وترعرتُ ودرستُ وسكنتُ فيها شطراً من عمري ولم أنفك عنها إلا حين نقلنا سكنانا الى الصرافية سنة ١٩٣٥، بعد أن أخنىٰ الدهر عليها- كما أخنىٰ على لُبَدِ- كمنطقة صالحة للسكنىٰ، وبعد أن كانت في أواسط القرن التاسع عشر أكبر وأشهر محلة سكنية في بغداد كما يلاحظ من خرائط بغداد في ذلك الحين، وقضيت ردحاً من سني طفولتي وصباي وشبابي متنقلاً بينها وبين الصگلاوية والفلوجة والرمادي من أعمال لواء الدليم (محافظة الأنبار حالياً).**

لازمت بغداد أيام طفولتي وصباي وشبابي وكهولتي وشيخوختي وعشت فيها أيام بؤسها وشقائها وحرمانها، وأعيش فيها اليوم وهي في أزهىٰ أيام عزها وأبهىٰ أيام عمرانها وأشرق أيام ازدهارها.

(*) إسمي محمد أمين، والدي عبدالجبار حلمي بك بن إبراهيم حلمي أفندي المميز بن محمد بك (أخ محمد صالح بك الكبير، وهما إبنا إسماعيل بك الكبيرابن الوزير عبدالرحمن باشا والي كركوك). وعبدالرحمن باشا هذا هو زوج فاطمة خاتون بنت حسن باشا (والي بغداد لعشرين سنة من سنة ١١١٦-١١٣٦هـ / ١٧٠٤-١٧٢٣م) المشهور تأريخياً بفاتح همدان وهو ابن الوزير مصطفى باشا السباهي الأموي الأصل. وفاطمة خاتون هي عمة عادلة خاتون بنت أحمد باشا (والي بغداد لخمس وعشرين سنة من سنة ١١٤٩-١١٦١هـ/١٧٢٣-١٧٤٧م) المشهور تاريخياً بقاهر جيوش نادر شاه في حصار بغداد مرتين متعاقبتين. أما عادلة خاتون فأمها ابنة أمير عربي كما ذكر (لونگريك) في كتابه (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث)، وزوجها سليمان پاشا (والي بغداد لأثنتي عشر سنة من سنة ١١٦٢-١١٧٥هـ/١٧٤٨-١٧٦١م) المشهور بغدادياً: (أبو ليلة) لأنه كان يطوف في الليالي لحفظ الأمن في بغداد، أو يبلغت القبائل الثائرة بحملات ليلية.

توفيت عادلة خاتون سنة ١١٨٢ للهجرة بلا عقب، وقد كتب عنها الرحالة الألماني نيبور في كتابه رحلة في العراق: (أنها كانت تتحكم في مقدرات بغداد) يوم زارها سنة ١٧٦٦م. وقد أوقفت أملاكها الواسعة على جامعين هما جامع عادلة خاتون الكبير الواقع في محلة رأس القرية مقابل المحكمة الشرعية الذي شيدته سنة ١١٦٨هـ، والجامع الأخر وهو جامع عادلة خاتون الصغير الواقع في محلة الدنگچية (عگد الصخر) في شارع المأمون، مدخل سوق الصفافير مقابل المتحف البغدادي حالياً، والذي شيدنا بديلاً عنه في الصرافية سنة ١٣٨٢هـ بنفس الاسم بعد تهدمه ودخوله في مشاريع توسيع شارع المأمون. وكان أول المتولين على أوقاف عادلة خاتون محمد صالح بك الكبير الإبن الأرشد لعمة الواقفة المتوفىٰ سنة ١٢٧٤هـ والمدفون في جامع عادلة خاتون الكبير وهو الجد الأعلىٰ لعبدالقادر المميز بن الحاج عبدالوهاب بك بن قدوري بك المدفونين في جامع عادلة خاتون الكبير أيضاً. أما عادلة خاتون ووالدها أحمد پاشا وجدها حسن باشا فقد دفنوا في مقبرة الخيزران (الأعظمية) الى جوار مرقد الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وهو شرف لم يحظ به غيرهم من المسلمين. وقد ورد في مجلة «آفاق عربية» تشرين الثاني ١٩٨٠م للأستاذ عبدالجبار العمر ما يلي: «والحقيقة أن الذي يعرف بلاء هذين الرجلين في سبيل كرامة العراق لا يستكثر على قبريهما مجاورة قبر الإمام أبي حنيفة رحمه الله ويستهجن نقل رفاتهما في أي وقت من الأوقات».

- جدي إبراهيم حلمي بن محمد بك، ولد في الدنگچية وتوفي في الشامية سنة ١٩٠٥م ودفن في مدينة النجف الأشرف.
- والدي عبدالجبار حلمي ولد في الدنگچية وتوفي في الصرافية سنة ١٩٣٩ ودفن في مقبرة العائلة في جامع عادلة خاتون الكبير.

←——«

لقد كان عهد طفولتي وصباي من أحلك العهود التي مرت على بغداد، وقد مرت بغداد في تأريخها الطويل بفترات عصيبة جداً، فترات من الحروب والخطوب والغزوات والنكبات والملمات والاحتلالات والفيضانات والقهر والظلم والمرض والجوع والقحط والحرمان والدمار والحصار، وغير ذلك من الآفات الطبيعية والبشرية، فقارعت الأحداث وقاومتها وقاومت الزمن وقاومها فصمدت تجاه كل النوائب لتبعث اليوم بأزهى حللها وأبهى أيامها، تزهو وتفاخر مدن الدنيا وعواصم العالم طراً.

نعم، لقد كانت بغداد أيام طفولتي وصباي وشبابي في أوطأ درك من تأريخها الطويل، وأني عندما أتذكر تلك الأيام العجاف تستثار شجوني ويمتليء قلبي أسىً وفؤادي غصة وغماً و(يطلع دخان من خشمي).

- أخي الكبير المرحوم عبدالستار آخر المتولين على وقف عادلة خاتون حتى تصفيته سنة ١٩٥٨، ولد في الدنكچية وتوفي في الصرافية سنة ١٩٧٠ ودفن في مقبرة الشيخ معروف، ولده الوحيد رعد.
- أختي الحاجة أمينة من مواليد الدنكچية أيضاً.
- أخونا الرابع حافظ توفي في طفولته في الدنكچية وهو في الثالثة من عمره.
- زوجتي رفيعة إبنة خالي سيد جميل الفهد، من مواليد الفلوجة.
- أولادي: إبراهيم وفيصل وصالح وفؤاد وإبنتي سهى من مواليد الصرافية، بإستثناء فيصل فهو من مواليد لندن سنة ١٩٤٦.
- أعمامي: إسماعيل بك وصالح بك ولدا في الدنكچية وتوفيا فيها ودفنا في مقبرة الشيخ معروف.
- أخوالي: سيد جميل الفهد (رئيس بلدية الصكلاوية سابقاً) وسيد عبدالوهاب الفهد (مزارع في الفلوجة)، ولدا في الصكلاوية وتوفيا في الفلوجة ودفنا فيها، وعبدالعزيز عريم (رئيس بلدية الفلوجة سابقاً ونائبها في المجلس النيابي)، ولد في الرمادي وتوفي في الفلوجة، وصالح عريم (مزارع في الفلوجة) ولد في الفلوجة ودفن فيها.
- أمي جميلة بنت سيد فهد ولدت في الصكلاوية وتوفيت في الصرافية سنة ١٩٤٨ ودفنت في الفلوجة.
- جدي لأمي: سيد فهد بن سيد محمد العُكله من عشيرة (الچحّالة) (الكحّالة) وهي فخذ من عشيرة المحامدة من عشائر الدليم استوطنت عانه، عمل في الوظائف الإدارية، آخرها مدير ناحية عانه، عيّن فيها بتزكية من جدي لأبي إبراهيم أفندي المميز لصلة رحم بينهما، ولد في عانه ودفن في الفلوجة.
- جدتي لأبي: هاجر بنت سيد خضر، ولدت في محلة الصدرية في باب الشيخ وتوفيت في الدنكچية ودفنت في الشيخ معروف.
- جدتي لأمي: شكيرة بنت محمود الصباغ ولدت في الصكلاوية وتوفيت في الصرافيّة ودفنت في الفلوجة. وبعد وفاة زوجها الأول سيد فهد تزوّجت من الحاج علي عريم وأنجبت منه عبدالعزيز عريم وصالح عريم.
- أبي وأسلافه من الحنفيين، وأمي وأسلافها من السادة الحسنيين الشوافع، وأني أتبع المذهب الحنفي، مذهب أبي وأجدادي.

(**) الكراع ساق الحيوان، والگاع، الأرض، والمثل شعبي يضرب للتأكيد على أصالة الشخص وصحة نسبه والتصاقه بمسقط رأسه وسلامة انتمائه.

إن ذكرياتي عن بغداد في تلك الأيام هي ذكريات مرة، أشد مرارة منْ الحنظل والعلقم، بعضها باهتة جداً لا أتذكرها بوضوح وبعضها صارخة بقيت آثارها في نفسي حتى اليوم، وبعضها سمعت عنها فانطبعت بذاكرتي. ومن هذه الذكريات كانت الأيام التي تلت المشروطية (اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وخلع السلطان عبدالحميد الثاني) عندما وصل من اسطنبول شعار (حريت عدالت مساوات اخوت) فاستبشرت بغداد واستبشر العراقيون جميعاً خيراً، ولكن بين عشية وضحاها، وبعد تحكم حزب الاتحاد والترقي في رقاب رعايا الامبراطورية العثمانية من كافة القوميات والشعوب، أدرك البغداديون والعراقيون بأنهم لا يملكون حرية ولا عدالة ولا مساواة ولا اخوّة، فأصيبوا بخيبة أمل مريرة.

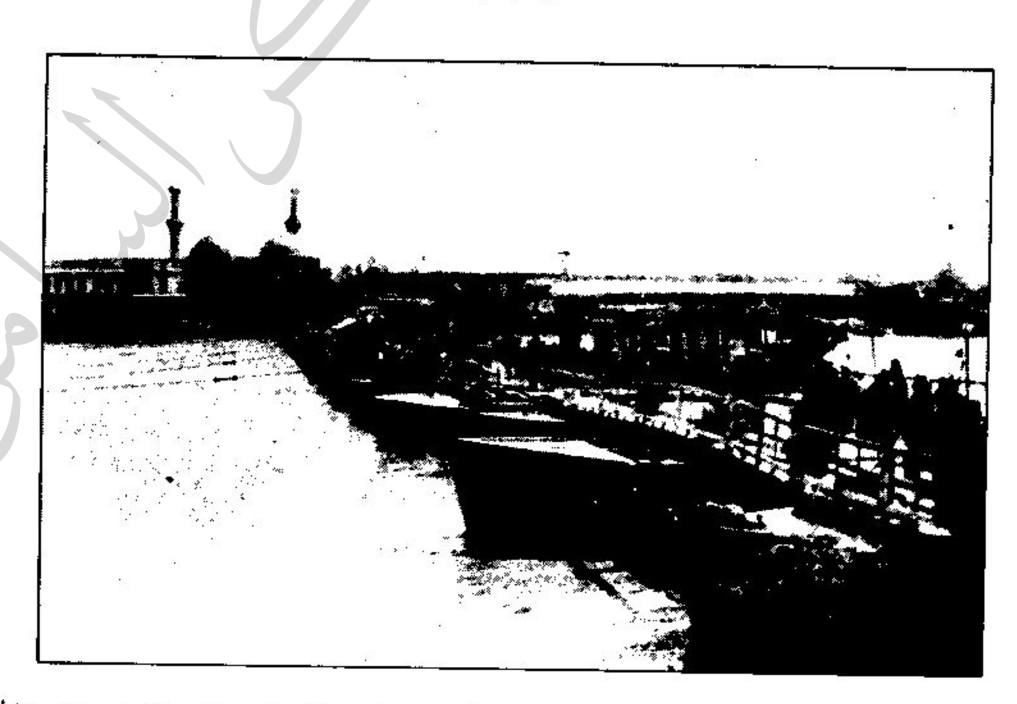
* * *

أتذكر بغداد في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى يوم كانت في أوج ظلامها الحالك، وأتذكرها جيداً يوم كان كل شيْ فيها بدائياً ومتأخراً وسيئاً، وكأنها تعيش في القرون الخوالي.

* * *

أتذكرها يوم كان فيها جسر واحد فقط من (الدُّوَب الخشبية العائمة)، وإذا ما انقطع هذا الجسر وهربت الدُوَبْ الى (گرارة)، أو نزلت (حدّار) الى البصرة، انقطع الاتصال بين صوبي الكرخ والرصافة الى ان تعود (الدُوَب) من حيث هربت مصحوبة بالمزيقة، وأرىٰ بغداد اليوم وفيها سبعة جسور حديدية ثابتة، ومثلها عدداً قيد التصميم والانشاء.(*)

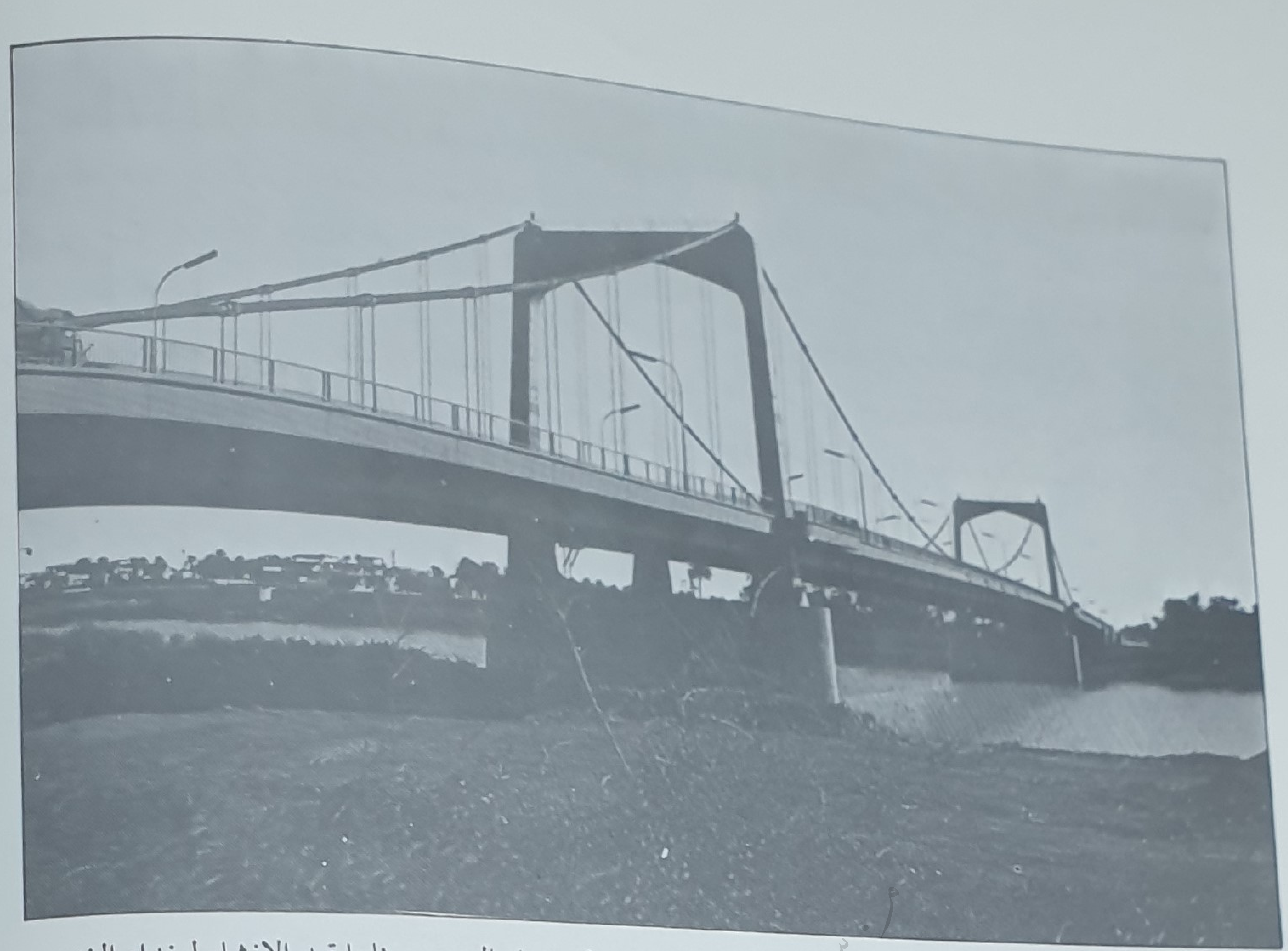
* * *



الجسر العائم فوق الماء، وكان الجسر الوحيد القائم في بغداد الأمس وهو ليس ذلك الجسر الذي قال فيه عليّ بن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوىٰ من حيث أدري ولا أدري

(*) من الجسور التي كانت قيد الانشاء عند المباشرة بكتابة الكتاب هما جسر ١٤ رمضان في الأعظمية وجسر الرشيد في محلة السنك ـ شارع الرشيد وقد جرى افتتاحها في أعياد تموز سنة ١٩٨٤، برعاية الرئيس صدام حسين.



الجسر المعلق في الهواء، وهو واحد من سبعة جسور حديدية قائمة في بغداد اليوم، ومثلها قيد الانشاء لبغداد الغد

جسر الشهداء، الذي حل محل الجسر (العتيگ) (الجسر العائم)، من جهة الكرخ..

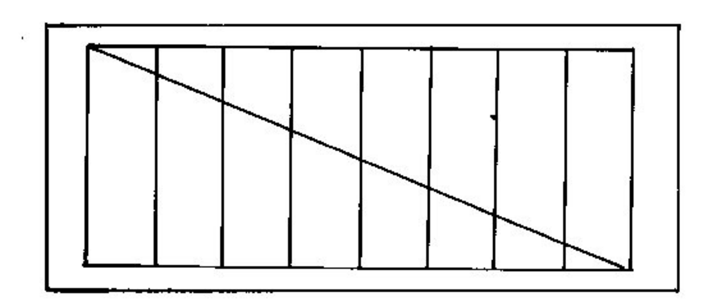
أتذكرها يوم كنا نستضيئ وندرس على ضوء الشمعة والقنديـل والفانـوس والّأداره واللاّلـة والآويزة، وعند وصول الكهرباء الى شارع الجسر احتفلنا به وصرنـا ندرس عـلى ضياء مصـابيح الشارع، وأراها اليوم وقد وصل الكهرباء الى كل بيت من بيوتها، والى القرية والريف والهور والبادية.

* * *

وأتذكرها يوم كان (السقا) يطوف (بگربته) يحملها على ظهره أو على ظهر حماره ليزود بها البيوت بماء النهر، ويؤشر على الحائط بباكورته حساب الدروب التي أوصلها الى كل بيت، وأراها اليوم وقد وصـل الماء الصـافي المعقم بالكلورين الى كـل بيت من بيوتهـا، وتعدّ قـوائم الحساب بـالحاسبـة الالكترونية.

* * *

السقّا الذي يحمل الگربة على الحمار وبيده الباكورة، ليوصل ماء الشرب من الشريعة الى دور السكن في بغداد الأمس



قائمة حساب (السقّا) المعدّة بالباكورة في (بيت الحباب) عن تجهيز عشر (گرب) ماي، في بغداد الأمس

ـنة بغداد   قائمة أجور

امين الصميدعي   6924
الطباء 43/1ق/118   00

المدة	القراءة السابقة	تاريخها	القراءة اللاحقة	تاريخها
	8777	830201	8877	830608

سعر الوحدة	تحديد الاستهلاك	اجور الماء الصافي	اجور الماء الخام
18	64	2 232	10 414
30	36		

رقم الحساب
14 214 997

القراءة	تاريخ الاصدار
2	83/10/ 1

المبلغ الحالي	المديون
14 016	

المجموع المطلوب	
فلس	دينار
14 016	

قائمة الحساب المعدّة بالحاسبة الألكترونية بموجب (العدّاد) في بغداد اليوم

أتذكرها يوم كان (النزّاح) يطوف أزقة بغداد ليفرغ محتويات البلاليع والمراحيض و (الچشمه) في الصلوخ وينقلها على ظهور الحمير، في حين لم يبق اليوم بيت من بيوت بغداد لم يربط الأنابيب بشبكة المجاري ولم يدفن (السبتك تانك) القديم، وما عليه الا ان يسدد حسابها ضمن قوائم حساب الماء الصافي المعدة بالكومبيوتر.

* * *

أتذكرها يوم لم يكن فيها شارع واحد مبلط أو مرصوف، باستثناء عگد الصخر (شارع الجسر) المرصوف بالصخر الجلمود الأسود؛ وأراها اليوم وقد بلطت آلاف الكيلو مترات في شوارعها أحدث تبليط، ولم يبق شارع من شوارعها أو زقاق من أزقتها لم تمر به فرق التبليط والصيانة التابعة لأمانة العاصمة مرة واحدة في السنة على الأقل.

* * *

أتذكر بغداد يوم اصطحبت عائلتي من محلة الدنگچية الى مرقد الشيخ عبدالقادر الگيلاني بعربة (تكلّكاتها)(*) مكسوة بالحديد، إذ لم تكن عربات الربل واللاندون قد وصلت الى بغداد بعد، وبعد سفرة استغرقت قرابة الساعة نزلت جدتي من العربانة وتنهدت من أثر التعب والمَغْل وقالت: «بني آدم طير ويحسد الطير»، وأنا أشاهد اليوم مئات الباصات الحمراء ذوات الطابقين والتكسيات الحديثة ذوات اللونين تطوف شوارع بغداد وتصل الى ابعد ناحية منها، كما أرى في بعض شوارعها لافتات

مكتوباً عليها (مترو بغداد) واخرى مكتوب عليها (السير السريع) تعلوها جسور عبور السابلة، وأضوية المرور الحمراء والخضراء والكهرمانية التي تعمل أوتوماتيكياً تسر الناظرين وتطمئن السائقين والراكبين على سلامتهم.

* * *

أتذكر بغداد يوم لم يكن فيها إلا سيارة واحدة من نوع (فورد ام اللوگية) هي سيارة الوالي خليل باشا، تسير في الشارع الوحيد الصالح لسير السيارة وهو الشارع الجديد الذي فتحه الوالي لهذا الغرض، وأذكر يوم كان (الگاري)(**) الذي يعمل بين بغداد والكاظم أسرع واسطة نقل في بغداد يومئذٍ، فيما أرى بغداد اليوم فيها مئات الآلاف من السيارات والباصات من كافة الانواع، تزخم الشوارع ولا تترك موطأ لقدم في الشارع أو على الرصيف.

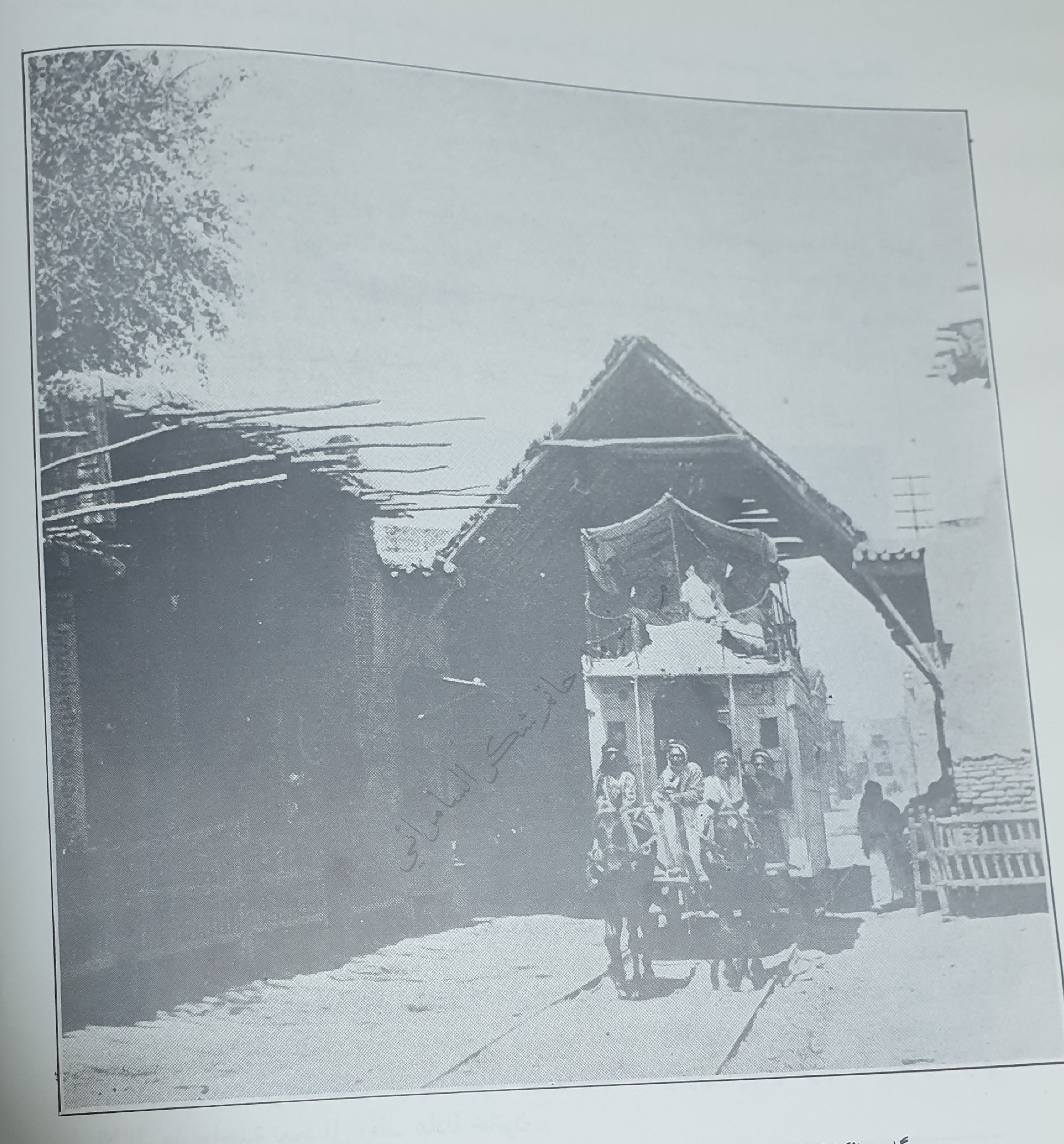


كان (التخت روان) واسطة النقل للأسفار البعيدة في عراق الأمس

أتذكر بغداد يوم كنا نمتطي ظهور الحمالين عندما تغدو العگود والدرابين والطرق سواقي وأنهاراً وبحيرات بعد كل مطرة، وأشاهدها اليوم وقد بلط أضيق عگد ودربونة فيها، حتى شمل التبليط (دربونة النملة) الواقعة خلف سينما الحمراء القديمة والبنگ المركزي حالياً والمعروفة بضيقها ولا تؤدي إلا الى دار واحدة تعود الى وقف عادلة خاتون.

(*) التكلّك هو دولاب العربة التي تجرها الخيول وغير مكسو بالمطاط (الربل).

(**) أذكر اني ركبت (الگاري) لأول مرة في حياتي وذلك عندما ذهبت الى قصر (أبو الأيل) تلبية لدعوة ابن صفي ابراهيم عبدالحسين الجلبي على أكلة (فسنجون) وقد استغرقت السفرة بين الكرخ وقصر أبو الأيل، بين الانتظار الى أن (يقبّط) الگاري وتبديل الخيل في المنطگة، والتوقف والنزول في موقف قصر أبو الأيل اكثر من ساعتين، ومع أن المسافة بين الكرخ والكاظم لا تزيد على ١٢ كيلو متر، ومع ذلك فقد رددت ما قالته جدتي من أن (بني آدم طير ويحسد الطير). [يقع قصر أبو الأيل بالقرب من تمثال عبدالمحسن الكاظمي في الوقت الحاضر.]



گاري الكاظم في بغداد الأمس ، الذي يقطع المسافة بين صوب الكرخ والكاظمية بحوالي الساعة
بضمنها الانتظار في (گهوة الگاريّات) وتبديل الخيل في (المنطگة) ، والتوقف في قصر (أبو الأيّل) ،
والنزول قرب (باب الدروازة) في الكاظمية .



باص مصلحة نقل الركاب ماركة (بغداد) الذي يقطع المسافة بين الكرخ والكاظمية بأقل من عشر دقائق في الحالات الاعتيادية

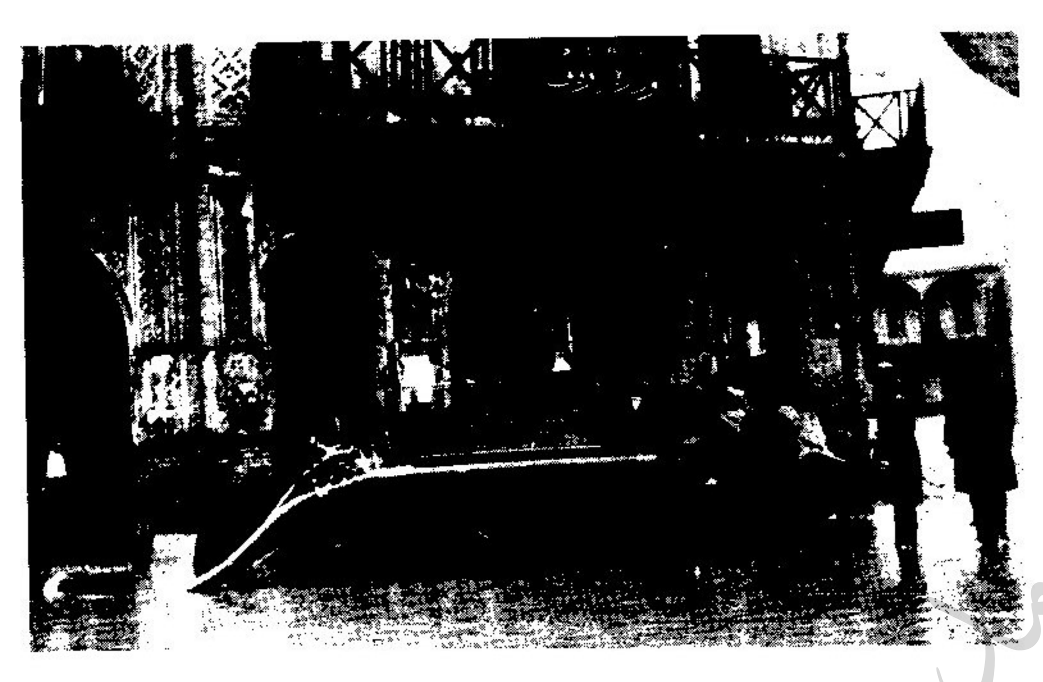


كان العراقيون يسافرون بالأمس بالتخت روان والكجاوه والكروان والگاري وعربانة أبو سبع فصاروا يسافرون اليوم بقطار الديزل الكهربائي وطائرات البوينك



شارع باب الشيخ ، من أهم شوارع بغداد الأمس
وفي موسم الأمطار يتحوّل الى نهر من الأوحال

تستغرق الرحلة بين الدنگچيّة وبين مرقد الشيخ عبدالقادر الگيلاني بعربة
(الربل) قرابة الساعة أيام زمان ، هذا إذا لم تكن الشوارع طافحة بالطين والوحل



عند هطول الأمطار تصبح شوارع بغداد أنهاراً، وحتى وزارات الدولة لا تسلم من السيول فتستعين بسيارات الاطفاء لسحب المياه. أما الأهالي فيستخدمون ظهور (الحمالين) لنقلهم من مكان الى آخر
(وزارة الأوقاف سنة ١٩٢٨ ـ موقع بناية أبو شيبة حالياً)

أتذكر بغداد يوم لم يكن في كل محلة من محلاتها إلاّ بضعة أشخاص يحسنون القراءة والكتابة، وفي بعض المحلات لا نجد شخصاً واحداً يقرأ ويكتب، وأراها اليوم وقد قاربت نسبة محو الامية المائة بالمائة، وقد لا نجد في السنة القادمة إن شاء الله بغدادياً أو عراقياً لا يقرأ ولا يكتب.

***

أتذكر بغداد يوم لم تكن فيها مدرسة واحدة للبنات ويوم قل أن يشاهد المرء بغدادية تطوف الاسواق وهي ليست مجللة بالسواد من قمة رأسها حتى أخمص قدميها باستثناء المخمرات منهن، كما ليس بينهن واحدة تقرأ وتكتب، واليوم أشاهد آلاف الطالبات العراقيات يتوجهن أو يغادرن كلياتهن وهن بزيّهن الموحد المحتشم: الجاكيت الأزرق والتنورة الرمادية، أو أشاهد الفتاة العراقية وهي تجوب الأسواق والمخازن، بالبلوز و (الجينز) الأزرق، وحين أدخل دائرة أو محكمة أو مستشفى أشاهد الموظفة وراء مكتبها، والقاضية على منصتها والمحامية بروب القضاء والطبيبة بصدريتها البيضاء و(الستاثا سكوب) يطوق عنقها. وأستبشر عندما أرى المجندات بزيهن العسكري المحتشم وهن يحملن غداراتهن ورشاشاتهن ويتدربن في ميادين التدريب.

***

أتذكر بغداد يوم لم يكن فيها غير طبيبين أهليين مؤهلين، هما الدكتور اليوناني يانقو والدكتور الايراني مرزا يعقوب: الأول يطوف على مرضاه راكباً حماره الأسود، والثاني يدور عليهم راكباً فرسه البيضاء، ثم جاء طبيبان تركيان هما الدكتور بلال والدكتور نظام الدين، وبعد الاحتلال تقاطر الأطباء الانگليز والهنود، **وأتذكرها** يوم لم يكن فيها طبيب أسنان واحد سوى اثنين من مركبي الاسنان هما عزة

بك الجراح والأوسطه ناصر، واليوم أرى مئات الأطباء وأطباء الأسنان يتخرجون في الجامعات العراقية والأجنبيّة كل عام.

***

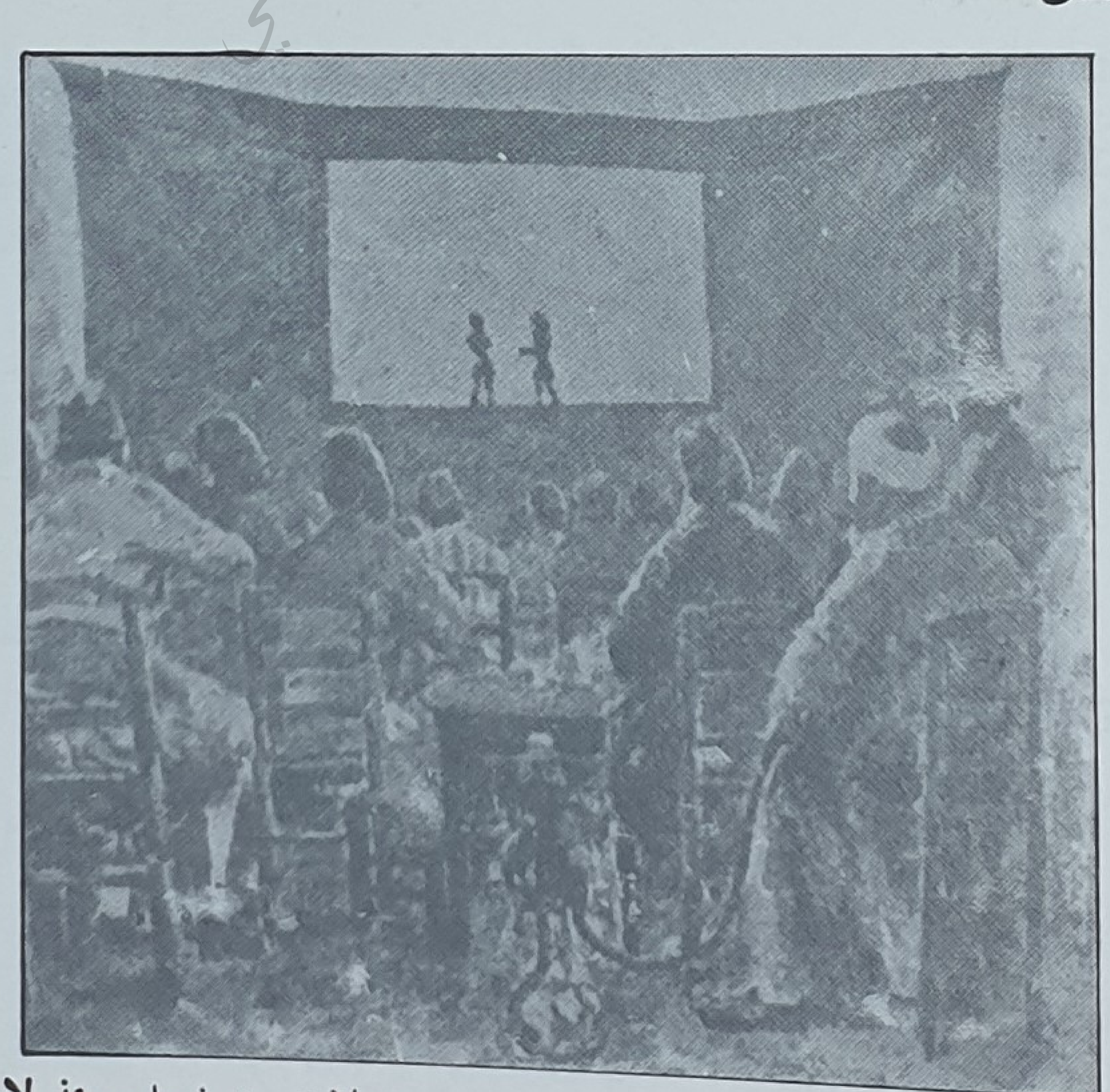
أتذكر بغداد يوم لم يكن فيها سوى خستخانة المجيدية وخستخانة اليهودي (مستشفى مير الياس سابقاً) في العلوازية، وخستخانة الغرباء في الكرخ، وأرى اليوم مدينة الطب وقد قامت مكان المستشفى الاولى كما تأسست عشرات المستشفيات والمستوصفات وهي مجهزة بأحدث ما توصل اليه الطب الحديث من أجهزة وأدوات وأدوية.

***

أتذكر بغداد يوم لم يكن في بيت من بيوتها تلفون، وربما لم يسمع أحد من البغداديين يومئذ باختراع مثل هذا الجهاز، واليوم أرى عشرات الآلاف من الارقام موزعة على البيوت وعشرات البدالات الأوتوماتيكية تشيّد والكابلوات تمد في كل شارع من شوارعها وزقاق من أزقتها. وإذا ما تعطل التلفون ساعة واحدة أقمنا الدنيا واقعدناها على مصلحة التلفونات لأصلاح العطب فوراً!!

***

أتذكر بغداد يوم كنا ننام بعد صلاة العشاء وليس في بيوتنا راديو أو تلفزيون نقضي السهرة معه، سوى القرگوز(*)(خيال الظل) والفونغراف الذي يعمل بالأسطوانات اللولبية وألعاب المنقلة والدومنة والطاولي والاسقنبيل أو نقصد احدى المقاهي للاستماع الى القصّخون(**). واليوم نشاهد البرامج التلفزيونية تصلنا عبر الأقمار الصناعية من كافة أرجاء الدنيا، وتستمر الاذاعة والبث الى ما بعد منتصف الليل، وقل ان تجد بيتاً في بغداد ليس فيه (فيديو) او مسجل أو الاثنين معاً مع أعداد لا تحصى من الكاسيتات للجهازين.



رسم تشكيلي للقرگوز، وهو إحدى تسلياتنا في بغداد أيام زمان، حيث لا توجد فيها يومئذٍ لا سينما ولا تلفزيون ولا هم يحزنون!

أذكر بغداد يوم كان المسافرون والزوار والسوّاح يقيمون في المسافرخانات وحجر الخانات واليوم أشاهد عمارات فنادق عشتار شيراتون وفلسطين مريديان والسدير نوفوتيل وميليا المنصور وبابل والرشيد تناطح السحاب.

***

أذكر بغداد يوم لم يكن في نهر دجلة غير البلام والگفف والمهيْلات والچلاچ وأشاهد اليوم البواخر السياحية المتلألئة تغدو وتروح بين شارع أبي نؤاس وكورنيش الأعظمية والموتورات والقوارب والبلام التي تسيّرها المحركات تكاد تطغىٰ على سطح دجلة.

***

أذكر بغداد يوم كنا نقصد الأسواق ونعود خالي الوفاض، وأرىٰ اليوم أسواق بغداد ومخازنها زاخرة بكل ما لذ وطاب من الفواكه والمخضرات والمعلبات والمرطبات والچرزات(***)، وسائر مستلزمات الاكل والشرب والتموين.

***

أذكر بغداد يوم كان الجندي يعيش على (القلاطة) ويتسربل شتاءاً بالبطانية التي ينام بها ايضاً، وتغطي رأسه (كوليته) لا تقيه حراً ولا برداً، واليوم أشاهد الجندي وكل أنواع الطعام والشراب بمتناول يده ويرتدي أدفأ القمصلات ويغطي رأسه حتى أذنيه بأنواع أغطية الرأس الصوفية أو المعدنية، ويحتذي (بسطالاً) هو أفخر ما تنتجه معامل الأحذية العسكرية.

***

أذكر بغداد يوم كان يرسلني أهلي الى سوگ (المولهخانه) لشراء بطل حليب أو كاسة لبن خاثر أو روبه أو ربع گيمر أو نص ربع زبد، وصرت أرىٰ في بغداد الحديثة صناديق الحليب وكارتونات الگيمر واللبن بأنواعه والاجبان بأنواعها كانت توصلها سيارات مصلحة الألبان وبأية كمية أريد الى باب داري!

***

(*) القرگوز: أو خيال الظل، يشبه الصور المتحركة أو (الميكي ماوس) وتحرك صور الأشخاص والحيوانات المقطوعة من ورق المقوىٰ من وراء شاشة خلفها مصباح، بعيدان رفيعة من قبل معلّق يجلس خلف الشاشة، وقد بقيت لدينا بعض منها الى ما قبل عشرين عاماً ثم اهترأت.

(**) كنا نقصد گهوة بيت الپاچهچي الواقعة في مدخل جسر مود (محل شريف وحداد حالياً) للأستماع الى القصّخون وهو جالس على كرسي مرتفع ويقرأ من كتاب قصص أبو زيد الهلالي وعنترة بن شداد. ويختم الفصل بخاتمة مثيرة ليحملنا على ارتياد المقهىٰ في اليوم التالي، وهكذا دواليك. وفي سورية ولبنان يسمون القصخون (حكواتي).

(***) في الأردن يسمون الچرزات (تسالي) من التسلية أو المكسّرات.

أذكر بغداد يوم لم تكن فيها ساحة أو حديقة، ويوم كنا نلعب بالأزقة والدرابين وفي الخرابة المقابلة للقشلة والمجاورة لأمانة العاصمة القديمة، والتي ليست إلّا مزبلة لرمي الأنقاض والسيان وسقط المتاع، أو نلعب في داخل بيوتنا، وأشاهد اليوم ملعب الشعب وحديقة الزوراء ومدينة الألعاب ولا أكاد أصدق عيني.

* * *

أذكر بغداد يوم كنا نقصد سوگ حنون أو خان الدجاج لشراء الدجاج الذي يقوم رب البيت أو احد أنجاله البالغين بذبحه وتقوم ربة البيت بسمطه وهلسه، وأرى اليوم كارتونات الدجاج المذبوح والمنظف والمجمد والمجهز من حقول دواجن الدولة أو حقول القطاع الخاص أو المستورد مما وراء البحار والجاهز للطبخ دون ما عناء وبأرخص الأسعار، على الرغم من العدوان الايراني على الوطن . .

* * *

أذكر بغداد يوم كنا نسمّد الخس واللهانة والقرنابيط والشلغم والكَلَمْ والالمازيّه وسائر المخضرات من فصيلة (الطرماهي) بالزبل والخنس ومحتويات (الچشمات) التي كان النزّاحون يبيعونها للمزارعين وينقلونها بـ (الصلوخ الجايفه) على ظهور الحمير التي تتدافع مع المواطنين في الأزقة والشوارع حاملة معها ميكروب (الأميبيا) الذي سبب تفشي مرض الزحار (الديزانتري) بين البغداديين، واليوم أرى السماد الكيمياوي الناصع البياض المغلف بالأكياس الأنصع بياضاً تباع للمزارعين بأرخص الاثمان وتؤدي الى أفضل النتائج الغذائية والصحية.

* * *

أذكر بغداد يوم كان معظم البغداديين محرومين حتى من رؤية الزهرة والوردة وإذا ما تكرّم على أحدهم صديق من الذين فضل الله عليهم وله بستان أو حديقة وأهدى له شدة ورد او اذا حالفه الحظ والتقى بـ (كرّادي) يبيع شدّات ورد (الأشرفي والجوري وسلطان الورود)، كان ذلك اليوم من أسعد أيام حياته، واليوم أشاهد معارض الزهور منتشرة في بغداد تعرض أنفس وأزهى أنواع الزهور المستوردة بالطائرات من بيروت أو من هولندة أو من فرنسة كالقرنفل والروز والكلاديولا والماگنوليا والبيگونيا والگاردينيا والأوركيد والداليا والدافوديل وشتى أنواع زهور الأبصال، وباقاتها وأكاليلها تزين الدور والفنادق والدوائر الرسمية وغرف المرضى في المستشفيات وأستوديوهات التلفزيون، وحفلات الأعراس والمناسبات اليوبيلية وغيرها من المناسبات الاجتماعية(*) والرسمية.

* * *

أذكر بغداد يوم كان بعض الموظفين لا يتقاضون رواتبهم الشهرية إلّا مرة أو مرتين في السنة، وأرى اليوم الموظفين والمتقاعدين يقبضون رواتبهم قبل حلول رأس الشهر بأسبوع أو أكثر.

* * *

أذكر بغداد يوم وصفها الرصافي بقوله:

ايا سائلاً عنا ببغداد إننا   بهائم في بيداء اعوزها النبت

وأرى اليوم كل بغدادي يعتز ببغداديته وكل عراقي يفخر بعراقيته.

***

أذكر بغداد يوم كان الفساد متفشياً والرشوة ضاربة أطنابها في كل مرفق من مرافق الدولة ولا تنجز معاملة إلّا بالرشوة والقوميسيون، واليوم أسمع عن بعض كبار المسؤولين معلقين على أعواد المشانق لاقترافهم جرائم مماثلة.

***

أذكر بغداد يوم كنا نمر من أمام گهوة سيد بكر (قهوة القلعة، محل بناية مصلحة إسالة الماء سابقاً) في طريقنا الى بستان الصرافية ونشاهد الخرسين والطرشين مجتمعين في هذه الگهوة يكلم بعضهم البعض بالومي او بالهمس او بالاشارة، ولا من يرعىٰ شؤونهم ويقوم بأودهم، وأرى اليوم معهد رمزي للصم والبكم ومعاهد ومستشفيات المتخلفين والمجذوبين والمعوقين وغيرها من المعاهد الصحية منتشرة في أرجاء بغداد، وتقوم الدولة بأودهم وتجهيزهم بالآلات والأجهزة الفنية وحتى بتزويد البعض منهم بالسيارات الأوتوماتيكية.

***

أذكر بغداد يوم ناهزت نفوسها سنة ١٩١٧ المائتي الف نسمة وأشاهدها اليوم وقد قاربت نفوسها الأربعة ملايين نسمة.

* * *

أذكر بغداد يوم كان البغدادي لا يعرف من المشروبات غير العرگ (أبو العُگده) الخصوصي وعرگ مسيح الاعتيادي وعرگ هبهب القجغ وعرگ الدوبارة والعرگ الزحلاوي الوارد من سورية ولبنان، واليوم يدخل الى السوق المركزي وأورزدي باك والسوق الحرة فيجد أمامه مجموعه من أجود أنواع الويسكي الاسكتلندي وأعتق أنواع الشراب الفرنسي وأغلىٰ أنواع البراندي وأندر أنواع الليكور الفرنسي والألماني وأنفس أنواع الشيري الاسباني والبورت البرتغالي والـ (رام) الجامايكي والفودكا الروسية وشتىٰ أنواع البيرة الوطنية والأجنبية.

* * *

(*) لأضرب مثلاً عن بغداد في الأمس القريب، وبغداد اليوم. بمناسبة عيد الميلاد سنة ١٩٤٧ أقيمت في واشنطن حفلة لأطفال السلك الدبلوماسي، وطلب منظموا الحفلة من والد كل طفل أن يعطي عنوان بائع زهور في بلدته ليبرقوا إليه بارسال باقة زهور الى أحد أصدقاء أو أقرباء الطفل بمناسبة العيد. فخجلت أن أقول بأنه ليس في بغداد بائع زهور، وتذكرت أنه كان يجلس في مدخل أوتيل سميراميس القديم (كرّادي) يبيع شدّات ورد جوري وأشرفي وسلطان الورود، فأعطيت إسم الأوتيل المذكور، وأرسلت البرقية إليه فأشترىٰ باقة الزهور من ذلك الكرّادي وأرسلها الى ابنة عم ولدي وأرسل القائمة الى منظمي الحفلة وسددت اليه.

أذكر بغداد يوم كان البغداديون لا يذوقون التتن إلّا في سكاير (أم الزبانة) المتروسة بالتتن الشاور أو (السبيل) المصنوع من الطين المفخور أو في السكاير التي يلفونها بأيديهم بورق دفتر البافرة ويولعونها بالزناد والصخرة أو بالجداحة أمِ قيطان الأحمر، أو في النركيلة المعدة من التنباك الهندي أو (أبو جلود) (و (الشيرازي)(*). والبوم أرى البغداديين وهم يحملون باكيتات الروثمان وغيرها من السكاير الانگليزية والأمريكية المصنوعة من تتن (فرجينيا) ويولعونها بقداحات رونسون أو دانهيل أو (وين) وكثيرون منهم يدخنون سيكار هافانا أو السيكار الهولندي أو (الپايب) المنحوت من خشب الابانوس المعطر والمحشو بتنباك (أبو البحار) (و (أبو المربعات الأربع) أو غيرهما من أنواع التنباك المخمر ذي الرائحة الزكية.

* * *

أذكر بغداد يوم كنا نبني بالطين والنورة ورماد الطمّة وجص (العبادي) وطابوگ (الكاظم) الأحمر، واليوم أشاهد عشرات المَدْخَنات ترتفع من معامل السمنت والطابوق الجيري والثرمستون وهي تنفث أدخنتها في كبد السماء من السليمانية والموصل شمالاً حتى السماوة والبصرة جنوباً.

* * *

أذكر أن شيئاً واحداً لم يتغير عند البغداديين والعراقيين، ذلك هو التباين الصارخ في غطاء الرأس، فأن العگال بأنواعه واليشماغ والجزّية والچرّاوية على اختلاف لفّاتها، والعرقچين والگاورية والغُطْرة والكشيدة والكُلاوْ والعمامة والسَيديّة والفينة والبرنيطة والكاسكيت والبيرية وكل ما يخطر على البال، هي هي لم تتغير لا في بغداد القديمة ولا في بغداد الحديثة، لا في العراق القديم ولا في العراق الحديث. ولما جاءت السدارة لتكون شعاراً يوحّد العراقيين ويميّزهم عن غيرهم، سرعان ما اندثرت وبطل استعمالها، ولا نشاهدها اليوم إلّا على رؤوس الممثلين والمغنين والچالغچيّة(**) في التلفزيون أو على رؤوس عدد من المتقاعدين في المقاهي والشوارع والذين يعتزّون عادة بكل قديم.

* * *

أذكر بغداد يوم كانت نسبة وفيات الأطفال فيها تتراوح بين ٢٠٪ و٥٠٪، وفي بعض المجتمعات الشعبية تصل الى أعلىٰ من ذلك بكثير. لقد كنا أربعة أطفال لوالدينا ومات الأخ الأصغر باختلاطات مرض الحصبة ولما يبلغ الربيع الثالث من عمره، أي أن النسبة لعائلتنا كانت ٢٥٪. فلو

(*) الشيرازي يسمىٰ في سوريا ولبنان (تنباگ عجمي) وهو المفضل هناك. اما (ابو جلود) فهو المفضّل في العراق لرائحته الزكيّة. أما الهندي فيعرف في العراق (غراش) ولذلك تسمىٰ النركيلة (الغرشه) في بعض أنحاء العراق كلواء الدليم (الأنبار) مثلاً. وقد خلّدها البيت القائل:

تـگـلّي المسِـعْـدَه الغـرشـه ثِـلـج بيـهـا   نيـران گـلبـي تـوهّـجت وبّيش أطـفيّـهـا

(**) الممثلون الذين يرتدون السدارة في الأدوار الازدرائيّه والتهكمية أمثال يوسف العاني وخليل شوقي وخليل الرفاعي وسليم البصري وراسم الجميلي وغيرهم كثيرون. والچالغچيّة أمثال عبدالله علي وشعّوبي وعلي الدبّو، والمغنون أمثال يوسف عمر وحمزة السعداوي وعبدالقادر النجار وفوزي سعيد وعلي رزوقي ومحمود حسين وحسين اسماعيل وكثيرون غيرهم. وكأنما كانت السدارة وقفاً على هذه الطبقة من الشعب العراقي دون غيرهم.

كان في بغداد يومئذ طبيب واحد للأطفال لأمكن انتشال ذلك الطفل البريء من براثن الموت. وكل ما قامت به الأم من علاج ووقاية هي أنها (برگعته) بالپشطمال الأحمر وطافت به درابين بغداد وأزقة الدنگچيّة وعبرت به الجسر. أما في بغداد اليوم فأن نسبة وفيات الأطفال تكاد لا تذكر، إذ كل أم عراقية مهما كانت درجة ثقافتها صارت تلّم بكافة وصايا صحة الأطفال مما تسمعه من الراديو أو تشاهده على شاشة التلفزيون ولا يفوتها أن تلقح طفلها (بي. سي. جي) أو باللقاح الثلاثي ولا تتوانى عن عرضه على أطباء الأطفال الذين يعدّون اليوم بالمئات، حالما يلّمّ بطفلها مرض ما. غير أن الأم العراقية تلام على أمر واحد هو الاعتماد على الحليب المجفف لتغذية طفلها وليس على ثديها، فأن أمهاتنا لم تسمع بحليب الميلاك والسريلاك والنيدو والنستلة وعشرات الأنواع الأخرى المعروضة في الأسواق مما استعاضته الأم الحديثة، مع الأسف، عن ثديها لارضاع طفلها.

* * *

أذكر بغداد يوم لم يكن فيها دائرة منتظمة لتسجيل النفوس والولادات والوفيات، ومعظم مواليد بغداد في أوائل القرن الحالي لا يعلمون التواريخ المضبوطة لميلادهم، فيقولون عند الاقتضاء (والله أعلم) أو يقرنون التواريخ بأحد الأحداث التأريخية كأن يقول البغدادي مثلاً: ولدت سنة حكم ناظم پاشا، أو ولدت بعد الطاعون بسنة واحدة أو بعد سنة أبو زوعة بسنتين، أو يقول ولدت سنة إنكسرت سدّة السرية وغرگت بغداد أو سنة (السفربر، أو سنة (لوفه) أو سنة (الجهجهون) أو سنة السقوط، أو أن يقول كنت صبياً سنة كتلة لچمن... الخ)(*)

إن بعض العوائل العراقية اعتادت تسجيل تواريخ ميلاد أبنائها على غلاف القرآن الكريم تبركاً وتيمناً، ويكتب التأريخ عادة حسب التقويم الرومي (الگريگوري) الذي كان التأريخ الرسمي للدولة العثمانية قبل اتباع التقويم الميلادي، وبعض العوائل كانت تكتفي بابلاغ مختار المحلة بالولادات. أما الوفيّات فكانت تسجل أما على مرمرة القبر أو في القسّام الشرعي الذي يستخرج من المحكمة الشرعية لتثبيت الأرث أو النسب، ويكون تسجيل تأريخ الوفاة بالتأريخ الهجري عادة.

لقد كانت عائلتنا إحدى العوائل البغدادية التي تسجل الولادات على غلاف القرآن الكريم وقد استندنا الى ذلك التأريخ في استصدار العثمانية (شهادة الجنسية العراقية)؛ وأرى بغداد اليوم ولكل مواطن صفحة خاصة في سجل النفوس يدوّن فيها اليوم والشهر والسنة بالتاريخ الميلادي ويزود كل مواطن بهوية شخصية تعدّ وفق أدق المعلومات وبأحدث الأجهزة الألكترونية وتشتمل على كل صغيرة وكبيرة من حياة المواطن وخصوصياته، كما هو الحال في أي قطر متحضر في العالم.

* * *

(*) سنة لوفة: هي سنة (مَحْل) إنحبس فيها المطر وساد العراق وخاصة لواء الدليم قحط شديد. الجهجهون: اصطلاح معروف في لواء ديالى للدلالة على ثورة العشرين. سنة السقوط: أي سقوط بغداد في مارت ١٩١٧. سنة كتلة لچمن: أي مقتل الكولونيل لچمن في آب ١٩٢٠ في مركز شرطة (النقطة) المجاور لخان ضاري في أبو منيصير من قبل الشيخ ضاري المحمود وولده سليمان.

أذكر بغداد يوم كنت أحمل (العلاّگه) الملأى بالتبن وأقصد شريعة الصنائع (الواقعة بين مدرسة الصنائع القديمة ـ قصر الثقافة حالياً وبين نادي القلوب ـ النادي العسكري حالياً) لأشتري ربع قالب ثلج(*) من المضخة التي نصبها مدحت پاشا وادفنه بالتبن لئلا يذوب قبل وصولي البيت، لنبرد فيه الشنينة او شربت قمر الدين او الاسكنجبيل او الخوشاب او الصاوغلوغ(**) وقت الأفطار، إذ كان رمضان يحل حينئذٍ في اشهر الصيف الحنّاني؛ واليوم لا يوجد بيت من بيوت بغداد إلاّ وفيه الثلاجة أو المجمدة أو الأثنتين معاً، أو مبردة الماء الكهربائية ومبردة الهواء، وكثير من البيوت مزودة بمكيفات الهواء (إيركونديشن) وبعضها مجهز بجهاز تبريد مركزي. وبغداديو اليوم يفطرون رمضان الذي يحل الآن بعد سبعين سنة من تلكم السنين العجاف، وعلى موائد افطارهم ألوان المثلجات والمرطبات المبردة والهواء المبرد او المكيف، يقارعون بها حر الصيف البغدادي القاسي، فيأكلون مريئاً ويشربون هنيئاً ويشكرون من يَسَّرَ لهم هذه النعم.

* * *

أذكر بغداد يوم كانت مباريات كرة القدم بين المدارس تجري في باحة القلعة (وزارة الدفاع حالياً) ثم انتقلت الى ساحة الصالحية (موقع المتحف العراقي حالياً) المسيجة بالطوف، ثم انتقلت الى ساحة الكشافة الحالية المسيجة بالأسلاك الشائكة، وأرى اليوم مباريات كرة القدم تجري بين فرقنا الوطنية والفرق العالمية في أحدث (ستاد) شيد في الشرق الأوسط، هو ملعب الشعب.

* * *

أذكر بغداد يوم تأسست بعد الأحتلال أول سينما في بغداد وكانت لا تتسع لأكثر من مائة مشاهد، تقع في شارع النهر (مقابل أوروزدي باك القديم) ثم تأسست بعدها السينمات الثلاث في شارع الرشيد وهي: رويال سينما (مقابل ساحة الرصافي) والسينما الوطني (كان مقابل شركة المخازن العراقية) وسنترال سينما (مقابل ساحة الوثبة ومحل حافظ القاضي). واليوم يصعب عليّ تعداد السينمات في بغداد لكثرتها، هذا عدا السينمات الخاصة بالنوادي والجمعيات.

* * *

(*) تولى مدحت پاشا ولاية بغداد مدة ثلاث سنوات، قام بأصلاحات عظيمة ما زالت آثارها ماثلة حتى اليوم. ومن جملة أعماله نصب ماكنة لتوزيع الماء على الدور والقصور وفي نفس الوقت لصنع الثلج في فصل الصيف، وكان الماء الخابط يصفى حينئذ بالشب ولم يكن لا كلورين ولا آزون.. ولا هم يحزنون!!

كان ذلك قبل سنين طويلة من تأسيس معمل عبدعلي الهندي في منطقة الكسرة حالياً لصنع الثلج وفق الطرق الحديثة وتوفيره لسكان بغداد. ثم تأسست بعده معامل اخرى في جانبي الرصافة والكرخ، وكان (صندوق الثلج) يستعمل لتبريد الماء وحفظ الفواكه والاطعمة قبل وصول الثلاجة والمجمدة الى البيوت البغدادية، بعد أن كان الماء يبرد في (الزنبور) والبوّاگه أو في (التُنَكْ) التي توضع على (التيغة) ليلاً ليحصل البغدادي على الماء (البيوتي) البارد في اليوم التالي.

(**) الشنينة: هي اللبن المخفف بالماء وهي أخف من الروبة والخاثر (اليوكرت) واللبن الزبادي واللبن الناشف (اللبنه).

الاسكنجبيل: شراب ذو نكهة طيبة حلو المذاق، يشرب إما مخففاً بالماء أو يؤكل مركزاً مع الخس.

الخوشاب: شراب خفيف حامض ـ حلو.

الصاوغ لوغ: كلمة تركية تطلق على الفواكه المطبوخة كالتفاح والمنجاص والخوخ وتحل بالسكر الذائب بالماء(الشيره) وتعرف بالغرب (كومبوت) وكلها من مكملات موائد رمضان.

أذكر بغداد يوم كان البغداديون يحملون (بقچ المناشف) على رؤوسهم ولوازم الحمام الأخرىٰ بأيديهم ويقصدون الحمامات العامة للأغتسال والأستحمام والتدليك وخاصة في فصل الشتاء، وتحضرني اسماء الحمامات التي ترددت عليها في طفولتي وصباي وشبابي وهي: حمّام كچّو في باب الآغا، حمّام الپاشا في الميدان، حمّام الحيدرخانة، وحمّام يتيّمْ في الكرخ، وحمّام القاضي بجوار المحكمة الشرعية (شارع المستنصر حالياً) وحمام التيلخانه، وغيرها وكلها مجهزة بالمياه المسخنة (بفشقي الطمّة)، واليوم أرى لكل بيت بغدادي حمّامه الخاص وبعض البيوت فيها عدة حمّامات شرقية وغربية وبعضها فيها حمامات بقدر عدد غرف النوم، مجهزة بالمياه المسخنة بالكهرباء أو الغاز أو النفط.

* * * * *

لعلّ أكثر أيام بغداد اسوداداً وحُلْكة هي الأيام الكائنة بين دخول تركيا الحرب العالمية الأولىٰ سنة ١٩١٤ وبين سقوط بغداد بيد الانگليز في شهر مارت سنة ١٩١٧، فقد قاست بغداد والبغداديون الأمرّين في هذه الفترة، وخاصة ليلة ١٠ ـ ١١ مارت، إذ توالت عليها الأهوال والنكبات والفواجع والجوع والقحط والحرمان وشقاء الزمان مما لم تشهد مثله منذ أن اجتاحها هولاكو سنة ١٢٥٨م، يوم جعل من رؤوس أهلها جبالاً من الجماجم وجعل من نهر دجلة نهراً أسود من كثرة ما رمي فيه من كتب ومخطوطات.

***

أذكر بغداد يوم جُندّ الآلاف من خيرة شبابها وأرسلوا الى جبهة القفقاس فهلكوا في جبالها وثلوجها ولم يعد لبغداد (نفاخ نار).

***

أذكر بغداد وفي كل بيت يتيم ينتحب وأرملة تنوح وثكلى تندب وتلطم لفقدان وحيدها.

***

أذكر بغداد يوم رافقتُ والدي وأنا أحمل (عِلاگة) ملأىٰ بالليرات التركية الورقية لنشتري من سوگ المَوله‌خانه أوگيةْ شَكَر أو رُبُعْ چايْ أو راسْ جِبِنْ أو حَفْنَة تَمُرْ أو لَطْعَة گيمَرْ.

***

أذكر بغداد يوم رافقت والدتي الى فرن في باب الآغا جوار حمّام كچوّ في يوم من أيام القحط، فرأيت عشرات النسوة يمددن أذرعهن نحو الفرّان وباليد الواحدة شهادة من المختار تؤيد عدد أفراد العائلة، وفي اليد الأخرىٰ ثمن صمونة واحدة للفرد الواحد في اليوم الواحد، ولغطهن وعياطهن وتوسلاتهن تطحن القلوب وتصمّ الآذان.

***

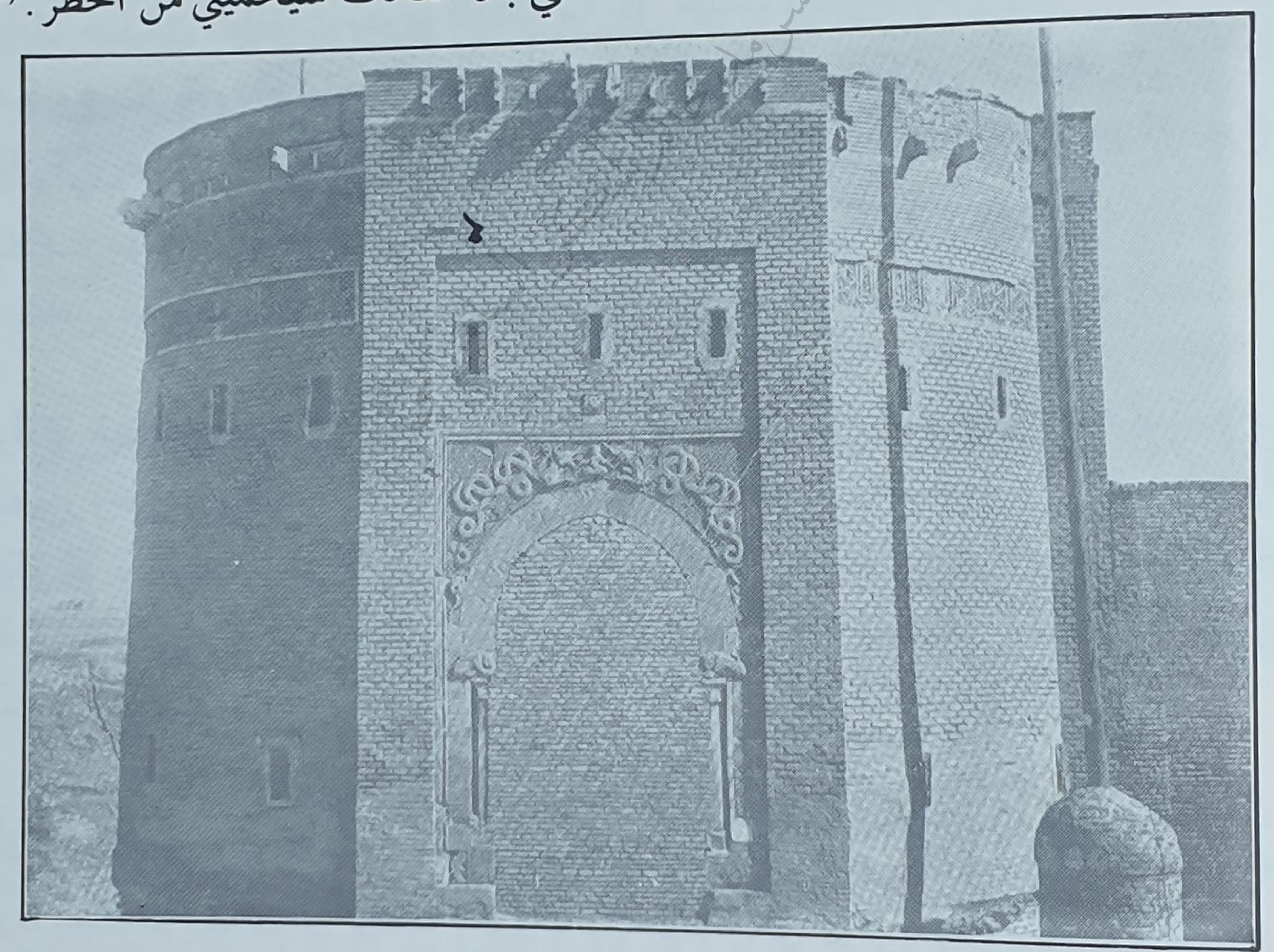
أذكر بغداد يوم أمر الوالي خليل باشا بفتح الشارع الذي سمي باسمه (خليل باشا جادّه سي)، وعملت المعاول ليلاً في هدم دور وحوانيت الحيدرخانة على رؤوس ساكنيها، حتى إذا أصبح الصباح كان منظر البيوت وآثاثها المبعثرة والدكاكين وبضائعها المتناثرة، مشهداً يُدمي القلوب ويفتت الاكباد، وليس في بغداد من يصغي الى شكاواهم وتظلماتهم، واليوم أرى بعيني وأسمع بأذني أن رئيس الجمهورية يصغي يومياً الى ألوف الشكاوى والتظلمات والأسترحامات من المواطنين ويبت فيها على الفور[*]

***

أذكر بغداد في تلك الليلة المشؤومة، ليلة انسحاب الجيش التركي ودخول الجيش البريطاني في ١١ مارت ١٩١٧ لما قاسينا محناً وأهوالاً لم يقاسها شعبٌ من شعوب الأرض.

* * *

أذكرها ساعة انفجار مستودع البارود في باب الطلّسم، عندما اهتزت بغداد من أقصاها الى أدناها، وأذكر تلك الساعة الرهيبة التي سمعت فيها ذلك الدويّ الهائل، فخبأت رأسي تحت اللحاف وأنا ارتجف وأرتعد وأبكي من هول ما سمعت، ظناً مني بأن اللحاف سيحميني من الخطر.[**]



باب الطلّسم، المعروف تأريخياً بباب الحلبة، وهو مخزن البارود الذي فجّره الأتراك ليلة انسحابهم من بغداد في ١١ مارت سنة ١٩١٧ ولشدة دوي الانفجار، التحفت بلحافي ظناً مني بأن اللحاف سيعصمني من الخطر.
وقد أوصل تفاصيل الانفجار الى الدنگچيّة (توفيق أجانص) مختار محلة الطوب

(*) بلغ عدد مقابلات الرئيس صدام حسين للأستماع الى شكاوي المواطنين وتظلّماتهم خلال شهر كانون الثاني ١٩٨٣ فقط (٤٦٧) مقابلة [جريدة العراق في ٨٣/٣/٩].

كما أذكرها في تلك الليلة عندما اشتعلت النار في خان الرماح الكبير الواقع في سوق السراي، والوهج ينعكس على فناء دارنا فينيرها، وأذكر الفرهود والفوضىٰ التي رافقت الحريق، عندما أخذ الناس يتراكضون وهم يحملون كل ما خف أو ثقل حمله، من دكاكين وخانات المولهخانة وسوق السراي وسوق البزّازين ومخزن الگمرك في المستنصرية.

* * *

أذكرها لما نادىٰ المنادي بلزوم تسليم المنهوبات خلال بضع ساعات وإلّا تعرض لعقوبة الأعدام كل من عثر بحيازته على شئ منها.

* * *

أذكرها لما أعلنت السلطات العسكرية لزوم تسليم كل من كان بحيازته سلاح مهما كان نوعه: تُفگه، وَرْوَرْ، پشْتاوه، قامة، سيف، خنجر، چنتيانه، أُگلُنْگ، أو أية آلة جارحة ويقع تحت طائلة عقوبة الأعدام كل من يعثر في داره على شئ منها، وأذكر أكداس الأسلحة مكوّمة في مدخل دربونة الدنگچية.

* * *

وأذكر صليات الطلقات ودوي المدافع من كل حدب وصوب وكأنه يوم الحشر، بعضها موجه نحو أهداف عسكرية وبعضها موجه نحو (دُوَب) الجسر التي هربت من مراسيها جراء العاصفة وأن الجيش التركي يصرّ على إغراقها لئلا تقع بيد الجيش الانگليزي، فيعيد بناء الجسر المقطوع لأغراضه العسكرية.

* * *

وأذكر غضبة الطبيعة في تلك الليلة عندما اجتاحت بغداد عاصفة هوجاء لم تشهد مثلها منذ بناها المنصور وحتى يوم الناس ذاك، فلم تبق العاصفة(تيغَة) الا وهدمتها، ولا سقفاً بالياً إلّا واقتلعته ولا جينكو إلّا وطيّرتْه مئات الأمتار مولّداً تلك القرقعات المخيفة، حتى أنها اقتلعت منارتي جامع الأصفية من حوضيهما، فتناثر الكاشي على كافة أرجاء المنطقة المحيطة بالجامع، ومن بينها دارنا، فاحتفظت بقطعة منه سنين عديدة للذكرىٰ.

* * *

أذكر بغداد في ليلة السقوط عندما أصرّ القائد التركي خليل پاشا ـ والضباط والجنود الأتراك مشهورون بعنادهم وثباتهم في أوقات الحروب والمعارك ـ على عدم إخلاء بغداد ورفض تسليمها الى الانگليز، وظلت المناقشة الحادة جارية بين ضباط الأركان وخليل پاشا حتى منتصف الليل وأهل بغداد يتگرضمون ويتضورون، حتى اقتنع خليل پاشا بوجهة نظر ضباطه، فأبرق الى أسطنبول واستلم

(**) ظلّ يتحدث في المجتمعات البغدادية عن نسف مستودع البارود في باب الطلسم المرحوم توفيق أجانص مختار محلة الطوب وهو شخصية محببة للبغداديين، هوايته الطواف على أصدقائه في البيوت والدواوين والمجالس والمقاهي لنقل الاخبار المحلية والخارجية ولذلك لقب (أجانص) وهي كلمة فرنسية معناها (وكالة انباء).

الجواب بالموافقة، وأخذ الجيش التركي بالانسحاب.

* * *

أذكر بغداد ساعة ساد الهرج والمرج والخوف والفوضى بين سكانها، وأذكر كيف أننا وضعنا وراء باب الدار كل شئ ثقيل وجد فيها زيادة في الحماية من الفرهود، وكيف أن الناس قد تحصنوا في بيوتهم ولم يبق في الشارع غير الحرامية والفرهودچيّة الذين كنا نراقبهم من الشبابيك يحملون غنائمهم على ظهورهم ويهرولون.

وفي صباح اليوم التالي انتشر الأنضباط العسكري في الأسواق والطرق وحول المرافق العامة وهدأ الوضع قليلاً.

* * *

أذكر لما ذهب بعض الناس الى (القشلة) ليشهدوا مراسيم إنزال العلم التركي ورفع العلم البريطاني، وأذكر جيداً كيف كان ذلك المشهد مؤثراً: البغداديون والبغداديات يجهشون بالبكاء والنحيب المكبوت، والدافع لذلك هو: إنزال علم دولة مسلمة مدحورة ورفع علم دولة مسيحية منصورة.

* * *

أذكر البلاغ الذي قرأه المختار(*) على سكان المحلة موجهاً من قبل الجنرال (مود) مؤكداً لهم حسن نواياه ونوايا حكومته وحلفائها بازدهار مدينتهم التي كانت يوماً من عجائب الدنيا السبع واعادتها الى سابق مجدها متعهداً لهم بأنه ليس في نية حكومته أن تفرض عليهم انظمة لا يرتضونها ومناشداً اياهم التعاون مع السلطات العسكرية في ادارة شؤونهم المدنية، مختتماً بيانه بأن الجيوش البريطانية لم تدخل بلادهم كفاتحين ولا كأعداء، بل كمحررين ومنقذين. وبعد عدة سنوات من اعلان هذا البلاغ أقام الانگليز تمثالاً لتخليد مود، نصب عند مدخل السفارة البريطانية في محلة الكريمات فقال فيه الشاعر محمد باقر الشبيبي:

يامودُ إنكَ عندنا لَرهينةٌ ... فيما وعدتَ رجالَنا الأحرارا

ولكن (مود) لم يف بالعهد الذي قطعه على نفسه. وفي صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ قام أهل بغداد بأسقاط الفارس من على جواده وحطمواالفارس والجواد.

* * *

أذكر بغداد بعد يوم أو يومين من ليلة السقوط عندما أصلحت السلطات العسكرية الجسر وأخذت طلائع الرتل القادم من الغرب تعبر الى جانب الرصافة وتخترق قلب بغداد مارة بعگد الصخر، والأطفال والصبيان يصفقون للخيالة الذين كانوا من الهنود المسلمين والهندوس والسيك والگرْگه وكنا نميزهم من شكل عمائمهم وطريقة لفها، وقد توجهوا نحو باب المعظم ومنها الى بستان الصرّافية حيث عسكروا هناك.

(*) مختار المحلة شخصية ذات صلاحيات واسعة، تتوقف عادة على قوة شخصيته ومنزلته في أوساط المحلة ودوائر الحكومة، يعاونه (القروچي) وهو مساعده ووسيطه في الحصول على أتعاب الوساطات والخدمات التي يسديها لأهل المحلة، ومنها

أذكر بغداد عندما أخذت سلطات الأحتلال تسوق بعض البغداديين من رجال وشباب الى جزيرة هنجام واعتقالهم هناك لأنهم أخذوا يقاومونها ويتحدون أوامرها.

* * *

أذكر بغداد لما اجتاحها مرض الكوليرا أو الهيضة (أبو زوعة) في خريف ذلك العام، فصار الناس يموتون بالمئات وليس فيها من يلقّحهم أو يعالجهم ولا حتى من يتولىٰ دفنهم.

* * *

وأذكر بغداد لما اجتاحها فيضان دجلة والفرات في آن واحد، فأحدقت المياه بالكرخ والرصافة وجعلت كثيراً من بيوتها عالِيَها سافِلَها، فهلك الحرث والنسل والزرع والضرع.

* * *

أذكر بغداد لما سرت فيها الأشاعة من أن الجنرال مود قد حضر حفلة أقامتها على شرفه الجالية اليهودية في مدرسة الاليانس لمشاهدة احدىٰ تمثيليات شكسبير، وان الجنرال قد تناول فنجاناً من القهوة الممزوجة بالحليب، ولم يدرِ ماكان القدر يخبئه له في ذلك الحليب، فأصيب بالكوليرا في اليوم التالي ونقل الى المستشفى حيث توفي بعد ثلاثة أيام من اصابته وبعد حوالي عشرة أشهر من دخوله بغداد فاتحاً.

وأذكر لما شيِّع جثمانه، مخترقاً الشارع الجديد (شارع الرشيد حالياً) ماراً بباب الآغا متوجهاً نحو باب المعظم حيث دفن في مقبرة الانگليز الواقعة بين الوزيرية والصرافية (المجاورة لكلية التجارة والاقتصاد حالياً) وجرىٰ ذلك في يوم شديد البرودة.

* * *

(شگل) البيانات والـ (علم وخبر) وما شاكلها (بانهر)، وتزكية الشهود لدى المحاكم. [لقد استعملت كلمة «شگل» مجازاً، فالشگل هو لوحة كبيرة مربعة الشكل محفور عليها اسم المزارع تشگل فيها (صبّة) الحنطة والشعير والشلب في (المسطاح) لمنع تجاوز المتجاوزين والحوّافة].

يجمع المختار ذو الشخصية القوية صلاحيات عدة هيئات وموظفين رسميين. وأذكر أن مختار الدنگچيّة وجديد حسن پاشا كان طويل القامة ضخم البنية يرتدي الفينة ويتأبط العباءة، وكان أسمه (محمود) ويلقب تحبّباً (أبو شكر)، وهو ذو شخصية محترمة ومحبوبة ومهابة. أنه المرجع في كل الخلافات والمشاكل الاجتماعية التي تحصل في المحلة، فإذا اختلفت الزوجة مع زوجها إلتجأت الى بيت المختار، وإذا حصل خلاف بين الزوجين حول حضانة ابنتهما أودعت البنت لدىٰ المختـــار ريثما يبت القاضي في الموضوع، وإذا اقتضىٰ مراجعة جهة رسمية ليس من السهل مراجعتها أو الدخول إليها توسط المختار في ذلك، وإذا كان لدىٰ الزوجة شيء ثمين تريد الحفاظ عليه من سطو زوجها أودعته أمانة لدىٰ المختار الذي هو بالنسبة لها (القاصة الحديدية).

يجمع المختار عهدئذ بين صلاحيات المحتسب والقانون [وهو موظف قضائي يعلق على صدره هلالاً من النحاس يتدلىٰ من رقبته مكتوب عليه كلمة (قانون)]، والجندرمة والمبلغ والمنادي وحتى كاتب العدل، وغيرهم من الموظفين الرسميين، وذلك كما ذكرنا يتوقف على شخصيته. وفي بعض الاقطار الغربية كالدول الاسكندنافية، وفي أنكلترة حديثاً، يوجد موظف عمومي يطلق عليه إسم OMBUDSMAN يرجع إليه كل من يحصل على حقوقه تجاوز وتعسف من قبل احدى دوائر الدولة أو أحد الموظفين، وهو الذي يقوم بأجراء التحقيق عن التجاوز والفصل فيه وعلى الطرفين قبول القرار الذي يصدره. وصلاحيته تشمل صلاحية المختار البغدادي أيضاً. وفي الولايات المتحدة يوجد موظف رسمي له صلاحيات إجرائية يسمىٰ «الشريف» SHERIFF وصلاحيته أوسع كثيراً من صلاحيات (العمدة) في الريف المصري وصلاحيات المختار في محلات بغداد أيام زمان.

أذكر بغداد يوم ٣٠ تشرين الأول عندما أعلن وقف اطلاق النار بين الجيشين البريطاني والتركي في جبهة العراق، وأذكر يوم ١١ تشرين الثاني عندما وقعت الهدنة بين الحلفاء وبين تركيا وألمانيا، فبدأت المهرجانات والزينات والألعاب النارية تقام في كل محلة من محلات بغداد، فعاد إليها شيئ من رونقها الذي فقدته طيلة أربع سنوات، فأخذ الضباط والجنود يعودون الى وطنهم، باستثناء الذين هلكوا في القفقاس أثناء (السَّفَرْبَرْ)، فمنهم من وجد افراد عائلته على قيد الحياة ومنهم من لم يجد أحداً يستقبله أو يرحّب به، فكل أفراد عائلته قد طحنتهم الحرب بشكل أو بآخر.

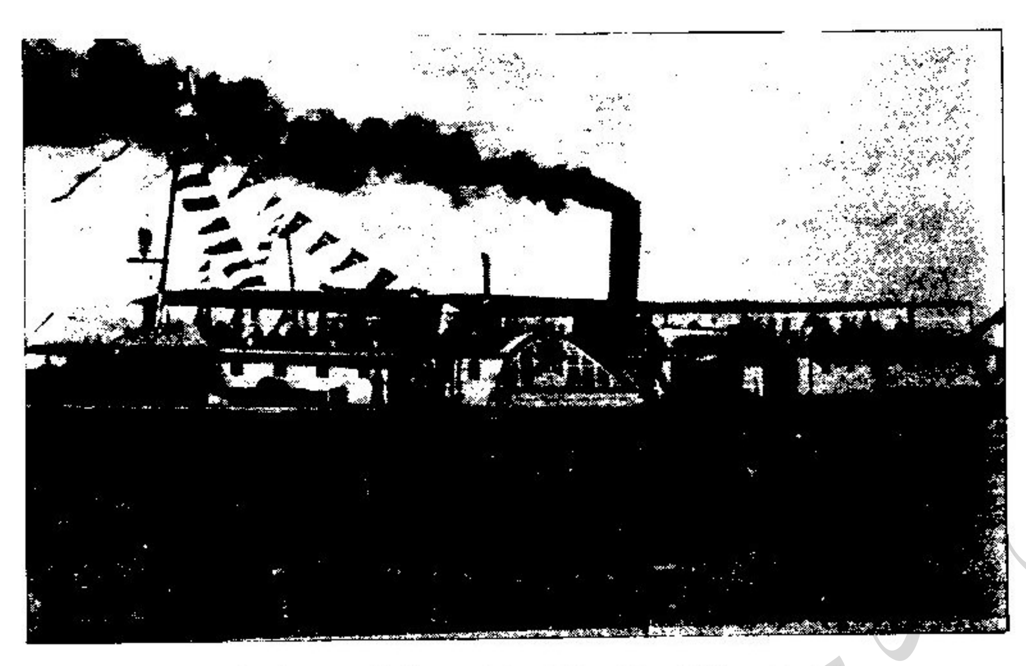
***

أذكر بغداد يوم كان السفر منها وإليها بدائياً يتم بواسطة الخيل والبغال والجمال وحمير (المچارية) ثم تطور نحو الأفضل فصار يتم بواسطة الكجاوة و (التخت روان) وهي محفّة يحملهـا زوج من البغال، أو الهودج وهو محفة يحملها بعير، ثم تطور نحو الأسرع فصار يتم بواسطة العربات ذوات أربعة دواليب. وأذكر أني سافرت على عربة (أبو سبع) من بغداد الى الفلوجة في العهد العثماني وهي عربة أقرب الى برچقة منها الى عربة سفر، وقد استغرقت السفرة من گهوة (العَكّامَة) في صوب الكرخ الى الفلوجة قرابة ثلاثين ساعة، مع مبيت ليلة واحدة في خان ضاري في (أبو منيصير) لانعدام الامن في السفر الليلي وخطر (دگ) الطريق وسلب المسافرين من قبل قطاع الطرق، ثم تطور السفر نحو الأفضل والاسرع عندما صارت السيارة (ام اللوگيه موديل فورد أو أوفر لاند) واسطة السفر. وأذكر أن نفس السفرة التي قطعناها في عربة أبو سبع بثلاثين ساعة قد قطعناها بعد عشر سنوات في سيارة السائق الأرمني (تيزاب) بأقل من خمس ساعات والمسافة بين بغداد والفلوجة لا تزيد على الخمسين كيلو متراً، مع التوقف لتبريد السيارة واصلاح (البنچر) والأستراحة من ضعضعة الضلوع جراء سوء حالة الطريق الترابي المتعرج والمتعثّر. هذا فيما يخص السفر البري أما السفر النهري بين الشمـال والجنوب فيتم بواسطة (الچلاچ) ويستغرق مدة أطول من المدة التي يستغرقها السفر البري بواسطة الدواب والكروان والعربات.

بينما يتم السفر اليوم من بغداد وإليها بسرعة خيالية، فان نفس المسافة بين بغداد والفلوجة تقطع بالسيارة الحديثة بساعة واحدة، وإذا ما تم إنشاء خط السير السريع فسيختصر الوقت الى أقل من ساعة بكثير. وأن السفر بين بغداد والبصرة بواسطة قطارات (الديزل الكهربائية) الحديثة ولمسافة تقرب من أربعمائة كيلومتر يستغرق أقل من عشر ساعات بينما كان يستغرق بواسطة الباخرة (مركب حميدي) قرابة الأسبوع.

أما واسطة النقل الجوي الحديثة فقد قلبت أحوال السفر من بغداد الحديثة وإليها رأساً على عقب فأن طائرة الـ (جمبو ٧٤٧) العراقية قد قطعت المسافة بين مطار صدام حسين الدولي ومطار (هيثرو) في لندن والبالغة أكثر من اربعة آلاف كيلو متر بأقل من خمس ساعات وهو سدس الوقت الذي استغرقته سفرتي الاولى بين بغداد والفلوجة ونفس الوقت الذي استغرقته سفرتي الثانيـة، ولو أن المقارنة لا تصح بين السفرات الثلاث لتباين الظروف والأحوال ووسائط السفر من كافة النواحي، إذ صار العراقيون يحسبون لعامل الوقت كل حساب في هذه الأيام!

***



الباخرة حميدية كانت الواسطة النهرية الوحيدة للسفر بين بغداد والبصرة

يسأل المسافر على تلك الباخرة:

وين رايح؟

فيجيب بكل نشاط وحيويّة: للبصرة. ثم يرقص ويدك اصبعتين ويغني: «أحيا وأموت بالبصرة»

ويُسأل القادم من البصرة:

منين جاي؟

فيجيب وهو خائر القوىٰ: مـــ. . ن البـ. . . . . صــ. . ره.

للدلالة على أن المسافر الى البصرة يومئذٍ يذهب سالماً معافىً ويعود مصاباً بمرض الملاريا الذي أنهك قواه، وبصرة اليوم هي غير بصرة الأمس، فهي اليوم جوهرة الخليج، و«زهرة المدائن وفيروزة المرح والمزاح» كما وصف الشاعر الانكليزي (دانبار) مدينة لندن، على الرغم من دخولها السنة الرابعة من الحرب المفروضة عليها، وبُعدها بضعة أميال فقط عن جبهة القتال.

وأخيراً أذكر بغداد وأذكر العراق يوم كتب الملك فيصل الأول مؤسس الدولة العراقية، بأن «العراق ينقصه أهم عنصر من عناصر الحياة الأجتماعية، ذلك هو الوحدة الفكرية والعنصرية والدينية التي هي مبعثرة القوى، مقسمة على بعضها، وأنه لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية ولا تجمع بينهم جامعة. ومن يعلم صعوبة تشكيل شعب في مثل هذه الظروف، يجب أن يعلم عظم الجهود التي يجب صرفها لأتمام هذا التكوين وهذا التشكيل.» ذلك ما كتبه الملك فيصل الأول في المذكرة التي وزعها على أعوانه من رجال الدولة أوائل ١٩٣٣. بينما أرىٰ اليوم وبعد مرور خمسين عاماً على تلك المذكرة، شعباً عراقياً متلاحماً متماسكاً متآخياً متحاباً معتزاً بمركزه الحضاري، مؤمناً بقوميته وعروبته مقدراً لمسؤولياته الدولية والإنسانية، لا تفرقه فوارق فكرية أو عنصرية أو دينية أو طائفية إلّا ما يقحمه عليه المغرضون والحاقدون والاستعماريون، تجمعه جامعة واحدة هي (جامعة الوحدة العراقية). فقد ذلل الرئيس القائد صدام حسين كافة الصعوبات التي عجز عن تذليلها الملك المؤسس فيصل الأول قبل نصف قرن، فخلق بأقل من ربع قرن شعباً عراقياً جديداً، هدفه واحد، وقدره واحد، ومصيره واحد، وآماله واحدة، وأمانيه واحدة، وغاياته واحدة، فصار يمتاز على كثير من شعوب الأرض بكثير من المميزات والمؤهلات والأنجازات.

* * * * *

وبعـــد :

فهل هناك مدينة في الدنيا قاست ما قاسته بغداد من محن ومصائب وخطوب وأهوال خلال هذه الفترة القصيرة من تأريخها الطويل المزدهر؟

* * *

إيــه يا بغـــداد :

ما الذي جنته يداك حتى استحققت هذا الشقاء والعناء والعذاب والخراب والحرمان ، ألست أنتِ التي نظم في مدحك فحول الشعراء ، وكتب في وصفك أعلام الكتّاب والأدباء ، وأكبرَ حضارتكِ العلمـاء وقدّر منزلتك الفقهاء والفضـلاء ، وغنّىٰ فيك أساطين المغنّين والمغنّيات والمطربين والمطربات ، وأطنب في سجايا وشمائل أهلك المؤرخون والرحالون والسائحون. أولستِ أنتِ التي غردت فيك أم كلثوم في فلم دنانير:

بغـداد يـا ذات القصـور السـاميـة   دامت لـكِ النعمىٰ وغنـاكِ الـزمـان
بغـداد يـا ذات القـصـور العـاليـة   يـا جنة الـدنيا ويـا ظـل الـزمـان

× × × ×

هـواؤهـا مـا أطـيـبـه   ومـاؤهـا مـا أعـذبـه
نـسـيـمـهـا مـا أعـطره   وزرعـهـا مـا أنـضـره

أولستِ التي أنشدت فيك أم كلثوم أنشودتها الخالدة :

بـغـداد يـا قـلـعـة الأسـود   يـا كـعـبـة المـجـد والخـلودِ
سـمـعـتُ في فَـجـركِ الـولـيـد   تـوهـجَ الـنـارِ في الـقـيـودِ
ويـبـرق الـنـصـر مـن جـديـدِ   يـعـودُ في سـاحـةِ الـرشـيـدِ

ألمْ تغنّ فيروز بحقك وبحق أهليك :

بـغـداد والـشـعـراءُ والـصـورُ   ذهـبُ الـزمـانِ وضـوعُـه الـعَـطِرُ
يـا ألـفَ ليلةَ يـا مكَملةَ الأعـراس   يـغـسـلُ وجـهَـكِ الـقـمـرُ
بـغـداد ، هـل مجـدٌ ورائـعـةٌ   مـا كـان مـنـكِ الـيـهـا سـفـرُ
عـيـنـاك يـا بـغـداد أغـنـيـةٌ   يـفـنىٰ الـوجـودُ بها ويُختـصـر
لم يُـذكـرِ الأحـرارُ في وطـنٍ   إلاّ وأهـلُكِ فـوق مـا ذُكـروا

ألمْ يقل فيك أبنك البار جميل صدقي الزهاوي ، متباهياً :

أتـعـودُ بـعـد تـصـرّمٍ ونـفـادِ   أيـام بـغـداد الى بـغـدادِ

كانت محطّاً للعلوم وأهلِها وقرارةً للمجدِ والأمجادِ
أيامَ بغدادُ تضيء جميلةً فتلوح مثل الكوكبِ الوقّادِ

ألمْ يحذرك ابن آخر من أبنائك البررة هو معروف الرصافي من سوء المنقلب فقال متألماً :
بغداد حسبكِ رقدةٌ وسباتُ أو ما تُمضكِ هذه النكباتُ
ولعتْ بكِ الأحداثُ حتى أصبحتْ أدواءُ خطبكِ ما لَهُنَّ أُساةُ

ألمْ يستنهض بانيك المنصور، فقال مناشداً :
مَنْ مبلغُ المنصور عن بغداده خبراً تفيض لمثلهِ العبَرات
قد ضيّعتْ بغدادُ سابقَ عزّها وغدت تجيش بصدرها الحسَرات

ألمْ يعاتبك هذا الابن البار يوم صددتِ عنه فقال معاتباً :
ما كنتُ أحسب بغداداً تحلّئني عن ماء دجلتها يوماً ما وتظميني

ألمْ يعاتبك مهموماً، يوم قال :
خابت ببغدادَ آمالُ أؤمّلُها فهل تُجيب إذا استذرت بصنّين

ألمْ يعاتبك مغموماً، يوم قال :
لئن تكُ في بغدادَ يا دهرُ مذنباً عليَّ ففي بيروتَ كم لكَ من عذْرِ

ألمْ يناشد أبناءك للابتعاد عن الأجنبي، فقال لهم ناصحاً ومرشداً :
يا بني بغدادَ لا عذرُ لكمْ إنْ أتيتمْ بعد هذا الأجنبيّا

ألمْ يبثّ شجونه إليك، يوم قال محذّراً :
إليكِ إليكِ يا بغدادُ عني فأني لستُ منكِ ولستِ مني
ولكنّي وإن كَبُرَ التجني يعزُّ عليَّ يا بغدادُ أني
أراكِ على شفا هولٍ شديدِ
تتابعت الخطوبُ عليكِ تترى وبُدِّل فيكِ صفوُ العيشِ مرّا
فهلّا تُنجبين فتىً أغرّا أراكِ عَقمْتِ لا تلدين حرّا
وكنتِ لمثلِه أزكى وَلُود

ألمْ يشيد بزمان عزك ومجدك، فقال متفاخراً :
زمانَ نفوذ حكمكِ مستمرُّ زمانَ سحاب فيضكِ مستدرّ
زمانَ العلم أنت له مَقرّ زمانَ بناءِ عزّكِ مشمخرّ
وبدرُ علاكِ في سعدِ السعود

ألم يشفق عليكَ يوم أطبقت حولك مياه دجلة والفرات، فقال مواسياً:

تـلك الـرصـافـةُ والميـاهُ تحـفُّهـا ... والـكـرخُ قـد مـاجتْ بـهِ الأزمـاتُ
سـالتْ ميـاهُ الـرافـدين جـوارفـاً ... يـطفـحنَ والأسـداد مـؤتـكـلاتُ

إيه يا بغـداد:

هل تذكرين ما قاله فيكِ الهمداني:

فِـدىً لـكِ يـا بغـدادُ كـلُّ مـدينـةٍ ... مـن الأرض حـتىٰ خـطتي وديـاريـا
فقـد طُفتُ في شرقِ البـلادِ وغربهـا ... وسـيَّـرتُ خيـلي بينهـا وركـابيـا
فـلم أرَ فيهـا مثـلَ بغـدادَ منـزلاً ... ولم أرَ فـيـهـا مـثـلَ دجـلةَ واديـا
ولا مـثـلَ أهـليـهـا أرقَّ شـمـائـلا ... وأعـذبَ ألـفـاظـاً وأحـلىٰ معـانيـا

وهل تذكرين ما قاله فيك اليربوعي، عمارة بن عقيل:

أعاينتَ في طولٍ من الأرضِ والعرضِ ... كـبـغـدادَ داراً إنها جـنـةُ الأرضِ
صفـا العيشُ في بغـدادَ واخضـرَّ عودُهُ ... وعيشُ سـواهـا غـيرُ صـافٍ ولا غَضِ
تـطول بهـا الأعـمـارُ إنَّ غـذاءهـا ... مريٌ وبعضُ الأرضِ أمرأ من بعضِ
قـضىٰ ربُّهـا أن لا يمـوت خـليـفـةٌ ... بهـا إنـهُ مـا شـاء في خلقـهِ يقـضي

وهل تذكرين ما قاله فيك منصور النمري:

مـاذا ببغـدادَ من طيب الأفـانـين ... ومـن منـازهَ لـلدنـيـا ولـلديـنِ
تُحيي الـريـاحُ بهـا المرضىٰ إذا نسمتْ ... وجـوّستْ بـين أفنـان الـريـاحـينِ

وهل تذكرين ما قاله فيك ابن زريق الكاتب:

سـافـرتُ أبغي ببغـدادٍ وسـاكـنهـا ... مِثْلاً قـد اختـرت شيئاً دونـه اليـاسُ
هيهـات بغـدادُ والـدنيـا بـأجمعِهـا ... عنـدي وسكـانُ بغـدادٍ همُ النـاسُ

وهل تذكرين ما قاله بوصفك إبن المظفّر الخازن:

سقىٰ اللهُ صـوبَ الـغـاديـاتِ محلة ... ببغـدادَ بـين الكـرخِ فـالخلد فـالجسرِ
هي البلدةُ الحسنـاءُ خصّت لأهلهـا ... بـأشيـاءَ لم يجمعن مـذ كُنَّ في مصـرِ
هـواءٌ رقيـقٌ في اعـتـدالٍ وصحـةٍ ... ومـاءٌ لـه طـعـمٌ ألـذُّ مـن الخمـرِ
ودجـلتُهـا شـطّانِ قـد نـظما لـنـا ... بتـاجٍ الى تـاج وقصـر الى قـصـر
تـراهـا كـمسـكٍ والميـاه كـفضـة ... وحصبـاؤهـا مثـل اليـواقيتِ والـدرِّ

وهل تذكرين ما قاله فيك القاضي أبو محمد المالكي، وهو يُشيد بغنىٰ أهلك وحبهم للعمل

والانتاج والكسب ، وبغضهم للبطالة والكسل والخمول ، يوم لم يكن فيها متكأً للعاطلين والمتسكعين والصعاليك ، فيقول :

بغدادُ دارٌ لأهلِ المالِ طيبةٌ ... وللصعاليكِ دارُ الضَنْكِ والضيقِ
ظَللتُ أمشي مُضاعاً في أزقتِها ... كأنني مصحفٌ في بيتِ زِنديقِ

وهل تذكرين ما قاله عمارة بن عقيل أيضاً ، وهو معجب بقصورك ورياحينك وزخاريفك :

تحيا النفوسُ بريّاها إذا نفحتْ ... وخرّشت بين أوراقِ الرياحين
مناظرٌ ذاتُ أبوابٍ مفتّحةٍ ... أنيقةٍ بزخاريفٍ وتزيين
فيها القصورُ التي تهوي بأجنحةٍ ... بالزائرينَ إلىٰ القومِ المزورين

إيه يا عاصمة الرشيد والأمين ، والمأمون وصدام حسين :

أولست أنتِ التي نظم علي الجارم قصيدته العصماء يوم حلّ في رحابك سنة ١٩٣٨ يقول لكِ فيها :

بغدادُ ، يا بلدَ الرشيدِ ... ومنارةَ المجدِ التليدِ
يا بسمةً لَمّا تزلْ ... زهراءَ في ثغرِ الخلودِ
يا موطنَ الحبِّ المقيمِ ... ومضربَ المثلِ الشَرودِ
يا رايةَ الإسلامِ والإسلامُ ... خفّاقُ البنودِ
يا مغربَ الأملِ القديمِ ... ومشرقَ الأملِ الجديدِ
يا بنتَ دجلةَ قد ضمِئتُ ... لرشفِ مبسمكِ البرودِ
يا زهرةَ الصحراءِ ردّي ... بهجةَ الدنيا وزيدي
يا جنةَ الأحلامِ طا ... لَ بقومِنا عهدُ الرقودِ
يا بهرةَ الملكِ الفسيحِ ... وصخرةَ الملكِ الوطيدِ
يا زورةً تحيي المنىٰ ... إنْ كنتِ صادقةً فعودي

× × × ×

بغدادُ ، يا دارَ النهىٰ ... والفنِّ يا بيتَ القصيدِ
نَبَتَ القريضُ على ضفا ... فكِ بين أفنانِ الورودِ
سرق التدلّلَ من «عنا ... ن» والتفنن من «وحيد»
يشدو كأنَّ لهاتَهُ ... شدّت على أوتارِ عودِ
بغدادُ ، أين البحتريُّ؟ ... وأين أين ابن الوليدِ
ومجالسُ الشعراء في ... بيتِ ابن يحيىٰ والرشيدِ
أين القيانُ الضاحكا ... تُ يمسن في وَشي البُرودِ

الساحراتُ الفاتنا   تُ النُجْل من هِيف وغيدِ
الساهرات مع النجو   مِ الآنفات من الهجودِ
من كلِ بيضاءِ الطُلى   مهضومة الكشحين رُودِ
يخطرنَ حتى تعجب   الأغصانُ من لِينِ القُدودِ
وإذا سفرن فأين ضو   ءُ الشمسِ من شَفَق الخدودِ
يعبثْن بالأيام والأيامُ   أعبثُ من وليدِ
خَبّى الجمالُ لهن كنزاً   بين سالفةٍ وجيدِ
كم جاشَ جيشُكِ بالفوار   رسِ من أساورةٍ وصيدِ
للنصرِ في أعلامهمْ   صلةٌ بابناءِ الغمودِ
مُلْكٌ إذا صوّرته   عجز الخيالُ عن الصعودِ
وجهودُ جبارين تصغر   دونها شُمُّ الجهودِ
الرُسْلُ تتلو الرُسْلَ من   بيضٍ صقالبةٍ وسودِ
ساروا لقصر الخلدِ يُعشي   طرفهم وهَجَ الحديدِ
يتعثرون كأنهم   يمشون في حَلَق القيودِ
الجو يسطع بالظبا   والأرض تزخر بالجنودِ
حتى إذا رجعوا بدا   بجباههم أثر السجودِ

× × × ×

الفلسفاتُ عرفتِها   والعلمُ طفلٌ في المهودِ
والغربُ ينظر في خمودٍ   نحو قاتلة الخمودِ
كم موئل للمستجير   ومنهل للمستفيدِ
و«الجاحظُ» المرحُ اللعوبُ   يغوص للدرِ الفريدِ
بغداد ، يا وطن الأديب   وأيكةَ الشعر الفريدِ
جددتِ أحلامي وكنـ   ـتُ صحوتُ من عهد بعيدِ
جمح الخيالُ فما اطمأنَّ   ولا استقر الى خلودِ
جاز القرونَ النائيا   ت وفكَّ أسرار العهودِ
ذكر العهود فأنَّ للذ   كرى وحَنَّ الى العهودِ
واهتاجهُ الطيفُ البعيدُ   فجُنّ للطيفِ البعيدِ
وصَبا الى ظلِ العروبة   في حمى الملكِ العتيدِ

× × × ×

هــذي طــلائــعُ نهضـةٍ ذهـبـتْ بـآثـار الـركـودِ
بـغـدادُ ، أشـرقَ نـجـمُـهـا وبـدا بهـا سـعـدُ الـسـعـودِ
سـلكـتْ الى المـجـدِ الـقـديـمِ مَحَـجَّـةَ الـنهـج الجـديـدِ
وزهـتْ بـأقـمـار الهـدىٰ وسـطتْ بـأظـفـارِ الأسـودِ(*)

× × × ×

هل تذكرين يا بغداد قصيدة الأخطل الصغير يوم حلّ في رحابكِ سنة ١٩٣٦ ليؤبن ابنك البار جميل صدقي الزهاوي ، يوم قال فيك :

قـولي لـشـمـسـكِ .. لا تـغـيـبـي وتـكـبـدي فـلك الـقـلوبِ
بـغـدادُ .. يـا وطـن الجـهـادِ ومـوضـع الأدبِ الخـصـيـبِ
غـنّـاكِ دجـلةُ ... والـفـراتُ قـصـائـد الـزمـن الـعـجـيـبِ
رقـصـت قـوافـيـهـا عـلى نَـغـم الـبـشـائـرِ والحـروبِ
حـتىٰ إذا طـلعَ الـرشـيـدُ ومـاجَ في الأفـقِ الـرحـيـبِ
صـهـر الـقـرونَ وصـاغـهـا تـاجـاً لمـفـرقـكِ الحـبـيـبِ
أسـدُ الـعـراقِ ومـا الـريـاحُ الهـوج طـاغـيـةَ الهـبـوبِ
أمـضىٰ وأنـفـذ مـنـكِ ، إذ تـثـبـين لـلأمـرِ الـعـصـيـبِ
قـلّمـتِ أظـفـارَ الـزمـانِ ورُعـتِ داهـيـةَ الخـطوبِ
وبـنـيـتِ بـالـقـلمِ الحـليـمِ وبـالمـهـنّـدةِ الـغـضـوبِ
مجـداً تـنـقّـل في الـعـلىٰ بـين الأشـعـةِ والـطـيـوبِ
بـغـدادُ يـا شـغـفَ الجـمـال ومـلعـبَ الـغـزلِ الـطـروبِ
بـنـتِ المـكـارمُ لـلعـروبـةِ فـيـكِ جـامـعـةَ الـقـلوبِ

× × × ×

ايه يا بغداد العزيزة :

هل تذكرين ما نظمه فيك ابنك البار حافظ جميل من قصائد الفخر والاعتزاز بك وبامجادك منها الخريدة العصماء التي القاها في مهرجانك سنة ١٩٦٢ يقول فيها :

كفى سؤدداً ان يستهـل بـكِ الـعهـدُ وحسـبـكِ يـا بـغـداد يـارسـم الخُـلْدُ
طلعتِ عـلى الـدنـيـا ويـا خـيرَ مـطلع بشـائـره العلـيـاء والمُلْك والـسـعـدُ
وتـوجتِ هـامَ الـشرق عـزَّ حضـارةٍ تـتيـه بهـا الأجيـال فخـراً وتعـتـدُّ
تـبـاركـتِ يـا بـغـداد أمـنـاً لآمـن وكيـداً عـلى من جـالَ في قلبـه الكيـدُ

(*) أتمنىٰ أن تدرس هذه القصيدة في مدارسنا وكلياتنا لتغرس في نفوس الجيل الصاعد الفخر والإعتـزاز والغرور ببغـداد الحبيبـة .

تباركتِ يا بغداد للعز مؤئلاً ... ومربضَ صيد كلُّ أيامهم ذَوْدُ
خبرت من الأيام شتىٰ وجوهها ... فما غيرتكِ البيضُ منها ولا الرُبدُ
وقارعتِ من هُوج السنين أشدَّها ... عتوّاً فلم يخذلك من همَّةٍ عضْدُ
فللهِ من بأسٍ يزيد على المدىٰ ... ثباتاً ويقوىٰ في الخطوبِ ويشتدُ

* * *

تباركتِ يا بغداد للشعر أيكةً ... كأني بها حتى افانينها تشدو
تباركتِ يا بغداد لم يهفُ جانحي ... ولا شاقني في غير ظلّك أن أشدو
ولا طابَ لي في غير دجلةَ مرتع ... ولا لذّ لي في غير شاطئها الوردُ
إذا حلّ بي ضيمٌ فعفتُكِ مكرهاً ... رجَعتُ وأدهىٰ الضيم ما ضامني البعدُ

* * *

ايه يا مدينة الحب والسلام :

هل أصغيت الى قصيدة صهرك الوفي نزار قباني وهو يناجيك بأرق شعره يوم ٨ آذار ١٩٦٢ :

مدّي بساطي واملأي أكوابي ... وانسي العتابَ، فقد نسيتُ عتابي
عيناكِ يا بغداد، منذ طفولتي ... شمسان نائمتان في أهدابي
لا تنكري وجهي فأنت حبيبتي ... وورود مائدتي، وكأس شرابي
بغدادُ جئتكِ كالسفينةِ متعباً ... أخفي جراحاتي وراء ثيابي
ورميت رأسي فوق صدر أميرتي ... وتلاقت الشفتان بعد غياب
أنا ذلك البحار ينفق عمْره ... في البحث عن حبّ وعن أحباب

* * *

بغدادُ.. طِرتُ على حرير عباءةٍ ... وعلى ضفائر زينب ورباب
وهبطْتُ كالعُصفور يقصد عشَّهُ ... والفجرُ عرسُ مآذنٍ وقباب
حتى رأيتك قطعةً من جوهر ... ترتاحُ بين النخلِ والأعناب
حيث التفتُّ أرىٰ ملامحَ موطني ... وأَشُمُّ في هذا الترابِ ترابي
لم أغتربْ أبداً فكلُّ سحابةٍ ... بيضاء فيها كبرياء سحابي
ان النجومَ الساكناتِ هضابكمْ ... ذاتُ النجومِ الساكناتِ هضابي
بغدادُ.. عِشتُ الحسن في ألوانهِ ... لكنّ حسنَك لم يكن بحسابي
ماذا سأكتبُ عنكِ يا فيروزتي ... فهواكِ لا يكفيه ألفُ كتاب
يغتالني شعري فكلُّ قصيدةٍ ... تمتصّني، تمتصّ زيت شبابي
الخِنجرُ الذهبيُّ يشربُ من دمي ... وينامُ في لحمي وفي أعصابي

* * *

بغدادُ.. يا هزَجَ الخلاخل والحُليٰ ... يا مخزن الأضواء والأطياب
لا تظلمي وتر الربابة في يدي ... فالشوقُ أكبر من يدي وربابي
قبْل اللقاء الحلو كنتِ حبيبتي ... وحبيبتي تبقين بعد ذهابي

* * *

ايه يا ابنة دجلة الخالد :

هل استذكرت عصماء شاعر الفرات مصطفى جمال الدين وهو ينشد قصيدته بمناسبة مرور الف عام على قيامك على ضفاف دجلة فيقول :

بغدادُ ماالشتبكتْ عليكِ الأعصرُ ... الا ذوتْ ووريقُ عمرِكِ أخضرُ
مرّتْ بكِ الدنيا وصبحُكِ مشمسٌ ... ودجت عليك ووجهُ ليلِكِ مقمرُ
وقست عليكِ الحادثاتُ فراعها ... ان احتمالك من أذاها اكبرُ
حتى اذا جُنّتْ سياطُ عذابها ... راحت مواقعُها الكريمةُ تسخرُ
فكأن كِبْرَكِ - اذ يسومُك (تيمرٌ) ... عَنَتاً - دلالُكِ اذ يضمُّك (جعفرُ)
وكأن نومَك - اذ أصيلُك هامدٌ - ... سِنَةٌ على الصبحِ المرفَّهِ تخطرُ
وكأن يومَكِ بعدَ ألفِ محُولةٍ ... يومُ افتتاحِك وهو غضٌّ مثمرُ
لله أنتِ.. فأيُّ سرّ خالدٌ ... أن تسمني وغِذاء روحِك يضمرُ
أن تشبعي جوعاً وصدرُكِ ناهدٌ ... أو تظلُمي أفقاً وفكرُكِ نيّرُ

* * *

بغدادُ بالسحرِ المندّي بالشذا ... الفوّاحِ من حللِ النسائمِ يقطر
بالشاطئِ المسحورِ يحضُنه الدجى ... فيكادُ من حُرَقِ الهوى يتنوّر
بالسامرينَ أثابهم مِن لهوِهمْ ... وَهَجُ الضحى.. وكأنّهم لم يسمروا
وبراقدٍ و (الخُلْدُ) بعضُ جنانِهِ ... والسحْبُ مُلكُ يديهِ أنّى تمطر
واذا تهدّج (بالرُصافةِ) صوتُه ... جَفَلَتْ بمصرَ على صداهُ(الأقصر)
والحُورُ بين يديهِ ترتجلُ الهوى ... غَزَلاً به حتى الستائرُ تسكرُ
يرقى لعينيهِ السهادُ لحرةٍ ... في الرومِ تهتفُ باسمِهِ وتحذّر
فيردّ كأس الحبِ عن شَفةٍ بها ... شوقُ الى كأسِ الحميّةِ أسعرُ

* * *

بغدادُ بالذكرى الحبيبةِ بالصدى المرنانِ من خلْفِ الأعاصرِ يهدر

قصّي.. فنحنُ وراء (ألفِكِ) ليلةً ... أخرى يطولُ بها الحديثُ ويقصر
ودعي الخيالَ (فشهريارُكِ) سمْعُهُ ... للأذنِ من صَخب الحوادثِ موقر
وتحدثي - فجلالُ مجدِكِ لا يرى ... أن تصمتي وقُرى سواكِ تثرثر
عن (عصرِكِ الذهبيّ) ما طال المدى ... إلا وناصعُ وجهِهِ المتصدّر

أيه يا قرة عين العراق وكل العرب :

هل بلغتك رائعة الشاعر الأردني خليفة الوقيان التي يقول فيها :

بـغـدادُ يـا شـفـة الـزمـا ... نِ الـبـكـرِ والـوجـدِ المُـصـفّـى
يـا تـوأمَ الـتـاريـخِ تَـرْ ... تجـلُ المُـنى سَـيـفًـا وحـرفـا
يـا غـيـمـةً يـسـع الـعـوا ... لَمَ رِيُّهـا مَـنْـعـاً وعـطـفـا
الحـبُّ بـعـضٌ مـن عـطـا ... ئـكِ ذاعَ في الانـحـاءِ عَـرْفـا
والمـجـدُ ومضٌ مـن سـنـا ... كِ أدارَ في الآفـاقِ طَـرْفـا

* * *

بـغـدادُ يـا شـلّالَ ضـو ... ءٍ حـين ضـوءُ الـشـمس أغـفـى
وتـنـاثـرت قِـطَـعُ الـظلا ... مِ عـلى طـريـقِ الصبـحِ سَقْـفـا
والحـالـكـاتُ مـن الـليـا ... لي لم تـدعْ لـلحـلم مَـنـفْـى
مـن ألـفِ دامـيـةِ الخُـطى ... قـهـراً وإذلالاً وعَـسْـفـا
لا غـضـبـةٌ تُـرجـى ولا ... حُـلْمٌ بـصـدرِ الـغـيـب يُـلْفـى
تـأتـين مـن خَـلَلِ الـونى ... قَـدَرا وإعـصـاراً وحَـتـفـا
تحـيـينَ عـصـرَ المـكـرُمـا ... تِ وذكـرَهـا لمّـا تـعـفّـى
بـالـقـادسـيـةِ تُـنْـبِـتُ الـ ... ـعَـزَمـاتُ إصـراراً وزَحْـفـا
بـقـوافـلِ الـشُـهـداءِ تـنـ ... ـتـعـلُ الـردى صَفّـا فـصَـفّـا
تُـردي حـزيـرانَ الـقـديـ ... ـمَ وقـد تـلوّن أو تخـفّـى
وأتى يجـرُّ مـواجـعَ الـتـــــاريـخِ أحـقـاداً ونَـزفـا

* * *

بَـغـدادُ عـفـواً لـلأُلى ... ألـفـوا الهـوى لهـواً وقَـصْـفـا
أو لـلـذيـن تـوهّـمـوا ... دربَ المُـنى نـايـا ودُفّـا
وحـنـاجـراً لـلذُّلِ تَـنْـ ... ـفـثُ بـؤسَـهـا شَـكـاً وضـعـفـا
بـغـدادُ عـفـوا لـلأُلى ... غَـدَروا إذا مـا الـبـعـضُ وَفّى
فـالمُـدْلجـونَ يَـروعُـهـم ... وهَـجُ الـرؤى أيّـانَ زُفّـا

* * *

إيه يا بغداد العزيزة :

هل تذكرين رائعة إبنك البار نعمان ماهر الكنعاني وهو يناجيك بقوله :

بـغـداد، يـا نـجـوى الخـيـالِ ... غـنـتـكِ أحـلام الـلـيـالي
يـا طـلـعـةَ الـلألاءِ مـشـر ... قـةً عـلى أفـقِ المـعـالي
يـا كـبـريـاءَ المـجـد يـرفـل ... بـالـفـتـوّةِ والـصـيـال

أقسمتُ بالعزماتِ ما ... تتردّدُ في الشوطِ الطُوالِ
بسماحةِ الكفِّ الخصيبِ ... بنشوةِ العفِّ المغالي
تدري الحضارةُ أنها ... بكِ قد علّتْ عرشَ الجمالِ
وروت عن (المنصورِ) للأ ... جيالِ ملحمةَ الجلالِ

×

بغدادُ كم حام القصيدُ ... على ذراكِ بلا كلالِ
تاقت إليكِ لحونهُ ... توْقَ العروسِ الى الحجالِ
ناجاكِ يهتفُ والقوا ... في ساجعاتٍ في ابتهالِ
ويردد الأنغامَ سحرَ ... متيّمٍ وعزاءَ قالي
ليقالَ قد رضيتْهُ بغـ ... ـدادُ فتاقَ الى الكمالِ
ما المجدُ ما الآمالُ ما ... خلَباتُ إبداعِ الرجالِ
إلاّ الذي في راحتيكِ ... وراحتاكِ جَنى النضالِ

×

قالوا ، ودجلةُ كم سقتـ ... ـكَ الحُبَّ في كأسِ الوصالِ
حيثُ المواعيدُ الخصيبةُ ... باسماتٌ للنوالِ
حيثُ الشبابُ مرنّح الـ ... أعطافِ يزهو في اختيالِ
حيثُ الليالي ما تردّ ... متى تمادت في السؤالِ
والنخلُ عانقَ شاطئيـ ... ـها واستراح الى الظِلالِ
والموجُ تركبُهُ الزوا ... رقُ كالسهولِ أو التلالِ
وتبادلُ الأنغامِ بيـ ... ـنَ أخي هوىً دنِفٍ وسالي
فتنتْهما الأمواجُ والـ ... ـقمرُ المعلّقُ في الأعالي
فإذا الهوى والشوقُ يستبقانِ ... من كَلِفٍ وخالي
قالوا ودجلةُ قلتُ آ ... ْ يا لذكراها وبالي
كانت مناجاتي لها ... أنشودةَ المتَعِ الغوالي
أجني لذائذَ حاضرٍ ... سمحٍ بما أعطى مُوالي
وأعيدُ ماضيها المذهّبَ ... ذكرياتٍ للخيالِ
فأعود بالنغمينِ نشو ... انينَ من غانٍ وخالي
قالوا ربيعُكِ قد مضى ... بغدادُ في العُصُرِ الخوالي
واعتضتِ عنه الذكرياتِ ... وهنّ أشباحٌ بوالي
وأقول لا ، لم ينصفوا ... فعُلاكِ يسخرُ بالزوالِ
ها أنتِ فوق الشاطئين ... عليكِ إشراقُ اللآلي
فمن الرياضِ أريجُ خصْـ ... ـبٍ عطّرتْهُ صَبا الدوالي
ومن النخيلِ جنىً كذو ... بِ التبرِ مؤتلقِ الغِلالِ
ومن القصورِ كواكبٌ ... يطلعنَ في أفقِ الدلالِ

والليلُ ، ليلُكِ علّم الـ … ـعشاقَ ما ألق الليالي
فالنجمُ والأنسامُ والـ … أمواجُ سمّارُ احتفالِ
هي في مناجاةِ الفتونِ … فخذ بها حتى الشمال

×

وعلى المآذن صدْحةٌ … ظِلّ عليكِ من الضلالِ
أندى على سمعِ العقيد … ةِ من مساجلةِ الجدالِ
الفجرُ يُطلقها فيمشـ … ـي النور يروي عن بلالِ
وتعاد خمساً يغمر الـ … ـدنيا بها أرجُ الغوالي
خمسٌ تعيد النوءَ … مخضرُّ الربيعِ على الرمالِ
والضادُ للنسبِ الكريمِ … وما أفاءَ على المعالي
نطقتْهُ عصرَ الجاهلية … في ملاحمها الطِوالِ
وأتى به الفرقانُ … مصقول اللغى عذْب المقالِ

* * *

إيه يا بغداد، يا زهرة الدنيا وبهجتها، هل بلغتكِ رائعة الأديب الشاعر، إبراهيم الوائلي، وهو يشيد بأمجادك وبهائك، فيقول:

بغداد، ما احلى المساء، ودجلة … تنساب كالنسمات بين رباك
في كل ضاحية فتون طافح … ملء الفضاء يشيعه مرآك
وعلى الشواطئ من دجاك مناظر … لم تتشح الا بسحر دجاك
نشرت على الافق الرحيب ظلالها … ومشت خطاها ترتمي بخطاك
وتناثرت عن جانبيك مواكب … تستقبل الاحلام في دنياك
فهنا مشاهد للجمال طليقة … جلت روائعها عن الادراك
وهناك سرب من مهاك وليت لي … كبدا تذوب على خدود مهاك
أنا قد سفكت على الصخور مآربي … ونثرت آمالي على الاشواك
ومضيت كالطير الجريح مروعاً … في القفر بين مخالب وشباك
أطوي الدجى يقظان ملء جوانحي … حرق وفي ثغري صداها الحاكي

* * *

بغداد، ما احلاك باسمة المنى … للسامر النشوان ما احلاك
تلقاك بالمرح النفوس ولم تكن … لولا الرغائب والمنى تلقاك
وعلى الضفاف الحالمات موائد … قد نضدتها ـ سمحة ـ كفاك
رق النخيل لها وفاض مدامعا … تنساب كالانسام ملء فضاك

وحنا عليها الكرم يسفح لبه فيها ويخضب بالدماء ثراك
فلكم خيال كالنسيم يروقه ألا يسامر غير شهب سماك
يختال في الافق الرحيب محلقا بجناح طير أو جناح ملاك

إيه يا حبيبة الأحبّة :

هل تذكرين مدى شوق وحنين أحمد الصافي النجفي يوم احتضنتيه بعد نصف قرن من الغياب والتشرّد ، فيقول لك بعد طول الفراق :

ياعودة للدار ما أقساها أسمع بغداد ولا أراها(*)

* * *

إيه يا بغداد :

هل تذكرين أقوال الفقهاء والأدباء والعلماء والفضلاء في وصف محاسنك وفضائل أهلك. وهل بلغك سؤال الأمام الشافعي ليونس بن عبدالأعلى : يا يونس هل دخلت بغداد قال : لا . قال الشافعي : ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس. وكان الشافعي من المعجبين ببغداد، وكان يقول : ما دخلت بلداً إلاّ عددته سَفراً، إلاّ بغداد، فأني متى دخلتها عددتها وَطَناً .

وهل بلغك ما قاله أبوبكر بن عياش : الإسلام ببغداد، وأنها لصيادة لعظماء الرجال ومن لم يرها لم ير الدنيا .

وهل بلغك ما قاله أبو القاسم الديلمي : سافرت الى الآفاق ودخلت البلدان من حدّ سمرقند الى القيروان، ومن سرنديب الى بلاد الروم، فما وجدت بلداً أفضل ولا أطيب من بغداد .

وهل بلغك قول الجاحظ : الصناعة بالبصرة والفصاحة بالكوفة والتجارة بمصر والخير ببغداد .

وهل بلغك قول أبي عمرو بن العلاء : من أقام ببغداد ومات فيها، نقل من جنة الى جنة .

وهل بلغك قول الرحالة ابن جبير : لا يستكرم البغداديون في معمور البسيطة مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم .

وهل بلغك جواب الصاحب بن عباد للأستاذ ابن العميد، لما سأله عن رأيه ببغداد عندما قال : بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد .

وهل بلغك قول أبي معاوية : بغداد دار دنيا وآخرة .

(*) هذا فيض من فيض من عيون الشعر الذي قاله فحول الشعراء المعاصرون في بغداد. اما ما قيل فيها عبر التأريخ فقد تولى الأستاذ جمال الدين الآلوسي ، أمد الله في عمره، جمعه في كتاب وسمه (بغداد في الشعر) لم ينشر بعد .

وهل بلغك قول ذلك الفاضل : من محاسن الإسلام يوم الجمعة ببغداد.

وهل بلغك قول فاضل آخر : يوم الجمعة ببغداد كيوم العيد في غيرها من البلاد.

إيه يا بغداد :

* * *

هل سمعت بالمثل الإنكليزي القائل : «حتى بغداد ليست بعيدة عن المحب الولهان.»(*)

وهل سمعت بقول الكاتب الأمريكي : «كلما تعرفت على بغداد كثيراً تولّعت بها أكثر.»

وهل سمعت بالقول المأثور : «أن من يشرب من ماء دجلة مَرَة لا بدّ أن يعود إليه».

وهل بلغك ما قاله المفكر الإنكليزي الدكتور صموئيل جونسون عن بلدته لندن : أن من يملّ لندن يكون قد ملّ الحياة(**). وأني أقول لكِ يا بغداد بأني يوم أكون قد مللتك وسئمتك أكون والله قد مللت وسئمت هذه الحياة.

* * *

إيه أيتها الحبيبة :

هل بلغك ما كتبه المستر جيمس كلادستون رئيس وزراء بريطانيا في القرن التاسع عشر الى صديقته المترهبنة المسز (لورا ثيسلوايت) : MRS. LAURA THISTLEWAYTE «أن وطني هو زوجتي الأولى»، فتجيبه المترهبنة «أن وطني هي الجنة».
وأني يا بغداد لأتمثّل بقول الأثنين معاً فأقول لك : انك أنت زوجتي وحبيبتي الأولى، وان الجنة هي وطني ومآبي إن شاء ربي.(***)

إيه أيتها الحبيبة التي لا حبيبة سواها :

---

* "To the lover even Baghdad is not far" : "Baghdad, The City of Peace" By Richard Coke.

**"When one is fed up with London, he is fed up with life" Dr. Samuel Johnson. from the London Observer, July 1977.

*** "My Country is my first Wife" James Glad stone. "My Country is Heaven" Mrs. Laura Thistlethwayte, from: The Glad stone Diaries Vol. VII & VIII 1982.

عهداً صادقاً أقطعه على نفسي ووعداً قاطعاً ألتزم به ما دمت حياً. فوالذي نفسي بيده لن أستبدل «شگنگه» واحدة من أحجارك بصخور الدنيا وقصورها.

* * *

وبعـــد:

أبشرك يابغداد، فأن مجدك التليد آخذ بالطلوع، وأن نجمك اللامع آخذ بالسطوع وأن عهدك الزاهر قد بعث من جديد، وأن أيام النحس قد ولت الى غير رجعة، وأيام السعد قد هلّت وبانت بأزهى حللها.



الدِّنكجيَّة

لما أستوطن الأمريكيون الأوائل الولايات المتحدة، تجمع القادمون من انگلترة في الجزء الشمالي الشرقي منها وسموه (انگلترة الجديدة) وأتخذوا مدينة (بوستن) عاصمة لهم وصاروا يطلقون عليها (قطب الكون) THE HUB OF THE UNIVERSE لأن الحياة في تلك المنطقة كانت متمركزة حول بوستن دون غيرها من المدن. وإذا جازت المقارنة، فأن الدنگجية كانت بالنسبة لبغداد القديمة (قطب الكون)، وعگد الصخر، الذي يخترقها من الشمال وينتهي بالجسر القديم، بمثابة الشريان الأبهر بالنسبة للقلب.




خارطة بغداد كما مسحها ورسمها معالي السيد رشيد الخوجة
عندما كان رئيس ركن في الجيش العثماني عام ١٣٢٤ رومي ١٩٠٨م
بغداد
دجله نهری



خارطة بغداد لمحمد أمين زكي بك سنة ١٩٢٩

كانت محلة الدنكچيّة في القرون الخوالي من أكبر محلات بغداد من حيث المساحة وعدد الدور والمرافق العامة. وقد ظهرت على الخرائط القديمة كأكبر محلة في بغداد. ومن ملاحظة خارطة (فيلكس جونز وكينكوود) التي وضعت عام ١٨٥٤ يبدو جلياً بأنها أكبر المحلات، إذ كانت تضم جزءاً من كل من محلات الميدان وجديد حسن پاشا وباب الآغا والعاقولية وإمام طه والدشتي والصفافير والمولەخانة. وفي سنة ١٩٠٨ وضع المرحوم رشيد الخوجه(*) أول خارطة تفصيلية وفقاً للمسح الموقعي الذي أجراه شخصياً، فظهرت الدنكچيّة ودرابينها وحدودها بشكل واضح. وفي سنة ١٩١٧ وضعت خارطة تفصيلية أخرى لبغداد وضعها المرحوم محمد امين زكي بك(**) وظهر عليها اسم الدنكچيّة بوضوح أيضاً. وبعد الاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٩١٧ كان باكورة أعمال الأدارة العسكرية الاهتمام بشؤون الطابو التي بدأ بها قبلاً الوالي المصلح مدحت پاشا غير أنه لم يمض بعيداً في اصلاحاته المتعلقة بشؤون الطابو، فبقيت محلات بغداد وأسماء عگودها على وضعها القديم. ولما تولىٰ إدارة الطابو أحد الانكليز من ذوي الاختصاص في شؤون الأراضي والعقارات(***)، أشرف على اعداد خارطة جديدة لبغداد تستند الى المسح الفني الذي تولاه مساحون من الهنود يعاونهم بعض مخلفات العهد العثماني من موظفي الطابو، فوضعوا أول خارطة لمحلات بغداد في تشرين الثاني سنة ١٩١٨ وأعطوا للعمارات تسلسلاتها المستندة الى أسماء المحلات الحالية وللأبواب أرقامها المستندة الى سجلات البلدية (أمانة العاصمة) وبقيت تلك الخارطة المرجع الأساسي في دوائر التسجيل العقاري لمحلات بغداد وعقاراتها حتى الآن.

ويظهر أن ثأراً كان موجوداً بين المساحين الهنود ومحلة الدنكچيّة، فقد قطعوا أوصالها وطمسوا حدودها، فأدمجوا قسماً منها في محلة جديد حسن پاشا والقسم الآخر في محلة باب الآغا. أن قليلاً من قدامىٰ البغداديين من يتذكر الدنكچيّة اليوم ولكنها لما كانت مسقط رأسي و (فكّة عيوني) فقد أفردت لها فصلاً خاصاً من الكتاب.

(*) كان رشيد الخوجة من ألمع الضباط العراقيين الذين تخرجوا في كلية الأركان في استانبول وقليلا ما يتخرج منها من الضباط غير الأتراك، إلا من نبغ منهم. وقد شغل مناصب كثيرة في الدولة، منها منصب الوزارة وآخرها منصب مدير الخارجية العام. وعائلة الخوجة من كرام العوائل البغدادية الكرخية.

(**) هو الوزير الكردي محمد أمين زكي بك، الذي أشغل منصب وزارة الأشغال والمواصلات مرات عديدة في العشرينات والثلاثينات وهو والد بديع أمين زكي وسانحة أمين زكي عقيلة السيد محمد مخزومي. وهو غير الاستاذ أمين زكي من كبار رجال التربية والتعليم في العراق والد خلوق أمين زكي والدكتورة سانحة أمين زكي والدكتورة لمعان أمين زكي.

(***) ان مدير الطابو هذا كان من هواة السباحة، وكنا نشاهده في موسم الصيف يسبح يومياً في الصرافية في (الجرف) الواقع بين بستان الربيع وموقع (الجماعة) القديمة (موقع السفارة اللبنانية حالياً).

لقد قسمت بغداد بجانبيها الشرقي والغربي بموجب خارطة الاحتلال الى أكثر من مائة محلة، بعد أن كانت محلات بغداد وعگودها تربو على الألف، وأطلق على كل محلة اسم اختير لها كيف ما اتفق. فبعضها سميت باسم الجامع التي يضم أضرحة الأتقياء ورفات الأولياء وبعضها سميت باسم الأشخاص البارزين من سكنة تلك المحلة وبعضها سميت بأسماء معالم بارزة أو مرافق اشتهرت بتلك المحلة وبعضها سمي باسم العوائل أو العشائر التي استوطنتها، ولا تخلو كثير من تلك الأسماء من الدلالة والطرافة والمغزىٰ. واني إذ أحاول تعداد محلات بغداد فإنما لاذكّر البغادة كيف كانت عاصمتهم من قبل، يوم كان عدد نفوسها لا يتجاوز المائة ألف نسمة وكلهم محصورون ومكدسون في تلك الرقعة الضيقة، وكيف هي اليوم بعد أن تشتتوا شذر مذر في أرجاء بغداد الحديثة التي تجاوزت نفوسها الأربعة ملايين نسمة، وعن مصير المحلات التي سكنها آباؤهم وأجدادهم من قبل.

ومما يحضرني من أسماء محلات صوب الرصافة المحصورة بين باب المعظم والباب الشرقي، ولا تتعداها الى الأعظمية والكرادة الشرقية، هي المحلات التالية، أدرجها أدناه كيف ما اتفق:

جديد حسن پاشا،[1] باب الآغا،[2] الميدان، الحيدرخانة، العاقولية، إمام طه، الدشتي، السور، الطوب، قمرالدين، البارودية، المچاريّة، البقچة، سراج الدين، باب الشيخ، الصدرية، الست هدية، المهدية، العوينة، التسابيل، قاضي الحاجات، تحت التكية، صبابيغ الآل، رأس القرية،[3] رأس الساقية، سيد عبدالله، رأس الكنيسة، دلي عباس[4]، سيد سلطان علي، الصابونچية[5] الحاج فتحي، فرج الله، عباس أفندي، سوگ الغزل، حنون الكبير، حنون الصغير (تعرف الآن سوك حنون)، قمبر علي، دكان سمعو، دكان شناوه، التورات، أبو سيفين، أبو دَوْدَوْ، السنك، المصرف، گهوة شكر، الجوبه،[6] عمار سبع أبكار، المربّعة،[7] فضوة عرب، تپّة الكرد، تپّة الگاوور، الدهّانة، الخلاني، القُشَلْ، الفضل، القاطرخانة، العباخانة، المولهخانة، الدبّاخة، التنبلخانة،[8] الهيتاويين، الجنابيين، القراغول، الفناهرة،[9] البوشبل، البومفرّج، العَزة، الطوالات، السويدان، المرادية، الپولنچيّة،[10] وأخيراً گوك نظر (گوك نزر).[11]

---

(١) محلة جديد حسن پاشا كانت تعرف قبلا محلة شاه قولي وقليچ أصلان وكنج عصمان. .ولما تولىٰ حسن پاشا بن مصطفى پاشا السپاهي ولاية بغداد (من سنة ١٧٠٤م حتى سنة ١٧٢٣م) شيد جامعا جديداً في تلك المنطقة عرف بجامع جديد حسن پاشا (جامع السراي حالياً) للتمييز بينه وبين جامع (عتيق حسن پاشا) وهو جامع الوزير حالياً المجاور لجسر الشهداء ومدخله من سوق (الجوبقچيّة - السراجين - السراي حالياً) والذي شيده أحد الولاة الأتراك المسمىٰ حسن پاشا أيضاً قبل تولي حسن پاشا والد أحمد پاشا وجد عادلة خاتون ولاية بغداد في المرّة الثانية.

(٢) محلة باب الآغا، كانت تعرف قديماً بمحلة (رلان) ثم سميت محلة خرطوم الفيل. واشتهرت في العصر العباسي بأنها كانت موقع (سوق الثلاثاء) الذي شيد في بغداد مؤخراً سوق حديث تخليداً لاسمه.

(٣) محلة رأس القرية كانت تعرف قديماً بمحلة (جامع عادلة خاتون).

(٤) محلة دلي عباس: أي عباس المجنون.

(٥) اشتهرت محلة الصابونچيّة في أوائل الثلاثينات بوجود دكان (كبيچي) في مدخلها وكان يقال تندراً بأن معظم قرارات مجلس الوزراء على عهد نوري السعيد كانت تقرر حول (صينية) من كباب الصابونچيّة!!

ويلاحظ القارئ أن أسم الدنگچيّة لم يرد في هذه القائمة، إذ قد مر عليها تقادم الزمن، فحل محله اسم باب الآغا وجديد حسن پاشا، ولذا فكلما ورد أحد هذين الاسمين في سياق البحث فيجب ان ينصرف الذهن الى الدنگچيّة أيضاً.

قبل أن تكتسب المحلات المذكورة أسماءها الحالية كانت معظمها تعرف بالعگد الموجـود فيها، مثل عگد النصارى، عگد اليهود، عگد الخناگ، عگد الصخر، (الدنگچيّة) عگد كاتب العربية (رأس القرية قرب جامع عادلة خاتون الكبير) عگد قليج أصلان، وعگد گنج عصمان(جديد حسن پاشا) عگد گهوة المفاليس (الدهانة) عگد الخاصكي (العمار) عگد فراشه (الشورجة والدشتي وامام طه) عگد صالح بك[11] وعگد المتولي (من عگود الدنگچيّة) عگد القوشچيّة (حمام المالح) عگد الجنايز (من عگود اليهود) عگـد القَلغ (إمام طه)، عگد الطنطل، عگد خرطوم الفيل (باب الآغا) عگد أبو شيطح (من عگود اليهود قرب سوگ حنون) عگد الأورفلي (رأس القرية) عگد الكلّچيّة (الميدان) وعگد الصابونچيّة (الميدان) وعگد الطوبچيّة (محلة الطوب) وعگد اليولنچيّة[12] (شارع حسان بن ثابت حالياً).

ولا تختلف أسماء محلات الكرخ عن محلات الرصافة من حيث الدلالـة والطرافة والمغزى وتحضرني منها أسماء المحلات المحصورة يومئذ بين الجعيفر والصالحية ولا تتعداها الى المنصور والمأمون والحارثية وكرادة مريم وأم العظام وما جاورها، وهي :

الجعيفر، الشيخ معروف، الشيخ جنيد، الشيخ صندل، الشيخ بشار، الشيخ علي، خضر اليـاس ،منصور الحـلاج، جامـع عطا، جـامع حَنان، الفحامـة، الفلاحـات، علاوي الحلة، الدهدوانة، الست نفيسة، الست زبيـدة، بنات الحسن (غـير بنات الحسن في جـانب الرصـافة) الدوريين، التكارتة، الجبور، المشاهدة، الدهامشة، المعدان، الحصّانة، الجِجّاجْ ، بيت الشواف،

---

(٦) الجوبة هي أقدم أسماء محلات بغداد وترجع تسميتها الى العهد العباسي، وتعرف الآن (بالوگفة) حيث تباع الأغنام وأبقار الضحايا (العگيگة)

(٧) المربعة، وتشتهر بگهوة ملاّ حمادي المطلة على شارع الرشيد مقابل شريعة المربعة، المعروفة تاريخياً بشريعة (بوران).

(٨) التنبلخانة، هي دار للعجزة والعاطلين شيدها مدحت پاشا وتقع في محلة الجوبة وقد طغى اسمها على اسم الجوبة في الاستعمالات الشعبية فترة من الزمن.

(٩) الفناهرة، محلة اختص سكانها من عشيرة الفناهرة بصنع المكانس وسائر مصنوعات الخوص.

(١٠) گوك نزر: محلة تقع قرب الميدان والكلچيّة، وتكثر فيها بيوت الدعارة السريّة (الگزلي) وقد خلدت اسمها الأرجوزة التي تروي عن بنات الهوى وهن يستنجدن بمختار المحلة (السيد حسين) لأنتشالهن من ذلك الجحيم:

عـمي يـا سـيـد حـسـين دگـطع مـهـرنـا   واحـنـه بـنـات بـيـوت شـنـو ذنـبـنـا

(١١) عگد صالح بك وعگد المتولي وهي من عگود محلة جديد حسن پاشا الحالية وقد سمّيت باسم محمد صالح بك ابن عمة عادلة خاتون وأول المتولين على أوقافها توفي سنة ١٢٧٤هـ

(١٢) اليولنچيّة: وهي منطقة شارع حسان بن ثابت حالياً، حيث يقع حمام الپاشا (المصرف العقاري اليوم) وكانت مختصة بصناعة البرادع والجلالات وسائر لوازم الخيل والبغال والحمير.

باب السيف، سوگ الجديد، سوگ اللبن، سوگ العجيمي، سوگ حمادة، حمام شامي، الصالحية، الشواكة، الكريمات(*)، واخيراً محلة الذهب(**)

* * *

وبعـــد:

أود أن أدعو القارىء الكريم لمرافقتي في جولة نطوف بها بعض أسواق الدنگچية وباب الآغا، لأدلة على معالمها التراثية التي كانت قائمة في أوائل العشرينات من هذا القرن، والتي اندرس معظمها في الوقت الحاضر.

سنبدأ جولتنا من المولهخانه وهو السوق المركزي لمحلة الدنگچية، وفيها كثير من المعالم ذات التراث البغدادي الأصيل.

فإلى يمين الداخل الى سوق المولهخانه يقع دكان (حسون أبو الجبن) المختص ببيع أجود أنواع الجبن الكردي والجبن الأوشاري والجبن المثوّم، وكذلك العسل والشهدة وما شاكلهما. إن حسوناً هذا هو شاب نابه قدم من عانه صغير السن وعمل في المولهخانه بائعاً للجبن سنين طويلة، وكان من الرعيل الأول من الذين تكلموا بالاشتراكية، ولذلك سمّىٰ دكانه (حانوت الإشتراك) وقد انضم الى جماعة الأهالي في الثلاثينات. كنت أقضي ساعات طويلة في دكان حسون، نتناقش ونتجادل حول المعتقدات السياسية الحديثة، وكان أسلوب حسون في الجدل والمناقشة مقنعاً وممتعاً جداً.

وإذا كان حسون أبو الجبن قد اشتهر في المولهخانه باشتراكيته فأن (الأعضب) المجاور له قد عرف (بمُغُلْوانِيَّتِهِ)، فكنا نعزف عن التسوق من دكانه لسببين: أولهما جفاء معاملته وثانيهما ارتفاع أسعاره بالنسبة للآخرين. ان (الأعضب) لا يختص ببيع مادة واحدة وإنما يبيع مختلف أنواع المأكولات كجبن العرب (الحلو) وجبن (الدَيلَمَة) وجبن السواچن واللبن المنشّف والعسل المصفىٰ والعسل الخام (الشَهْدة) وتمر الخصّاف والأشرسي، وما الى ذلك.

تجلس الى جانب دكان الأعضب فطومة المعيـدية أم الگيمـر والمعروفـة بگيمرها النظيف فهي لا تلمس الگيمر بأصابعها ولا تستعمل السكين لتقطيع (شيف الگيمر) وإنما تستعمل أبرة اللحاف الطويلة لهذا الغرض، إذ إنّ الأبرة لا تنقل الجراثيم مثل الأصابع ولا تنقل الزنجار مثل السكين.

مقابل دكان (الأعضب) دكان الپاچهچي، وهو (فَوبْلي) من محلة الصدرية معروف بطول قامته وبشواربه الطويلة والغليظة. إن هذا الدكان كان من معالم المولهخانة المشهورة. ففي ساعات الصباح

(*) الكَريمات هي المحلة التي شيد فيها قصر كاظم پاشا وتعرف المنطقة (باب الكريمات) وقد اتخذ قصر كاظم پاشا مقراً لدار المندوب السامي البريطاني ثم مقراً للسفارة البريطانية، وكان البغداديون يسمون السفير البريطاني تندراً بـ (مختار الكريمات) لأنه كان الكل في الكل بادارة شؤون العراق يومئذ. اما تسمية (مختار الشواكة) فهي تسمية خاطئة لأن السفارة تقع في محلة الكريمات وليس في محلة الشواكة المجاورة لها.

(**) محلة الذهب هي مجموعة أوكار ومواخير للدعارة المبتذلة التي كانت تديرها الگوادة (ريمة أم عظام) وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى قصر «باب الذهب» الذي شيده المنصور في وسط مدينته المدورة.

الباكر تباع فيه الهريسة، وهي الأكلة المحببة للبغداديين إبّانَ فصل الشتاء، وتكاد تنقرض الآن. وتؤكل الهريسة عادة في صحن من الفخار يشبه الصحن الذي يستعمل في سورية ولبنان للحمص بطحينة والفول. ومن متممات الهريسة دهن الحُرّ والشَكَر والدارْسين (القرفة). وبعد أن يفرغ الپاچهچي من خدمة زبائنه صباحاً يستعد لخدمتهم ظهراً بتقديم الپاچه، وهي الأكلة الشعبية الأخرىٰ التي تكاد تنقرض. والبغداديون يفضلون پاچة المولهخانة على پاچة (إبن طوبان) في الكرخ والتي تكثر فيها عادة (الكروش) وعلى پاچة الحاتي في الشيخ عمر. والى جانب دكان الپاچهچي، الذي ما زال قائماً وهو اليوم دكان لبيع الحقائب (الجنط)، يقع دكان الكَبَبْچي.. وكباب المولهخانة اشتهر في بغداد قبل أن يشتهر كباب الصابونچية وكباب الفلوجة وكباب أربيل وكباب السليمانية وكباب الكاظم وكباب سوگ الغزل، وهذا الدكان من أبرز معالم المولهخانة وهو ودكان الپاچهچي كل ما تبقىٰ منها بعد استملاك الدكاكين الأخرىٰ لمشروع نفق سوگ السراي وتوسيع واجهة جامع الآصفية ودار القرآن والمستنصرية، وهو الآن دكان لبيع المرطبات.

يزعم كببچي المولهخانة أن مسرحية (ماني حمد) قد مثلت في دكانه، وكثيراً ما يرويها لزبائنه مع كثير من الملح والفلفل والبهارات والمبالغات. إن خلفية هذه المسرحية هي أن سركالاً من الدليم قَدِمَ بغداد لأول مرة في حياته. وما إنْ وصل رُگْبَة الجسر من جهة الرصافة، حتى لمحه أحد شَقَنْدَحِيَّة بغداد، والبغداديون معروفون بالظرف والأريحية، ومجبولون على الدعابة وحب النكتة وابتكار المقالب. فلما رآه يتلفت يمنة ويسرة، فاتحاً فاه إعجاباً ببغداد ومتبهّراً بأبنيتها، ولاحظ أنه غشيم وبسيط (من أهل الله)، أخبر رفاقه وكانوا يلعبون المنقلة في احدىٰ المقاهي، بأن هذا الشيخ خير مادة لمقلب، فأقبل عليه مرحباً به بحرارة وصميمية، وصار يقبّله ويربّت على أكتافه ويسأله عن الأهل والعيال والزرع والغنم والچاير والحلال، وعن صحة فلان وفلتان من المعارف والأصدقاء، ويكرر الترحيب (بحَمَدْ) ولكن حَمَدْ يجيب:

- يا محفوظ البگا والسلامة، تراهي أنت متوهّم، والله ماني حَمَدْ، والشقندحي يلحّ بالترحيب بصديقه ـ المزعوم ـ حَمَدْ:
- هاي شنو حَمَدْ؟ يبيّن أنت ناسي، مو گعدنا بگهوة البيروتي قبل چم شهر وشربنا چاي وگهوة سوه، فيجيب السركال:
- يا چثير الخير، والله آنى لا شايف بيروت ولا جاعد بگهاويها.
والشقندحي يمضي بالسؤال من ضيفه:
- شْوُكِتْ وِصَلِتْ حَمَدْ، وشْوَكِتْ راحْ تِمشي؟ ويجيب السركال:
- والله هَسَّه وِصَلِتْ وراحْ أروّحْ لَهَلْنا المغرب. فيصرّ الشقندحي على الزائر أن يتناول الغداء معه. وعندئذ أخذ الجواب (ماني حمَدْ) يخف ويخبو ثم يتلاشى.

إصطحب الشقندحي ضيفه الى دكان كببچي المولهخانة، فطلب المضيّف من الكببچي الإهتمام الزائد بالضيف الكريم، وأمر بعشرين صيخ كباب وخمسة شياش طماطة ومثلها بُصَلْ مَشوي، وطلب من الكببچي أن يرسل الصانع الى خان جغان ليجلب كاسة طرشي، والى دكان



دكان كبيجي المولهخانة في وضعه الحالي، حيث مُثِّلَتْ فيه مسرحية «ماني حمد»
وهو اليوم دكان لبيع المرطبات، بعد هدم سوگ المولهخانة لتوسيع جامع الآصفية وترميم وصيانة المدرسة المستنصرية

الحاج جواد الشكرچي في الكرخ ليجلب كاسة سكنجبيل، والى باب الآغا لشراء راسين خس.

قدّم الطعام الى الضيف وصار يأكل بنهم وبالخمسة، و(يتريع ويگول لنفسه عوافي)، ولما شبع دعاه مضيفه للتوجه الى المُصْلُخْ لغسل يديه وفمه ووجهه، فقام الضيف الى المُصْلُخْ وتناول قالب صابون رَگي أبو الهيل وصار يبري فيه ويغسل وجهه بالوغفه ويتنشّف بالپشكير، ثم طلب الشقندحي إستكانين چاي وفي هذه الأثناء إنسلّ من الدكان قائلاً للكبيچي:

- الحساب عند الشيخ.

عاد الضيف إلى مكانه وأخذ يشرب الشاي، فانتظر خمس دقائق، عشر دقائق، عشرين دقيقة، نص ساعة، والمضيّف لم يعد. عند ذلك قام السركال وهمّ بمغادرة الدكان، فسأله الكبيچي:

- هاي وين شيخ؟ أجابه السركال:
- الحساب عند الأخ. فأمسك الكبيچي بتلابيب الشيخ (چلّب بزياگه) قائلاً له:
- هَيْ أَخْ، هَيْ بطّيخ، تدفع الحساب لو أَسَوّيك جُنْبُشْ وأطلعك من بيت هيبو.

فما كان من السركال إلّا أن يفتح الكيس ويسدد الحساب بالتمام والكمال، وهو يردد ويدردم :

- گتْلَه ماني حَمَدْ، يگول، لا، اِنْتَ حَمَدْ.

فذهبت الحكاية مثلاً يضرب في المناسبات المماثلة.

* * *

يحدّ محلة - الدنگچية - غرباً محلة جديد حسن باشا، ويفصلها شارع الأكمكخانة (المتنبي حالياً) وشمالاً محلات العاقولية وإمام طه والدشتي ويفصل الدنگچيّة عن شارع باب الآغا الشارع الجديد «خليل باشا جاده سي» (شارع الرشيد حالياً) وشرقاً محلة رأس القرية ويفصلها طريق المصبغة أو طريق القيصرية (شارع السموأل سابقاً، شارع أسامة بن زيد حالياً) وجنوباً دجلة العظمىٰ. وقبل المضي في السرد أود أن أقف قليلاً على شاطيء هذا النهر العزيز على قلوب البغداديين والعراقيين جميعاً.

إن كافة الحجج والاعلامات الشرعية وسجلات الطابو التي اطلعت عليها تصف نهر دجلة (بدجلة العظمىٰ) ولكن بعد الاحتلال البريطاني سلخت (العظمىٰ) عن دجلة وبقيت لبريطانيا وحدها! . ويا ليتنا أعدنا لهذا النهر الحبيب صفة (العظمىٰ) التي يستحقها عن جدارة والتي لازمته طيلة عدة قرون. ولو أن هذه الصفة ليست قديمة قدم العهد العباسي، غير أني لا أجد ضيراً من ذكرها مشفوعة بدجلة كلما ورد اسمها في الأطالس والخرائط والسجلات والوثائق الرسمية، اعترافاً منا بعظمة هذا النهر الخالد.

فلماذا يا ترىٰ نمجد ونخلّد (أبو النّواص) ونسمي المنطقة التي عقدت الندوة المشار إليها في كلمة الاستهلال باسمه ونخصص لها الملايين وربما البلايين، ولا نرد على الأقل لنهر دجلة اعتباره المسلوب، وهو العمود الفقري لتلك المنطقة والمحور الذي تدور حوله فكرة تطويرها وازدهارها. إن أبا نؤاس ليس مَثَلَنا الأعلىٰ لا فلسفياً ولا قومياً ولا أخلاقياً، ولا هو من طينة هذا البلد، فطينته طينة فارسية أعجميّة. أما من ناحية القريض فهناك الكثيرون من شعراء العرب الذين عاشوا على ضفاف دجلة ممن يضاهونه في هذه الصناعة. فحبذا لو سميناها (العباسيّة) مثلاً بدلاً من شارع أبي نؤاس، كما وردت التسمية عرضاً على لسان السيد رئيس الجمهورية في سياق المناقشات التي جرت في الندوة الملمع إليها آنفاً، لأن الهدف الذي نرمي إليه هو إحياء التراث العباسي العربي الأصيل، وليس بعث مجون ومباذل أبو النّواص ولا إحياء زندقته و«هبنّقاته» ولواطاته، ولا تمجيد شعوبياته : أليس هو القائل بحق العرب :

عاج الشقيّ على رسمٍ يُسائله ... وعجتُ أسأل عن خمارة البلدِ

يبكي على طلل الماضينَ من أسدٍ ... لا درّ درّك قل لي من بنو أسدِ

ومَنْ تميمٌ ومن قيسٌ ولفّهما ... ليس الأعاريب عند الله من أحدِ

أليس هو الذي يذم العرب ويصفهم (ببني الرعناء) ويتفاخر بقومه الفرس وبملوكهم بقوله :

ببلدةٍ لم تصل كلبٌ بها طُنُباً — بلا خباءٍ ولا عبس وذبيانُ
ليست لِذُهْلٍ ولا شيبانها وطناً — لكنها لبني الأحرار أوطانُ
أرض تبنّى بها كسرى دساكره — فما بها من بني الرعناء إنسانُ
وما بها من هشيم العربِ عُرْفُجة — ولا بها من غذاء العُرْب حطبانُ

وهو القائل :

دع الطلل الذي اندثرا — يقاسي الريح والمطرا
ألم تَرَ ما بنىٰ كسرىٰ — وسابور لمن غبرا
مَنازِه بين دجلة والفرات — شَجَرا
بأرضٍ باعد الرحمن — عنها الطَلْحَ والعشرا
ولم يَجعل مصايدها — يرابيعاً ولا وجراً
ولكن حور غزلانٍ — تراعي بالملا بقرا

وهو القائل بحق العرب :

وجاورت قوماً ليس بيني وبينهم — أواصر إلاّ دعوة وظنون

وهو الذي يتهكم علينا ويسخر بنا ، فيقول :

ولفارس الأحرار أنفس أنفس — وفخارهم في عشرة معدومُ
وإذا أعاشر عصبة عربيّة — بدرت الى ذكر الفخار تميمُ
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهمو — شرّاً فمنطق شرّهم محسومُ

وختاماً أتمنى من كل قلبي العدول عن تسمية الشارع المنوي تطويره، باسم شارع (أبي نؤاس)، وتسمية المنطقة كلها بالعباسية، ولا بأس من تسمية أحد شوارعها الخلفية أو الجانبية حيث تتجمع الحانات والبارات والمواخير والنوادي الليلية، بشارع (أبي نؤاس)، لأني واقف على كيفية تسمية ذلك الشارع باسمه الحالي. كان في الباب الشرقي (أمام مدرسة الراهبات الحالية من جهة النهر) مقهىً يعرف بگهوة گزار كان يرتادها في أمسيات الصيف بعض الصحفيين والكتّاب والشعراء والمثقفين والشباب ومن يرغب في قضاء أمسية على شاطيء دجلة والتمتع بكأس من الخمر والسمك المسگوف، وقد خطر لبعضهم أن مثل هذا الجو الخيالي يشبه الأجواء التي كان يعيشها أبو نؤاس في العهد العباسي، فقال بتسمية الشارع بشارع (أبو نؤاس) فانتقل الرأي من فم الى آخر حتى وصل الى مجلس أمانة العاصمة، وكان أخي المرحوم عبدالستار عضواً فيه. فقرر المجلس تأليف لجنة لتسمية شوارع بغداد المهمة. وبناءاًعلى اقتراح اللجنة تقرر تسمية الشارع بذلك الاسم (*) فالتسمية إذن تسمية عفوية ولدت على مائدة من الخمر والسمك المسگوف على شاطيء دجلة في أمسية من أمسيات صيف

(*) ان شارع أبي نؤاس الحالي ليس بشارع، إنما هو سدة الري التي تبدأ من الباب الشرقي حتى الكرادة الشرقية والزويّة والجادرية والزعفرانية والرستمية وقد اهتم الانگليز بعد احتلال بغداد بترصين هذه السدة وتقوية معظم أجزائها، فكسوها بشبكة من طابوق الاسمنت المظفور بالأسلاك، وذلك للمحافظة على معسكر الهنيدي (معسكر الرشيد حالياً) من الغرق من جهة نهر دجلة، اما من جهة نهر ديالى فكانت تتخذ احتياطات أخرى وذلك باكساء السداد أثناء مواسم الفيضان بـ (البواري)، وهي حصران مصنوعة من القصب وتثبيتها بـ (الهواليش) وهي (مرادي) قصيرة مدببة من أحد طرفيها.

بغداد الجميلة. فلا يصح والحالة هذه أن تأخذ أبعاداً كالأبعاد التي نحن بصددها عند الكلام عن تطوير المنطقة بأسرها للمستقبل البعيد.

* * *

أعود للكلام عن الدنگچيّة :

إن تسمية محلة الدنگچيّة بهذا الاسم يرجع كما كنت أسمع من (الشيّاب والعجائز) الى وجود جهاز يعرف بالدنگ منصوب في دكان في عگد الصَخرْ (قريب من سوق الصفافير حالياً) ويستعمل لتهبيش التمن، وهو عبارة عن صخرة كبيرة مشدودة الى ذراع طويل من الخشب يشبه العتلة، فيرفع الصخرة عدد من العمال ثم يهوون بها على التمن فتهبّشه (أي تفصل السحالة عن حبات التمن الصحيحة). وكان أصحاب العلاوي يقصدونه لتهبيش التمن بكميات كبيرة، إذ كان التمن يهبش يومئذ في البيوت بواسطة الجاون والميجنة. لقد كان لهذا الدنگ، دوي شديد يصل صداه الى الدور المجاورة ولمسافات بعيدة فينغص على ساكنيها راحتهم، ويقض مضاجعهم وخاصة في أوقات الفجر وساعات الصباح الباكر. وكانت المرحومة جدّتي «هاجر» تقول انها بعد انتقالها من بيت والديها في محلة الصدريّة الى بيت الزوجية في الدنگچيّة في السبعينات من القرن الماضي لم تستطع النوم في (الغبشة) لعدة أشهر بسبب دوّي هذا الدنگ.

لم يبق للدنگچيّة من أثر هذا اليوم، فقد اختفى اسمها ومعظم أبنيتها ومعالمها، ولم يبق منها سوى ثلاث نخلات كانت قائمة في حديقة جامع عادلة خاتون الصغير الذي دَرَسْت فيه أيام طفولتي. وتشاهد الآن أمام العمارة التي تشيد في شارع المأمون مقابل المتحف البغدادي. وقد أهبت بأمين العاصمة السيد سمير عبدالوهاب برسالة مؤرخة في ١٠/٥/١٩٨٠ بالابقاء عليها إن لم يكن في ابقائها محذور فني، فأصدر الأمر بتأريخ ١٢/٥/١٩٨٠ (بعدم رفع النخلات الجميلات). فجزاه الله خير الجزاء.

أما أمّ الدنگچيّة وهي محلة باب الآغا حالياً، فقد دانت أخبارها آفاق بغداد وصارت مضرب الأمثال ومصدر القصص والأقوال. فما هي باب الآغا ومن هو الآغا الذي سميت الباب باسمه؟.. المعروف أن لبغداد أربعة أبواب كانت مشيدة على السور المحيط بها، هي باب السلطان (باب المعظم) وباب الظفرية (باب الوسطاني) وباب الحَلَبة (باب الطلسم) وباب كلواذى (الباب الشرقي حالياً) ويذكر تأريخ بغداد في العهود المظلمة ان باباً خامسة كانت مقامة على مدخل الجسر تعرف (بباب الشط) (صوقاپي) لا أثر لها إلا على الخرائط القديمة. فأين تقع (باب الآغا) ولماذا شيدها الآغا؟ علم ذلك عند الله وعند الآغا.

يروى أن أحد الأغوات الانكشارية العثمانيين يُدعى الحاج أحمد آغا، حكم بغداد في العهود المظلمة حكماً (قرقوشياً) أي كيفياً واستبدادياً، فكان الحاكم بأمره يسجن من يشاء ويعفو عمن يشاء، يغضب على من يشاء، ويصفح عمن يشاء ولا اعتراض على حكمه، وربما كان هو الآغا الذي سميت الباب باسمه.

ومن القصص التي يتبادلها البغداديون عن أسلوب حكم ذلك الآغا أن شقندحيّة من شَقَنْدَحيّات بغداد أرادت الانتقام من أحد الرجال، فشكت أمرها الى الآغا زاعمة أن الرجل هو ابنها

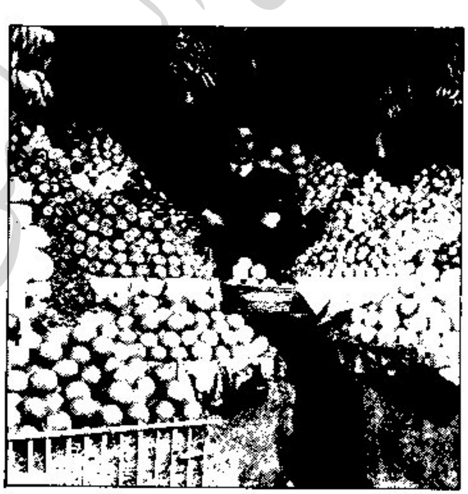
وانه ابن عاقّ مقصّر في واجباته نحوها فيتركها جوعانة عريانة وليس لها غيره من معيل ، فأرسل الآغا جلاوزته لاحضار الرجل بقوة السلاح . فلما حضر أمام الآغا وهو مذعور، بادره الآغا بالسؤال منه عن أسباب تقصيره بحق والدته . فأجاب الرجل : يا حضرة الآغا ، إن هذه المرأة ليست والدتي وأن والدتي قد توفيت منذ سنين طويلة ، غير أن الآغا لم يلتفت الى أقواله وتوسلاته وأصرَّ على أن المشتكية هي أمه ، فحكم عليه ان يحملها على ظهره الى البيت ويقوم بأودها . ففعل الرجل ذلك مسلماً أمره الى الله . وفي الطريق التقى به أخوه وهو على هذه الحالة ، فسأله مستغرباً ، «مِنو هالحُرْمَه اللّي شايلْهـا على ظَهْرَك ؟» أجاب الأخ : (مو هِيَّ أمنا» ، فقال الأخ الآخر :«ولكن أمنا ماتَتْ گَبُلْ عَشْر سنين» . فما كان من حاملِ الأم المزعومة إلّا أن يقول لأخيه : «روح فهم الآغا» وفي نص آخر «روح قنعَ الآغا» . وذهب قوله مثلاً على الحكم الاستبدادي التعسفي القرەقوشي (حكم الگوتره) .



خبز باب الآغا : «حـار ومكسّـب ورخيـص»



مهدي گنّو، عميد الفاكهانية في باب الآغا



مجيد گنّو، وفواكه باب الآغا النادرة

تشتهر باب الآغا بالجمع بين المحاسن والأضداد وبين الاهمال والاتقان ، وبين الجيّد والرديء . فان خبز باب الآغا مضرب الأمثال في الجودة والرخص والأفضلية على غيره من الخبز، فيقال (خبز باب الآغا ، حارّ ومكّسب ورخيص) ، وان فواكه باب الآغا هي خير الفواكه التي تعرض في أسواق بغداد، فيقال : إشتري الفواكه من وِلدْ گتّو في باب الآغا(*) وأن (شغل باب الآغا) هو مضرب الأمثال في الرداءة وعدم الدقة. وأن أصحاب الحرف في باب الآغا من النجارين والجرّاخين والحدادين والتنَكْچيّة وأمثالهم هم مضرب الأمثال في الاهمال والمماطلة وسوء المعاملة وعدم الدقة في العمل.

ومن الأحجيات المتداولة بين البغداديين أحجية مؤدّاها أن البغدادي يولد في باب الآغا ويموت في باب الآغا وتعليل ذلك هو أن نجاري باب الآغا يختصّون بعمل الكواريك والحجلات للأطفال والتوابيت للأموات. يروىٰ أن شخصاً أوصىٰ بصنع كاروك لطفله عند أحد نجاري باب الآغا ودفع له عربوناً ، فوعده النجار بأن الكاروك سيكون جاهزاً بعد وقت قصير. وكلما راجعه الرجل يقول النجار: «بعد ما خلص». راح يوم وجاء يوم ، والطفل أصبح رجلاً وتزوج وأنجب، فراجع الرجل النجار يطالبه بالكاروك الذي أوصىٰ به ابوه. فتضايق النجار من هذه اللجاجة بالمطالبة بالكاروك فما كان منه إلّا أن رمىٰ العربون بوجه الرجل قائلاً له : «عمي آني هيچي شُغُلْ مِسْتَعجِلْ ما اَعْرُفْ اَشْتُغُلْ ، أُخذوا فلوسْكُمْ واچفوني شَرْكُمْ».

* * *

بعد أن أخنىٰ الدهر على اسم الدنگچية أصبحت باب الآغا بحدودها الموصوفة آنفاً هي (القطب الذي يدور حوله الكون) وأصبح شارع الجسر (عگد الصخر) الشريان الأبهر الذي تمر فيه كل قطرة من الدم الى القلب. فما من بغدادي إلّا ويمرّ في باب الآغا والدنگچية في طريقه الى دوائر الحكومة أو الأسواق أو الخانات أو المخازن أو المطاعم الشعبية أو الاتصال بصَوبيْ بغداد: الرصافة والكرخ.

فاذا أراد البغدادي مراجعة القشلة أو السراي أو البلدية (أمانة العاصمة) أو دائرة البرق والبريد (التيلخانه) و(البوسطخانه) مثلاً فلابد أن يمرّ بباب الآغا وبشارع الجسر (عگد الصخر) والدنگچية.

وإذا أراد البغدادي أن يكسو نفسه وعياله فلا بد أن يمرّ بها في طريقه الى الأسواق الداخلية : فأن شاء شراء الأقمشة على اختلاف أنواعها مرّ من سوق السراي وباب الآغا ، وإن شاء شراء الاچواخ الصوفية أو الأنسجة القطنية أو خام الجنكر أو العوفي أو الپاتسقة أو الهمايون أو المململ أو الكودري أو البوپلين قصد سوق (الچوخچيّة) أو سوگ العريض أو سوگ المرادية أو سوگ الجايف أو سوگ البزّازين ، وإذا شاء شراء الحرير وأنواع الخيوط الحريرية والوشايع والكلبدون توجه نحو (سوگ القزّازين). وإذا رغب في خياطة صاية پته (أم النجمة) أو صاية شاهي (مقلمة بأقلام زرقاء وبيضاء مسننة)(**) أو چطاره (مقلّمة) بأقلام حمراء وبيضاء عريضة ، أو كُجَرات أو شال ترمه (قماش صوف فيه رسم اللوزة وينسج في كشمير) أو زبون زري أو شعري ، أو شعري مجوّت ، أو صايغ بيزي(***) أو ثوب چتان أو ثوب ريزه أبو هلاز ، أو خياطة دميري أو لبّادة أو شِنَنْ ، توجه نحو سوگ الخياييط (الخياطين) ، وإذا شاء شراء حياصة أو هيميان أو أي نوع من أنواع الأحزمة قصد سوگ الحُيَص.

وعلى ذكر سوگ الخياطين لابد ان أترحم على الظريف والمنكت والشقندحي البغدادي الطيب الذكر عميد الخياطين عبدالله الخياط. أما إذا نوىٰ ذلك البغدادي شراء عباية صيفية: الخاچيّة أو البتيّة أو الدّورَگيّة أو الشاليّة أو القرهغوليّة أو الدفّه (صنع باب الشيخ)، أو عباية شتوية من نوع (نايين) المصنوعة من وبر الجمال البختيارية وهي أغلىٰ أنواع العبي، أو من نوع المانيرا، السوداء اللون، والتي تعرف محلياً (هِربْد) والمصنوعة من أفخر الأجواخ الإنگليزية، أو السعدونيّة (أم تحته وتحته)، أو نوع (البَرْكك) المصنوعة من مزيج من الصوف والوبر، أو نوع (بوشهر) أو الحساويّة المصنوعة من وبر الجمال العربية، فيجد ضالته في سوگ العبايچيّة القريب من جامع الخفافين من جهة المستنصرية.

وإذا كان ذلك البغدادي من هواة السجاد الايراني (الأورطات واليانات) بأنواعها المختلفة، الكاشان والكرمان والأصفهان والقم والتبريز وسائر الأنواع، أو البسط والكلايم والفجاجيع والشفوف وغير ذلك من المصنوعات الصوفية، فهي متوفرة في أحد المخازن المحيطة بالمدرسة المستنصرية أو في خان الصفافير أو في المصبغة أو سوگ القبلانية. وإذا أراد البغدادي تصليح ساعته المعطوبة أو شراء ساعة جيب جديدة أم الطمغة أو ساعة (ولايتي) وليس (راسكوب)، (****) فيعثر عليها لدى أحد الساعه چيّة المحيطين أو المقابلين لجامع الخفافين.

أما إذا رغب في شراء يمني حلب أو يمني بغداد (قبلورطه) فعليه أن يذهب الى سوگ اليمنچية المجاور لجامع الخفافين. وإذا كان غير ميسور الحال وأراد شراء يمني (جَلَبْ) فعليه أن يقصد سوگ السيان المؤدي الى خان الگمـرك وباب المستنصرية الشمالي وگهوة المميز وشريعة الجسر.

أما إذا شاء أن يوصي على زوج قُنْدَرة فأنّ القندرچية موزعون على سوگ المولهخانه وسوگ السراى وسوگ السرّاجين، فهناك يجد الجلود بأنواعها المختلفة: الگلاصي والفرنساوي والسختيان والميش.. ألخ فيوصي القندرچي على زوج قنادر (خياط أو بسمار)، مما يختار من الجلود وحسب إمكانيته للدفع. فاذا كانت إمكانيته محدودة ولا يستطيع إلاّ شراء البضائع المستعملة، فأن سوگ الهرج المجاور للمستنصرية مفتوح في كافة أيام الأسبوع ومنها يوم الجمعة (وهو غير سوگ هرج الميدان) وإن لم يجد ضالته هناك فعليه أن يقصد سوگ الأيسكچيّة.

(*) وِلدْ گنو هم مهدي، وأخوه مجيد، وأخوانه رزوقي وسلمان وعبود، وكلهم فاكهانية في باب الآغا، وسوگ الأمانة، وساحة الرصافي حالياً.

(**) إرتديت واحدة مع القيافة البغدادية ليلة رأس السنة في لندن سنة ١٩٣٨.

(***) يسمىٰ في بغداد وفي الفلوجة والرمادي (صابغ بيزي) والبعض يلفظونه (صاوغ بيزي). راجع: (معجم اللغة العامية جلد ١ ص ٥٠٢ تأليف جلال الحنفي.

(****) لم تكن ساعة اليد مألوفة في بغداد يومئذ، ومن يحملها يصبح عرضة للإنتقاد من المجتمع البغدادي.

وإذا أراد البغدادي أن يشتري لحصانه سرجاً أو لجاماً أو رَشْمَة أو تُفَر أو سَيْر لأي غرض كان، فليس له إلاّ أن يذهب الى سوگ السراجين المجاور لجامع الوزير في سوگ السراي (المحاذي لسوگ الچوبقچيّة).

أما إذا أراد البغدادي أن يجهـز مطبخـه بالأواني النحاسية على اختلاف أنواعها، الصفرية أمّ العراوي، الصينية، الطشت، اللگن، جدر الهدوم، المَشْرَبة، القَرَوانة الخ أو إذا أرادت ربة البيت أن تبيّض الجدريّة، القوشخانه، الطاوة، المصفي، التپسي، الطاسة وركّية الحمام، الجَمْچَه، الچفچير، البريگ والسَلَپچه، فهذا سوگ الصفافير مفتوح لمن تستطيع أذناه وأعصابه تحمل أصوات الضرب على النحاس!



البغدادية ذات الخمار الأسود، التي مرت من عگد الصخر والدنگچيّة وباب الأغا في طريقها الى سوگ الصفافير لتبيّض الچفچير والجمچه والبريج والسلپچة

وإذا شاء ذلك البغدادي الميسور شراء الخشل لزوجته أو لإحدى بناته أو تقديم هدية لعزيزة غيرهن، فأمامه خان جغان، والصياغ اليهود يرحبون بكل من يدفع الزائد.

وأخيراً هناك بين الأسواق، أسواق تشتهر بروائحها الكريهة، وهما سوگ الجايف المتفرع من سوگ العريض القريب من سوگ الچوخه‌چيّة، وسوگ السيان المؤدي من الموله‌خانه الى گهوة المميز

وشريعة رأس الجسر، وقد كتب الله عليّ أن أجوس هذه الأسواق وأمرّ بدكاكينها يومياً بحكم وجودي في المدرسة الأحمدية الواقعة في سوق الچوخهچيّة، لمدة ثلاث سنوات تقريباً فأصبحت خبيراً بها وبروائحها.

وإذا كان البغدادي تاجراً وبياعْ شرّايْ بالجملة فان الدنگچية وباب الآغا هي كعبته وباب رزقه ومجال عمله، ففيها أكبر خانات بغداد وأكثرها عدداً وتنوعاً في بيع وخزن البضائع. ولا بد أن تكون له حجرة في أحد هذه الخانات يزاول فيها أعماله التجارية. ففي باب الآغا والدنگچية ضمن الحدود الموصوفة أعلاه الخانات التالية: خان الرماح الكبير وخان الرماح الصغير في سوق السراي (الجهة الجنوبية منه) والكبير هو الذي ورد ذكره عند الكلام عن ليلة سقوط بغداد عندما اشتعلت فيه النيران، وفيه تخزن وتباع مختلف أنواع الخرده فروش والمانيفاتوره. وخان الجبن في شارع الجسر وإسمه يدل على البضاعة التي تخزن وتباع فيه (شيدت بمكانه عمارة خان الجبن حالياً)، وخان محمود أفندي في شارع الجسر ويستعمل لأغراض مختلفة، وخان التتن (وقف عادلة خاتون أستملك لتوسيع شارع المأمون) وخان الكمرك (الريجي) وخان عبدالهادي الشهربنلي وخان بيت الچلبي (دائرة الإجراء ثم مدرسة الرصافة) وخان البرواري وخان المنگنة والخانات الخمسة الأخرىٰ التي تعود الى بيت درويش علي (آل العطار)، والخان الذي تأسس فيه البنك العثماني، وكلها تقع في الطريق المؤدي الى سوق الصفافير. وفي شارع السموأل يوجد خان الپاشا الكبير وخان الپاشا الصغير (شيدت بمكانه عمارة أوقاف بغداد) وخان السبتي وخان الشابندر الصغير. وفي السوق العريض يوجد خان دله الكبير الذي كان مركزاً للشرطة في عهد الإحتلال البريطاني ثم عاد الى سابق وضعه بعد قيام الحكم الوطني، وخان دَلّه الصغير وخان مرجان (أو خان الأورطمه) في شارع السموأل (شارع أسامة بن زيد حالياً المتخذ مطعم خان مرجان السياحي) وخان كبّه وخان مخزوم (مدخل سوگ العريض من جهة شارع الرشيد)، وخان العدلية (وقف عادلة خاتون) المتخذ سابقاً مخزناً للگمرك ثم أدمج بالمدرسة المستنصرية بعد تملكه من قبل مديرية الآثار العامة بقرار خاص، وخان الپاچه‌چي المجاور لجامع الخفافين، وخان أحمد آغا كركوكلي في مدخل شارع الجسر من جهة شارع الرشيد (شيدت بمكانه عمارة) وأخيراً خان جغان وهو سوق للصياغ وليس خاناً كالخانات الأخرىٰ وقد نقل سوق الصياغ الى دربونة الدنگچيّة (ملك بيت الشابندر) في أواخر العشرينات وشيّد في محل خان جغان القديم سوق للبزّازين وباعة الأقمشة النسائية وفساتين العرائس.

لقد ورد إسم خان جغان كثيراً في القصص البغدادية الفولكلورية منها قصة الصائغ اليهودي وصانعه. فيروىٰ أن صائغاً يهودياً كان منهمكاً في عمله يصوغ حلية ذهبية وأمامه (الكورة) لاذابة الذهب والى جانبه صانعه ماسكاً بالمنفاخ يشدّه ويرخيه لضخ الهواء الى الموگد. فجرىٰ الحديث بين الصانع وأستاذه حول أهل الكتاب ويوم الحساب، والجنة والنار، والحشر والنشر، واحتكار العنصر اليهودي للجنة. فسأل الصانع أستاذه:

- أبدالَكْ أستادي: بَقَا، والمِسِلْمين، لَيْش ما يْخُشّون الجنة؟

فأجابه الأستاذ بغضب :

- اِنْفِخْ وَلَكْ اِنفِخْ ، ليش الجنة خان جغان كل من يجي يخش بيها .

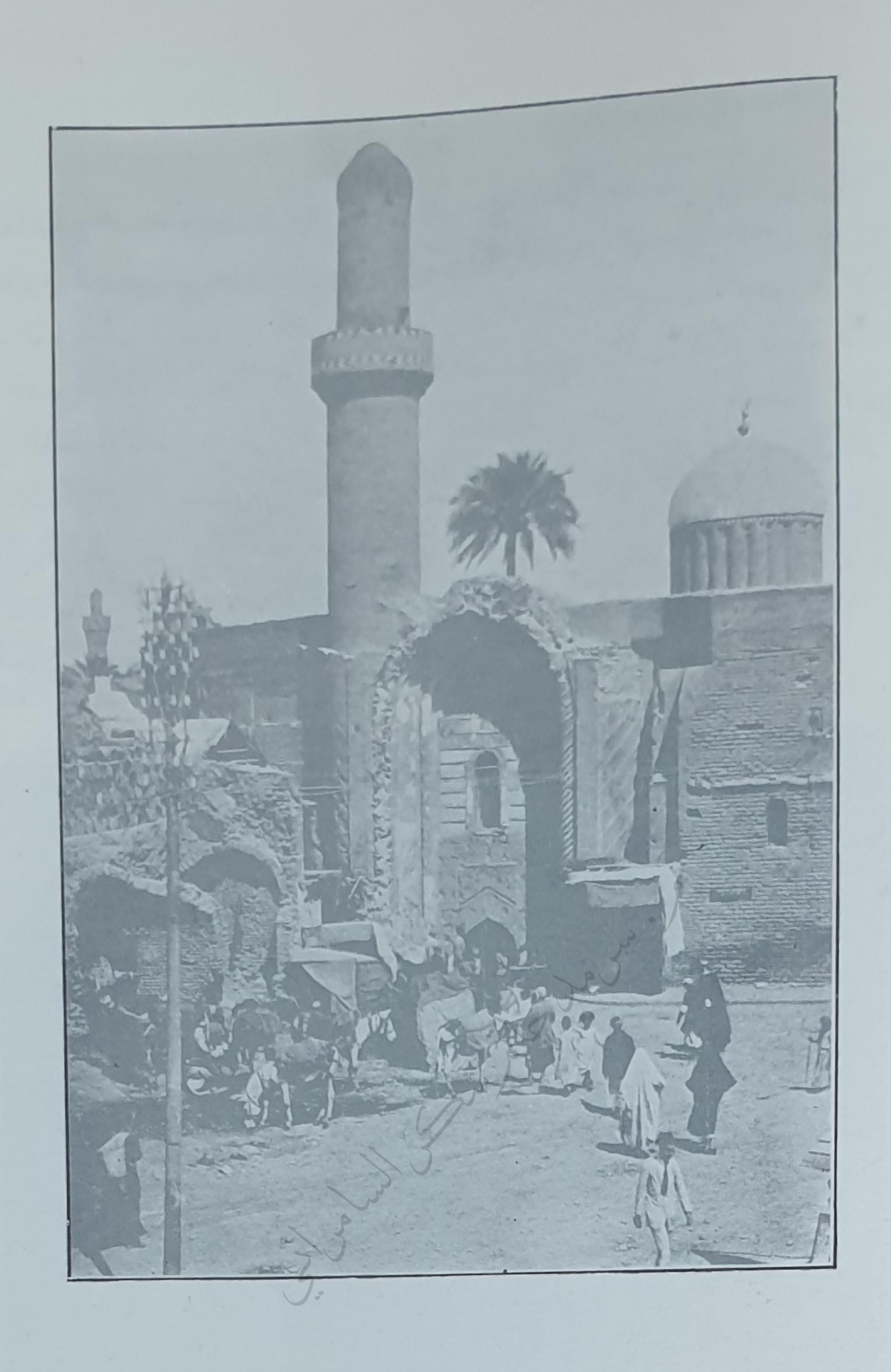
فذهب قوله للاستدلال على شعور الاستعلاء اليهودي على سائر الأقوام والأديان.

وهناك كثير من الخانات الأخرى متناثرة بين الأسواق الضيقة والدرابين لا يسهل لمستطرق أو (عابر سبيل) مثلي أن يلّم بها كلها.

البغدادي الأصلي متدين وغير متعصب بسجيّته ، يؤدي الفرائض الخمس بأوقاتها ويفضل أن يؤديها جماعة في الجوامع والمساجد ، لأنها المكان الذي يجتمع فيه مع أصدقائه ويلتقي بخلّانه وجيرانه. وأن محلة باب الآغا - الدنگچية - زاخرة بالمساجد والجوامع وتضم أكبر عدد منها قياساً بأية محلة أخرى في بغداد ، وما أحلى شارع الجسر (عگد الصخر) ظهر يوم الجمعة ، حيث يُشاهد البغداديون متوجهين الى الجوامع والمساجد المجاورة ، زرافات ووحداناً يرتدون أفخر الملابس ويتطيبون بأعطر الطيب ، ملبين قوله تعالى «إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع . . .»

يحضرني من أسماء هذه الجوامع والمساجد في الدنگچية - باب الآغا ، جامع الأصفية ذو المئذنتين كلاً بحوض واحد قديماً ، وذو المئذنة الواحدة بحوضين حديثاً ، الواقع في رأس الجسر بجوار المدرسة المستنصرية والمعروف تأريخياً بدار القرآن ؛ وجامع الوزير المقابل له في سوق السراي ، وجامع الخفافين المعروف تأريخياً بمسجد الخظائر والمشهور حالياً بمنارته القديمة ذات الطراز الإسلامي الخلاب والواقع في سوق الخفافين ، وجامع القپلانية والذي كنت أتردد عليه كثيراً أيام رمضان للاستماع الى خطب الواعظ الملّا مصطفى وهو من رجال الدين المتزمتين والرجعيين ، فكان يهاجم ويسب ويشتم بأعنف الألفاظ وأقسى العبارات وألذع الأوصاف كل ما هو تقدمي وتحرري وكان الناس يتهافتون للإستماع الى خطبه ويتدافعون للوصول الى أقرب صف من المنبر، ليس إعجاباً بما يقول بل للإستمتاع بما يقول. وفي إحدى خطبه هاجم الشيخ أحمد الداود، وكان يومئذ وزيراً للأوقاف ، لأنه سمح لأبنته الصغيرة صبيحة (التي اشتهرت بعدئذ «بالحقوقية الأولى») بركوب البعير والدعوة للسفور وتحرير المرأة ومساواتها بالرجل وفتح أبواب المدارس أمامها ، والذي كان يحبب الرجل الى الناس تأييده الحكم الوطني ومهاجمته الانگليز والانتداب.

وهناك جامع الكبيچية القريب من المصبغة ، حيث كان طلاب مدرسة الملا أحمد يترددون عليه لقضاء الحاجة ؛ وهناك جامع عادلة خاتون الصغير الواقع في مدخل الطريق المؤدي الى سوق الصفافير، والذي تهدم في الأربعينات وشيدنا بديلاً له في الصرافية وهو غير جامع عادلة خاتون الكبير الواقع في محلة رأس القرية مقابل المحكمة الشرعية ، والذي لم نقصد البحث عنه تفصيلاً لأنه خارج حدود محلة باب الآغا ، كما لم يرد ذكر اسم جامع السراي وجامع مرجان لأن الأول يقع في محلة جديد حسن باشا والثاني في رأس سوق الشورجة وخارج حدود محلة الدنگچية - باب الآغا. ثم هناك جامع عثمان أفندي الواقع في دربونة الدنگچية قرب سوق الصياغ الجديد ، ومسجد سلطان حمّودة



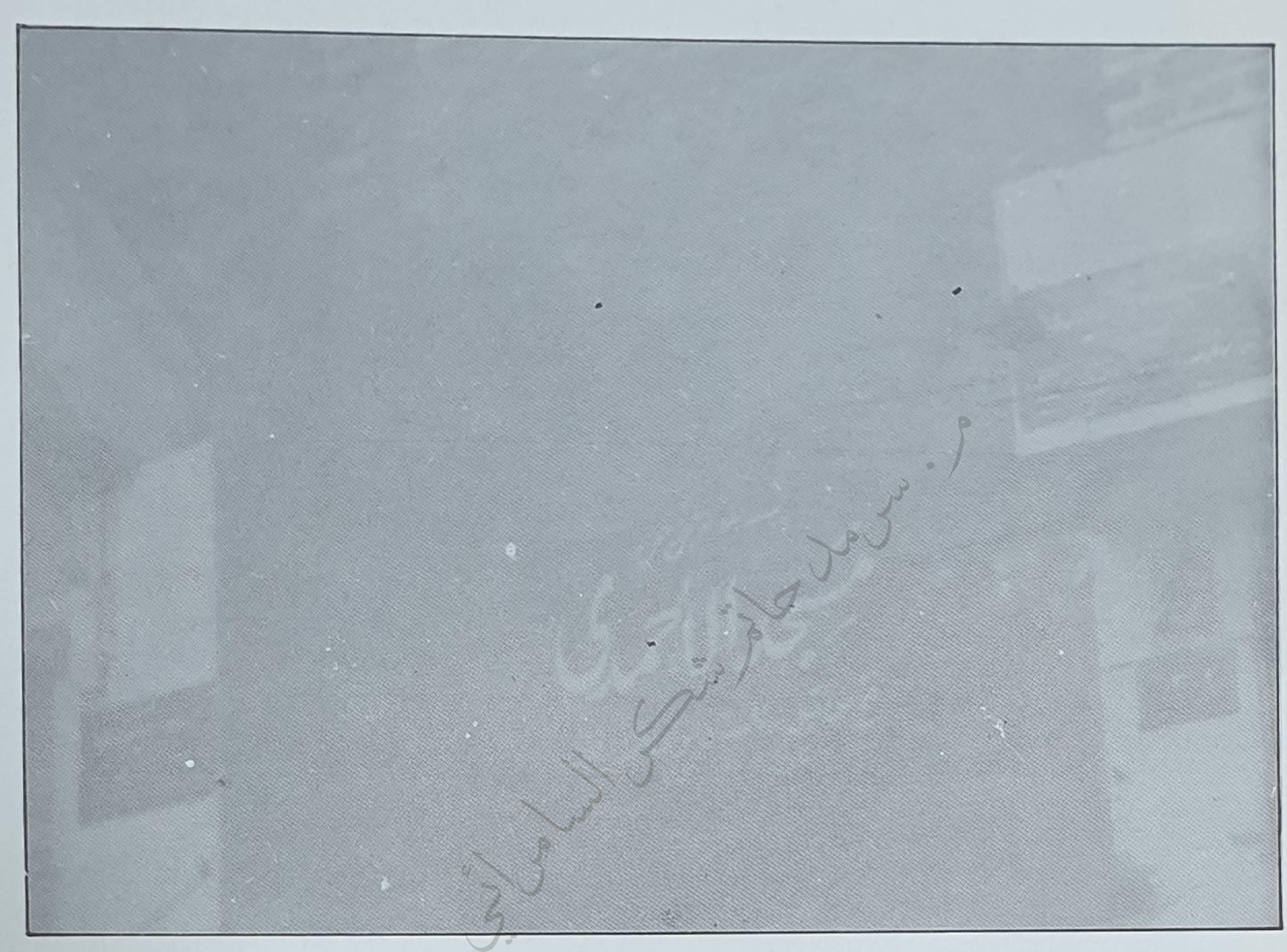
جامع مرجان في أوائل الاحتلال البريطاني لبغداد وتشاهد قبّة الضريح المشبّكة التي هدمت في الأربعينات لتوسيع شارع الرشيد

ومسجد الصفافير ومسجد السكه خانه ومسجد ملاّ محمد وجامع (اغا زاده) الواقع في عگد الجام مقابل سوگ الصفافير، وكل هذه المساجد تقع ضمن حدود محلة باب الآغا ـ الدنگچيّة.

وقد استجد مؤخراً مسجد سمي بمسجد الأحمدية حلّ محل المدرسة الأحمدية الواقع في سوگ الچوخه چية. ولي كلمة حول هذا المسجد والمدرسة:

إن المدرسة الأحمدية سميت باسم الملاّ أحمد بن الملاّ فليّح الذي كان يديرها سنين طويلة، وكانت تعرف محلياً (بالحجرة) وكانت من أرقى الكتاتيب التي وجدت في بغداد في أوائل القرن الحالي، حيث تخرج فيها عدد من البغداديين الذين قامت على أكتافهم الدولة العراقية. فكانت بالنسبة للبغداديين مثل كلية (أيتون) أو كلية (هارو) بالنسبة للإنگليز، من ناحية مستوى التعليم ومراعاة

التقاليد الإجتماعية والدينية والضبط والربط. وبعد وفاة الملاّ أحمد نقل ولده الملا إبراهيم كتّابه من جامع عادلة خاتون الصغير الى هذه المدرسة. وكنت قبل التحاقي بالمدرسة الحيدرية الحكومية تلميذاً فيها أحفظ القرآن وأتعلم الكتابة، وأذكر مشاهد الزوار الأجانب، وخاصة الضباط الإنكليز، وأولياء أمور الطلاب الذين كانوا يترددون كثيراً على هذه المدرسة التي كانت تعتبر يومئذ مدرسة نموذجية، فكانت تدرس اللغة الإنكليزية على يد مدرس كان موظفاً يهودياً إسمه حسقيل أفندي(*) وكانت تدرس الحساب أيضاً والمدرس هو الملاّ عارف أخو الملاّ إبراهيم الذي كان قد عاد للتو من (السفربر). ولم يكن تدريس مثل هذه المواضيع في الكتاتيب معروفاً في بغداد يومئذٍ كما أذكر كيف أن الملاّ إبراهيم كان يدعو التلميذ في الصف المتقدم إسماعيل الچوربه‌چي لتلاوة القرآن تجويداً أمام الزائرين من أجانب ووطنيين، لرخامة صوته وحسن ادائه.



كتّاب المدرسة الأحمدية (كتّاب ملا ابراهيم) حيث ختمت القرآن وتعلّمت الخط ومبادىء اللغة الانكليزية، وهي اليوم (مسجد الأحمدي) الواقع في سوگ الچوخه‌چيّة.

ثم انقطعت أخبار مدرسة الملاّ أحمد عني سنين طويلة، بعد أن التحقت بالمدارس الرسمية ثم بسبب وجودي خارج العراق للدراسة والوظيفة. ولكن كلما كنت أمرّ في سوق الچوخه‌چية بعدْ عودتي من خارج العراق كنت ألاحظ لافتة فوق باب المدرسة مكتوباً عليها (المسجد الأحمدي، فتح من قبل رئاسة ديوان الأوقاف في ـ/ـ/ ١٩٧٠)، وقد عُبث في تأريخ اليوم والشهر بالطلاء الأبيض.

لا أعلم إذا كان هذا العقار مسجلاً في السجل العقاري مسجداً أو مدرسة أو حجرة، وهل هو وقف خيري أو مضبوط، وهل هو موقوف على جهة ما ومن هو الواقف وما هو شرط الواقف؟ إذ المعروف محلياً انها من بقايا المدرسة النظامية التي شيدت في العهد العباسي. أني أناشد أولي الأمر أن

(*) إن آخر درس درسته عند حسقيل أفندي قبيل انتقالي الى المدرسة الحيدرية كان درس:
"Ran mouse ran, if you do not ran the cat will catch you."

يعيدوا النظر في موضوع المدرسة الأحمدية ، والإحتفاظ بها كتراث بغدادي ثمين .

* * *

وإذا كان البغدادي من هواة الأكلات الشعبية الأخرىٰ فإنه لابد أن يتوجه الى دكان علوان الكاهچي المستخرج من المدخل الشمالي للمدرسة المستنصرية (سوق السيان) وهو مدخل المطبخ القديم للمدرسة المستنصرية كما يقول المؤرخون . . إن كاهي علوان هو أطيب الكاهي قاطبة ، وذلك لحسن إعداده وجودة مادته , فأن (شُنگاته) تطرگ بالدهن الحرّ ، وفرنه (يُشجَر) بحطب النيـرماچه أو خشـب التـوت (الفرن الذي يسخن بالنفط والغاز يترك طعماً ورائحة غير مقبولة على الكاهي) وتقطع گرصة الكاهي أربعة أرباع بسكين خاصة مقوسة الشكل ، وتسكب الشيرة عليها بقدح من گشر جوزة الهند ، والگيمر يصل إليه بـ (چدح) كبير من المعدان مباشرة .

ولما باشرت مديرية الآثار العامة بصيانة المستنصرية في الأربعينات على عهد مـديرهـا العام المرحوم الدكتورناجي الأصيل ، بعد أن ظلت مهملة في عهود الاحتلال الأجنبي ، انتقل علوان الى ساحة إمام طه (ساحة الأمين) أو ساحة (الرصافي حالياً) حيث بقي هناك الى أن توفاه الله فاندثر معه ذلك التراث البغدادي الأصيل .

أما إذا كان البغدادي من هواة المقام العراقي والچالغي البغدادي قصد گهوة المميز الواقعة الى جوار المدرسة المستنصرية والمطلة على النهر والتي كثيراً ما ورد ذكرها وظهرت صورها في كتب السواح والرحالة والمؤلفين عن بغداد(*) . إن شهرة گهوة المميز هذه ، (وهناك قهوة المميز الثانية الواقعة في جانب الكرخ والتي استملكت لغرض مقتربات جسر المأمون وكانت تعرف بالگهوة المعلگه لأنها تقع في الطابق الثاني فوق سلسلة من الدكاكين) ، هي في موقعها الهادىء المطل على دجلة وفي إحياء ليالي الچالغي البغدادي والمقام العراقي حيث كان يغني فيها أساطين قراء المقام في ذلك الزمان أمثال أحمد زيـدان ، شلتـاغ ، خـليـل ربّـاز(**) ، حسـن الشـكـرچي وجمـيـل الأعـظمي ، نـجم الشيخلي ، ويوسف حوريش ، ورحمين نفطار ، وغيرهم . ولم يكن لرشيد القندرچي مكان فيها ، حيث كان مكانه في گهوة الشابندر المقابلة للأكمكخانة ومدخل سوق السراي . كما أن أبو جاسم (محمد الگبانچي) كان يومئذ على أولىٰ درجات سلّم الشهرة ، وقبل أن يطلع الى أعلىٰ الدرجات ويتربع على عرش المقام العراقي . ولما كان سني يومئذ لا يسمح لي بالتردد على هذه الگهوة فكنت أتسقط أخبار المقام وقرائه ممن هم أكبر مني سناً . وفي الأربعينات والخمسينات أصبحت گهوة المميز أشبه بمكتبة عامة منها بگهوة ، حيث اتخذها طلاب

(*) كتب الرحالة الإنگليزي جيمس بكنكهام الذي زار بغداد في القـرن الماضي ، عن المقاهي البغدادية : «وكانت المقهىٰ التي تقع قرب المدرسة المستنصرية تبدو وكأنها شعلة من نور على الجانب الشرقي من دجلة [گهوة المميّز] . وأما المقهىٰ الثانية وهي أكبر منها وتقع قبالتها تماماً فأنها تتقد بمصابيحها المتلألئة على الضفة الغربية [گهوة البيروتي] .

(**) توفي خليل ربّاز في گهوة المميّز بعد إحيائه حفلة چالغي بغداد ومقامات ، وتولىٰ المعجبون به الصرف على تشييعه ودفنه .

المدارس والكليات مكاناً للدراسة والتحضير للامتحانات، وخاصة في فصل الصيف، فصارت تعرف بين الأوساط الطلابية بگهوة (صاحب) نسبة للمستأجر الذي لازمها عشرين عاماً تقريباً. وفي أوائل الستينات استملكتها أمانة العاصمة استملاكاً فورياً وأدخلتها ضمن (كورنيش المستنصرية) الذي جرى افتتاحه من قبل عبدالكريم قاسم بخطاب من خطاباته الرعناء تحامل فيه على الأموات الذين شيدوا المقهى بذلك الموقع وحجبوا جزءًا من السطر المحيط بجدار المستنصرية عن الأنظار، يوم كانت المستنصرية ذاتها مخزناً للگمرگ ونهباً للأثرياء والمتنفذين وبؤرة للنفايات وسقط المتاع.



قارئ المقام، نجم الشيخلي (النيّار) بن عبدالله بن صفاء الدين الشيخلي، ولد في بغداد سنة ١٨٩٢ وتوفي فيها سنة ١٩٣٨، وأخذ المقام عن شلتاغ وخليل ربّاز ورحيم نفطار، الذين بدورهم أخذوه عن أستاذهم وعميدهم أحمد زيدان، وهؤلاء وكثيرون غيرهم كانوا يتبارون في المقام في گهوة المميّز التي كانت يومئذٍ معهداً للمقام العراقي ومنتدىً ليلياً (نايت كْلوبْ) المجالغي البغدادي!

نعود أدراجنا من گهوة المميّز متجهين نحو الأسواق الداخلية بحثاً عن معالم التراث البغدادي، فنقف عند دكان (بيت مَلّوكي) الذين انفردوا في بيع تراث بغدادي أصيل هي (العباية أم چتف) التي تنسج من الحرير الخالص وبألوان زاهية وخلاّبة وتوشح من الكتف بمزيج من الكلبدون الفضي والذهبي، فلذلك سميت (أمْ چتِفْ) ولها بلابل تصنع من الكلبدون المقّصب، ويستبدلها البعض ببلابل من الذهب الخالص إذا شاء إهداءها لعزيزة من عزيزاته.

إن أسرة آل ملّوكي من أسر محلة باب الشيخ العريقة واشتهرت بنسيج الأُزر التي ترتديها

المسيحيات واليهوديات والعباءات الموصوفة أعلاه، وبالشفوف والشراشف المنسوجة من خيوط الصوف الرفيعة وبألوان جذابة وعلى شكل مربّعات. وكنا نستعملها كغطاء يقينا شرّ الذباب في النهار ولسعات البگ (البعوض) في الليل. وبوفاة عبدالوهاب ملّوكي أغلق الدكان وانقرضت هذه الصناعة الجميلة، ولم نعد نرى إلّا المزيّف منها. وظلت علاقتي بهذه العائلة الكريمة عن طريق زميل الدراسة وعشير الصبا عبدالقادر ملّوكي.

وعرضاً، لم يقتصر تصدير محلة باب الشيخ على هذه الصناعة، بل أنها تصدر لبغداد، نتاجين آخرين مهمين أولهما (دبس باب الشيخ) الذي يفوق كل دبس ينتج من التمر، من حيث الطعم والنكهة، وثانيهما، وهو الأهم، ما تنجبه من رجال يتصفون بالجرأة والجسارة، وعزة النفس والكرامة والشهامة، فيقال فلان شَيخْلي، أي جريء ومقدام وعزيز النفس، شهم وذو أنفة عالية، مثل ما يقال فلان (مَيدَنْلي) إذا ما أريد الحط من قدره ومنزلته الإجتماعية.

وقبل أنْ نصل الى دكان بيت ملوكي نمر بدكان الخياط الأوسطة محمود متعهد تجهيز ألبسة الكشافة لطلاب المدرسة الحيدريّة الواقع جنب باب جامع القبلانية مقابل دكان (أبو كبّة القبلانية). وما زال ولده عبدالستار يمارس مهنة الخياطة حتى هذا اليوم بدكانه الواقع في شارع أسامة بن زيد (شارع السموأل سابقاً).

وعلى مقربة من دكان بيت ملّوكي، ومقابل مدخل خان جغان (سوق الصَياغ القديم) يقع دكان (طرشجي خان جغان) وهو من معالم بغداد التراثية أيضاً، إشتهر بحسن إعداده وبجودة خله وتنوع مواده: خيار مَيّ، خيار شماطْة، خيار تعروزي، ثوم عجم، لوبيا، باذنجان محشي بالكرفس والثوم والبهارات ومشدود بالخوص، فلفل داره، لهَانة، شلغم، ألمازية، تفاح، چقال، زيتون، گوْجَه.. ألخ ويحلى بعضاً بدبس الرمان أو دبس التمر فيقال: طرشي مدبّس، وينثر فوقه الكرفس أو المعدنوس والبهارات.

إن الطرشي هو وجبة غذاء كاملة لكثير من البغداديين يومئذ، فأن كاسة طرشي وصمونة أو گرصة خبز، هي الغذاء للعمال ومتوسطي الحال. ويتنافس أهل الرصافة والكرخ حول الطرشي، فيدعي الكرخيون أن طرشي (حَنانِشْ) هو الأفضل. وبوفاة محمد علي الذي توارث صناعة الطرشي أباً عن جد والذي هو في نفس الوقت مختار محلة باب الآغا والدشتي فقد قضي على هذا التراث البغدادي الأصيل، وأصبح دكانه محلاً لبيع الخيوط والخرز وما شاكلها.

والى جوار طرشچي خان جغان تقع لوقنطة (مطعم) إبن سمينة المشهور بجودة طبخه ولذة طعامه، وتكاد لوقنطته تكون حكراً على الموسرين والذين فَضَّل الله عليهم، لإرتفاع أسعارها على غيرها من اللوقنطات. ففي الصباح يرتادها الذين يقصدون الريوگ (الفطور) وهو على نوعين، إما الپاچه وأما تشريب الطماطة بالزنود (العكوس). وإذا ما فرغ من الريوگ باشر بطبخ الغداء، وإبن سمينة لا يطبخ إلّا بحطب النيرماچه (اليرماچه) وخشب التوث ويتجنب الطبخ بالنفط (ولم تكن أسطوانات الغاز معروفة يومئذ) لأنه يقول أن النفط يفقد الطعام نكهته. وهو لا يطبخ إلّا الدجاج الذي يذبحه بيده ويتأكد من سلامته، فترى أقفاص الدجاج مكدسة أمام اللوقنطة وأصواته تزعج المارين، ولا يخفف عنهم ذلك الإزعاج إلّا رائحة تمن العنبر الزكية. لقد امتدح الشاعر الشعبي الملا عبود الكرخي پاچة إبن سمينة، فيقول:

عمي أحمد سمينة   پاچته طيبه ودهينه

وبموت أحمد سمينة وغلق ذلك المطعم ينقرض تراث آخر من التراث البغدادي الأصيل.

* * *

في سوگ الخفافين، مقابل جامع الخفافين ومجاور لخان بيت الپاچه‌چي، توجد ثلاثة دكاكين تتعاطى بيع البرنوطي (السعوط)[*] و(تتن سويكه) الذي يسمى أيضاً (تتن سنون). إن عادة استنشاق البرنوطي كانت مألوفة في بغداد منذ قديم الزمان. فيحمل المعتاد على استنشاقه علبة صغيرة في (عبّه) مصنوعة من الذهب أو الفضة أو من خشب الأبانوس أو غيره من الأخشاب ذات الرائحة العطرة، ويضع فيها البرنوطي ويعطره بأزهار الرازقي أو الياسمين، فيأخذ قليلاً من مسحوق البرنوطي بطرفي أصبعي الابهام والسبّابة ويدسّه في مناخيره بجرّة نَفَس قوية، فينفذ المسحوق الى أعماق مجاري الأنف وجيوبه وكثيراً ما يرافقه العطس.

إن البرنوطي المستورد الى بغداد هو من أجود الأنواع. فقد ذكر لي الشيخ محمد نصيّف، رحمه الله، وهو من أعيان مدينة جدة أنه من مستنشقي البرنوطي منذ شبابه، وقد تأيد له أن أجود أنواعه هو ما كان يرسله له صديقه المرحوم الحاج نعمان الأعظمي من بغداد فلا يوجد مثيل له في كافة مدن الحجاز.



ذكر لي المرحوم الشيخ محمد نصيف وهو من أعيان مدينة جدة وعلمائها، ومن المتعودين على استنشاق البرنوطي، بأن البرنوطي البغدادي الذي كان يزوّده به صديقه المرحوم الحاج نعمان الأعظمي هو أفخر أنواع البرنوطي قاطبة

(*) من الذين يتنشقون السعوط (البرنوطي) هو الملك عبدالله، فقد اعتاد على تنشق السعوط الافرنجي المعروف بالتركية (رنده) ويحمل في جيبه علبة من الفضة المطعمة بالألوان الحمراء ويقدم السعوط الى زواره وكنت أحد الزائرين الذين قدم لهم السعوط، ظناً منه بأني من متنشقيه.

أما تتن سويكه المعروف (تتن سنون) فأن الإدمان عليه من أقذر ما يمكن أن يكون ، إذ يضع المدمن مسحوق التتن بين شفته السفلىٰ وأسنان فكه الأسفل ، فيبدو فمه وشفتاه قذرتين جداً ، و(يتفّل) هنا وهناك ، وإذا شاء استبداله فأنه يخرطه بأصبعه ويقذفه على الطريق أو في المقهىٰ الذي يجلس فيها . ولحسن الحظ فأن استعمال هذا المخدر الكريه قد انقرض بانقراض المدمنين عليه ، غير مأسوف على الأثنين .

وقبل الوصول الى المصبغة نمر بدكان (محمد أمين يُمْني) . ان مهنة هذا الرجل هي حفر (المهر) وصنع الأختام هوايته الخط العربي وقد علّق لافتة داخل دكانه الصغير مكتوباً عليها (الخطاط محمد أمين) وقد أشغل هذا الدكان أكثر من نصف قرن حتى وفاته سنة ١٩٧٤ وهو من أصغر دكاكين بغداد باستثناء الدكان المرقم ٢٨هـ/ ٢٤٠ ، باب الآغا . ودكان (دبّي) اليهودي الواقع في مدخل خان بيت دلّه المرقم ٨٣ زقاق ٢٩ محلة ١١٠ . وبعد وفاة أمين يُمْني حل محله بائع (جبن المصبغة) . غير ان اللافتة أبو طبل) ما زالت معلقة داخل الدكان مكتوباً عليها (الخطاط أمين يُمْني) .[*]

لقد اشتهرت المصبغة بتراثين من التراث البغدادي ، هما كاهي المصبغة وگهوة المصبغة . فبعد انقراض كاهي المستنصرية بوفاة (علوان) انفرد بالشهرة الحاج عبدالرحمن الذي تولىٰ الصدارة في إعداد الكاهي لأكثر من أربعين عاماً . وإذا شاء البغدادي الحصول على كاهي المصبغة فعليه أن يقصد المحل قبل طلوع الشمس حتى (يلزم كُيو) وإلاّ فات عليه الريّوگ . وبعد وفاة الحاج عبدالرحمن تولىٰ الصنعة من بعده إبن أخته (غانم) وبقي فيها أكثر من عشرة أعوام ، غير أنه فضل سياقة السيارة على (فك شنگة الكاهي) فتعين سائق سيارة وأغلق الدكان ، الذي أصبح مخزناً لبيع الأقمشة ، وبذلك يسدل الستار على التراث الأخير في صناعة الكاهي البغدادي الأصلي «كاهي المصبغة» .

أما التراث الثاني في المصبغة فهو (گهوة المصبغة) التي تعرف أيضاً بگهوة الشط واشتهرت في العشرينات والثلاثينات بگهوة (حسن الصفو) (نسبة الى مستأجرها) . واشتهرت هذه الگهوة بحسن موقعها المطل على نهر دجلة مباشرة وبجودة الگهوة المرّة والنرگيلة ، وبنظافتها وراحة (تخوتها وقنفاتها) وهوائها المبرّد صيفاً . وفي أوائل القرن الحالي كانت ملتقىٰ هواة الچالغي البغدادي ، وبعد الحرب العالمية الأولىٰ كانت مرقصاً ترقص فيه اثنتان من الراقصات المشهورات يومئذ ، هن : (خزنه) و(رَحْلو الحلبية) .

تتصدر گهوة المصبغة قائمة من مقاهي بغداد التي تنفرد بتقديم النرگيلة لزبائنها في الوقت الحاضر وهي : گهوة المصبغة ، گهوة عبود في مدخل جامع الخفافين ، گهوة الشابندر مقابل القشلة وسوق السراي ، گهوة حسن العجمي في الحيدرخانة شارع الرشيد ، گهوة أمين (قهوة الزهاوي) في مفرق شارع حسان بن ثابت وشارع الرشيد وگهوة إبراهيم عَرَبْ في راغبة خاتون بعد انتقالها من الكرنتينة وگهوة الحاج خليل في الحيدرخانة (وقد أغلقت بوفاة الحاج خليل) وآلت الى (مطعم الفرح)[**] . فاذا مرّ المرء من أمام إحدىٰ هذه المقاهي يشاهد هواة تدخين النرگيلة وكل واحد (معرّت بالمربيج) أو (القمچي) ويمتص منه (من كل گلْبه) وينفث السموم لتلويث الفضاء المحيط به . وگهوة

الشط هي اليوم ملتقى رجال المال والأعمال والمتقاعدين.

نغادر المصبغة نحو شارع المال والأعمال المعروف بشارع السموأل، والتسمية ليست قديمة وقد أستبدل الإسم بشارع أسامة بن زيد مؤخراً، فقد كان طريقاً ضيّقاً يعرف بطريق (المصبغة) لأنه يؤدي الى شريعة المصبغة أو طريق (القيصريّة) نسبة الى قيصريّة عادلة خاتون، وقد جرى توسيعه وتعديل استقامته في العشرينات، وأطلق عليه ذلك الاسم، لأن السموأل بن عاديا كان من أثرياء اليهود. وهو بمثابة (السيتي) في لندن و(وال ستريت) في نيويورك بالنسبة لبغداد، ففيه عدة مقاهي هي ملتقى الدلالين والفايدهخوريّة (المرابين) من اليهود وبعضهم من المسلمين، وأشهر تلك المقاهي هي گهوة الپاشا وگهوة موشي. أما الصرّافون فمركزهم في خان الپاشا الصغير. وفي هذا الشارع توجد أهم بيوتات المال والتجارة أشهرها في الثلاثينات بيت عابديني، بيت الخضيري، بيت الچلبي، بيت فتاح پاشا، بيت صيّون زلخة، بيت خزّام، عبدالهادي الدامرچي، مراد جوري وغيرهم. كما فتحت في أواخر العشرينات فروع للبنگ العثماني والبنگ الشرقي (إسترن بانگ) وفي الأربعينات البنگ العربي وبنگ الرافدين، والبنگ البريطاني وكان ذلك قبل افتتاح شارع البنوگ الحالي وانتقال البنوگ المذكورة الى عماراتها الحديثة فيه ثم تأميمها.

إن أهم ما كان في هذا الشارع من تراث بغدادي قديم هي قيصرية وقف عادلة خاتون المعروفة في التأريخ (كروانسراي). فلما جرى تعديل وتعريض استقامة هذا الشارع في أوائل العشرينات، هدمت هذه القيصرية ولم يبق منها إلا شريط مثلث من الأرض لا تزيد على عشرة أمتار مربعة هو الآن ثلاثة دكاكين صغيرة. وأود أن أصف هذه القيصرية كما كانت عليه قبل هدمها، وذلك لفائدة المهندسين المعماريين العراقيين، لأنها طراز من البناء البغدادي القديم يتلاءم مع الطقس والمناخ البغدادي ملاءمةً تامة. وحبذا لو شيدت

(*) محمد أمين يُمني هو أحد الخطاطين الذين عرفتهم لكثرة مروري بدكانه في المصبغة أما الآخرون الذين عرفتهم أو تعاملت معهم، فيتصدرهم عميدهم المرحوم هاشم محمد الذي ترك لنا تراثاً قيماً في فن الخط العربي وقواعده. وكان له شرف خط نسخة القرآن الكريم الذي طبع على نفقة ديوان الأوقاف سنة ١٣٨٦هـ بالاشتراك مع الخطاط التركي محمد أمين الرشدي، كما انه ساهم في معظم الخطوط المثبتة على واجهات جوامع بغداد، كما ترك للأجيال القادمة كراسته الشهيرة (قواعد الخط العربي). وهناك رابطة أخرى تربطني بالمرحوم هاشم محمد ذلك ان كلاً منا كان طالباً في المدرسة الأحمدية المبحوث عنها في مكان آخر من هذا الكتاب، مع فارق واحد هو انني تتلمذت على يد المرحوم الملا إبراهيم وهاشم تتلمذ على يد أخيه المرحوم الملا عارف بعد وفاة الملا إبراهيم.

لقد أجيز هاشم بالخط العربي من مشاهير الخطاطين المعاصرين، وفي مقدمتهم الخطاطون المصريون سيد إبراهيم وحسني ونجيب هواويني، وشهد بكفاءته الخطاط التركي الشهير حامد الآمدي، واعترف بموهبته الخطاط اللبناني المعروف (رشاد البابا) الذي خط عناوين كتابي (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) وتساءل مني: لماذا راجعته لخط كتابي ولم أراجع (الأكفأ مني) الخطاط هاشم محمد البغدادي، كما قال.

ومن الخطاطين العراقيين الذين عاصروا هاشم الخطاط هو المرحوم صبري مهدي الهلالي، فهو ضابط بالجيش العراقي برتبة رائد ومن أبرز الرياضيين في الجيش العراقي، وعبقري موهوب بفن الخط العربي بأنواعه، وقد خط عناوين كتابي (أمريكا كما رأيتها) وأبدع في كافة أنواع الخط العربي: الرقعة والديواني والفارسي والثلث والنسخ والاجازة، وتفنن بصورة خاصة بالخط الكوفي على اختلاف أنواعه البسيط والمزخرف كالمورّق والمزهّر والمضفور، وقد توفي صبري رحمة الله عليه سنة ١٩٥٣ وهو في عنفوان شبابه، فلو بقي على قيد الحياة لأصبح الرابع في كتابة الخط العربي بعد ياقوت المستعصمي وابن مقلة وابن البواب (البسملة لكلمة الاستهلال هي بخط المرحوم صبري). وقد ورث ولده غالب هواية الخط العربي.

أمثالها ضمن مشاريع أحياء طراز البيوت البغدادية المزمع تشييدها في منطقة سوق الغزل وباب الشيخ ، وأطلق عليها اسم القيصرية ، فالاسم جميل والطراز أجمل .

كانت القيصرية مشيدة على أرض مساحتها تقرب من المائتي متر مربع ولها مدخل يؤدي الى فناء بمساحة ٥ × ٥ متر تقريباً ، وفي المدخل سُلّمان يؤديان الى الطابق الثاني ، وحول الفناء عدة دكاكين ومرافق ، وتحيط الطارمة العليا عدة غرف ومسافرخانة . أما السقف فيعلو الفناء المفتوح وتتوسطه كُوّة ذات مزاغل أشبه بالشبابيك مفتوحة من جهاتها الأربع ، الغرض منها التهوية والتضوية ونفاذ أشعة الشمس الى الداخل ، فهي باردة صيفاً ودافئة شتاءاً ، وأقرب الى الطبيعة من الشقق المشيدة في العمارات الحديثة .

* * *

بعد أن أكملنا جولتنا بين المولهخانة والمصبغة ، أدعو صاحبي لمرافقتي في جولة ثانية نتوجه بها شمالاً عبر سوق السراي وشارع جديد حسن پاشا متوجهين نحو الميدان فباب المعظم .

فإذا كان البغدادي ، أفندي أو (بك) أو (باشبوزغ) يلبس الفينة مع الصاية والعباية ، وإذا أراد أحدهم أن يضرب الفينة (قالب) ، فليس في كل الدنگچية وباب الآغا غير دكان (هرون) المختص بخدمات الفينة . لقد انقرضت الفينة تدريجياً ، وبتهديم دكان هرون الواقع الى الجهة اليسرى من مدخل سوق السراي لغرض مقتربات جسر المأمون (جسر الشهداء حالياً) ، فقد انقرضت الفينة كلياً ، وأوشكت مهنة ضرب القالب على الانقراض بتسقيط هرون لجنسيته العراقية وهجرته الى

ومن الخطاطين الآخرين الذين اشتهروا في بغداد في الثلاثينات هو المرحوم الحاج صابر الخطاط .
أما الخطاطون المعاصرون الذين ساهموا مشكورين في خط هذا الكتاب فهم الحاج وليد الأعظمي . ومقداد شاكر الأعظمي ، ومهدي الخطاط .

(**) من أبرز ظواهر بغداد الحديثة كثرة مطاعمها المنتشرة في طول بغداد وعرضها ويصحّ تسمية (مدينة السلام) بـ (مدينة المطاعم) إذ باستثناء المطاعم الموجودة في الفنادق الكبيرة ، فهناك آلاف المطاعم التي تفتح سنوياً لإطعام مئات الألوف من المواطنين والمسافرين على اختلاف مللهم ونحلهم وأذواقهم . لأن التغير الذي طرأ على الحياة الاجتماعية في بغداد وازدهار الحركة العمرانية فيها قد استدعىٰ ذلك الانتعاش في فتح المطاعم .
ففي بغداد أيام زمان كانت المطاعم (اللوقنطات) تعدّ على أصابع اليد أبرزها لوقنطة ابن تايه **ومطعم الشمس** في شارع الرشيد ولوقنطة ابن سمينة ولوقنطة أوسطه رشيد في سوق السراي (مقابل دكان محمود المزّين ـ أبو گيلان) ولوقنطة صدّيق ، مقابل أوتيل الهلال في الميدان . ثم أخذ فتح المطاعم بالإزدياد أمثال مطعم مهران ومطعم تاجران ومطعم العاصمة وغيرها . وذلك بإستثناء الكبيچية والپاچهچية والكاهچية ، وبائعي الفشافيش والخميس والكبة **والبورك** ، والتي حلت محلها (أكشاك) الهمبركر والفلافل واللحم بعجين والـ (پيزا) وما شاكلها .
إن تناول البغدادي الأصيل الطعام في اللوقنطة هو عيب عليه يحطّ من منزلته في نظر المجتمع البغدادي وتعتبر (وكسه عليه) إذ الذي يتناول الطعام في اللوقنطة إما أن يكون غريباً عن بغداد وليس له من يستضيفه أو أنه لا يرغب في الاثقال على معارفه في البلد ، وإما أن يكون ـ وهذا من الأمور النادرة ـ (بغدادي زعلان من أهله ، أو من مرته !!)

فلسطين لولا الأرمني (أوهان) الذي استلم تلك المهنة بضع سنين وبوفاته انقرضت المهنة نهائياً في بغداد وانتقلت الى كربلاء.

يقابل دكان هرون دكان أحد السراجين المختصين بعمل أجود أنواع السروج للخيول المطهمة، والسروج المستعملة من قبل (الجوكية) في سباق الخيل. وبهدم دكانه لغرض مقتربات الجسر أيضاً فقد انتقل الى محل آخر خارج الدنگچية.

وإذا توغل المرء في سوق السراي يجد دكاكين القندرچيّة وبائعي لوازم صنع الأحذية والخرده فروشية وما شاكل ذلك، على جهتي السوق حتى يبلغ الباب الثاني لسوق الصياغ حيث تقع لوقنطة رشيد، أما الباب الآخر فهو من جهة دربونة الدنگچية بجوار مسجد عثمان أفندي الذي كان فيه (كتّاب لاله جليل).

* * *

إن سوق الصيّاغ كان من المحلات المحببة إليّ في عهد الصبا والشباب، فقد كنت أمضي ساعات طوالاً أيام الجمع في دكان (موشي) وهو رئيس صنف الصاغة، أتفرج على الرايح والجاي وأراقب الرائحة والجائية، واستمع الى أخبار وتجارب موشي المستمدة من خبرة دامت أكثر من خمسين عاماً في هذه المهنة. كان يحدثني عن أنواع الخشل والحلي الذهبية والفضية المستعملة من قبل البغداديات في أوائل القرن الحالي وتطورها منذ الاحتلال البريطاني.

وكان يلخّص ذلك بتعداد أنواع الحلي التي كانت تتزين بها البغداديّة، بدءاً من قدميها وصعوداً الى قمة رأسها.

يزيّن قَدَم البغدادية الحجل المِصمِلْ، وهو طوق من الذهب الخالص له فتحة تفتح وتقفل، بعضه أجوف وبعضه صمل. وهناك الحجل أبو الثومة الذي ليس له قفل ومفتاح، ولا ينزع إلا قليلاً. وهناك الخلخال وهو طوق مجوّف أمتن من الحجل منقوش بنقوش من الغصون والأوراق والأزهار، ويحشى عادة بالحصو الناعم فيولّد (خشخشات) أثناء السير، وله أيضاً قفل ومفتاح يربطهما بالخلخال زنجيل من الذهب، وقد وصف الملاّ عبود الكرخي لابسة الخلخال بقوله:

گعدت يداده أم البخت ... خلخالها يدوي ويدش
وآني استادي لو زعل ... يمعَش شعر راسي مَعِشْ
هم هاي دنيا وتنگضي ... وحساب أكو تاليها

وخلدته كذلك البسته الشهيرة:

فوگ النخل فوگ، فوگ النخل فوگ ... مدري لمع خلخال مدري لمع طوگ

أما الخشل الذي يتزيّن به ذراع البغدادية بدءاً من الكف ، فهي المحابس على اختلاف أنواعها وتنوع (فصوصها) ، فهي الألماز (البرلنت) والشذر والياقوت الأحمر والياقوت الأزرق والزمرد، والعقيق والليلو (لؤلؤ) ، والمحبس أبو الحيّة والزرده (المحبس الرفيع بدون فص) وحلقة الخطوبة والزواج المتعارف عليها في الوقت الحاضر. غير أن أكثر ما استهواني من المحابس هي (الفتخة) وهو محبس معيني الشكل مطعمّ بشتىٰ أنواع الأحجار الكريمة والنمنم والمرجان وتكون (الفتخة) أكثر جاذبية وإغراءاً إذا ما وضعت على سبّابة مسلوبة وكفٍ أمْلَسْ ! !

ومن الكف نصعد الى المعضد ، حيث تتزين البغدادية بالسوارات والبتوت وسفّ الحصير والملوي والمتشه والمعاضد المصنوعة من الزجاج الملون البرّاق . ثم نصعد الى الساعد وما فوق المرفق ، حيث تلبس البغدادية (الزنادي ، نسبة الى الزند) وهو معضد على شكل حيّة كوبرا أو أم الأجراص ، ولها رأس وذنب ملتو وهما مطعّمان بشتىٰ أنواع الأحجار الكريمة ذات الألوان الزاهية ، وإذا صعدنا الى الرقبة ، فهناك الكردانه ، والقوردون ، وأبو الخمس ليرات والغازيات والعاشق بند والبراق وزنجيل الذهب ، والقلب والقابْ قرآنْ ، الذي يتدلىٰ من الرقبة عادة بـ (قورديله) من الحرير ، وبعضاً بزنجيل من الذهب .

وهناك التراجي في الأذن ، والخزّامة (سكان الأرياف يسمونها غْران) واللاميّة ووردة الخشم في الأنف . وهناك دنبوس الصاية وچنگال الفوطة ودنبوس البويمة ، وبلابل العباية والضفاير مع الگصايب (خصائل الشعر أو الجدايل) وأبو الگصب الذي يُعرف عادة بـ (سلاح لغ) لأن المرأة تتسلح به كما يتسلح الجندي بصف الرصاص ، من أعلىٰ الكتف الأيمن الى أسفل الخصر الأيسر . وإذا كان فيه سن الذيب أو آية الكرسي أو غيرها من الآيات يسمىٰ (المحمّدية) وتتسلّح به الفتيات والعرائس عادة .

ولعل أندر حلية سمعتها من موشي هي التالي وصفها : قال : أوصاني ذات يوم أحد أبناء السقوط من الشباب الأثرياء المترفين على حلية لتقديمها الى محظيّة ، وهي نشرة مثلثة الشكل مطعمة بأنواع الأحجار الكريمة ولها زنجيل تتحزّم به المرأة من أسفل البطن وحول الحوض وللزنجيل قفل ومفتاح ، وتستعمل لنفس الغرض الذي تستعملها له الراقصات المتعريات لتغطية الثديين وستر العَوْرة ، وقال إنها كلفت أكثر من عشرين الف روبية في ذاك الزمان (وكت الرّوبيات) !

نغادر باب سوگ الصياغ نحو رأس سوگ إلسراي ، وأول ما يقع عليه النظر شيخ وقور طاعن في السن جالس على أرض الدكان وتحته جلد شاة من الصوف الأبيض ، لابساً عمامة رفيعة ونظارة ذات عدستين صغيرتين ، محاطاً بالكتب والدفاتر والمخطوطات : ذلك هو الملاّ خضر ، شيخ الوراقين وعميد الكتبچية ، لا بل الوحيد في ذلك الزمان من الذين يتعاطون بيع وشراء الكتب المستعملة والجديدة والمخطوطات القديمة . وبعد وفاته افتتحت في سوق السراي ثلاث مكتبات هي المكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي ومكتبة نعمان الأعظمي ومكتبة عبدالكريم خضر حفيد الملاّ خضر وأخ عبدالرحمن خضر وزهرة خضر ومحمد خضر، ابن صفي في المأمونية . والمعروف عندنا يومئذ ان والدهم كان (بنّا) وتوفي في مقتبل العمر، وتولىٰ جدّهم الملا خضر رعايتهم وتربيتهم (وقد قتل

عبدالكريم برصاصة تائهة في رأس سوق السراي من جهة شارع الأكمكخانة، في ثورة مايس ١٩٤١ . لقد انتقلت هذه المكتبات الثلاث من سوق السراي وفتحت بمكانها دكاكين باعة القرطاسية ولوازم المكاتب والدوائر والمدارس.

وقبل أن نبلغ رأس سوگ السراي نسمع صوتاً عالياً ينادي :

شربتي شربت زبيب والينذب الله ما يخيب

إن شربت الزبيب هو شراب بغدادي أصلي، لا يفوقه شراب آخر من حيث اللذة والطعم والفائدة وترطيب الجسم في الصيف (الحنّاني). إن كاسة شربت زبيب وصمونة هي وجبة إفطار أو غداء لكثير من البغداديين، قبل أن يغزوهم الشاي والپپسي كولا. وبعد الاحتلال البريطاني فتح دكان مقابل دكان أبو شربت الزبيب، هو دكان بيع (النامليت) الذي جاءنا من الهند مع الحملة البريطانية، ثم أعقبه شراب (السيفون)، وقد اندرس الأثنان وحلّ محلهما الكوكا كولا والپپسي كولا والكراش والسَفِنْ آب وغيرها من أنواع المرطبات الغازيّة.

* * *

إذا غادرنا سوق السراي متوجهين نحو القشلة والسراي، تكون شريعة (المكتب) ومكتب اعدادي مُلْكي واعدادي عسكري (أي الثانوية الإعدادية الملكية والعسكرية) الى الجهة اليسرىٰ وشارع الأكمكخانة (شارع المتنبي حالياً) الى الجهة اليمنىٰ، حيث يقع المخبز العسكري (الأكمكخانة) الذي شُيّد في محله سوق عصري بالطراز العربي الإسلامي الخلاّب. وفي ركن الشارع تقع گهوة الشابندر حيث كان يغني فيها رشيد القندرچي المقام العراقي.



گهوة الشابندر، مقابل سوگ السراي في حالتها الحاضرة (١٩٨٣)
وقد شيدت في موقع مطبعة الشابندر، أول مطبعة عربية - تركية في بغداد الأمس واشتهرت بالمقام العراقي الذي يغنيه رشيد القندرچي

ثم نمر بالقشلة والسراي والبلدية (أمانة العاصمة سابقاً) وجامع السراى ، حيث يحتكر دجاته ، عدد من مجاذيب بغداد يومئذ بينهم : ملاّ عبد الفوال ، الحاج فرج السوداني ، أبو أمان الحاقد على الزمان ، وحنتوش وحَسْكي ودويچ . ولنا عود لهذاه الشخصيات وأمثالها في مناسبة تالية .

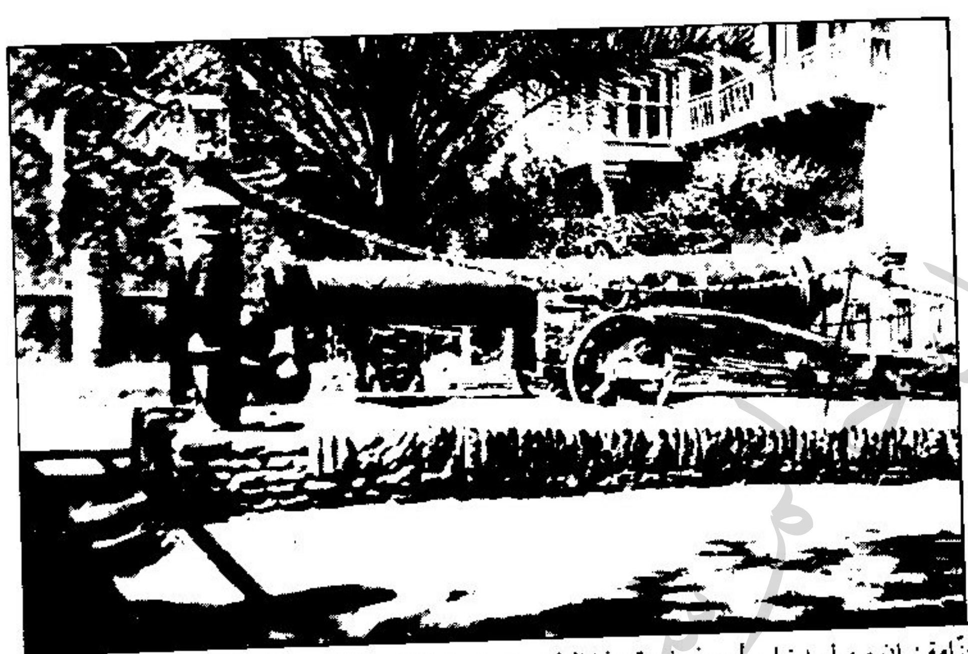
وبعد السراي نمر بـ (قوللغ السراي ، مركز شرطة السراي حالياً) ثم التيلخانة والبوسطخانة (دائرة البرق والبريد المركزية) وحمام التيلخانة والمدرسة الثانوية التي أعيد بناء واجهتها سنة ١٩٢٧م ، في موقع المدرسة الرشديّة التي أسسها الوالي عبدالرحمن پاشا سنة ١٨٧٩ . ومن أمام التيلخانة يتفرع طريق يؤدي الى شريعة الصنائع (قصر الثقافة والفنون حالياً) والى نادي القلوب (القلوب معربه من «كلوب» الفرنسية ومعناها النادي) وهو النادي العسكري حالياً . ثم نجتاز گهوة سيد بكر وتسمىٰ أيضاً گهوة باب القلعة أو گهوة البقچه وتقع الى جوار مدخل القلعة الجنوبي (موقع إسالة الماء قديماً) ، ويتردد على هذه الگهوة هواة نطاح الكباش وكسار الديوچة الهراتية ، كما تشتهر گهوة سيد بكر أيضاً بأنها ملتقىٰ الخرسين والطرشين ، ومنها خرج (النجار الأخرس) الذي استشهد في مظاهرة ثورة العشرين أمام جامع الحيدرخانة كما سيأتي بيانه .



باب القلعة الجانبية ، والى يمينها گهوة سيد بكر (گهوة القلعة) والى يسارها طوب أبو خزامة والمدرسة المأمونية ، ويشاهد جمع من الخرسين والطرشين يعقدون ندوة ويتفاهمون بالوَمي وبالاشارات

ومقابل گهوة سيد بكر وقرب المدخل الجنوبي للقلعة ، يقع تراث بغدادي شهير هو طوب أبو خزّامة الذي جلبه السلطان مراد الرابع مع الحملة التي طردت العجم من العراق . إن لهذا الطوب منزلة فريدة في قلوب البغداديين والبغداديات ، فهم يعتقدون بأن الطفل لا يعيش ما لم تدخل الأم رأس طفلها في فوهة هذا الطوب ، وهذه المراسيم بمثابة استحصال (شهادة الجنسية) البغدادية للبغدادي . ومن لم يدخل رأسه في فوهة طوب أبو خزّامة فهو ليس بغدادياً أصيلاً ، مهما ذكر في السجلات الرسمية عن مسقط رأسه ! .وأني قد حصلت على الجنسية البغدادية منذ أن أدخلت المرحومة

والدتي رأسي في فوهة هذا الطوب. فمنّ الله عليّ بطول العمر لأكتب هذا الكتاب. أما إذا كانت البغدادية عاقراً وتريد (تحبل) فما عليها إلّا أن تطلب مرادها من طوب أبو خزّامة وتشد الخرگ في السلاسل والزرزبانات المحيطة به. لقد نقل طوب أبو خزّامة من موقعه القديم الى موقعه الحالي في وسط ساحة الميدان (شارع الرشيد)، محاطاً بالزهور والرياحين، معززاً مكرماً، وذلك اعترافاً من البغداديين بفضل هذا الطوب على حياة أولادهم وأحفادهم. !!



طوب أبو خزّامة: ان من لم يدخل رأسه في فوهة هذا الطوب لا يحمل (الجنسية البغدادية) الأصيلة. موقعه القديم أمام مدخل (القلعة) الجانبي. الى الجهة اليسرى منه المدرسة المأمونية والى الجهة اليمنى گهوة البقچة (گهوة سيد بكر). موقعه الحالي في ساحة الميدان.

وإذا غادرنا گهوة سيد بكر وطوب أبو خزّامة نمر بموقع (قفص الميدان). إن هذا القفص كان محجراً للدلّقليّة والدوده كية والمخانيث ومرجعاً للقرمپارية (المنحرفين جنسياً)، فكان وصمة عار في جبين بغداد، وقد أزيل من مكانه في أواخر العهد العثماني، غير أن الاسم المخزي والسمعة السيئة ما زالت تلاحقه، فيقال في الطعن بشرف الشخص و(الفشار) عليه: إبن القفص، أو ميدنلي، أو قفصلي.

* * *

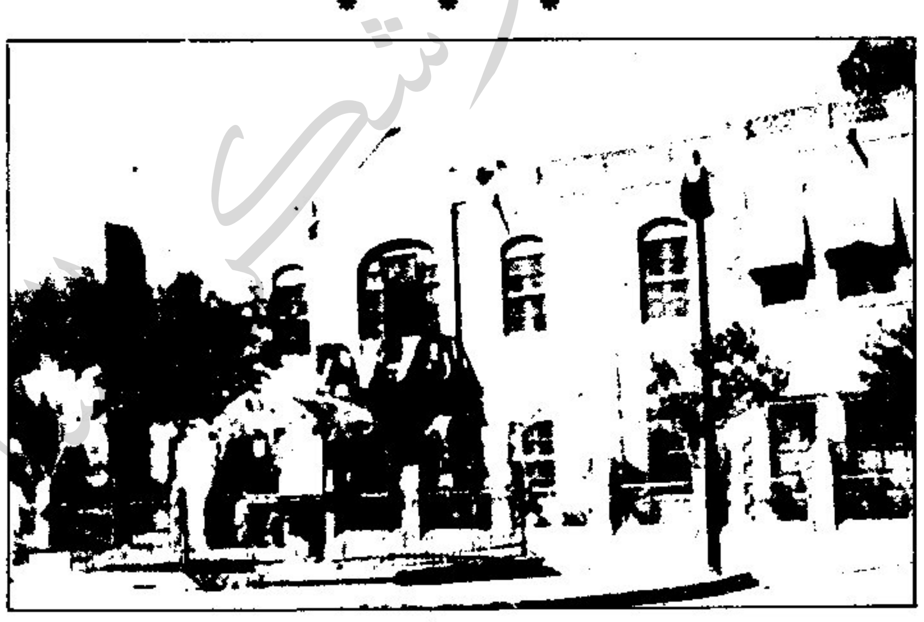
كانت تطل على ساحة الميدان بناية عزيزة على قلبي هي بناية المدرسة المأمونية التي تخرجت فيها عام ١٩٢٤م منهياً دراستي الإبتدائية، والتي كان لي فيها أحلى ذكريات الصبا وأعزّ خلان العمر. إن هدم هذه البناية الجميلة لإيجاد موقف للسيارات ومحطة لباصات الأمانة (كما كانت تعرف مصلحة نقل الركاب في حينه) في مكانها كان بدون شك عملاً طائشاً ومجرداً من الشعور بمسؤولية الحفاظ على التراث وتقدير قيمته الأثرية والوطنية، وأن عملاً كهذا لا يمكن أن يحصل اليوم وقد سيطرت تلك الفكرة على أذهان المسؤولين والمخططين والمهندسين وكافة أبناء الشعب على السواء. إن بناية المدرسة المأمونية كانت من أجمل الأبنية التي شيدت في بغداد منذ أوائل هذا القرن من حيث الطراز الهندسي

البديع والملائم لظروف المناخ المحلي، ومن حيث نوع وطبيعة المواد الانشائية المستعملة في البناء، فقد كانت بناية المدرسة المأمونية وأبنية أخرى في بغداد مثل القشلة والسراي، ومحطة سكة حديد برلين ـ بغداد الواقعة في الصالحية بجوار دار الاذاعة والتلفزيون، ورويال سينما الواقعة في باب الآغا ودار المهندس فهمي دولت، الواقعة في الكريمات قرب السفارة البريطانية وبعض الأبنية الأخرى، معالم بغدادية يشار إليها بالبنان. وهي في نظري أجمل طراز هندسي وجد في بغداد حتى الآن (باستثناء ما يشيد الآن من أبنية وفق الطراز العربي الإسلامي) ولم يبق من الأبنية القديمة في صوب الكرخ في الوقت الحاضر سوى دار توفيق السويدي ودار عبدالمجيد الشاوي ودور آل الظاهر ودار المهندس فهمي دولت التي قرر المسؤولون مشكورين وبتوصية من المهندس البغدادي رفعت الجادرجي، الإبقاء عليها ضمن مشروع شارع حيفا، باعتبارها تراثاً بغدادياً، ولسان حال تلك الدور يقول للمهندسين المعماريين العراقيين:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

وأخيراً: واحسرتاه على المدرسة المأمونية، لم يبق ما يخلدها سوى ما هو مكتوب على باصات مصلحة نقل الركاب، خط ٥١: (المأمونية ـ گريعات)(*).

* * *

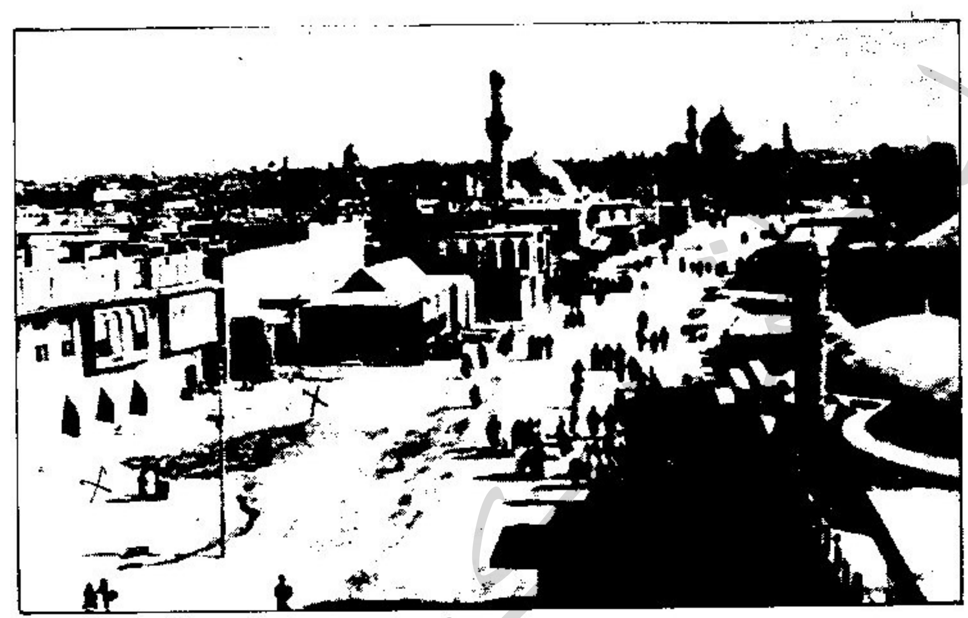


المدرسة المأمونية

مقابل المدرسة المأمونية من جهة سوگ الميدان أنشئت في الثلاثينات بناية أطلق عليها (الأوپرا) وما هي من الأوپرا في شيء. لقد كانت (تياترو) للرقص البغدادي والتمثيل الشعبي، الذي تُختتم فصوله بفصل كوميدي بطله (جعفر آغا لقلق زاده) وهي مشغولة الآن من قبل إحدى الدوائر.

(*) لقد ألغي هذا الأسم أيضاً والكتاب تحت الطبع، فاستبدلت محطة (المأمونية) بـ (الطلائع).

وإذا توجهنا نحو باب المعظم فالى اليسار تكون القاسة (قلعة الپيادة) أي المشاة(وهي غير قلعة السوارية أي الخيالة الواقعة في محلة الكرنتينة حالياً)، والى اليمين توجد ساحة للمزاد العلني لبيع الحيوانات، قريباً من الطاگ المؤدي الى محلة الطوب، وفي الثلاثينات أقيمت فيها محطة لتوزيع البنزين، وهي الآن موقع المكتبة الوطنية، ويتصدرها تمثال (أبي الطيب المتنبي). ففي تلك الساحة كان يلتقي (الجمبازية) وهم الذين يتعاطون بيع وشراء الحيوانات ويشتهرون بالغش وسعة الحيلة، ويعرفون يومئذ (حيله بازيه) أي الحيّالة والمحتالين، ومن جملة حيلهم وغشهم نفخ الحيوانات الهزيلة والضعيفة بالگصبة قبل عرضها للبيع لتبدو للمشتري ناصحة وسمينة. وقد وقعنا ذات يوم في شرك هؤلاء الجمبازية. فقد عرضت في المزاد العلني حيوانات من مخلفات الجيش البريطاني، بينها بغلة، وصفها الدلّال بأنها قبرصية، وهي بيضاء اللون جميلة الوجه، عيناها سوداوان كعيون المها، عالية



باب المعظم، مقابل جامع الأزبكـ (موقع المكتبة الوطنية حالياً) حيث تقع ساحة بيع الحيوانات بالمزاد العلني (×) عندما وقعنا في شرك (الجمبازيّة) الذين يتواجدون في گهوة الوقف المجاورة.

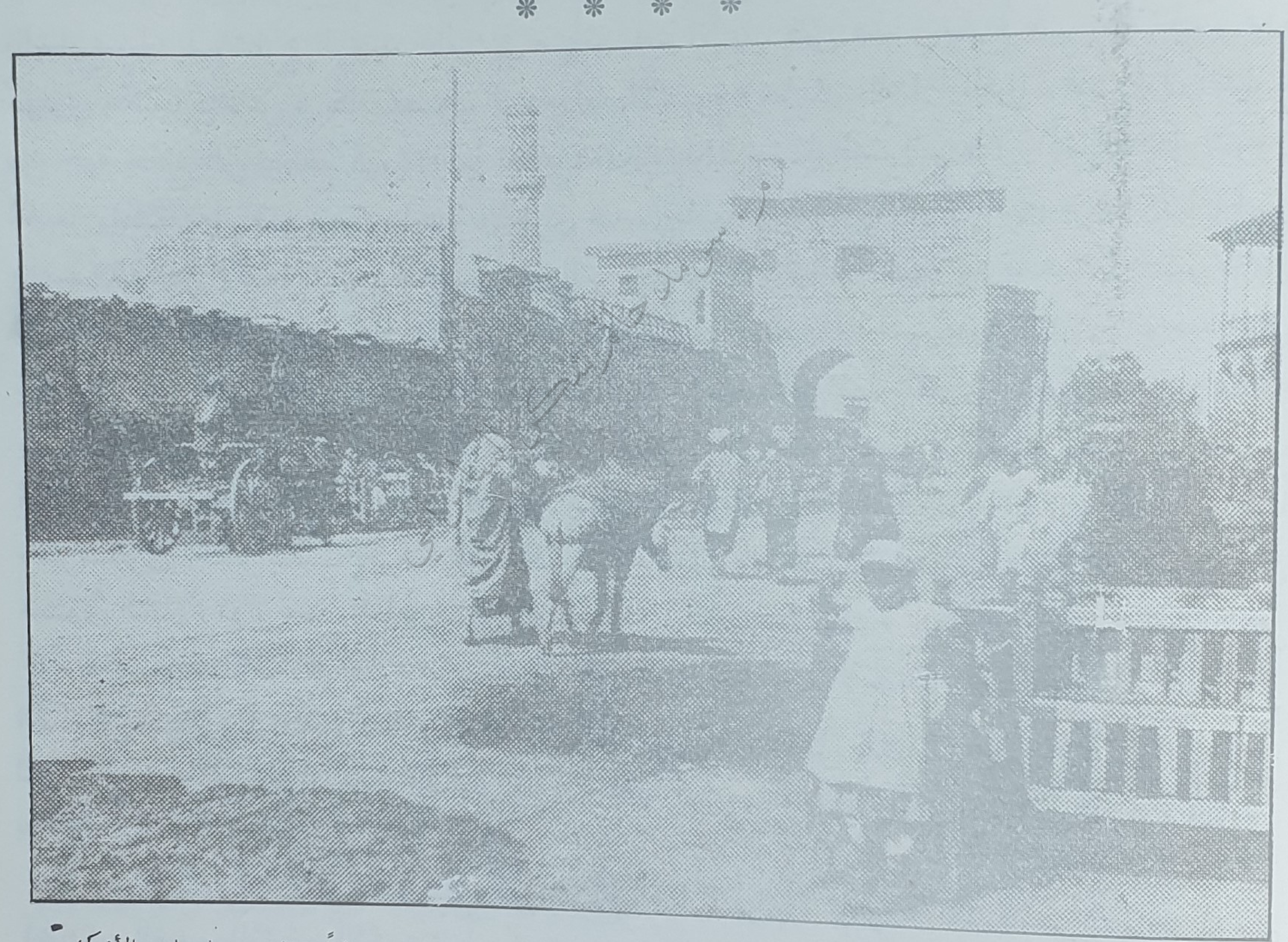
الگامه، طويلة الشليل (الذيل) وكـأنها الصگلاويـة أو المِعْنَگِيَّة أو العْبيَّـة أو الكحيلة، وقد تفنن (النعلبند) في تنعيلها وتقليم حوافرها وكأنه (مانيكورست) من الدرجة الأولىٰ. وقد بدت هذه البغلة مِعَدْلة وسمينة وكأنها شبعانة شعير وگصيل. ولما بدأت المزايدة ألححت على والدي للاشتراك بها وشراء البغلة. ففعل، وأحيلت علينا بضعف ثمنها الحقيقي تقريباً، فاستلمناها واشترينا لها (إجلال) وكراكيش وأجراس من سوگ الپولنچية، وأرسلناها مع الفلاح (سكران) الى بستان الصرافية. وما كادت تصل هناك حتى (فَشّت) وبدا هزالها فصارت لا تقوىٰ على الحركة وكأنها هيكل عظمي. فصرنا نطعمها العلف والگصيل مدة شهر تقريبا، حتى استعادت عافيتها، ولكننا صرفنا عليها ما يعادل ثمنها من الشعير والگصيل.

لقد كانت بناية (باب المعظم) البناء الوحيد الباقي من السور القديم، وقد هدمت بعد الاحتلال البريطاني لتعديل استقامة الشارع، وكانت تقفل مساءًا وتفتح صباحاً، ولم يبق من السور

الآن سوى حائط قديم يقع بين جامع الأزبك وقاعة الشعب ، ويمكن مشاهدته من أمام دائرة التشغيل والسيطرة التابعة لمصلحة نقل الركاب في ساحة باب المعظم . لقد بقي هذا الجدار قائماً متصلاً بقاعة الشعب وجامع الأزبك ، يمثل تراثاً وطنياً . والى اليمين من باب المعظم تقع دائرة الرديف (أخذ عسكر) التي هدمت لتوسع الساحة وشيدت عليها بناية مصلحة نقل الركاب المجاورة لدار جعفر العسكري القائمة حالياً ودار نوري السعيد الأولى(*) . وقبل أن نختتم هذه الجولة لابد أن أذكر طولة محمد پاشا الداغستاني (الطوله هي الاصطبل) الواقعة في محلة السور (خلف عمارة الجميلي وبناية مصلحة نقل الركاب في باب المعظم) لقد كنا نحلم ونحن أطفال بزيارة هذه الطولة لرؤية السبع (الأسد) . . وأبو خميّس هو محبوب الأطفال ، ولكن من بعيد لبعيد . .

نعود أدراجنا الى نقطة انطلاقنا من الدنگچية ! فإلى هناك . . . .

* * * *



منطقة باب المعظم في أوائل القرن الحالي ، وتشاهد بناية باب المعظم (قاعة الشعب حالياً) والى جنبها جامع الأزبك والى جنبه باب قلعة الپيادة . وتتصل باب المعظم بسور بغداد القديم .
المقهى هو موقع المكتبة الوطنية حالياً وكان يطلق عليه اسم گهوة الوقف . .

(*) أما دار نوري السعيد الثانية فقد شيدت في الوزيرية المغتصبة من وقف عادلة خاتون على مساحة تبلغ عشرة آلاف متر، ثم بيعت الى السفارة المصرية بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ثم استملكت من قبل وزارة التربية لجعلها أكاديمية الفنون الجميلة ، أما دار نوري السعيد الثالثة فقد شيدت في الكرادة الشرقية على شاطيء دجلة العظمى ، وكان يسكنها عندما وقعت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ منتقلاً اليها من دار مدير السكك الحديدية في الصالحية المطل على نهر دجلة التي كان يسكنها قبلاً ، وهي الآن (قصر للضيافة).

كنا قد وصفنا الشارع الذي يخترق الدنگچية من الشرق الى الغرب بالشريان الأبهر بالنسبة للقلب، تمر فيه كل قطرة من الدم من سائر أنحاء الجسم. ولا مبالغة في هذا التشبيه إذ يندر أن نجد بغدادياً لم يمر في هذا الشارع مرة واحدة على الأقل في حياته. فإذا أراد البغدادي العبور من الرصافة الى الكرخ أو بالعكس، مرَّ فيه؛ وإذا أراد مراجعة إحدى دوائر الدولة: القشلة، السراي، البلدية، المحاكم، المكتب (مكتب اعدادي مُلكي، أو اعدادي أو السلطاني)، اليوسطخانة والتيلخانة، مرّ فيه؛ وإذا أراد التوجه الى الأسواق والخانات والمركز التجاري، مرَّ فيه؛ وإذا أراد مشاهدة آثار وادي الرافدين في المتحف العراقي، مرّ فيه؛ ويمرّ فيه لأغراض أخرى أناس كثيرون. ولهذا الشارع روافد عديدة، شمالاً وشرقاً وجنوباً، كلها تصب فيه وتغذيه بسيل جارف من البشر والنشاط والحركة الدائمة وكان يسمى قبل الاحتلال البريطاني بعگد الصخر، ولكن بعد الاحتلال وبعد تشييد الجسر الثاني الذي سمي (جسر مود) - في مكانه الحالي بما كان يسمى قديماً بشريعة العمّار - صار عگد الصخر يعرف بشارع الجسر العتيگ.

أدعو القاريء الكريم لمرافقتي للتجول في هذا الشارع بدءًا من رگبة الجسر وصعوداً نحو التقائه بالشارع الجديد (شارع الرشيد حالياً) في منطقة باب الآغا. ففي هذا الشارع من جهة الجسر عدة گهاوي مكتظة بالناس في كافة فصول السنة وأيام الأسبوع وساعات النهار والليل. ففي أول الشارع من جهة جامع الوزير تقع گهوة (رگبة الجسر) المجاورة لدائرة الموظف البريطاني المشرف على شؤون الجسر والمطلة على النهر، والى الجهة الأخرى منه، جامع الآصفية والدرج الذي يربط رگبة الجسر بالقسم الصيفي نگهوة المميز، المحصور بين النهر وجامع الآصفية، والذي يخترقه مسلك ضيق يؤدي الى دائرة (الإدارة النهرية)، والى الدرج المقابل لها والنازل الى شريعة الجسر، وهو الدرج الوحيد المبني بالطابوق وفيه محجّر - في كافة شرائع بغداد - وهي الشريعة التي يحلو لقاريء المقام أن يختم مقامه بالپستة المشهورة (كل الشرايع زَلَگ مِنْ يمّنا العِبْره). إن رگبة الجسر معرضة للتغيرات حسب المواسم. ففي فصل الصيف وأيام الصيهود يبلغ النهر أوطأ مستواه إذ ينحدر الشارع انحداراً حاداً نحو مستوى الجسر بحيث يصعب على الشيّاب والعجائز والمرضى القادمين من الكرخ الصعود الى مستوى الشارع دون عناء. أما في فصل الفيضان فأن رگبة الجسر تصبح بمستوى الجسر أو أوطأ بقليل حسب منسوب الماء، فتراها غاصة بأكياس التراب واحتياطات الفيضان الأخرى وعدد هائل من الجسّارة والحبال والمرادي والمساحي والگواني والفوانيس وما شاكل ذلك، يراقبون الدُّوبْ ليل نهار لئلا تقطع مراسيها وتنزل حدار مع تيار الماء ووجهتها گراره، أو ينهار حاجز الأكياس الترابية فتغرق بغداد.

أما في شارع الجسر نفسه فتقع گهوة الحاج رضا الايراني، المعروفة أكثر باسم الصانع الدميم الخلقة، القصير القامة، الأگرع الرأس، شفتالو، الذي واجبه في الگهوة تقديم الماء الى الزبائن بالدولكه والطاسة. وله مهمة أخرى في الگهوة: إنه يُضحك الزبائن (بضراطه) ويتلقى لقاء كل ضرطة آنة واحدة (أربعة فلوس)(*)، والى بعد عدة أمتار من گهوة الحاج رضا تقع گهوة قاسم وهو إيراني أيضاً، ثم عدد من الچايخانات الصغيرة منتشرة على طرفي الشارع.

الى الغرب من گهوة الحاج رضا من جهة سوگ المولەخانه، يقع دكان محمد العطار وهو رجل عجوز و(نحس) جداً، وكنا نقصده اضطراراً لشراء الشيرج للقناديل، وهو والد ابراهيم شوشترلي

(*) في أيام عبدالكريم قاسم صارت (الآنة) خمسة فلوس فشاعت في الناس أهزوجة فيها سخرية بالزعيم واجراءاته فتقول الأهزوجة: «عاش الزعيم الزيّد العانة فلس»!!

الذي صار يعرف في الأوساط التجارية (ابراهيم قمبور)، وكان يتبجح بأصله الايراني، ويتفاخر بمميزات وفضائل مدينة (شوشتر)!!

والى جوار باب جامع الآصفية الحالي كان يقع دكان السيد محمود البدري - والد السيد شاكر البدري إمام هذا الجامع حالياً، وكان المرحوم البدري يبيع التتن والصحف.

وبين گهوة الحاج رضا وگهوة قاسم، يقع دكان حلّاق المحلة (اسماعيل المزين)، وبعد وفاته أُغلق دكانه وتفرق زبائنه على الحلاقين المعروفين في بغداد يومئذ منهم محمود المزيِّن (أبو گيلان) في سوگ السراي، وعزّة الحلاق جوار اوتيل الهلال في الميدان ومحمود نديم الحلاق مقابل گهوة بيت عارف آغا، وياس الحلاق في شارع الرشيد بالقرب من گهوة الزهاوي، حيث كان يتردد عليه كثير من الضباط والصحفيين والمتقاعدين، أبرزهم أمين زكي سليمان رئيس أركان الجيش الأسبق إبّان حركة مايس ١٩٤١.

وفي منصف الشارع قريباً من مدخل دربونة الدنگچية(*) يقع دكان التتنچي مصطفىٰ مقصود. إن هذا التتنچي مشهور بجودة السكاير أم الزبانة المتروسة بالتتن الشاور، ومحله معروف بالدنگچية بأنه ندوة أو نادٍ يتردد عليه يومياً شباب الكرخ في طريقهم من والى الكرخ والرصافة، ويحضرني من المداومين في هذا النادي - عالرجل - المحامي داود السعدي، والمحامي علي محمود الشيخ علي، والمحامون عبدالهادي الظاهر، شاكر غصيبة، ياسين قدوري، توفيق الفكيكي، والقاسم العلوي، والأستاذ هاشم السعدي وصادق الخوجه، وعبدالرزاق الحصّان، وكثيرون غيرهم من المحامين والشباب العاملين في الحقل الوطني يومئذ. وفوق دكان مصطفىٰ مقصود عدد من الغرف اتخذها المحامون مكاتب لهم، أذكر منهم المحامي رشيد كَنّه والمحامي عبدالقادر جميل والمحامي عبدالعزيز السنوي والمحامي ياسين قدوري والمحامي أحمد مدحت والسيد رشيد الصوفي وجواد الدجيلي وغيرهم. والى جانب دكان مصطفىٰ مقصود دكان الحاج سلمام العطار.(**)

في مدخل طريق سوگ الصفافير يقع دكان مركب الأسنان أوسطه ناصر، العائد لوقف عادلة خاتون. كان الأوسطه ناصر، رحمه الله، حلاقاً في الدنگچية، ثم أتقن مهنة قلع وتركيب الأسنان وبزّ فيها فصار يشار إليه بالبنان في بغداد. وبالقرب من الأوسطه ناصر وبداخل جامع عادلة خاتون الصغير اتخذ (إبن الملّا جواد) عيادته، فاذا أرادت البغدادية أن تحصل على (دُعا) لشفاء صداعها المزمن، أو إذا أرادت الحصول على (سحر) حتى يحبها زوجها أكثر من ضرّتها، أو حتى تلجم لسان

(**) تصبح دربونة الدنگچية صعبة السلوك في مواسم الأمطار وكنت أراجع أمانة العاصمة لتبليطها، فكان الجواب دائماً: (الميزانية ما تساعد). وفي أوائل الثلاثينات راجعت مهندس الأمانة علي رأفت حول الموضوع. فقال لي ذات يوم، متبرماً: (إن الشارع لا يبلط إلا إذا سكن فيه وزير أو گحبه) وفي سنة ١٩٣٣ عيّن صالح جبر وزيراً للمعارف في وزارة جميل المدفعي الأولى، وكان قبل ذاك متصرفاً للواء كربلاء، فسكن الدار المقابلة لدار صالح أفندي الملّي. وفي سنة ١٩٣٤ سكنت تفاحة بنت مريم خان ديوەخانة بيت عاصم الجلبي الواقعة (جوه الطاگ)، فراجعت علي رأفت وقلت له: إن الشرطين اللذين ذكرتهما قبلاً قد تحققا في دربونة الدنگچية فما هو رأيك بتبليطها الآن؟ فابتسم، وقال: «والله إنتو بيت المميّز دوختونا، أنت تريد دربونتكم تتبلط، وإبن عمك قيّم القيامة بجريدته «أبو حمد» يريد تبليط شارع أبو نؤاس أو فرشه بالحصو، ولكن يا أخي والله الميزانية ما تساعد» (كان عبدالقادر المميّز يسكن الدار التي انتحر فيها المرحوم عبدالمحسن السعدون سنة ١٩٢٩م وهي تقع على شارع «أبو نؤاس»، خلف أوتيل بغداد حاليا، قبل انتقاله الى الصرافية سنة ١٩٣٥م).



الجالسون من اليسار: عبدالله الطيّار. قاسم العلوي. فاروق الدملوجي (المرافق العسكري للملك فيصل الأول). شاكر الوادي. ضابط لا يحضرني اسمه.
الواقفون من اليسار: صادق الخوجه. سعيد سلمان. ضابط لا أذكره. عبدالغفور البدري.
وكانوا طلاب صف واحد في مكتب الأعدادي العسكري في العهد العثماني. وقد ساهموا في خدمة البلاد في عهد الحكم الوطني، كل حسب كفاءته واختصاصه
وكان الأول على الصف المرحوم قاسم العلوي، المدير المسؤول لجريدة الاستقلال وأول من الحق الـ التعريف على اسمه الأول، والعراقي الوحيد الذي كان يفهم نظرية (آينشتاين). وكثير منهم كان يتردد على دكان التتنجي مصطفى مقصود في شارع الجسر العتيك.

(مَرِت عَمْها) لتسكت عن القرقرات، أو الحصول على وصفة لشفاء حالة نفسية تشكو منها، فأنها تقصد الطبيب النفساني إبن ملاّ جواد. إني لا أفطن على الملاّ جواد نفسه ولكني أتذكر ابنه جيداً، حيث كنت تلميذاً في كتّاب الملاّ إبراهيم في جامع عادلة خاتون وكنت ألاحظ النساء المزدحمات حول التخت الذي

(* *) إن الحاج سلمان (أبو سلّومي) هو جركچي غير أنه سئم تلك المهنة لتقدمه في السن ففتح دكان عطارة للبيع بالجملة فكنت أقضي بعض الوقت في دكانه أراجع دروسي إستعداداً للامتحانات. وكنت أحدثه ذات يوم عن أزمة مالية عاناها والدي بسبب غرق بستان الصرافية سنة ١٩٢٦م، وبعد أن أصغىٰ الى الحديث، غادر الدكان وقال لي: «بالله لا تروح آني هسّه أجي» فذهب الى بيته في دربونة المولەخانة مسرعاً وعاد مسرعاً وهو يحمل (عگده) ثقيلة وسلمني إياها وقال: أخذ هذا الخشل لوالدك حتى يدبر أموره. استلمت العگدة وطرت الى البيت فرحاً وأنا لا أصدق ما جرىٰ، وسلمتها الى والدي الذي فوجيء هو الآخر بالأمر. تلك هي نخوة البغدادي وشهامته ونقاوة طويته وطيب سريرته، يسلم صبياً مثلي مصاغ زوجته وبناته دون حساب أو كتاب ودون اكتراث بالعواقب.

يجلس عليه وفوقه الصندوق الذي يكتب عليه، وبيده القلم والورق لكتابة الراچتات (الوصفات) (الحجاب) وأمامه المكعبات النحاسية التي تستعمل لاستكشاف الحظ والبخت.

وإذا كسرت ذراع البغدادي أو انفصَخَتْ يد أحد أولاده هرع الى هذا الشارع يسأل عن المجبّر الأوسطه محمد الصفار (والد المرحوم عبود الصفار صاحب محل حلويات الصفار قرب سوق الأمانة) الذي يسكن في دربونة الدنگچية مقابل دربونتنا. إن مهنته صفار ودكانه في سوق الصفافير ولكنه أصبح خبيراً بالتجبير من الصنف الأول لا يبزه في هذه المهنة في الوقت الحاضر غير المجبر الفني جلال شاكر.

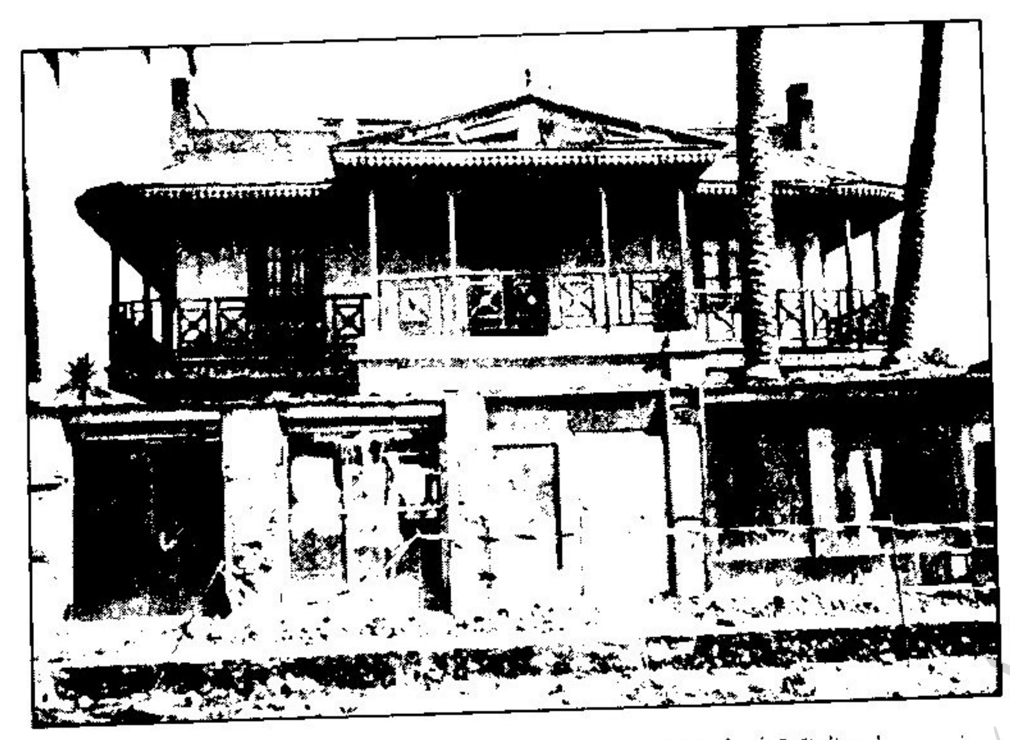
أما إذا أصاب وجه الطفل البغدادي نوع من الإلتهاب الجلدي أو الطفح فعليه أن يقصد الدنگچية أيضاً لمراجعة (السگمنچي) أي الهداف والصياد البارع نيجدح الزناد والصخرة في وجه الطفل فتتولد من ذلك شرارات تعتقد الأمهات أنها تشفي ذلك الالتهاب. وكان المرحوم والدي معروفاً في الدنگچية بأنه (سگمنچي)، ولذا فأن بيتنا يصبح في بعض الأيام وكأنه عيادة للأمراض الجلدية لكثرة المراجِعات. ولا أعلم إن كان للشرارات المتولدة من القَدْح تفسير علمي في شفاء تلك الالتهابات.

مقابل المتحف العراقي فتح أحد الهنود بعد الاحتلال محلاً لبيع الحلويات الهندية كالصالونة والجلابْية وما شاكل ذلك، سماه (قنادي نظافت) أي الحلويات النظيفة، وبعد عدة سنوات فتحت جوار قنادي نظافت أكبر صيدلية في بغداد هي الصيد لية الاسلامية لصاحبها سامي سعدالدين.

قبل أن نصل الى باب الآغا نمر بالچرّاخ أحمد الذي كنا نجرخ عنده المصاريع بأنواعها،المصرع الناعوري والمصرع الوناني والبصراوي وأبو الچاك وبلابل لعبة (العودة وبلبل) وهذا الجراخ مشهور بشواربه الطويلة التي لا تطاولها أية شوارب في بغداد يومئذٍ، وبعد وفاته ورث ولده (تركي) الشوارب و مهنة الچراخة.

والى جانب دكان الچراخ أحمد، دكان التتنچي سيد عباس صندوق، ودكان حمادي القصاب، ثم دكان عبدو أبو الشربت، ثم دكاكين ولِدْ گَنّوْ ثم حمّام كچّو.

وفي ملتقى شارع الجسر بشارع الرشيد شيدت أول سينما حديثة في بغداد بطراز هندسي فريد من نوعه لم تعرفه بغداد من قبل، وبتنظيم وترتيب وتأثيث و(ديكور) كان يخلب لب البغداديين صغاراً وكباراً. لقد زينت قاعة السينما وألواحها بألواح زيتية بريشة الرسام البغدادي عبدالقادر الرسام لم أشاهد نظيراً لها لا في (تيت گالري) في لندن، ولا في (اللوفر) في باريس ولا في (إلپرادو) في مدريد، ولا في المتاحف الأوربية الأخرى. انها كانت حقاً آية من آيات الجمال والإبداع في الرسم الزيتي.
ولم أسمع عن مصيرها بعد هدم السينما، فلو عرضت اليوم في المعارض العالمية، لفاخرنا العالم طراً بها.



دار المهندس فهمي دولت الواقعة في الشواكة، وقد تقرر الابقاء عليها ضمن مشروع شارع حيفا بتوصية من المهندس الاستشاري البغدادي رفعت كامل الجادرجي، مع عدة دور تراثية أخرى هي دار عبدالمجيد الشاوي (والد سعدون الشاوي) وقصر كاظم باشا (السفارة البريطانية) ودار توفيق السويدي، وداران لآل الظاهر أشرف على بنائهما المعمار البغدادي الشهير الحاج ابراهيم العبطة وهما على غرار طراز دور المتولين على وقف عادلة خاتون في الصرافيّة، وهو الطراز الأندلسي المكيّف وفق الطراز البغدادي. إن دار المهندس فهمي دولت شيّدت على طراز (رويال سينما) التي هدمت عند فتح ساحة (إمام طه) (ساحة الرصافي حالياً) والمبحوث عنها أدناه.

كانت رويال سينما محط أنظارنا وقبلة أحلامنا، نترقب يوم التبديل بفارغ الصبر وعظيم الشوق لنشاهد أفلام بيدرو وإلمو وطرزان وچارلي چابلن وملاكمات جاك دمبسي.. ألخ فنحيط بالمنادي (عبّاس حلاّوي) الذي يصيح بأعلى صوته الرنّان: «الليلة تبديل.. رويال سينما.. الليلة تبديل». وفي أوائل العشرينات مثلت فرقة (فاطمة رشدي) عدة مسرحيات في رويال سينما، وكان ذلك من أوائل مشاهداتي للتمثيليات المسرحية في بغداد.

* * *

قبل متابعة سيري الى عگد الصخر (شارع الجسر) متجها نحو باب الآغا أود أن أتوقف قليلاً عند المتحف العراقي. وهناك ثلاثة مبررات تحملني على هذا التوقف، الأول عاطفي والثاني وطني وقومي والثالث يتعلق بالتراث البغدادي.

إن المبرر الأول هو أكثر المبررات الثلاثة وقعاً في نفسي. فأن المجمّع الذي يضم المتحف ودائرة الآثار ومطبعة الحكومة قد اقتطع قسماً من محلة الدنگچية وجديد حسن باشا، من ضمنها الدار التي كانت مسقط رأسي ومرتع طفولتي وصباي. فقد اقتطع قسم كبير من هذه الدار وضم الى مطبعة الحكومة وشيد مكانه مكتب ومسكن لمديرها البريطاني، وبقي القسم الباقي منها شاهداً على ما عانيناه من ظلم وتعسف بعد الاحتلال البريطاني.

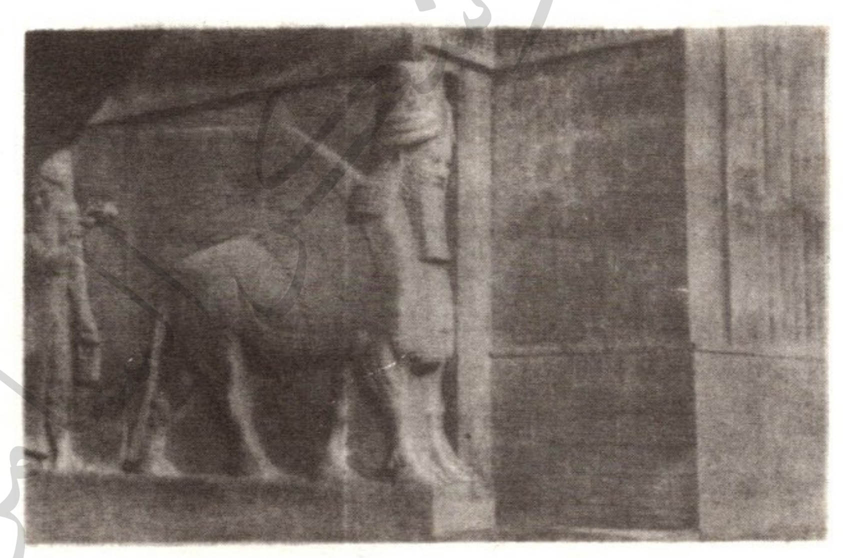
أما المبرر الثاني الذي وصفته بالمبرر الوطني والقومي فقد وقفت عليه بحكم جواري لذلك المجمّع وما جرى فيه من أحداث طيلة عهد الاحتلال وفي الأدوار الأولىٰ من الحكم الوطني كما وقفت عليها بنفسي.



الطاك الذي يربط بناية المتحف العراقي وبناية مديرية الآثار العامة ومطبعة الحكومة (المتحف البغدادي حالياً) ويؤدي من عكد الصخر (شارع المأمون حالياً الى دربونة الدنگچيّة ثم الى شارع الاكمكخانة (شارع المتنبي حالياً).



باب بناية مديرية الآثار القديمة العامة ، المجاورة لبناية المتحف العراقي القديم ، في شارع الجسر (عگد الصخر) ، إنها أصغر باب لأفخم بناية في بغداد .

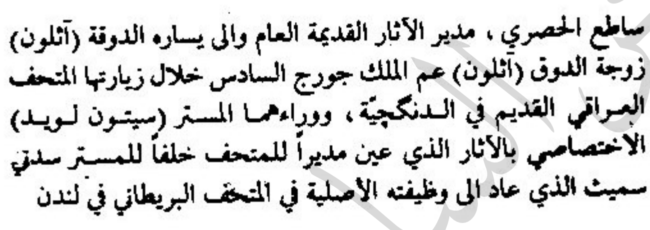


الثور المجنّح الأثر الموجود في المتحف العراقي ، والثيران المجنّحة الباقية وغيرها من الآثار العراقية القيّمة ، هُرِّبَتْ الى المتاحف الأجنبية في شتى العهود، بدءاً من الحكم العثماني ، وانتهاءاً بالحكم الوطني ، قبل أن يتولى ساطع الحصري مديرية الآثار القديمة العامة



القيثارة الذهبية التي اكتشفت في مدينة أور السومرية من قبل السر ليونارد وولي، والموجودة في المتحف العراقي، أما نسختها الفضية فموجودة في المتحف البريطاني في لندن. أما النسخة الثالثة المطوّرة فموجودة في متحف الجامعة بمدينة فيلادلفيا في الولايات المتحدة.





ساطع الحصري ، مدير الآثار القديمة العام والى يساره الدوقة (آثلون) زوجة الدوق (أثلون) عم الملك جورج السادس خلال زيارتها المتحف العراقي القديم في الدنگچيّة ، ووراءهما المستر (سيتون لويد) الاختصاصي بالآثار الذي عين مديراً للمتحف خلفاً للمستر سدني سميث الذي عاد الى وظيفته الأصلية في المتحف البريطاني في لندن



مسلّة حورابي

نقلت المسلّة من بابل الى سوسا عندما اجتاح العيلاميون بابل في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومنها استقرت في متحف اللوفر في باريس .

[ورد في مجلة «العراق اليوم» عدد ١٩٩ مجلد ٩ بتأريخ ١٩٨٤/١/١ ، والكتاب تحت الطبع ، أن مسلّة حورابي قد أعيدت الى المتحف العراقي . فاذا كان الأمر كذلك وعادت مسلتنا الينا فقد «كفى الله المؤمنين القتال»]

من المعروف أن الذي لعب دوراً كبيراً في العراق إبان الإحتلال البريطاني وتأسيس الدولة العراقية كانت (الخاتون) المس (گرترود بل) السكرتيرة الشرقية للحاكم العسكري السر پرسي كوكس ومن المعلوم أيضاً أن المس بل كانت قد جاءت الى الشرق الأوسط في أوائل القرن الحالي للبحث والتنقيب عن الآثار. وبهذه الصفة ظاهرياً ولصفتها السياسية **واقعياً**، فقد أولت موضوع الآثار اهتماماً كبيراً، فعينت نفسها (المديرة الفخرية للآثار القديمة) وبقيت بهذه الصفة بعد تشكيل الدولة العراقية وحتى وفاتها. كان أول عمل قامت به الإدارة البريطانية بتوجيه من المس (بل) تشييد بناء ضخم يضم متحف الآثار ودائرة للآثار ثم ألحقت بهذا البناء مطبعة للحكومة، فأصبحت العمارة مقراً للمديرة الفخرية ومرجعاً للبعثات التنقيبيّة وعلماء الآثار، وكان أكثرهم تردداً يومئذ ليونارد وولي الذي كان يتولى التنقيب في (أور).

كانت «المس بل» تتصرف بالآثار تصرفاً فردياً دون ما رقابة أو إشراف، فأصبحت الآثار العراقية نهبا للبعثات التنقيبية وتجار الآثار وهواة جمعها، فامتلأت بها المتاحف الأجنبية ولم يحتفظ المتحف العراقي إلاّ بالنتف القليلة وبالگحوف.

بعد قيام الحكم الوطني لاحظ المسؤولون وعلى رأسهم الملك فيصل الأول ما آلت إليه آثار العراق من تسيب ونهب، فتقرر تعيين ساطع الحصري مديراً للآثار إضافة لوظيفته الأصلية كمعاون لوزير المعارف يومئذ، ثم عين مديراً عاماً أصيلاً للمعارف، فألحقت دائرة الآثار بمديرية المعارف. ونتيجة لما أبداه ساطع الحصري من حرص شديد على الآثار كان من الطبيعي أن يصطدم بالمديرة الفخرية، وأنّى له أن يتغلب عليها وهي التي كانت تدير سياسة البلاد بأصبع واحد من أصابعها العشرة. فتقرر نقل مديرية الآثار من وزارة المعارف وإلحاقها بوزارة الأشغال والمواصلات بغية وضع حد لاصطدام الأثنين، ثم أعيدت دائرة الآثار الى وزارة المعارف بعد وفاة المس بل.

في ظل الإحتلال البريطاني وفي السنين الأولى من الحكم الوطني لم يبتعد النفوذ البريطاني عن الآثار. لقد توالى على الإشراف على المعارف ـ وكانت تعرف يومئذ (نظارة المعارف) وبصورة غير مباشرة على الآثار ـ عدد كبير من البريطانيين، أذكر منهم **الميجربومن**، ناظر المعارف الذي ورد الكلام **عليه في** محل آخر من الكتاب، ثم المستر فارل، ثم المستر رايلي وآخرهم المستر (ليونيل سميث) وهذا الأخير أستاذ جامعي بقي في المعارف عدة سنوات لوضع أسس التربية والتعليم للدولة الفتية. وبأصرار من ساطع الحصري الذي حرص على بث الغرور القومي والعقيدة العربية في نفوس الجيل الصاعد، فقد توفق الى جعل عنوان المستر سميث (مفتش المعارف العام) إذ وجد ساطع الحصري أن في تسميته (مستشار وزارة المعارف) مساً بالشعور الوطني للمدرسين والطلاب وجرحاً لكبريائهم القومي الذي عمل ساطع الحصري على غرسه وتغذيته في نفوسهم، إذ إنّ كلمة المستشار تعني الاحتلال والاستعمار والحكم المزدوج، خاصة وقد أشغل مناصب (المستشار) في الوزارات الأخرى عدد من دهاقنة المستعمرين البريطانيين، أمثال كورنواليس وبعده الميجر أدموندس للداخلية وأدكار بونام ـ كارتر، وبعده أدوين دراور للعدلية، وسليتر وهوگ للمالية، وكوك للأوقاف وغيرهم في

الوزارات والدوائر الأخرىٰ. فكنا نردد ما قاله باقر الشبيبي تهكماً بوزراء ذلك العهد:

المستشار هو الذي شرب الطلا ... فعلامَ يا هذا الوزير تعربدُ

كان ليونيل سميث آخر من وجد من البريطانيين في وزارة المعارف التي كانت تشرف على مديرية الآثار أيضاً، ولو أن بريطانيين آخرين قد تواجدوا بعده في المعارف ولكن تدخلهم في الآثار يكاد يكون معدوماً أمثال (سمرفيل) الذي كان الناس يسمونه (سمربور) وهي المدينة الهندية التي نفي إليها الوطنيون العراقيون إبان الثورة على الحكم البريطاني. وآخر من وجد في دائرة الآثار من البريطانيين كان المستر (سيتون لويد) وهو من الأكاديميين المتخصصين بعلم الآثار الذي تسلّم المنصب من المستر سدني سميث الذي شغل المنصب حتى سنة ١٩٣٢.

وعندما تولىٰ ساطع الحصري إدارة كلية الحقوق بقي محتفظاً بمديرية الآثار. وفي سنة ١٩٢٦م شرّع أول قانون لحماية الآثار ومنع تهريبها، ثم وضع قانون آخر سنة ١٩٣٦م لتنظيم أعمال واختصاصات مديرية الآثار العامة وبقي ساطع الحصري ملازماً لمديرية الآثار العامة حتى سنة ١٩٤١م عندما جرد من جنسيته العراقية وأبعد خارج العراق بعد حوادث مايس ١٩٤١م، فخلفه يوسف غنيمة حيث شغل المنصب قرابة ثلاث سنوات ثم تولاه الدكتور ناجي الأصيل.

إن من أهم الدوافع لإصدار قانون منع تهريب الآثار القديمة استشراء تهريب الآثار العراقية الى الخارج سواء في العهد العثماني أو في عهد الإحتلال البريطاني وحتى في عهد الحكم الوطني، وكانت المس (بل) ترفض حتى تقسيم الآثار التي تعثر عليها البعثات التنقيبية مناصفة بين العراق وتلك البعثات بحجة أن ذلك لا يشجع التحري والتنقيب عن الآثار، فيترك الخيار لتلك البعثات تأخذ ما تشاء وتترك للعراق ما تشاء.

كان يشغل منصب مستشار وزارة الأوقاف في أوائل الحكم الوطني بريطاني إسمه المستر (كوك) وكان من المهتمين بتهريب الآثار، فامتدت يده حتى الى خزانات أوقاف المسلمين وآثارها فكان (حاميها حراميها)، وذات يوم كبست سلطات الكمارك عدة صناديق تحتوي على الآثار التي كان يزمع تهريبها الى الخارج، فقامت ضجة كبرىٰ في الصحف حول ذلك فألغي منصب المستشار لوزارة الأوقاف وغادر كوك العراق (بليلة سودة)، وقد قال الملاّ عبود الكرخي عن تلك الحادثة:

لا تلقلق يحجسوك ... لا تگول انهزم كوك

كان المستر كوك هذا يتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شؤون أوقاف المسلمين، وكان مكتبه في الوزارة، وكانت يومئذ في البناية المقابلة لبناية بيت لنج ـ بناية أبو شيبة حالياً ـ مرجعاً لرجال الدين وأصحاب العلاقة بالأوقاف وكان والدي من جملتهم، ويقال أن أحد رجال الدين الساخرين قد استشهد للمستر كوك بالآية الكريمة (وتركوك قائماً) التي كان قد استشهد بها أحد رجال الدين في مصر

لسميّ له، عندما قال له : إن اسمك قد ورد في القرآن الكريم !

تولىٰ إدارة الآثار القديمة عدة مدراء للآثار عملوا مشكورين في حماية الآثار العراقية وصيانتها، وخاصة الآثار العربية والإسلامية التي لم تكن قيد الرعاية والاهتمام عندما كان الانكليز يسيطرون على دائرة الآثار، وأخص بالذكر والشكر اضافة الى ساطع الحصري كُلًّا من المرحومين يوسف غنيمة والدكتور ناجي الأصيل والدكتور فيصل الوائلي وطه باقر. كيف لا أخلد دور هؤلاء الأماجد في حماية وصيانة آثار العراق. فقد زرت ذات يوم جناح الآثار البابلية والآشورية والسومرية في المتحف البريطاني وقد شعرت بفخر واعتزاز ببلادي وأمجادها عندما رأيت لافتة الى جنب القيثارة الشهيرة مكتوب عليها (نسخة REPLICA من الأصل المحفوظ في المتحف العراقي)، وعندما انتقلت الى ردهة أخرى تفطر قلبي عندما رأيت ان أصل المعروضات موجود هناك، وعندما تذكرت ان متحف بلادي يضم (الگحوف) وفتات الآثار والأحجار وبعض الأختام المسمارية، صار قلبي يقطر دماً!!(*)

أنشيء سنة ١٩٣٣ بجوار بناية المتحف جناح خاص للمكتبة التي كانت من أغزر المكتبات في بغداد بمجلداتها وكتبها القديمة ومخطوطاتها النادرة، وأبرز ما كانت تضمه مكتبة الآثار، التي تولى تنظيمها والاشراف عليها الأستاذ كوركيس عواد أدام الله بقاءه، هي مجموعة الصحف التي صدرت في العراق إبتداءاً من صحيفة الزوراء التي أصدرها باللغتين العربية والتركية الوالي المصلح مدحت باشا، وإنتهاءاً بالصحف اليومية والأسبوعية التي صدرت في فترات مختلفة من العهود السابقة، والتي إستقرت نهائياً في المكتبة الوطنية ببغداد.

ومن الجهود التي تستحق مديرية الآثار الثناء عليها إصدار مجلة (سومر) التي صدرت في الأربعينات باللغتين العربية والإنكليزية وكانت نصف سنوية ومن أغزر المجلات التي تصدر في البلاد العربية مادة وخاصة في موضوعات الآثار والتنقيبات وتقارير البعثات التي تقوم بالتحريات في المواقع الأثرية في العراق، وكان يتولىٰ رئاسة تحريرها المرحوم الدكتور ناجي الأصيل مدير الآثار العام ويشارك في تحريرها نخبة من المتخصصين بعلم الآثار من وطنيين وأجانب، وكان يشرف على اصدارها سكرتير تحريرها الأستاذ كوركيس عواد.

* * *

أما المبرر الثالث الذي جعلني أقف عند المتحف العراقي هذه الوقفة الطويلة فهو الذي يتعلق بالتراث وفن العمارة في بغداد في الفترة الواقعة بين الحربين الأولىٰ والثانية كما خبنتها بنفسي.

من اطلاعي على ما صدر من مؤلفات ونشر من مقالات عن فن العمارة البغدادية في مختلف العهود، جلب انتباهي إغفال ذكر مجمّع المتحف ومديرية الآثار ومطبعة الحكومة مع أنه كان أفخم بناء شيد في بغداد تواً بعد الحرب العالمية الأولىٰ واحتلال بغداد. ولست أعلم سبب عزوف الكتّاب والمؤلفين عن التطرق لذلك البناء مع أنه يقع في شارع الجسر الذي وصفته في مكان آخر من الكتاب بالشريان الأبهر والذي يصل جانبي بغداد بالجسر القديم، وطرازه ونمط بنائه يسترعي انتباه

كل باحث مدقق في فن العمارة والبناء. ولا أعتقد أن أحداً من أولئك الكتّاب والباحثين والمهندسين لم يمر ولو مرة واحدة في حياته من شارع الجسر ولم يشاهد ذلك البناء الفخم. أنه أفخم بناء شيد في بغداد منذ أيام مدحت پاشا الذي شيدت أيام ولايته أبنية القشلة ومدرسة الصنايع ومكتب الاعدادي (المحاكم المدنية حالياً) والبلدية (أمانة العاصمة سابقاً) ومستشفىٰ الغرباء في الكرخ والتنبلخانة في محلة الجوبة وأبنية كثيرة أخرىٰ. كما أن طراز بنائه ونقوشه وزخرفته تختلف كل الاختلاف عن طراز ونقوش الأبنية الأخرىٰ التي شيدت في العشرينات والثلاثينات مثل بناية جامعة آل البيت في الأعظمية وبناية مجلس الوزراء في السراي وبناية المطار المدني (المثنىٰ حالياً) وكلية الهندسة والثانوية المركزية وقصر الزهور ووزارة الخارجية القديمة (بناية الجمعية الزراعية الملكية والتي كانت أقرب الأبنية الى الطراز العربي الاسلامي)، وغيرها، تلك الأبنية التي اتصفت بطابع معمارى خاص لم يألفه العراق من قبل، **انفرد به عدد من المهندسين المعماريين البريطانيين الذين عملوا في وزارة الأشغال** والمواصلات عهدئذ أمثال المهندس المستر ولسن والمهندس ميسن، والمهندسين المعماريين جاكسون وكوپر وترنر. ولما حل محلهم المهندسون العراقيون الذين أكملوا دراستهم في الجامعات الأجنبية في أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات أمثال أحمد مختار إبراهيم ومحمد صالح مكّية ومدحت علي مظلوم وسعيد علي مظلوم وجعفر علاوي ورفعت الجادرجي، وشريف يوسف وهشام منير وهشام المدفعي **ومحمد مخزومي واحسان شيرزاد وحسام الدين العباسي وغيرهم، طرأ تغيير جذري على طراز وفن العمارة البغدادية فاصبحت أقرب الى الذوق وأكثر ملاءمة للبيئة والمناخ البغدادي، فزالت على الأقل من واجهات الأبنية تلك الأنابيب السوداء ذات قطر أربعة إنجات (المرازيب) التي كانت (تكحّل) الواجهات وتشوه منظرها وحلّت محلها الأقواس العباسية والريازة والزخارف الاسلامية الجذابة.**

(*) يكون الأمر معكوساً بالنسبة لمسلة حمورابي رمز حضارة وادي الرافدين والتي اختطفت من العراق في **وضح النهار**.. فأن الأصل محفوظ في متحف اللوفر في باريس والنسخة REPLICA معروضة في المتحف العراقي ببغداد. إن العراق الجديد الذي انتزع نفطه من الشركات الأجنبية ليس عسيراً عليه أن يستعيد آثاره من المتاحف الأجنبية، خاصة من متحف الجمهورية الفرنسية الخامسة، التي تربطها بالعراق أوثق الروابط، وفرنسا هي أمّ الحضارات والحريات ومهد الثقافات، والتي قامت فيها أولىٰ الثورات التحررية، والتي تقدّر قيمة الآثار الحضارية قبل غيرها من الأمم. فلما أرسلت مومياء توت عنخ آمون الى فرنسا للمعالجة من التعفن الذي أصابها، أجري لها استقبال رسمي حافل بكل المراسيم كالاستقبال الذي يجري لأي ملك من الملوك الأحياء.

إن مطالبة دول العالم الثالث بالآثار التي اغتصبت منها قد اتخذت أبعاداً شاسعة في السنوات الأخيرة. فأن مصر **تطالب بمسلة كليوباطرة ورأس الملكة نفرتيتي من بريطانيا، واليونان تطالب على لسان مدام مركوريه وزيرة الثقافة في الوزارة اليونانية الحالية باعادة التماثيل الرخامية المعروفة بـ ELGIN MARBLES التي نقلها اللورد البريطاني إلگن من مواقعها الأثرية في أثينا الى المتحف البريطاني في لندن قبل مائة وسبعين عاماً. ولما استقلت الهند وباكستان صارتا تطالبان بريطانيا باعادة الماسة الشهيرة KOH—I—NOOR أكبر ماسة في العالم، والتي اغتصبتها الملكة فكتوريا من أصحابها الشرعيين لتتوج بها تاجها. ولما أثيرت الضجة في الصحف البريطانية سنة ١٩٧٨ حول عائدية تلك الماسة انبرىٰ شخص رابع هو حفيد قائد البارجة البريطانية التي نقلت الماسة من الهند الى بريطانيا مدعياً بأنه أحق من الجميع بعائدية الماسة التي تولىٰ جده نقلها بالبارجة الحربية، وحراستها وتسليمها (صاغ سليم) الى (برج لندن) حيث تزين التاج البريطاني المحفوظ هناك!!**

وان حكومات بورما وسري لانكا وتايلند تطالب باستعادة تمثال معبودهم (بودا) المصنوع من الذهب الخالص، والذي تحتجزه بريطانيا في متحف (ڤيكتوريا وآلبرت) في لندن. حتى أن بعض الايطاليين صاروا يتمنّون على فرنسا، جارتهم وحليفتهم، إعادة لوحة (مونا ليزا) - لاجيوكوندا - بريشة ليونارد داڤينشي أعظم رسام أنجبته إيطاليا والمحفوظة في متحف اللوفر أيضاً. وان ليبيا تضايق ايطاليا الآن لاعادة الآثار التي كانت قد اغتصبتها منها إبّان احتلال الطليان لطرابلس الغرب.

إستغرق بناء مجمع المتحف ومديرية الآثار ومطبعة الحكومة أكثر من ثلاث سنوات، وقد واكبت البناء من يوم حفر الأسس حتى يوم حفلة الإفتتاح، بحكم جيرتي للمجمّع، إذ كنت أقضي كثيراً من أوقات فراغي في مراقبة العمل والعمال وفعاليات المجمّع.

جرى افتتاح المتحف بحفل كبير حضره الملك فيصل الأول والوزراء والمندوب السامي البريطاني والمستشارون البريطانيون والأعيان والنواب وعلية القوم وكان أكثر الحاضرين اغتباطاً بالمناسبة المس بِل (الخاتون) التي تصدّر تمثالها النصفي واجهة المتحف.

أما البناية الثانية فكانت مخصصة لمديرية الآثار، ثم أشغلت مؤقتاً من قبل كلية الحقوق، ثم من قبل وزارة المعارف، وفي السنوات الأخيرة أشغلت لفترة من الوقت من قبل وحدة المركز التابعة لأمانة العاصمة بعد انتقال المتحف ومديرية الآثار العامة الى البناية الجديدة في الصالحية.

إن الذين وضعوا تصاميم هذه البناية وأشرفوا على تنفيذها هم المهندسون البريطانيون والهنود الذين رافقوا الحملة البريطانية وجلّهم من فرق الهندسة العسكرية التابعة للجيش البريطاني، فجاءت **التصاميم خليطاً من شتى الأنماط والفنون المعمارية، فلا هي شرقية ولا هي غربية ولا هي هندية ولا هي** عربية، ومن يدخل الى تلك البناية الفخمة من بابها الصغيرة جدا يجدها فوضى من السراديب والأقبية والممرات والبايات والسلالم والغرف غير المنسقة وغير المتجانسة، وكثيراً ما يجد المرء نفسه تائهاً فيها وكأنه في «أحبولة» (MAZE)(*). إن المواد الانشائية التي شيدت منها البناية هي ما كان معروفاً في بغداد يومئذ، وقليل منها ورد من الهند بعد الاحتلال البريطاني كالشيلمان مثلاً، والأسس كانت من النورة والرماد والطابوگ، والتربيع بالشگنگ، إذ لم يكن السمنت معروفاً بعد، والجدران كانت من الطابوگ الأصفر والجص، وبعضها من طابوگ (الكاظم) الأحمر، والنجارية من خشب الچام والسيسم والجاوي والصاج والقَوَغْ، والسقوف من الخشب وبعضها كان عگادة «بالعرقچين» أو عگادة بالشيلمان أو رگم بالخشب أو من نوع السقف البغدادي. ولم يكن مانع الرطوبة (السيكا والپادلو وما شاكلهما) معروفاً يومئذ فكان القير والزفت يستعمل للأغراض المماثلة. والتطبيگ كان بطابوگ الماطلي والفرشي، وأحد السراديب بُلّط بالمرمر العراقي، إذ لم يكن الكاشي قد استعمل في بغداد بعد، وكان السطح يهوّر بالتراب ويطبگ بالفرشي أو يرشگ بالطين الأحمر المخمّر الممزوج بالتبن، إذ لم نكن نسمع بعد باستعمال الكاشي أو الشتايگر لهذا الغرض. أما تسرب مياه الأمطار من السطح فكان بواسطة المرازيب المصنوعة من الچينكو التي مازالت تدر المياه على الشارع مباشرة، إذ لم تكن تلك المرازيب السوداء (أنابيب الآهين ذات قطر أربعة انجات) التي صارت تستعمل في الثلاثينات

تلك هي بعض الشواهد المعروفة عن المطالبة بآثار دول العالم الثالث واستعادتها من مغتصبيها و(مفرهديها)، وحبذا لو اقتفى العراق هذه السوابق وطالب بأعادة مسلة حورابي، إذ هي أغلى من ماسة (كوهينور) وذهب تمثال (بوذا) **ولوحة (موناليزا) بالنسبة للعراقيين الذين يباهون الأمم بحضارة وادي الرافدين وبشريعة حورابي المنقوشة على المسلّة.**

[قررت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في شهر تشرين الثاني ١٩٨٣، والكتاب تحت الطبع، باكثرية ساحقة اعادة الآثار القومية والتحف الفنية والكنوز الثقافية، الى البلدان الأصلية التي اغتصبت منها. ولم يخالف ذلك القرار سوى **بضع دول** بينها بريطانية وفرنسة والولايات المتحدة، ولا غرابة من ذلك فأن في متاحفهم حصة الأسد من تلك الآثار والكنوز. وكانت حجة المعارضين لذلك القرار أنه سيسبب ارتباكاً خطيراً في المتاحف العالمية. ولا شك بأن العراق سيكون من أول الدول التي تنتظر تنفيذ ذلك القرار بفارغ الصبر، فأن له في المتاحف العالمية أكثر من غيره من دول العالم الثالث من الآثار القومية والكنوز الثقافية والفنية التي يتوجب اعادتها اليه، وعلى رأسها مسلّة حورابي.]

(*) MAZE هي شبكة من الممرات المتداخلة والمتعرجة والمتشابكة تتكون من الشجيرات المنسقة، وتشاهد في حدائق (هامپتون كورت) في لندن، والداخل اليها لا بد أن يتيه وقتاً طويلاً قبل أن يجد مخرجاً له.

والأربعينات قد وصلت بغداد بعد. أما النجاريّة (الشبابيك والأبواب فكانت تصنع محلياً أو في موقع العمل، ولم تكن الشبابيك الحديدية من نوع (كريتال) أو (الشبابيك الفرنسية) قد وصلت بغداد بعد.

إن بناية مطبعة الحكومة قد شيدت بعد مجمع المتحف ودائرة الآثار فكانت المطبعة في سراديب بناية الدائرة، ثم شيد الجناح المجاور لدارنا ومسكن المدير البريطاني كما تقدم ذكره.

وقبل أن أختم الاستعراض لهذا المجمع أود أن أطري الطاگ الذي يربط بناية المتحف ببناية الدائرة والذي يعلو الطريق الذي يربط شارع الجسر بدربونة الدنگچية. انه فريد بارتفاعه وريازته وزخرفته، وأعتقد أنه الطاگ الوحيد الذي بقي قائماً في بغداد حتى اليوم.

* * *

هذا فيما يخص المعالم الثابتة في شارع الدنگچية، اما المعالم المتحركة كالباعة المتجولين واصحاب الخدمات ومن شاكلهم فحدث ولا حرج. فان الشارع يصبح معرضاً قبل ان يكون شارعاً للسير والمرور:

- واحد شايل جِدِر الشلغم على رأسه ويصيح: حلاوة يا شلغم، درمان الصدر يا شلغم.
- واحد شايل انجانه زرگه ويصيح: حار الشوندر استوّه جا من طمة حمّام كجّو.
- واحد شايل طبگيه ويصيح: حار الصمون.
- وآخر شايل انجانه صفر، تتصاعد منها البوخه ويصيح: حار يا سَحْلَبْ.
- واحد يصيح: مالح وطيّب لبلبي.
- وآخر يغني ويرگص ويهز ردفيه على نغمة: مالح الباسورك، مالح الباسورك.
- واحد يصيح: اَكْلَكْ منافِعْ يا كُبَرْ.
- وآخر يصيح: كعْوب، يا كعوب، استوّه جا من كويسنجق.
- واحد يصيح: شامية اذرة الشام.
- واحد يصيح مدگوگه يا مدگوگه. أشرسي مندلي وسمسم الموصل.
- وآخر شايل انجانه زرگه ويصيح: عنبة هِنِدْ يا عنبه، صمون وعنبه.
- واحد يصيح: حار البورك ـ يا غلي بورك.
- وآخر يصيح حار الچرَكْ والشكرلمه والپيته، معمول «السيد» يا چرك.
- واحد يصيح: طيب حاجي بادمْ.
- والآخر ينافسه ويصيح: طيّب خبز اسبانيا.
- واحد شايل سلّة كبيرة على رأسه ويصيح: خس يا خس، ابو الطوبه يا خس.
- واحد ناصب (چمبر) ويصيح: أبيض وبيض(*)

وحوالي الساعة الحادية عشرة تسمع صوت زَمّاوي أم الكبّة يلعلع: وين أهل الغَدا.

نصبت زمّاوي الچمبر وفوقه انجانة من الصفر مغطاة بقطعة من القماش المفروض أنها بيضاء

ولكنها فقدت لونها الأصلي من كثرة (الزفر) المتراكم عليها. وهي امرأة قصيرة القامة وملتوتة متحزمة بعباءتها ومتفوطة بفوطة بيضاء، وما إن يسمع الناس صوتها حتى يتجمعوا حولها، فتخرج الكباية المدعبلة وتفقأها باصابعها ثم (ترش) عليها الفلفل من أسطوانة من التنك فقدت لونها الأصلي من أثر الزنجار، فتسلمها للآكلين وتستلم الثمن وتضعه في كيس ابيض طويل ثم تدسه في عبها. أما إذا خذلت زماوي الآكلين وخيبت آمالهم فما عليهم إلّا التوجه الى كبة القبلانية في سوگ القبـلانية.

وبعض الخبثاء من صبيان الدنگچية يلتفّون حول زمّاوي ويرددون بنغمة الهوسة:

حجي حمادي وحسين ابو الكبّة جــتي زمــاوي دا تــگــلگــل بــ...

فتشتمهم زمّاوي وتهددهم برش الفلفل في عيونهم.

هؤلاء الباعة المتجولون يجيئون في موسم الشتاء، أما في موسم الصيف فالعرض أكثر والصياح والعياط أعلى:

- واحد يصيح: خستاوي يا نَبُك
- واحد يصيح: لاوي الوزيري يا تين، استوه جا من الصرافية، وزيري يا تين.
- وآخر يصيح: تكي الشام يا شربت.
- وآخر يصيح: بَرْبَنْ وخستاوي يا تمر، استوه جا من الفحامة يا تمر.
- واحد يصيح: قَيسي يا مشمش، حَموي يا مشمش.
- وآخر يصيح: خيار الشواطي يا خيار، وين اهل الطرشي، يا خيار، شماطه يا خيار، اقلام الملا يا خيار..

وآخر يصيح: رمان شهربان يا رمان، خوشي يا رمان (انقرض رمان مندلي المشهور بعد قطع ايران المياه عن بساتين مندلي).

- واحد يصيح: قايماقلي بوز، قايماقلي دوندرمة، وترى الاطفال ملتفين حوله.

ولا تهدأ هذه الاصوات ويتوقف الضجيج الا عندما تسمع صوت واحد يصيح عندما ينزل الزعرور (كسّاح الخيرات)(*) الى الاسواق.

- زعرور الجبل يا زعرور.

وحينئذ تهدأ الأصوات ويستريح الناس، ولكن الى حين إذ يقبل اصحاب الخدمات والباعة الآخرون، فيسيطرون على شارع الجسر:

- واحد يحمل الفأس على كتفه ويصيح: كسار خشب.
- وآخر يحمل الحبل على كتفه ويصيح: طماس بير.
- واحد يحمل المرّ والجريدة على كتفه ويصيح: نزّاح.. نزّاح.

(*) أطلق البغداديون صفة (كساح الخيرات) على الزعرور لأنه ينزل الى الاسواق في فصل الخريف، عندما ينتهي موسم معظم الاثمار الصيفية اللذيذة، فيملأ دكاكين البقالين بلونه الاحمر الزاهي وطعمه الفاهي الذي (يشلّل الحَلِك)

- ويهودي يحمل الكيس على كتفه ويصيح : أبو بيع . . . أسكي .
- واحد يحمل الگربة على ظهره ويصيح : سقا . ماي . . سقا . ماي .
- واحد من ازبكستان يحمل الدولاب على ظهره ويصيح : چراخ سچاچين .
- وآخر اغواني (افغاني) يصيح : فُرّارات . . فرارات .
- وآخر يصيح : خياط فرفوري .
- وآخر يحمل جرّة كبيرة محاطة بالقماش المبلل ويصيح : سوس . . سوس .
- ثم يأتي جرجيس الزعرتي ويصيح : زعرتي . . زعرتي . . وين أهل الطهور.

وفي ايام المطر يختفي كل هؤلاء ويحل محلهم الحمالون الذين يحملون الافندي الى دائرته والچلبي الى خانه والطالب الى مُلّاته ، اما الذين لا يستطيعون تحمل اجور الحمالين فيقبعون في بيوتهم ايام المطر حتى يفرج الله عليهم . وبعد كل هذه المشاهد وهذه الجموع من البشر وهذا الصخب والضجيج ، ألا يحق لذلك الصبي البغدادي ان يصف الدنگچيّة بأنها (القطب الذي يدور حوله الكون)؟

* * *

اما وقد تجولنا في أهم ما يستحق المشاهدة في محلة الدنگچية فيسرّني ان اوجه الدعوة الى القارئ الكريم لزيارة البيت الذي ولدت ونشأت وترعرعت فيه والذي سلخت فيه ربع قرن من عمري .

انها الدار المرقمة ١٣/٢٥ جديد حسن باشا الواقعة في دربونة ضيقة (مَتِطْلَعْ) متفرعة من دربونة الدنگچية التي تصل شارع الجسر بشارع الاكمكخانة (شارع المتنبي حالياً) والتي لم يبق لتلك الدار من اثر سوى (بياض) حائط غرفة نومي الملاصقة لجدار مطبعة الحكومة (المتحف البغدادي حالياً)، بعد استملاك الدار من قبل امانة العاصمة لمشروع توسيع شارع المأمون في الخمسينات، وعند تعديل المشروع شيد في مكانها سوگ جديد للصاغة .

ان الدار التي سكناها هي نموذج من البيت البغدادي المتعارف عليه في اوائل هذا القرن، وتختلف اوصاف البيوت البغدادية باختلاف سعتها وكثرة محتوياتها وعدد افراد العائلة التي تسكنها ويسر حال أصحابها، غير ان مواصفاتها العامة على العموم واحدة ومتشابهة .

ندخل الدار من بابها الرئيسي ، وهو باب ذو فردة واحدة عرضها حوالي المتر ونصف المتر وارتفاعها حوالي المترين، مصنوعة من خشب الجاوي ومصبوغة باللون الاسود، ومطعّمة من جوانبها الاربعة بشريط من المسامير البغدادية المحدبة (قُبة دارْ) وتحت كل بسمار قاعدة على شكل نجمة مثمنة او عين الشمس، وفي اعلى الباب مطرقة حديدية (البعض يسميها دگاگة ونحن نسميها صفاگة، ولذلك تسمى الباب ذات الفردتين باب ام صفاگتين) . وفي الباب ثقبان واحد للمفتاح والآخر ينفذ منه حبل لسحب (السقاطة) الخشبية التي تغلق الباب من الداخل .

اما في الجهة الداخلية من الباب، فنشاهد القفل والمفتاح، وهما من صنع حدادي باب الآغا، حجم القفل حوالي القدم المربع وطول المفتاح يقرب من القدم الواحد . ثم هناك السقاطة الحديدية،

وهي ذراع من راسطة حديدية طولها حوالي المتر مثبتة من احد طرفيها بالحائط والطرف الآخر ينتهي برأس معكوف على شكل (چنگال) يثبت في حلقة حديدية مثبتة على الباب، وتستعمل هذه السقاطة اضافة الى القفل والسقاطة الخشبية، وذلك زيادة في الحماية والامان.

ندخل من الباب الرئيسي الى المجاز، وهو ممر طويل بعرض ثلاثة امتار تقريباً، يفتح عليه باب الديوه‌خانه من جهة وباب الحرم من الجهة الاخرى وعلى جانبيه دچتين للجلوس، ارضه مطبگه بالطابوق (الماطْلي) وسقفه معقود وتتدلى منه (المهفّة) السقفية التي نستعملها في الصيف للتهوية والتبريد، وذلك بسحبها بالحبل والبكرة، فاذا نام الاولاد ظهراً قامت الأم او احد الخدم بسحب الحبل، واذا نام الأب قام أحد الاولاد أو الخدم بسحب الحبل لينام أبو البيت نومة القيلولة، هذا اذا لم يرغب في النوم بالسرداب لرطوبته. وكنا نستعمل المجاز للعب واجتماع اقراننا من الأطفال والصبيان.

نبدأ بالديوه‌خانه، فهي دار صغيرة لها حوش وايوان وسرداب والمرافق الصحية في الطابق الاول. اما الطابق الثاني ففيه غرفة كبيرة للضيوف وامامها طارمة واسعة، وللديوه‌خانه سطح يستعمل لمنام الضيوف في الصيف.

ثم ندخل الحرم من المجاز ومن باب أخرى لها قفل ومفتاح ايضاً. يتوسط الحرم حوش (فناء) تبلغ مساحته حوالي ستين متراً مربعاً، وتحيط بالحوش كافة مرافق البيت، وتتوسطه حديقة صغيرة كانت تضم شجرة رمان واخرى شجرة رارنج تحيطها بعض الزهور المعروفة في ذلك الوقت كالسداب والليوفر والختمه والدفله والرازقي والموز والياس والكلخندان المتسلّق وما شاكلها من نباتات الزينة التي كانت معروفة في بغداد يومئذٍ.

حول الحوش نشاهد المرافق الرئيسية للطابق الاول، فالى اليمين يشاهد الطلال ـ الطرار ـ وبعض الناس يسمونه الليوان، وهو مفتوح كلياً من الجهة المواجهة للحوش وفي وسطه (دَلَكْ) لتخفيف الثقل عن الجسر الذي يحمل السقف، ونستعمل الطلال كغرفة طعام، وفي الشتاء نغطيه ببردة كبيرة (چادر) تنزل وتصعد بواسطة الحبال والبكرات.

والى جنب الطلال يوجد البير، ولي عودة اليه بعد قليل. ويقابل الطلال من الجهة الشرقية (الأبْدَسخانَه) ويسميها البعض (بيت المي) ويسميها البعض الآخر (المرحاض) وفي الجهة الجنوبية من الحوش توجد باب تؤدّي الى السرداب الذي ينخفض عن مستوى الحوش بعدة أمتار سقفه ذو عرقچينين وهو معقود بالطابوق وأرضه مطبگه بالطابو ك الفرشي، والى جنبها باب آخر يؤدي الى سرداب آخر ينخفض عن مستوى الحوش بثلاث پايات ونسميه (نيم سِرْدابْ) وبين البابين غرفة صغيرة احدى واجهاتها مفتوحة كلياً على الحوش والواجهة المقابلة لها عبارة عن شباك كبير يشرف على السرداب العميق ونسميها (تخته بوش) وسميت كذلك لأن ارضيتها مصنوعة من الخشب، وفي الجهة الشرقية من الحوش توجد غرفة لها شبابيك متعددة تصعد وتنزل وليس كالشبابيك الاعتيادية تفتح الى جوانبها، ونستعملها في فصل الشتاء عندما تكون معرضة للشمس معظم النهار، ونسميها (أُرْسي).

الى جانب الارسي تقع غرفة صغيرة نسميها حجرة المِچيل، ونسميها ايضاً (الكِلَرْ) (الكرر) الكلمة ربما مأخوذة من الكلمة الانكليزية: (CELLAR) أي (القبو الذي تُخزَنُ فيه قناني المشروبات وبعض المؤن) ولها باب من الشياش الحديدية للتهوية، ويعجبني أن أدعو ضيفي لزيارة هذه الحجرة ليطلع بنفسه على مدى ما تقاسيه ربة البيت البغدادية في الاعداد لفصل الشتاء وليقارنه مع ما تقوم به ربة البيت هذه الايام، فتكلب الدنيا على رأس زوجها اذا فُقِدَت احدى هذه المواد من الاسواق:

- گونية تمّن عنبر شتال وريحته تعطّ.
- گونيّة طحين.
- گونية بُرْغُل الموصل.
- گونيّة مِلِح.
- خنب خل، شغل ام البيت.
- خنب دهن الدليم. وإلى جنبه (عگه) دهن الدليم ايضاً.
- بستوگة طرشي شلغم، شغل ام البيت.
- بستوكة طرشي محشّه، شغل ام البيت.
- بستوكة معجون طماطة، شغل ام البيت التي تعاني كثيراً باعداده ونشر الصواني على السطح.
- بستوكه مرّبة تفاح، شغل ام البيت.
- بستوكة مربة الكباد (طرنج) شغل ام البيت.
- بستوكة جبن كرد مجبوس بالملح، اعداد ام البيت.
- بستوكة دبس، شغل ام البيت*
- سلّة برتقال بعگوبه او من مراطلة بساتين مندلي.
- گوشر بصل يابس، وگوشر ثوم يابس.
- خصافة تمر أزرك الازرك من مندلي.
- معلّق على الحائط گلادات باميه يابسة وباذنجان يابس، تحضير ام البيت، مدّخرة لموسم الشتاء.
- معلّقة على الحبل باسطرمه، شغل ام البيت.

ارأيت ايها الضيف العزيز كيف ان المرأة البغدادية (نادْره) وحريصة على تموين بيتها على مدار السنة؟

الى جانب الكلر، يقع المطبخ وفيه معدات الطبخ ولوازمه كالموگد والحطب والفحم وما شاكل ذلك. ولا يوجد في بيتنا تنور لاننا كنا نعجن العجين في البيت وبعد ان يختمر تخبزه ام البيت في تنور الجيران.

الى جانب المطبخ وفي الجهة المقابلة لباب الحرم، يقع بيت الحباب، وقد اختير له هذا المكان ليكون في مجرى تيار الهواء الآتي من الدربونة والمجاز. وعندما ينقل السقا الماي بالگربه، يفرغها

(*) كنا نحضر الدبس في البيت من التمر الذي يردنا من الصرافية، وكنت اشارك باعداده بالجلوس فوق (الخصافات) التي تحوي التمر المغلي، بدلاً من (الشگاله)، لاني كنت أثقل الاولاد [illegible] ايام الطفولة والصبا (**الخصافة تسمى الخلايَة**) وهي خصافة مدورة وفي اعلاها **فتحة دائرية وهي مصنوعة من الخوص**).

بالحب الكبير المستقر على (سكملي الحب) المصنوع من خشب التوث، ومن لم يشاهد (سكَمْلي الحِب) فليتفضل بزيارتي فلديّ واحد منه الآن. وهناك إسْكملي آخر اصغر منه مصنوع من الحديد توضع عليه (الحبّانه) وهي حِب صغير، وتحت الحِب والحبّانة توجد (البّواگه) لجمع الماء الصافي (مي الناگوط) الذي يترشّح من الحب والحبانه والذي يستعمل للشرب او لأعداد الچاي. وهناك التُنگ والبتي (ويشبه التنگه مصنوع في هيت من القش والجير). اما ادوات الشرب فقسم منها يعلق على الحب مثل الدولگه والجيريّة، والبعض يسميها المنشل، وقسم آخر يوضع فوق التنك إن لم تكن التنگه مغطاة بغطاء يشبه العرقچين يصنع من خوص النخل، كالجدح والكرّوزه والشَربْه.

ولي كلمة حول التُنگه: ما زلت استعمل التنگه الخضراوية ام العراوي او الصلاحية (بدون عراوي) في الصيف، واصرف وقتاً طويلاً في البحث عنها في شارع الكفاح، فان (المي البيّوتي) في الصباح الباكر لا يضاهيه الماء المبرد في الاجهزة الكهربائية، والحقيقة اني انتظر حلول موسم الصيف بفارغ الصبر لأنام على السطح واشرب المي البيوتي من التنگه الخضراوية صباحاً.

وقبل ان نطلع الى الطابق الثاني اود ان ارافق ضيفي الكريم وننزل الى السرداب العميق. لهذا السرداب حوالي عشر پايات، وله باب واحد، والشباك الذي يشرف عليه من التخته بوش، لتسهيل حركة تيار الهواء، هذا التيار يأتي الى السرداب من مجرى مبني في الحايط وينفذ الى السطح ويسمى (بادگير) فتحته موجهة نحو الجهة الغربية لاستقبال الهواء الغربي، ويعلوه تاج نسميه (سربوش) وفوق هذا التاج تمثال حمامة بيضاء او نجمة وگمر. ان الهواء الجاف النازل في هذا المجرى ينزل الى فتحة في السرداب تشبه الرازونة ويترطب من رطوبة السرداب العميق، وله مجرى آخر تحت ارض السرداب يصل الى (الزنبور) وهو حفرة عميقة مغطاة بشبكة خشبية تتسع للتنگات والحبّانة والكروزات. ان هذا هو اقصى ما تفتق عنه ذهن المعمار البغدادي لتبريد الماء. ان من لم يشاهد البادگير، فاني أدلّه على البادگير الموجود في بغداد في الوقت الحاضر، انه يقع في بناية تقع على ساحة جسر الصرافية واجهتها من الاقواس الاندلسية (أقواس قصر الحمراء) فاذا اراد القارئ او المهندس المعماري ان يشاهد هذا البادگير وهو في نطاق العمل، فعليه الأستئذان من المستأجر لزيارة تلك البناية على ان تكون زيارته في شهري تموز او آب ليلاحظ الفرق بين هواء البادگير وهواء الكولر والكونديشن، وليدرك أيهما اقرب للطبيعة، المعمار البغدادي القديم، او المهندس المعماري الحديث(*).

نطلع الى الطابق الثاني، ففيه غرف النوم والغرفة الكبيرة التي نسميها «الديوانية» والتي تستعملها العائلة في ليالي الشتاء. اما تدفئة هذه الغرفة الكبيرة وروادها في الليالي الباردة فيكون بطريقة فريدة يقال انها متبعة في البلاد الباردة مثل ايران وافغانستان. يوضع فوق المنقلة ذات النار الخافتة كرسي عالي مثمن الشكل ويغطى باللحاف او البطانية فيجتمع افراد العائلة حول المنقلة ويغطون سيقانهم وأرجلهم باللحاف او البطانية المدفاة بحرارة المنقلة، وان قصة (بيبي بردان) الاسطورية تدور حول احدى هذه الليالي الباردة!!.

(*) صمّم هذا البادگير المعمار البغدادي المرحوم الحاج ابراهيم العبطة كبير المعماريين البغداديين في العشرينات والثلاثينات، وهو الذي صمم البنايات التي تعود الى آل الظاهر في الشواكه والتي أصر المهندس رفعت الجادرجي على الابقاء عليها ضمن مشروع شارع حيفا.

وفي الطابق الثاني توجد غرفة شمس شتوية نسميها (قَخْمَهْ) شبابيكها زجاجية مطعمة بالزجاج الملون وتفتح كما تفتح شبابيك الارسي في الطابق الاول، من اسفل الى اعلى، وفوق القخمة يوجد الكفشكان، الذي نصل اليه من الدرج المؤدي الى السطح ويستعمل لخزن اللوازم الزائدة عن الحاجة كالفراش وما شاكل، وفي الشتاء تنام فيه الخادمة (طخّه).

اما الغرف المطلة على الطريق والتي نسميها (شناشيل) فهي من خصائص البيت البغدادي واحدى ميزات النجار البغدادي، وفي البيت عدة (شناشيلات). تطل على الدربونة.

ثم نطلع الى السطح المحاط بالتيغة او ستارة الچينكو من اطرافه الاربعة لمنع الشرفية عن الجيران، وفي السطح يوجد (بيت الفراش) لحفظ فراش الصيف، والسلة الكبيرة التي يحفظ تحتها الطعام بعد الفراغ من العشاء الذي نتناوله في الصيف على السطح عادة.

ان البغادة لن يستبدلوا النوم على السطح بالنوم في الغرف المبردة بالكولر او الكنديشن، واني لأشفق على ذلك البغدادي الذي سيحرم من (نومة السطح) في ليالي الصيف عندما يسكن شقق العمارات الحديثة. !!

قبل ان نغادر البيت اود ان ابحث عن البير. ان البير و البادگير هما أهم ميزات البيت البغدادي، وقد تكلمت عن البادكير آنفاً.

يوجد البير في معظم البيوت البغدادية، وغالباً ما يكون ماؤه مجّاً، اما بئرنا فكان من الآبار العميقة التي يتسرب اليها الماء من النهر لقربها منه. ومن ميزات ذلك البير ان ماءه بارد في الصيف ودافئ في الشتاء. ففي الصيف نستعمل الماء للرش والغسل (عدا غسل الهدوم) وتبريد الفواكه بانزالها الى قعر البير بالسطل. اما في الشتاء فنستعمله للوضوء.

ولي ثأر مع هذا البئر، فقد فلت ذات يوم «السربس» وانقطع الحبل وهوى السطل بسرعة فائقة الى القعر، ولما حاولت ايقافه لطمني وكسر ذراعي، واذا ما سقط السطل في البير فلا يمكن انتشاله الاّ بطريقتين: اما باستدعاء طمّاس البير الذي ينزل الى قعر البير بواسطة حفر محفورة في جدار البير وينتشل السطل، واما بالاستعانة «بشيخ الچناگيل» هذا (الشيخ) ليس متيسراً لدى معظم البيوت البغدادية، ومن كان يريد ان يستعيره منا فعليه ان يضع تأمينات مثل: جـدر، لگن، مشربة، إنجانة... الخ لتأمين اعادة (الشيخ) الى أهله.

اما وقد اطلع الزائر الكريم على الدار ومرافقها فيسرني ان اوجه له الدعوة لتناول الريوك معاً. تفضل يا ضيفي العزيز واختر ما تشتهي من قائمة الريوك المتيسّر لدينا، فلا يجوز ان يغادر الزائر بيت البغدادي دون ان يستضيفه، فمن شمائل البغدادي الكرم والسخاء والبذل في العطاء واكرام الضيف: تفضل واطلّعْ على القائمة:

١ - كاهي المستنصرية او المصبغة.
٢ - هريسة المولة خانه، وعليها الدهن الحُرّ والشَكَر والدارسين (القرفه).
٣ - باچة المولة خانه.
٤ - تشريب طماطة بالعكوس (الزنود).
٥ - تشريباية (مثرودة) المعمولة مع حب الرمان أو التمر هند والبطنج.
٦ - تشريب الباگله بالدهن الحر والبطنج وفوقه بيض مقلي.
٧ - عصيدة ام سنون، او عصيدة أم الدبس، معمولة من الدبس المخفف بالماء والطحين والثريد.
٨ - الخميعَة، الحليب الحار مع الشكر وفوقه الدهن الحرّ وگرصة خبز حار.
٩ - المريس، خبز حار مهروس بالدهن الحر او الزبد مع الشكر.
١٠ - باسطرمة وبيض.
١١ - بيض مقلي او بيض برشت (مسلوك او مشوي بتراب الفحم عالنُّص).
١٢ - گيمر مع مربى التفاح او مربى الكباد (الطرنج).
١٣ - حنيني - تمر مقلي بالدهن الحر وفوقه بيض مقلي.
١٤ - الشوربة بأنواعها: شوربة الماش، مكشوشة او مصفاية مع الگيمر، شوربة الچشـچ (الكشك)، شوربة العدس، شوربة الهرطمان. وأني اوصيك يا ضيفي العزيز بالشوربة الاخيرة فهي بنظري أَلَذُّ انواع الشوربة خاصة اذا ما وضع فوقها البصل المحمر بالدهن الحرّ (مع الاسف قلما يجد المرء هذه الشوربة في البيوت البغدادية هذه الايام فقد اختفى الهرطمان المجروش من الاسواق. اشتهيت ذات يوم من ايام الشتاء شوربة الهرطمان فخرجت ابحث عن الهرطمان في الاسواق فلم اعثر عليه، وآخر بگال سألته عنه، نهرني قائلاً: «عمي منو دياكل الهرطمان هل ايام؟الهرطمان دينطوه علف (عليج) للدواب ؟؟» ومنذ ذلك اليوم لم اسأل عنه، فحرمت من اطيب انواع الشوربة الشعبية. غير اني وجدته مؤخراً في علوة من علاوي سوگ الدهانة بالقرب من جامع الخلفاء، فحمدت الله على نعمته!
١٥ - تكة ومعلاك وفشافيش مشوية على الفحم.
١٦ - وآخر ما اعرضه عليك من الريوك يا ضيفي العزيز هو ثريد البامية البايتة، وهو مع الاسف غير متيسّر لدينا اليوم.

ويؤسفني باني لا اتمكن من تقديم الچاي للضيف الكريم، لأن الچاي غير معروف عندنا للريو ك آنذاك، اذ يقتصر تناوله في الگهاوي واوقات العصر في بعض البيوت المترفة. ادعو ضيفي الكريم لتناول الشاي في بيتي عصراً، لأقص عليه قصة طهوري بهذا البيت... اهلاً بالضيف الكريم: تفضل الى الطرار واجلس على ذلك (الكرويت) لنتناول الشاي معاً، ولأبدأ الحديث عن الشاي والطهور. لم يكن الشاي معروفاً عندنا، ولم تكن عادة شرب الشاي مألوفة في بغداد قبل الاحتلال البريطاني، ولو ان البغداديين كانوا قد سمعوا بالشاي عن طريق الزوار الايرانيين والتركستانيين الذين كانوا يقصدون العراق لزيارة العتبات المقدسة او الاجتياز الى الحج. غير ان معظم الايرانيين يشربون الشاي (ديشلمه) اي بدون سكر، فيضعون قطعة السكّر في الفم ثم يشربون

فوقه الشاي، ويقال ان بعض هواة شرب الشاي والمغرمين به لا يتناولون السكر اطلاقاً كالتركستانيين، بل انهم يكتفون بالنظر اليه. وهناك (الچرسيّة) العجم الذين لا يضعون السكر في افواههم ولا ينظرون اليه بعيونهم، بل يكتفون فقط بتخيّل السكر والتفكير فيه بأدمغتهم، والايرانيون يتفننون بالخيالات الچرسيّة الواسعة!!

تفضّل يا صديقي الكريم لأشرح لك عُدَّة شرب الچاي: فان ذلك الجهاز الأبيض الذي يتصاعد منه البخار هو السماور الذي يغلي به الماء، وقد جاء السماور الى العراق من روسيا عن طريق ايران ويسمونه في روسيا Samavar وفوق السماور (القوري) الذي يخدر فيه الشاي لتقديمه الى الضيوف بهذه (الاستكانات) التي يوضع فيها السكر و (ينخاط) بهذه الملعقة الصغيرة (الخاشوگه). فاذا اردت الشاي اكثر حلاوة فبامكانك اغتراف السكر من هذا (الشكردان)(*). لاحظ كيف ان الشاي في هذا الاستكان (عنقودي) ويتلألأ لأنه قد صفي من (البثل) بهذا (المصفي).(**)

تفضّل: أخُذْ قطعة خبز عروگ او كليچاية او بقصماية او كعكاية شغل السيّد. ولكن أرجوك لا تفشّلنا... أخذ استكان آخر من الچاي، فهو حقيقة لذيذ ومخدّر زين، وقد اعتنت أم البيت بتخديره اكراماً للضيف العزيز. فهل سمعت بالأغنية البغداديّة:

خدري الچاي خدري عيوني، إلمن أخدره؟
شجالج، يا بعد الروح دومج، مچدره
خدري الچاي خدري عيوني، إلمن أخدره؟
وشلون أصفّي الماي وشلون أفوره؟

فهل هناك من نخدّر له الشاي احسن تخدير، اعزّ منك ايها الضيف الكريم.

* * *

وعدتك يا صديقي العزيز بأني سأحدثك عن طهوري في هذا البيت، والحديث عن طهوري حديث ذو شجون، فقد اصبح (قصة عنتر) في محلة الدنگچية. لقد جرى طهوري في هذا البيت وبهذا الطلال بالذات في يوم من ايام الربيع، وكنت قد تجاوزت الثامنة من عمري وتأخر طهوري كثيراً، اذ إنّ اخي الكبير قد طهره المرحوم اوسطه ناصر وهو دون الاربعين يوماً من عمره. كان يومئذ احد

(*) السكر المعروف في بغداد يومئذ كان على عدة انواع:
السكر الناعم والسكر البلوري وسكر القند، وأفضله كلّة القند المرسيللي، وهناك السكر غير المبلور ويعرف (سكر نبات) والسكر غير المقصور ويسمى (الشكر الاحمر).

(**) ومن قصيدة للشيخ جلال الحنفي في الشاي البغدادي، يقول فيها:

إنْ بِتّ دَهْرِي بالشاي ذا وَلَعٍ فَكُلُّ مَنْ بالعراقِ يُولَعُ بِهْ
فَهْوَ شَرابٌ يَراهُ ذو ذَهَبٍ إنْ ضاعَ منه أَعَزُّ مِنْ ذَهَبِهْ
أروح طولَ النهارِ ارشفُ مِنْ عصيرِهِ رائقاً ومن حَلَبِهْ
فما أراني أَلْفَيْتُ ذا طَرَبٍ غالَبَني لا واللهِ في طَرَبِهْ

الزعرتية واسمه (جرجيس) يتردد على الدنگچية بين حين وآخر، وكان كلما يمرّ في دربونتنا ويشاهدني ألعب مع الاولاد يخاطبني قائلاً: امين، امين، امين والله لَقُصُّو، ويهدّدني باصبع السبابة. وبعد إلحاح الاقرباء والاصدقاء على أهلي بلزوم المبادرة الى طهوري بالنظر لفوات الوقت، قرروا تعيين موعد الطهور واتفقوا مع جرجيس على ان يكون الطهور يوم الجمعة التالي.

وفي ليلة الطهور اقمنا حفلة كبرى (چالْغي) تولى تنظيمها عبدالقادر المميز وكان يومئذ في شرخ شبابه ملماً بكل ما يتطلبه الچالغي من مأكولات ومشروبات ومزات وراقصات وچالغچية وغير ذلك. وكان سكان الدنگچية وكثير من سكنة بغداد يذكرون تلك الحفلة بعد سنين طويلة من اقامتها.

بدأت الحفلة بعد العشاء بالعزف والرقص واديرت (بطالة حليب السّباع) على الضيوف بدون حساب، فشربوا حتى الثمالة، وما ان تسرب الخبر الى الخارج وصوت الدنبك (يرگع) حتى اخذ الضيوف غير المعزومين (الذين يعرفون في البلاد الاجنبية «بمقتحمي الابواب») يتقاطرون على البيت من كل حدب وصوب.

- دورية الجندرمة، بأسلحتهم.
- الچرخچية، الاقشمچية والصبحّچية، وفي غير الاوقات المقررة لهم.
- السكارى الذين اكملوا سهرتهم في المايخانات والتياتروات والگهاوي.
- الشلاتية، على اختلاف طبقاتهم وتباعد محلاتهم من الدنگچية.

وما ان ضربت الخمرة في رؤوس الجميع، حتى بدأ العراك وضرب السچاچين واطلاق الرصاص ولم يبق من يحافظ على الامن لأن الدوريّة انفسهم (مْجَطّلين) في البيت وفي الدربونة.

أصبح الصباح والبيت (گايم گاعد) الأمر الذي اضطرنا الى تأجيل عملية الختان الى اليوم التالي.

وفي اليوم التالي حضر الزعرتي جرجيس لابساً شرواله التقليدي ومتحزماً بحزام من القماش من أعلى صدره حتى أسفل بطنه، وعلى رأسه جَزّيّة على شكل عمامة رفيعة ملفوفة حول كلاوْ من الجبن، حاملاً حقيبة صغيرة فيها أدوات الطهور وهي الموس والقرّاصة والميل والمواد اللازمة لضماد الجرح وهي الخام والقطن والشاش ومسحوق مائل للخضرة يشبه فتات الأسبست يسمونه (تراب حرير).(*) فجيءَ بي الى الطرار وأنا أرتجف وأرتعد، وجلس المرحوم خالي على مخدة كبيرة وأمسك بذراعي الأثنتين بكل قوة ورفعني الى أعلى بحيث لا أستطيع ان (أفرفص)، وبدأ جرجيس بعملية الختان. ولما انتهى منها، وأنا أبكي وأصرخ و(قيّمت القيامة) من شدة الألم، ضمد الزعرتي الجرح بقطعة من الخام وقليل من القطن والشاش بعد أن وضع عليه قليلاً من المسحوق المذكور أعلاه، ثم صار يتردد عليّ لتبديل الضماد عدة مرات في الأسبوع. ويظهر أن الجرح قد التهب، فكثر تردد الزعرتي لتبديل الضماد. وكان كلّما بدّله (تشيغ روحي) من شدة الألم، فصار يحتج بأن (لحمي نگس) ولذلك (صار يظهر لحم الحي) والحقيقة هي أنه هو (النگس) ولذلك لم يلتئم الجرح بسرعة.

(*) يتكون (تراب الحرير) من مزيج من مسحوق الشب والملح والقهوة (أو الشاي) وورق الشوك أو الشنان، هذه المواد فاعلية تخثر وتقليص الأنسجة.

مر أسبوع وأسبوعان وثلاثة أسابيع والجرح لم يلتئم، فانقطعت عن المدرسة وكنت إذا خرجت من البيت الى الدربونة أرفع دشداشتي من منتصفها بأصابع يدي اليمنى لئلا (يلّچم) الجرح، وأمشي وأنا (أفاخج). وبعد مضي اكثر من شهر التأم الجرح وداومت في المدرسة، ودفع الله ما كان اعظم.

هل رأيت يا ضيفي العزيز ما كنا نقاسيه بسبب الجهل المستحوذ على الناس يوم ذاك؟ ولك أن تقارن ذلك الوضع بوضع أطفال واولاد العهد الحاضر، وما يلاقونه من ضروب الرعاية والعناية الصحية من السلطات.

* * *

أما وقد زارني القارىء الكريم في بيتي في دربونة الدنگچية، فأود الآن أن أستصحبه لزيارة بعض كرام العوائل البغدادية التي تسكن الدور الواقعة الى الجنوب من عگد الصخر (شارع الجسر) وهي دربونة المولهخانة الضيقة جداً ودربونة الصفافير، التي لنا معرفة بها أو صداقة مع سكانها.
ففي دربونة المولهخانة يسكن الملاّك عبدالحسين الأزري الذي يمتلك معظم الدور والخانات المجاورة لخان الرماح الكبير الذي سبق أن ذكرنا أن النيران قد اشتعلت فيه ليلة سقوط بغداد. كما يسكن فيها الحاج سلمان العطار (أبو سلّومي) الذي ضربناه مثلاً على النخوة والشهامة البغدادية.

وفي ملتقى شارع الجسر بالشارع الجديد في باب الآغا يقع بيت السيد حسين يحيىٰ جد العائلة المشهورة باسمه، وتربطنا بهذه العائلة الكريمة روابط عائلية وثيقة وخاصة مع أبنائها علي وحسين وجعفر ومحمد وأخواتهم وأخوهم الكبير السيد حسين يحيىٰ الذي كان في وقت من الأوقات مديراً للمدرسة الجعفرية، وصهرهم المحامي السيد صالح السيد حسين يحيىٰ المعروف في الأوساط البغدادية بأناقته وبذخه وكرمه.

وفي عمق عگد الصفافير تسكن عائلة آل السوز، وهي من العوائل الموسرة التي تتعاطىٰ التجارة وتمتاز بالسمعة الحسنة، وقد أشغل بعض أفرادها من الجيل المتأخر وظائف حكومية مثل أحمد السوز وفخري السوز وجهاد السوز.

كما تسكن في عگد الصفافير عائلة حسن الريزه‌لي، وينسب اسمها الى بلدة (ريزه) التي تقع في أواسط الأناضول وكثيراً ما يحصل الإلتباس من أن الإسم منسوب الى صنعة حياكة قماش (الريزه) الذي تصنع منه ثياب الريزه الصيفية، وهي من العوائل الموسرة أيضاً وذات المنزلة المرموقة في المنطقة، وتربطها رابطة المصاهرة مع المرحوم توفيق وهبي المتزوج من المرحومة الست آسيا رئيسة الاتحاد النسائي سابقاً، ومع الأستاذ سامي خوندة المتزوج من شقيقتها، وهما أخوات الدكتور عبدالجبار الريزه‌لي، خال الدكتور سرمد خوندة زوج الدكتورة عفاف صالح صائب الجبوري.

إن ترددنا على العوائل التي تسكن الى الجنوب من شارع الجسر والبعيدة عن دربونة الدنگچية قليل جداً، ففي تلك الأيام تتردد العوائل البغدادية عن الابتعاد كثيراً عن بيوتها لأغراض الزيارة وخاصة في المساء، إلّا لأسباب اضطرارية، حيث أن الدرابين كانت مظلمة وغير أمينة.

نعود الآن للتعرف على العوائل التي تسكن دربونة الدنگچية ابتداءاً من نقطة التقائها بعگد الصخر (شارع الجسر القديم) وانتهاءاً بنقطة التقائها بشارع الأكمكخانة (المتنبي حالياً).

الى اليسار من مدخل الدربونة يقع بيت الوجيه الثري الحاج حسين خَيوْكَة (بفتح الخاء وتسكين الواو وفتح الكاف المخففة كما كان يلفظ في الدنگچية) وبيت خيوكة هو أكبر وأحدث بيوت المحلة وأكثرها نفوساً وأوسعها صلات بالعوائل البغدادية. إني لا أفطن على الحاج حسين وأخوانه الحاج حسن والحاج رزوقي إذ إنهم كانوا قد توفوا قبل مولدي، غير أني أفطن على أبنائه وأحفاده. فابنته الكبيرة الحاجة زهوري كانت متزوجة من الحاج عبدالله القاضي من أهالي حديثة، والثانية (العمة جميلة) كانت متزوجة من ابن عمها مجيد الحاج رزوقي. أما الابن الثالث عبدالله فكان قد تزوج من اثنتين: الأولى (صديقة) أنجبت ست بنات هن شفيقة زوجة المرحوم توفيق الخالدي (والد عوني الخالدي وجد الدكتور سداد فرج عمارة) وسنية زوجة المرحوم حسن رضا (والد المحامي صفاء حسن رضا) وصبيحة زوجة أحمد ضياء أخ حسن رضا، ونجية زوجة الضابط أحمد حقي جبارة (من سكنة محلة المهدية ومن الرعيل الأول من ضباط الجيش العراقي)، ونظيمة زوجة الضابط أحمد حسون، ونبيهة زوجة محمود بن الحاج رزوقي خيوكة.

أما الزوجة الثانية لعبدالله خيوكة فهي نعيمة التي أنجبت منه شاكر خيوكة ووفيقة (زوجة عوني بكر صدقي أستاذي في المدرسة الحيدرية). ولشاكر خيوكة أخوان من زوجة أبيه (صديقة) هما حامد خيوكة الموظف بوزارة الخارجية سابقاً، وأخوه الأكبر محمد الذي توفي في استانبول من مرض عضال.

أما محمود خيوكة فله ولدان هما العقيد عبدالجبار خيوكة والمرحوم عبدالمنعم وأربع بنات هن منيفة التي تزوجها جيرانها في الدنگچية مدير الشرطة حسين الملّي، وناهدة وحسيبة وخالدة. ولمحمود خيوكة ثلاثة اخوان هم مجيد وجبوري ومحمد علي (والد عبدالواحد ـ وحودي ـ وقارىء المقام حسن خيوكة) وكلهم أصحاب (مغازات) ودكاكين في المولهخانة وقرب سوق الهرج لبيع السجاد والسُرُر (الچرپايات) وما شاكلها من لوازم الأعراس.

كلمة عن حسن خيوكة الذي اشتهر في الثلاثينات والأربعينات بقراءة المقام العراقي. كان والد حسن، محمد علي خيوكة، «هاوٍ» في المقامات وقراءة المواليد، فأخذ عنه ولده (حسن) هذه الهواية وطورها وأبدع فيها. وكان يعمل سرّاجاً في سوق السرّاجين قرب سوق السراي، وقد عاجلته المنية وهو في عنفوان شبابه، فخسر المقام العراقي قارئاً كان له مستقبل باهر في المقام.

لقد حصلت حادثتان في بيت خيوكة اهتزت لها الدنگچية يومئذ. ذلك أن جبوري خيوكة قد تشاجر مع أخيه محمد علي وضربه على بطنه، وكانت ضربة قاضية فسقط ميتاً. أما الحادثة الثانية التي وقعت مساء يوم الجمعة الموافق ٢٢ شباط سنة ١٩٢٤ وقامت الدنگچية عن بكرة أبيها وقعدت لهولها، فكانت اغتيال المرحوم توفيق الخالدي زوج كبرى كريمات عبدالله خيوكه(*) فعقدت (الچاينة) في بيت خيوكه واشتركت فيها معظم نساء المحلة.

المعروف في الدنگچية يومئذ أن لعائلة الحاج حسين خيوكه صلة رحم بعيدة مع بيت الحاج قدوري (والد محمود أفندي وجدّ بهجة وقدو) فإن صحت تلك الصلة البعيدة يكون المثل البغدادي القائل (النسوان مثل عرگ الثيّل) قد صح !!

وبسبب المصاهرة الواسعة بين عائلة الحاج حسين خيوكه والعوائل البغدادية الأخرى فأن دربونة الدنگچية كانت تكتظ بالرجال والنساء والأطفال في ليالي الجمعة عندما تقام حفلات الذكر والمولود التي كان يحييها الملا عثمان الموصلي، الذي أتذكره جيداً. فهو ضرير يلبس طربوشاً طويلاً من (الچبن) يشبه طرابيش (المولويه) ويرتدي جبّة ويتوكأ على عصا،ويقوده صبي(**). أني لم أحضر تلك المواليد حيث أن الدخول الى حرم بيت خيوكه أثناء تلك المناسبات محظور على الأطفال مثلي. وبعد وفاة عبدالله خيوكه، والد شاكر وحامد، تفرق شمل العائلة الكبيرة فبقي محمود خيوكه يسكن الديوخانه حتى استملاكها لغرض توسيع شارع المأمون، أما الحَرم فكان قد فتح له باب جانبي على الدربونة المقابلة لدربونتنا وأجر لفترة من الوقت الى خدم العائلة المالكة الذين رافقوا الملك فيصل الأول من الحجاز واستعمل لبعض الوقت معملاً للسرّاجين، ثم استملك وهدم لغرض توسيع شارع المأمون أيضاً.



حسن محمد علي خيوكه - رحل في مقتبل العمر، ففقد المقام العراقي قارئاً كان له مستقبل زاهر في عالم المقام



عشير الصبا في الدنگچيّة، شاكر عبدالله خيوكه بلباس الكشافة، في ٢٦/١١/١٩٢٥

يقابل بيت خيوكه من الجهة اليمنىٰ لمدخل دربونة الدنگچية بيت محمود أفندي والد بهجة وقدّو، ويعرف بالمجلة ببيت الحاج قدوري (عبدالقادر). إن محمود أفندي رجل طويل القامة أسمر اللون ذو عينين سوداوين كبيرتين، يرتدي الصاية والعباية ويلبس الفينة وله خان كبير في شارع الجسر يزاول فيه أعماله التجارية، بعد أن استوطن والده عبدالقادر، بغداد منتقلاً من أربيل. وكان قد تزوج من السيدة زينب محمد أمين وهي تركية الأصل من مدينة كركوك وقد توفيت في مقتبل عمرها بعد أن أنجبت بهجة وعبدالقادر (قدّو) وكانت تربط عائلتينا روابط وثيقة جداً. وعندما توفيت أصرت جدتي (هاجر) على أن تضع في لحدها حبّة من عقد ثمين كان هدية العرس من جدي إبراهيم أفندي.
وبعد عدة سنوات من وفاتها توفي ولدها الصغير (قدّو) وكان أقرب عشراء الصبا إليّ، وكان معتل الصحة، ولما توفي بكيت عليه كثيراً وحزنت عليه طويلاً. أما بهجة فلم يكن من أقراني فقد كان يكبرني بسبع سنوات أو أكثر (والله أعلم) وعندما كان طالباً في الرشدية العسكرية والسلطاني ومدرسة الأليانس كنت تلميذاً في كتّاب الملاّ إبراهيم في جامع عادلة خاتون الصغير. ثم نحا بهجة مسلك اللغة والأدب والشعر، ودرس على العلامة المرحوم محمود شكري الآلوسي في جامع الحيدرخانة، ولبس العمامة بعد أن كان يلبس الطربوش كغيره من طلاب ذلك الزمان، ونشأ كأستاذه الآلوسي مقتفياً أثر السلف الصالح في العقيدة فاختار لقب (الأثري) الذي لم يكن معروفاً في الدنگچية يومئذ



ابن محلّتي في الدنكچية، بهجة محمود (محمد بهجة الأثري) بعد انتسابه الى مدرسة محمود شكري الآلوسي في جامع الحيدر خانة في أوائل العشرينيّات.



المرحوم عبدالقادر محمود (قدّو)، الأخ الصغير لبهجة الأثري، وأحب أقراني إليّ، ولما توفي وهو في مقتبل العمر بكيت عليه كثيراً وحزنت عليه طويلاً.

بعد وفاة والدة بهجة تزوج محمود أفندي من كريمة الشيخ عبدالرزاق حتانه مختار الحيدرخانة والد عبدالقادر خطيب جامع الإمام الأعظم، وأخ عبدالوهاب والد جميل وزكي وعطا عبدالوهاب.



عشير الصبا، سيد علي سيد حسين يحيى في ١٩٢٥/٣/٢٥

وبعد وفاة محمود أفندي انتقلت العائلة من الدنكچية الى دار يقع في الزقاق المتفرع من الأكمكخانه (المتنبي حالياً) ثم شيد بهجة داراً على عرصة من عرصات وقف عادلة خاتون في الصرافية على شارع الإمام الأعظم ومنها انتقل الى منزله الحالي في شريعة نجيب باشا. وبذلك انقطعت صلة عائلة من أقدم وأعرق عوائل الدنكچية بتلك المحلة(***).

(*) بعد عدة أشهر من وقوع تلك الحادثة أخذت الأنباء تتوارد الى بيت خيوكه بأن الاغتيال كان لسبب سياسي وأن المجرم يدعى (عبدالله سريه). ذلك أن المغدور كان من مؤسسي الحزب الحرّ العراقي الذي كان يدعو الى النظام الجمهوري في العراق وسبق أن أشغل منصب وزارة الداخلية في وزارات السيد عبدالرحمن النقيب. وكنت قد أثرت موضوع اغتيال توفيق الخالدي مع المستر فيلبي عندما زرته بداره في محلة (الهنداوية) بمكة المكرمة في ٢٤ كانون الأول سنة ١٩٥٤ وكان فيلبي قد أشغل منصب مستشار لوزارة الداخلية في وقت من الأوقات، فقال بأنه لا يتذكر تلك الحادثة التي ربما وقعت بعد مغادرته العراق الى شرق الأردن، وذكر لي في تلك المقابلة بأنه كان قد وضع كتاباً بعنوان (Mess POT) ولكنه لم ينشره لاحتوائه على مواضيع تثير الجدل والاعتراض (مثل موضوع الملكية والجمهورية في العراق) اللذين قد يؤديان عند نشر الكتاب الى ملابسات سياسية (ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ من كتابي (المملكة العربية السعودية كما عرفتها).

(**) بعد وفاة الملاّ عثمان، حلّ محله الحافظ مهدي في إحياء المواليد في بيت خيوكه.

(***) يؤلمني ويحز في قلبي أن أختصم مع إبن محلتي في الدنكچية وأستاذي في الثانوية وزميلي في التدريس بالمتوسطة الغربية، وجيراني بالصرافية، ورفيقي في بعض الأسفار الخارجية، الأستاذ محمد بهجة الأثري. وقد دار الخلاف بيني وبينه عندما أشغل منصب مدير الأوقاف العام على عهد عبدالكريم قاسم، حول جامع عادلة خاتون الصغير في الصرافية، وملخص الخلاف هو أنه عندما تقررت تصفية أوقاف عادلة خاتون، وسامح الله من سعى في تصفية الوقف الذري، فقد وافقنا على تشييد جامع في الصرافية ليحل محل جامع عادلة خاتون الصغير الواقع في الدنكچية (رأس سوق الصفافير، مقابل المتحف البغدادي حالياً) والذي تهدم وأدخل ضمن مشروع توسيع شارع المأمون، ولم يعد بالإمكان تعميره، وخصصنا قطعة من الأرض في أبرز موقع من الصرافية مساحتها ٢٨٥٠ متراً، ومبلغ ١٥٫٠٠٠ دينار لإعادة إنشاء الجامع المذكور وفقاً للتصاميم التي أعدها أكبر المهندسين المختصين بالعمارة الإسلامية

الى اليمين من مدخل دربونة الدنگچية تتفرع دربونتنا وفيها أربعة بيـوت وهي : بيت أحمد أفندي (والد أكرم أحمد) وبيتنا وبيت يسكنه أثنان من اليهود الأرگنيّة (الارگن هو الأعزب غير المتزوج أو الذي فقد زوجته) ، وبيت يقع في عمق الدربونة كانت تسكنه سيدة تركمانية الأصل تدعىٰ (غربت) وهي من أقارب نجيب أفندي الكركوكلي (والد أنور نجيب) وهذه الدربونة لا منفذ لها. وكان أحمد أفندي كاتباً في دائرة (السنية) وبعد وفاته تولت (أم أكرم) تربية أولادها أكرم وسلمان وأختهما، وكانت أم أكرم سيدة محترمة ومرموقة لدىٰ أهل المحلة. كان أكرم عشير صباي وإبن صفي في المدرسة الحيدرية والمأمونية والثانوية وكان مولعاً بمطالعة الكتب والجرائد ونظم الشعر فأصبح بعدئذ يعرف في الأوساط الأدبية بشاعر الشباب(*) وأشغل منصب (متصرف) في عدة ألويـة، وكان من

الحاج عبدالله الصغير وكذلك مبلغ ٥٨٫٣٣٤ ديناراً لإدامته تضاف الى تلك المبالغ حصة الجهة الخيرية البالغة عشرة بالمائة من حاصل تصفية أعيان وقف عادلة خاتون التي بلغت حتى ١\١\٤\١٩٨٤ مبلغ (١٦٠/ ٣٦٧ ٢٥٤) دينار والبقية ستأتي. وقد سلمتُ المبالغ المذكورة بيدي الى مديرية الأوقاف العامة للقيام بالعمل وتنفيذ شرط الواقف ولم يكن في التصاميم المصادق عليها من قبل محكمة التصفية موقع لتشييد دكاكين في واجهة الجامع. ولما باشرت مديرية الأوقاف بالعمل غيّرت التصاميم وأحدثت عشرة دكاكين بواجهة الجامع بحجة توفير المبالغ اللازمة لإدامته، وهي ذريعة جدّ واهية، إذ إن مجموع بدلات الإيجار هذه الدكاكين لا تزيد على الألف دينار سنوياً، وبذلك يكون وقف عادلة خاتون قد سددها **لأكثر من قرنين ونصف القرن مقدماً!**

لقد شوهت تلك الدكاكين منظر الجامع ودنست حرمته كما يلاحظ ذلك كل منصف ذي بصيرة يمرّ بالجامع في الوقت الحاضر، وهي مشغولة الآن من قبل بنچرچي وگهوەچي وكببچي وچايچي وجامچي وتكمچي ودوشمچي، وبائع (فلافل) وبگّال وگصّاب ورگّاع ومخزن (خرده فروش)، وان كل (قلاقيلهم) وأدختهم تنصب على الجامع وعلى المصلين مما لا يتناسب مع حرمة بيت الله.

وفوق كل ذلك فأن مدير الأوقاف العام قد أمر بكتابة اسم وتأريخ تشييد الجامع على المدخل الرئيسي للجامع بالصيغة التالية :

(مسجد السيدة عادلة بنت أحمد باشا، شيدته مديرية الأوقاف العامة سنة ١٣٨٢ هجرية).

ولما حصل الاعتراض على نزع لقب (خاتون) من «السيدة عادلة» نُقل لي عن لسانه أنه قال : (الزعيم يكره الألقاب). وعلى هذا الأساس جُردت تلك السيدة الصالحة التقية المحبّة للخيرات والمبرّات والصدقات من حقها **الانساني والاجتماعي بعد وفاتها بأكثر من مائتي عام.**

إن تلك السيدة هي التي كتب عنها أستاذ الأثري المرحوم محمود شكري الألوسي في كتابه (تأريخ مساجد بغداد) ما يلي : «أنشأ هذا الجامع صاحبة الخيرات والمبرات عادلة خاتون بنت أحمد باشا. وكانت من أهل التقوىٰ والصلاح ومحبة لأهل العلم والزهد، كثيرة الصدقات. ولوالدها مآثر مبرورة ومساع مشكورة وهو الذي حافظ بغداد وقاوم نادر شاه ملك الفرس من استيلائه على العراق».

وهي التي كتب عنها زميل الأستاذ الأثري المرحوم الدكتور مصطفىٰ جواد في كتابه «دليل خارطة بغداد المفصّل» ص ٢٣٩ : ما يلي «كانت تقية صالحة محبة لأهل العلم والزُهد كثيرة المبرات والصدقات ووالدها هو الذي حافظ على بغداد وقاوم نادر شاه ملك العجم فمنعه من الاستيلاء عليها».

لقد حتكمتُ في حينه الى رئيس الوزراء عبدالكريم قاسم حول هذا الخلاف الذي شاء مدير الأوقاف العام أن يهوى به الى المستوىٰ الشخصي مما أضطرني الى الرد عليه بالكلمة التي نشرتها في جريدة (الفجر الجديد) في ١٩٦٢/١/١٢ بعنوان «معذرة وتعقيب» ولا يطاوعني قلمي نبش الماضي باعادة نشر ذلك التعقيب وقد مرّ عليه أكثر من عشرين عاماً و(تغيرت الأرض ومن عليها).

وبعد زوال عبدالكريم قاسم وعهده أعدتُ «للسيدة عادلة» حقها المسلوب، وكتبتُ على الباب الجانبية للجامع بحروف أكبر من حروف السالب لحقها :

(جامع عادلة خاتون)

إن ظُلم الأموات أشد وقعاً في النفوس من ظُلم الأحياء، فاذا اقترف ظُلم على عهد عبدالكريم قاسم فهل يجوز أن يبقى قائماً على عهد صدام حسين يا ترى؟

[سيرد الكلام تفصيلاً عن جامعي عادلة خاتون الكبير والصغير في فصل قادم.]

الاداريين البارزين. والمعروف في المحلة أن العائلة تمتّ بصلة مع بيت المحامي أمين شناسي المعروف بالمحلة تحبباً (أمين بربش) لسبب ضعف بصره.

لقد سكن المرحوم نجيب أفندي الكركوكلي الدار الصغيرة التي كانت تسكنها السيدة (غربت) الواقعة في عمق الدربونة لفترة من الوقت عندما كان يعمل مديراً للشرطة خارج بغداد. وهو رجل محبوب قصير القامة له نظارات من النوع الذي تثبت على أعلىٰ الأنف وتربط (بقوردون) وقد توفي سنة ١٩٥٨ وعمره (٨٤) سنة. وكانت المرحومة أم أنور تتولىٰ الاشراف على تربية ولدها أنور وبناتها حسيبة (زوجة مكي صدقي الشربتي) ومديحة وناهدة وسهيلة. وكان أنور من الطلاب الذين شاركوا في مظاهرات النصولي سنة ١٩٢٧ وطرد من المدرسة الثانوية، فأرسلته والدته للدراسة في باريس. وبعدئذ تقلد منصباً هاماً في شركة النفط العراقية وبقي فيه عدة سنوات حتى تأميمها.

تقابل دربونتنا دربونة ضيقة (مَتِطْلَعْ) أيضاً وفي هذه الدربونة سبع دور: الأولىٰ من اليمين، خلف بيت الحاجي سعيد، تسكنها عائلة يهودية لها عدة أولاد معظمهم من (گصّتنا) ولا نفرق بينهم وبين أولاد المحلة من غير اليهود، ويشاركوننا في كافة الألعاب. والى جنب هذه الدار تقع دار مركّب الأسنان أوسطه ناصر التي يسكنها مع أولاده محمد (الدكتور محمد ناصر) وعلي وحسين (مركّب الأسنان حسين ناصر) وتليها خرابة بيت أحمد خريگه، وفي عمق الدربونة دار صغيرة يسكنها تاجر تتن كردي وابنه الكبير من (گصّتنا) أيضاً ولا يحضرني اسمه. والى جنب تلك الدار دار المجبر أوسطه محمد الصفار، أذكر من أولاده الثمانية عبود وهو قريني، (صاحب محل حلويات بجوار سوق الأمانة حالياً) وتليها دار بيت البارودي، ومنهم محمد علي عبدالكريم (موظف طابو سابقاً) (والد المهندس أسامة والدكتورة نوال والأستاذة فريال) وله أخ من أم نجفيّة اسمه حامد، وكانا على شجار مستمر كلما جاء حامد من النجف. وفي ذلك البيت توجد (إسته)(**) تعرف في الدنگچيّة بـ (الخوجه) وكانت ذات شخصية قوية في المحلة. ثم فتحت باب جانبية لحرم بيت خيوكه على هذه الدربونة الى جنب بيت البارودي وأجرت لفترة من الزمن كدار سكنىٰ ومعمل سراجة كما تقدم ذكره.

عرّف جلال الحنفي في الجزء الأول من «معجم اللغة العامية البغدادية» الأرگن: هو الأعزب من الرجال. . . ويقال له أيضاً زگرتي».

(*) كنت قد أهديت أحد مؤلفاتي الى عشير الصبا وشاعر الشباب أكرم احمد فارسل لي القصيدة التالية:

يا (أمين) الاخاء أهديت لي السفر فنعم المُهْدى الثمين وشكرا

ذكريات الماضي الجميل دعاها خاطر منك لا يغادر ذكرى

ثم نسقتها فجاءت كروض من رياض البيان يمتع فكرا

في ملتقىٰ هذه الدربونة بالدربونة الأم يقع بيت الحاجي سعيد، وهي عائلة موصلية كانت تعمل في التجارة واستوطنت الدنگچية. وكان لهذه العائلة عدة أولاد سيق معظمهم الى جبهة القفقاس واستشهد بعضهم هناك وجرح البعض الآخر، أذكر منهم نجوبي ولطوفي وكامل وأخواتهم زكية وحسيبة، وإبن عمتهم محبوب المحلة محمد خيري. إن كامل هو أصغر أخوانه ومن أقراني وقد اشترك في مظاهرات النصولي وطرد من المدرسة الثانوية لمدة شهر بسبب هجومه مع أخي عبدالستار على رجال الأطفائية وقد انتزعا خرطوم الماء ووجهاه نحوهم و(طشروهم) كما سيأتي بيانه. وقد عمل كامل موظفاً بدائرة كمرك بغداد سنين طويلة وأسس نادي الكمرك. وعلى الرغم من سكنىٰ هذه العائلة سنين طويلة في الدنگچية فأن والدتهم المرحومة (دولت) ظلت محافظة على لهجتها الموصلية العريقة.

ولا بد لي أن أذكر بأن المجاز الكبير لبيت الحاجي سعيد المطل على الدربونة الأم كان مركزاً لاجتماع أولاد المحلة. وفي فصل الصيف كانوا يعملون الدوندرمة (القايمقلي) أيام الجمعة. وعلى كل واحد أن يجلب أحد مقومات الدوندرمة: واحد يجلب الحليب، واحد يجلب الثلج، واحد يجلب (الثعلبية) واحد يجلب الشكر، واحد يجلب الملح، واحد يجلب جهاز عمل الدوندرمة.

مقابل بيت الحاجي سعيد يقع بيت صالح أفندي الملّي، ويعرف في المحلة (بيت الحاجي علّو) أو (بيت القاضي) وهذا البيت على نمط البيوت القديمة مكوّن من حرم وديوه‌خانه. تسكن الديوه‌خانه الحجية فطّومة أخت صالح أفندي، مع (الدادي) (حسينة) وكنت أقضي عندها وقتاً طويلاً ألعب مع بزونتها البيضاء، إذ كنت في صغري مولعاً بالبزازين. كانت عائلة صالح أفندي الملّي كثيرة العدد تتكون من المرحومة أم حفظي وأولادها الخمسة حفظي (عمر حفظي الملّي عضو محكمة التمييز والد الدكتور قيس الملّي) ومظفر (كان يومئذ ضابطاً في قوة الشبانه (الليفي) ثم درس الحقوق، وهو والد الدكتور نزار الملّي) وحسين (مدير شرطة سابق) وكمال (قابسز، أي بدون وظيفة) وفاضل (طبيب أسنان) وهو من أقراني، وقد توفي في حادثة سقوط طيارة في أمريكا، والبنات الأربع هن صفية زوجة حامد بك السامرائي متصرف لواء الموصل الذي اغتيل هناك في ثورة العشرين (والد الدكتور صفاء حامد وصلاح حامد الموظف بوزارة الخارجية). وبعد وفاة حامد بك تزوجها عبدالجبار طبرة، وبدرية زوجة فخري الطبقچلي، وفضيلة زوجة كمال السنوي، والرابعة أختي بالرضاعة سعدية الملّي. ولم يبق من هذه العائلة الكبيرة على قيد الحياة (سنة ١٩٨٢) سوىٰ مظفر وسعدية. هذه

نفحات الشباب فيها فهل أنسىٰ ... مجاج اليراع طيباً وعطرا

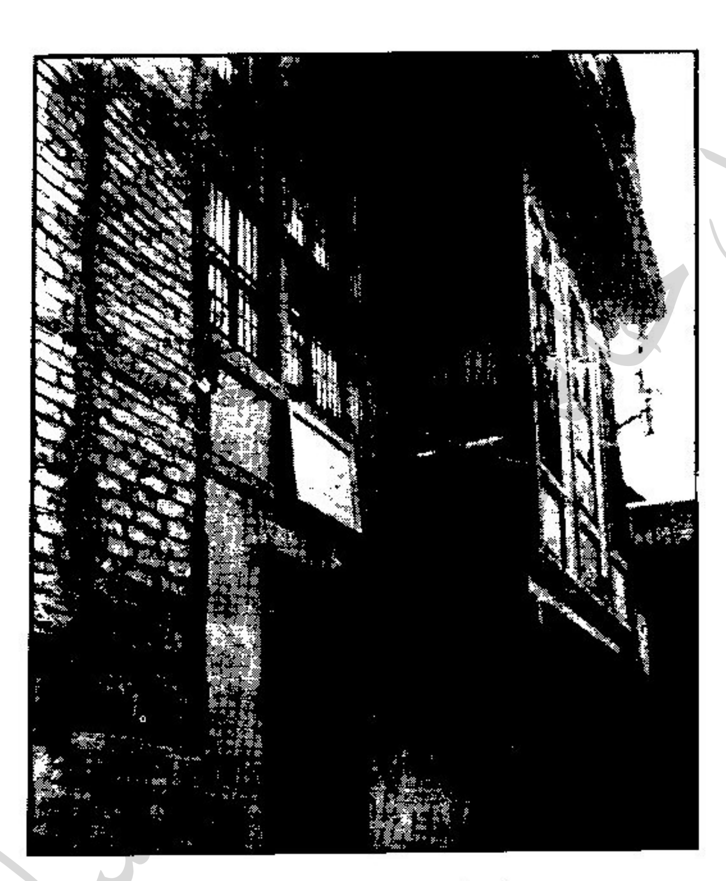
صور من حقائق سوف تبقىٰ ... مرجعاً للرواة عصراً فعصرا

يا عشير الصبا صنعت جميلاً ... فاقبل الشكر للصنيعة شكرا

(**) إصطلاح (إسته) المعروف بالدنگچية هو كُتّاب للبنات تديره معلمة تُعرف (إسته) تعلم الخياطة والقراءة والكتابة. ويقابل هذا الاصطلاح في المحلات الأخرىٰ (الملاّية) أو (الملّة).

العائلة الكبيرة كانت تخدمهم خادمة كردية أسمها (فاته) ونسمع آناء الليل وأطراف النهار الأصوات تنادي فاته . . . فاته . . . من كافة أرجاء البيت، ولا تدري فاته لأي نداء تستجيب. (*)

الى جوار بيت صالح أفندي تقع دار يسكنها أحد اليهود، لا يحضرني اسمه، فقد توفي الرجل وترك زوجته وابنتهم (راشيل) وهي فتاة رائعة الجمال لا يتجاوز عمرها العشرين ربيعاً، وأخته العانس، وكانت هذه العائلة مثالاً للعائلة المحافظة المتمسكة بالتقاليد الاجتماعية اليهودية والاسلامية على السواء. فكنّ لا يخرجن إلّا وهن محجبات ويلبسن الأزار والپيچّة التقليدية، أما (راشيل) فكانت



كل ما تبقى من دربونة الدنگچيّة القديمة هو (شناشيل) ديوەخانة بيت صالح أفندي الملّي وهو اليوم معمل لصنع علب المقوّى.

(*) بعد وفاة المرحوم صالح أفندي الملّي تفرقت العائلة، وأجر الحرم والديوەخانة في أواخر العشرينات الى طبيب يهودي نمساوي أسمه الدكتور (ماكس ماكوفسكي) الذي كسب شهرة واسعة في بغداد وفي خارجها، فكان المرضى يقصدونه بالمئات يومياً وصارت دربونة الدنگچية وكأنها سوگ الهرج او خان جغان، بحيث صار المرضى يدخلون على الطبيب بالبطاقات فالذي يستلم البطاقة الساعة العاشرة صباحاً لا يصله الدور إلّا بعد منتصف الليل أو في اليوم التالي، وكنت أقضي قسطاً من أوقاتي بين هؤلاء المرضى ولم ألاحظ مريضاً يهودياً واحداً بينهم. فتبين بعد إقامته ببغداد عدة سنوات بأنه كان مشعوذاً ودجالاً، وكان لزوجته الجميلة الشقراء دور كبير في الأوساط السياسية والإجتماعية في بغداد، ثم

تلبس العباءة السوداء والپوشيّة كأية فتاة مسلمة مخدّرة. وكانت تربطنا بهن صداقة عائلية متينة، نتبادل معهن الهدايا، فنرسل لهن ما يردنا من المراطلة من بستان الصرافية كالتين والتمر والتكي والجمّار والنبگ، وهن يبادلننا ذلك بالتبيت (أكلة يهودية تطبخ من الرز والدجاج والبيض المسلوق وتترك عبر الليل على نار خافتة) وغير ذلك من اختصاصات ونوادر اليهود. وهذه الدار هي الوحيدة في دربونة الدنگچية التي بقيت على حالها كما كانت عليه قبل أكثر من نصف قرن.

الى جوار سوگ الصياغ حالياً ومقابل خان محمد طيب آل حويز تسكن عائلة محمد چلبي آل الحاج خالد، وتعرف بالمحلة (بيت الخضيري) لصلة المصاهرة مع عائلة الخضيري. أما عائلة الحاج خالد فهي من عائلة الچلبي الموصلية. كان المرحوم محمد چلبي الحاج خالد رجلاً ورعاً ومستوراً، متفرغاً لعمله التجاري وقليل الاتصال برجال المحلة فيخرج صباحاً الى الخان ويعود مساءاً بعد أن يضيء (اللمپچي) فوانيس الدربونة. كان يرتدي الكشيدة والعباءة. وكان ولداه حافظ وعاطف أصغر مني سناً وكانا قليلي الاختلاط بأولاد المحلة على خلاف المرحومة والدتهما فكانت كثيرة المداخلة مع عوائل المحلة الذين يحبونها كثيراً، ولا غرو فهي (خضيرية).

درس حافظ الحقوق وعيّن حاكماً واشتهر بين الحكام باستقامته، ودرس عاطف الطب وتخرج طبيباً وعرف بين الأطباء بحرصه وقيامه بالواجبات الانسانية في خدمة حجاج بيت الله الحرام، فقد ترأس عدة مرات البعثة الطبية العراقية للحج.

لقد قابلت المرحوم حافظ بعد عدة سنين من عهد الطفولة يوم كان عضواً في الهيئة التحقيقية التي تولت التحقيق معي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. ولما دخلت الى مقر الهيئة بحراسة الانضباط العسكري ويداي مكبلتان بالكلبچه لاحظت على وجهه التأثر البالغ. وعندما أخذ رئيس الهيئة التحقيقية الضابط محمود عبدالرزاق يضايقني بالأسئلة المحرجة وأنا أحاول التهرب والمراوغة في الاجابة، تدخل حافظ، رحمة الله عليه، وبادرني قائلاً بالحرف الواحد:

«أمين بك، أنت لست متهماً، بل استدعتك الهيئة للإستئناس برأيك حول سياسة بعض السياسيين الذين نجري التحقيق معهم، فلا تردد عن إبداء رأيك الصريح بكل ما تعتقد. وعند ذاك تشجعت وانطلقت بالأجوبة الصريحة بكل حرية.[*]

بعد اجتياز جامع عثمان أفندي يجابهنا (الطاگ)[**] المقام على جبهتي بيت عبدالكريم الچلبي

أبعدا عن العراق للشبهات التي حامت حولهما. ومن الطرائف التي تحضرني عن المرضى الذين راجعوا هذا الطبيب، أن شخصاً من (الكويات) من لواء ديالى جاء الى العيادة ليعرض نفسه على الطبيب ليشفيه من التخلف الجنسي (عنين) وهو طويل القامة ضخم البنية أملط الوجه أحول العينين وكان يجالس النساء في القرية كواحدة منهن (مثل الخصيان في العصور القديمة). فحصه الطبيب وأوصى له بدرزنين ابر (حقن) وأقام في العيادة عدة أسابيع وفي الأخير أبلغه الطبيب وقد ضاج من إقامته الطويلة في العيادة بأنه لا يستطيع أن يفعل له أكثر مما فعل وعليه أن يعود الى أهله. شاهدته ذات يوم وهو متربع على الأرض ويضرب ركبتيه بيديه ويبكي وينوح قائلاً:

«أويلاخ يا يابه.. وين أولي.. ووين أروح.. لا النساوين يامنن بيه بعد.. ولا الزِلم يصدگون بيه. فعاد الى الكوي يخفي حنين!!»

(**) كنا نتحاشى المرور (جوه الطاگ) بعد المساء، فالنساء كن يخوفننا بأن: الطنطل مشمبخ فوگ الطاگ فإذا مرّ الشخص جوه الطاگ فأن الطنطل يچيّت عليه ويخنگه.

وبيت لبيب أفندي الآلوسي، وفوق هذا الطاگ غرفة ذات شبابيك تطل على الدربونة من جبهتي الغرفة، لا أعلم لأي من الدارين تعود. أن بيت عبدالكريم الچلبي والد عاصم الچلبي هو من أكبر بيوت الدنگچية، مكون من حرم كبير وديوه‌خانه. كان عبدالكريم الچلبي من الرعيل الأول من رجال التربية في العراق فقد تخرج في أعلى الكليات في اسطنبول. وفي بداية الحكم الوطني تولى عدة مناصب في وزارة المعارف. ثم خلفه ابنه عاصم الچلبي وتولى منصب مدير معارف بغداد ومدير الثانوية ومدير الأوقاف وتخرج على يده جيل بكامله. ولعاصم الچلبي صلة المصاهرة مع عائلة آل جميل، فقد تزوج عبدالقادر جميل من «حياة» ابنة عاصم الچلبي.

بعد انتقال بيت عاصم الچلبي من هذه الدار أُجرت الديوه‌خانه في أوائل الثلاثينات الى عائلة يهودية هي العائلة الخامسة التي تسكن الدنگچية.

يقابل بيت عاصم الچلبي بيت لبيب أفندي الآلوسي وكان رحمه الله يومئذ شيخاً طاعناً في السن ابنه الكبير نجيب أفندي كان مدرسنا في المدرسة الحيدرية وكان مدرساً وديعاً ومحبوباً من الطلاب وأخوه الأصغر عبدالحميد كان من أقراني وكنا نلتقي لماماً، ثم ابتعدنا عن بعضنا، لما سافرت الى بيروت للدراسة.

الى جوار بيت لبيب أفندي يقع بيت فائق أفندي الآلوسي (المحامي) والد عدوية زوجة أحمد حامد الصراف، والقريب من شارع الأكمكخانه (المتنبي حالياً).

مقابل بيت الآلوسي يقع بيت عبدالرزاق أفندي آل شاكر أفندي المكوّن من حرم كبير وديوه‌خانه. إن عائلة آل شاكر أفندي هي من أقدم العوائل البغدادية. وجدّ العائلة هو شاكر أفندي

(*) يحتم عليّ التاريخ والإنصاف أن أثبت وقائع الجلسة المبحوث عنها في الصفحة السابقة. فقد جيء بي من المعتقل الى وزارة الدفاع مكبلاً بالكلبچه. وأدخلت الى غرفة الانتظار، فوجدت هناك عبدالله بكر رئيس الديوان الملكي ويوسف الكيلاني وكيل وزارة الخارجية، فجلست الى جنبهما، دون أن أنبس ببنت شفة على الرغم من صداقتنا القديمة وزمالتنا الطويلة في السلك الخارجي، وهذا أمر متوقع ساعتئذ. ثم استدعيت الى قاعة اجتماع الهيئة التحقيقية وكانت الهيئة مؤلفة من الحكام حافظ خالد وصادق حيدر ومن الضباط محمود عبدالرزاق وعدد آخر من الضباط كان أحدهم بديناً، وكاتب الضبط السيد عبدالهادي أحد كتّاب محكمة بداءة بغداد.

سألتني الهيئة عن رأيي في سياسة السياسيين برهان باش أعيان وأحمد مختار بابان وموسى الشابندر وفاضل الجمالي. وبعد أن طمنني حافظ خالد بأني لست متهماً وأن الهيئة ترغب في الاستئناس برأيي عنهم ليس إلاّ، وعليّ أن لا أتردد عن إبداء رأيي الصريح بكل ما أعتقد، انطلقت بأفادتي بكل حرية وأثبتها أدناه:

عن برهان باش أعيان أدليت بنفس الإفادة التي أدليت بها في محكمة المهداوي والمدوّنة في مقدمة كتابي «المملكة العربية السعودية كما عرفتها».

وعن أحمد مختار بابان، بينت بأن الرجل بعيد عن وزارة الخارجية ولم أعمل بمعيته إلاّ بضعة أيام عند تولّيه منصب وكيل وزير الخارجية أثناء حوادث السويس، وكان موقفه شريفاً ونبيلاً عندما قابله المستر هوپر القائم بأعمال السفارة البريطانية بحضوري وقدّم له محضر الحديث الذي جرى في (داونَنك ستريت) بين نوري السعيد والمستر إيدن رئيس الوزراء البريطاني وسلوين لويد وزير الخارجية، عندما وصل نبأ إعلان الرئيس جمال عبدالناصر تأميم قناة السويس في

←

الذي قدم العراق على رأس الحملة التي قادها السلطان مراد لطرد العجم. إن المرحوم عبدالرزاق أفندي هو حفيد شاكر أفندي الكبير وكان يشغل منصب رئيس كتّاب ولاية بغداد سنين طويلة، وهو رجل مهيب بقيافته ومشيته ويلبس الطربوش واللباس المتعارف عليه بين كبار موظفي الولاية. ولده الوحيد سلمان (الدكتور سلمان فائق) كان أقرب أقراني وأحبائي، فكنا طلاب صف واحد مع ابن خالته زكي رفيق (العقيد زكي رفيق) طيلة حياتنا المدرسية في الابتدائية والثانوية. وبعد الثانوية افترقنا فسافرت أنا الى بيروت والتحق سلمان بالكلية الطبية وتخرج طبيباً ماهراً وصار يعدّ من أبرز الجراحين في بغداد. أما زكي فقد آثر مسلك الجندية، وامتاز بين الضباط بحسن الخلق والاستقامة،

وبعد وفاة عبدالرزاق أفندي سكنت الحرم إحدىٰ العوائل اليهودية الثرية وهي العائلة السادسة التي تسكن دربونة الدنگچية.

تتفرع دربونة الدنگچية قبالة بيت شاكر أفندي الى فرعين فرع يلتقي بشارع الأكمكخانه (المتنبي حالياً) والفرع الآخر ينتهي بعگد الصخر (شارع الجسر) ماراً بين بناية المتحف العراقي (القديم) وبين بناية مديرية الآثار القديمة العامة والتي يربطهما في الوقت الحاضر (طاگ)، وفي هذا الفرع عدة بيوت وعدد من الخانات، وأتذكر من البيوت التي ترددت عليها أربعة: البيت الصغير الذي كان يسكنه (علي العجمي) الذي كان مرافقاً لإبراهيم أفندي المميز عندما اغتيل في قضاء الشامية سنة ١٩٠٥، كما سيأتي بيانه، وهو والد حسن العجمي (حسن حراسه) الذي أشغل وظيفة مدير الحرّاس الليليين (الچرخچية) لحين إلغائها.

خطابه بالاسكندرية يوم ٢٦ تموز ١٩٥٦، أثناء المأدبة المقامة في مقر رئيس الوزارة البريطانية في ذلك اليوم على شرف الوفد العراقي. ولما ترجمت له المحضر بعد مغادرة القائم بالأعمال البريطاني، بدت على تقاطيع وجهه علائم الامتعاض والإستياء البالغين، فضرب الطاولة بكفه وقال:

ـ شدعوه هلگد يا نوري باشا؟ (لا بد أن المحضر المبحوث عنه أعلاه موجود بين وثائق البلاط أو مجلس الوزراء، فعلى المعنيين بهذا الموضوع أن يبحثوا عنه لأهميته التاريخية).

وعن موسىٰ الشابندر، ذكر رئيس الهيئة بأن السفير موسىٰ الشابندر كان قد ألقىٰ خطاباً في واشنطن قال فيه ليس لنا عداء مع اليهود وإنما عداؤنا مع إسرائيل. بينت بأن ما ذكره السفير هو صحيح وهو رأي الحكومات العراقية المتعاقبة، ورأي الدول العربية الأخرىٰ. وأعتقد أنه رأي حكومة الثورة أيضاً. فليس بين العرب واليهود كدين، عداء أو خصومة، ولكن عداء العرب هو مع الصهيونية كحركة سياسية عنصرية توسعية معتدية.

وعن فاضل الجمالي سألوني عدة أسئلة، فبينت باني أعرف فاضل الجمالي معرفة طيبة وبوسعي أن أكتب عنه كتاباً بعنوان «فاضل الجمالي كما عرفته» (إبتسم بعض أعضاء الهيئة على هذه العبارة) لكن فاضل الجمالي لم يقم بأي عمل لا ضد مصلحة العراق ولا ضد مصلحة الأمة العربية، بل بالعكس فهو من الأوائل الذين لفتوا الأنظار الى الخطر الصهيوني بمقالاته في الصحف والمجلات العربية والأجنبية، وهو الذي دافع عن القضية الفلسطينية والقضايا العربية الأخرىٰ في محافل الأمم المتحدة، وله الفضل في حصول مراكش وتونس على استقلالهما. أما عن السؤال المتعلق بموقفه من الشيوعية والناصرية، فأن ذلك ليس رأي فاضل الجمالي وحده وإنما يشاركه فيه كثير من السياسيين في العراق وفي البلاد العربية الأخرىٰ، ولكن تصرفات فاضل الجمالي الرعناء وتصريحاته الخرقاء هي التي جلبت على رأسه البلاء!



الرجل الذي ملأ الدنگچية حشمة وهيبة ووقاراً المرحوم عبدالرزاق أفندي آل شاكر أفندي (والد الدكتور سلمان فائق)

وفي زاوية هذه الدربونة تقع دار ذات شناشيل تسكنها عائلة يهودية هي السابعة التي تسكن الدنگچية. والى جنب هذه الدار يقع (بيت البنات) ويعرف بالمحلة (بيت درويش أفندي) وهن ثلاث من العوانس المسنّات ينتمين الى عائلة بغدادية ثرية، ثم انتقلن من هذه الدار الى القصر المشيد في بستان (الربع) المطل على دجلة العظمىٰ في الصرافية والذي يعرف محلياً بقصر (بيت البنات) وقد استملك البستان والقصر من قبل شركة كهرباء بغداد بعد انتقالها من العباخانه وتأميمها سنة ١٩٥٥م وللمرحوم أمين خالص علاقة عن طريق النساء بالملك المستملك. والى جنب بيت البنات يقع البيت الذي كان يسكنه المرحوم الحاج عبدالوهاب بك بن (قدوري بك بن محمد صالح بك) المتولي على وقف عادلة خاتون حينذاك وتوفي فيه سنة ١٩١٢م، وهو والد عبدالقادر المميّز ومحيي الدين ومحمد نبيه. ثم انتقلت العائلة الى بيت (قدوري بك) المجاور لبيت الدفتري ومنه انتقلت الى محلة رأس الكنيسة.

يقابل هذا البيت وفي منعطف الدربونة قبل التقائها بعگد الصخر وبجوار حرم بيت شاكر أفندي يقع بيت حسن أفندي القلغاسي.(*) والد أحمد مختار(**) وفاضل حسن ولم يكونا يلقبان (بابان) حينذاك. ولو أن حسن أفندي قد أشغل مناصب أعلىٰ من رتبة (القلغاسي) غير أن هذا اللقب بقي

(*) رتبة قول آغاسي: تعادل رتبة رائد في الجيش العراقي.

(**) أن أحمد مختار بابان هو من أقران والدي وأعمامي، وعندما كان يراني في المعتقل بعد ثورة ١٤ تموز لابساً الدشداشة البيضاء المصنوعة من قماش (الكودري) أو (الململ) كما هي عادتي في الصيف حتى الآن، قال لي ذات مرة: «بيتَ المميز يلبسون الدشاديش البيض بالوراثة، فعندما أراك بالدشداشة البيضاء أتذكر أبوك وأعمامك الذين كانوا يلبسون الدشاديش البيض أيضاً».

ملازماً للعائلة. إن لعائلة حسن أفندي القلغاسي، فضلاً عن انتسابها لعائلة بابان، صلات القربىٰ والمصاهرة مع كثير من العوائل البغدادية التي كانت تتردد عليها في الدنگچية. فلها صلة نسب بعائلة حيدر چلبي (واقف حمام حيدر والأملاك المجاورة لها في شارع المستنصر)، ولها صلة بعائلة آل التاتار،(*) التي كانت تعرف بالدنگچية (بيت الططر) والتي تنتسب الى عمر آغا تاتار آغاسي جد حسن سامي التاتار (والد الدكتور إسماعيل التاتار). ومن العوائل التي لها صلة ببيت الططر عائلة زينل أفندي خال حسن سامي ووالد بهجت زينل، وعائلة عوني أفندي (والد بهاء عوني) والمتزوج من إحدىٰ شقيقات حسن سامي، وعائلة عباس مظفر صهر بهاء الدين نوري ونايل محمود، وعائلة بيت الجيبه‌چي، وعائلة بيت الوادي (شاكر الوادي متزوج من إحدىٰ كريمات رؤوف الجيبه‌چي) وعائلة محمود شكري وعائلة آل جميل، وكثير غيرهم مما يصعب حصرهم وتتبع جذورهم، لأن (النسوان عرگ ثيّل) كما يقال.

في أوائل العشرينات أُسبغ على الدنگچية جوّ جديد، وذلك عندما سكنتها عائلة من أكرم العوائل الموصلية. فقد سكن الدار المجاورة لبيت عبدالكريم الچلبي والمقابلة لبيت لبيب أفندي الآلوسي، المغفورله محمدعلي فاضل أفندي عندما عين وزيراً للأوقاف في أوائل الحكم الوطني، ثم أصبح عضواً في مجلس الأعيان. وبمجيء هذه الشخصية الوقورة الى المحلة سادها جو يختلف عن الجو السابق. أنه ينتمي الى عائلة (حافظ أفندي) التي هي من (سادة) الموصل، ولها روابط وصلات النسب والقربىٰ مع كثير من العائلات الموصلية المعروفة، كعائلة العبيدي والنقيب والفخري والمفتي والأعرجي وآل بكر أفندي وآل شريف بك وغيرهم. وكان أفراد هذه العوائل يتقاطرون على دربونة الدنگچية للسلام على محمد علي فاضل أفندي أو زيارة ديوانه المكتظ بالزائرين من مختلف المناطق والمشارب، كلما جاؤا الى بغداد. وقد توثقت علاقتنا العائلية بهذه العائلة الكريمة وخاصة بالمرحومة السيدة عزيزة والدة عبدالإله حافظ(**) وبكريمتها الآنسة عفيفة (زوجة المرحوم المهندس أحمد عدنان حافظ، زميلي في الجامعة الأمريكية في بيروت) فكنا نتبادل الزيارات والهدايا. وقد استمرّت علاقتنا بهذه العائلة الكريمة بعد وفاة محمد علي فاضل أفندي وانتقالها الى الموصل.

(*) عائلة التاتار نسبة الى (تاتار اغاسي) وهي وظيفة من وظائف العهد العثماني وشاغلها يحمل الأرادة السنية من استانبول بتعين الولاة والأشراف على مراسيم تنصيبهم وتلاوة (الفرمان) الهمايوني، ولا علاقة لهذا اللقب بقبائل التتر، وإن كان هناك من يظن ذلك.

(**) يحثني ضميري أن أكتب كلمة عن المرحوم عبدالإله حافظ. لم يسكن عبدالإله حافظ الدنگچية مع عائلته ولا هو من أقراني، إذ كان يدرس في باريس عندما كنت طالباً في المدرسة الثانوية، ثم تخرج في جامعاتها متخصصاً بطب الأسنان وبعلم الاقتصاد السياسي. ولما عاد الى بغداد في أواخر العشرينات فتح عيادة في شارع الرشيد (موقع ساحة الغريري حالياً) وكانت العيادة ملتقى السياسيين من معارضين وحكوميين وهناك أعجبوا به وبثقافته ولما أصدر علي جودة جريدة «الأخاء الوطني» سنة ١٩٣١ لتكون لسان حال حزب الأخاء الوطني الذي أسسه ياسين الهاشمي وجماعته لمعارضة وزارة نوري السعيد التي صدقت معاهدة ١٩٣٠، وقع الاختيار على الدكتور عبدالإله حافظ ليكون المدير المسؤول لجريدة الحزب. وعين أستاذاً للاقتصاد في كلية الحقوق ثم نقل الى السلك الخارجي وعين قنصلاً عاماً في بومبي وبيروت وباريس. وكلما عمل في بلد من البلدان ترك هو والسيدة عقيلته أطيب الأثر وأحسن السمعة للعراق في الخارج. وفي الأربعينات تقلد عدة مناصب وزارية منها مناصب وزارة المالية ووزارة الخارجية، ووزارة الاقتصاد. وبعد اعتزاله السياسة أسس بنگ الاعتماد (البنگ العثماني سابقاً) وأصبح رئيساً لمجلس الادارة، قبل تأميمه في الستينات.



المرحوم محمد علي فاضل افندي آل حافظ أفندي (والد عبدالإله حافظ) الذي أسبغ على الدنگچيّة جواً جديداً عندما سكنها بعد تعيينه أول وزير للأوقاف في الحكم الوطني وعضواً في مجلس الأعيان

لقد اتصف المرحوم عبدالإله حافظ في حياته السياسية بالبراءة والعفة والنبل وطيب السريرة ودماثة الخلق، وهي صفات قلما تتوفر كلها في شخص واحد من ساسة ذلك الزمان. وللمرحوم عبدالإله حافظ هواية سجلها له البغداديون وما زالوا يذكرونها. لقد كان (عميد هواة زهرة الروز) في بغداد فقد نقل من أم الربيعين كل ما تشتهر به من زهور وورود وأبصال واستورد من أوربا نوادرها، وكانت داره في الوزيرية في فصل الربيع وكأنها معرض (چلسي) فترى الهواة حاملين قوائم الزهور وهم يجوسون الحديقة، يدققون أسماءها وأوصافها وينشقون عبيرها. وعندما يغادرون الدار يصرّ مضيفهم على أن يحمل كلٌ منهم زهرته المفضلة.

توفي عبدالإله حافظ في أواسط السبعينات ودفن في مقبرة العائلة في الموصل. رحمة الله عليك يا أبا نبيل.

كانت العوائل البغدادية القديمة تعرف بالوظيفة التي كان يشغلها ربّ العائلة في العهد العثماني مثال ذلك: عائلة الدفتري نسبة الى اسماعيل أفندي الدفتري والد خليل أفندي الدفتري، جد محمود صبحي الدفتري والذي كان يشغل وظيفة دفتردار الولاية (وظيفة مالية)؛ عائلة فؤاد أفندي سنيّة (مدير أملاك السلطان عبدالحميد)، عائلة إبراهيم أفندي المميز (وظيفة مالية)، عائلة أمين افندي خزنة كاتبي (كاتب الخزينـة)، عائلة رفعت أفنـدي كاتب الفارسية (والد نصرة الفارسي وعزة الفارسي)، عائلة كاتب العربية، عائلة كتخدا (الكتخدا هو معاون الوالي) نسبة الى إسماعيل آغا كتخدا جدّ العائلة الحاج طالب الكهية (جدّ حكمت سليمان وخالد سليمان ومراد بك ومحمود شوكت باشا)، عائلة المصرف نسبة الى جدّ العائلة أحمد أفندي المصرف الذي أشغل وظيفة مدير مصروفات الولاية (جدّ المرحوم نافع افندي المصرف قاضي بغداد الأسبق، والد عبدالمنعم المصرف)، وعائلة درويش آغا القائممقام؛ عائلة عزيز اغا مسلّم البصرة، جدّ أمين خالص ومحمود خالص.. ألخ.

إن سكنى سبع عوائل يهودية في دربونة الدنگچية التي لا يزيد عدد بيوتها على العشرين، وانتشار دكاكينهم ومقاهيهم وخاناتهم ومحلاتهم التجارية في معظم محلات وأسواق بغداد والرعاية التي كانوا يحظون بها والحرية التي كانوا ينعمون بها والأمان الذي كانوا يستظلون بظله، قد حفزني على الكتابة عن وضع اليهود في المجتمع البغدادي بصورة خاصة وفي المجتمع العراقي بصورة عامة منذ وعيت على وضعهم في أوائل القرن العشرين حتى إسقاط جنسيتهم العراقية وهجرتهم الى فلسطين سنة ١٩٥٢م.

لا يخامرني شك في أن عدداً كبيراً من المائة ألف أو أكثر من اليهود العراقيين الذين أسقطوا جنسيتهم العراقية وهاجروا الى إسرائيل في المؤامرة التي جرت في أوائل الخمسينات لتهجيرهم والتي سيأتي الكلام عنها، نادمون الآن على غلطتهم الثانية في تأريخهم الطويل. أما غلطتهم الأولى فكانت في القرن السادس قبل الميلاد، ولما سباهم الملك البابلي نبوخذنصر، وجاء بهم أسرى الى العراق. وبعد زوال الحكم البابلي واجتياح الفرس بقيادة ملكهم كورش للعراق، وتحالفه مع الأسرى اليهود وإغرائهم على العودة الى فلسطين ليسببهم الرومان هناك ثانية، بقي بعضهم في العراق واندمجوا مع سكانه وانصهروا في بوتقة واحدة، وهؤلاء هم أسلاف اليهود الذين أسقطوا جنسيتهم العراقية وهاجروا الى فلسطين سنة ١٩٥٢ ليلقوا هناك ما لقيه أسلافهم في العهد الروماني من اضطهاد وتمييز. فقد تركوا بلاداً لا تميّز بينهم وبين غيرهم من المواطنين الى بلد يعدّهم مواطنين من الدرجة الثانية.

إن الصراع الخفي الجاري في الوقت الحاضر بين الطبقة الحاكمة وذوي المكانة والثروة من اليهود الأشكنازيين، وهم اليهود الذين ينحدرون من قبائل الخزر أو من أصل بولوني أو روسي أو من دول أوربا الشرقية الأخرى، من جهة وبين اليهود السفارديم الذين هاجروا من اسبانيا الى أقطار أوربا والى آسيا الصغرى (الأناضول ويعرفون هناك بالدونمه) بعد سقوط الدولة الأموية في الأندلس عام ١٤٩٢م واليهود الشرقيين الذين هاجروا الى اسرائيل من اليمن والعراق وسوريا والشمال الأفريقي، وغيرها من الأقطار غير الأوربية، والنفرة والعداء المستفحل بينهم هو أكبر خطر يهدد مستقبل اسرائيل، وعلى العرب أن يدركوا هذه الحقيقة.

يتكون المجتمع الاسرائيلي حالياً من ثلاث شرائح: الأولى تضم اليهود الأشكنازيين والثانية تضم اليهود السفارديم واليهود الشرقيين، وهاتان الشريحتان تشملان اليهود الذين هاجروا الى فلسطين في شتى الأدوار. أما الشريحة الثالثة فتضم اليهود الذين ولدوا في فلسطين ونشأوا واستوطنوا فيها، وهؤلاء يعرفون بـ (صبرا)(*). إن الشريحة الأولى أي اليهود الأشكنازيين القادمين من أوربا الشرقية هي الطبقة الحاكمة في إسرائيل حالياً وتنتمي إليها معظم الشخصيات الصهيونية التي قام عليها كيان إسرائيل أمثال حاييم وايزمان وديفيد بن غوريون وموشي شاريت (موشي شرتوك) وگولدا ماير (گولدا مايرسن) وليفي أشكول ومناحيم بيگن وايريل شارون واسحق شامير وكل هؤلاء هاجروا

(*) صبرا SABRA كلمة عبرية صارت تطلق على اليهود المولودين في فلسطين وليسوا من المهاجرين اليها. ولا علاقة لهذه الكلمة بمخيم (صبرا) في بيروت الذي وقعت فيه مذبحة الفلسطينيين في ١٩٨٢/٩/١٦ عندما غزا الجيش الاسرائيلي لبنان في ١٩٨٢/٦/٦.

الى فلسطين من دول أوربا الشرقية ومعظمهم من روسيا وبولونيا ودول البلطيق. أما الشريحة الثانية التي تضم اليهود الشرقيين والسفارديم فهم أكثر عدداً من الشريحة الأولى حيث يكونون أكثر من ٦٠٪ من المجتمع الاسرائيلي، غير أنهم يعتبرون من الطبقة الثانية في المجتمع الاسرائيلي، ومعظمهم قد هاجر الى إسرائيل من العراق والشمال الأفريقي واليمن وغيرها من الأقطار العربية بعد قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ وهم محرومون من كثير من الامتيازات التي يتمتع بها الأشكنازيون القادمون من دول أوربا الشرقية، ولم يصل إلاّ العدد القليل منهم الى المناصب العليا ذوات السلطات المحدودة، أمثال اسحق نافون رئيس الجمهورية السابق(*) الذي ينحدر من أسلاف استوطنوا تركيا والمغرب واستوطن المتأخرون منهم فلسطين، وهرون أبو حصيرة وزير الأديان السابق ورئيس حزب (تامي) الذي تألب عليه الأشكنازيون وأبعدوه عن منصبه الوزاري وسجنوه بحجة إساءة التصرف بأموال الدولة والذي هو الآخر من يهود المغرب، وشلومو هيلل اليهودي العراقي الذي أشغل منصب وزير الشرطة السابق، وموشي لاوي رئيس أركان الجيش الاسرائيلي الحالي. وداود لاوي نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة سابقاً وهو من يهود المغرب أيضاً.

أما (الصبرا) فتشمل كثيراً من اليهود الذين يعتبرون أنفسهم من الساسة المعتدلين أمثال دايان وآلون ويادين وبيرص الذين يحلو لهم أن ينعتوا بالحمائم مقارنة بالصقور الأشكنازيين غير أن (الكفر ملّة واحدة)!!

إن البعض من اليهود الشرقيين ما زالوا يعتزون بالتراث اليهودي والتقاليد الاجتماعية اليهودية التي نمت وازدهرت في الأقطار الشرقية التي هاجروا منها، ومعظمهم يعيشون في إسرائيل وفق نمط الحياة التي كانوا يحيونها في تلك الأقطار على أن الأجيال الناشئة منهم صاروا يعزفون عنها تدريجياً. فاليهود العراقيون مثلاً ما زالوا يطربون على الجالغي البغدادي ويحنّون الى المقام العراقي، ويلتذون بالأكلات البغدادية كـ (التبيت) ومَنّ السما والجمّار والنبگه والشوندر المشوي بالطمة، وهم ينظرون بالاحتقار والتعالي الانثروبولوجي على اليهود الأشكنازيين ويأنفون التزاوج معهم، لأن الله قد ابتلى الأشكنازيين بمرض لا يرجى شفاء المصاب بـه والعياذ بالله. ذلك هو المرض المعروف بمرض (Tay—SACHS). أنه بسبب تزاوج اليهود الأشكنازيين من الأقرباء، وبسبب حياة (الكيتو) التي كانوا يحيونها في أوربا الشرقية، حيث كانت لهم عادات خاصة ولغة خاصة تختلف عن العبرية المعروفة، وتعرف تلك اللغة (yiddish) وهي خليط من الكلمات العبرية والسلافية واللهجات الألمانية وتكتب بالأحرف العبرية، فأن المرض المذكور صار ينتقل بالوراثة من جيل الى آخر. إن أعراض هذا المرض الخبيث، هي أن الطفل يولد طبيعياً صحيحاً ومعافى غير أن جسمه يبدأ بالهزال والضمور متى بلغ الشهر الرابع من عمره ويموت حتماً حالما يبلغ السنة الرابعة من العمر. وقد أكتشف هذا المرض لأول مرة في الولايات المتحدة في المهاجرين الأشكنازيين الذين تدفقوا عليها من أوربا الشرقية وقد اكتشفه طبيبان أمريكيان أحدهما يدعى (Warren Tay) والثاني يدعى (Bernard Sachs) فصار المرض يُعرف باسميهما. ففي انكلترا وحدها يموت في الوقت الحاضر أكثر من عشرة أطفال سنوياً به. وقد عجز العلم الحديث عن إيجاد العلاج لهذا المرض، فصار اليهود في إنكلترا يشترطون الفحوص الطبية

(*) منصب رئيس الدولة في إسرائيل منصب شكلي وصلاحيته التنفيذية محدودة جداً ومقيدة، وهو ليس أكثر من (خرّيعة خضرة)!! وقد خلف نافون بمنصب رئاسة الدولة حييم هرتزوك وهو من اليهود الغربيين، غير أن أحد أبنائه متزوج من ابنة أحد اليهود الشرقيين.

قبل إتمام إجراءات الزواج. أما الحالة في اسرائيل فتهدد الآن إذ لا تفرض فيها مثل هذه الشروط ولا غرابة في ذلك فان كلاً من رئيس الوزراء الأسبق والسابق والحالي والمقبل هم من الاشكنازيين.

قلنا إن الصراع بين اليهود الاشكنازيين من جهة(*) والسفارديم واليهود الشرقيين من جهة أخرى هو أخطر ما يهدد مستقبل إسرائيل. ولكن إذا ما نجحت المحاولات التي يبذلها ساسة إسرائيل من الاشكنازيين لرأب الصدع وازالة عوامل الصراع والعداء وادماج الشريحتين ببعضهما، وهو ما يبدو بعيداً في الوقت الحاضر على الأقل، فان ذلك هو أخطر ما يهدد مستقبل الشعب العربي في فلسطين.

لقد حُرم اليهود العراقيون النازحون الى إسرائيل من خيرات عراق مزدهر كانوا سيلعبون فيه دوراً عظيماً لولا مؤامرة تهجيرهم التي سيأتي الكلام عنها. لقد كانوا مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات مع العراقيين باستثناء الخدمة العسكرية الاجبارية، وهذا أمر طبيعي. فلم تخل دائرة من دوائر الدولة من عدد منهم. وفي الحياة الخاصة كان كبار العراقيين يرددون على مسامع صغارهم الحديث الشريف «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه فقد خاصمته يوم القيامة» فلم تفسد العلاقة بين اليهود والعراقيين بصورة خاصة وبينهم وبين العرب بصورة عامة، إلا بعد ظهور الحركة الصهيونية العالمية، وصدور وعد بلفور واستفحال الهجرة اليهودية الى فلسطين وقيام دولة إسرائيل.

ففي الاطار العام ساهم اليهود في كل شريحة ومؤسسة من كيان الدولة العراقية. فكان ساسون حسقيل أحد اثنين من العراقيين(**) الذين اشتركوا في مؤتمر القاهرة الذي قرر تأسيس الدولة العراقية وتنصيب الملك فيصل الأول ملكاً عليها، فكان وزيراً للمالية في الوزارات الأولى التي تألفت في العراق ووضع أسس النظام المالي للدولة الفتية. ولا مندوحة من الاعتراف بدور هذا الرجل عندما أشار على المفاوض العراقي أثناء مفاوضات اتفاقيات النفط بين العراق وبريطانيا سنة ١٩٢٥م على إضافة كلمة (ذهب) الى جملة (أربع شلنات) عند احتساب عوائد النفط، يوم لم يفكر المفاوض البريطاني ولا بنك إنكلترا بما سيتعرض له الپاون الأسترليني من الانهيار في أوائل الثلاثينات. ولم يسبق ليهودي أن حاز المنزلة التي حازها ساسون حسقيل في قلوب العراقيين، كما لم يسبق لشاعر مسلم أن رثى يهودياً بمثل ما رثى به معروف الرصافي ساسون حسقيل، إذ قال فيه لما

(**) كان العراقي الآخر المرحوم جعفر العسكري، وكان بقية الأعضاء من البريطانيين.

(*) اليهود الأشكنازيون هم أقوام من أصول خزرية أو سلافية أو جرمانية تهوّدوا في السنين المتأخرة واستوطنوا أوربا الشرقية وليس لهم علاقة عرقية ببني إسرائيل وبالعبريين الذين وجدوا في الشرق الأوسط أيام البابليين والآشوريين والمصريين والرومان.

توفي في باريس سنة ١٩٣٢ :

نعىٰ البرق من «باريس» ساسون فاغتدت ... «ببغداد» أم المجد تبكي وتندب
ولا غرو أن تبكيه إذ فقدت به ... نواطق أعمال عن المجد تعرب
ألا لا تقل قد مات «ساسون» بل فقل ... تغوّر من أفق المكارم كوكب
فلا عجب إن راح في الغرب ثاوياً ... فأن النجوم الزهر في الغرب تغرب
وما سَرّه من دولة العجم رتبة ... ولا غَرّه من دولة العرب منصب
لقد كان في الأوطان يرأب صدعها ... فيسعىٰ الى الاصلاح فيها ويدأب
فأصغىٰ لشكواها وزيراً ونائباً ... وعالجها منه الطبيب المجرب
رزئناك مفضالاً ففقدك محزن ... ومسعاك محمود وذكرك طيب

وكان منهم عدد من الأعيان والنواب من الذين ساهموا مساهمة فعالة في اعداد التشريعات المالية وغيرها من القوانين ، ولا بد أن البعض منا يتذكر العين مناحيم دانيال وابنه عزرا دانيال اللذين توارثا عضوية مجلس الأعيان منذ تأسيسه. كما نتذكر أعضاء المجالس النيابية المتعاقبة ، أمثال نعيم زلخه وروبين بطاط وإبراهيم حييم وصالح قطان ويهودا زلوف ، والذين كان لهم دور فعال في اللجان المالية والحقوقية في المجالس.

ومنهم داود سمرة الذي شغل أعلىٰ منصب قضائي في العراق كنائب لرئيس محكمة تمييز العراق والذي بقي فيه أكثر من ثلاثين عاماً ، ويعتبر شيخ القانونيين وإمام الحقوقيين ومن اليهود المحيطين بالفقه الاسلامي والذي درس على يده معظم رجال القانون والقضاء في العراق.

ومنهم أكفأ من تولىٰ منصب مدير المحاسبات العام وهو إبراهيم الكبير، ومنهم أشهر المحامين مثل يوسف الكبير وشاؤول أسود وسلمان شينه وحسقيل ناجي . ومنهم الشعراء مثل أنور شاؤول ، ومنهم الكتّاب والباحثون والمؤلفون مثل مير بصري . ومنهم أشهر الأطباء مثل صموئيل اداتو في الأمراض الداخلية ويعقوب وذّن في طب الأسنان وجاك عبودي في الأمراض العصبية ؛ وكان ثلاثة من الذين تخرجوا في الدورات الأولىٰ في الكلية الطبية العراقية من اليهود وهم كرجي ربيع وجاك عبودي ورؤوف سيمح .

ومنهم من تفرغ لدراسة الفلك وعلم النجوم مثل ناجي مكمّل الذي كان ينبهنا الى أوقات حصول الخسوف والكسوف. ومنهم أكفأ أستاذ في الرياضيات هو الأستاذ عبدالله عوبيديا (الأستاذ بمعهد الصناعة العالي سابقاً ومدير مدرسة فرنك عيني حالياً) والذي بقي معتزاً بتربة وطنه حتى اليوم.
ومنهم من كان يدير عموم الأملاك الأميرية في العراق وهو سلمان الكبير، ومنهم من اختص بالآثار العراقية مثل سليم لاوي قبل ان يسقط جنسيته ويهاجر الى فلسطين ويصبح من خبراء الآثار فيها.

ومنهم المهندس القدير مثل نسيم سوسه(*) وفريد سمره، ومنهم من عمل في الصحافة مثل جاك شاؤول ومنشي زعرور وروبين خضوري صاحب مجلة «صوت الحرية» الأسبوعية والشاعر أنور شاؤول صاحب جريدة «الحاصد» الأسبوعية التي استمرت على الصدور أكثر من سبع سنوات.(**)

وحتى الجيش العراقي لم يخل من واحد منهم في الثلاثينات وهو الطيار في القوة الجوية العراقية ناجي ابراهيم.. وكان لرئيس طائفتهم ساسون خضوري دور فعال في التقريب بين اليهود والمواطنين الآخرين. والوزارة الوحيدة التي خلت من اليهود كانت وزارة الخارجية بعد استقلال العراق وتأسيس السلك الخارجي. ولكن وزارة الخارجية عندما كانت ملحقة بديوان مجلس الوزراء قبل الثلاثينات كان يعمل فيها مير بصري بصفة مترجم باللغتين الانكليزية والفرنسية.

أما في الاطار الخاص، فاليهود يفضلون التجارة والعمل الحرّ ومن لم يعمل في الوظائف الرسمية، فقد وجد طريقه الى الاستخدام لدى البيوت المالية ككاتب أو وكيل. ويندر أن تجد تاجراً أو ملاكاً أو مزارعاً إلا وفي خدمته كاتب يهودي، يتولى أعماله الحسابية والكتابية وإدارة شؤونه الشخصية، ومعظمهم يتصفون بالأمانة والاستقامة والصدق والاخلاص والوفاء لمن استخدمهم.

وأضرب مثلاً شخصياً مستميحاً العذر من القارىء الكريم إنّ أنا أسهبت في سرد تفاصيله العائلية.

كان لدى جدي إبراهيم أفندي المميز كاتب أو وكيل يهودي إسمه رحمين عاشير، عمل في خدمته أكثر من ثلاثين عاماً، يمسك حسابات وقف عادلة خاتون عندما كان إبراهيم أفندي متولياً عليه، وبيده القبض والصرف والاشراف على شؤون البيت ورعاية الأولاد أثناء غيابه عن بغداد بالمهام الرسمية. وفي سنة ١٩٠٥ سافر إبراهيم أفندي الى قضاء الشامية بلواء الديوانية (محافظة القادسية حالياً) للإشراف بنفسه على الذرعة التي بموجبها تستوفى الضريبة من المزارعين، إذ كان الملّاكون والشيوخ والمزارعون يسلكون شتى السبل لإفساد ضمائر الموظفين بالرشوة، فتفوت على الخزينة مبالغ طائلة سنوياً، كانت البلاد يومئذ بأمس الحاجة لها. فحل ضيفاً في (بيت الشيخ عبادي الحسين) وهو من كبار شيوخ عشائر الفتلة والمتنفذين في منطقة الشامية. وقد حاول الشيوخ والملّاكون والمزارعون إغراءه بأكياس الليرات الذهبية ليغض النظر ويتساهل بالذرعة لصالحهم ضد مصلحة الخزينة، فما رضخ ولا أذعن لهذه الاغراءات. ولما يئسوا من استمالته دبروا اغتياله في إحدى الأمسيات بينما كان يتأهب لصلاة العشاء، فشيع جثمانه تشييعاً مهيباً مشى فيه مع المشيعين المتآمرون أنفسهم، ودفن في

(**) هو الدكتور أحمد نسيم سوسه، وهو من كرام العوائل اليهودية في الحلة، وقد اعتنق الاسلام منذ شبابه وتوفي سنة ١٩٨٢ وترك تراثاً قيّماً من كتب هندسة الري والأطالس الجغرافية وتاريخ بغداد وغيرها من الكتب، وكتابه عن (العرب واليهود في التاريخ) هو من أثمن مؤلفات الدكتور أحمد سوسه.

(***) أصدر أنور شاؤول عدة دواوين شعر: أولها صدر سنة ١٩٢٩م وآخرها سنة ١٩٨٣ بعد هجرته من العراق بعدة سنوات. كما أصدر مجلة (المصباح) بالاشتراك مع المحامي سلمان شينه واستمرت تصدر مدة ثلاث سنوات ثم توقفت من تلقاء نفسها.



صورة تذكارية في كربلاء سنة ١٩٠٣، قبل اغتيال ابراهيم أفندي المميّز في الشامية بسنتين :
في الوسط متصرف كربلاء وولده، والى يمينه إبراهيم أفندي المميّز، والى يساره كبير علماء كربلاء، والى اليسار شوقي أفندي آمر الجندرمة . وبينهما فؤاد أفندي الدفتري رئيس محكمة البداءة، والى أقصى اليسار بالطربوش ولده محمود صبحي الدفتري، وهو الذي ميّز تصويره عندما عرضت عليه هذه الصورة.

النجف الأشرف في ساحة فسحة قريبة من الروضة الحيدرية المطهرة، وقد اندرس القبر بعد توسيع الفسحة في عهد الاحتلال البريطاني حسبما علمنا من السيد عبدالرزاق شمسه، أحد قدماء رؤساء بلدية النجف، فعاد مرافقه علي العجمي وفرسه الدهمة (نوفه) الى بغداد لا تحمل على ظهرها سوى الطاسة السفرية من الفضة الألمانية المعدة لشرب الماء والتي أحتفظ بها حتى الآن، لِتنبه الأبناء والأحفاد بأن العفة والنزاهة والاستقامة والتضحية في سبيل الواجب يجب أن يكون شعارهم وديدنهم في الحياة مهما كانت العواقب.

وفي التحقيق الذي جرى بعد الاغتيال لعبت الرشوة وتأثيرات الشيوخ دورها فتألب الجميع، من المتصرف حتى القولچي، لطمس معالم الجريمة. كان في الديوانية يومئذ ثلاثة من الضباط من ذوي الشهامة البغدادية هم الملازم الثاني محمود رامز والملازم الثاني عارف قفطان والملازم الثاني عوني قاسم (والد بهاء عوني) ولما اطلعوا على ما يجري في التحقيق من سوء استعمال، أرسلوا برقية الى والي بغداد يشكون فيها من سير التحقيق.. وكان المرحوم محمود رامز يتلو عليّ نص البرقية كلما زرته، يحفظها عن ظهر قلب، وهي طويلة وباللغة التركيّة، ومما جاء فيها: «إن الذين قتلوا الشهيد بالأمس صاروا يتظاهرون بالبكاء عليه اليوم».



شهيد العفّة والنزاهة والاستقامة والاخلاص للواجب: ابراهيم أفندي المميّز الذي اغتيل في قضاء الشامية سنة ١٩٠٥ لرفضه أكياس ليرات الذهب التي أغري بها. (تصوير المصوّر داود غزالة ١٩٠٢)

منذ ذلك التأريخ وبعد أكثر من عشرين عاماً من وفاة ابراهيم أفندي(*)، كان رحمين عاشير يتردد على العائلة مرتين أو أكثر في السنة، وبلا انقطاع، يتفقد أحوالها ويعرض عليها خدماته ومساعداته، وكان كلما زارها جلس على نفس (الكرويت) الذي كان يجلس عليه عندما كان يأتي لمقابلة إبراهيم أفندي. وقد رأيته لآخر مرة في أوائل العشرينات، شيخاً طاعناً في السن، قصير القامة، له لحية طويلة بيضاء، ويلبس فينة بدون حصيرة، ويتأبط عباءة سوداء، وقد تجاوز الثمانين من عمره، يبكي بكاء النساء والأطفال ويضرب على ركبتيه وينوح قائلاً: «أبدالكم، والله إبراهيم أفندي مغدور.. والله إبراهيم أفندي مظلوم» عندئذ تنقلب زيارة هذا اليهودي المخلص الوفي الى مناحة يشترك فيها الرجال والنساء والأطفال(*).



هذه الطاسة السفرية من الفضة الألمانية(**) هي كل ما تركه ابراهيم أفندي المميّز بعد خدمة بلاده أكثر من ثلاثين عاماً، أعتز بها حتى اليوم لتذكير الأبناء والأحفاد ومن يليهم من بعدهم، بأن العفة والنزاهة والاستقامة والأمانة والاخلاص للواجب، يجب أن يكون ديدنهم في الحياة، مهما كانت العواقب.

(*) لقب إبراهيم حلمي أفندي المميز «بالأفندي» لأنه الوحيد من أفراد العائلة الذي عمل موظفاً في الدولة، وقد أشغل عدة مناصب مالية في الولاية كان أرفعها منصب «المميز» حيث بقي فيه قرابة ثلاثين عاماً قبل ترشيحه لمنصب «دفتردار» الذي رشح له قبيل اغتياله في الشامية سنة ١٩٠٥، وهو أعلى منصب مالي في الولايات العثمانية، ولذلك طغى لقب «الأفندي» على لقب «بك» الذي هو لقب كافة أفراد العائلة الآخرين، سواء كانوا موظفين أم غير موظفين وكان ذلك قبل إلغاء الألقاب سنة ١٩٣٥ على عهد وزارة ياسين الهاشمي.

(**) الفضة الألمانية هي مزيج من الفضة والنيكل ونسبة النيكل أعلى كثيراً من نسبة الفضة ولذا فهي أقل قيمة من الفضة الخالصة غير الممزوجة بمعدن آخر.

أعود الى الكلام عن اليهود في بغداد :

أما في المجالات الأخرىٰ من الاطار الخاص، كالخياطة والموسيقىٰ والرقص والغناء والدعارة وما شاكل ذلك، فقد بزّ اليهود غيرهم في هذا الاطار، فمنهم أشهر الخياطين في بغداد، عزرا قحطان، دكانه في شارع الرشيد، وموشي الخياط، دكانه بجوار جامع عادلة خاتون الكبير مقابل المحكمة الشرعية، وكان مختصاً بخياطة الجبب التي يرتديها العلماء والأعيان، وخياط الوزراء والوجهاء والبيگات والأفندية وعميد الخياطين البغداديين، إلياس، دكانه في رأس القرية، موقع البنگ المركزي حالياً.

ومنهم الموسيقيون أمثال داود الكويتي وصالح الكويتي، وعزوري وصالح شمّيل ويوسف پَتّو وحسقيل شاهول وخضوري بلبل؛ ومنهم من اشتهر في المقام العراقي مثل يوسف حوريش وسلمان موشي، ورحمين نفطار وابن رجوان الذين أخذوا المقام العراقي عن أحمد زيدان، ومنهم أشهر المغنيات في بغداد وهن سليمة مراد (سليمة پاشا) وسلطانة يوسف، ومنهم أشهر الراقصات ليلو بنت نومه وأختها روزة.

ومن بنات الهوىٰ، بنات مريم خان، تفاحة ونجيّة ورجّو. ومن كبار السمسيرات (گوادة) ريجينة مراد، صاحبة أكبر سيارة تسير في شارع الرشيد وأفخم قصر في شارع العسكري (مدينة الطب حالياً)؛ ومن كبار ربّات بيوت الگزلي ريمه حكّاك، ومن أنشط الگواويد گرجي، ومن كبار المايخانچية (البارات) صالح پيحه.

أفخر الأحذية الانگليزية تجدها في دكان (فيكتور) في شارع الرشيد وعند (جستن) في بناية بيت لنج، وأفخر السداير الايطالية تجدها عند صيّون شمعون، دكانه في شارع الرشيد، وأفخر القمصان الحريرية والپوپلين والأربطة الفرنسية تجدها في دكان (دبّي) في شارع الرشيد أيضاً جوار المصور (آرتين) مصوّر بابل.

لقد كان معظم اليهود في بغداد ينعمون في بحبوحة من رغد العيش والرفاهية، فكانوا يسكنون أفخم القصور المطلة على دجلة العظمىٰ من الأعظمية شمالاً حتى السبع قصور وسدة أبو خضوري في الكرادة الشرقية جنوباً.

ولما جاء الملك فيصل الأول للعراق سكن قصر اليهودي شعشوع الواقع على النهر في المخرم (الصرافية حالياً) وهو من أفخم القصور في بغداد ولما تعرض القصر للغرق في عام ١٩٢٦ سكن مؤقتاً في أفخم بيت في بغداد، هو بيت اليهودي مناحيم دانيال في السنك. ولو أن الطبقة الوسطىٰ والدنيا من اليهود كانوا يسكنون محلات تكاد مقصورة عليهم (گيتو)(*) مثل محلات أبو سيفين وأبو دَوْدَوْ وسوگ حنّون والتورات وغيرها، غير أن كثيراً من الدور في

(*) گيتو GHETTO كلمة إيطالية معناها الحي الذي يقتصر على سكنىٰ اليهود دون غيرهم ويستعمل الاصطلاح مجازاً أو تهكماً على غير اليهود من جنسيات ومذاهب مختلفة من الذين يتجمعون في حي واحد أو مدينة واحدة.

المحلات الأخرى كانت إما مملوكة لليهود أو مؤجرة من قبلهم أو مرهونة عندهم.

لقد كانت الثروة والتجارة وسائر نواحي الحياة الاقتصادية تحت سيطرة اليهود الذين كانوا يحتمون بحماية السلطة ورعايتها، سواء في العهد العثماني أو في عهد الاحتلال أو عهد الانتداب، أو إبّان الحكم الوطني. وكان معروفاً ان كل يهودي كان يحتمي بأحد المتنفذين أو بأحد رجال الحكم لتمشية مصالحه بمنافع متبادلة بينهما مباشرة أو عن طريق الجمعيات الصهيونية في العراق، غير أن هذا الوضع قد تغيّر بعد سنة ١٩٤٨ وقيام دولة إسرائيل، كما سيأتي الكلام عنه.

معظم اليهود يأكلون أندر الفواكه وأغلى الخضروات. وأول ما تنزل فاكهة الموسم الى السوق يشتريها اليهودي بأغلى الأسعار. واليهودي يأكل اللحم الصحي (الكاشير) المفحوص من قبل (المعَلّمْ) وكذا الحال مع الدجاج

معظم اليهود يلبسون أحسن الملبوسات المصنوعة من أفخر الأقمشة الانكليزية المخيطة عند أحسن الخياطين في بغداد، إسلام أم يهود أم أرمن أو عند الخياط الهندي (ڤارما).

معظم اليهود (يجرّون) العرق في بيوتهم مع أنفس العگدات المكونة من الحيوة وصدور الدجاج الدهينة.

اليهودي يرتاد المقاهي البغدادية المختارة، مثل گهوة الشط وگهوة الپاشا وگهوة الشابندر وگهوة موشي وگهوة المميز والتي يجد فيها التسلية والراحة وعقد الصفقات ولا يأبه بما يدفعه للگهوچي.

اليهود لهم أرقى وأحسن النوادي في بغداد مثل نادي الرشيد ونادي لورا خضوري ولا يسمحون لغير اليهود بالانتساب إليها.

اليهود لهم أرقى المدارس الابتدائية والثانوية في بغداد، وهي الأليانس وشماش وفرنك عيني، وإذا أراد اليهودي إرسال أولاده للدراسة العليا في الجامعات الأوربية والأمريكية فباستطاعته أن يفعل ذلك دون قيود أو شروط أو حرج.

وإذا أراد اليهودي الدفاع عن حقوقه فباستطاعته استقدام أكبر المحامين من الخارج، كما

حصل في قضية الثري اليهودي (شمّيل جميلة) عندما استقدم المحامي الانكليزي الشهير في العشرينات المستر (بارنكتون - وارد)، لمتابعة دعواه في المحاكم.

اليهود يجنون أفخر الأبقار الحلوب والمؤصلة وأندر أنواع الطيور الأليفة (طيور المطيرچية) والببغاء والكناري وطيور الحب.

اليهود أول من استورد السيارات الأمريكية الى العراق، فكان إبراهيم وشفيق عدس وكلاء شركة فورد، وعزرا وخضوري مير لاوي وكلاء شركة جنرال موتورز.

اليهود يقدرون القيمة الغذائية للنبگ والجمّار ومَنّ السِما والشوندر المشـوي بالـطّمه فيدفعون لقاءها كل ما يطلب منهم من ثمن.

اليهود لا يأكلون إلاّ السمك اليلبط (الحي) ويشترونه من الشريعة مباشرة، ويختارون أحسن المواقع على شاطيء دجلة لنصب (چراديغهم) الصيفية فيها كشاطيء الگاورية وشاطيء الأعظمية الذي لم يتركوه إلاّ لمّا (هججهم) منه المرحوم الحاج نعمان الأعظمي، إذ كانت هناك خطة لتهويد الأعظمية.

أقدر معلمي السباحة في شريعة سيد سلطان علي كانوا من اليهود وأن (المعِلّم) صفاني هو أكفأهم، (غير أنه فشل في تعليمي السباحة!!).

وأكفأ زعرتي للطهور هو المُعَلِّمْ اليهودي، وكثير من المسلمين يجرون ختان أطفالهم على يد المُعَلِّم اليهودي.

وأكفـأ مدرسي اللغـات الأجنبية في بغـداد كانـوا من اليهود، أمثـال صالـح شميل للفرنسية، وحسقيل أفندي للانگليزية و. . و. .

أكبر التجار المستوردين للمواد الصحية الحديثة هم من اليهود. وأن سالم شمعون هو الذي أدخل (الگيزر) و(البويلر) و(البانيو) الى حمّامات البيت البغدادي الحديث.

أكبر المخازن لبيع الأقمشة على اختلاف أنواعها، مخزن شاشا في خان الصفافير.

وبيت حكّاك هم الذين استوردوا ماكنـات (سنگر) وگـراموفـونات (صـوت سيده) واسطوانات (بيضافون) الى العراق.

وبيت سـودائي هم الذين أسســوا المعمـل الذي ينتـج الطـابـوق الرمـادي اللـون المعـروف باســمهم.

وبيت بلبول اشتهروا بكثير من المهن والمصالح التجارية المعروفة في بغداد وخاصة دلالة وبيع الأراضي، وأن سليم بلبول هو الذي تولىٰ بيع أراضي الوزيرية لحساب الخزينة الملكية الخاصة.

وبيت دنگور احتكروا تجارة الورق والمقوىٰ وسائر صنوف القرطاسية.

وأكثر من نصف أعضاء غرفة تجارة بغداد كانوا من اليهود.

وإذا مات أحد اليهود دفن في مقبرة خاصة بطائفته هي مقبرة اليهود (قرب ساحة النهضة) ولا يجرؤ أحد أن يدنّس قبورهم أو يسيء الى موتاهم أو يبخس من طقوسهم، أو يمس شعائرهم الدينية.

لقد فقد اليهود العراقيون كل هذه الامتيازات عندما هاجروا الى إسرائيل، وكثير منهم من هاجر بعدئذ الى أوربا وأمريكا وكندا، بعد ما أصابهم من خيبة الأمل وانكسار الخيال في إسرائيل، حيث أصبحوا مهاجرين هناك، بعد أن كانوا في العراق «أهل بيت»، فصدق بحقهم القول المأثور (بالصيف ضيعتِ اللبن)، ولات ساعة مندم.

وقد ندم بعضهم على ترك العراق فعاد عدد منهم الى بغداد بعد القرار السديد الذي أصدره مجلس قيادة الثورة الذي سمح لليهود العراقيين بالعودة الى العراق متىٰ شاؤوا، وتوجهوا مباشرة الى محلات (أبو سيفين) أو (سوگ حنّون) وعگود اليهود الأخرىٰ، ليستذكروا أيام عزّهم وسعادتهم في العراق.

* * *

لقد بدأت هجرة اليهود العراقيين الى إسرائيل على نطاق واسع بعد سنة ١٩٤٨، ووصلت ذروتها سنة ١٩٥٢، أثر صدور قانون اسقاط الجنسية العراقية سنة ١٩٥٠ على عهد وزارة توفيق السويدي، وكانت هجرتهم الى إسرائيل مؤامرة صهيونية بريطانية لا تقل خبثاً وغدراً عن وعد بلفور. فقد تضاعف نشاط الجمعيات الصهيونية في العراق بعد ثورة مايس سنة ١٩٤١ عندما استغلّت تلك الجمعيات الفوضىٰ التي حصلت في بغداد في الأيام الأولىٰ من حزيران التي سبقت تأليف وزارة جميل المدفعي عندما هجم بعض الأهالي على بيوت اليهود ومحلاتهم التجارية و(فرهدوها) فاستغلت الصهيونية ذلك الحادث، وأخذت تبث الرعب والذعر في قلوب اليهود وتحثّهم على مغادرة العراق حفاظاً على أرواحهم. وقد ساعد على ذلك مشاهد أكداس الآثاث واللوازم البيتية الأخرىٰ التي استعادتها الشرطة والجيش وكدستها أمام المخافر وفي شارع أبي نؤاس وأمام باب وزارة الدفاع في شارع الرشيد لعدة أسابيع، ثم تكررت حوادث إلقاء القنابل والمتفجرات في أحياء اليهود وغيرها من أنحاء بغداد، وكبست الشرطة الأسلحة والقنابل مخبأة في كنائس اليهود، وقامت بأجراءات ومحاكمة الجواسيس وعملاء الوكالة اليهودية والجمعيات الصهيونية الأخرىٰ، الأمر الذي أدىٰ الى تخويف اليهود

أكثر فأكثر وحملهم على التشبث بمغادرة العراق، سواء عن طريق إيران أو عن طريق التهريب ضمن البضائع التي كانت تشحن الى سورية ولبنان والأردن. وقد انفضح ذلك عندما (طسّت) إحدى سيارات الحمل في طريق الفلوجة، فأرتطم اليهود الجاثمون فوق البضائع المغطاة بالجوادر، بالعوارض الحديدية في سقف إحدى السيارات وتهشمت رؤوسهم. ولما وصلت السيارة الى جسر الفلوجة شوهدت الدماء تسيل من السيارة، فانكشف أمرها فصارت السلطات تشدد الرقابة على سيارات شحن البضائع في نقاط الحدود ولكن دون جدوى، إذ استمر التهريب بطرق ووسائل أخرى.

هذا فيما يتعلق بنشاط الصهيونية في تهجير اليهود. أما فيما يتعلق بنشاط الانكليز، فقد انصب على اصدار قانون يسمح بهجرة اليهود بصورة قانونية. فقد تم التفاهم بين السفارة البريطانية ووزارة توفيق السويدي على اعداد صيغة التشريع اللازم لهذ الغرض، وتم ابرامه ووضعه موضع التنفيذ في سرعة قياسية، لما كان يبذله المستر (تريفليان) مشاور السفارة البريطانية يومئذ (لورد تريفليان حالياً والسفير البريطاني في القاهرة وبغداد وعدن سابقاً) من نشاط في ملاحقة القانون بالتعاون الوثيق مع وزير الداخلية صالح جبر. ولما وضع القانون موضع التنفيذ، أخذ اليهود يغادرون العراق بصورة مشروعة، وقد تولت شركة (عراق تور) للسفر والسياحة التي يديرها عبدالرحمن رؤوف، وكان مكتبها في شارع الرشيد (موقع جسر السنك حالياً) حيث يشاهد المئآت من اليهود مكدسين في المكتب وعلى الرصيف، بانتظار دورهم للحصول على بطاقات السفر بواسطة الشركة الايطالية (آليتاليا) التي كانت تنقلهم الى قبرص بعدة رحلات يومية ومنها الى إسرائيل. وكان يقال في الأوساط إن عبدالرحمن رؤوف كان يتقاضى عمولة مقدارها ديناران من إحدى الجهات، عن كل (رأس) من اليهود، لقاء جهوده الشخصية في ترويج معاملات سفرهم، علاوة على القوميسيون المقرر له من قبل شركة الطيران، كما كانت الألسن (تلوك) بعض الأسماء كونهم من المنتفعين من تلك العمولة ومن أملاك اليهود المسقطة عنهم الجنسية العراقية ووكالات الشركات الأجنبية التي كانت بحيازتهم.

لم يبق في العراق بعد سنة ١٩٥٢ إلاّ عدد ضئيل من اليهود، معظمهم في بغداد وبعضهم في البصرة، وليس لهم نشاط تجاري أو اجتماعي، ومعظمهم في أخريات أيام حياتهم في الوقت الحاضر.

أن المائة وثلاثين ألف يهودي عراقي الذي هاجروا الى إسرائيل ما بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٢، أو الذين تسللوا من العراق قبل ذلك التأريخ، قد رفدوا القوّة البشرية والطاقة العسكرية والامكانيات الاقتصادية والادارية(*) لأسرائيل، وانضم الكثير منهم الى الجيش الاسرائيلي واشتركوا في حروب إسرائيل ضد العرب وضد العراق، البلد الذي آواهم ورعاهم وأحسن إليهم طيلة آلاف السنين.(*)

* * *

(*) ولعل اكثر هؤلاء اليهود عقوقاً هو المدعو يعقوب خزنه. هذا اليهودي نشأ في (أبوسيفين) ودرس الحقوق في بغداد، ثم أسقط جنسيته العراقية وهاجر الى اسرائيل سنة ١٩٥٢، وأصدر هناك جريدة عربية اسمها «الأنباء» وزاول المحاماة. وتقلد عدة مناصب ادارية حتى استقر به المقام رئيساً للقسم العربي في اذاعة اسرائيل. ولما تقاعد اقتصر عمله على برنامج خاص به تحت عنوان «ملاحظة» معظمه موجه ضد البلد الذي آواه وثقفه وأحسن اليه.

ليست بغـداد المحصـورة بين السـور والخندگ من جهاتها الثلاث ودجلـة العظمىٰ من جهتها الرابعـة ، بجسم ميّت لا يحس ولا يتنفس . إنما هي جسـم حي له رئات يستنشق منها أعـذب الهواء وأرق النسيم ، تلك الرئات هي الشرائع التي تصلها بدجلة العظمىٰ وهي التي تبعث فيها أكسير الحيـاة .

تبدأ تلك الشرائع من شريعة باب الشرقي جنوباً حتى شريعة نجيب پاشا شمالاً . ومن الطبيعي أن أبدأ الكلام عن أقرب هذه الشرائع الى محلة الدنگچية ، مسقط رأسي .

أنها شريعة رأس الجسر الواقعة الى جنوب الجسر الوحيد في بغداد يـومئذ ، وبسبب وجودها في هذا الموقع الستراتيجي كانت من أكثر الشرائع ازدحاماً . فعندما (ينگطع) الجسر لسبب من الأسباب ، يكون الاتصال بين مركز بغداد وصوب الكرخ عن طريق هذه الشريعة . وعندما يتقاطر الكرخيون على گهوة المميز للاستمتاع بالچالغي البغدادي والمقام العراقي فأنهم يستقلون (البلام) من شريعة السيف أو شريعة بيت النواب أو شريعة خضر الياس نحو هذه الشريعة . وعندما ترد البضائع في الكفف والمهَيْلات الى خـانات المـوله‌خـانه وبـاب الآغا والأسواق الداخلية فأنها تُفرّغ في هذه الشريعة ، وإذا ما أراد الكرخي مراجعة (الادارة النهرية) الواقعة أمام المدرسة المستنصرية والمجاورة الى گهوة المميز فأنه يقصد هذه الشريعة . وطبعاً فأن تزويد الماء الى الدنگچية بواسطة السقاقي يتم عن طريق هذه الشريعة أيضاً ، التي من أهم مميزاتها على سائر الشرائع أنها الشريعة الوحيدة التي فيها (دَرَج) ذو (پايات) واسعـة يسهل الطلوع عليها ، والذي خلّد هذه الشريعة في تأريخ بغـداد هي الپستة التي يتغنىٰ بهـا جوق الچالغي البغدادي في گهوة المميز التي تقول :

يـا بـو زبـون الـزري ومـطرّز بـابـره ... كـل الشـرايـع زلـگه من يمّنـا العبـره

الى الجنوب من هذه الشريعة تقع شريعة المصبغة المجاورة لخان الـدفتردار (عمـارة الدفتردار حالياً) وكانت تسمىٰ أيضاً شريعة القيصرية نسبة الى قيصرية عادلة خاتون الموصوفة في محل آخر من هذا الكتاب .

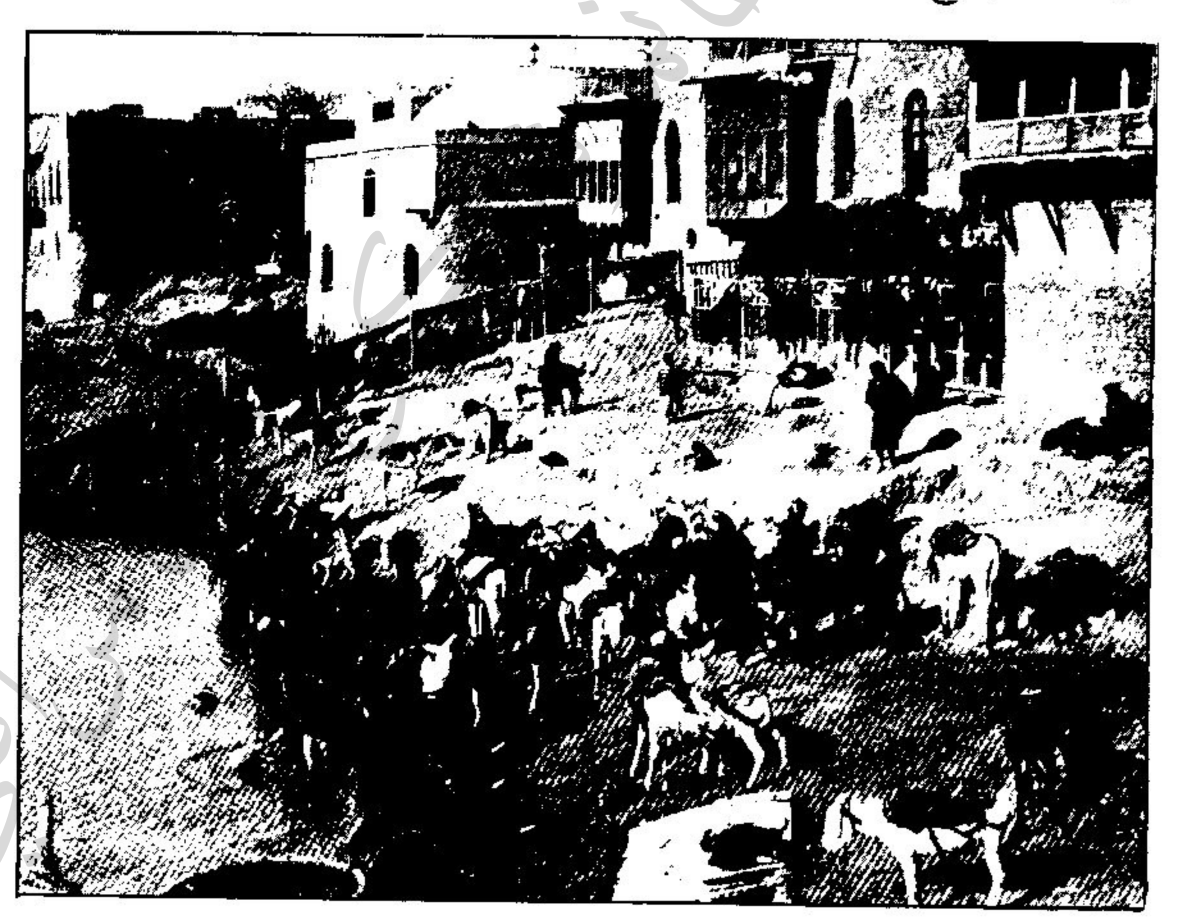
وتليها شريعة المحكمة الشرعية . كانت هذه الشريعة موجودة حتى أوائل العشرينات وكان فيها (چرد) يزود جامع عادلة خاتون الكبير والمدرسة الملحقة به(*) بالماء . وقد أوقف العمل بالچرد بعد إيصال شبكة الماء الى محلة رأس القرية وحفر بئر خاص بالجـامع . وقـد ألغيت لشريعة والچرد عندما قامت وزارة العدلية ** باعادة بناء المحكمة سنة ١٩٣٤ . وكانت شـريعة المحكمة تستعمل لتفريغ بالات الصوف من وإلى خان (المنگنة) العائد لأوقاف عادلة خاتون (موقع مصرف الرافدين ـ فرع بغداد حالياً) حيث (خوات رزنه) يعملن في غسل الصوف ونشره ثم كبسه في بالات تصدّر الى الخارج .

وبعد شريعة المحكمة تقع شريعة رأس القرية المشهورة ببيع **السمك الحي ، والتي** تعرف كذلك بشريعة بيت دلّه .

وبعد شريعة رأس القرية تقع شريعة (خان التمر) **حيث يقع المقر القديم لغرفة تجارة بغداد** ودار الدكتور چوپانيان ، وصارت تعرف بشريعة (الوالي) **لأن أحد ولاة بغداد قد سكن مؤقتاً** أحد القصور الفخمة المطلة على دجلة العظمى القريبة **من تلك الشريعة . والذي يزورها** الآن سيطلق عليها حتماً اسم (شريعة أم الزبل)!!

والى الجنوب من هذه الشريعة تقع شريعة (عمار سبع أبكار) **وكانت تعرف بشريعة بيت** الپاچه چي قبل تشييد جسر مود (جسر الأحرار حالياً) في موقعها، **ولوجود قصور بيت** الپاچه چي المطلة على دجلة العظمى هناك .

وتوجد شرائع خاصة بالقصور والدور المطلة على النهر ، ولا يسمح للعموم **النفوذ إليها** ، منها ، شريعة بيت النقيب ، وتسمى أيضاً شريعة باب الشيخ ، وشريعة **بيت مناحيم دانيال** ، شريعة بيت الباليوز (القنصلية البريطانية) شريعة بيت الحاكم العسكري (المقابل لبناية حسّو أخوان القديمة) ألخ .



شريعة سيِّد سلطان علي في العهد العثماني ، وتستخدم الحمير لنقل گرب ماء الشرب الى الأهلين ، والگفة كواسطة من وسائط النقل النهري ، كما تستعمل الشريعة لتعليم السباحة على يد المعَلِّم اليهودي (صفاني) .

ثم تأتي شريعة سيد سلطان علي ، وهي الثانية بعد شريعة الجسر من حيث الازدحام. فتشاهد حمير السقاقي مزدحمة هناك صيفاً وشتاءاً. غير أنها في فصل الصيف أكثر ازدحاماً من فصل الشتاء ، والسبب في ذلك هي أنها كانت مسبحاً أيضاً. ففي هذه الشريعة عدد من (المِعَلّمين) اليهود المختصين بتعليم السباحة للمبتدئين. ولي عن هذه الشريعة ذكريات مرّة. فكنت أقصدها حاملاً على ظهري (زوج كرب بَرْبَنْ) لأتعلّم السباحة على يد أحد المعلمين اليهود المشهورين المدعو صَفاني ، ولكني (ما دَبَّرتْها) خلافاً لأخي المرحوم عبدالستار ، على الرغم من دوامي عدة أسابيع ، فانقطعت عن التدريب وبقيت نادماً على جهلي السباحة حتى اليوم. فصرت أردّد على أولادي ما قالته العرب قديماً : تعلّم الخط والنط وسبح الشط.

إن شريعة سيد سلطان علي هي أكثر من شريعة لتعليم السباحة وملتقى للسقائين ، أنها الميناء الحقيقي لبغداد. كانت وسائط النقل بين بغداد والكرادة الشرقية شحيحة يومئذٍ ، وكان الطريق البري غير مأمون ، ويستحيل على المرء أن يتجاوز (گهوة العبد) (خلف مدرسة الراهبات حالياً) إن لم يكن مسلحاً أو مصحوباً بشخص أو شخصين ، فضلاً عن عدم صلاحية

(*) أنشئت هذه المدرسة وألحقت بالجامع من قبل الواقفة عادلة خاتون بعد وفاة والدها الوالي أحمد باشا وزوجها الوالي سليمان باشا (أبو ليله) لتدريب (الأنصار) الذين كانت تعتمد عليهم في فرض سيطرتها على الحكم في بغداد حيث اكتسبت لقب (الملكة الوالدة) كما يقول لونگريكث في كتابه (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) والذين كانوا يعلّقون على صدورهم شارات مطرّزة بالحرير مكتوباً عليها (طلاب مدرسة عادلة خاتون) لتمييزهم عن غيرهم. وفي العهود الأخيرة صارت مدرسة لتدريس الفقه الحنفي وقد دَرَس فيها كثيرون من رجال الفقه والقانون على يد أشهر علماء بغداد أمثال السيد محمود الآلوسي مفتي بغداد والسيد صبغة الله الحيدري ، وكان آخرهم الملاّ نجم الدين (المرحوم الحاج نجم الدين الواعظ مفتي بغداد الأخير) والذي كان يلقب يومئذ (مدرس العدلية) نسبة الى تلك المدرسة لأن جهة التدريس كانت مسندة إليه وبقي فيها سنين طويلة ويتقاضى رواتبه من المتولين على أوقاف عادلة خاتون.

وبعد انتقاله لوظيفة التدريس والوعظ في جامع حنّان أغلقت المدرسة فترة من الزمن ، ولما أعدنا بناء الجامع سنة ١٩٣٧ شيّدنا جناحاً خاصاً للمدرسة في الطابق الثاني فوق مقبرة العائلة لتحل محل المدرسة القديمة. ولمّا لم يوجد مرشح كفوٴ يخلف الملاّ نجم الدين لتدريس الفقه الحنفي ، فقد أغلقت المدرسة مؤقتاً. ولما اكتمل بناء الجامع والمدرسة تولى التدريس فيها الشيخ محمد حمد العسّاف ، ثم أغلقت نهائياً كمدرسة في بداية الستينات بقرار من وزارة الأوقاف بعد تصفية الوقف الذري. وبقيت جهة الوعظ في شهر رمضان والامامة والخطابة ، على حالها كما اشترطته الواقفة ، ويشغلها حالياً الشيخ محمد صالح العبيدي وممن شغل هذه الجهات سابقاً : السيد مصطفى عبدالسلام والسيد محمد صالح الجرجيس..

وقد اكتملت صيانة الجامع والمدرسة وتمّ تأثيثهما وتجهيزهما بأحدث الأجهزة والأثاث سنة ١٤٠٢ هجرية على عهد المهيب الركن صدّام حسين رئيس الجمهورية العراقية جزاه الله خيراً.

(**) لأيضاح علاقة وزارة العدل بالمحكمة الشرعية ، أذكر أن صاحبة الخيرات عادلة خاتون بنت أحمد باشا كانت قد أوصت قطعة الأرض المحصورة بين جامع عادلة خاتون الكبير ونهر دجلة العظمى لتكون محكمة للشرع الشريف وشيّدت دارا بجنب دار سكناها خصصته لسكنى القاضي. بقي الحال كذلك حتى أواخر العهد العثماني. وبعد الاحتلال سكنت عائلة عبدالقادر بك (قدوري بك جد عبدالقادر المميّز) تلك الدار فترة من الزمن ثم أخلتها لتداعيها. وبقيت المحكمة الشرعية في مكانها حتى أواخر العشرينات دون أن ينازع ملكيتها أحد. وبالنظر لتقادم الزمن فقدت استولت عليها وزارة العدلية وهدمتها وهدّمت دار القاضي وأعادت بناء المحكمة في وضعها الحالي سنة ١٩٣٤. وآخر من سكن تلك الدار من القضاة هو المرحوم محمد سعيد الحديثي ، قاضي بغداد الأسبق. وقد سمي الحمّام المجاور للمحكمة الشرعية حمام القاضي (موقع مرگب التجار حالياً).

الطرق لسير العربات ، وكانت بدائية يومئذ. لذا فقد تأسست (ماطورات) صغيرة لنقل الركاب بين بغداد والكرادة الشرقية (سبع قصور ، بوليسخانه ، المناطق المجاورة لسدة (أبو خضوري).

لقد استعملتُ هذه الماطورات مرتين ، مرة لتلبية دعوة أصدقائي وأبناء صفي في الثانوية عزة الحاج عيسىٰ الخضيري وأخيه المرحوم خطّاب في دارهم في الكرادة. ومرة أخرىٰ لزيارة أحد أقربائنا المرحوم حسين عوني خليل ، وكان يومئذ معاون شرطة الكرادة ومركزه البوليسخانه. فدخل عليه رئيس عرفاء الدورية ، يصحبه رجل مكبّل اليدين بالكلبچه ولاف چراوية لفة عَدّامْ ومتحزّم بسير على دشداشة بيضاء وحافي القدمين. وبعد أن أدىٰ رئيس العرفاء التحية قال له :
سيدي : إن الدورية قد نصبت كميناً لهذا الشخص في طريق الكرادة بين البساتين وألقت القبض عليه ، أنه يهودي يحمل هذا الخنجر ويسلّب الناس. فطفر الدم برأس المعاون ، فما كان منه إلّا أن هجم عليه وأخذ (بكفّخه) ويقول له :
ـ وَلَكْ هذا موآخر زمان ، يهودي يسلّب الاسلام؟

بعد شريعة سيد سلطان علي تقع شريعة المربعة (مقابل گهوة ملاّ حمّادي حالياً) ، وتقع بالقرب منها شريعة السنك القريبة من (عگد الخناگ) الذي كان يعرف قديماً (عگد بوران). إنّ محلة السنك هي آخر المناطق المعمورة في بغداد يومئذ ، باستثناء كنيسة سان جورج القريبة من الباب الشرقي.
أما الشريعة الأخيرة في حدود بغداد فهي شريعة باب الشرقي وهي ليست ذات بال لقلة التردد عليها واستعمالها لأي غرض مهم سوىٰ وِردْ الحيوانات وغسل (الخس) الذي يزرع في بستان الخس (البتاويين حالياً).

* * *

أعود الآن الى الشرائع الواقعة الى الشمال من الجسر ، وأولها شريعة المكتب الواقعة أمام الطريق الفاصل بين القشلة ومكتب (الأعدادي العسكري) (بناية المحاكم المدنية حالياً) ويستعمل هذه الشريعة على الأكثر القادمون من صوب الكرخ من موظفين وطلاب ممن يستقلون (البلام) من شرائع الكرخ المقابلة لها مثل شريعة خضر الياس وشريعة جامع القمرية وشريعة باب السيف. كنا نستقل (البلم) من شريعة المكتب الى شريعة المجيدية عند ذهابنا الى الصرافية ، ومن هناك على ظهور الحيوانات. فالبلاّمة هم كأصحاب سيارات التاكسي أو سواق پاصات (فرخ النيرن) أو (الكوستر) ، فكل له خط لا يحيد عنه ولا يعمل في غيره. فان البلاّم الذي يطلع (نياحه) ضد مجرىٰ الماء هو غير البلاّم الذي ينزل(حدّار)مع مجرىٰ الماء ، والأجرة تختلف كثيراً بين الاثنين.

الى الشمال من شريعة المكتب تقع شريعة حار البغداديون في تسميتها فالبعض يسميها شريعة الغالبية، والبعض الآخر يسمونها شريعة الميدان، وبعضهم يسميها شريعة البقچه (لقربها من البقچة القريبة من گهوة سيد بكر). وبعضهم كان يسميها في العهد العثماني شريعة (البوز خانه) لوجود ماكنة صنع الثلج (البوز) التي نصبها الوالي مدحت پاشا هناك، ثم صارت تسمىٰ شريعة الصنائع لقربها من مدرسة الصنائع (قصر الثقافة والفنون حالياً) وتسمىٰ أحياناً شريعة القلوب (النادي العسكري حالياً).

وتأتي بعد هذه الشريعة الشريعة الثالثة الكبيرة، وهي شريعة المجيدية، والحديث عنها ذو شجون. سميّت هذه الشريعة بالمجيدية نسبة الى قصر المجيدية الذي كان قد شيّد في بستان النجيبية لمناسبة زيارة الشاه ناصرالدين شاه العجم لبغداد، وبعد انتهاء الزيارة نقل الى هذا القصر المستشفىٰ العسكري الذي كان في بناية النادي العسكري الحالي. وبعد الاحتلال البريطاني نقل المستشفىٰ العسكري الى الكرادة (الزويّة) وبقي القصر للمستشفىٰ الملْكي (وليس الملَكي كما يظن البعض) فقد رأيت على بابه الخارجي اسم المستشفىٰ مكتوباً بالانگليزية Civil Hospital، لتمييزه عن المستشفىٰ العسكري. وبقي أكبر مستشفيات بغداد والمستشفىٰ التعليمي لكلية الطب، حتى تهديمه وتشييد مدينة الطب بمكـ ـه.



الطبيب النطاسي الدكتور مهدي فوزي الذي أنقذ حياتي في مستشفىٰ المجيديّة، بالتعاون مع مدير المستشفىٰ الدكتور عبدالرحمن الجوربه‌چي، عند اصابتي بالقرحة الملعونة سنة ١٩٦١

(التقط التصوير بواشنطن سنة ١٩٤٧)



الدكتور عبدالرحمن الچوربچي، مدير مستشفى المجيدية الذي لو لا لطف الله ورحمته وعناية (رحومي) ورعايته لكان مصيري مصير المستر نانبشو وعبدالله الدليمي لما أصبت بالقرحة الملعونة ورقدت في ذلك المستشفى شهراً من عمري!

لقد كانت شريعة المجيدية في الأيام الخوالي مغطساً لجمس المعدان ومسبحاً وموارد لخيول كتيبة الخيّالة (السواريّه). فوقع في مستشفى المجيدية ما حمل السلطات على منع الجاموس من التردد عليها وحصره في مستنقع (شطيط) الواقع خلف السدة الشرقية (قرب موقع بغداد الجديدة حالياً) ونقل مسابح وموارد كتيبة الخيّالة شمالاً الى العلوازية والصرافية. فقد صادف أن دخل مستشفى المجيدية المستر نابنشو وزير أمريكا المفوض في بغداد لأجراء عملية جراحية أصيب على أثرها بمرض (الگزاز) وتوفي، ثم توفي المتصرّف عبدالله الدليمي بنفس المرض حيث أن (فايروس) مرض الگزاز يتكاثر عادة في (الروث) وغيره من فضلات الحيوانات. وعندئذ قررت السلطات منع الجاموس وخيول الجيش من التردد على شريعة المجيدية.

لقد أمضيت في مستشفى المجيدية ذاك شهراً من شبابي مصاباً بالقرحة الملعونة، ولولا لطف الله ورحمته ورعاية مديره الدكتور عبدالرحمن الجوربه‌چي وعنايته، ونطاسة طبيبي الخاص وصديقي الدكتور مهدي فوزي وبراعته، لما تركت المجيدية ومستشفاها في نفسي هذه الذكرى المرّة والحلوة في آن واحد.

ان الحديث عن شريعة المجيدية يجرني الى الحديث عن شاطئ المجيدية المجاور لها، وهو حديث ذو شجون أيضاً. ففي اوائل العشرينات اخذ مجرى دجلة العظمى ينحرف قليلاً نحو الغرب في الجرف المحصور بين المتوليات (العطيفية حالياً) والجعيفر وخضر الياس. وقد سبب هذا الانحراف والتآكل ترسبات رملية في شاطئ المجيدية المقابل، فتكوّن هناك شاطئ طويل وعريض اشتهر بشاطئ المجيدية الذي تداولته الالسن طويلاً في بغداد يومئذ. اذ انتبه اليه بعض اولي الامر والمتنفذون في الدولة، واقدموا على افرازه وتقسيمه الى عدة قطع وتقاسموها فيما بينهم، تماماً كما فعل زملاء لهم من بعد، عندما تقاسموا اراضي الوزيرية العائدة اصلاً لوقف عادلة خاتون ولملاكين آخرين، كما سيأتي الكلام عنها في الفصل القادم. فدفعوا للخزينة مبلغاً رمزياً مقداره سبع آنات عن المتر الواحد، (الآنة هي جزء من ستة عشر جزءاً من الروبية الهندية وتساوي أربعة فلوس حالياً) وبعضهم استحوذ على اكثر من قطعة واحدة وباع الأخرى. ومن الذين تملكوا أو اشتروا من المالكين، أو شيدوا الدور على شاطئ المجيديّة جعفر العسكري، تحسين العسكري، محمد الخضيري (اشترى أحد دور جعفر العسكري) علي رضا العسكري (باع قطعته الى توفيق شكرچي) الدكتور أنور القايماقچي (اشترى احدى القطع العائدة لجعفر العسكري)، ريجينة مراد (اشترى قصرها بعد وفاتها نوري فتاح)، منذر فتاح، سليمان فتاح، جميل المدفعي، علي جودة، عارف قفطان، مولود مخلص، ابراهيم عاكف الألوسي، مرزا فرج، ورؤوف الشيخ داود (اشترى قطعة سليمان رحمة الله وكيل جعفر العسكري). ولما استملكت هذه الدور لأغراض المرحلة الثانية لمدينة الطب دفعت الدولة مبالغ خيالية لأصحابها. واعلم ان إحدى الدور قد استملكت بمبلغ ١٠٤٫٠٠٠ دينار لأغراض مدينة الطب مع ان مالكها قد دفع سبع آنات عن المتر الواحد!!

لقد سمي الشارع المحاذي لهذه الدور (شارع العسكري)، وبعد ثورة ١٤ تموز استبدل

باسم (شارع دجلة) والواقع انه ليس شارعاً، انما هو سدة الري الاميرية التي تبدأ من المجيدية مارة (بالدگرمان) وبستان الربع (محطة كهرباء الصرافية حالياً) ثم اسالة الماء، ثم محلج القطن ثم (تين الصرافية) ثم (حريجة) ثم بستان (النشو) في الصرافية الغربية، والاحرى تسميته بشارع المخرّم، تخليداً للاسم التاريخي للمنطقة التي يمرّ بها.

ان الدور والقصور التي شيدت على شاطئ المجيدية الأميري كانت من افخم ما شيد على دجلة العظمى، وكان افخمها قصر (ريجينة مراد) الذي لم يشيد نظير له في المخرم (العلوازية والصرافية حالياً) منذ العهد البويهي والسلجوقي، وقد شيد بالمال الحرام، ولم تهنأ صاحبة القصر بالسكنىٰ بقصرها، ففي ليلة من الليالي الملاح وتحت تأثير الخمر استيقظ ضمير زوجها الثاني المهندس عبدالكريم،قبل انتقالها الى القصر الجديد،وانتقم لكرامته البغدادية، فأطلق النار عليها وعلى نفسه وسقطا مضرجين بدمائهما. وقد قال الملا عبود الكرخي عن تلك الحادثة يومئذ:

آه يـالـديـنـار من جيـبـي طـفـر   صبّحت ريجينـه مضروبـه بـطـبـر

ان آخر شريعة في بغداد هي شريعة نجيب پاشا، وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى احد الولاة العثمانيين، وهي المنطقة المحصورة بين الصرافية والوزيرية وهيبة خاتون، واصبحت واحدة من المحلات العشر التابعة لقضاء الاعظمية واكبرها مساحة واكثرها نفوساً واحدثها عمراناً، وسجلت في سجلات طابو الاعظمية تحت تسلسل (شريعة نجيب پاشا) فبقي اسمها تتداوله الالسن وتتناقله المخابرات والسجلات، مخلدة اسم اخواتها شرائع بغداد التي عفّى عليها الدهر.

* * * * *

كانت الدنگچيّة وجديد حسن پاشا بمثابة شارع الصحافة ـ الذي يسمىٰ ـ (fleet street) بالنسبة للندن. فقد تمركزت فيها المطابع وما يصدر عنها من صحف ومطبوعات مختلفة. ان نواة المطابع كانت مطبعة الحكومة التي شيدت بعد الاحتلال البريطاني الى جوار المتحف العراقي القديم (وهي حالياً تضم المتحف البغدادي في شارع المأمون) بعد اقتطاع جناح من الدار التي كنا نسكنها في الدنگچية. ولم يكن في بغداد في العهد العثماني سوى مطبعة الولاية الواقعة قرب السراي والتي أسسها الوالي مدحت پاشا لطبع السجلات والاوراق الرسمية وجريدة (الزوراء) التي كانت تصدر يومئذ باللغتين العربية والتركية. وبعد سقوط بغداد أغلقت المطبعة وتوقف اصدار الجريدة، فقامت سلطات الاحتلال بتأسيس مطبعة الحكومة التي تولت طبع السجلات والاستمارات والمحاضر والانظمة والقوانين واصدار جريدة الوقائع العراقية. وقد عينت السلطة المحتلة موظفاً بريطانياً اسمه المستر ألبرت ميسن مديراً لهذه المطبعة وبقي في هذا

المنصب حوالي العشر سنوات وتزوج من فتاة مسيحية اسمها كاميل أيّوب ثم أُلغيت خدماته وعين السيد قاسم محمد مديراً لهذه المطبعة.

وبعد غلق مطبعة الولاية وتوقف صدور جريدة الزوراء وغلق مطبعة الشابندر التي أسسها محمود چلبي الشابندر في أواخر العهد العثماني وكان موقعها قهوة الشابندر الحالية، أصدر السيد رشيد الصفار، والذي كان يعمل مع فهمي المدرس محرراً في جريدة الزوراء، جريدة (الزهور) ثم أسس مطبعة لطبع الكتب والصحف العربية سمّاها (مطبعة الآداب) وكانت واقعة في الدار التي تسكنها عائلة أكرم أحمد في دربونة الدنگچية. وكان رشيد الصفار طويل القامة مهيباً، وكان يرتدي الصدرية (اليلك) حتى مع البدلات الصيفية كسائر الشخصيات الرسمية في العهد العثماني، وهو والد المحامي سعيد الصفار ومدير الشرطة السابق عبدالحميد الصفار. وكانت هذه المطبعة والمطابع الأخرىٰ تدار يومئذ باليد من قبل عمال عرفوا بسواعدهم المفتولة، كان اشهرهم العامل (مصطفىٰ). ثم تأسست مطبعة اخرىٰ بجوار بيت عاصم الچلبي (مقابل مدخل سوق الصياغ حالياً) وأذكر من الذين كانوا يترددون عليها جبران ملكون الذي أصدر بعدئذ جريدة الأخبار وأصبح من كبار الصحفيين العراقيين وأصحاب دور النشر في بغداد وناجي صالح الذي أصبح صحفياً وأصدر جريدة «مرآة العراق» الأسبوعية. وفي الزقاق المتفرع من شارع الاكمكخانة (المتنبي حالياً) مقابل كتّاب (لاله هراتي) تقع مطبعة جريدة العراق اليومية التي كان يصدرها رزوق غنام، وكانت أكثر الصحف اليومية انتشاراً في بغداد. ثم صدرت جريدة (المفيد) لصاحبها إبراهيم حلمي العمر، وكانت تطبع في مطبعة دار السلام المقابلة للمدرسة الثانوية، والتي كانت تطبع فيها جريدة الرافدين لصاحبها سامي خونده ثم كثرت المطابع وتأسست في مختلف محلات بغداد غير الدنگچية وجديد حسن باشا. فكانت جريدة الاستقلال، التي يصدرها عبدالغفور البدري ومديرها المسؤول قاسم العلوي، تطبع في مطبعة الاستقلال الواقعة في الزقاق الضيق المقابل للمدرسة الثانوية المركزية، ومطبعة الفلاح التي أسسها عبداللطيف الفلاحي لطبع جريدة الفلاح، والتي كانت تقع في دربونة خلف المتحف العراقي، ومطبعة جريدة العالم العربي التي يصدرها سليم حسّون تقع في شارع النهر في راس القرية، ومطبعة جريدة الأهالي التي يصدرها جماعة الأهالي تقع في الشارع الواقع خلف المدرسة الثانوية. وقد أسس الملاّ عبود الكرخي مطبعة تقع في الصالحية (رأس جسر مود القديم/جسر الأحرار حالياً) لطبع جريدته (الكرخ).

وفي شارع الرشيد (السنك) تقع مطبعة جريدة الأوقات العراقية التي تصدر باللغة الانگليزية ويحررها (جاك شاؤول) وبالقرب منها مطابع جريدة الشعب التي يصدرها يحيى قاسم.

وفي الثلاثينات تأسست مطبعة الزمان الواقعة في محلة الميدان (مقابل دائرة اسالة الماء القديمة) التي كانت تطبع فيها جريدة «الزمان» و«الطريق» وقد أسسها توفيق السمعاني. وفي نفس المنطقة تقع المطبعة التي تطبع فيها جريدة البلاد لصاحبها عميد الصحفيين

العراقيين روفائيل بطي. وفي الزقاق الواقع خلف جامع السراي تقع مطبعة «دار السلام» التي كانت تطبع جريدة المنار التي كان يصدرها عبدالعزيز بركات. وبالقرب منها تقع مطبعة «دار التضامن» التي تطبع فيها جريدة البلد لصاحبها الأستاذ عبدالقادر البرّاك وفي الزقاق الضيق الواقع خلف جامع السراي تقع مطبعة السجل التي تطبع فيها جريدة السجل ثم جريدة «الفجر الجديد» التي كان يصدرها الحاج طه الفياض.

وهناك مطابع أخرىٰ على جانبي شارع الأكمكخانة (المتنبي حالياً) وفي الأزقة المتفرعة عنه أو المؤدية اليه ما زال بعضها في مواقعها القديمة كما كانت في العشرينات والثلاثينات، حيث كان الصحفيون العراقيون أو المحسوبون على الصحافة (يروشون) في الدنگچية وجديد حسن باشا وسوگ السراي، وشارع الاكمكخانه، وهم منهمكون في إصدار صحفهم ليتلقوا في اليوم التالي بلاغاً من دائرة المطبوعات بالانذار أو التعطيل أو إلغاء الأمتياز أو السجن أو النفي لنشرهم مقالاً ضد السلطة الحاكمة.

* * *

لقد كان سيف السلطة الحاكمة مسلطاً على رقاب الصحف العراقية في كافة العهود، بدءاً من العهد العثماني، ثم عهود الاحتلال والانتداب وانتهاءاً بعهود الحكم الوطني، فما تكاد الصحيفة تصدر بضعة أعداد حتى يهوي عليها سيف السلطة، ويعطلها مؤقتاً أو بصورة دائمة أو يلغي امتيازها نهائياً. وبعض الصحف كانت تتحايل على السلطة فتصدر باسم آخر، أو أن يصدر (صدىً) او (صوتاً) او (لواءً) لها كما حصل مع (صدىٰ بابل) و (صدىٰ الاستقلال) و(لواء الاستقلال) و(صدىٰ البلاد) و(صوت الأهالي) و(صدىٰ الكرخ).. الخ. أو أن يصدرها صاحبها باسم جديد كما حصل مع صحف توفيق السمعاني (الطريق) و(الزمان) وهي نفس الصحيفة وتطبع في نفس المطبعة وتسير على نفس السياسة، ولها نفس المدير المسؤول: المحامي محمود نديم إسماعيل، وكما يقول المثل الغربي: «انه الخمر القديم في قنينة جديدة».

بلغ عدد الصحف التي صدرت في العهد العثماني في مختلف الأوقات أكثر من خمسين صحيفة، والتي صدرت بعد ذلك العهد وحتى الآن جاوزت عدة مئات ولم يبق اسم يليق ان يتصدر الصحيفة إلاّ واستعمل، وقد عزّت الأسماء لدرجة أن حسين الرحّال لم يجد اسماً لصحيفته غير اسم (الصحيفة) كما تدنت الأسماء الى أدنىٰ درك، فلم يجد ميخائيل تيسي اسماً لصحيفته الهزلية غير اسم (كنّاس الشوارع).

فلو استعرضنا الصحف التي كانت تصدر في بغداد في العهد العثماني، سواء باللغة التركية أو باللغة العربية أو بهما معاً، لوجدناها قد تجاوزت الخمسين، كما ذكرنا آنفاً. فلما احتجبت جريدة (الروضة) التي كان يصدرها الشاعر الحاج عبدالحسين الأزري، حلت محلها جريدة (المصباح الاغر) ولما تجاوزت هذه الصحيفة الحدود المرسومة من قبل حزب الاتحاد والترقي الحاكم، لنشرها القصائد الحماسية التي تلهب مشاعر العراقيين ضد الاضطهاد والاستبداد والتمييز العنصري، فقد عطلت ونفي صاحبها الى مجاهل الأناضول. ولما عاد الى

العراق بعد الحرب العالمية الأولى صار ينشر قصائده في صحف اخرى او يلقيها في المظاهرات والاجتماعات. ولما قامت ثورة العشرين(*) شاهدت الأزري وهو يلقي قصيدة في جمع من الناس بالقرب من جامع الأصفية في سوگه المولـه خانـه والناس تهتف وتصفق وتصيح (أعد. أعد) كلما تلا بيتاً حماسياً من قصيدته التي لم تجرأ صحيفة من الصحف يومئذ على نشرها. ولما جاهر الحاج عبداللطيف ثنيان ومحمود الطبقچلي وأحمد عزة الأعظمي وسليمان الدخيل وغيرهم من الصحفيين الوطنيين بعدائهم السافر ضد حزب الاتحاد والترقي وطالبوا باللامركزية، تعرضوا لأقسى أنواع الاضطهاد والملاحقة، حتى آل الأمر بأحد الولاة الى استدعاء أحد الصحفيين الوطنيين الى السراي وأشبعه ركلاً ورفساً لتعرضه بالحزب الحاكم.

أما في ايام الاحتلال والانتداب فلم تكن معاناة الصحفيين بأقل منها عما كانت عليه في العهد العثماني.

فلما نشرت جريدة (الرافدين) التي كان يصدرها سامي خونده مقالا شديداً بمناسبة ذكرى موقعة (ميسلون) هاجمت فيه فرنسا هجوماً لاذعا اعتبرته السلطة الحاكمة مسيئاً للعلاقات بين فرنسا والعراق، ولما صارت الصحيفة المذكورة تحرض على ثورة العشرين وتنشر المقالات المثيرة، عطلت نهائياً ونُفي صاحبها الى معتقل (هنجام).

(*) من ذكرياتي الاخرى عن ثورة العشرين الحادثة التالية:

كنا نلعب في مدخل دربونة الدنكچية من جهة شارع الجسر (عگد الصخر) عصر يوم من أيام رمضان وكان في موسم الصيف، فأقبل عبدالرحمن خضر (المحامي والحاكم ومدير الأوقاف العام بعدئذ) مهرولاً ومتهيّجا ومتحمّساً وأخذ يناشد الجالسين في المقاهي ويستحثهم للتوجه الى جامع الحيدرخانة قائلاً لهم «اخوانكم المسلمون ينتظرونكم في جامع الحيدرخانة للاحتجاج على الاحتلال الانكليزي والمطالبة بالاستقلال» وفي رمشة عين وانتباهتها غادر الصائمون المقاهي على شكل مظاهرة صارخة، يتقدمها عبدالرحمن خضر، وهم يهتفون: الله أكبر. الله أكبر. وتبعنا نحن الصبيان المظاهرة يحمل بعضنا العصي والجرايد (جمع جريدة وهي السعفة المجردة من الخوص) والبعض الأخر يحمل الحجار والطابوگ، وما كادت المظاهرة تقترب من دربونة الخشالات حتى واجهتها مظاهرة أخرى قادمة من جهة الميدان ومعها النجار الاخرس (لا يحضرني اسمه) قادماً من گهوة سيد بكر قرب باب القلعة والتي يتواجد فيها زملاؤه الخرسين، فهجم على احدى المدرعات الانكليزية وهو يحمل (توثية) فأصيب برصاصة طرحته أرضاً واستشهد حالاً. وكان الخطباء والشعراء داخل جامع الحيدرخانة يلقون القصائد النارية والخطب الحماسية، ولما اشتد إطلاق النار التي كانت تطلق بصورة عشوائية وعلى غير هدى تفرقت المظاهرة، وتسللنا نحن الصبيان في الدرابين المقابلة لجامع الحيدرخانة، وعدنا الى بيوتنا في الدنگچيّة لنجد الاهل قلقين علينا، بعد أن سمعت بغداد عن بكرة أبيها هتافات المتظاهرين وأصوات الطلقات ولعلعات رشاشات (لويس) فباتت بغداد ليلة رمضانية قلقة كئيبة عندما أخذت السلطات تلقي القبض على زعماء المظاهرة وبعض الخطباء والشعراء الذين ألقوا الخطب والقصائد داخل الجامع، أذكر منهم علي البزركان والشيخ أحمد الداود ومهدي البصير وعيسى عبدالقادر وعبدالرحمن خضر وكاظم الدجيلي وغيرهم وارسلتهم الى جزيرة هنجام. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فلما شيعت جنازة الاخرس في اليوم التالي تشييعا حماسياً بمظاهرة كبرى اعتبرتها السلطات تحدياً سافراً لها، ألقت القبض على عدد آخر من الزعماء الوطنيين وأرسلتهم الى هنجام أيضاً.

ولما نشر إبراهيم صالح شكر مقاله المشهور (حفنة تراب على قبر مزاحم) في جريدته (الناشئة الجديدة) التي كان مديرها المسؤول المحامي عبدالرزاق شبيب، عطلت الجريدة وألغي امتيازها، ومن الطبيعي أن يتخذ هـذا الأجراء بحقها، اذ كان مـزاحم الباچـهچي وزيراً للداخلية في وزارة نوري السعيد سنة ١٩٣٠. فهجر إبراهيم صالح شكر الصحافـة وعين قائمقاماً في الاقضية، آخرها قضاء الفلوجة.

ولما أصدر داود العجيل جريدة (البدائع) وكان يتشفى بمقتل (لچمن)، كلما مرت ذكراه السنوية في ١٢ آب ١٩٢٠، وكلما مرَّ داود العجيل في (أبو منيصير) في طريقه الى مسقط رأسه (الصگلاوية) ويتفاخر ببطولات أخواله رؤساء عشيـرة زوبع الـذين قتلوا لچمن ويستفز الانكليز بذلك، عطلت جريدته نهائياً.

ولما هاجم روفائيل بطي معاهـدة (١٩٣٠) في جريـدة البلاد عـطلت الجريـدة ونفي صاحبها الى خارج بغداد.

ولما استمر عبدالرحمن البنا في نشر قصائده الحماسّية في جريدتـه الاسبوعيـة (بغداد) عطلت مراراً.

ولـمـا نشـر المحـامي محمـد عبدالحسين مقالـه المشـهور (أمـر دبـر بليـل) بمناسـبة مصـرع الملك غازي صـودرت الجـريـدة وألغي امتيـازها.

ولما تجاوز نوري ثابت حدود جريدته الهزلية (حبزبوز) وتدخلت بالسياسة عطلت لمدة شهر واحد ثم احتجبت بوفاة صاحبها. ولم يسلم من مقصلة التعطيل الأداري وإلغاء الإمتياز من الجرائد الهزلية غير جريدة (أبو حمد) لصاحبها عبدالقادر المميّز ومجلة (قرندل) لصاحبها صادق الأزدي، فقد ماتتا ميتة طبيعية.

ولما تجاوز فاضل قاسم راجي حدود امتياز جريدته الهزلية الأسبوعية (قزموز) عطلت الجريدة وألغي امتيازها.

ولـمـا أخـذ السـائح العـراقي يـونـس بحـري يتـدخـل بمـا لا يعنيـه في جـريـدتـه (العقـاب) لقي ما لايرضيـه، فعطلت الجـريـدة مؤقتاً ولم تستأنف الصـدور الّا بعـد أن تعهـد صـاحبها بأن (يجـر الجَبـة)(*).

وحتى جريدة الأوقات البغدادية التي كانت تصدر بالانكليزية فقد تعطلت في وقت من الأوقات ثم عادت الى الصدور باسم (الأوقات العراقية).

وهذا غيض من فيض، فقد تكرر التعطيل الاداري في مناسبات كثيرة أخرى مع جرائد (المفيد - قبل أن يتولى صاحبها إبراهيم حلمي مديرية المطبوعات) والاستقلال والأهالي والكرخ

(*) جَر الجبّة: قول بغدادي معناه التخفيف من الاندفاع، أو التزام الصمت التام.

وبابل والعراق والأخاء الوطني والعالم العربي واليقظة والحرّية وغيرها من الصحف التي كانت تصدر في الثلاثينات والأربعينات والتي لا تدخل تحت حصر.

وبغية التخفيف من وطأة التعطيل الاداري التعسفي التي تضمنّها قانون المطبوعات النافذ المفعول يومئذ عدل القانون وصارت الحكومة تلجأ الى القضاء لمعاقبة أصحاب الصحف بفرض عقوبة السجن أو الغرامة لكمّ أصواتهم.

ولعل أكثر من عانى من الصحفيين من ذلك هو الملاّ عبود الكرخي صاحب جريدة الكرخ، سواء من التعطيل الاداري أو الاحالة الى المحاكم أو بسبب استقالة المدراء المسؤولين للجريدة، (لمكسورة) قام بها الكرخي في احدى قصائده، إما بالتعريض بأحد المسؤولين أو التدخل بالسياسة أو القذف بأحد الاشخاص.

أحيل الكرخي ذات يوم الى محكمة الجزاء لقذف الشاعر محمد مهدي الجواهري في احدى قصائده المنشورة في جريدة الكرخ. وكان حاكم الجزاء عبدالرحمن خضر. ولما ناقش الحاكم القصيدة التي ورد فيها اسم (الجواهري) أفاد الملاّ عبود بأن هذه القصيدة قديمة نظمت في زمن (العصملي) عن صاحب أوتيل الجواهري. ولما بين الحاكم بأنه لايوجد في ذلك الزمان أوتيل بذلك الاسم، التفت الكرخي الى شاهد الدفاع نوري ثابت وقال له:

- نوري، تره هاي ما جتي ببالنه!

ولما أدرك الكرخي بأن الحاكم سيصدر حكماً شديداً عليه، وسط أحد أصدقاء الحاكم، وهو إبراهيم عزيز، لتخفيف الحكم، ولكن الحاكم (حزّم) الكرخي بحكم شديد جداً، فالتقى الكرخي بالوسيط ابراهيم عزيز الذي كان يعرف بين أصدقائه تحبباً (عنرنر) فتعاتبا وتلاسنا وتشاتما لفشل وساطته عند الحاكم، فنظم بحقه قصيدة مطلعها:

چانت أصغر صارت أكبر   من توسّطها عنرنر
من توسطها عَرارة   چانت الشغلة شرارة
وصارت بكبر المنارة   من تولاها ها الأغبر

غير أن متاعب الكرخي الصحفية كانت مع المدراء المسؤولين للجريدة أكثر من غيرهم، إذ كان عليه أن يجد مديراً مسؤولا ليتمكن من إصدار الجريدة التي هي مورد رزقه. وكان أحد المدراء، مكي الجميل قد استقال عقب استقالة توفيق الفكيكي، وحل محله المحامي قطب الدين، الذي استقال هو الآخر بسبب نشر احدىٰ قصائد الكرخي التي تستوجب المسؤولية القانونية. فنظم الكرخي قصيدة عن قطبي المعروف بقصر قامته:

آخ ، اوف ، يا ربّي   هم رجع يستغفي «قطبي»
«مكي» يرضى و «قطبي» يزعل   ها لمرعبل ها المدعبل
طُرُخ تسعة اشهر فلا كمّل   طوله بطول (دبي)

فأقام المحامي قطب الدين الدعوى على الملاّ عبود بتهمة القذف، وكان الحاكم يومئذ عبدالعزيز الخياط، فسأله عن معنى الشطر: (طوله بطول دبي) وما المقصود من (دبّي). أفاد الملاّ عبود بأن (دبّي) هذا هو يهودي قصير القامة (قزم) يشغل دكاناً صغيراً في باب خان دلّة لبيع الخردة فروش،(*) وهو معروف لدى الذين يترددون على السوق، وقد استشهدت به لقصر قامته التي هي بطول قامة المدعي، ولا اعلم سبب اعتراض المدعي؟ فهل أن اعتراضه هو لتشبيهه (بدبّي) الذي يطاوله في الطول، أم لأن دبّي يهودي؟ (الواقع أن الكرخي كان يقصد شيئاً آخر غير [دبّي] لا يجوز نشره في الصحف مراعاة للآداب العامة). ولم يستقر الكرخي من متاعب المدراء المسؤولين الى أن تولىٰ عبدالأمير الناهض مسؤولية الجريدة.

* * *

تولىٰ منصب مدير المطبوعات (مدير الدعاية بعدئذ) في فترات مختلفة ثلاثة مدراء يحملون إسم «إبراهيم» هم: تحسين إبراهيم وكمال إبراهيم وخليل إبراهيم، ولما ورد ذكرهم في أحدى المناسبات، أنبرىٰ أحد المعروفين بخفة الروح وحسن الدعابة، فقال: «واصطفينا آل إبراهيم على العالمين!!».(**)

* * *

إن هؤلاء كلهم: مدراء المطبوعات ومدراء الدعاية وأصحاب الصحف ومدراءها المسؤولين والمحررين والكتاب والأدباء والشعراء وأصحاب المطابع ومرتبي الحروف وباعة الصحف والموزعين والحكام والمحامين الذين يترافعون في الدعاوي المقامة على أصحاب الصحف والمدراء المسؤولين، والتي تنظر في بناية المحاكم مقابل القشلة: أن كل هؤلاء «يروشون» يومياً في الدنگچية وجديد حسن پاشا وسوگ السراي وشارع الجسر وشارع الأكمكخانه، إذ «كل الطرق تؤدي الى روما» والى (فليت ستريت) البغدادية!!.

* * * * *

(*) هذا الدكان هو واحد من دكانين يقعان على جانبي باب خان دله الكبير (مركز الشرطة أيام الاحتلال البريطاني) رقمها ٨٣ و ٨٧ زقاق ٢٩ محلة ١١٠ حي الرشيد وتبلغ مساحة الواحد منها نصف متر مربع ولا يتسع إلاّ لمستأجر مثل (دبي)!

(**) القول منتزع من الآية الكريمة من سورة آل عمران: «ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين».

بدأت دراستي في الدنگچية وأنا دون السادسة من عمري، ولا أذكر على وجه التحديد متى بدأت، غير أني أذكر أنها بدأت قبل سقوط بغداد، عندما انتسبت الى كُتّاب الملاّ إبراهيم في جامع عادلة خاتون الصغير، وكلما أتذكر ذلك الكتّاب والحالة المزرية التي كنا عليها (يطلع دخان من خشمي).

كان للملاّ إبراهيم بن الملاّ احمد بن الحاج فليح الشيخلي كُتّاب في مسجد حَسْبَ الله الواقع في محلة تحت التكية، وانتقل قبل الحرب العالمية الأولى الى جامع عادلة خاتون الصغير، حيث عُيِّن «إمامي» في الجامع، فانضم الى كتّابه معظم أبناء محلة الدنگچية، إذ لم يكن في هذه المحلة ولا المحلات المجاورة لها كُتّاب غيره باستثناء الكتاب الصغير في جامع عثمان أفندي الذي يديره الملاّ جليل. ولما توفي والده الملاّ أحمد انتقل الى (الحجرة) الواقعة في سوق الچوخچية والتي يقال إنها من بقايا المدرسة النظاميّة التي شيدت في العهد العباسي.

لم يكن جامع عادلة خاتون الصغير سوى مسجد صغير أنشأته الواقفة عادلة خاتون بعد إكمال بناء الجامع الكبير الواقع مقابل المحكمة الشرعية سنة ١١٦٨هـ . ولما توفيت عادلة خاتون سنة ١١٨٢هـ ، كان الجامع الصغير قد اكتمل بناؤه ايضاً. وهو يتكون من الحرم والطارمة الواقعة أمامه وغرفة الأمام وغرفة الخادم والمرحاض. وتتوسطه حديقة صغيرة فيها ثلاث نخلات وهي التي سبق الكلام عنها. وكان الطلاب يدرسون في الحرم والطارمة. كنا نجلس على باريّة (حصيرة من القصب) فوق ارضية رطبة للغاية وكأنها مرشوشة بالماء طول الوقت، وعندما يحين وقت الصلاة كنا مجبورين للمشاركة فيها مع المصلين. وفي شهر رمضان الذي كان يحلّ حينذاك بأشهر الصيف كنا نجبر على الصيام ونبقى في الجامع الى ما قبل الإفطار(*). ومن يتظاهر بالإفطار أو يبلل ريگه أو يتمضمض بالماء، يأكل خمس خيزرانات، وفي الشتاء كان (الخلفة) يوقد النار في الطارمة لنتدفأ عليها. كنا نستقي الماء بـ(چفوفنا) من حنفيات خزان الماء الذي يستعمل للوضوء وملء (البرگان) المستعملة أثناء التغوط.

وليس في الجامع سوى مرحاض واحد يستعمله الطلاّب والمصلون والمستطرقون واصحاب الدكاكين المجاورة على حدّ سواء. ويَنزَح المرحاض مرة أو مرّتين في الشهر، وكثيراً ما تطفح القاذورات على جوانبه، ورائحتها تزكم الأنوف، بحيث يستحيل الدخول اليه.

(*) حل شهر رمضان في أشهر الصيف عدة مرات أيام الصبا، وكان علينا أن نصوم كما يفعل الكبار، وفي ذلك معاناة وإرهاق بالنسبة للصبيان دون العاشرة من العمر. وكنا نسمع من الكبار عن خصائص أشهر الصيف ما يلي:
حزيران ـ حزيران عمبار الهوا.
تموز ـ بتموز أشرب الماي بالكوز.
آب ـ آب اللهّاب، يحرگ البسمار بالباب.

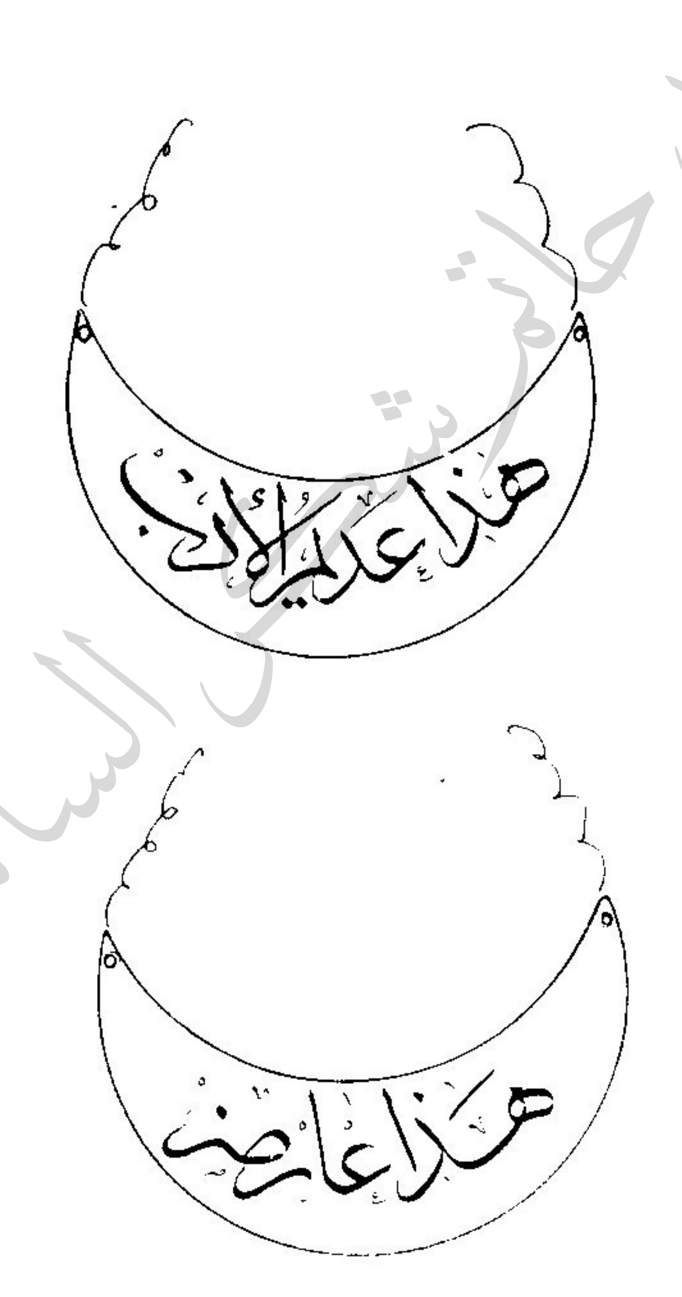


«النخلات الثلاث الجميلات» الباقيات من جامع عادلة خاتون الصغير في الدنگچيّة والتي نسّب أمين العاصمة السيد سمير عبدالوهاب الشيخلي الابقاء عليها والعناية بها، حفاظاً على تراث بغدادي أصيل

ويقسم شهر آب الى ثلاثة مراحل :
أول عشره من آب تحرگ البسمار بالباب.
ثاني عشره من آب تقلل الأعناب وتكثر الأرطاب.
ثالث عشره من آب تفتح من الشتا باب.
أيلول ـ قتلني أيلول بحرّه، رحمة الله على آب ببرده.
تشرين ـ بين تشرينين صيف ثاني.

لباس معظم الأولاد في الصيف الدشـداشـة ومعظمهم حِفّاي ومْفاريع، وقليـل منهـم من يحتـذي القبقـاب. وفي الشتـاء يلبسـون اللبّادة فـوق دشـداشـة البـازة، ويتلكچون باليشماغ أو بقطعة من القماش (لِكَچْ).

يبدأ الدوام صباحاً وينتهي بعد أن نؤدي صلاة العصر، وكل تلميذ يجلب معه (لفة) من البيت، أو يشتري شيئاً من السوق بيوميته التي تبلغ (قَمَري) واحد. هذا كله في كفة والملاّ إبراهيم وحده في كفة أخرى. كان رجلاً طويل القامة ذا لحية وشـوارب سـوداوين، مخيفاً بشكله قاسـياً في معاملاته مع الطلاب، وكان إذا كلم التلميذ أو خنزر عليه، يرتجف وبعضهم (يبـول على روحـه) من الخوف.



في مثل هذا المحيط البائس والكئيب سلخت سنتين من عمري، حيث تولدت في نفسي عقدة كراهيّة المدرسة والمدرسين وكل ما يتعلق بالعلم والتعليم، لم تستأصل شأفتها إلّا بعد سنين طويلة من حياتي في المدارس الأخرى.

قلت إن الملاّ إبراهيم كان شديداً وقاسياً. فكان يتفنن في عقوبة الطلاب. كانت الفلقة والخيزرانة كأداة للعقوبة، معروفة في كل كتاتيب بغداد يومئذ، ومن جملتها طبعاً كتّاب المُلاّ إبراهيم. غير انه كان ينفرد بنوع آخر من العقوبة، ربما كانت الوحيدة من نوعها في بغداد، وهي ما أسميها عقوبة التشهير، إذ يعلق حول رقبة التلميذ المقصّر أو الوكيح الذي يستحق مثل هذه العقوبة، طوقاً من المقوىٰ الأبيض على شكل الهلال، مكتوبة عليه احدىٰ هاتين العبارتين (هذا عديم الأدب) أو (هذا عازْصِنْ)، يرفع التلميذ المعاقب رجله اليمنى بذراعه الأيمن ثم يرفع رجله اليسرى بذراعه الأيسر، (ويهنجِل) على رجل واحدة، يحيطه بقية التلاميذ، يزدرون به ويهينونه، والملاّ إبراهيم والخلفة يأمرون التلاميذ بقولهم: (اضحكوا عليه).

وأحمد الله اني لم اعاقب بمثل هذه العقوبة، لأني كنت وديعاً طيلة حياتي المدرسية، ولكنني عوقبت بعقوبة الفلقة ظلماً وبهتاناً، وإليك التفاصيل: كان رشيد العطار (أبو جمعة) صاحب دكان عطارة في الدنكچية، وهو من أهل باب الشيخ، وعمل عطاراً في الدنكچية أكثر من خمسين عاماً، وهو صديق العائلة وكان رحمه الله يحافظ على الصلاة ويؤدّيها في أوقاتها في جامع عادلة خاتون الصغير. وفي يوم من الأيام صلى صلاة الظهر، وأثناء خروجه من الحرم لاحظني ألعب مع الاولاد، وكان الملاّ إبراهيم قريباً منا، فقال له مداعباً: «ملا، تره أمين صاير هوايه وكيح هالأيام» وما كاد رشيد العطار يغادر الجامع حتى أمر الملاّ إبراهيم (الخلفة) أن يحضر الفلقة ويشد رجلي فيها ويمسك الخيزرانة «هَيْباطْ . . هَيبيطْ» عشر خيزرانات مْن العالْ، وأنا أبكي وأصرخ، لا من شدة الألم ولكن لأعتقادي بأني مظلوم ولا أستحق هذه العقوبة. وبعد انتهاء الدوام عدت الى البيت لا أقوىٰ على السير على قدمي المتورمتين، وأنا أبكي فسردت الحادث لوالدي، الذي بدوره عاتب رشيد العطار علىٰ هذه الفتنة عليّ عند الملاّ إبراهيم. وكان اعتذار رشيد العطار لوالدي «صدگ لو گالو المُلاّ يصير صَقيع، آني چنتِ أتشاقىٰ وأدّاعب ويّا أمين، والمُلاّ سَواها صُدُگ».

في مثل هذه الاجواء قضيت عهد الطفولة عند الملاّ إبراهيم في جامع عادلة خاتون، ولما حل الملاّ إبراهيم محل والده الملاّ أحمد في المدرسة الأحمدية، تغير الوضع كثيراً فغيّر الملاّ إبراهيم كثيراً من تصرفاته الشديدة والقاسية مع الطلاب، فألغيت عقوبة التشهير وظلت الفلقة معطلة ومعلقة على الحائط، وحل محلها التِكَرْمُعْ بالخيزرانة والمسطرة وجرّ الأذن والضرب بگاز المسطرة على ظهر الكف والحبس بالمدرسة ساعة أو ساعتين بعد أوقات الدوام. وكانت هذه العقوبة الوحيدة للأولاد المتأخرين أوالمشاكسين أو الذين انمسحت (الطمغة) عن سيقانهم بسبب السبح بالشط في نهاية الأسبوع.

صرنا نشرب الماء من حِبٌ كبير وعليه عدد من المناشل (الجيريات) النظيفة، بعضنا كان يجلس على تختة ومندَرْ، بعد أن كنا نجلس على الحصيرة، اختفت مراسيم الختمة بسبب ازدحام سوگ الچوخچية، فلا مسيرة تتقدّمها سلال الچُرَك ولا ترانيم (الحمد لله الذي تَحمَّدَا . . حمداً كثيراً ليس يحصي عدداً) ولا (حَلْوَه بُكُنْ) عندما يختم الطالب صورة (لم يكن)، ولا هم يحزنون. وعوضاً عن ذلك كان أولياء الطلاب يرسلون هدية للملاّ إبراهيم بمناسبة الختمة، مثل صينية كاهي من المصبغة، أو صينية كباب من سوگ الكبيچية، أو كاسة مربّى الكبّاد وگيمر، أو قوطية حَلقوم او مَنّ السما، أو حُگّه حامُضْ حِلو أو مصقول. وبعضهم يرسل له (طاقة) كُجَراتْ أو پُتّه، وما شاكل، والملا يرسل هذه الهدايا حالاً مع ابنه فليح الى (اليَنْگة) في بيتهم في محلة العوينة. (اليَنْگة هي زوجة الملاّ وتطلق كذلك على زوجة أيّ رئيس عمل).

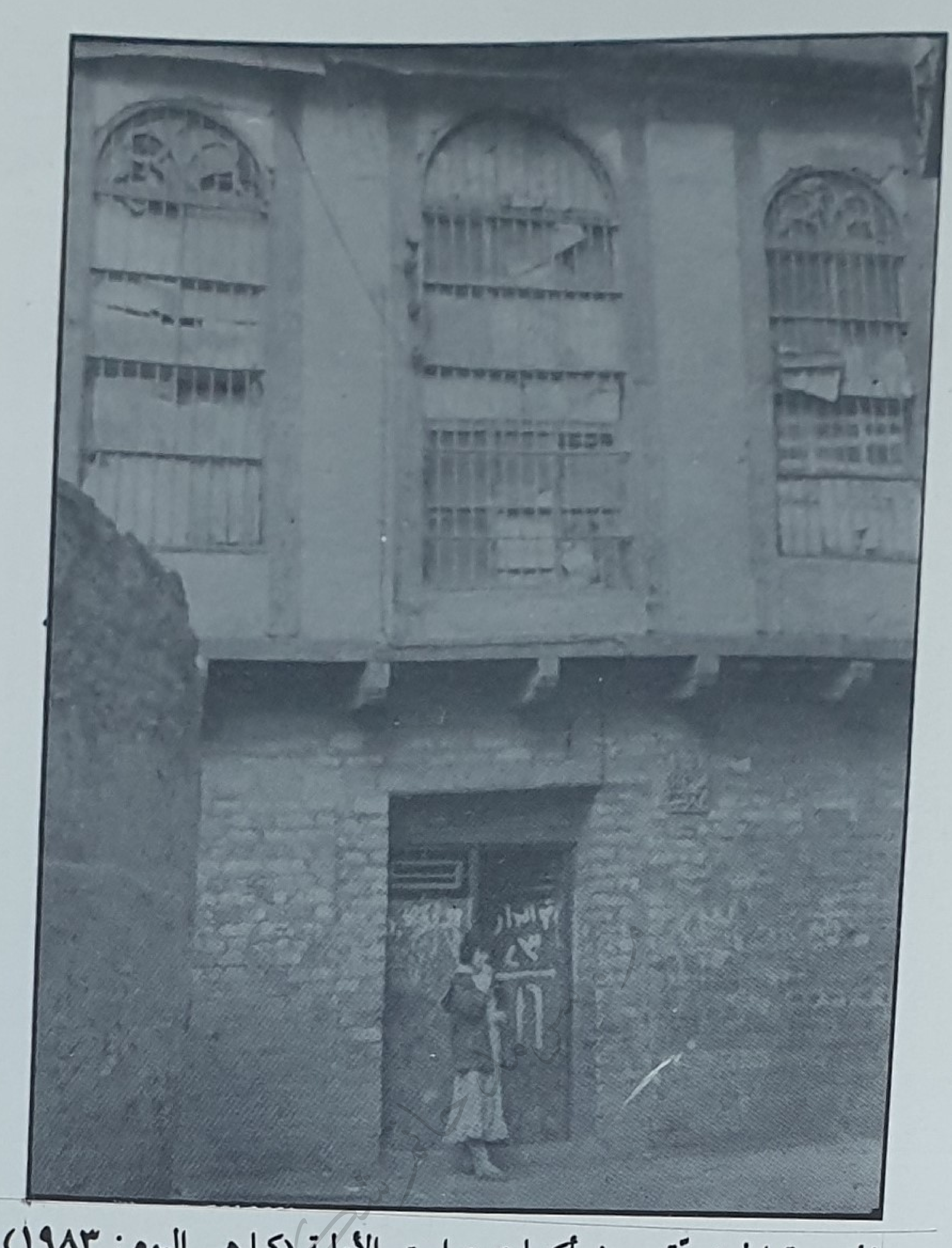
لباسنا تغير أيضاً، فصار الأولاد يحضرون الى المدرسة وهم يلبسون إمّا يَمَني حَلَبْ أو قُبقاب، وعلى رأسهم فينة أو كُلاوْ او عَرَقْچين (أنا وأخي كنا ننتعل القبقاب ونلبس الكلاو)، والسد الأزرق والماء الأسود والتنكه المزنجرة وأقلام الگصب صارت نظيفة وفي محل بعيد عن الأنظار . . الخ . لقد حصل كل ذلك التغير في المدرسة وفي نفسية الملاّ إبراهيم بسبب كثرة تردد الزوار من أجانب وعراقيين على المدرسة، ولوقوعها في سوگ مزدحم، وبسبب حرصه على المحافظة على المستوى العالي الذي كانت عليه المدرسة في زمن والده الملاّ أحمد.

* * *

كنت قد ختمت القرآن وتعلمت كتابة الحروف الأبجدية، لّما جاءنا في يوم من الأيام نبيه المميز وقال لنا: «أنتو لويش گاعدينْ عند الملا، أنا رحت الى مدرسة مالْ حكومة، ينطونا كتب ودفاتر وأقلام وآبرو وهدوم كشافة، تعالوا معي أسجلكم فيها» ذهبنا أنا وأخي مع نبيه وتسجلنا في المدرسة الحيدرية دون علم والدنا. ثم وسطنا المرحومة الوالدة لأقناعه على الأنتقال من الملاّ إبراهيم الى تلك المدرسة، فرفض أولاً، وعندما أعادت الكرّة عليه في اليوم التالي وأخبرته بأن الطلاّب في المدرسة الحكومية يصلّون الظهر والعصر في المدرسة وافق على التحاقنا بها.

تقع المدرسة الحيدرية في الدربونة الواقعة خلف جامع السراي، والتي تتفرع الى دربونتين ضيقتين مظلمتين لا يزيد عرض الواحدة منهما على المترين، فرع يؤدّي الى مدرسة التفيض الاهلية(*) والى بيت توفيق الخالدي وزير الداخلية في الوزارات الأولى من الحكم الوطني، الذي اغتاله أحد شقاة بغداد، إذ كمن له في الخرابة المقابلة لدار المغدور وأطلق عليه

(*) أسس مدرسة التفيض الثانوية الاهلية حزب «الحرس» وهو حزب سياسي سرّي. كان يضم الزعماء الذين كانوا يطالبون باستقلال العراق وتأسيس حكومة وطنية دستورية برئاسة أحد أنجال الملك حسين شريف مكة، وكان الغرض من تأسيسها ابعاد النفوذ البريطاني، الذي كان مسيطراً على المدارس الحكومية، عن الشباب وتوجيه التعليم فيها توجيها وطنياً، فأسندت إدارة المدرسة الى علي البزركان أحد مؤسسي حزب الحرس ومن رجال الثورة العراقية البارزين، كما عين للتدريس فيها نخبة من المدرسين المعروفين بمواقفهم الوطنية وكفاءاتهم العلمية. وقد كانت المدرسة مقراً سرياً لحزب الحرس، الأمر الذي حمل السلطات على إغلاقها، فتشتت طلابها



المدرسة الحيدريّة حيث أكملت دراستي الأولية (كما هي اليوم : ١٩٨٣)

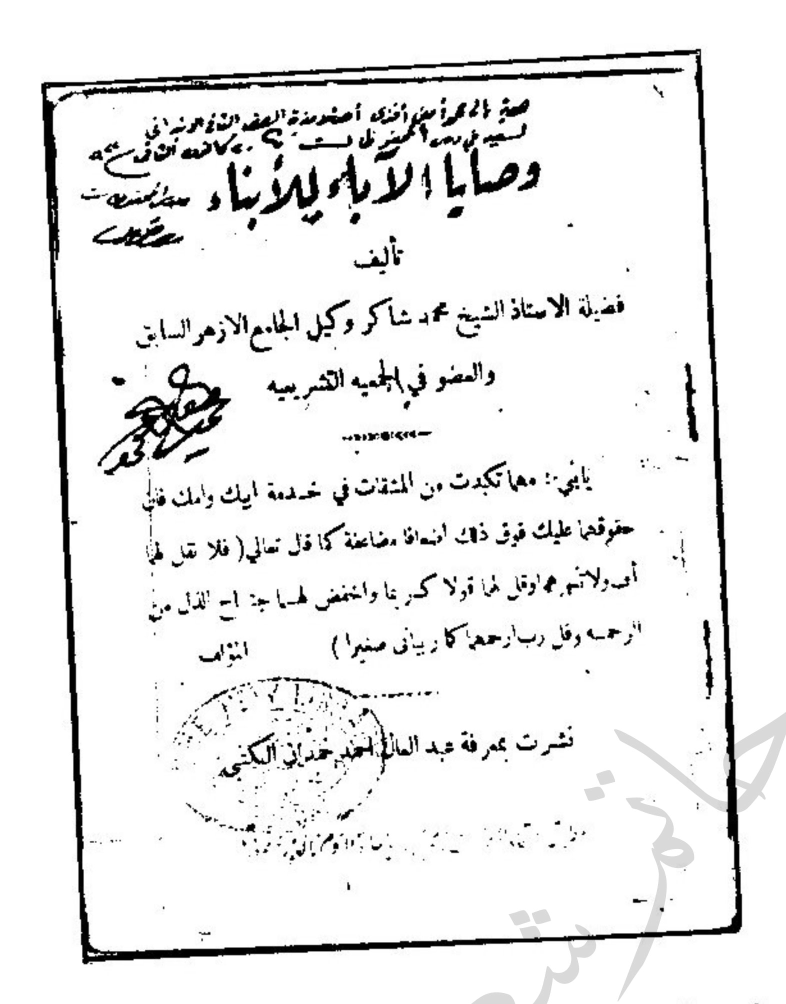
شذر مذر، فمنهم من التحق بالمدرسة الثانوية الرسمية ومنهم من التحق بدار المعلمين، ومنهم من التحق بالمدارس الأهلية الأخرى كالمدرسة الجعفرية (الحسينية) ومدرسة الاليانس اليهودية، ومنهم من سافر خارج العراق للدراسة.

وأذكر أن طلاب مدرسة التفيض كانوا يتعالون علينا لأننا طلاب مدرسة الحيدرية الحكومية وهم طلاب مدرسة التفيض الوطنية، ومن جملة الأناشيد التي كانوا يرددونها نشيد:

الحماية والوصاية كلها معنى الأسر ... وعلى العيش بذلٍ أبداً لا نصطبر

ومن الطبيعي أن يكون ترديد مثل هذا النشيد ممنوعاً في مدرستنا !!. وفي أواسط العشرينات أعيد فتح المدرسة من قبل (جمعية التفيض الأهلية) واتخذت الدار المجاورة لأمانة العاصمة والمقابلة للقشلة مقراً لها. وتألفت هيئة أدارية للأشراف عليها، وترأس الجمعية التي كانت تضم نخبة من رجال العلم والأدب والفكر المحامي حسن رضا. كما تولى ادارة المدرسة السيد حسين العاني سنوات عديدة، وكان له الفضل الأكبر في نجاحها، وتخرج فيها الوف الطلاب من فرعيها النهاري والمسائي. وأخذت المدرسة في جمع التبرعات والأشتراكات وريع اليانصيب و(الدونبلة) لتشييد بناية جديدة خاصة بها فشيدت البناية في دربونة العاقولية، وتطل الآن على شارع الخلفاء، ، كما أسست مطبعة، وأصدرت مجلة خاصة بها وظلت مدرسة التفيض قائمة تؤدي مهمتها العلمية والوطنية على أحسن وجه حتى تأميم المدارس الاهلية في الستينات.

وأذكر المناسبة التي دعي اليها رجال الدولة وعدد كبير من الوجهاء والمعنيين بالتربية والتعليم، لجمع التبرعات لبناء المدرسة، وكان أول المتبرعين المرحوم عبدالمحسن السعدون رئيس الوزراء، ففتح باب التبرع بمبلغ أربعمائة روبية. وتلاه السيد توفيق الحسن الخانچي وهو من الموسرين، فتبرع بمبلغ ٣٩٠ روبية، إذ لم يشأ تجاوز حدود الآداب واللياقة بالتبرع بأكثر مما تبرع به رئيس الوزراء، مع أنه كان على استعداد للتبرع بأضعاف ذلك المبلغ.



وصايا الآباء للأبناء

تأليف

فضيلة الاستاذ الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الازهر السابق


والعضو في الجمعيه التشريعيه

يابني: مهما تكبدت من المشقات في خدمة ابيك وامك فان حقوقهما عليك فوق ذلك اضعافا مضاعفة كما قال تعالى (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمه وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) المؤلف

نشرت بمعرفة عبد العال احمد حمدان الكتبي

أول هديّة أتلقاها واعتز بها طيلة حياتي، كتاب (وصايا الآباء للأبناء)
مهداة لي من مدرس المحفوظات المرحوم الأستاذ مصطفى علي في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٢٢
مدوّن عليها (لسعيه في درس المحفوظات).

النار بعد المغرب وتوارى عن الأنظار في درابين بغداد المظلمة كما تقدم بيانه. ولما جئنا الى المدرسة في اليوم التالي وجدنا «الدنيا مگلوبه»، من المدخل الجانبي لجامع السراي حتى بيت المغدور، والناس يتهامسون، وبعضهم يبكي. أما الفرع الآخر من الدربونة فيؤدّي الى بيت الضابط المتقاعد علي ألمان (والد يونس وموسى ومحمود علي ألمان) ثم الى بيت الشيخلي، حيث تقع المدرسة الحيدرية. وهذا البيت هو أكبر من كافة البيوت التي تقدم الكلام عنها في الدنگچية، فهو مكوّن من حرم كبير ومجاز كبير أيضاً، وديوەخانه بابها مفتوح الى الخارج. في الحرم (حوش) واسع جداً تتوسطه حديقة وفيه سرداب كبير اتخذ مصلّى للمدرسة، وفي الطابق الثاني عدد كبير من الغرف المشرفة على الطارمة التي تشرف من جوانبها الأربعة على فناء الدار، والتي اتخذت صفوفاً للدراسة. وكلما أمرّ هذه الأيام من أمام تلك المدرسة الحبيبة الى قلبي يغمرني الكدر والأسى، أنها خربة آيلة للأنهدام ليس فيها من جديد إلّا تلك اللوحة الصغيرة الزرقاء المكتوب عليها رقم ٢١ حسب الترقيم الجديد لأمانة العاصمة.



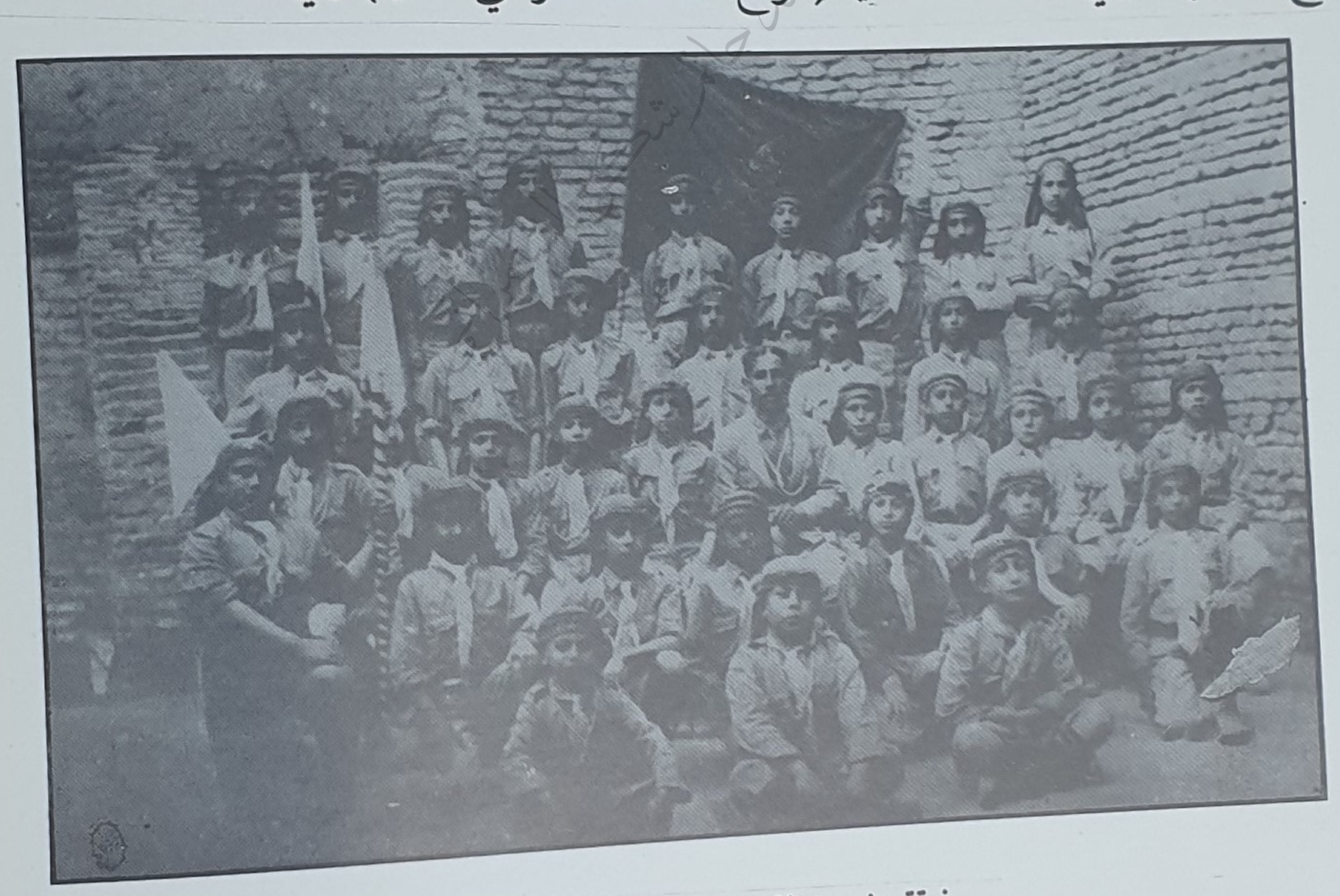
فرقة الكشافة في المدرسة المأمونيّة

في الوسط : المدير هاشم الآلوسي . المدرسون رزق‌الله أوغسطين . إبراهيم حيدر . نجيب متري . شوكة أنيس . عبدالكريم جودة . شوكة الرسام . حامل العلم سلمان فائق ، أمامه زكي رفيق

الجالسون في الصف الأمامي : أقصى اليمين كمال الزهير . الوسط (الجزء الممّزق من الصورة) : أمين عبدالجبار . عبدالستار عبدالجبار . غازي الداغستاني . عباس علي غالب . أقصى اليسار : صباح نوري السعيد

بعد دوامنا في هذه المدرسة بعدة أشهر وقعت حادثة ما زالت عالقة في ذهني : كان مدير المدرسة يومئذ عبدالمجيد حفظي زيدان ؛ وكان من المعروفين بنشاطهم الوطني ، وصادف أن زار المدرسة الميجر (بومن) الناظر الانگليزي بدائرة المعارف في عهد الاحتلال . فبعد التداول بينه وبين المدير في أمور المدرسة ، يظهر أنهما اختلفا فتشاجرا وتشاتما وتلازما . ولما نزل الميجر بومن من الطابق الثاني وهو غاضب جداً ، نزع المدير عبدالمجيد زيدان (قندرته) وقذفه بها من الطابق الثاني وصار يشتمه ويلعن دولته . وفي صباح اليوم التالي كان عبدالمجيد زيدان في طريقه الى معتقل هنجام ، وحل محله مدير آخر اسمه زكي أفندي كان حسن الأدارة وذا شخصية محترمة ومهيوبة ، وظلّ مديراً فيها حتى انتقلنا الى بناية المدرسة المأمونية الواقعة في ساحة الميدان والتي كان قد شيد بناءها الفخم المرحوم حكمة سليمان سنة ١٩٠٨ عندما كان مديراً لمعارف ولاية بغداد في العهد العثماني ، والتي تقدم الكلام عليها وعلى مصيرها المؤلم .

كانت حياتنا في المدرسة الحيدرية ممتعة جداً ، استأصلت الشئ الكثير من العقدة النفسية التي تولدت في نفسي في كتاب الملاّ إبراهيم في جامع عادلة خاتون . كان فيها معظم أقراني من أبناء محلتنا في الدنگچيّة ، وكانت فيها فعاليات مدرسية جذابة للغاية . وكانت المدرسة الحيدرية والمدرسة البارودية فرسي رهان في كافة النشاطات المدرسية ، فكانتا تتنافسان على نتائج امتحانات الصفوف وتتباريان في مباريات كرة القدم التي كانت تعقد يومئذ في القلعة (وزارة الدفاع حالياً)(*) وفي ساحة الصالحية (موقع المتحف العراقي حالياً) وفي ساحة الكشافة الحالية ،



فرقة «فروخ الذيب» في المدرسة الحيدرية
الجالسون في الصف الأمامي ، من اليمين : رشاد درويش ، أمين عبدالجبار ، حسن علي غالب . وفي وسط الصورة مدرس الرياضة عبدالكريم جودة . وفي أقصى اليسار عبدالستار عبدالجبار .

(*) من المشاهد التي يذكرها الكثيرون منا ما جرى في القلعة أثناء احدى المباريات التي حضرها الملك فيصل والوزراء . ذلك أن جاموسة جامح قادمة من شريعة المجيدية قد اقتحمت باب القلعة وأخذت تطارد اللاعبين والمشاهدين ، فساد الهرج والمرج ، فاضطرت الشرطة الى اطلاق النار عليها وأردتها تتخبط بدمها .

كما أن فرقتي كشافتهما يتسابقان كل يوم خميس بعد الظهر في لعبة «العلم» في بساتين العلوازية والصرافية والدفاعي وبستان الحاج مهدي. أما نحن الصغار فلم نكن ضمن الكشافة بل كنا في فرقة خاصة تعرف بفرقة (فروخ الذيب) تتناسب مع أعمارنا، ولنا لباس مثل لباس الكشافة ونلبس الكفية والعقال، وشعارنا (راس فرخ الذيب) وكانت جمعية الكشافة التي أسسها ساطع الحصري ويرأسها جميل الراوي هي التي تزودنا بالألبسة والشعارات مما تجمعه من الاشتراكات والتبرعات ومبيع القرطاسية والدفاتر المدرسية وما شاكل ذلك.

كان المدرسون في المدرسة الحيدرية من خيرة المدرسين يومئذ أذكر منهم المرحوم عبدالعزيز الشواف الذي كان يدرس قواعد اللغة العربية، ومصطفى علي للمحفوظات، وأذكر المدرسين المصريين للغة الانكليزية نجيب متري وداود مينا، ومدرس الدين شوكة أفندي انيس.

وكان مدرس الكشافة وقائدها جميل الراوي (أخ نجيب وأحمد الراوي) قد جعل من كشافة مدرسة الحيدرية أمتع وأفضل نشاط فيها وخاصة عندما يقف ويعطي الأيعاز بصوته الجهوري: استرح .. استعد، ويتردد الصدى عبر الساحة الواسعة.

أما المدرسة المأمونية التي انتقلنا اليها من الحيدرية فكانت مدرسة نموذجية من كافة النواحي. بنايتها الفخمة التي تطل على ساحة الميدان والتي سبقت الأشارة اليها، تضم النخبة الممتازة من الطلاب المتفوقين، وفريقاً مختاراً من المدرسين الأكفاء أذكر منهم شفيق سلمان، عبدالكريم جودة، عباس فضلي، شاكر شواكه، (شاكر الأوقاتي) أحمد أكريبوز (أبو شهاب) وشوكة أفندي أنيس، والسيد أمين الخضار والمدير هو هاشم الألوسي.

* * *

في سنة ١٩٢٤ أنهيت دراستي الابتدائية في المدرسة المأمونية والتحقت بالمدرسة الثانوية (الثانوية المركزية حالياً) وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة في بغداد. كان مستوى التعليم فيها يضاهي وربما يفوق مستوى التعليم في كلياتنا في الوقت الحاضر. كان متوسط أعمار الطلاب ومقياس الذكاء (I.Q) أعلى بكثير مما هو عليه الآن في المدارس الثانوية الحالية. كانت تدرس في الصفوف المتقدمة مواضيع عالية مثل علم الفلك وعلم المنطق (يدرسه المرحوم طه الراوي) وآداب اللغة العربية. كنا ندرس الرياضيات العالية كالجبر والمثلثات والهندسة بفرعيها المجسمة والسطحية، ولم تكن الرياضيات المعاصرة التي يشكو منها طلابنا في الوقت الحاضر، معروفة يومئذ.

أما الأساتذة فكانوا نخبة ممتازة من أفاضل الأساتذة وأكفأهم في مواضيع اختصاصاتهم، أذكر منهم المرحومين علي مظلوم للهندسة، طه الراوي لآداب اللغة العربية وعلم المنطق في الصف المنتهي، منير القاضي للغة العربية في الصفوف المتقدمة، السيد سعيد الراوي (سعيد جوجه) للدين، عبداللطيف الفلاحي للتأريخ، رزق الله أوغسطين للرياضيات، بهجة الأثري للغة العربية في الصفوف الأولى، أدور سيزار وفيكتور عيسائي للغة الانكليزية في الصفوف الأولى (مدرس اللغة الانكليزية في الصفوف المتقدمة، مدرس انكليزي اسمه المستر براين) وشوكة أفندي الرسام للرسم، ووديع عبدالكريم وسعيد فهيم للفيزياء وشيت نعمان ويوسف زينل وتحسين إبراهيم للكيمياء. وفي سنة ١٩٢٦ استقدمت وزارة المعارف عدداً من الشباب



خريجو المدرسة المأمونية الابتدائية سنة ١٩٢٣ - ١٩٢٤

الواقفون - الصف الخلفي من اليمين الى اليسار :

زكي رفيق ، روفائيل بهنام ، عباس علي غالب ، وديع فتح الله ، صموئيل عشو ، عبدالرحمن خضر ، جواد حسين ، علي غالب عباس ، محمود عبدالكريم ، فؤاد عبدالوهاب القره غولي.

الصف الأمامي ، من اليمين الى اليسار :

فؤاد أحمد ، نهاد رفعت ، ناجي سعيد الطبقجلي ، سيد حميد سيد صالح ، رفيق أحمد ، علاء الدين محمود ، كامل ابراهيم ، كمال رشيد ، أدهم مشتاق ، جمال سعيد ، هاشم جواد ، صالح الربيعي ، ابراهيم بكر.

الجالسون من اليمين ، الأساتذة :

سيد أمين الخضار ، عبدالكريم جودة ، شاكر شواكة ، شفيق سلمان ، هاشم الألوسي ، عباس فضلي ، أحمد اكريبوز ، شاكر العاني ، شوكة أنيس.

الجالسون على الأرض :

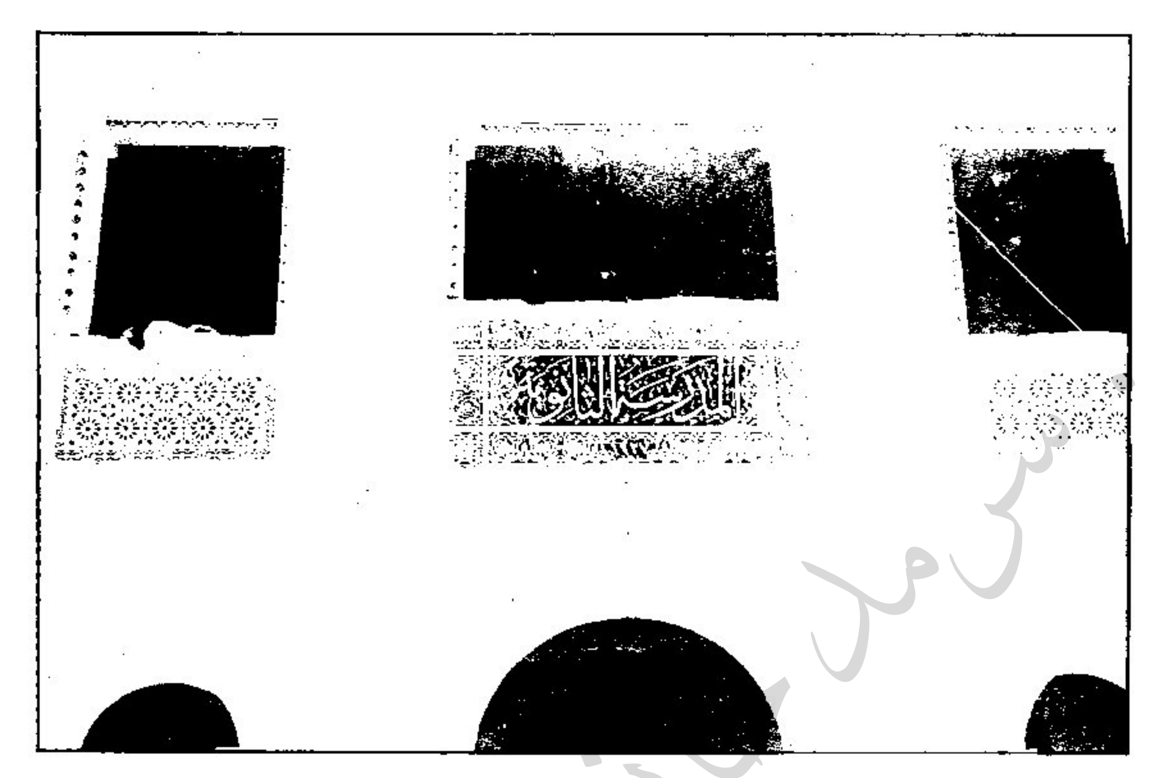
أمين عبدالجبار المميّز ، جلال الربيعي ، رشاد درويش ، حسن علي غالب ، كمال الزهير ، أكرم أحمد ، محمد خضر.

اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت ، أذكر منهم أنيس زكريا النصولي (لبناني من بيروت) للتاريخ العربي ، عبدالله المشنوق (لبناني من بيروت) للتأريخ العام ، جلال زريق سوري من اللاذقية) للجبر والمثلثات ، درويش المقدادي (فلسطيني من طولكرم) للتأريخ العربي والاسلامي وشوقي الدندشي ومحمد خورشيد ووديع أسعد وإبراهيم حيدر وعزالدين علم الدين التنوخي .

وقد توالى على ادارة المدرسة الثانوية في فترات متعاقبة خيرة الأداريين ، كان بعضهم من العسكريين أمثال المرحومين نظيف الشاوي وعبدالحميد الدبوني ، ومن المدنيين عاصم الچلبي وأمين زكي ، ويوسف عزالدين الناصري وطالب مشتاق وسعيد فهيم ودرويش المقدادي وابراهيم اسماعيل وسالم مامو ومصطفى علي ثروت .

كانت المدرسة الثانوية مصدر الاشعاع الفكري ومركز النشاط المدرسي ومعقل الحماس الوطني وقلعة الغرور القومي في بغداد ، ويرجع الفضل في ذلك الى الأساتذة من الشباب الذين درسوا في الخارج أمثال يوسف زينل ودرويش المقدادي وشيت نعمان وعلي حيدر سليمان وعبدالفتاح إبراهيم والمدراء أمثال هاشم الآلوسي وطالب مشتاق . وقد كانت أول مدرسة في العراق طبق فيها نظام البكالوريا ، وأول مدرسة جرت فيها تجربة اختبار مستوى الذكاء (I.Q) على

المدرسة الثانوية التي تخرجت فيها سنة ١٩٢٨-١٩٢٩



يد المرحوم ساطع الحصري، مدير المعارف العام يومئذ، ومربي جيلنا وواضع أسس نظام تعليمنا، وحامل مشعل عروبتنا وباعث الغرور القومي في نفوسنا، وحامي آثارنا والحريص على تراثنا الحضاري.

وفيما يتعلق بالنشاط المدرسي فأنها كانت في الطليعة في المباريات الرياضية التي كانت تجري بينها وبين دار المعلمين والمدارس الثانوية الأهلية كمدرسة التفيض الأهلية والمدرسة الجعفرية وغيرهما. وكانت فرقة كرة القدم أقوى الفرق في بغداد، وكان النجمان اللامعان فيها وهبي توفيق وأكرم فهمي، ومن أعضائها سلمان فائق وإبراهيم شوكة وعبدالرزاق حامد وكمال حميد وزكي عبدالرزاق و(الگولچي) الشهير خليل محمّد.

ومن النشاطات التي برّ فيها طلاب الثانوية ممارسة التمثيل. فقد تألفت فرقة تمثيلية كانت تمثل على مسرح القاعة الكبرى في المدرسة. وأذكر أننا مثلنا بعض مسرحيات شكسبير، منها مسرحية (عطيل) التي مثل فيها دور (عطيل) محمد حسن سلمان (الدكتور محمد حسن سلمان) ودور (دزدمونا) الطالب اليهودي (نعيم أصلان) كما مثل فيها إبراهيم شوكة، ومثل دور الحاجب الطالب اليهودي ناجي إبراهيم، وكان يمثل الأدوار الكوميدية في تلك المسرحيات نوري ثابت وناصر عوني أستاذ الرسم والهزلي المطبوع. ومن المسرحيات التي مثلت أيضاً كانت مسرحية (يوليوس قيصر) وبعض المسرحيات العربية مثل (مسرحية النعمان بن المنذر).

وكانت معارض الرسم من أبرز النشاطات المدرسية وأبرز من في الطلاب من الرسامين كان أكرم شكري.

وتألفت في الثانوية (جمعية تشجيع المصنوعات الوطنية) ألفها خمسة من طلابها هم : أمين عبدالجبار المميّز وصادق عبدالغني وضياء جعفر وأدهم مشتاق وفؤاد درويش. وأول منتوج وطني حققته الجمعية هي السدارة المصنوعة من (الچبن) في السليمانية ، وكان الطلاب الخمسة أول من اعتمر السدارة الوطنية في العراق وقبل أن يعتمرها ياسين الهاشمي ومعروف جياووك والملا عبود الكرخي وغيرهم.

كان الطلاب يعقدون الندوات للمناظرات الشعرية إذ كان عدد منهم يهوون نظم القوافي ، وقد غرس في نفوسهم هذه الهواية كبار أساتذة الأدب العربي أمثال المرحومين طه الراوي ومنير القاضي ، وبهجة الأثري ، واشتهر من بين شعراء الثانوية عبدالستار فوزي وأكرم أحمد وكمال الزهير وكمال عثمان.

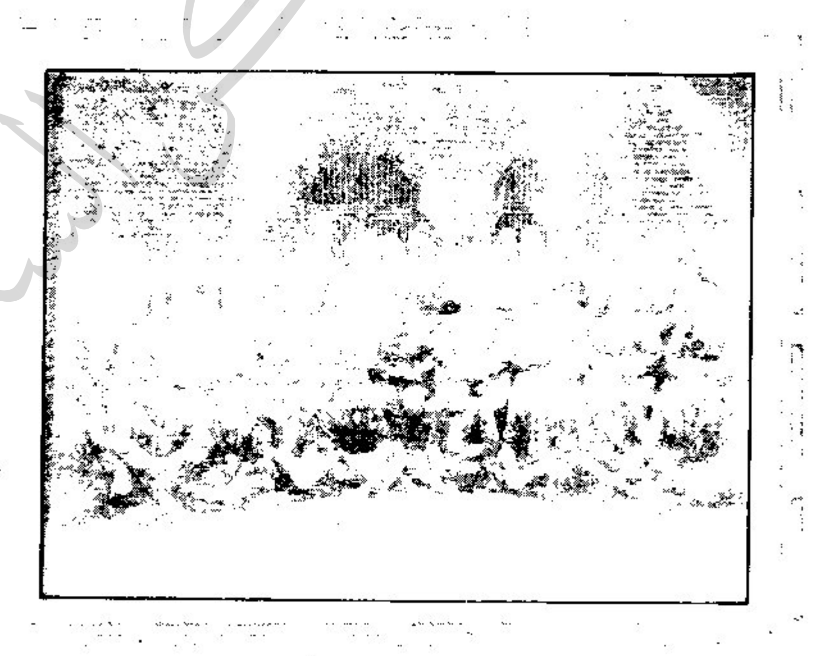
كانت تصدر يومئذ مجلة شهرية تسمى (التلميذ العراقي) يتولى تحريرها وأدارتها سعيد فهيم ، ويساهم في تحريرها الطلاب أنفسهم ليتدربوا على كتابة المقالات مستقبلاً. ولا يخلو عدد منها إلاّ ولأدهم مشتاق حل للغز أو جائزة عن مسابقة أو فذلكة من فكاهة. (*)

من المشاهد التي علقت بذهني من أيام المدرسة الثانوية المشهد التالي :
زار المدرسة جعفر العسكري رئيس الوزراء يومئذ ، وأخذ يطوف على الصفوف فدخل معظمها. ولما وصل الى صفنا ، يصحبه المدير طالب مشتاق وبعض المدرسين وكاتب المدرسة ، شريف يوسف وكان المرحوم الأستاذ علي مظلوم يدسّنا الهندسة ، فلما رآه رئيس الوزراء وهو يشرح لنا احدى النظريات بكل حرص واهتمام ، أبى رئيس الوزراء الدخول الى الصف وقال :
أستغفر الله ، كيف أدخل الصف لأفتش على أستاذي الذي أكنّ له في قلبي أعظم الاحترام والتقدير! هكذا يكون تقدير وتبجيل الأستاذ من قبل طلاّبه الذين يبلغون أعلى المناصب.

* * *

في أيام وجودي بالثانوية وقعت ثلاث حوادث ذات صبغة سياسية ، أظهر فيها الطلاب شعورهم الوطني والقومي على أفضل وجه. أولها الانتفاضة في سبيل الحرية الفكرية التي جرت يوم ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٧ وعرفت يومئذ بمظاهرات النصولي. كان الأستاذ أنيس زكريا النصولي من خيرة الأساتذة الذين استقدموا من لبنان للتدريس في المدرسة الثانوية وقد ترك أثراً بالغاً في نفوس طلابه ، لروحه القومية والاسلامية ، ولجاذبية مؤلفاته ومحاضراته في التأريخ العربي ، وخاصة تأريخ الدولة الأموية في الشام والدولة الأموية في قرطبة ، الأمر الذي غاظ بعض المسؤولين ، فقررت وزارة المعارف فصله. فانتصر له طلابه وقاموا بمظاهرة كانت أعنف مظاهرة طلابية جرت في بغداد. فقد خرج طلاب المدرسة الثانوية ودار المعلمين بمظاهرة ضمت معظم طلاب المدرستين على اختلاف انتماءاتهم ، وتوجهوا نحو وزارة المعارف وكانت يومئذ في

جوار بناية المتحف العراقي في شارع الجسر القديم. فتصدت لهم الشرطة لتفريقهم، ولما عجزت عن ذلك استعانت بالاطفائية، التي أخذت تسلط عليهم خراطيم الماء البارد في ذلك اليوم القارس البرودة، غير أن الطلاب أظهروا من الشجاعة والبسالة ما سجله لهم تأريخ بغداد بمداد من الفخر، وذلك أن اثنين منهم وهما كامل إبراهيم وأخي عبدالستار، وهما جيران في محلة الدنكچية، يعاونهما أنور نجيب وطالب رفعت، هجما على الأوسطة علي وإبراهيم شندل وهما كبار رجال الاطفائية، وانتزعا منهما خراطيم الماء ووجهاها نحوهما ونحو المستر فيشر مدير الاطفائية الانكليزي الذي كان يشرف على العمليات فجعلا (طشارهم ماله والي). ولكن بالأخير تمكنت الشرطة والاطفائية من التغلب على الطلاب وتفريق المظاهرة بقسوة السارجن (دين)(**) رئيس عرفاء شرطة السراي، وتوقيف زعمائها وغلق المدرسة الثانوية. واتخذت بحق الطلاب أقسى العقوبات الانضباطية. فقد طرد بعضهم طرداً مؤبداً أذكر منهم: حسين جميل، عبداللطيف محيي الدين، أنور نجيب، فائق السامرائي؛ وطرد بعضهم لمدة شهر واحد، وأذكر منهم: فؤاد درويش، خالد إبراهيم الچوربهچي وأخوه عبدالرحمن وأخي عبدالستار عبدالجبار المميز، وعبدالقادر إسماعيل، وكامل إبراهيم. أما أخف العقوبات وهي الانذار والطرد لمدة أسبوعين فقد لحقت: أدهم مشتاق وأنيس وزير وصبيح الحاج كمال وجلال عبدالرزاق وجواد حسين. أما زعيم المتظاهرين الأستاذ يوسف زينل فقد فصل من الوظيفة وأبعد عن بغداد كما سيأتي بيانه. أما الذين لم تلحقهم عقوبة من المشتركين بالمظاهرة فكان من بينهم ياسين الگيلاني، سلمان فائق، زكي رفيق، ضياء جعفر وأخوه جواد جعفر، ناجي بيرص، يامين صالح، مزاحم الشابندر والسيد حسين الگيلاني ومحمود عبدالكريم وقاسم البزركان وحكمة ثريا. (حكمت الچادرچي).



بمناسبة سفر النصولي وزملائه بعد المظاهرة التي جرت احتجاجاً على فصل النصولي:
أنيس النصولي في الوسط، والى يمينه عبدالله المشنوق، والى يساره جلال زريق.
التصوير في دار توفيق الخالدي التي كانوا يقيمون فيها، والواقعة في الزقاق خلف جامع السراي



أنور نجيب (الى اليمين) وعبدالستار عبدالجبار المميّز. . وكان معهما كامل ابراهيم، وهم جيران في محلة الدنگچيّـة حين طـردوا من المدرسـة الثانويـة لهجومهـم على رجال الاطفائيـة وانتـزاعهم خراطيم المياه منهم وتوجيهها نحوهم، فجعلوا (طشّـارهم ماله والي) أثناء مظاهرة النصولي في كانون الثاني سنة ١٩٢٧، انتصاراً للحريّة الفكريّة.
(التصوير مأخوذ في لبنان بعد سفرهما للألتحاق بكلية الشويفات).



طلاب الثانوية ودار المعلمين الذين طردوا بسبب مظاهرة النصولي سنة ١٩٢٧ :

الجالسون من اليمين : جواد حسين ، خليل جميل ، أدهم مشتاق ، يوسف عبود ، يامين صالح ، فؤاد درويش .

على الكراسي : عبداللطيف محيي الدين ، أنور نجيب ، خالد ابراهيم الچوربهچي ، يوسف زينل (أستاذ في الثانوية ، فصل ونفي خارج بغداد) عبدالستار عبدالجبار المميّز ، حسام الدين العبيدي ، محمد الحاج علي .

... عبدالقادر اسماعيل ، جلال عبدالرزاق ، عبدالرحمن

كان رئيس الوزراء يومئذ جعفر العسكري ، فأرسل على بعض الطلاب وكان من بينهم فائق السامرائي وعبدالقادر إسماعيل وخالد الچوربه‌چي ليقف على الأسباب والدوافع الحقيقية التي حملتهم على التظاهر ، وقد جرىٰ نقاش حادّ بين فائق السامرائي ورئيس الوزراء انتهىٰ بما قاله العسكري للسامرائي :

- لو تموت ما أحبْسك ، تريدني أحبسك حتى تصير زعيم براسي !

أما أنا فكانت عقوبتي أخف العقوبات . إذ بينما كنت عائداً من المدرسة الثانوية لأتسقط أخبار أخي ومصير الطلاب الآخرين متوجهاً الى بيتنا في الدنگچية ماراً من أمام مركز شرطة السراي وإذا برئيس العرفاء عبدالرزاق ، يركض ورائي ويربّت على كتفي ويقول :

- تعال المدير يريدك . فاصطحبني الى مركز شرطة السراي وأدخلني غرفة الحرس حيث بقيت هناك حوالي ثلاثة ساعات ، ثم عاد ليقول لي :

- گوم روح لبيتكم .

لقد حاول وزير المعارف السيد عبدالمهدي اثارة التفرقة بين الطلاب ، واستخدم لهذا الغرض بعض المدرسين الذين كانوا يحملون الجنسية الايرانية أمثال المدرسين محمد الدشتي وأحمد أمين وبضعة طلاب من رِسّ فارسي (***) وعناصر اخرى من المغرضين والانتهازيين والمشاغبين من غير الطلاب ، غير أن تلك المحاولات باءت بالفشل الذريع ، بالنظر لروح التضامن والوحدة والتآخي التي سادت المتظاهرين وانتصارهم للحرية الفكرية التي قامت المظاهرة من أجلها . كما لقيت المظاهرة تعاطفاً كبيراً من الجمهور المتواجد في شارع الجسر وفي المقاهي القريبة من وزارة المعارف التي كانت يومئذ تشغل بناية مديرية الآثار القديمة العامة المجاورة للمتحف العراقي ، ومن أصحاب الدكاكين في سوق السراي والمولەخانه وسوق الصفافير والأسواق الداخلية ، وكذلك من القادمين والعابرين من والى جانب الكرخ . وإن أنسَ لا أنْسَ منظر النسوة اللائي تجمعن في مدخل دربونة الدنگچية من جهة شارع الجسر ، وأخذن (يهلهلن) ويزغردن تشجيعاً للطلاب عندما اشتبكوا مع رجال الأطفائية وتبادلوا (الدونكيات) والحجارة مع أفراد الشرطة .

وكمثل على ما لاقته المظاهرة من تأييد بين صفوف الطلاب على اختلاف انتماءاتهم

(*) فجعت بوفاة الصديق أدهم مشتاق في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٨٣ وهو عنوان الوفاء والاخلاص ، والشهامة والنبل ، انه صديق قلّما يجود الزمان بمثله . رحمك الله يا أدهم ، وحشرك مع الصالحين من عباده .

(**) السارجن (دين) هذا هو عريف شرطة انگليزي في شرطة السراي ، كان تحت إمرة مفتش الشرطة الانگليزي (الكولونيل پريسكوت) وتزوج من شقيقة معاون الشرطة نعّومي عتيشا وبقي في العراق حتى أواخر العشرينات .

(***) ان هؤلاء الطلاب من المدرسة الثانوية وبعضهم من دار المعلمين وآخرون من مدرسة (شرافت ايرانيان) التي كانت في جانب الكرخ قبل انتقالها الى بناية الأليانس في الحيدرخانة ثم الى الوزيرية ، كانوا يتلقون توجيهاتهم من دكان (مرزا كاظم) الواقع في سوگ السراي في الركن المؤدي الى مدخل جامع الوزير . وكان هذا المرزا المشبوه يتعاطى بيع القرطاسية وأقلام الپاندان (كونكلين) ويعتمر (كلاو) أسود ويتكلم العربية برطانة فارسية بغيضة . وكان أحد أقربائه قد شغل منصب سكرتير وزارة المعارف فترة من الزمن في أوائل الحكم الوطني ، فكان يتصرف بالوزارة كما لو كانت من وزارات الامبراطورية الشاهنشاهية الپهلوية !! ، كما كان بعض أولئك الطلاب يترددون على المكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي ، ويعتمرون (الپهلويه) عندما يخرجون من المدرسة ، وكان واحداً منهم (ابن صفّي) في المدرسة الثانوية ، بينما يعتمر كافة الطلاب والمدرسين السدارة العراقية .

الدينية والمذهبية والطائفية والقومية والاقليمية والعنصرية ، أذكر من الذين شاركوا في المظاهرة من طلاب المدرسة الثانوية غير من تقدم ذكرهم وعقابهم ، كلاً من محمّد جواد جعفر وشقيقه ضياء جعفر وصادق عبدالغني والسيد جواد الجصاني ومحمد جواد حسين وعبدالحميد الجرچفچي وعبدالعزيز مكية وعبدالهادي المختار ومحمد جواد الخطيب وكبة وعلاوي والهلالي وطالب صابئي ، وغيرهم ممن لا تحضرني أسمائهم. وان الذي قدم العريضة الى مدير المعارف العام ساطع الحصري أحتجاجاً على فصل النصولي كان الطالب محمد حسن سلمان (بطل رواية عطيل التي مثلت على مسرح المدرسة الثانوية ، والدكتور والوزير بعدئذ) . وفي اليوم التالي للمظاهرة أصدر الطلاب بياناً أوضحوا فيه حقيقة الدوافع التي حملتهم على التظاهر، وهي انتصارهم للحرية الفكرية ليس إلاّ ، كما فندوا مزاعم المتصيدين في الماء العكر من أن المظاهرة كانت بدوافع أخرىٰ.



الفرسان الثلاثة في المدرسة الثانوية سنة ١٩٢٧م

من اليمين : أمين عبدالجبار المميّز. ابراهيم عبدالحسين الجلبي . عزت الحاج عيسىٰ الخضيري.
وكانوا لا يفترقون إلاّ ساعات ايوائهم الى بيوتهم



علاء الدين الريّس، الفارس الرابع في المدرسة الثانوية، بعد تخرجه في مدرسة الكرخ الابتدائية وانضمامه الى الفرسان الثلاثة في المدرسة الثانوية: عزة الخضيري وابراهيم الجلبي وأمين المميّز
وقد أصبح بعدئذٍ مديراً للمدرسة الثانوية المركزية من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥٨

لقد أصرّ الأساتذة على تقديم استقالاتهم تضامناً مع زميلهم الذي أصرّت وزارة المعارف على فصله، زاعمة بأن بعض العبارات التي كتبها النصولي في مقدمة كراسات المحاضرات التي وزعت على الطلبة عن تأريخ الدولة الأموية في الشام تتضمن استفزازاً ومسّاً بشعور بعضهم، وإخلالاً بالأمن العام. ولما غادر المدرسون الأربعة بغداد جرى لهم توديع حافل اشترك فيه العشرات من طلاب المدرسة الثانوية ودار المعلمين، وكلية الحقوق، من كافة الانتماءات.

أما الطلاب المفصولون، فأن بعضهم قد سافر الى خارج العراق لمتابعة دراستهم أذكر منهم حسين جميل وعبداللطيف محيي الدين اللذين سافرا الى دمشق، وأنور نجيب الذي سافر الى بيروت ثم الى باريس، وأخي عبدالستار الذي سافر الى لبنان والتحق بالكلية الوطنية في الشويفات.

وبعد مرور فترة من الوقت وهدوء الأحوال، وتحت تأثير ضغط الرأي العام ألغيت قرارات الفصل وعاد الطلاب الى صفوفهم وسارت الأمور في مجراها الطبيعي ولم يبق أي أثر للتفرقة بين الطلاب.

أما المدرس يوسف زينل الذي اعتبر المحرض على المظاهرة فقد أبعد الى ناحية الفاو ومنها الى قضاء عانه بموجب قانون العشائر المرعي يوم ذاك. ولما أثير الموضوع في مجلس النواب أثارت المعارضة ضجة كبيرة حوله. وفي الجلسة التي جرت فيها مناقشة الموضوع حضر عدد كبير من الطلاب الى مجلس النواب، الذي كان مقره بناية مستشفى الغرباء في جانب الكرخ، وأخذوا يهتفون ويصفقون لخطباء المعارضة، الأمر الذي حمل رئيس المجلس على إصدار الأمر لشرطة المجلس لاخلاء المقصورة من الطلاب وابعادنا عن بناية المجلس بالقوة.

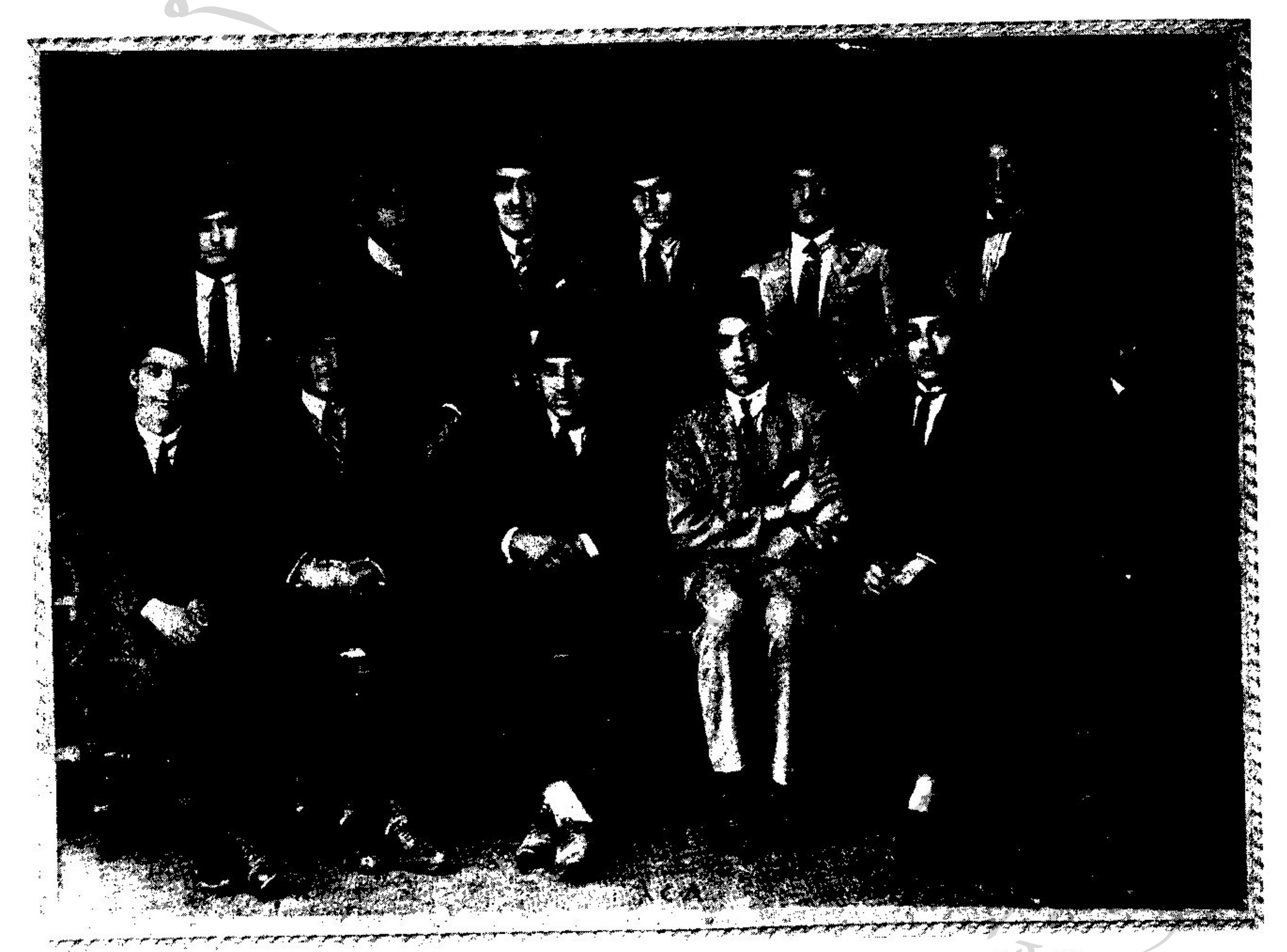
وبسبب المعارضة الشديدة لنفي مدرس استناداً الى قانون العشائر، فقد اضطرت الوزارة إلى الغاء قرار ابعاد المدرس يوسف زينل. وعند اشتراكه ثانية في التحريض على المظاهرة التي دبرت بين جدران نادي التضامن الذي كان عميده أيضاً، عند مجيء «الفريد موند» الى بغداد سنة ١٩٢٨ كما سيأتي الكلام عنها ـ ولم تر الحكومة بداً من ابعاد يوسف زينل الى خارج العراق لاستبعاده عن الأوساط الطلابية، فعين بوظيفة نائب قنصل في القنصلية العراقية في بيروت بمعية القنصل العام المرحوم رشيد الخوجه، غير ان تعيينه قد ألغي بعد بضعة أشهر وأعيد الى بغداد سنة ١٩٣٠، ثم عين في الوظائف الادارية والتفتيش بوزارة المعارف.

* * *

أما المظاهرة الثانية فقد جرت سنة ١٩٢٨ عندما قدم الى بغداد الصهيوني السر ألفريد موند (لورد ميلچت بعدئذ). فتجمع طلاب المدرسة الثانوية ودار المعلمين وخرجوا بمظاهرة كبرى متوجهين الى جسر الخرّ، ينادون بسقوط الصهيونية ووعد بلفور ويهتفون لفلسطين. ولما أدركت السلطات خطورة الوضع واحتمال اعتداء الطلاب على الزائر خرجت لهم كتيبة من شرطة الخيّالة يقودها مدير شرطة بغداد يومئذ حسام الدين جمعة وتصدّت للمتظاهرين وفرقتهم بالخيزرانات والهراوات والدونكيات وسنابك الخيل، وغيّرت اتجاه موكب الزائر نحو الكاظمية فبغداد. وعلى أثر تلك المظاهرة فصل من الطلاب حسين جميل، أدهم مشتاق، عزيز علي، عبدالقادر إسماعيل، عزيز شريف، جلال عبدالرزاق وعدد آخر لا أذكرهم. كما أوقف الخياط عاصم فليّح المعروف يومئذ بميوله اليسارية، وأبعد المدرس يوسف زينل ثانية عن بغداد، وكان يومئذٍ معتمد نادي التضامن الذي دبرت المظاهرة بين جدرانه، كما سيأتي بيانه عند الكلام عن النادي المذكور.

* * *

أما المظاهرة الثالثة فكانت يوم تشييع جثمان الشيخ ضاري المحمود، المتهم بقتل الكولونيل لچمن. وعندما كانت المحاكمة تجري في المحكمة الكبرى (بناية المحاكم المدنية حالياً) كنا نتهرب من الصفوف ونقصد المحكمة لمتابعة سير المحاكمة، وكان يرأس المحكمة حينذاك قاضٍ بريطاني اسمه القاضي الكسندر، وقد دافع عن المتهم خيرة المحامين الوطنيين



المطرودون في مظاهرة (الفريد موند) سنة ١٩٢٨ :
الجالسون من اليسار: أدهم مشتاق، عزيز علي، حسين جميل، جلال عبدالرزاق، عزيز شريف، عبدالوهاب الخطيب.
الواقفون: الثاني من اليسار عبدالقادر اسماعيل، الخياط عاصم فليّح، عبدالفتاح ابراهيم.



مستشفى الغرباء في جانب الكرخ، حيث كان يجتمع فيه المجلس التأسيسي ثم اتخذ مجلساً للنواب الذي نظر في المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٢٤، والذي نظر في موضوع نفي المدرس يوسف زينل، ولما نظر المجلس في ذلك الموضوع حضر طلاب الثانوية ودار المعلمين تلك الجلسة وهتفوا للمعارضين، فأمر رئيس المجلس بطردهم من مقصورة المستمعين بواسطة شرطة المجلس

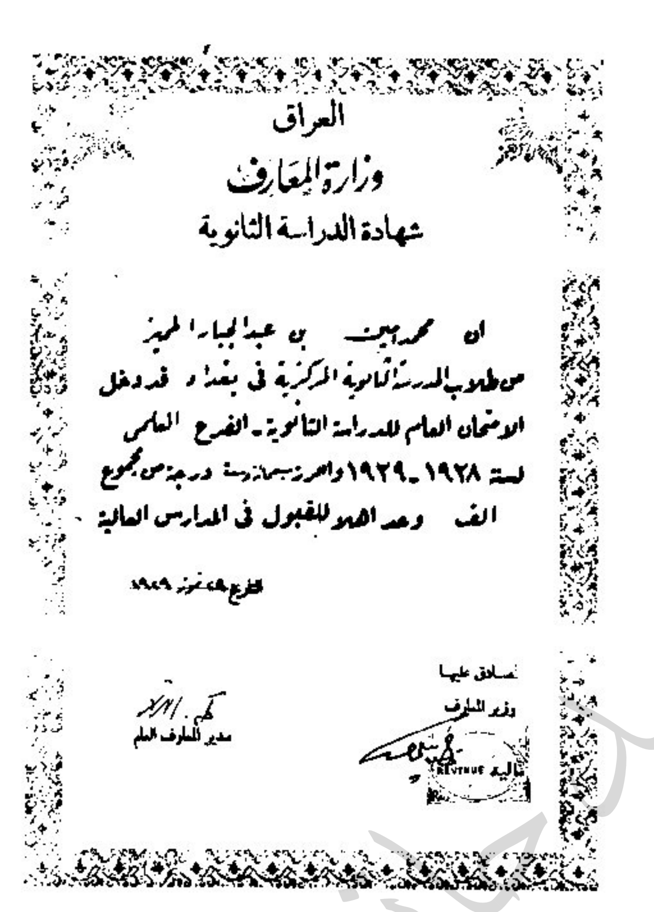
هم الشيخ أمجد الزهاوي وداود السعدي وعلي محمود الشيخ علي ويسن قدوري. وبعد صدور الحكم عليه بالاعدام وتبديله بالسجن المؤبد، تظاهرنا في ساحة المحاكم ثم تفرقنا بعد نقل المحكوم عليه في سيارة السجن السوداء، وهو في أشد حالات المرض. وبعد وفاته في مستشفى السجن في اليوم التالي لصدور الحكم شيع جثمانه الى مقبرة الشيخ معروف في مظاهرة عارمة وعاطفية سار فيها طلاب المدارس كافة وأبناء الشعب من مختلف الفئات والطبقات يحملون اللافتات وصور الفقيد وجريدة الاستقلال المجللة بالسواد.

* * * * *

تخرّجت في المدرسة الثانوية سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ فأوفدت بالبعثة العلمية لتلك السنة الى الجامعة الأمريكية في بيروت، بنصف نفقات بناءاً على طلبي وتوسيط المرحوم عبدالعزيز القصاب لأني لم أكن أرغب في الارتباط بمسلك التعليم لأكثر من سنتين، مع إيماني بأن مسلك التعليم ومسلك الجيش هما أشرف مسلكين يمكن أن يؤدي بهما المواطن خدمة لوطنه. قضيت أربع سنوات في الجامعة الأمريكية كانت من أسعد سني حياتي الدراسية والعَمَليّة. فلم أكن مرحاً ونشطاً وفعالاً طيلة حياتي مثلما كنت في الجامعة. كنت عضواً في النادي العراقي الذي كان يرأسه سنة ٢٩ ـ ٣٠ علي حيدر سليمان وهو ناد سياسي يعقد اجتماعاته خارج الجامعة، وكان يخطب فيه كبار القوميين في لبنان أمثال: الشيخ إبراهيم المنذر وعلي ناصر الدين وغيرهما؛ كنت عضواً في جمعية العروة الوثقى التي كان يرأسها في السنة الأولى ممدوح زكي؛ وفي السنة الثانية سليمان النابلسي؛ كنت نائباً لرئيس الجمعية العراقية التي كان يرأسها عوني



خريجو المدرسة الثانوية سنة ٢٨ ـ ١٩٢٩ : الأساتذة من اليمين: المستر برابر. درويش المقدادي. صديق الخوجه. تحسين ابراهيم. سعيد فهيم. شوكة الرسام. ابراهيم حيدر. بهجة الأثري. طالب مشتاق (مدير المدرسة). عزالدين علم الدين التنوخي. فرج الله ويردي. محمد خورشيد . شيت نعمان. علي مظلوم. محمد علي مصطفى. رزق الله أوغسطين.



العراق

وزارة المعارف

شهادة الدراسة الثانوية

ان محمد حسين بن عبدالجبار المميز
من طلاب المدرسة الثانوية المركزية في بغداد قد دخل
الامتحان العام للدراسة الثانوية - الفرع العلمي
لسنة ١٩٢٨-١٩٢٩ واحرز [illegible] درجة من مجموع
الف وعد اهلا للقبول في المدارس العالية

التاريخ [illegible] تموز ١٩٢٩

نصادق عليها
وزير المعارف

مدير المعارف العام

مالية REVENUE



طائرة الخطوط الجوية العراقية من نوع بونيك ٧٤٧، بالمقارنة مع سيارة (ناش) أم التنتة

يطيب لي أن أقارن بين السفر أيام زمان لغرض الدراسة في الخارج وبين السفر في هذه الأيام لنفس الغرض :

فقد سافرت سنة ١٩٢٩ للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت بسيارات شركة (دبش وعكاش) من طراز ناش (أم التنتة) واستغرقت السفرة أكثر من يومين مع رافقها من (مَغْل ، واستنشاق رملٍ وضعضعة ظلوع ، وجوع وعطش وحجرٍ في المحاجر الصحية ألخ . . وسافر أولادي سنة ١٩٨٢ للدراسات العليا في آخر الدنيا، على طائرات مصلحة الخطوط الجوية العراقية من طراز (بونيك ٧٤٧) ولم تستغرق رحلاتهم سوى بضع ساعات ، مع ما صاحبها من خدمةٍ ممتازة وراحة تامة وترفٍ أنيق وطعام لذيذ ومرطبات منعشة وأفلام مسلية وتسهيلات مثالية وشعور عميق بالاطمئنان والأمان ، وسيسافر أحفادي في عراق الغد ، إن شاء الله ، على الصواريخ أو الأقمار الصناعية أو على المركبات الفضائية أو على آخر ما ستتمخض عنه المخترعات العلمية الحديثة ويتفتق عنه الذهن التكنولوجي المبدع !! وان كان بساط الريح قد سبق هذه المخترعات بألوف السنين !!

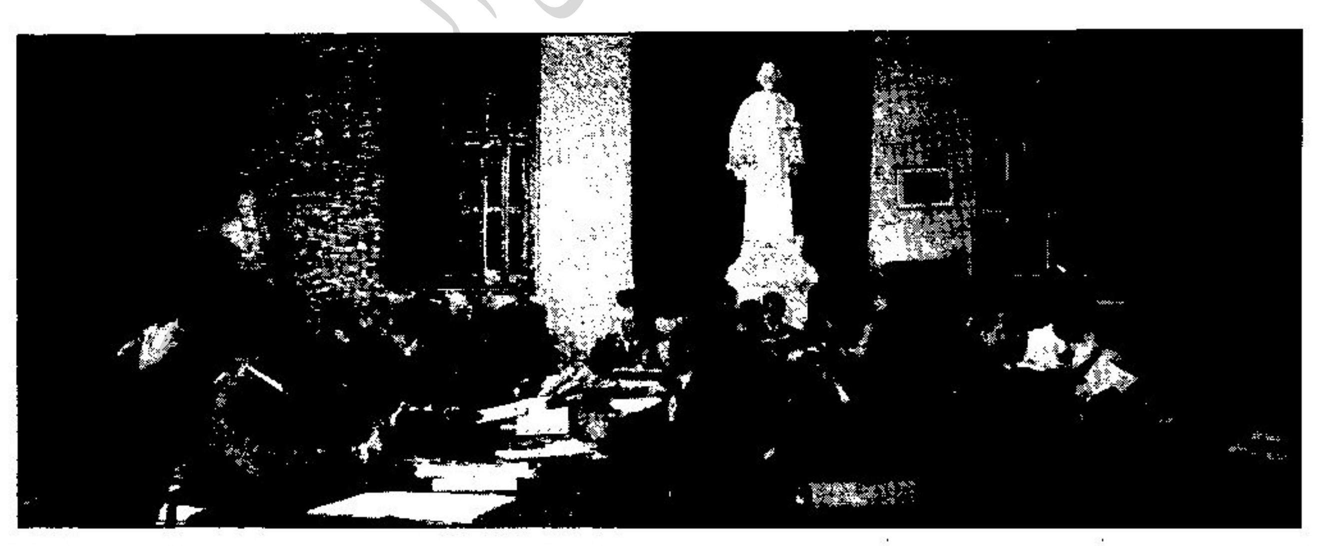


السفر الى بيروت أيام زمان

كان السفر بين بغداد وبيروت في أواخر العشرينات يتم عبر الصحراء بواسطة سيارات (أم التنته من نوع هدسون وناش وباكارد وبيوك) تعود الى شركات عربية، منها شركة دبش وعكّاش وشركة هويدي وشركة حميد الأنكرلي، باستثناء شركة (نيرن) التي أسسها مواطن من نيوزيلنده، وكانت السفرة تستغرق أكثر من يومين مع ما يصادفها من متاعب ومصاعب وارهاق و(مَغْل) والتهام الرمل. أما الذين سبقونا الى السفر الى بيروت في أوائل العشرينات فكانوا يسافرون بالباخرة عن طريق بومبي ومضيق باب المندب وقناة السويس، وكانت الرحلة تستغرق أكثر من شهر، وقد سافر عن هذا الطريق أعضاء البعثة العلمية الأولى التي ضمت كل من فاضل الجمالي ومحيي الدين يوسف وحسن جواد ومحمد الدشتي الايراني الجنسية. أما الذين سافروا الى أمريكا أمثال محمد سليم الراضي وابراهيم الشابندر فقد سافروا عن طريق سنغافورة وجزر الواق واق وعبر المحيط الهادي وتستغرق الرحلة أكثر من شهرين. أما الطلاب الذين يسافرون من عراق اليوم فيسافرون على طائرات البوينك وتستغرق السفرة بضع ساعات فقط.

الخالدي. مثلت في الحملات السنوية التي كانت تعقدها الجمعية في (وست هول). ففي السنة الأولى مثلت دور الزوجة البغدادية أم زكية، زوجي شريف يوسف وابني الوكيح أحمد العامر، وطفلي نايم في الكاروك وأنا أهز الكاروك، وألولي له ولابس الجَرْغَند والفوطه والهاشمي المطرّز، وقد منحت شواربي إجازة زمنية لليلة واحدة:

ديليلول، يالولد يا ابني ديليول
عدوك عليل وساكن الچول، ديليول



مكتبة الجامعة الأمريكية القديمة، حيث تولدت في نفسي النزعة للكتابة والتأليف

أما لغيري فكانت طاولات المطالعة ملتقى لبعض الأحبّة بالحبيبات:
ابراهيم طوقان مع ماري وحافظ جميل مع ليلي تين وجورج الفاهوم مع فيحاء سني.
الجالسون على الطاولة اليمنى أمين المميز وكامل قزانچي. وعلى الطاولة الوسطى بهجت كشموله والخالدي وعلى أقصى الطاولة اليسرى الآنسة ديب والآنسة شماعه.



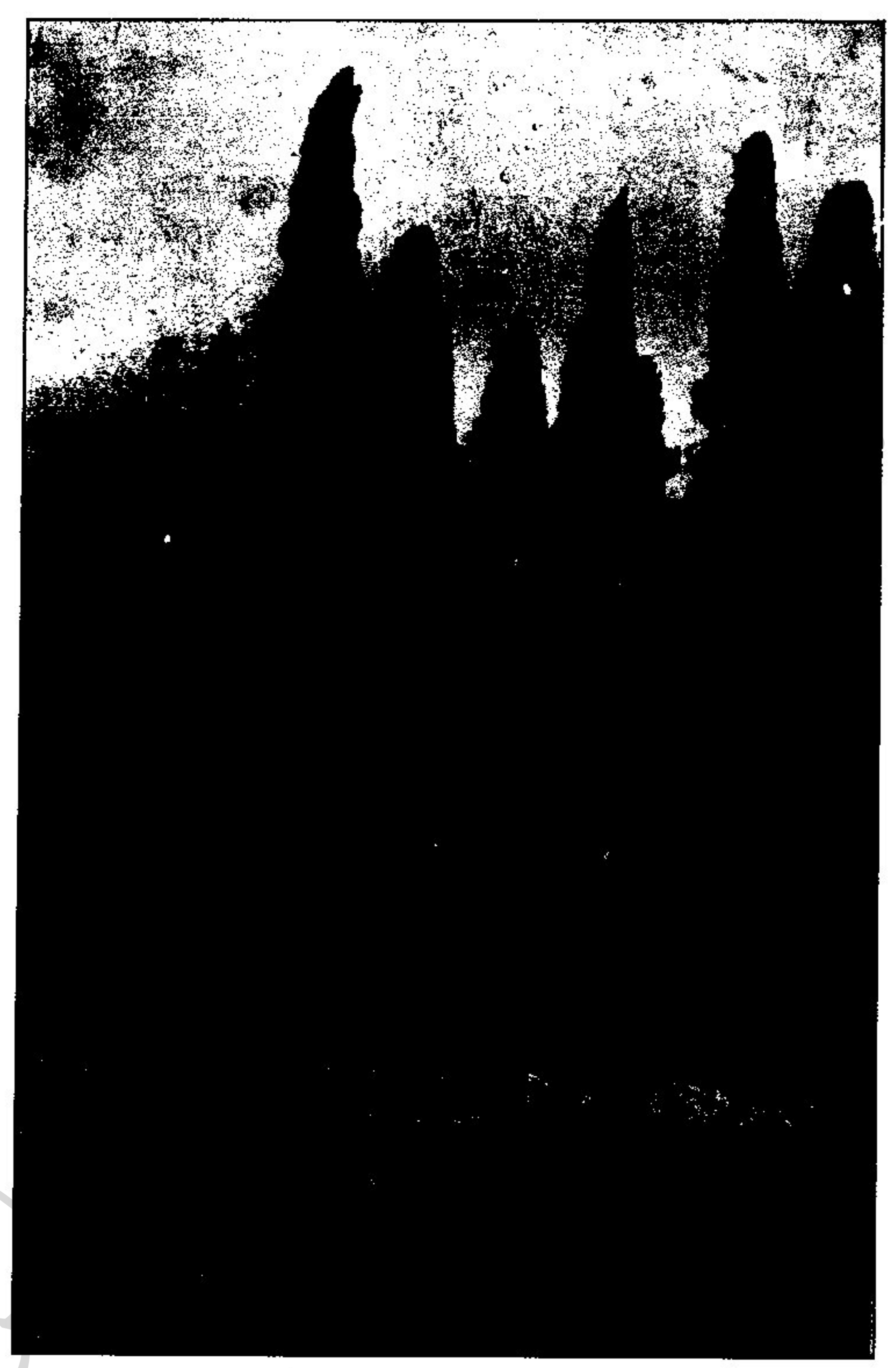
حرم الجامعة الأمريكية في بيروت كما كان عليه سنة ١٩٣٠

ومثلت في السنة الثانية دور بوليس هندي في خان دلّه أيام الاحتلال البريطاني. صداقات الشباب بدأت في الجامعة، وكانت أقرب الى صداقات (أخوان الصفا وخلّان الوفا) المعروفة في التأريخ منها الى الصداقات العابرة المعروفة حالياً. أذكر من الأصدقاء والخلّان عوني الخالدي، شريف يوسف، عبدالمنعم الگيلاني، نجيب محمود، محمود إبراهيم، هاشم جواد، حكمت الچادرچي، مجيد خدّوري، مجيد عبدالله، إبراهيم بيثون، حسيب رشيد، وأحمد حديد، بشير حديد، ناجي مراد، نهاد رفعت وأخوه بسيم، وعدد كبير من أبناء الأقطار العربية، ولكننا كنا أقرب بميولنا ومشاربنا وطباعنا وروحنا القومية الى الفلسطينيين والأردنيين من الطلاب العرب الآخرين، وتحضرني منهم أسماء سليمان النابلسي، أحمد الخليل، سعيد الدّجاني، يعقوب أبو غوش، ضياء النمري، حسني فريز خزنه كاتبي، الشاعر والأديب الأردني، متعنا الله بشعره وأدبه، والخالدي وعبدالهادي وطوقان والدجاني (البصير) وكثيرون آخرون من أبناء فلسطين وشرق الأردن ممن لا تحضرني أسماءهم.

درست على خيرة الأساتذة العرب والأجانب، ونوعت مواضيع دراستي (كورسات) لاعتقادي بأن الاختصاص الضيق لا يجعل المرء مؤهلاً للعمل في كافة مناحي الحياة العملية، فشملت العلوم الطبيعية والرياضيات والتأريخ والاقتصاد والاجتماع والتربية والزراعة. وحتى الحقوق، فدرست «المجلة» على يد طليعة رجال الفقه والقانون في لبنان. درست العلوم على يد



«أخوان الصفا وخلّان الوفاء» في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٣٢
عوني الخالدي. أمين المميّز. هاشم جواد. شريف يوسف. نجيب محمود.



في حرم الجامعة الأميركية في بيروت في ٢٧ كانون الأول سنة ١٩٣٢

من اليمين :

نجيب محمود، شريف يوسف ، عوني الخالدي ، عبدالعزيز عريم وأمامه ولده عدنان [بمناسبة زيارته بيروت لمعالجة ولده الصغير خالد (المرحوم الدكتور خالد عريم)] حكمت الجادرجي ، عبدالمنعم الگيلاني ، أمين المميّز .

وأثناء زيارة عبدالعزيز عريم لبيروت وردته رسائل من الفلوجة تفيد بأن الأستاذ معروف الرصافي قد وصلها بصحبة حميد كنّه للأقامة فيها بصورة دائمة وأنه قد استأجر الدار المقابلة للسراي القديمة والتي تعود الى حمد العلي الذهيبة . فكتب عبدالعزيز بحضوري رسائل الى أخوانه وأصدقائه في الفلوجة يوصيهم بالعناية بالرصافي ورعايته والاهتمام بشؤونه ريثما يعود الى الفلوجة قريباً . وبعد عودته كتب لي عدة رسائل يوصف لي حياة الرصافي وانتقاله الى الدار التي يمتلكها عبدالعزيز والواقعة على ضفة الفرات .



الرئيس النبيل بيارد دودج ، رئيس الجامعة الأميركية في بيروت لأكثر من عشرين عاماً
وأكثر من عرفت من الأمريكيين اخلاصاً ووفاءاً للعرب



الجمعية العراقية في الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٣١ ـ ١٩٣٢

في الوسط: بيارد دوج رئيس الجامعة الأميركية، والى يمينه عوني الخالدي رئيس الجمعية، وأمين المميّز نائب الرئيس، ومجيد عبدالله مغزل. والى يساره الأستاذ أسد رستم مستشار الجمعية، وهاشم جواد، ومجيد خدوري وحكمت الچادرچي.



الجمعية العراقية في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣

الجالسون، من اليمين: كامل قزانچي، الدكتور أسد رستم (مستشار الجمعية)، عوني الخالدي (رئيس الجمعية)، الرئيس بيارد دوج (رئيس الجامعة الأميركية) أمين المميّز (نائب رئيس الجمعية) عبدالحميد كاظم (سكرتير الجمعية).



جمعية العروة الوثقى في الجامعة الأميركية في بيروت، في ٢٠ مايس ١٩٣١

في الوسط: سليمان النابلسي رئيس الجمعية، الى يمينه حسني فريز، نائب الرئيس، والى يساره سكرتير الجمعية ضياء النمّري.

من بعض الواقفين في الصفوف الخلفية: أحمد الخليل، عوني الخالدي، أمين المميّز، عبدالعزيز مهدي، هاشم جواد، محمود إبراهيم، أمين الهلالي.



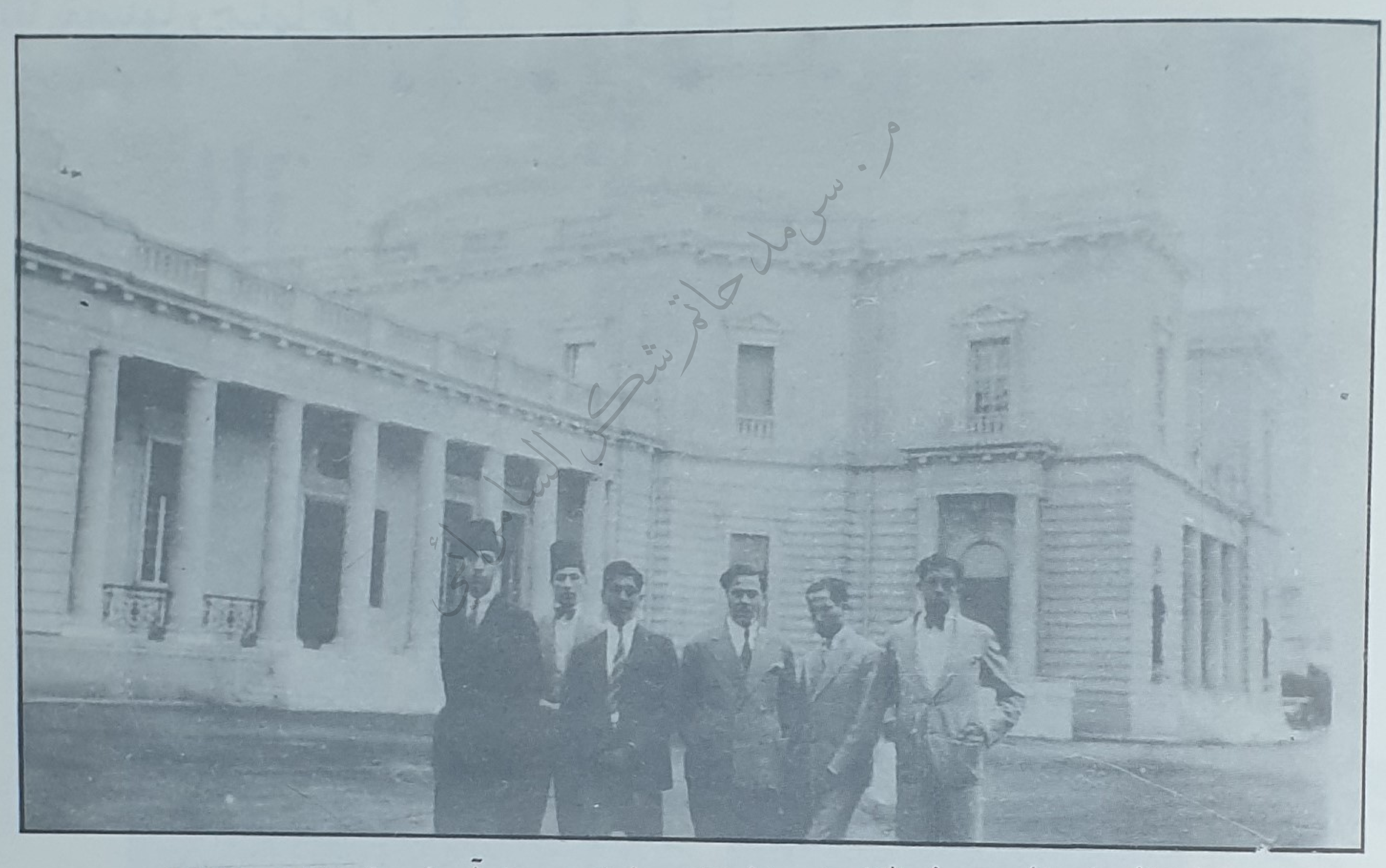
نادىء النشء العراقي يكرّم مزاحم الپاچه‌چي عند مروره في بيروت قادماً من لندن سنة ١٩٣٠ للانضمام الى الحزب الوطني: في الوسط، المحتفىٰ به مزاحم الپاچه‌چي والى يمينه الدكتور صبيح الوهبي وفهمي جرمقلي، وعبدالله بكر وممدوح زكي، والى يساره علي حيدر سليمان، زكي صالح، عبدالله نشأة وفؤاد درويش.

قدمه رئيس النادي بعبارة: «العراق يتكلم» ولكن «العراق» عندما سافر الى العراق أصبح وزيراً للداخلية في وزارة نوري السعيد التي كبلت العراق بمعاهدة ١٩٣٠!!

كان عميد كلية الآداب والعلوم البروفسور نيكولي المعروف بين الطلاب بحزمه وصرامته، ولكني لم أستلم منه ولا مرة (استدعاء) لمكتبه لتلقي عقوبة أو انذار أو تأنيب. وكان رئيس الجامعة الرجل النبيل المحبوب (بيارد دوج) ذو الابتسامة الحلوة التي لا تفارق محيّاه، ومن أخلص أصدقاء العرب بين الأميركيين.

لم تكن عندي مغامرات الشباب، إلاّ لماماً ونادراً. كنت معروفاً بين الأساتذة والطلاب بحسن السيرة والسلوك وأتمتع بثقة وتقدير طالبات الجامعة والجونيور كوليج، وشهد بذلك الدكتور حبيب كوراني مسجل الجامعة في شهادته المنشورة على الصفحة ٢١٦. صمت رمضان في السنة الأولى وأديت صلاة العيدين في السنوات الأربع. كنت أنيقاً في ملبسي ومهندماً في فرشتي وغرفتي، ويشهد بذلك عوني الخالدي الذي عايشته وسكنت معه في غرفة واحدة أربع سنوات.

من أفضال الجامعة الأمريكية الكثيرة عليّ أنها غرست في نفسي بذرة حب الأسفار والضرب في آفاق الأرض الواسعة. ففي السنة الأولى قمت بأول وأمتع سفرة في حياتي، هي سفرتي الأولى الى القاهرة في ربيع عام ١٩٣٠. وفي ربيع السنة الثانية قمت بسفرة الى فلسطين وشرق الأردن وبعض أرجاء سورية ولبنان، وفي صيف السنة الثالثة قمت برحلة بحرية الى استانبول عبر جزر الأرخبيل اليوناني على الباخرة (باتريا)(*)



زيارة المتحف المصري في القاهرة ومشاهدة مومياء توت عنخ آمون سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١

(*) كانت زيارتي الأولى لشرق الأردن عام ١٩٣١ على النقيض من زيارتي للقاهرة سنة ١٩٣٠ التي استمعت فيها لأول مرة أغنيات أم كلثوم في حديقة الأزبكية ومحمد عبدالوهاب في صالة بديعي مصابني في شارع عمادالدين ومشاهدة أبو الهول واهرامات الجيزة وهرم سقّاره والقناطر الخيرية وحديقة الحيوانات والمتحف المصري وقلعة محمدعلي ومسجد سيدنا الحسين والأزهر الشريف وخان الخليلي.

كانت شرق الأردن يومئذ صحراء قاحلة تكثر فيها جلاميد الصخور السوداء ومعظم سكانها من البدو أو من اللاجئين أو الهاربين من فلسطين أو من سورية ولبنان أو العراق. أما عمان فكانت قرية صغيرة أكبر بناء فيها كان مقر الأمير عبدالله (يلفظونه هناك ـ المگر) وهو بيت صغير ذو طابق واحد، يرفرف عليه علم الأمير عبدالله، ويحرسه جنود من الچركس (الچچان) بلباسهم الچركسي و(الكلاو) الكبير، وتحيطه جمال الهجّانة ومرابط الخيل. ولم يكن في عمان يومئذ شارع مبلط أو عمارة بأكثر من طابق واحد، كما لم يكن فيها كهرباء. وقد شاهدت بعض البيوت منقورة في الجبال المحيطة بعمان. أما الفندق الذي أقمت فيه فكان أقرب الى مسافرخانات (علاوي الحلة) منه الى فندق. فلم يكن في غرفتي سوى (قريوله) و(دوشك) ومخدّة محشوة بنثر الصوف وبطانية، وفانوس معلق على الجدار. وقد اضطررت لقضاء ثلاث ليالي في ذلك الفندق. بسبب هطول الأمطار الغزيرة التي عزلت عمان عن العالم لعدم صلاح الطرق لسير السيارات. كنا سبعة ركاب في سيارة أجرة تقلنا من عمان الى الشام عن طريق درعا، وقبل أن تبلغ السيارة الحدود لم يبق فيها سوى راكب واحد، هو أنا، حيث ان بقية الركاب، وكلهم من الملاحقين والهاربين والمهربين قد تسللوا عبر الصحراء أو احتجزوا في الحدود، أو كانت جوازاتهم غير مستوفية للشروط فأعيدوا من حيث أتوا.

لما غادرت الجامعة الأمريكية بعد تخرجي فيها، صرت أتردد عليها كلما مررت بلبنان، أجوس في ساحاتها وبناياتها وحدائقها وأطالع في مكتبتها، وأتفيأ في ظلال أشجار (البانيان) والصنوبر، وأتذكر الأيام الخوالي المِلاح التي كنا نجلس على تلك المصطبات الخضراء مع زملائي وزميلاتي في الجامعة.

وبعد أن دخلت الحياة العملية وضربت آفاقاً أبعد من التي ضربتها إبّان وجودي في الجامعة وأصدرت كتابي الأول (الانگليز كما عرفتهم) أهديته الى الجامعة الأمريكية في بيروت، اعترافاً بفضلها وجميلها عليّ.

* * * * *



حفلة التخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٣٣
(أمام بناية فيسك هول)

American University of Beirut



الجامعة الأميركية في بيروت

To whom it may concern, Greeting

Whereas Amin Mumayyiz
has satisfactorily completed the required course of study in the
School of Arts and Sciences
of the
American University of Beirut

in virtue of the authority vested in the University by charter under the laws of the State of New York, in the United States of America, be it known that the Faculty of the University has granted him the degree of
Bachelor of Arts
and that he is entitled to all the rights and privileges thereunto pertaining.

Given at Beirut, Lebanon
the 20th day of June 1933.



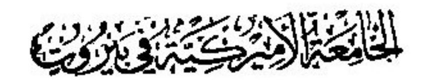
In witness whereof the seal of the University and the following signatures are affixed:

Geo. Stewart Jr. — President
Edward F. Nickoley — Dean of the School

لكل من يطلع على هذه الأحرف سلام

بناء على أن أمين المميز قد أتم الدروس القانونية
وجاز الامتحانات المطلوبة في كلية الآداب والعلوم من
الجامعة الأميركية في بيروت
واستنادا على الحق الشرعي المعطى للجامعة المذكورة من حكومة ولاية نيويورك في الولايات المتحدة
فليعلم
أن عمدة الجامعة قد منحته رتبة [illegible]
وصار يحق له التمتع بكل الحقوق والامتيازات المختصة بهذه الرتبة وإشعارا بذلك قد وضعنا
بيده هذه الشهادة مختومة بختم الجامعة وموقعة بتوقيعاتنا
بيروت في ٢٠ حزيران سنة ١٩٣٣

شهادة بكلوريوس من كلية العلوم والآداب في الجامعة الأميركية في بيروت لسنة ١٩٣٣



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
BEIRUT, LEBANON

دائرة التسجيل
REGISTRAR'S OFFICE

CABLE ADDRESS: AMUNOB BEIRUT

June 25, 1936.

Iraquian Legation,
22, Queen's Gate,
London, S.W. 7,
England.

Dear Sir:

At the request of Mr. Amin Mumayyiz I beg to enclose herewith a transcript of his record at the University.

It gives me pleasure to state that Mr. Mumayyiz proved himself to be a young man of good character and by his good conduct he won the respect of his teachers and fellow students.

Yours sincerely,

H Kurani

Habib Kurani,
Registrar.

HK:AB

ترجمة كتاب مسجل الجامعة الأمريكية في بيروت

دائرة التجسيل
٢٥ حزيران ١٩٣٦

المفوضية العراقية
٢٢ كونيز گيت، لندن، أس. دبليو. ٧

سيدي

تلبية لرجاء السيد أمين المميز، أرجو أن ارفق طياً كشفاً بسجله الدراسي في الجامعة.

يسرني أن أذكر بأن السيد المميز قد أثبت خلال وجوده في الجامعة بأنه شاب ذو أخلاق ممتازة، وانه بتصرفاته الحميدة قد حظي باحترام أساتذته وزملائه الطلبة.

المخلص
حبيب كوراز
المسجّل



زيارة اهرامات الجيزة سنة ١٩٣٠
الراكبون على الجمال : من اليمين : بهجت الخضيري ، أمين المميّز، جعفر شهربنلي

زرت أبا الهول وتمعنت في أنفه المجدوع (فلأمرٍ ما جدَعَ قَصيرٌ أنفه) وتناولت الطعام في فندق (مينا هاوس) بدعوة من طلاب الجامعة المصرية ودوّنت في مفكرتي أبيات البهاء زهير، الشاعر والكاتب والوزير في الدولة الأيوبية في مصر، المنقوشة بماء الذهب حول السقف اللازوردي للصالة الكبرى :

سألت أخي أبا عيسى	وجبريلٌ له عقل
فقلت الخمر تعجبني	فقال كثيرها قتل
فقلت له فقدّر لي	فقال وقوله فصل
رأيت طبائع الانسان	أربعة هي الأصل
فأربعةً لأربعةٍ	لكل طبيعة رطل

(في الفلسفة القديمة أن أصول الطبيعة أربعة هي الماء والهواء والنار والتراب وأمزجة الانسان أربعة أيضاً هي البلغمي والسوداوي والصفراوي والهوائي).





جولتي في فلسطين سنة ١٩٣١ : مع الطائفة السامرية في جبل جرزيم

الجالس في أقصى اليسار بالسدارة العراقية ، أمين المميّز. حامل التوراة القديمة أحد كهنة السامريين

كانت جولتي في فلسطين في العطلة الربيعية للجامعة الأميركية سنة ١٩٣١ ممتعة ومفيدة ، على العكس من جولتي القصيرة في شرق الأردن المبحوث عنها في مكان آخر من الكتاب . فبرعاية بعض زملائي في الجامعة الأميركية من الفلسطينيين ، تمكنت من زيارة معظم مدن فلسطين ومشاهدة الكثير من معالمها المقدسة والأثرية .

زرت القدس وصليت في المسجد الأقصىٰ ، وأديت فريضة صلاة العصر في مسجد عمر وتبركت بالصخرة المشرفة ، وشاهدت اليهود متعلقين بأهداب حائط المبكىٰ يندبون حظهم على هدم هيكل ملكهم سليمان .

زرت حيفا ، والتقيت صدفة في أحد شوارعها باثنين من أصدقائي هما الضابطان خليل جميل وأكرم أحمد ، وكانا في طريقهما الى الكلية (الاسكتلندية) في صفد ، لدراسة اللغة الانكليزية استعداداً لالتحاقهما بالاكاديميات العسكرية في (چتام) و(ووليج) بانكلترة . واطلعت على جبل الكرمل وجست بين حدائقه .

زرت يافا وتجولت في شوارعها وأمضيت أمسية في إحدىٰ كازينواتها مع بعض الشباب من أهاليها ، ولما حل المساء راعني ما شاهدته عندما أخذ أولئك الشباب يتطاردون زرافاتاً ووحداناً نحو تل أبيب لمغازلة فتيات اليهود وقضاء الليالي الحمر هناك ، وشاهدت فلماً في سينما (أوفير) احدىٰ كبريات السينما هناك .

زرت طبريّة وجلست على ضفاف بحيرتها بجلسة تشبه الجلسات التي تعقد على ضفاف دجلة ، وأكلت سمكها المقلي وليس (المسگوف) ، بدعوة من الوجيه الوطني المرحوم رشيد الحاج إبراهيم .

رأيت محفل البهائية في (البهجة) الواقعة بالقرب من عكا ، وشاهدت (عباس أفندي) حفيد (الباب) المرزا حسين الذي يلقبونه (بهاء الله) محنطاً ومسجىً على سرير ضخم ، محاطاً بالزهور ، واطلعت على بعض الكتب والنشرات التي تبحث عن تعاليم البهائية وأهدافها .

وبأرشاد من بعض النابلسيين ، زرت جبل (جرزيم) القريب من نابلس للتعرف على طائفة (السامريين) ولمشاهدة أقدم نسخة من (التوراة) في العالم .

ان طائفة السامريين هي أقدم طوائف اليهود ، وهي في طريق الانقراض ، وكان عدد أفرادها يوم زرتها سنة ١٩٣١ لايتجاوز بضع مئآت . انهم يعتقدون بأنهم العبرانيون الأصليون الذين ينحدرون من الأسباط ، وأن ديانتهم هي الديانة اليهودية الصحيحة ، كما بشر بها النبي موسىٰ ، وأن كتابهم المقدس (التوراة) المكتوب على رولة من الجلد باللغة الارامية ، والذي يحتفظون به في خزانة من الزجاج محاطة بالأنوار والأشرطة الملونة ، ويعرضونه للسائحين والزائرين لجمع التبرعات لأدامة الكنيس وتلافي نفقات معيشة وتربية أبناء الطائفة ، ويدعون انه أول وأقدم (توراة) في العالم على وجه الاطلاق .

ان لغة السامريين الحالية هي العربية التي اعتمدوها بعد اللغة الآرامية منذ الفتح الاسلامي ، ولا شأن لهم باللغة العبرية التي يتكلمها سائر اليهود في فلسطين .

انهم يؤمنون بوحدانية الله ، ويقولون ان (الكليم) هو أول وآخر الأنبياء وان جبل (جرزيم) هو (قطب الكون) وأرض الله المختارة ولا تصحّ العبادة بمكان آخر غيره ، كما يقولون بالبعث والنشور يوم القيامة .

كان السامريون يوم زرتهم سنة ١٩٣١ يعتمرون الطربوش الأحمر واللباس الشرقي المألوف ، ولرؤسائهم الروحانيين لباسهم الخاص بهم .

ولا أعلم كم بقي منهم بعد زيارتي لهم قبل أكثر من خمسين عاماً ، ولا مدىٰ انسجامهم مع الدولة الصهيونية التي تختلف عنها بكافة النواحي التاريخية والاثنولوجية والسياسية والدينية والاجتماعية .



أعمدة الصابون في مصبنة طوقان

إن نابلس هي أكبر مدن فلسطين بعد القدس، وقد أمضيت فيها أطول فترة من زيارتي لفلسطين سنة ١٩٣١ برعاية وضيافة زملائي من طلبة الجامعة الأمريكية الذين جعلوا الزيارة مفيدة ومسليّة ودرساً في القومية.

تمتاز نابلس عن سائر مدن فلسطين بعدة ميزات:

منها، شهرتها بالصابون النابلسي الذي يفوق بجودته ورائحته العطرة كافة الصوابين التي تنتج في البلاد العربية، وأشهر مصبنة في نابلس كانت يومئذٍ مصبنة عبدالفتاح طوقان، التي كانت تصدر صوابينها الى معظم الأقطار العربية المجاورة، غير ان إنتاجها قد تضاءل منذ الاحتلال الاسرائيلي الجاثم على صدر فلسطين.

ومنها، شهرتها بالكنافة النابلسية التي لا ينازعها منازع كفطور في الصباح الباكر سوى (كاهي المصبغة) البغدادي!!

ومنها، شهرتها بالأكلة الشعبية الفلسطينية المسماة (المسخّن)، ويتباهى النابلسيون بالمسخّن مثلما يتباهى البغداديون بالمسگوف، والبصريون بالمعسّل، والسعوديون بالمنسف، واللبنانيون بالمسحّب والمصريون بالمدمّس والتونسيون بالچكچوكه والمراكشيون بالكُسْكُسْ!!

ومنها، وهو الأهم من كل ما تقدم، فان نابلس هي معقل الحركة القومية العربية وقلعة النضال الوطني الفلسطيني في شتى العهود، وقد أنجبت شخصيات كثيرة كان لها دور طليعي في النضال القومي سواء إبان الحكم العثماني أوأثناء الانتداب البريطاني والغزو الصهيوني أو أيام الاحتلال الاسرائيلي الحالي. وللمدرسة النجاح (جامعة النجاح حالياً) فضل كبير في رفد الوطن العربي بالمناضلين الأحرار يضاهي فضل المدرسة الثانوية والتفيض الأهلية على العراق والعراقيين. ومن العوائل النابلسية التي أنجبت مثل أولئك المناضلين عائلة (عبدالهادي) التي أنجبت الشهيد سليم عبدالهادي الذي أعدمه جمال باشا السفاح في بيروت سنة ١٩١٥ ضمن القافلة الأولى من الشهداء العرب الذين نادوا بالاصلاح وباللامركزية إبان الحكم العثماني. ومن الذين أنجبتهم هذه العائلة المناضلة عوني عبدالهادي ذلك المجاهد العربي الذي ناضل وجاهد في سبيل القضية العربية منذ نعومة أظفاره. انه من مواليد نابلس سنة ١٨٨٩، وبعد اكمال دراسته الثانوية في فلسطين درس في استانبول ثم تخرج في كلية الحقوق في باريس، وكان واحداً من خمسة من الشباب العرب الذين كانوا يدرسون في باريس، وفكروا في عقد المؤتمر العربي الأول سنة ١٩١٣، وهم عبدالغني العريسي وأميل مردم ومحمد المحمصاني وتوفيق فايد وعوني عبدالهادي الذين مثلوا سورية ولبنان وفلسطين في ذلك المؤتمر. أما العراق فقد مثله توفيق السويدي الذي كان يدرس في السوربون يوم ذاك. وعند وصول الملك فيصل الأول الى باريس لحضور مؤتمر السلام في فرساي سنة ١٩١٩ اختار عوني عبدالهادي سكرتيراً له وعضواً في الوفد العربي الذي كان يضم نوري السعيد (من العراق) ورستم حيدر (من لبنان) والدكتور أحمد قدري (من سورية) وعوني عبدالهادي (من فلسطين)، وكان الملك فيصل الأول يمثل والده الملك حسين ملك الحجاز. ومنذ ذلك الحين لازم عوني عوني عبدالهادي معظم المؤتمرات واللجان والوفود والمفاوضات المتعلقة بالقضية الفلسطينية، وكان الفرنسيون قد حكموا عليه بالاعدام لمناوأته سياستهم في المشرق العربي إبان الانتداب. وقد أشغل عوني عبدالهادي منصب وزير الخارجية في المملكة الأردنية الهاشمية في الخمسينات، بعد أن أمضى عدة سنوات لاجئاً في القاهرة. وقد أسعدني الحظ بالتعرف عليه في أخريات أيامه، رحمه الله. لقد حمل الراية من بعد عوني عبدالهادي عدد من أبناء تلك العائلة المناضلة منهم روحي عبدالهادي وبرهان عبدالهادي والسيدة ضال عبدالهادي رئيسة الاتحاد النسائي الفلسطيني حالياً، وكثيرون غيرهم من عدة أجيال.

ومن الشخصيات الفذّة التي أنجبتها نابلس وعرفتها البلاد العربية من طرابلس الغرب وتونس ومصر غرباً حتى سورية ولبنان والعراق شرقاً والسعودية واليمن جنوباً، هو أبو الحسن محمد علي الطاهر، ذلك المجاهد العربي والصحفي الألمعي، صاحب جريدة (الشورى) ومؤلف كتاب (ظلام السجن) ورئيس اللجنة الفلسطينية في مصر، والذي أمضى معظم سني الحرب العالمية الثانية في المعتقلات والتشرد من أجل القضية الفلسطينية. وقد كانت (دار الشورى) في القاهرة وداره في شارع (جان دارك) في بيروت ندوة وناديا يتردد عليه المعجبون بأبي الحسن من كل دنيا العرب. ولعائلة آل الطاهر عدة أبناء عرفوا بمواقفهم الوطنية والقومية وكفاحهم ضد الاستعمار والصهيونية، منهم الشيخ نظمي الطاهر ومصطفى الطاهر والدكتور حسني الطاهر وغيرهم.

ومن العوائل المعروفة في نابلس عائلة (المصري) ومن أبنائها حكمت المصري رئيس مجلس النواب الاردني سابقاً وطاهر المصري وزير خارجية الأردن حالياً وجعفر المصري رئيس غرفة تجارة نابلس.

ومن عوائل نابلس المعروفة عائلة سليمان النابلسي رئيس الوزراء الأردن سنة ١٩٥٦ وزميلي في الجامعة الأمريكية في بيروت في أوائل الثلاثينات، ورئيس جمعية العروة الوثقى فيها.

أما كبرى العوائل النابلسية فهي عائلة طوقان ومن أبنائها عبدالفتاح طوقان وولداه ابراهيم طوقان الشاعر القومي الملهم، والزميل في الجامعة الأمريكية وأحمد طوقان وزير التربية في الأردن سابقاً. وشقيقتهما الشاعرة فدوى طوقان. وبصدد ذكر فدوى طوقان تحضرني مناسبة حصلت في جدّة سنة ١٩٥٥، ضمّت بعض الفلسطينيين واللبنانيين، وكان من جملة الحاضرين المستر فيلبي، فجرت مناقشة حامية الأوار بين فدوى وفيلبي، حول فلسطين. فانطلقت فدوى تفضح مواقف بريطانيا من القضية الفلسطينية، بدءاً من العهود التي قطعتها للعرب ونكثها لتلك العهود، وغدرها بهم باصدارها وعد بلفور سنة ١٩١٧ وغدرها بهم ثانية سنة ١٩٤٨ بعدما أعلنت بأنها ستنهي انتدابها على فلسطين في ١٥ مايس ١٩٤٨، وتعهدت بالمحافظة على الأمن والنظام في البلاد حتى ذلك اليوم، غير انها سحبت قواتها فجأة وبصورة غير متوقعة من معظم المناطق والمدن المهمة قبل ليلة ١٤/١٥ مايس بالتواطؤ مع العصابات الصهيونية، وقالت فدوى لفيلبي: «لقد سلمتنا حكومتك الى (الهاگانا) وعصابات (شتيرن) و(ارگون) وغيرها من الذئاب المفترسة، لتفتك بنا وبشيوخنا وأطفالنا، وتحيلنا الى شعب من اللاجئين مشردين تحت كل نجمة.» وقد بلغ التأثر والحماس بفدوى حتى كادت تجهش بالبكاء.

ومن شخصيات نابلس من عائلة طوقان السفير السابق بهاءالدين طوقان، والد الملكة علياء، ملكة الأردن الراحلة، ونبيل طوقان المدير في شركة (عالية) - الخطوط الجوية الأردنية.

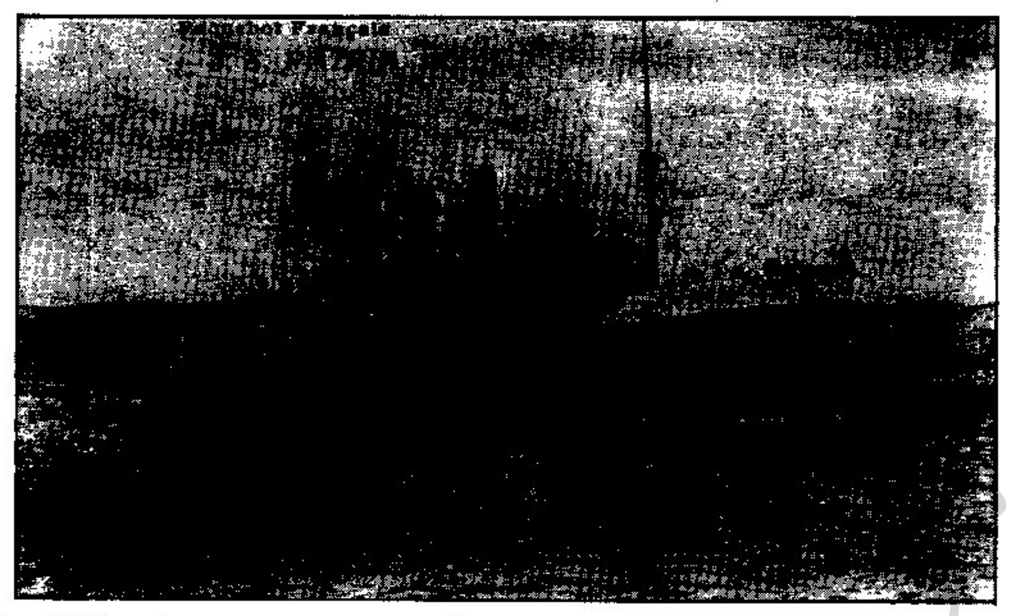
ان آخر من تعرفت عليه من تلك العائلة الكريمة هو المرحوم سليمان طوقان وزير الدفاع في حكومة الاتحاد العربي الذي لقي حتفه مع المرحوم ابراهيم هاشم، نائب رئيس وزراء حكومة الاتحاد صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨، عندما أصدر عبدالسلام عارف أمره الأهوج من مقره المؤقت في دار الاذاعة، بنقل نزلاء فندق بغداد والمتواجدين منه آنئذ، بناقلة عسكرية الى وزارة الدفاع عبر شارع الرشيد، مروراً بدار الاذاعة في الصالحية، ووسط الجماهير الهائجة التي فتكت بركاب الناقلة من عرب وأجانب بدقائق معدودات، في نفس الساعة التي كان فيها صوت عبدالسلام يلعلع من على الراديو، وكانت حوالي السابعة صباحاً، وهو يدعو الناس للخروج الى الشوارع ويحرضهم على سحل البشر والتمثيل بهم، كما سمعته بأذني الاثنتين، ولم ينج من ركاب الناقلة، الذي كان عددهم حوالي العشرين شخصاً، أثناء توقفها قرب المدخل الجنوبي لوزارة الدفاع، لاستحالة مرورها من الباب الرئيسي لشدة الازدحام، سوى اثنين من ركابها هما خلوصي الخيري وزير الدولة الأردني للشؤون الخارجية لوزارة الاتحاد العربي، وسامي فتاح وزير الدولة العراقي لشؤون الدفاع بتلك الوزارة.

ولكن الله، جلّت قدرته وعظمت مشيئته، كان لعبدالسلام بالمرصاد، فقد شاء سبحانه وتعالى، أن يطير عبدالسلام على طائرة الهليكوپتر عظماً ودماً ولحماً ويهبط على الأرض رماداً وفحماً.

وما ربك بظلّام للعبيد - صدق الله العظيم.



في نبع الباروك بلبنان في صيف سنة ١٩٣٢، قبل الرحلة الى استانبول:
مع جاري في محلة الدنگچيّة والصرافيّة وأستاذي في المدرسة الثانوية وزميلي في المدرسة الغربية ورفيقي في الأسفار الخارجية، الأستاذ محمد بهجة الأثري.



الباخرة الفرنسية «باتريا» التي أقلتنا من بيروت الى أستانبول في ٧ آب ١٩٣٢ ، والتي كانت احدى ضحايا الحرب العالمية الثانية ، وكان مصيرها مصير شقيقتها الباخرة (أسبيريا) التي أبحرت عليها الى (القفص الذهبي) سنة ١٩٣٨ والتي أغرقت أيضاً إبّان الحرب العالمية الثانية (وهي غير الباخرة أسبيريا الحالية التي حلت محلها وسميت باسمها)



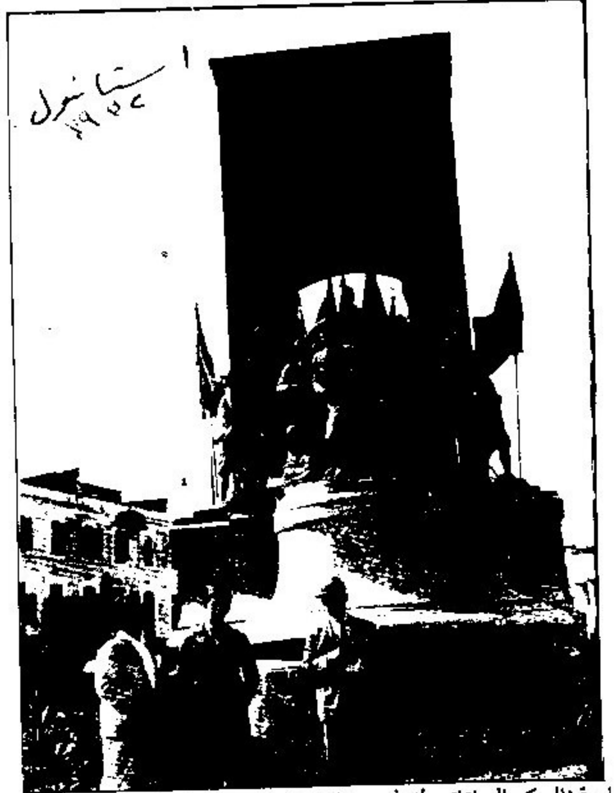
على ظهر الباخرة (باتريا) في الرحلة الى استانبول في صيف سنة ١٩٣٢

من اليمين :

قدري الأرضرملي ، محمد خالص رفيق ، أمين المميّز ، عوني الخالدي ، مواطن فلسطيني (لا يحضرني اسمه) :

وأني إذ أنشر هذه الصورة فانما للتذكير بظاهرة قومية مؤلمة . ان ذلك الشاب الفلسطيني هو من مدينة يافا ، وكان في طريقه من فلسطين مهاجراً الى الولايات المتحدة ، بعد أن باع أملاكه وبيّاراته الى اليهود بأسعار خياليّة ، وكان يتبجح ويتباهى بتلك الصفقة ، وينثر الدولارات يمنة ويسرة في بارات الباخرة ، متفاخراً ومتباهياً بترك بلاد آبائه وأجداده والهجرة الى أمريكا وجيوبه حُبلىٰ بالدولارات الحرام . ولقد ترك تصرفه هذا أسوأ الأثر في نفوس جميع العرب المسافرين على الباخرة .

انه لم يكن الفلسطيني الوحيد الذي باع أملاكه وأراضيه الى الصهيونيين وهاجر الى الخارج ، فهناك آخرون من أمثاله من الفلسطينيين وغيرهم من الذين اقترفوا نفس الجرم على مدىٰ السنين والأعوام ، ولم يلتفتوا الى ما ستعانيه أمتهم ووطنهم من أهوال ومآسي ومحن واضطهاد بعد ذلك . فطوبىٰ للملك حسين بن طلال وحسن مآب لوزراء حكومته الرشيدة التي شرعت القانون الذي فرض عقوبة الاعدام على أمثال أولئك الخونة والمارقين والجاحدين لحقوق الأمة والوطن .



أمام تمثال كمال اتاتورك في ميدان (تقسيم) في استانبول سنة ١٩٣٢
من اليسار : أمين المميز، قدري الأرضروملي ، محمد خالص رفيق



- صورة تأريخية فريدة -

كانت أول رحلة بحرية قمت بها في صيف سنة ١٩٣٢ لقضاء عطلة الجامعة الأميركية الصيفية في استانبول. وقد صادف وجود الوفد العراقي الموفد الى جنيف لمناسبة دخول العراق عصبة الأمم بعد عقد معاهدة ١٩٣٠ . فجرى ترتيب خاص من قبل والي استانبول للعراقيين الموجودين في استانبول يومئذٍ لزيارة قصر (يلدز) ، وكانت الزيارة تأريخية ، حيث شاهدناذلك القصر المنيف وما فيه من نوادر ونفائس ، ومن جملتها أكبر (أورطة) صنعتها يد البشر.

الواقفون ، من اليمين : محمد خالص رفيق قائمقام الفلوجة . حسن سامي التاتار مدير السجون العام . سلمان البراك ، نائب الحلة ، بهجة الأثري أستاذ في الثانوية . عارف بك ، مدير طابو. الشيخ صالح باش أعيان عضو مجلس الأعيان ورئيس الوفد.

الصف الثاني : عوني الخالدي طالب في الجامعة الأميركية في بيروت ، سامي النقشلي ، مهندس أمانة العاصمة ، هاشم الألوسي ، مدير مدرسة الثانوية . نعمة الله بك ، تاجر في استانبول.

الصف الثالث : عاصم الجلبي ، مدير معارف بغداد . شاب تركي ، دليل . عبدالمجيد حفظي زيدان ، مدير مدرسة . شاكر عبدالقادر ، صاحب محل موبليا في رأس القرية . أمين المميّز، طالب في الجامعة الأميركية في بيروت ، الشيخ بهاء الدين النقشبندي ، نائب بغداد.

الصف الرابع : بهاء عوني ، ابن أخت حسن سامي ، طالب في الثانوية . أحمد مختار، حاكم صلح بغداد، گرجي ، موظف في طابو بغداد.

تخرجت في كلية الآداب والعلوم في الجامعة الأمريكية بدرجة (بكلوريوس علوم) سنة ١٩٣٣ مع أربعة من رفقائي أعضاء البعثة العلمية لسنة ١٩٢٩، هم عوني الخالدي وشريف يوسف وعبدالعزيز مهدي والآنسة فلم سرسم، وعدت الى بغداد في خريف ذلك العام، لأجابه مصاعب ومتاعب ومشاكل الحياة العملية التي لم ألمسها طيلة الحياة الدراسية. فعينت في السنة الأولى مدرساً للتأريخ الطبيعي في مدرسة الكرخ المتوسطة. كان مديري، سميّي، أمين الهلالي، وأحب زملائي إليّ من بين المدرسين، أستاذي ناجي القشطيني. كنت ملتذاً في عملي وناجحاً في مهمتي وأحظى بحب واحترام كافة طلابي وزملائي المدرسين.(*)

في السنة الثانية تشبثت بالنقل الى المدرسة الغربية المتوسطة لقربها من سكناي حيث انتقلنا في تلك السنة من محلة الدنگچية الى محلة الصرافية، وكانت تعتبر يومئذٍ مدرسة نموذجية. كان مديرها طه مكي وأقرب الزملاء من المدرسين إليّ أستاذي بهجة الأثري وابن صفي بشير فرنسيس. درّست العلوم الطبيعية صباحاً واللغة الانگليزية مساءاً، ثم أخذت لذتي في التدريس تخبو تدريجياً لعدة أسباب، أهمها عدم ارتياحي من الادارة والسياسة التي كانت متبعة في وزارة المعارف إبّان تعيين فاضل الجمالي لمنصب مدير التربية والتدريس العام(**)، الأمر الذي حملني وحمل عدداً من الشباب الذين كانوا يعملون في وزارة المعارف الى (الهجرة) الى وزارات أخرى(***)، وقد هاجر معظمهم الى وزارة الخارجية.

(*) تحضرني أسماء ثلاثة من طلابي في الكرخ المتوسطة، هم التلميذان النجيبان الدكتور عبدالعزيز الدوري والدكتور علي الوردي، والتلميذ العاق عبدالسلام محمد عارف، وهي ذات المدرسة التي تخرج فيها الرئيس صدام حسين، ولكن في كل حقل تنبت الزهور الزاهية والزياحين الفوّاحة، كما ينبت فيه الشوك والعاگول!!

(**) عيّن فاضل الجمالي مديراً عاماً للتربية والتدريس بوزارة المعارف بعد أن أتم دراسته العليا في الولايات المتحدة، بعد تخرجه في جامعة بيروت، ونال شهادة الدكتوراه في التربية والتعليم في جامعة كولومبيا. وقد أحدث المنصب المذكور خصيصا له، الى جنب منصب مدير المعارف العام. وفي أوائل الثلاثينات صدر تقرير (مونرو) لاصلاح نظام التعليم في العراق وجعله على نمط النظام الأميركي، بعد أن كان على النمط اللاتيني أيام ساطع الحصري. فتولىٰ فاضل الجمالي الاشراف على تنفيذ تقرير مونرو. وبقي في وزارة المعارف حتى حركة مايس ١٩٤١، حيث نقل الى وزارة الخارجية، بعد تعيين البروفسور هملي البريطاني خبيراً بوزارة المعارف ليتولىٰ الاشراف عليها بعد أن تبين للانگليز بأنها قد جنحت كثيراً نحو (القومية) و(العروبة).
ولم يخطر ببالي يوماً ما ان ينقل فاضل الجمالي الى وزارة الخارجية. ولو خطر ذلك ببالي ولو على سبيل الافتراض، لما تشبثت للتعيين في تلك الوزارة بتاتاً.

بقي الجمالي عدة أشهر بوزارة الخارجية بدرجة مشاور يقتصر عمله على كتابة المقالات في الصحف، ثم عيّن مديراً عاماً فيها لمدة سنتين، ثم وزيراً للخارجية عدة مرات، ثم رئيساً لمجلس النواب، حتى أصبح رئيساً للوزارة مرتين. وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ حكمت عليه محكمة المهداوي بالاعدام، وقد توسط المغفور له محمد الخامس (والد جلالة الملك الحسن الثاني) شخصياً لدىٰ عبدالكريم قاسم للعفو عنه وإطلاق سراحه، فغادر العراق واستقر في تونس، ويشغل الآن منصب أستاذ في إحدىٰ جامعاتها.

(***) من أوائل (المهاجرين) من وزارة المعارف الى الدوائر الأخرى كان شريف يوسف زميلنا الخامس في البعثة العلمية لسنة ١٩٢٩. فكان قد عين مدرساً في ثانوية البصرة، غير ان أمر تعيينه قد ألغي وعين مدرساً للفزياء في الثانوية المركزية حيث بقي فيها أقل من سنة واحدة ثم (هاجر) الى أمانة العاصمة وعين معاوناً لمهندس الأمانة على رأفت بناءاً على ترشيح أمين العاصمة يومذاك محمود صبحي الدفتري، ومنها انتقل الى عدة دوائر أخرى. أما (المهاجر) الآخر من أعضاء تلك البعثة فكان عوني الخالدي الذي (هاجر) الى وزارة الخارجية.

وزارة المعارف — العدد / ٦٨١١

مديرية الأمور الذاتية — التاريخ ١٠ رجب ١٣٥٢ — تشرين الأول ١٩٣٣

أمر إداري

وافق معالي الوزير على تعيين الذوات المدرجة أسماؤهم أدناه كما يأتي وذلك اعتبارا من تاريخ مباشرتهم العمل على أن يخدموا سنة واحدة على سبيل التجربة.

الاسم	المدرسة	الراتب	الملاحظات
١) موفق الخالدي	دار المعلمين	١٨	باشر في ١٠/١٠/٣٣
٢) عزيز مهدي	الثانوية المركزية	١٨	" " "
٣) امين عبد الجبار المميز	الكرخ المتوسطة	١٨	" " "
٤) [illegible]	متوسطة الموصل للبنات	١٥	اعتبارا من تاريخ مباشرتها

عن المعارف بالوكالة
[illegible]

صورة منه الى :-

محاسبة المعارف العامة
" الثانوية المركزية
" معارف لواء بغداد
" " " الموصل
" دار المعلمين
" الثانوية المركزية
" مدرسة الكرخ المتوسطة
" متوسطة الموصل للبنات
محاسبة [illegible] الوزارة
شعبة الأمور الذاتية
الموما اليه امين عبد الجبار المميز

* * *



في مسبح سعادية باستانبول في صيف سنة ١٩٣٤
من اليمين : علاء الدين الريّس ، حسيب رشيد، أمين المميّز

بعد السنة الأولى من التدريس في مدرسة الكرخ المتوسطة وجدت نفسي مستحقاً للتمتع بالعطلة الصيفية، لما بذلته من جهد وما عانيته من ارهاق جرّاء الحرص الشديد على تأدية واجبي على أكمل وجه. فسافرت الى استانبول مع اثنين من الأصدقاء والزملاء هما علاء الدين الريّس وحسيب رشيد، وكانت الزيارة هي زيارتي الثانية لتلك المدينة بعد زيارتي الأولى لها سنة ١٩٣٢ وأنا يومذاك طالب في الجامعة الأمريكية في بيروت.

يقول أبناء الأجيال الغابرة المعجبون بكل شيء تركي بأن من يقف على شواطىء البوسفور مرة واحدة فلابد أن يقف عليها مرة أخرى. وقد صدق هذا القول لما زرت استانبول للمرة الثانية سنة ١٩٣٤.

كانت هذه الزيارة أمتع من زيارتي الأولى، فقد تمكنت من مشاهدة ما فاتني مشاهدته في الزيارة الأولى، فشاهدت معظم معالمها ومتاحفها ومسابحها ومصايفها ومنتجعاتها وجزرها وقصورها وشوارعها ومساجدها ومسارحها ومطاعمها وملاهيها ومقاهيها، وكان ترددنا على مقهى (تقسيم) في ميدان (تقسيم) ومطعم (عبدالله أفندي) في شارع (بك أوغلو) أكثر من غيرهما لأنهما كانتا ملتقى العراقيين المتواجدين في استانبول حيث تتوفر آخر الأخبار عن بغداد وعن العراق، فان البغدادي بصورة خاصة والعراقي بصورة عامة يتحرك شوقاً وحنيناً لبلدته ووطنه مهما قصرت فترة غيابه عنهما.

لقد كانت أمتع الساعات التي كنت أقضيها في استانبول هي الساعات التي أقضيها على متن البواخر التي تمخر عباب البوسفور جيئة واياباً بين جسر (غلطه) ومنتجع (آلتون قوم) القريب من ملتقى البوسفور بالبحر الأسود، بعد توقف البواخر في المراسي (الاسكلات) الواقعة على ضفتي البوسفور حيث يستقبل القادمون اليها ويُودع المغادرون منها، من قبل الأهل والأصدقاء والأحبة والحبيبات بهتافات (گُله.. گُله) وتبادل القبلات على الأثير!

عدت الى بغداد وأنا مفعم حيويةً وهمةً ونشاطاً لأهبها كلها الى المدرسة الغربية المتوسطة التي نقلت اليها من الكرخ، وهي السنة الثانية والأخيرة من خدماتي في ذلك المسلك الشريف التي أساءت الى هيبته وكرامته ـ مع الأسف الشديد ـ الظروف التي كانت سائدة في وزارة المعارف إبّان وجود فاضل الجمالي فيها، الأمر الذي أدى الى هجرة عارمة من تلك الوزارة الى الوزارات والدوائر الأخرى.

وبعد انتهاء عقدي مع وزارة المعارف ، وكان لمدة سنتين ، قدمت الاستقالة التالي نصها في ٢٥ أيلول ١٩٣٥ :

سعادة وكيل مدير المعارف العام المحترم

الموضوع / إستقالة

لا يخفىٰ على سعادتكم أن العمل في أي حقل من حقول الحياة إن لم يكن مشفوعاً بالرغبة الصادقة لا يأتي بالفائدة الحقيقية المثمرة. وبما أني أشعر أن رغبتي في متابعة السير في مسلك التعليم أخذت تتضاءل بعد تلك الجهود التي بذلتها برغبة وهوس شديدين طيلة المدة التي قضيتها في خدمة هذا المسلك إبّان العهد الذي كان يساء به الى الكفوٗ ويحسن الى غير الكفوٗ لبعض الاعتبارات. وبما أني أشعر بأني سوف لا أكون مرتاح الضمير فيما إذا حملت على تأدية مثل هذا الواجب من دون أن تكون لي فيــه رغبــة أكيدة.

فلذلك إذا كان لا مجال للاستفادة من خدماتي في ناحية أخرىٰ تتناسب مع مقدرتي ودرجتي العلمية ، أرجو عدم إدخالي في الملاك الجديد مقدماً بهذا استقالتي من مهنة التعليم ولكم الشكر سيدي .

٢٥ / أيلول / ١٩٣٥

أمين المميز

بدرجــة (ب . ع)

مدرس بالمدرسة الغربية المتوسطة

ثم تبلغت بالأمر الاداري التالي :

وزارة المعــارف العــراقيــة	التــاريــخ ١٦ رجب ١٣٥٤هــ
شعبــة الأمــور الــذاتيــة	١٥ تــشــريــن الأول ١٩٣٥م

(أمر إداري رقم ١٠٢٢)

بناء على طلب أمين عبدالجبار المميز المدرس في المدرسة الغربية المتوسطة فقد وافق معالي الوزير على قبول استقالته إعتباراً من أول تشرين الأول ١٩٣٥ .

طه الهاشمي

مدير المعارف العــام .

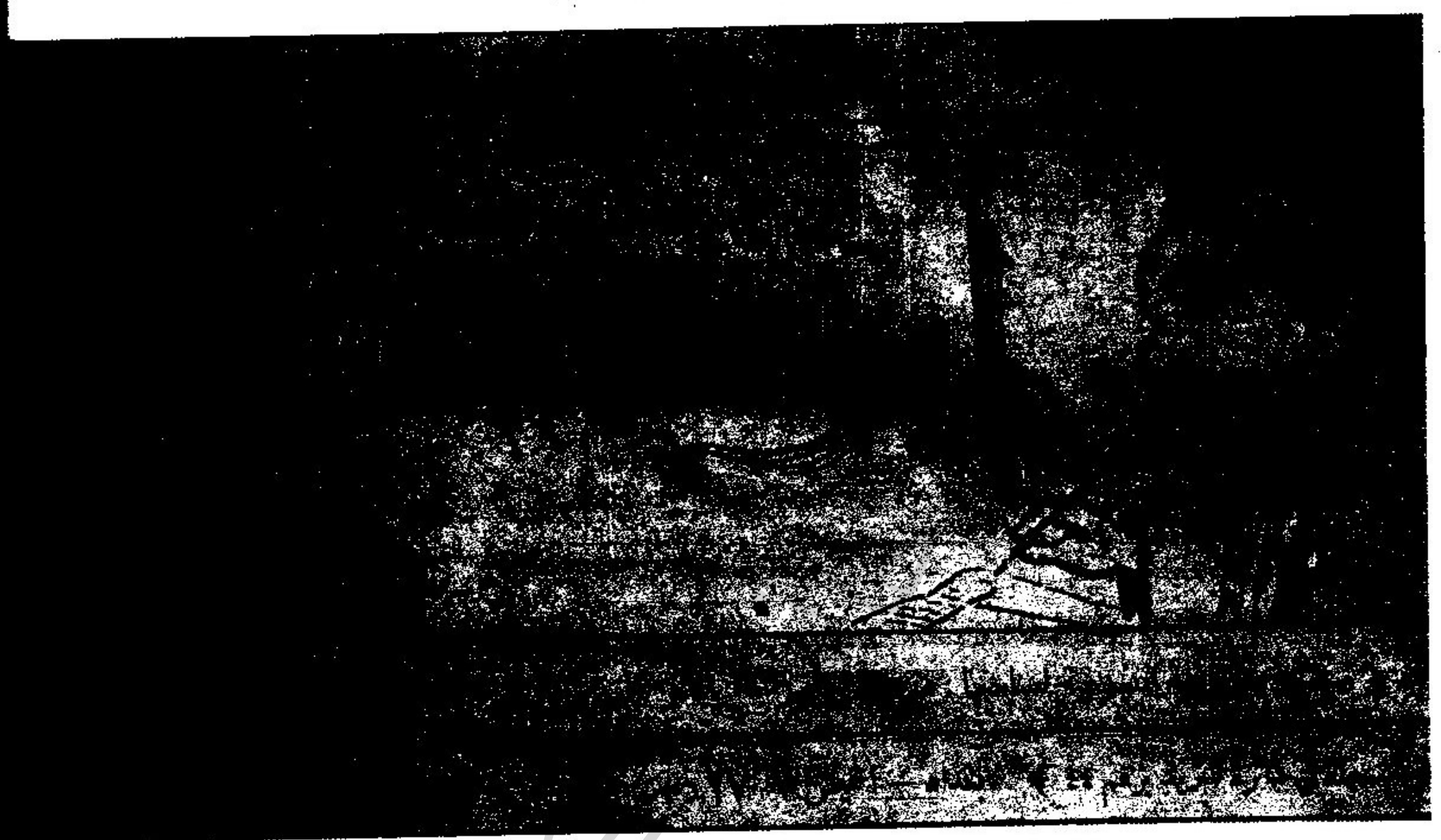
صورة منه الى :

المومأ إليه

* * *

قضيت عدة أشهر من سنة ١٩٣٥ محاضـراً في اللغة الانكليـزية والتـربية في (دار العلوم) بإلحاح شـديـد من المـرحـوم الحـاج نعمـان الأعـظمي مـديـر الكليـة ، وسـاهمت في تحـريـر جريدة (أبو حمد) الأسبوعيه التي كان يصدرها عبدالقدر المميز ولي فيها حقل خاص بعنوان

(رؤوس أقلام)، كما كتبت في بعض الصحف والمجلات بتوقيع (أ. م) وتفرغت لشؤوني العائلية التي كنت قد ابتعدت عنها طيلة ست سنوات تقريباً..



وفي هذه الأثناء اقتصر نشاطي الاجتماعي على نادي بغداد الذي كان قد أسسه حديثاً نخبة من الشباب المتخرجين في الجامعات الأجنبية والكليات العراقية، وكنت لولباً فيه. غير أن النادي المذكور سرعان ما أغلق، فقد قررت وزارة الداخلية سحب الاجازة التي منحت له بدعوى تجاوزه حدود تلك الاجازة بممارسة السياسة. وأودعت ممتلكاته وموجوداته أمانة عندي فنقلتها من مقرّ النادي في بستان كبة قرب شارع أبي نؤاس الى بيتي في الصرافية. وبعد فترة وجيزة قدّم بعض أعضاء النادي المنحلّ طلباً لوزارة الداخلية لتأسيس نادٍ آخر باسم نادي الشباب، فصدرت الاجازة بتأسيسه واتخذ مقره في البتاويين خلف سينما الأورفلي، وسلمت إدارة النادي الجديد الأثاث التي كنت قد تسلمتها من معاون شرطة العباخانة السيدعلي خالد الحجازي، وباشر النادي أعماله قبيل سفري الى لندن سنة ١٩٣٦.(*)

(*) ولا يفوتني ذكر النادي الأول الذي انتسبت إليه عندما كنت طالباً في المدرسة الثانوية، وهو نادي التضامن الذي أسسه نخبة من الشباب الوطني المثقف. أذكر منهم عميده يوسف زينل وسكرتيره حقي الجيبه‌چي، وقد اتخذ مقره في عمارة رؤوف الچادرچي في شارع الرشيد مقابل جامع الحيدرخانة. ومن جملة فعالياته الوطنية إيفاد طلاب الى الخارج للدراسة على نفقة النادي، بمعزل عن بعثات وزارة المعارف، أذكر منهم جودة عبدالمجيد وعبدالجبار إسماعيل الذي تخرج مهندساً، ثم اشغل منصب مدير البرق والبريد العام.



أعضاء (نادي بغداد)

اجتمع عدد من متخرجي الجامعات سنة ١٩٣٤ وقرروا التقدم بطلب الى وزارة الداخلية لتأسيس نادٍ اجتماعي باسم (نادي بغداد) واستحصلوا على الاجازة المطلوبة مشروطة بعدم مزاولة النادي لأي نشاط سياسي، واستأجروا داراً تقع في بستان (كبة) بالقرب من شارع أبي نؤاس، وبعد مدة من مباشرة النادي أعماله حصل خلاف بين أعضائه بسبب ميولهم السياسية والعقائدية، فقررت وزارة الداخلية غلق النادي، واتفق الأعضاء المؤسسون على إيداع ممتلكات النادي وأثاثه عندي. ثم تقدم بعض أعضاء النادي المنحل بطلب جديد الى وزارة الداخلية لتأسيس نادٍ آخر، تقتصر فعالياته على النشاط الاجتماعي . فأسسوا (نادي الشباب) وأستأجروا داراً تقع في (البتاويين) في الشارع المجاور لسينما (الأورفلي).

الصورة أعلاه التقطت في الرستمية بمناسبة حفلة التعارف التي أقامها العضو المؤسس (لنادي بغداد) درويش الحيدري، مدير مزرعة الرستمية.

الجالسون على الأرض من اليمين: عبدالحليم السنوي، درويش الحيدري، أمين المميّز، ناصر حسين، الحاج داود الشواف.

الجالسون على الكراسي، من اليمين: عبدالله بكر، هاشم جواد، علي حيدر سليمان، شريف يوسف (بالسدارة) ناظم حميد، إبراهيم شوكت، عبدالكريم الگيلاني، الدكتور صبيح الوهبي، الدكتور علي البير، حكمت سامي سليمان.

الواقفون: عبدالفتاح ابراهيم، وهبي توفيق، عوني الخالدي، أدهم مشتاق، جميل السلام، أكرم فهمي، صادق كمونة، محمد حديد، عبدالرحمن الفلاحي، ناظم الزهاوي، عضو لا يحضرني اسمه، الدكتور سلمان فائق.

في غضون ذلك كنت أستعدّ للاشتراك في امتحان مسابقة الدخول للسلك الخارجي. فاشتركت فيه ونجحت ثانياً من بين اثنين وعشرين متسابقاً تقدموا لذلك الامتحان. وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٩٣٥ صدرت الارادة الملكية بتعييني ملحقاً بوزارة الخارجية، وفي اليوم الأول من كانون الثاني سنة ١٩٣٦ باشرت عملي بالوزارة، وبذلك تحققت أمنية كانت تداعبني منذ تخرجي في الجامعة الأميركية في بيروت قبل ثلاث سنوات.

رقم ٧٤٣

اصدرنا ارادتنا الملكيـــــة

بناء على ما عرضه وزير الخارجيـــة

بتعيين امين المميز ملحقا من الصنف الثاني في ديوان وزارة الخارجيـــــة .

على وزير الخارجية تنفيذ هذه الارادة

كتب ببغداد في اليوم التاسع والعشرين من شهـــر رمضان سنة ١٣٥٤ واليوم الخامس والعشرين من شهـــر كانون الاول سنة ١٩٣٥ .

غـــــازي

نوري السعيد
وزير الخارجيــة

ياسين الهاشمي
رئيس الـــوزراء

باشرت عملي بوزارة الخارجية أتدرب في شعب الوزارة، وكانت يومئذ خمس شعب هي الشرقية والغربية والقنصلية والتشريفات والحسابات. كما تدربت على الضرب على الآلة الطابعة وأصول حفظ الأوراق مع الخبير البريطاني المستر گري الذي كانت الوزارة قد استقدمته من لندن لتنظيم الأرشيف، وراجعت دوائر كاتب العدل وجوازات السفر للاطلاع على كيفية سير أعمالها. وبقيت في الديوان ثلاثة أشهر.

في اليوم الأول من نيسان سنة ١٩٣٦ صدر الأمر بنقلي ملحقاً في المفوضية العراقية في لندن خلفاً للسيد هاشم جواد الذي نقل الى ديوان الوزارة فأخذت أتهيأ للالتحاق بوظيفتي الجديدة.

رقـــم
١٤٧

اصدرت ارادتي الملكيـــه

بناء على ماعرضه وزير الخارجيــه

بتصيير هاشم جواد الملحق من الصنف الثاني في المفوضية العراقية في لندن ملحقا من الصنف الثاني في ديوان وزارة الخارجيـــه .
و امير المعيز الملحق من الصنف الثاني في ديوان وزارة الخارجيـــه ملحقا من الصنف الثاني في المفوضية العراقية في لندن .

على وزير الخارجية تنفيذ هذه الارادة .

كتب ببغداد في اليوم التاسع من شهر محرم سنة ١٣٥٥ والمـــوافق الأول من شهر نيسان سنة ١٩٣٦ .

غـــازي

نوري السعيـــد	ياسين الهاشمـــي
وزير الخارجيـــه	رئيس الـــوزراء

وبعد ان اكملت استعدادي لسفرة بعيدة قد تستغرق عدة سنوات، ولم يفتني أن أصطحب معي طقماً كاملاً من اللباس البغدادي.. اليشماغ والعرقچين، عباية نايين، زبون شاهي، دميري، هيميان، وزوج يمني حلب.. ليذكرني بالأيام الخوالي.

* * * * *

وزارة الخارجيـــــــــة
المكتب الخـــــــــاص
الرقم ٢٢٠٨
التاريخ ٩ نيسان ١٩٣٦

امـــــــر وزاري

١ــ يعين هاشم افندي جواد الملحق من الصنف الثاني في المفوضية العراقيـــة في لندن (والذي هو الآن تحت التجربة بموجب الأمر الوزاري المرقم ٦٧١٥ والمؤرخ في ٥/٨/١٩٣٥) ملحقاً من الصنف الثاني في ديوان الوزارة براتبه الحالي وقدره (٢٥) ديناراً اعتباراً من صباح ٢٠/٤/١٩٣٦.

٢ــ ويعين امين افندي المميز الملحق من الصنف الثاني في ديوان الـــــوزارة (والذي هو الآن تحت التجربة بموجب الأمر الوزاري المرقم ٢٧ والمؤرخ في ٢/١/٣٦) ملحقاً من الصنف الثاني في المفوضية العراقية في لندن براتبه الحالي وقدره (٢٥) ديناراً مع مخصصات خاصة قدرها (٨) دنانير في الشهر اعتباراً من صباح ٢٠/٤/١٩٣٦.

وزير الخارجيـــــــة

صورة مع صورة من الأرادة الملكية الى ــ
المفوضية العراقية في لندن ــ ونرجو تسفير هاشم افندي جواد بعد وصول امين افندي المميز واستلامه اعمال سلفه.
وزارة الماليـــــــة
مديرية المحاسبات العامة
محاسب الـــــــوزارة
مديرية الخزينة المركزيـــة
هاشم افندي جـــــــواد
امين افندي المميـــــز

غادرت بغداد في أواسط نيسان بواسطة شركة نيرن الى بيروت وأبحرت منها على الباخرة أسبيريا الى مارسيليا ومنها بالقطار الى باريس ثم الى كاليه ، ثم أبحرت منها الى ميناء دوفر ومنه بالقطار الى محطة فكتوريا في لندن ، واستأجرت سيارة تاكسي أقلتني الى رقم ٢٢ ، شارع (كوينز كيت) حيث تقع المفوضية العراقية ، فوصلتها في ٣٠ نيسان فلاحظت أن العلم العراقي منكس عليها ، فرابني ذلك وقلت في نفسي (اللهم أبعد عن بلادي أي مكروه) . قرعت الجرس فخرج البواب (لويس) وعرّفته بنفسي بأني الملحق الجديد للمفوضية ثم بادرت بسؤاله عن سبب تنكيس العلم ، فأجاب لوفاة ملك مصر ، وكان الملك فؤاد قد توفي يوم ٢٨ نيسان وجرت التقاليدالدبلوماسية على تنكيس أعلام السفارات والمفوضيات عندوفاة رؤساء الدول الصديقة . وبعد أن دبر لي زملائي سكناي في إحدى الغرف في (بوردنك هاوس) بالقرب من المفوضية باشرت أعمالي بعد يومين من وصولي .

كانت هيئة المفوضية مؤلفة من الوزير المفوض علي جودة الأيوبي والمشاور عطا أمين والملحق العسكري نورالدين محمود وسلفي الملحق هاشم جواد المنقول الى بغداد ونائب القنصل صالح مهدي والمحاسب البير ننيّس والكاتبة المحلية مس ريد . وقد عملنا معاً بكل انسجام وألفة وتعاون .

ولم تمض بضعة اسابيع على وجودي في لندن حتى أصبت بمرض استعصت معالجته على كافة مستشفيات لندن وأطبائها الاختصاصيين ، ولا يمكن معالجة هذا المرض إلاّ في مستشفيات تبعد عن لندن آلاف الكيلومترات . أما المرض فهو مرض الشوق الى العراق والحنين الى الحبيبة بغداد ، وأما المستشفيات فهي الدنكچيّة والصرافيّة . فمن خصائص مدينة لندن ، أن الداخل إليها يبكي منها والخارج منها يبكي عليها . وهكذا كان حالي بعد وصولي لندن ، فقد كنت أختلي في غرفتي ساعات طويلة وأبكي من حرقة الفراق وأئن من لوعة الاغتراب ، على الرغم من أني تعودت الاغتراب ، إذ قضيت أربع سنوات في بيروت ، ولكن بيروت غيرلندن ، والعرب هم غير الانگليز ، أولئك القوم المعروفون بالمحافظة وحب العزلة وصعوبة التداخل مع الأجنبي وبطء الامتزاج مع الغريب .



هيئة المفوضية العراقية في لندن عند التحاقي بها سنة ١٩٣٦
الجالسون: الوزير المفوض علي جودة، المشاور عطا أمين.
الواقفون من اليمين: المحاسب البير نتيس، نائب القنصل صالح مهدي، الملحق أمين المميّز.

وعلى الرغم من تلك الحالة النفسية التي كنت أعاني منها في الشهور الأولى من وصولي لندن، فقد قمت بعملي بكل حرص وهمة ونشاط. لقد كنت الملحق الوحيد في المفوضية أقوم بطبع المراسلات وتسجيل الواردة والصادرة وحفظ الأوراق وتنظيم أضابيرها المرتبكة ورعاية طلاب البعثات ومخابرات الملحق العسكري وشؤون الضباط، وتحرير التقارير والمراسلات، واستلام وإرسال برقيات الشفرة، ومقابلة المراجعين والرد على النداءات التلفونية ومراقبة ما تنشره الصحف عن العراق والبلاد العربية وإرسال قصاصاتها الى وزارة الخارجية، وحزم البريد السياسي وتأمين إيصاله الى وزارة الخارجية.. الخ باستثناء المعاملات المتعلقة بالأمور القنصلية والجوازات فقد كان يقوم بها نائب القنصل صالح مهدي.

اعتدت الدوام في المفوضية قبل ساعة من وقت الدوام الرسمي لأتصفح الصحف الصباحية قبل أن تداهمني الأعمال المارّة الذكر والتي لا تترك لي مجالاً (لحك راسي) حتى صرت أداوم في المساء وفي عطلات نهاية الأسبوع لانجاز الأعمال المتراكمة.

* * *

كنت أتصفح الصحف صباح يوم من أواخر أيام شهر مايس ١٩٣٦ على ما أذكر، فوقع نظري على خبر أذهلني و(سَطَرَني) فقلت في نفسي: «يا فتاح يا رزاق منين جتنا هالطرگاعه»؟ يفيد الخبر المذهل المنشور في صدر الصحف بأحرف بارزة، بأن الأميرة عزّة كبرى بنات الملك الراحل فيصل الأول وشقيقة الملك غازي ملك العراق قد تزوجت في أثينا من يوناني اسمه (أنستاس خارا لومبولوس) يعمل (سفرچي BUTLER) في القصر الملكي ببغداد، وأنها قد اعتنقت الديانة المسيحية واستبدلت أسمها العربي باسم (انستاسيا) وأن الزواج قد عقد بأحدى الكنائس وأن العريسين قد غادرا أثينا بالطائرة الى جزيرة رودس لقضاء شهر العسل. أ. هـ. اتصلت حالاً بالوزير المفوض علي جودت الأيوبي وأيقظته من نومه وأبلغته الخبر، فذهل هو الآخر لسماعه فاتصل فوراً بأوتيل كلارج لابلاغ نوري السعيد وزير الخارجية الذي كان يومئذ بزيارة رسمية الى لندن تتعلق بقضية فلسطين فاجتمعا في المفوضية وتداولا بالأمر، وبحضور عطا أمين مشاور المفوضية وزوج عمّة الأميرة عزّة، أُعِدّتْ برقية رمزية موجهة من وزير الخارجية شخصياً الى رئيس الوزراء ووكيل وزير الخارجية المرحوم ياسين الهاشمي شخصياً، لأبلاغه بما نشرته الصحف البريطانية والطلب منه الحيلولة دون نشر الخبر في الصحف المحلية ريثما يعالج الموضوع، مضيفاً بأنه سيبذل قصارى جهده لعدم تمادي الصحف البريطانية بنشر الخبر وتهويله للتشهير بالعراق وبالعائلة المالكة. وفي صباح اليوم التالي وردت برقية رمزية جوابية مؤثرة جداً من ياسين الهاشمي تتضمن بعض التخريجات غير المقنعة للقارىء الانگليزي، يناشد فيها نوري السعيد أن يقوم بكل ما يستطيع مع الصحف البريطانية وأن يبذل المستحيل في سبيل ذلك. ولكن ماذا يستطيع نوري السعيد أو غيره أن يفعله مع الصحافة البريطانية التي تتلهف لمثل هذه الفضائح لرواج صحفها؟

لقد كانت تلك الحادثة مثلاً على التسيّب الضارب أطنابه في الحياة الخاصة للملك غازي، وإلاّ فكيف يسمح لشقيقتيه العانستين اليتيمتين من الأبوين وهو ولي أمرهن(*) أن تسافرا الى الخارج بحجة الاستشفاء والاصطياف بصحبة (فيكتور) الموظف الأعزب في الديوان الملكي دون أن يصطحبهن محرم أو حتى وصيفة، وكيف لم يستخبِر بالعلاقة التي نشأت بين شقيقته الكبرى وبين السفرجي، الذي كان قد سبقها الى اليونان لتدبير زواجهما هناك دون أن يكتشف أمرهما أحد، حتى ولا الأميرة راجحة التي رافقت أختها في السفر؟

لقد بُذِلَتْ جهود جبارة في بغداد لتلافي هذه الفضيحة وتطويقها ومحاولة (طمطمتها). فقد بلغنا بأن تحسين قدري مدير التشريفات الملكية قد أرسل الى اليونان للوقوف على الحقيقة غير أنه لم يحظ بالعريسين لسفرهما الى رودس فعاد بصحبة الأميرة راجحة الى بغداد. كما جرى البحث لايفاد رستم حيدر رئيس الديوان الملكي والسكرتير الخاص للملك غازي ولوالده الملك فيصل الأول الى أوربا لمحاولة فسخ الزواج واعادة الجانح الى جادة الصواب.

وبعد عودتي الى بغداد سنة ١٩٣٨ سمعت بأن الرغبة كانت متجهة في يوم من الأيام الى إرسال (إكرام . . .)، المشهور في الأوساط البغدادية بحوادث الاغتيال وأعمال الشقاوة في لواء ديالى -خاصة-، لتعقب الزوجين في أوربا واغتيال عزّة أو زوجها او الاثنين معاً.

لقد كان لهذه الفضيحة وقع سيء جداً في العراق، فوقعت وقع الصاعقة على العراقيين جميعاً عندما أخذت الأنباء تتسرب الى بغداد وتتداولها الألسن نهاراً وجهاراً في المجالس والأندية والمقاهي، وقد تركت أثراً بالغاً على سمعة العائلة المالكة ومكانتها، وعلى النظام الملكي من أساسه في بلد شديد الحساسيّة لمثل هذه الأمور كالعراق. فلم يسبق أن حصلت مثل تلك الفضيحة في عائلة مالكة، لا شرقية ولا غربية، بله عربية إسلامية هي أشرف الأسَر العربية نسباً.

كان وقع الفضيحة بالغاً جداً عند عميد الأسرة الهاشمية الأمير عبدالله (الملك عبدالله) فأرعد وأزبد وهدد، ولكن ما عساه أن يفعل وقد (وقع الفاس بالراس). إن كل ما فعله العراق لتهدئة خواطر الأمير عبدالله وتهوين غضبه وامتصاص استياء الرأي العام العراقي ونقمته هو إصدار مرسوم لتنظيم الأحوال الشخصية المتعلقة بزواج الأمراء والأميرات وتطبيق العقوبات على من يخالف أحكام المرسوم كالتجريد من اللقب والحرمان من الأرث والحقوق والامتيازات الملكية الأخرى. وقد طبق المرسوم للمرة الأولى والأخيرة بحق الأميرة المذنبة عزّة!

لقد مرت أسابيع حرجة على العراقيين في لندن، وكنا نتوارى عن الأنظار خجلاً ونتحاشى مواجهة أي (إبن عرب) جراء العار الذي لحق العراق من هذه الفضيحة. لقد كانت

(*) توفي والدهم الملك فيصل الأول في أيلول سنة ١٩٣٣ وتوفيت والدتهم الملكة حزيمة في حزيران سنة ١٩٣٥.

هــذه الحادثة باكــورة تجاربي المرّة في الســلك الخــارجي ، فصــدق بحقي المثــل القــائل «بأول غـزاتـه إنكســرت عصــاتـه».

راجعت المفوضية سيدة عراقية لتعقيب معاملة لها وكانت قد سمعت بالفضيحة ، فعلّقت عليها وكادت تجهش بالبكاء قائلة : «عزا العزّاج ياعزّه على هالمصيبه الصخّمَت وجوهنا». لم تخفّ وطأة الفضيحة علينا إلاّ بانشغال الرأي العام والصحافة بأنباء فلسطين وأخبار الاضراب العام فيها ، وتشكيل لجنة (پيل) في آب سنة ١٩٣٦ وسفرها الى فلسطين لدراسة الوضع هناك وتقديم المقترحات لحل القضية الفلسطينية . وفي تشـرين الأول من ذلك العـام وقع انقـلاب بكر صدقي ، كما سيأتي بيانه ، وانشغل العراق بذلك الانقلاب وملابساته ، وأسـدل السـتار على فضيحة الأميرة عزّه(**) بقدر تعلّق الأمر بالعراق .

* * *

(**) بصدد الكلام عن فضيحة الأميرة عزّه ، أورد النتف التالية :

١ ـ عندما نشرت الصحف البريطانية خبر الفضيحة أرسلت قصاصة إحدىٰ الصحف البريطانية مع ترجمتها العربية الى عبدالقادر المميز ، وكان أول خبر يصل بغدادبصورة غير رسمية ، واعتاد عبدالقادر التردد على المجالس والقبولات البغدادية ، فذكر الخبر أمام الحاضرين في إحدىٰ تلك المجالس وكان أحدهم الشيخ أحمد الداود ، ولما سمع به هاج وماج وأرعد وأزبد وصاح بعبدالقادر : «أنچب وُلَكْ . . أكـل «شكر» هذا كذب وإفتراء ، إن ابنة بنت رسول الله لا يمكن أن تقدم على هذا العمل» والعبـارة كمـا نقلها لي عبـدالقـادر حرفيـاً بعـد عودتي الى بغـداد سـنة ١٩٣٨ .

٢ ـ الملك عبدالله ، هو كبير العائلة الهاشمية وعميدها ومن أحرص الناس على مراعاة التقاليد والتعلق بالقيم الاجتماعية والتمسك بعادات الأسرة الهاشمية . كان عطا أمين سكرتيراً في المفوضية العراقية في أنقرة عندما كان الأمير زيد وزيراً مفوضاً في تركيا وتزوج زواجاً ثانياً من الأميرة سارة شقيقة الأمير زيد دون استئذان الأمير عبدالله . ولما شاع خبر الزواج قامت قيامة الأمير عبدالله ، فبذل كل الجهود لفسخ الزواج ولكنه لم يفلح ، وبقي الزواج قائماً ، فالتجأ في النهاية الى التهديد بقتل عطا أمين ، ورُوىٰ عنه قوله : «إن بيت السعدون ليسوا أشرف منا» والقصد من هذا التهديد هو أنه لما تزوج عبدالله الصانع من كريمة عبدالمحسن السعدون ، نهاه بيت السعدون ، فلم يأبه للنهوة وأصرّ على الزواج . فحضر ذات يوم عبدالعزيز السعدون كبير عائلة آل السعدون الى وزارة الداخلية لمقابلة عبدالله الصانع مدير الداخلية العام ، وبعد أن جلس واستراح ورفض تناول فنجان القهوة قام بكل هدوء وإصرار وشهر مسدسه وأفرغه في صدر عبدالله الصانع ، ثم سلّم المسدس الى الشرطي الذي دخل الغرفة عند سماع إطلاق النار ، لأن عبدالعزيز السعدون كان يرىٰ أن إبن (أحمد الصانع) ليس كفؤاً للزواج من بيت السعدون ، وقد تشفع للقاتل غير واحد من الشخصيات العربية ، منهم الملك عبدالعزيز آل سعود على ما شاع يومئذ !

٣ ومن مفارقات الزمان أن الأميرة عزّه بقيت تسكن في مدينة روما ، بعد أن قضىٰ (خارا لومبولوس) وطره منها وابتزّ ما عندها من مال ومصاغ ، نبذها وتركها معدمة معوزة (وتِحش جگاير) ، ثم التجأت الى الأمير عبدالله الذي كان أشد الغاضبين عليها وهدد بقتلها ، إذ وسّطت خالها الأمير حسين صهر الملك عبدالله والذي أشغل رئاسة الوزارة الأردنية مدة طويلة ، للصفح عنها ، فقبل الملك توبتها وآواها في عمان . فلماذا يا ترى رقّ قلب الأمير عبدالله على البنت المذنبة وصفح عنها؟ انه حلم بليل . فقدروى لي الفريق الأول الركن صالح صائب الجبوري نقلاً عن الأمير عبدالله ، بأنه كان قد حلم ذات ليلة انه رأى الملك فيصل الأول واقفاً أمامه وهو يمسح يده بمنديل ، فسقط المنديل على الارض فتناوله عبدالله . ففسر الحلم بان المنديل هو عزّة وان تناوله المنديل من الارض يعني انتشالها من بؤسها واحتضانها في كنفه . وهكذا فعل في النهاية .

مرت الأسابيع والأشهر قبل أن أتأقلم مع محيط لندن وأستذوق الحياة الانكليزية الشعبية والرسمية. كانت أول مناسبة رسمية أحضرها هي الحفلة البستانية التي أقيمت في حدائق قصر بكنكهام يوم ٢١ تموز سنة ١٩٣٦ بأمر من الملك أدوارد الثامن والتي حضرها ألوف من المدعويين من مختلف طبقات الشعب والهيئة الدبلوماسية، من كلا الجنسين فصاروا يمرون من أمام الملك وهو واقف وسط سرادق كبير مزركش بالألوان الزاهية، وقد بدا الملك جذّاباً وشعبياً ومحبوباً لدى شعبه وضيوفه، وقد ساهمت الطبيعة بنجاح تلك الحفلة بجو استثنائي جميل. وكانت هذه الحفلة هي المناسبة الأخيرة التي يحضرها الملك أدوارد الثامن قبل تنازله عن العرش.

* * *

The Lord Chamberlain is
commanded by The King to invite

Sayid Amin Mumayiz

to an Afternoon Reception
in the Garden of Buckingham Palace,
on Tuesday, the 21st July, 1936, at 3.30 o'clock, p.m.

Ladies: Afternoon Dress.
Gentlemen: Morning Dress.
Half mourning will be worn.

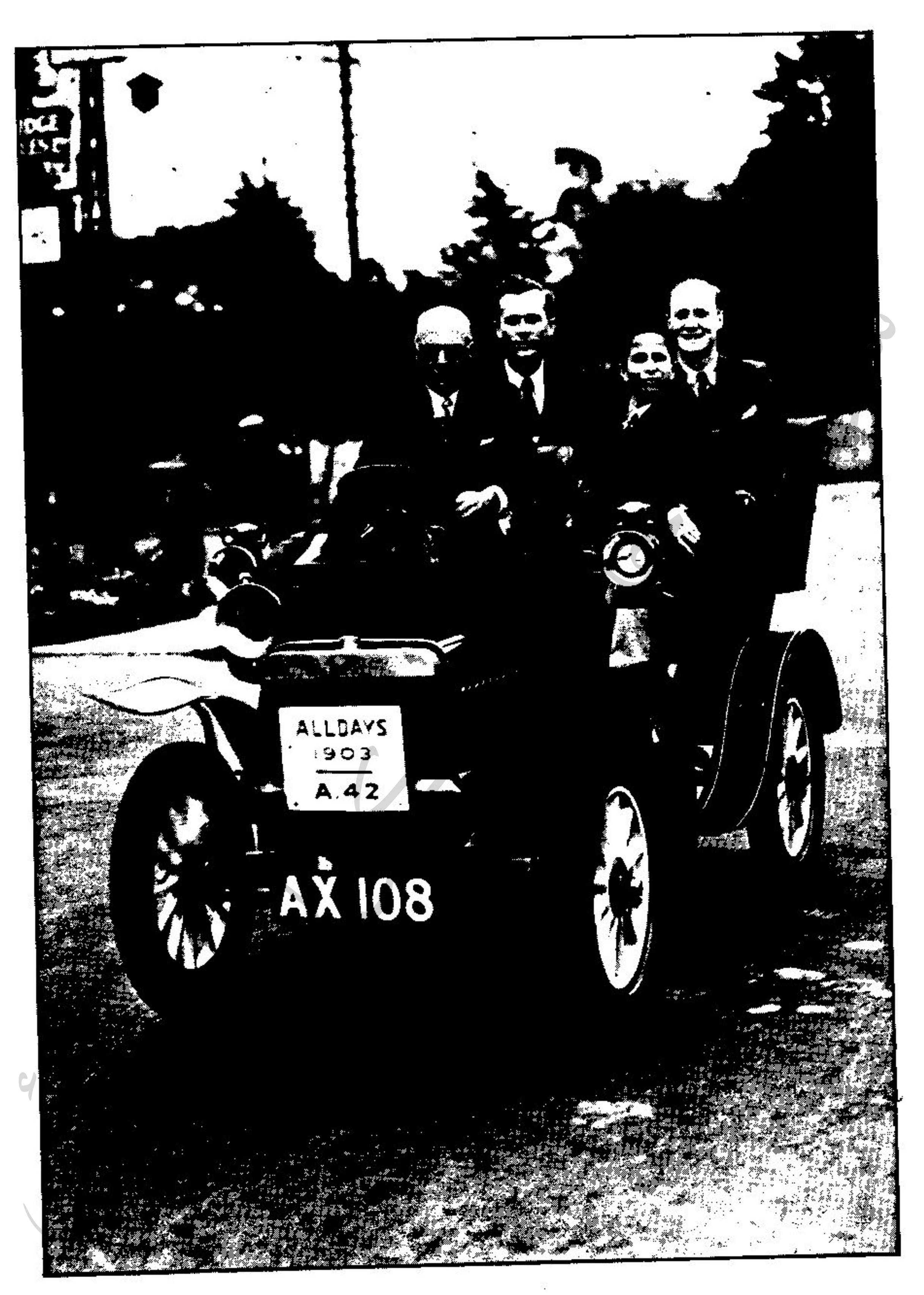
بطاقة الدعوة لحضور حفلة الاستقبال الأولى والأخيرة التي أقامها الملك ادواردالثامن بقصر بكنگهام في ٢١ تموز ١٩٣٦ قبيل تنازله عن العرش للزواج من المطلقة الأميركية المسز (سمبسون) (دوقة ويندسور بعدئذ) وهو اللقب الذي حملته عند زواجها من الدوق ويندسور، وهو الملك السابق الذي تنازل عن عرشه من أجلها.

إن التنازل عن العرش لا سابقة له في التأريخ البريطاني، ولو أن كثيراً من ملوك العالم قد تنازلوا عن عروشهم لسبب أو لأكثر من سبب، ولكن قضية تنازل الملك أدوارد الثامن عن العرش البريطاني من أجل مطلقة أميركية هو شيء آخر، فقد رج الكيان السياسي والاجتماعي في بريطانيا من أساسه، وهو الكيان الذي يستند على العادات والتقاليد والقيم الدينية.

بعد ظهر يوم ٣ أيلول سنة ١٩٣٦ دخلت الكاتبة المحلية المس ريد غرفتي وهي مذعورة، فقالت:



الكاتبة المحلية في المفوضة العراقية في لندن المس ريد (عوّاشة) سالتني وهي مذعورة
هل سمعت بزواج الملك؟
أجبتها : لا تكوني بلهاء ، الملك ما زال طفلاً فكيف يتزوّج؟
أجابتني : «لا ، ملكنا مو ملككّم» .



فيصل ، الطالب في كلية (هارو) المولع بالسيارات منذ طفولته

- هل سمعت بنبأ زواج الملك؟ فأجبتها ساخراً من سذاجتها العفوية :
- يا عوّاشه ،(*) لا تكوني بلهاء لهذه الدرجة ، إن الملك ما زال طفلاً ، فكيف يتزوج؟ فأجابت :
- لا ، ملكنا موملككم.

كان ما نشرته الصحف البريطانية ذلك المساء أول مرة يظهر فيها نبأ زواج الملك أدوارد من المسز سمبسون على صفحات الجرائد، فعلىٰ رغم أن الصحف الخارجية وخاصة الأميركية ، كانت طافحة بأنباء الزواج ، فأن الصحف البريطانية (باتفاق جنتلمان) بينها وبين قصر بكنكهام وداونـنـك ستريت ورئيس أسـاقفـة (كنتربـري) فرضت عـلى نفسـها رقـابة ذاتيـة صـارمـة فأحجمت عن التطرق لهذا الموضوع بصـورة باتـة.

كانت الاتصالات تجري حثيثاً وبتكتم شديد بين الأوساط ذات النفوذ ، للخروج من هذه الأزمة ، وهي الوزارة التي كان يرأسها يومئذ المستر بولدوين ورئيس أساقفة كنتربري الدكتور لانك ورئيس حزب العمـال المستر آتـلي ومحرر جـريدة التـايمس داوسون(**) واللوردان بيفـربروك وروذرمـير اللذان يمتلكان معـظم الصحف الأخـرى. غـير ان كـل الجهـود التي بـذلت لتسـوية الأزمة وإقناع الملك على العدول عن رأيه باءت بالفشل. وفي آخر الأمر تفتقت الأذهان عن مخرج علّه يسوّي الأزمة المستعصية ، ذلك المخرج كان اقتراح زواج الملك بالمسز سمبسون زواجاً (مرغنطياً) (MORGANATIC MARRIAGE) أي الزواج المقيّد بشروط ، وكانت الشروط هي أن لا

(*) كنت أسمي الكاتبة المحلية المس ريد (المسز ديفيس بعدئذ) - عوّاشه - لطول قامتها وشبهها بسيدة عراقية اسمها - عوّاشه - كانت جارتنا بالدنكچية.

(**) ان ايراد اسم المستر داوسون محرر جريدة التايمس في أزمة خطيرة كأزمة التنازل عن العرش ، ليس مجرد ذكر اسم صحفي دسّ أنفه في تلك الأزمة ليتسقط الأخبار وليحصل على سبق صحفي ينشره في جريدته للانتفاع والكسب من رواجها. ان الأمر هو أبعد من ذلك بكثير.

ان جريدة التايمس هي «مؤسسة» قائمة بذاتها ولا نظير لها في عالم الصحافة. فهي أكبر من كونها السلطة الرابعة - كما يعبّر عادة عن الصحافة - فانّ التايمس هي فوق العرش ومن يتـربع عليـه ، وهي فوق الكنيسة وأساقفتها ، وهي فوق الحكومة والأحزاب ورؤسائها ، وهي فوق الدول وحكامها. إنها المشرفة والموجهة والحامية والرقيب على ما يعرف عندها بـ (المصلحة البريطانية العليا) فلهذا السبب صارت توصف بالمرعدة (The Thunderer) لأن لمواقفها ولمقالاتها الافتتاحية ولما تنشره في صفحة (رسائل الى المحرر) دوياً كدوي الرعد، سواء في داخل انكلترة أو فيما وراء البحار.

ان جريدة التايمس هي أقدم الصحف البريطانية في الوقت الحاضر، وأكثرها استقلالاً وأقواها نفوذاً في الأوساط الحاكمة ، وظلّت كذلك منذ صدور العدد الأول منها سنة ١٧٨٨ ، لأن شعارها هو نشر الحقيقة ولاشيء غير الحقيقة ، والابتعاد عن التهويل والمبالغة والفضائح والاستفزاز والابتزاز، فلذلك كان انتشارها ضيقاً جداً بالنسبة للصحف البريطانية الأخرىٰ ، فلم يتجاوز انتشارها في أحسن الظروف والأحوال الربع مليـون نسخة ، في حين يتجاوز انتشار بعض الصحف الشعبية الخمسة ملايين نسخة يومياً.

ان ما تنشره التايمس من الأخبار هي الأخبار الموثوقة والصحيحة والمجردة من النزوات السياسية الضيقة ، والاعتبارات الشخصية والابتزازات الرخيصة ، فيصح والحالة هذه الاستشهاد عنها بقول الشاعر :

إذا قـالـت حـذام فـصـدّقـوهـا ... فـان الـقـول مـا قـالـتْ حـذام

ان «للمراسل الخاص لجريدة التايمس» منزلة خاصة في عالم الاعلام. فهو يجد كافة الأبواب مشرعة بوجهه ، وبوسعه الحصول على أدق الأخبار وأوثقها من مصادرها العليا. ولهذه المنزلة الفريدة للتايمس فقد جندت نخبة ممتازة من رجال الفكر والقلم والاختصاص في بريطانيا ، والذين يتقاضون أعلىٰ الرواتب في دنيا الصحافة.

قبل المستر جورج داوسون - موضوع بحثنا - تولىٰ رئاسة تحرير التايمس شخصيات كانت لهم شهرة عالمية ،

تحمل المسز سمبسون لقب ملكة بريطانيا وأن لا يتوارث أبناؤها العرش البريطاني. غير أن الملك أصرَّ على أن يكون زواجه زواجاً ملكياً أصولياً يحمل معه كل المزايا والحقوق الدستورية للملك وزوجته وأبنائهما. وتجاه هذا الاصرار وعدم وجود أي حلّ آخر يرضي كافة الأطراف، لم يجد رئيس الوزراء خياراً آخر غير جمع مجلس العموم واستصدار وثيقة التنازل عن العرش واعلان القرار للشعب البريطاني والكومنويلث. ولم يقف الى جانب الملك في كافة مراحل الأزمة سوى المستر چرچل والسر والتر مونكتون أمين مقاطعة لانكستر الملكية وعضو الوزارة، وديانا كوپر (الليدي ديانا كوپر حالياً) زوجة المستر داف كوپر وزير البحرية وإحدى النجوم اللامعة في طبقة (العشرة آلاف العليا) الأرستقراطية، وحتى والدته الملكة ماري كانت من أشد المعارضين لهذا الزواج.

كان يوم ١١ تشرين الأول ١٩٣٦ يوماً مشهوداً في لندن. فقد حُددت الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم موعداً لألقاء الملك بيانه الوداعي من قصره الريفي (فورت بلفذير). لقد أطللت من شباك غرفتي على الشارع فلم أشاهد انساناً أو سيارة أو باصاً يسير فيه، لقد أقفرت كل شوارع لندن، فالشعب كله قد شدَّ نفسه الى الراديو (أو التلفزيون) للاستماع الى خطاب الملك

أمثال ويكهام ستيد وأدورد سترلنك. وبعد تقاعد المستر دلوسون في أوائل الحرب العالمية الثانية، والذي أشغل رئاسة تحرير التايمس أطول من أي محرر آخر، منذ (جون ولتر) محررها الأول، تولى محررون آخرون يستمروا طويلاً في رئاسة التحرير. وقد أشغل رئاسة التحرير في العقود الأخيرة محررون أكفاء تحضرني منهم أسماء المستر (باركتون ـ وارد) الذي ورد ذكره في مكان آخر من الكتاب، والسر ويليام هيلي، وهارولد أيفانز والمحرر الحالي المستر چارلس دوگلاص ـ هيوم الذي تولى رئاسة التحرير سنة ١٩٨٢.

ان الفضل في حيازة التايمس لهذه المنزلة المرموقة بين الصحف العالمية يعود الى تلك النخبة الممتازة من المراسلين والمخبرين والمحققين الذين يجوبون مواقع الأحداث في العالم، ليزودوا الصحيفة بأدق المعلومات وأوثقها وأكثرها حياداً. وان الذين يتتبعون نشريات التايمس عن الشرق الأوسط وتغطيتها للحرب العراقية ـ الايرانية يعلمون ما لمراسلها المستر (روبرت فيسك) والمحقق المستر أدوارد مورتيمر من كفاءة في هذا المضمار.

ان لجريدة التايمس مجلس أمناء (TRUSTEES)، شكلته عائلة (الميجر آستور) المالك الأخير للشركة التي تصدر الجريدة، ويتألف هذا المجلس من كبار الشخصيات التي تشغل أرفع المناصب العامة، ويضم المجلس قاضي القضاة [اللورد چانسلور، وهو رئيس مجلس اللوردات، ووزير العدل في النظام البريطاني] ورئيس أساقفة كنتربري، ورئيس مجلس العموم ومحافظ بنك انكلترة، ورئيس بلدية لندن، ووزير المالية، وحارس الموانىء الخمسة [منصب رمزي، رفيع المستوى، تشغله حالياً الملكة اليزابيث الوالدة]. ان مسؤولية هذا المجلس هي الحيلولة دون انحراف الجريدة عن مسارها الوطني المستقل أو وقوعها تحت تأثير اتجاهات سياسية معينة، أو لأغراض اقتصادية لا تنسجم مع المصلحة البريطانية العليا. ولما تقدم اللورد طومسون الكندي الجنسية لشراء (شركة التايمس) من عائلة (آستور) لم يجد مجلس الأمناء ضيراً على المصلحة الوطنية من انتقال ملكيتها عبر الأطلسي. ولما عرض ورثة اللورد طومسون الشركة للبيع بالنظر للخسارة الفادحة التي أخذت تلحقها من جراء اضرابات العمال وارتفاع تكاليف الطبع وقلة التوزيع لارتفاع سعر الجريدة، فلم يجد مجلس الأمناء ما يحول دون بيعها للمستر (مردوخ) الناشر الأوسترالي الجنسية. فليس غريباً ان تمتلك شركات أجنبية كبريات الصحف البريطانية، فأن جريدة (أوبزرڤر) الأسبوعية مثلاً وهي من أوسع الصحف البريطانية انتشاراً وأكثرها استقلالاً وحياداً، تمتلكها شركة نفط أمريكية هي شركة (ريچفيلد).

ان الشركة التي تصدر جريدة التايمس اليومية وملحقاتها المتعددة تصدر كذلك جريدة (ساندي تايمس) الأسبوعية، ولا علاقة لهذه الشركة بالشركة التي تصدر (فايننشال تايمس) اليومية.

وإلقاء النظرة الأخيرة عليه.(*) . وعندما لفظ الملك عبارته الختامية (أني الآن أنفض يدي من الشؤون العامة وألقي من على كاهلي هذا العبء الثقيل) لم يبق فرد من الشعب البريطاني إلاّ وأغرورقت عيناه بالدموع، على الرغم من اختلاف الكثيرين مع الملك من حيث المبدأ، فغادر قصره مصحوباً بسكرتيره الخاص الميجر هاردنگ فقط متوجهاً الى ميناء بورتسموث وأبحر على الطراد فيوري الى فرنسا، مواطناً بريطانياً من عامة الشعب، للالتقاء بالمرأة التي تنازل عن أفخم عرش في الدنيا من أجلها: المطلّقة الأميركية المسز واليس وورفيلد سمبسون. فصدق بحقه قول الشاعر:

تعشقتهـا شمـطاء شـاب وليـدهـا ... وللنـاس فيـما يـعشـقـون مـذاهـب

وبعد عدة أيام وردتنا الصحف العراقية وفيها البرقية الشخصية التي أبرقها عبدالله الحاج معاون رئيس الديوان الملكي يومذاك، الى الملك المتنازل عن عرشه من أجل تلك المطلقة الشمطاء مفادها: (كنت في نظري عظيماً فغدوت اليوم أعظم؟)

وهكذا أسدل الستار عن تنازل الملك أدوارد الثامن عن العرش البريطاني ليرفع ثانية عند تتويج أخيه الملك جورج السادس بعد ستة أشهر من ذلك.

* * *

(*) باشر التلفزيون البريطاني B.B.C بثّ برامجه في صيف سنة ١٩٣٦ من مركز البثّ في (الكسندرا بالاس) الواقع في ضواحي لندن الشمالية، ولا يشاهد إلاّ ضمن دائرة لا يتجاوز قطرها العشرين ميلاً ولا تزيد ساعات البثّ على ساعتين مساء. وتقتصر البرامج على مباريات كرة القدم وسباق الخيل وسباق الكلاب وبعض الحفلات السمفونية والمناسبات الأخرىٰ وكان عدد الذين يمتلكون الأجهزة محدوداً جداً، ويقتصر على بعض الشخصيات والفنادق الكبيرة وبعض المحلات العامة. وكنت أتابع البرامج من محل Princess Lounge المجاور لمتجر Simpson's في شارع بيكاديللي. وقد شبت النار في الكسندرا بالاس في صيف عام ١٩٨٠. أما ستديوهات البث حالياً فتقع وسط لندن.

لقد توقف التلفزيون البريطاني عن البث طيلة الحرب العالمية الثانية ولم يستأنف إلاّ في سنة ١٩٤٦ بعد وصولي لندن ببضعة أشهر. أما التلفزيون التجاري .I.T.V فقد باشر البث في الخمسينات، والقناة الرابعة للتلفزيون المستقل باشرت البث في أواخر سنة ١٩٨٢.

كان التلفزيون البريطاني بالأبيض والأسود حتى سنة ١٩٥٠ وقد شاهدت التلفزيون الملون لأول مرة في نيويورك عام ١٩٤٩.

وبعد عشرين عاماً من تأسيس التلفزيون البريطاني تأسس تلفزيون بغداد بالأبيض والأسود، وهو الجهاز الذي عرضته شركة (پاي) البريطانية في معرض بغداد عام ١٩٥٤. أما الملون فقد باشر العمل في السبعينات وفقاً لطريقة التلفزيون الملون الفرنسي.

وأما الاذاعات، فأن الاذاعة الداخلية البريطانية قد بدأت منذ العشرينات والاذاعة الخارجية باللغة العربية بدأت في كانون الثاني سنة ١٩٣٨.

وأما الاذاعة العراقية الداخلية فقد باشرت العمل على الموجة المتوسطة في أواسط الثلاثينات من محطتها في الصالحية، وعلى الموجة القصيرة بعد ذلك بكثير.

لم ينقض أسبوعان على هذا الحدث المحلي حتى جوبهنا بحدث آخر كان أشدّ وقعاً وأبلغ ألماً في النفس من ذلك الحدث المحلي. فبعد انتهاء الدوام الرسمي في المفوضية بعد ظهر يوم (٢٩ تشرين الثاني) توجهت مع زميلي صالح مهدي الى أوتيل كمبرلاند حيث كنا نقضي بعض أمسياتنا هناك. وما إن بلغنا الأوتيل حتى سمعنا باعة الصحف ينادون: بغداد تقصف بالقنابل، فتلاقفنا جريدة (إيفننگ ستاندرد) التي نشرت الخبر بالمانشيت العريض بعنوان (قصف بغداد بالقنابل) (BAGHDAD BOMBED) فأذهلني الخبر ولم أكد أصدق ما أقرأ. كان الخبر مقتضباً جداً ولا يشفي الغليل، ويقول بأن انقلاباً عسكرياً قد وقع في بغداد صباح هذا اليوم، وقصفت دوائر الحكومة بالقنابل، ويشاع أن جعفر العسكري وزير الدفاع قد قتل.

وا لوعتاه، يا للمصيبة، يا للفاجعة: حبيبتي بغداد، مسقط رأسي الدنگچية، قرة عيني ومسكن أهلي الصرافية، تقصف بالقنابل؟، فصرنا نتسقط الأخبار ساعة بعد أخرى للوقوف على تفاصيل هذا الحدث الخطير والأول من نوعه في تأريخ العراق الحديث، وهو إقحام الجيش في السياسة. وفي اليوم التالي نشرت جريدة التايمس اللندنية تفاصيل المقابلة التي جرت بين مراسلها في بغداد وبين الدكتور ناجي الأصيل وزير الخارجية في الوزارة الجديدة التي تألفت برئاسة حكمة سليمان. ثم أخذت الأنباء الصحفية والبيانات الرسمية تردنا تباعاً، فدبّ الاطمئنان في نفوسنا بعد ما تأكدنا من حقيقة ما جرى واطْمَأْنَنّا بأن استقلال العراق لم يتعرض لأي خطر، وأن بغداد والدنگچية والصرافية لم يصبها سوء، فحمدنا الله على النتيجة.

* * *

من أوائل الاجراءات التي اتخذها حكمة سليمان كان ترشيح رؤوف الچادرچي وزيراً مفوضاً في لندن ونقل علي جودة الأيوبي الى باريس، وكانت تربط حكمة سليمان بالچادرچي صداقة شخصية وثيقة ترجع الى أيام الصبا والشباب. فبعد بضعة أسابيع وصل الچادرچي الى لندن وباشر أعماله، وليس بيننا من يعلم الشيء الكثير عنه سوى المشاور عطا أمين. لقد كانت الأشهر الأولى التي قضيناها بمعيته صعبة للغاية كما لا بدّ يتذكر الزملاء صالح مهدي وياسين العمر والبير نتيّس . كان رؤوف الچادرچي رجلاً فذاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى: فهو حجة في الحقوق والقانون وخبير بالاقتصاد والعلوم المالية وضليع باللغات الغربية والشرقية، يتقن الانكليزية والألمانية والفرنسية والتركية وله إلمام بالفارسية، أشغل مناصب مالية رفيعة في استانبول وكان من الرعيل الأول من الصحفيين؛ فقد أصدر جريدة (الانقلاب) في بغداد باللغتين العربية والتركية تواً بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، وعيّن رئيساً لبلدية بغداد في العهد العثماني، وكان وزيراً للمالية في أول وزارة في الحكم الوطني، واختارته شركة النفط العراقية مستشاراً قانونياً لها، إجتماعي، محدّث، مضياف، كريم، طيّب القلب، دقيق جداً في أعماله ومواعيده وتصرفاته. ولكنه في العمل الرسمي كان صعباً جداً، ولا يمر يوم واحد إلا ولأحدنا موقف معه. (*) فهو يختلف اختلافاً كلياً عن سلفه علي جودة. وبقدر تعلق الأمر بعلاقتي الشخصية بالاثنين فقد دامت حتى وفاتهما رحمهما الله، على رغم اننا ننتسب الى جيلين متباعدين. (**)



علي جودة وزير العراق المفوض في لندن والسيدة عقيلته غداة نقله من مفوضية لندن الى مفوضية باريس سنة ١٩٣٦

التقت هيئة المفوضية بالوزير المفوض لتوديعه غداة نقله الى باريس وتعيين رؤوف الجادرجي خلفاً له ، فالقى علينا كلمة استعرض فيها أسباب نجاحه في الحياة العامة واشغاله أعلى المناصب في الدولة ، وعزا ذلك النجاح الى عامل أساسي ، في نظره ، فخاطبنا ، ومعظمنا شباب عزّاب يومئذٍ ، قائلاً : اذا تروني يا أولادي جالساً على هذا الكرسي (وضرب متكأ الكرسي بقبضة كفه اليمنى) وقد اشغلت أعلى المناصب في الدولة وأديت أفضل الخدمات للبلاد ، فان معظم الفضل في ذلك يعود الى أم نزار ، إذ إن نجاح الرجل في الحياة ليس مرده الى حيازة الشهادات العالية أو الحسب أو النسب أو المال أو الجاه فقط ، وانما الفضل الأكبر في ذلك النجاح يعود الى الزوجة الصالحة ، العاقلة ، المدبّرة ، الحريصة على شؤون بيتها وتربية أولادها وسعادة زوجها ومراعاة ظروفه وأحواله وشعوره ، ومشاركته بالرأي والقرار والمصير ، سواء في السرّاء أو في الضرّاء . وختم نصيحته قائلاً : «أوصيكم أولادي أن تضعوا هذه النصيحة نصب أعينكم لتنجحوا في الحياة العامة ولتسدوا أفضل الخدمات لبلادكم وأمتكم» .

ولا أجاوز الحقيقة والواقع اذا ما قررت اليوم اني وجدت قرينتي أم ابراهيم تتوفر فيها نفس الأوصاف التي ذكر الوزير المفوض انها تتوفر في زوجه أم نزار ، وقد تأكدت بعد مرور قرابة نصف قرن ، من صدق النصيحة التي أسداها لنا علي جودة الأيوبي ، رحمه الله .



الملك جورج السادس يزور المركز الاسلامي في لندن في ريجينت بارك ليلة ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٣٧ للاطلاع على التصاميم التي وضعت لتشييد الجامع الجديد بعد انتهاء الحرب على مساحة من الأرض تبرعت بها الحكومة البريطانية للجالية الاسلامية في بريطانيا.

السفير المصري حسن نشأة باشا، يقدم رؤساء البعثات الدبلوماسية الاسلامية في لندن الى الملك جورج السادس، بينهم حافظ وهبه الوزير المفوض السعودي ورؤوف الجادرجي وزير العراق المفوض في احدى صوره النادرة.

The Lord Chamberlain is
commanded by Their Majesties to invite

Mr Amin Mumayez

to a Court at Buckingham Palace
on Wednesday the 5th May, 1937, at 9.30 o'clock p.m.

Ladies: Court Dress with feathers and trains.
Gentlemen: Full Court Dress.

بطاقة الدعوة لأول حفلة استقبال يقيمها الملك جورج السادس والملكة اليزابيث (الملكة اليزابيث الوالدة حالياً)
في قصر بكنگهام ، بعد تتويجهما في شهر مايس سنة ١٩٣٧
إن حفلة التتويج هذه هي التي فجرّت الأزمة بين الوزير المفوض رؤوف الجادرجي
ووزير الخارجية ناجي الأصيل والخياط شولتي

(*) نقل عبدالمنعم الكيلاني الى مفوضية لندن في شهر مارت ١٩٣٧ ، ثم حلَّ المحاسب خالد حمدي محلّ المحاسب البير ننيّس. كما عيّن ياسين العمر ملاحظاً في المفوضية بعد انقلاب بكر صدقي وقد شاركونا في محنتنا بضعة أشهر فقط

(**) وأود أن أورد بعض الشواهد على ذلك :
في سنة ١٩٣٦ قررت وزارة ياسين الهاشمي إلغاء الألقاب في المخابرات الرسمية ، فلا باشا ولا بك ولا أفندي بعد الآن ، ويستعاض عن ذلك بكلمة «السيد» فقط. وقد تبلغنا بمنشور وزارة الخارجية للعمل بموجبه. ولما عيّن رؤوف بك وزيراً مفوضاً كان له غير ذلك الرأي ، فكان يريد أن تستعاض كلمة السيد بحرف «س» فقط أسوة بما هو متبع في الغرب من الاستعاضة بحرف «M» لكلمة (مسيو) أو «MR» لكلمة (مستر). فبقينا بين المطرقة والسندان ، فهل ننفذ منشور وزارة الخارجية وقرار مجلس الوزراء ، أو نعمل برأي الوزير المفوض؟ وويل لمن يخالف رأيه ، فاما أن يتلقىٰ تأنيباً ، أو أن يعاد الكتاب المقدّم إليه للتوقيع ممزقاً. ومثل هذه الأمور كانت تحصل يومياً في المفوضية.

أما في حياته الخاصة ، سواء أثناء سكناه في المفوضية أو في شقته بلندن أو في بيته ببغداد ، فلا يقل دقة وصرامة وتمسكاً بالأصول (الآداب ومراعاة قواعد البروتوكول ، وعلى الذين يترددون عليه أن يعلموا كيف يتصرفون وبماذا يتحدثون. فقد كان رحمه الله يمقت القشبة ويستهجن قول السوء ويعف عن الكلام البذيء ، وخاصة انتقاد المسؤولين أو السياسيين أو الحزبيين ، وكلهم يقدرونه ويحترمونه ، وكلهم أصدقاؤه وهم في نظره سواء بسواء ، ولذلك لا يستسيغ أن يسمع تعريضاً بأحد منهم في بيته. حصل يوماً أن أحد الزائرين قد تعرّض بأحد أصدقائه الغائبين. وبغية إسكات الزائر عن التمادي بالتعريض بالصديق الغائب ، قام وقدّم لذلك الزائر صحناً فيه (بون بون) - حامض حلو - وقال لـه «تفضّل». ان اصطلاح «أكل شكر» له مفهوم مخالف عند البغداديين !!

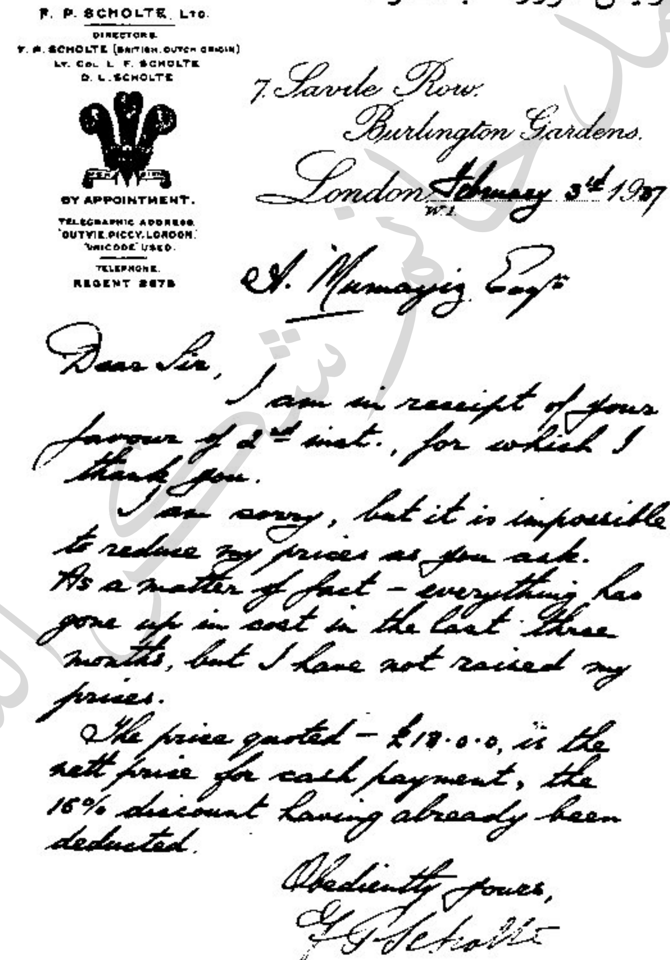
إن أهم الأحداث التي جرت في لندن أثناء وجود رؤوف الجادرجي هو تتويج الملك جورج السادس الذي تحدد موعده يوم ١٢ مايس ١٩٣٧. وقد حرصت الحكومة البريطانية على جعل مناسبة التتويج مناسبة فرح وابتهاج وأبهة للتعويض عن الآلام والأحزان التي ألمت بالشعب البريطاني في مناسبتين سابقتين هما تنازل الملك أدوارد الثامن عن العرش في تشرين الأول الماضي ووفاة الملك جورج الخامس في كانون الثاني من العام المنصرم. فبدأت الاستعدادات لحفلة التتويج قبل عدة أشهر من موعدها فوجهت الدعوات الرسمية الى الدول التي لها علاقات دبلوماسية مع بريطانيا والى دول الكومنولث لأرسال الوفود لتمثيلها في تلك المناسبة. فاستلمت المفوضية من وزارة الخارجية البريطانية الدعوة وأحيلت الى بغداد لتعيين الوفد العراقي. فأبرقت وزارة الخارجية بأسماء أعضاء الوفد المؤلف من وزير الخارجية رئيساً والوزير المفوض والمشاور عضوين. إن المطلع على مزاج رؤوف الجادرجي يدرك بأنه لا يستسيغ هذا الترشيح ولا يحتمل أن يرأسه ناجي الأصيل. ومع ذلك فقد أبلغ وزارة الخارجية البريطانية بتأليف الوفد العراقي على ذلك النحو، انصياعاً منه لقرار مجلس الوزراء الذي يرأسه صديقه الحميم حكمة سليمان.

وبعد بضعة أيام ورد كتاب من وزارة الخارجية بتوقيع وزير الخارجية يطلب من المفوضية الاتصال بالخياط (شولتي)(***) والاتفاق معه على السفر الى باريس لأخذ مقاييس (أولچي) وزير

(***) الخياط (شولتي) الذي فجرّ الأزمة بين رؤوف الجادرجي وناجي الأصيل، هو أحد الخياطين في شارع الخياطين المسمىٰ (SAVILE ROW) المجاور لشارع ريجينت ستريت والذي يضم مشاهير الخياطين في لندن، وكان شولتي معروفاً لدى الكثيرين من شخصيات الشرق الأوسط في العشرينات والثلاثينات، من بينهم الملك فيصل الأول وأفراد حاشيته، والأمير ميشيل لطف الله، والآغا علي خان الكبير ونوبار كلبنكيان (الملحق التجاري الفخري في السفارة الايرانية في لندن) وإبن كالوست كلبنكيان المشهور بالمستر (بالمائة خمسة)، وجعفر العسكري وزير العراق المفوض في لندن سابقاً، وكثيرون من الشخصيات العربية والانكليزية التي لها علاقة بالشرق الأوسط. ولما جاء ناجي الأصيل الى لندن سنة ١٩٢٢ بصفته الممثل الشخصي للملك حسين ملك الحجاز للمفاوضة على المعاهدة المنوي عقدها بين بريطانيا والملك حسين، أصبح في عداد زبائن الخياط شولتي. إن ذكر الخياط شولتي في كتاب وزير الخارجية والطلب منه السفر الى باريس لأخذ مقياس (أولچي) بدلاته لتكون جاهزة عند وصوله لندن، لم يكن السبب الحقيقي لأغاظة الجادرجي لكون الخياط المذكور يتقاضىٰ أجوراً باهظة ترهق كاهل الخزينة التي يحرص عليها الوزير المفوض. فقد كان ذلك الخياط يتقاضىٰ يومئذ عن البدلة الاعتيادية (Lounge Suit) خمسة عشر جنيهاً فقط (الجنيه يساوي؛ باون وشلن، والشلن هو واحد من عشرين من الباون. إذكان الخياطون والأطباء دون غيرهم يتعاملون بالجنيه وليس بالباون) ويتقاضىٰ عن البدلة الرسمية الصباحية (Morning Dress) والبدلة المسائية (Evening Dress) وتسمىٰ كذلك (TAILS) ضعف هذا المبلغ تقريباً (وتكلف الآن ـ سنة ١٩٨٤ ـ بحدود اربعمائة باون) ولكن الذي غاظ رؤوف الجادرجي هو ما كان يعلمه عن جنوح ناجي الأصيل الى حب الظهور والتعالي والتكلف والميل الى البذخ، حسبما يدعي الجادرجي، كما كان يفعل عندما جاء الى لندن سنة ١٩٢٢ كممثل للملك حسين وتحت تصرفه مكافآت مجزية، اضافة الى ما كان يتقاضاه من الشركة الانكليزية الفرنسية للاعمار في الشرق الأوسط. ويروي الجادرجي عن الأصيل انه اعترض على دعوة رسمية أقامها الخديوي عباس حلمي في لوزان، لأن جعفر العسكري أجلس على المائدة الى يمين الخديوي والدكتور ناجي الأصيل الى يساره، مبرراً اعتراضه بأن العسكري يمثل الملك فيصل ملك العراق، بينما هو يمثل والده الملك حسين ملك الحجاز.

إن مثل هذه المظاهر والتصرفات القديمة لناجي الأصيل، وأكثر منها، كانت معروفة لرؤوف الجادرجي، ولا يمكن أن يتحملها إذا ترأس الأصيل الوفد العراقي لحفلات التتويج، والجادرجي تحت رئاسته، فاعترض على تأليف الوفد ببرقية شديدة وجهها الى رئيس الوزراء حكمة سليمان مباشرة الأمر الذي حمل رئيس الوزراء على إلغاء الوفد واقتصار تمثيل العراق على رؤوف الجادرجي ومشاور المفوضية عطا أمين.

الخارجية لخياطة البدلات الرسمية التي تقتضيها حفلات التتويج . وما إن إطلع رؤوف بك على هذا الكتاب حتى قامت قيامته ، فأبرق الى حكمة مباشرة يقول له بأنه إذا وصل وزير الخارجية الى لندن فليس بوسع الوزير المفوض منع الصحف البريطانية من نبش ماضي ناجي الأصيل عندما جاء الى لندن ممثلاً للملك حسين وعن فضائحه المالية وعلاقاته بالشركة الانكليزية ـ الفرنسية للاعمار في الشرق الأوسط ، الى غير ذلك من الطعون بشخص وزير الخارجية. ولما وصلت البرقية الى رئيس الوزراء ، تلقت المفوضية برقية من وزارة الخارجية بالغاء الوفد واقتصار تمثيل العراق على الوزير المفوض والمشاور عطا أمين . وقد نشرت إحدىٰ الصحف البريطانية خبر إلغاء الوفد العراقي تحت العنوان الساخر : (نقطة انزعاج للعراق) (Iraq Spot of Bother) ومنذ ذلك الحين توترت العلاقة بين الوزير المفوض ووزير الخارجية الى الحدّ الذي صار الأول يوجه رسائله المهمة الى رئيس الوزراء مباشرة.


F. P. SCHOLTE, Ltd.
DIRECTORS.
F. P. SCHOLTE (BRITISH, DUTCH ORIGIN)
LT. COL. L. F. SCHOLTE
D. L. SCHOLTE

BY APPOINTMENT.
TELEGRAPHIC ADDRESS.
"OUTVIE, PICCY, LONDON."
"UNICODE" USED.
TELEPHONE.
REGENT 2675

7 Savile Row.
Burlington Gardens.
London, W.1. February 3rd 1937

A. Mumayiz Esqr

Dear Sir,
I am in receipt of your favour of 2nd inst., for which I thank you.
I am sorry, but it is impossible to reduce my prices as you ask. As a matter of fact — everything has gone up in cost in the last three months, but I have not raised my prices.
The price quoted — £13.0.0, is the nett price for cash payment, the 15% discount having already been deducted.

Obediently yours,
F. P. Scholte

لم يكن سعر البدلات لدى الخياط شولتي هو السبب الحقيقي للخلاف الذي نشأ بين الوزير المفوض رؤوف الچادرچي وبين وزير الخارجية ناجي الأصيل ، ولا الحرص على أموال الدولة ، فالسبب الحقيقي كان أبعد من ذلك بكثير. لقد كان سعر البدلة غير الرسمية (Lounge Suit) ذات الثلاث قطع ، يبلغ ثلاثة عشر باوناً (كما يتضح من كتاب الخياط شولتي المنشور أعلاه) (سعرها اليوم يتجاوز الأربعمائة باون عند الخياطين من الدرجة الأولى). أما سعر البدلات الاعتيادية الجاهزة فكان باونين ونصف الباون في محلات بيع الألبسة الشعبية المعروفة في لندن يومئذٍ بمحلات (Fifty Shilling — Tailors) . وقد حلت محلها اليوم المخازن التي تستورد الألبسة الجاهزة من هونك كونك وتايوان ، وسائر بلدان الشرق الأقصىٰ ، والتي يبلغ سعرها الحاضر مائة ضعف تقريباً (أورد ذلك للمقارنة بين مستوىٰ المعيشة في لندن أيام زمان ومستواها في الوقت الحاضر).

بقي الحال على هذا المنوال ونحن بين أخذ وردّ، وجزر ومدّ. كنا نجتمع يومياً و(نتدارد) مع بعضنا وليروي كلّ منا حصيلة تجاربه مع الوزير المفوض في ذلك اليوم.

مضىٰ شهر مارت وانقضىٰ نيسان وانصرم مايس وأقبل حزيران ودخل تموز ونحن على ذلك الحال، ولكن:

إذا انقضىٰ مارت فاكسر خلفه الكوزا   واحفل بتموز إنْ أدركتَ تموزا

وإذا بالأنباء ترد من بغداد عن قرب سفر قائد الانقلاب بكر صدقي الى أوربا، وقد تراهنّا



هيئة المفوضية العراقية في لندن سنة ١٩٣٧، باستثناء الوزير المفوض رؤوف الجادرجي فهو وعدسة المصوّر ضدان لا يتقابلان من اليمين: الملحق عبدالمنعم الگيلاني، الملحق أمين المميّز، الملحق العسكري الزعيم إسماعيل حقي الآغا، نائب القنصل صالح مهدي، المحاسب خالد حمدي.

نحن الموظفين فيما بيننا بأنه إذا غادر العراق فلن يعود إليه سالماً، ولم يكن الرهان مستنداً الى أية معلومات، بل أن الحدس والتخمين والتقدير من أن أيّ دكتاتور يقبض على زمام السلطة بيد حديدية إذاغاب عن بلاده فأن غيابه يغري خصومه بانتهاز الفرصة للاطاحة به، كما حصل فعلاً في كثير من الحالات. وبقدر ما يخص بكر صدقي فأن الصحف البريطانية صارت تنشر بين حين وآخر أنباء تقاربه مع دول المحور وشراء الأسلحة والطائرات من المانيا وإيطاليا واستياء بريطانيا من ذلك، كما كان لمقتل جعفر العسكري ومغادرة ياسين الهاشمي ونوري السعيد ورشيد عالي للعراق بصورة شائنة أثر كبير على مستقبل بكر صدقي.

في صباح يوم ٩ آب ١٩٣٧ صدرت الصحف البريطانية(*) وفيها نبأ مقتل بكر صدقي في الموصل وهو في طريقه الى ڤينا(**)؛ وتبع ذلك اضطراب في الوضع السياسي في العراق، فاستقال حكمة سليمان وتألفت وزارة جديدة برئاسة جميل المدفعي تولىٰ وزارة الخارجية فيها توفيق السويدي. فلم يشأ رؤوف الچادرجي الاستمرار بالعمل مع الوزارة الجديدة التي لا تربطه برئيسها أو بوزير خارجيتها الروابط التي كانت تربطه بالوزارة السابقة، وقال يومئذ انه كان قد قبل المنصب (لخاطر حكمة) فقدّم استقالته وسكن لندن برعاية أصدقائه في شركة النفط العراقية.(**)

* * *

(*) حالما نشرت الصحف البريطانية أخبار اغتيال بكر صدقي في الموصل، كتبت رسالة الى المرحوم رشيد عالي الكيلاني، الذي توثقت صداقتي به أثناء وجوده في لندن بعد انقلاب بكر صدقي، وأرسلت له قصاصات الصحف التي نشرت الأخبار. فوردتني رسالة جوابية، وكان في استانبول يومئذ، من ضمن ما جاء فيها «رحم الله النوائب علمتني صديقي من عدوّي». وقد أودعت الرسالة الى نجله المرحوم فيصل الكيلاني، لما علمت بوجود مذكرات والده. لعله يرغب في ضمها اليها.

(**) من تتبعاتي الشخصية ومما نشرته الصحف البريطانية يومئذ عن أسباب ودوافع سفر بكر صدقي الى أوربا توصلت الى الأسباب التالية:

١ - مقابلة زوجته النمساوية والألمانية الأصل في ڤينا، والتي كان قد تزوجها مؤخراً بعد طول حياة العزوبية والتنقل بين أحضان المحظيّات.

٢ - الاستحمام في حمّامات (بادكاشتاين) المعدنية في النمسا للمدة المقررة للـ(كور) التي تستغرق (٢١) يوماً، وهذه الحمّامات مشهورة بفوائدها الصحية وبفاعليتها لتنشيط الرغبة الجنسية.

٣ - مقابلة هتلر والحصول على الأسلحة للجيش العراقي، فكانت بريطانيا تماطل وتمانع بتزويد العراق بالأسلحة وخاصة الثقيلة، الأمر الذي حمل بكر صدقي على التشبث لشرائها من دول أخرىٰ، وقد اشترىٰ فعلاً طائرات سافويا القاذفة وبريدا المقاتلة من إيطاليا، والأسلحة الخفيفة كالبنادق والرشاشات من چيكوسلوفاكيا. وكان بكر صدقي قد أوعز الى العقيد صالح صائب الجبوري الذي كان موجوداً في چيكوسلوفاكيا يومئذ لشراء الأسلحة من معامل (برنو) في چيكوسلوفاكيا، لملاقاته في ڤينا ليستصحبه الى برلين لمقابلة هتلر، الأمر الذي كان قد أقضّ مضاجع الانكليز. فتآمروا عليه.

إن السبب الثالث مضافاً إليه مقتل جعفر العسكري صبيحة ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ و(سرگنة) نوري السعيد وياسين الهاشمي ورشيد الكيلاني الى خارج العراق وتألب أعوانهم من الضباط على بكر صدقي، هما السببان الحقيقيان للتآمر عليه واغتياله في النادي العسكري في الموصل وهو في طريقه الى تل كوجك ليستقل القطار الى ڤينا.

كان اليوم الأخير من السنة ١٩٣٧ من أمتع الأيام التي قضيتها في لندن. فقد حضرت احتفال عيد رأس السنة الجديدة ١٩٣٨ الذي أقيم في صالة (البرت هول) وضم آلاف المحتفلين من كلا الجنسين. وقد كان احتفالاً تنكرياً لبس فيه المحتفلون شتىٰ الأزياء الغريبة. فارتديت أنا الزيّ البغدادي الذي كنت قد اصطحبته معي من بغداد: اليشماغ والزبون والدّميري وعباية النايين ويمني حلب. كنت محط أنظار المحتفلين الذين أحاطوا بي إحاطة السوار بالمعصم. وكانت فتيات لندن أكثرهن إعجاباً بالزي البغدادي فصرن يتهافتن عليّ، بعضهن يطلبن مراقصتي وأنا بهذا الزي الغريب عليهن، وبعضهن يتساءلن عن البلد الذي أنتمي إليه. ولما علمن بأني من بغداد عاصمة العراق، أخذت أسئلتهن تتوالىٰ عن ألف ليلة وليلة وعن حرامي بغداد وعن السندباد البحري وعن (الحريم) وعن الفتاة العراقية وجمالها وعن الشباب العراقي وهل هم مثلي، وهل أنا متزوج أم أعزب وهل تركت (صديقتي) ببغداد، وهل هي سافرة أم محجّبة.. الخ. وما ان إنتصف الليل ودقت ساعة (بك بن) الثانية عشرة حتى اختلط الحابل بالنابل والروّاب باللبّان فدخلت السنة الجديدة وسط الهتافات والصيحات والقبلات (ورجّال اللي يخلّص نفسه) في تلك الدقيقة!!.

* * * * *



البغدادي في حفلة عيد رأس السنة ١٩٣٨ في قيافته البغدادية: الجِرّاويّة والعرقچين والعباية النايين وزبون الشاهي والهميان ويمني حلب

في ١١ آب سنة ١٩٣٨ صدر الأمر بنقلي الى المفوضية العراقية في باريس. وقد فوجئت بهذا النقل ولم أكن راغباً فيه لعدة أسباب، منها أني تسجلت طالباً مسائياً في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة لندن، ومنها أن الحياة الفرنسية وصخب باريس لا تروقان لطبيعتي الهادئة والمحافظة، وقد بدأت أتذوق الحياة الانكليزية وأستسيغ العيش في لندن، والأهم في ذلك كله هو أني لا أجيد اللغة الفرنسية ولم أشأ أن أكون أسيراً للكتّاب المحليين، كما هو الحال في كثير من البلدان عندما يجهل الموظف الدبلوماسي لغة البلاد التي يعمل بها. ولم يكن في المفوضية يومئذ سوى القائم بالأعمال السيد عطا أمين المنقول حديثاً من لندن وحل محلّه عبدالرحمن الفلاحي، والكاتب المحلي المسيو لانكان، وكان سلفي عوني الخالدي قد انفكّ بالاجازة حالاً بعد وصولي.

في شهر أيلول ١٩٣٨ تلبد الجوّ السياسي في أوربا بسبب الخلاف بين الدول الغربية وألمانيا حول چيكوسلوفاكيا، فصارت طبول الحرب تقرع في العواصم الأوربية وكانت أصواتها في باريس أعلىٰ من غيرها من العواصم الأخرىٰ. وفي نهاية أيلول اجتمع في مدينة ميونيخ الألمانية رؤساء الدول الأربع هتلر وموسوليني ونفيل چمبرلين وأدوارد دالاديه، ووقعوا الاتفاقية المشهورة باتفاقية (ميونيخ). وبقدر تعلق الأمر بالعلاقات بين ألمانيا وبريطانيا فقد وقع هتلر وچمبرلين اتفاقية ثنائية بينهما، وعاد چمبرلين الى بلاده يحملها بيد ويحمل باليد الأخرىٰ شمسيته ليقول لشعبه بأنه قد جلب معه (السلم في أيامنا) ليمزقها هتلر بعد ستة أشهر فقط وذلك باحتلاله چيكوسلوفاكيا، فأصبحت شمسية چمبرلين رمزاً ساخراً لسياسة التهدئة.

بعد توقيع اتفاقية ميونيخ وهدوء الجوّ السياسي في أوربا مؤقتاً، وصل الى باريس وزير الخارجية الجديد توفيق السويدي قادماً من جنيف ليقضي فيها بضعة أيام قبل اجتماع عصبة الأمم الذي سيمثل العراق فيه. وشاء أن يجري اتصالاً بوزارة الخارجية الفرنسية للبحث في موضوع ابرام المعاهدة السورية ـ الفرنسية. فرتبت له المفوضية موعداً لمقابلة مدير الشؤون الشرقية بالوزارة المسيو (كارو)، وموعداً آخر مع وزير الخارجية المسيو (بونيه)، فذهب الى الـ (كيه دورسيه) واجتمع بالمسيو كارو وبحثا في موضوع المعاهدة بحثاً مستفيضاً بأمل أن يعرض (كارو) الموضوع على وزير خارجيته قبل مقابلته لتوفيق السويدي في اليوم التالي. ولما حضر السويدي المقابلة، لم يجد لدىٰ وزير الخارجية الفرنسية استعداداً وتجاوباً للبحث معه حول موضوع المعاهدة، الأمر الذي أثار حفيظة السويدي. وقد روىٰ لنا بعد عودته الى المفوضية أنه لما شعر من الوزير بعدم استعداده للبحث في الموضوع الذي تمت المقابلة من أجله وبقي طوال الوقت واجماً لا ينبس ببنت شفة، قال له السويدي: أنك يا معالي الوزير قد أعطيتني موعداً لمقابلتك غير أني أراك غير جاهز لهذه المقابلة، فبقيت ملازماً الصمت، فهل أن صمتك هذا يرجع لكونك وزير خارجية دولة عظمىٰ وتكلم وزير خارجية العراق الدولة الصغيرة؟ أم لأنك غير مسبوق بالموضوع الذي بحثته تفصيلاً مع مدير الشؤون الشرقية لغرض تنويرك به قبل مقابلتي لك؟ عندئذ ثاب وزير خارجية فرنسا الى رشده وصار يعتذر من السويدي بأن عدم مبادلته الحديث عن المعاهدة السورية ـ الفرنسية كان بسبب عدم إطلاعه على الموضوع مسبقاً،

لأنه لم يستطع مواجهة مدير الشؤون الشرقية لانشغاله بأمور خطيرة ومستعجلة.

سافر السويدي الى جنيف لحضور اجتماع عصبة الأمم وعاد الى باريس بعد عدة أيام يصحبه المرحوم محيي الدين المميز الذي كان معاراً لمكتب العمل الدولي في جنيف. وبقي في باريس بضعة أيام قبل سفره الى لندن، ولا بدّ أن الزميل عبدالله بكر مدير المكتب الخاص لوزير الخارجية يومئذ يتذكر الأيام القليلة التي مرت علينا في باريس بصحبة المرحوم محيي المميّز. ثم سافر السويدي الى لندن للاتصال بوزارة الخارجية البريطانية للبحث في العلاقات الثنائية بين بريطانيا والعراق والقضية الفلسطينية، فبقي هناك عدة أسابيع ثم عاد الى باريس في طريقه الى بغداد. ففاتحته بأني لا أرغب البقاء في باريس وأفضل العودة الى بغداد لأني سئمت حياة العزوبية وأنوي الزواج، ولو أنني في باريس التي يحلم في العمل بها معظم الشباب في السلك الخارجي، والتي قال عني أحد الزملاء (الله ينطي الجوز للما عنده سنون) عندما تبلغت بأمر النقل، فوافق الوزير على منحي إجازة (شفوية) للسفر الى بغداد على أن يبتّ في أمر النقل عند عودته الى العراق.



في مصيف (دوفيل) على شاطئ فرنسا الشمالي في ١٩٣٨/٨/٢٨ مع حقي الشبلي الذي كان يدرس التمثيل في باريس، وهي الذكرى الوحيدة التي احتفظ بها عن البلدة التي لم أستسغ الحياة فيها لصخبها، مما لا يتلاءم مع طبيعتي الهادئة والمحافظة، وكنت استشهد طيلة اقامتي القصيرة فيها بما قاله المتنبي:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود



في الوسط توفيق السويدي وزير الخارجية والى يمينه عبدالله بكر مدير المكتب الخاص وإلى اليسار أمين المميّز، بين أطلال مدينة (پومپيي) الأثرية وهي المدينة الرومانية القريبه من سفح بركان (ڤيزوف) المطل على مدينة (نابولي) بأيطاليا، والتي كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون فصب عليها بركان ڤيزوف حممه، وهي التي تنطق بحقها الآيه الكريمة: «وأذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً.» صدق الله العظيم.

غادرت باريس   أنا والمرحوم محيي الدين المميز بسيارتينا، وأبحرنا من ميناء جنوة على ظهر الباخرة اسبيريا التي سافر عليها وزير الخارجية أيضاً وبعد التوقف في نابولي وزيارة (پومبي) وصلنا الى بيروت، ومنها عبر الصحراء الى بغداد، بعد فراق طال أكثر من سنتين، وأنا أردد قول أبي تمّام:

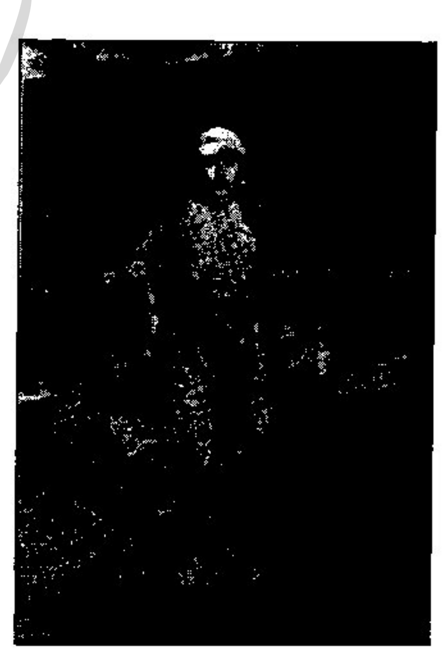
نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبّ إلا للحبيب الأولِ
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزلِ

وعند وصول وزير الخارجية الى بغداد، أصدر أمراً بتعييني معاوناً لمدير الشعبة الشرقية، ونقل محيي الدين المميّز الى قنصلية تبريز في إيران، وكان يأمل أن ينقله الى أوربا. وقال السويدي لعبدالله بكر يومذاك: «الخصوصيات شيء والرسميات شيء آخر. إذا ما يصير جدّي مثل إبن عمه فلن أنقله الى أوربا».

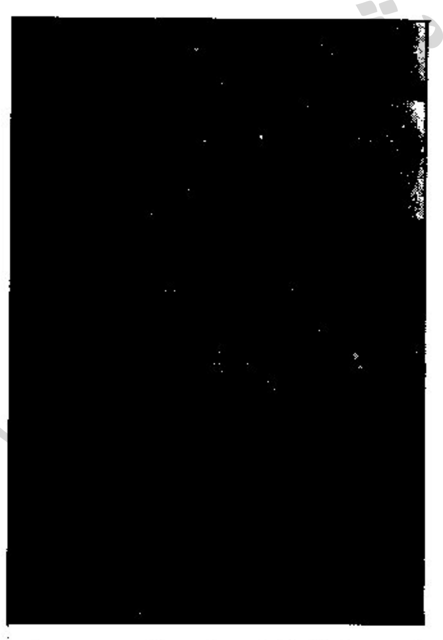
وبعد بضعة أشهر استدعيت لدورة ضباط الاحتياط الثالثة فالتحقت بها بتاريخ ١٩٣٩/٩/٣٠.

* * * * *

كانت الستة أشهر التي قضيتها في دورة ضباط الاحتياط من أسعد أيام حياتي. فقد استدعي لهذه الدورة عدد كبير من أصدقائي وزملائي وأقراني وعشراء صباي وأبناء مدرستي في المأمونية والثانوية وأبناء محلتي في الدنكچية وجديد حسن پاشا والصرافيّة، وكان هؤلاء الأحبّة مبعث سعادتي وسروري في تلك الدورة، أذكر منهم خالد الچوربه‌چي، أدهم مشتاق، عبدالرزاق شبيب، ياسين الگيلاني، مراد الشاوي، شيت نعمان، عبدالله السنوي، عبدالحميد كبه، عبدالحميد بلال، ممتاز عارف، داود الشواف، فائق السامرائي، حسين جميل، محمد جاسم، إبراهيم إسماعيل، وديع جرجي، لطيف حكيم، جميل توما، صادق كمونة، سليم الحاج ثابت، فاضل عوني، عبدالقادر حشمت، إحسان سلمان، شاكر الأوقاتي، نيازي فتو، أنور شاؤول، فخري كبّة، وهناك آخرون كثيرون، أذكرهم بالوجه ولا أذكرهم الآن بالاسم.



أمين المميّز في دورة ضباط الاحتياط الثالثة بوضع (تنكّب سلاح)



أدهم مشتاق تأخذه سنة من النوم وهو مستلقٍ على الكرسي الوثير في دورة ضباط الاحتياط الثالثة، بعد العودة من تدريب عنيف في ساحة معمل تقطير مسيّح في الكرادة الشرقية



الأحبة الخمسة في دورة ضباط الاحتياط الثالثة :
من اليمين : شيت نعمان ، مد الله في عمره ، المرحوم صفاء عبدالرزاق ، خالد الچوربه‌چي ، شافاه الله وعافاه ، أمين المميّز ، مدّ الله في عمره ليكتب الكتاب الخامس ، المرحوم مظفر فهمي .

لقد جمعت هذه الدورة بين الأستاذ وتلامذته ، فقد كان شيت نعمان أستاذنا في درس الكيمياء في الثانوية سنة ٢٨ - ١٩٢٩ فصار زميلنا في دورة ضباط الاحتياط الثالثة في الزوية سنة ١٩٣٩ !



السيدياسين الگيلاني في وضع «النهوض» ويتلقى الايعاز من العريف عبود ، ويقول له غاضباً ومتبرماً :
- وينه العدو خلي يشوفني ويضربني ويكتلني ويخلصني من ها الحاله !!

كان مقرّ الدورة في الزوية (الكرادة الشرقية ـ بستان الحاج ناجي) وهو عبارة عن بناكل تتلاءم وما تتطلبه خشونة الحياة العسكرية(*)، وكنا ملزمين على المبيت في المقر خمسة أيام في الأسبوع على الأقل، ولكنني كنت أفضل المبيت في الزويّة على المبيت في الصرافيّة، لأني كنت أشعر بالمتعة والسرور في الأولى أكثر من الثانية، وكنت يومئذ متحرراً من قيود الزواج وأصفاده.

منهاجنا اليومي يبدأ في الصباح الباكر. ومن عادتي حيثما كنت، أن أستيقظ مبكراً، ومن عادة صديقي السيد ياسين الگيلاني، أمدّ الله في عمره، أن يستيقظ هو الآخر مبكراً لإعداد نفسه قبل أن يسبقه الآخرون، وحالما أفيق من النوم أناديه :

سيد ياسين : بالضبط بالضبط بالضبط بيش الساعة. . ويرد عليّ : بالضبط بالضبط بالضبط الساعة أربعة.

وبعد أن نرتدي ألبستنا العسكرية ونتناول الفطور الأول، وهو عبارة عن كوب من الشاي وقطعة من الصمون الأسمر، نتوجه الى المشجب لاستلام البنادق، ثم نصطف لتلقي الأوامر من آمر الفصيل الملازم عزيز داخل ونخرج للتدريب في ساحة «المعرقة» (موقع معمل تقطير مسيّح سابقاً ومعمل شركة باتا حالياً). خرجنا ذات يوم للتدريب، وبينما كان الفصيل جاداً في المسير على نغمة (يس. . يم) وننشد نشيد (الجيش سور للوطن) انزلق قدمي وسَقَطْتُ أرضاً فوق بندقيتي فانكسر حاضنها، وأصيبت أضلاعي برضوض مؤلمة، ومع ذلك استمرّ بي السير وأنا أتوجع من شدة الألم الذي لم يخففه إلّا الحادثة التالية :

بلغنا «المعرقة» وبدأ العريف عبّود يدربنا على الانبطاح والنهوض، فانبطحنا. ولما استلقى السيد ياسين الگيلاني على الأرض لاحظ قرب قدمه بعض النفايات ـ أي الصون ـ فرفع قدمه مبتعداً عنها، ولما لاحظه العريف عبّود وهو بهذا الوضع صرخ به :

ـ ياسين الگيلاني، نزّل رجلك ليشوفك العدوّ. .

فرفع السيد ياسين الگيلاني رأسه وهو غاضب ومتبرّم وخاطب العريف عبود :

ـ وينه العدو، خلي يشوفني، ويضربني ويكتلني ويخلصني من هالحالة. .

لقد خفف جواب السيد ياسين الألم الشديد الذي كنت أشعر به من أضلاعي المرضوضة.

(*) كانت هذه البناكل موقع المستشفى العسكري إبّان الاحتلال البريطاني ثم أصبحت مقراً للكلية العسكرية قبل انتقالها الى موقعها الحالي.

عند عودتنا من التدريب، سلّمنا السلاح الى المشجب، غير أن حارس المشجب انتبه الى حاضن البندقية المكسور، فرفع تقريراً بذلك الى آمر السرية الرئيس ناجي حسين الذي أحالني الى الهيئة التحقيقية لمحاكمتي. كانت الهيئة مؤلفة من الملازمين مصطفىٰ عريم وأحمد نافع وعزيز داخل برئاسة الأول. فسألني عن كيفية كسر الحاضن. فأفـدت بالتفاصيل اللازمـة. لقـد كان رئيس الهيئة غاية في الشـدة والقسـوة، على رغم وجود علاقـة القربىٰ بيننا، إذ لا محاباة ولا مراعاة ولا تساهل مع القريب، تلك هي من تقاليد الجيش العراقي التي يعتزّ بها. فقال الرئيس: «لا يهمنا لو انكسرت أضلاعك كلها، ولكن الذي يهمنا هو حاضن البندقية الذي أنكسر عندما كانت البندقية في عهدتك» فأصدرت الهيئة قراراً بحجزي في الثكنة وعدم مغادرتها لمدة ثلاثة أيام، فتقبلت الحكم بكل روح رياضية، لعلمي بأن للجيش العراقي تقاليده وعليّ أن أراعي هذه التقاليد وأحترمها.

لم أكن الوحيد الذي عوقب أثناء الدورة، فقد سبقني الى العقوبة فائق السامرائي. كان فائق يتأخر في فراشه (ويحب نومة الصبح) ولا يلتحق بالتدريب إلاّ حين يخرج الفصيل الى الساحة، وتكرر ذلك منه عدة مرات فضاق آمر السرية ناجي حسـين ذرعاً بفائق وأنـزل به عقوبة الحجز الانفرادي لثلاثـة أيام يقضيها في غرفـة الحرس الـواقعـة في مدخـل الثكنـة ليتفـرج عليـه الداخـل الى الثكنـة والخـارج منهـا.

كانت أنوار ردهات النوم تطفأ في الساعة الحادية عشرة مساءاً، وعلى كل منا أن يهجع في فراشه، وقد مر ذات يوم آمر السرية ناجي حسين للتفتيش فسمع اثنين يتكلمان كان أحدهما عبدالرزاق شبيب، فصاح: منوديحچي؟ فأجابه عبدالرزاق، فد واحد ديحچي بنومه، فضحك الهاجعون واستيقظ النائمون.

وعدا التدريب كنا نتلقىٰ دروساً في التعبئة والجغرافية العسكرية والتأريخ العسكري ومباديء الهندسة العسكرية والصحة العامة وكل ما له علاقة بواجبات الضباط.

دوامنا لا بأس به، منامُنا لا بأس به، طعامنا، بوجباته الثلاث، لا بأس به. فطورنا متنوع: يومْ بيض مقلي، يومْ زبد ومربىّ، يومْ دبس وگيمر، يوم جبن كرافت وزيتون. غداؤنا شهيّ، تمّن ومرگه وصمّون أسمر وبرتقالة أو تفاحة، ووجبة العشاء كوجبة الغداء(*)، وهناك حانوت لمن يشتهي غير الطعام المقرر فيه چلفراي وچلاوي وبيض غنم وباسطرمه وبيض واومليت الخ.

تحت تصرفنا بهو للاستراحة والمطالعة مؤثث بأفخر الأثاث وتتوفر فيه كافة وسائل الراحة.

(*) يحلو لي أن أقارن هذا الطعام بطعام المعتقل بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فقد روىٰ لي ممتاز العمري وكان مديراً عاماً لوزارة الداخلية وعمل مع عبدالسلام عارف عدة أيام قبل أن يختطفه أحد زبانيته من داره في منتصف إحدىٰ الليالي، فقال: عرضت قائمة بنفقات معيشة المعتقلين على عبدالسلام، وقد قدرنا لكل واحد منهم أربعمائة فلس يومياً، فاستشاط عبدالسلام غضباً وقال: أربعمائة فلس لكل واحد منهم، إشدعوه، صمّونه وإستكان چاي تكفي لكل واحد، توازيني آخذ الرشاش وأروح أحصدهم كلهم.. بهذه الـذهنية حكم عبدالسلام عارف العراق ثلاث سنوات ونيّفاً..

الفصيل الثاني من دورة ضباط الاحتياط الثالثة :

في الوسط : آمر السريّة الرئيس ناجي حسين ، والى يساره آمر الفصيل الملازم عزيز داخل ، أحد الثلاثة الذين تركوا أطيب الأثر في نفسي أثناء الدورة. أما الأثنان الآخران فهما رئيس العرفاء شنيور (الأول من أقصى اليسار) الذي قلت عنه انه مؤهل ليكون رئيس عرفاء في أرقى جيوش العالم ، والعريف عبود ، الجالس الى اليسار ، الذي قال لنا إنه كان يرسل مع أفراد من الجيش العراقي الى فلسطين بصورة سريّة لمقاتلة الانكليز وتدريب الثوار الفلسطينيين.

قضيت في الدورة خمسة أشهر وثلاثة أسابيع وتسرحت منها في ١٩٤٠/٣/٢٠، فأحلت الى اللجنة الطبية التي قررت تأجيلي الى الدورة المقبلة التي ستفتح في ١٩٤٠/٤/٤، وفي بداية الدورة الثانية أحلت ثانية الى لجنة طبية أعلى فقررت إحالتي الى الخدمات غير المسلحة، وبعد حركات مايس سنة ١٩٤١ ألغيت دورات ضباط الاحتياط، عندما تولى رئاسة البعثة العسكرية البريطانية الجنرال (رنتون) الذي كان يعرف بين أوساط الضباط (أبو أيد المگطومه). الذي عمل على تقليص الجيش العراقي الى أدنى الحدود.

ثلاثة أشخاص تركوا في نفسي أثراً طيباً خلال الدورة، أولهم الملازم عزيز داخل. هذا الضابط على جانب كبير من دماثة الخلق وذو ثقافة عالية أوسع كثيراً من ثقافته العسكرية ويتقن اللغة الانگليزية، وذو ابتسامة حلوة ودائمة، ويراعي مشاعر وظروف المكلفين وكلهم من المثقفين والمتخرجين في الجامعات والكليات. والثاني رئيس العرفاء شْنَيْورْ، ومهما أطنبت بمزاياه العسكرية وأخلاقه الشخصية فلا يمكن أن أفيه حقه. أنه أهل ليكون رئيس عرفاء في أرقى جيوش العالم. وكلما كنت ألتقي به بعد إحالته على التقاعد أرحّب به ترحيباً حاراً وصميمياً وأقبّله من وجنتيه وأستذكر معه تلك الأيام الحلوة التي كان فيها رئيس عرفاء سريتنا. أما الثالث فهو العريف عبّود الذي يمتاز عن بقية عرفاء السرية من كافة النواحي العسكرية والشخصية، وكنا نلمس الفرق بينه وبين زملائه عندما يحلّ محله العريف حاشوش ذو الوجه العبوس. كان العريف عبّود يغيب عنّا عدّة أيام وعندما نسأله عن أسباب غيابه يقول إنه ومعه عدد كبير من أفراد الجيش العراقي كانوا يرسلون الى فلسطين متنكرين لتدريب الثوار الفلسطينيين ومحاربة الانگليز.

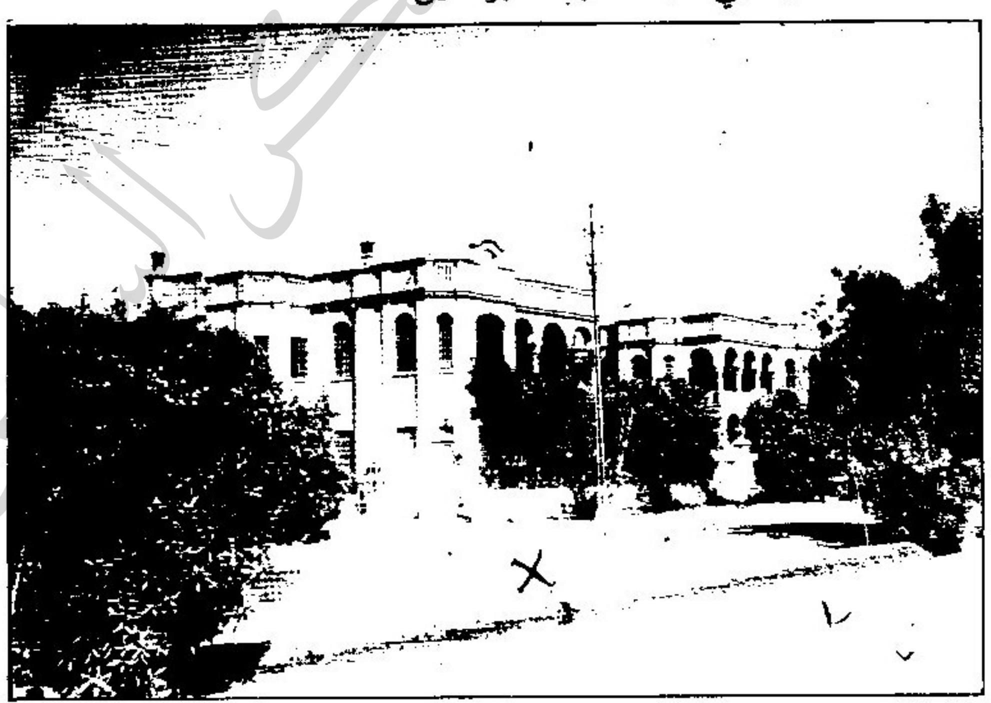
لقد خرجت من دورة ضباط الاحتياط بنتيجة هامة هي أنها تعمل على صقل شخصية المكلف، وتعلمه الطاعة والنظام واحترام الأعلى رتبة، واتباع الأوامر، وتحمل المصاعب، والمشاق، والتضحية ونكران الذات، والانضباط والتعايش الجماعي والاعتزاز بتقاليد الجيش الوطني، فضلاً عن كل ذلك فأنها تكسب المكلف الصحة والنشاط والحيوية.

بعد تسريحي من دورة ضباط الاحتياط استأنفت عملي بوزارة الخارجية، فعَرضت عليّ الوزارة نقلي ثانية الى المفوضية العراقية في لندن، فوافقت مبدئياً على ذلك.

* * *

في الصباح الباكر من اليوم الرابع من نيسان ١٩٣٩ أيقظني المرحوم والدي ليخبرني بأنه قد شاهد من شرفة غرفته المطلة على شارع الامام الأعظم في الصرافية بعد منتصف الليل موكباً مكوناً من عدّة سيارات مدنية وعسكرية وسيارات شرطة يتقدمها نعش ملفوف بالعلم العراقي متوجهاً نحو البلاط ، وأن الوضع في الشارع غير طبيعي ، وأضاف : (يمكن الملك مات) ، فبقينا ننتظر على مضض موعد افتتاح محطة إذاعة بغداد.

فتحت الاذاعة في الوقت المعيّن بتلاوة من آي الذكر الحكيم كالمعتاد، ثم أخذ المذيع يذيع بصوت متهدج وحزين البيانات الرسمية. فقد نعىٰ البيان الأول وفاة الملك غـازي على أثـر اصطدام السيارة التي كان يقودها بعمود الكهرباء بالقرب من قصر الحارثية وذلك في الساعة الحادية عشرة والنصف من الليلة الماضية ، ثم تلا البيان المتضمن تقرير الأطباء الذين فحصوا الملك ، ثلاثة منهم من العراقيين من ذوي السمعة الحسنة هم الدكاترة : صائب شوكة ، صبيح الوهبي ، جلال حمدي ، واثنان من الانكليـز هما : الـدكتور سنـدرسن طبيب العائلة المـالكة والدكتور براهام الاخصائي في الجراحة بالمستشفىٰ الملكي . وقد جاء في تقرير الأطباء أن الوفاة قد حصلت من جراء كسر شديد في الجمجمة وتمزق في المخ عندما كان الملك يسوق سيارته بنفسه فاصطدمت بعمود الكهرباء بالقرب من قصر الزهور. ثم تليت البيانات المتعلقة بتنصيب ولي العهد فيصل الثاني ملكاً على العراق وتسمية خاله الأمير عبدالإله وصياً على العرش ، ودعوة مجلس النواب وإعلان الحِداد العام والأحكام العرفية ، الى غير ذلك من البيانات التي تقتضيها مثل هذه الحالة الاستثنائية التي فاجأت البلاد عبر الليل.

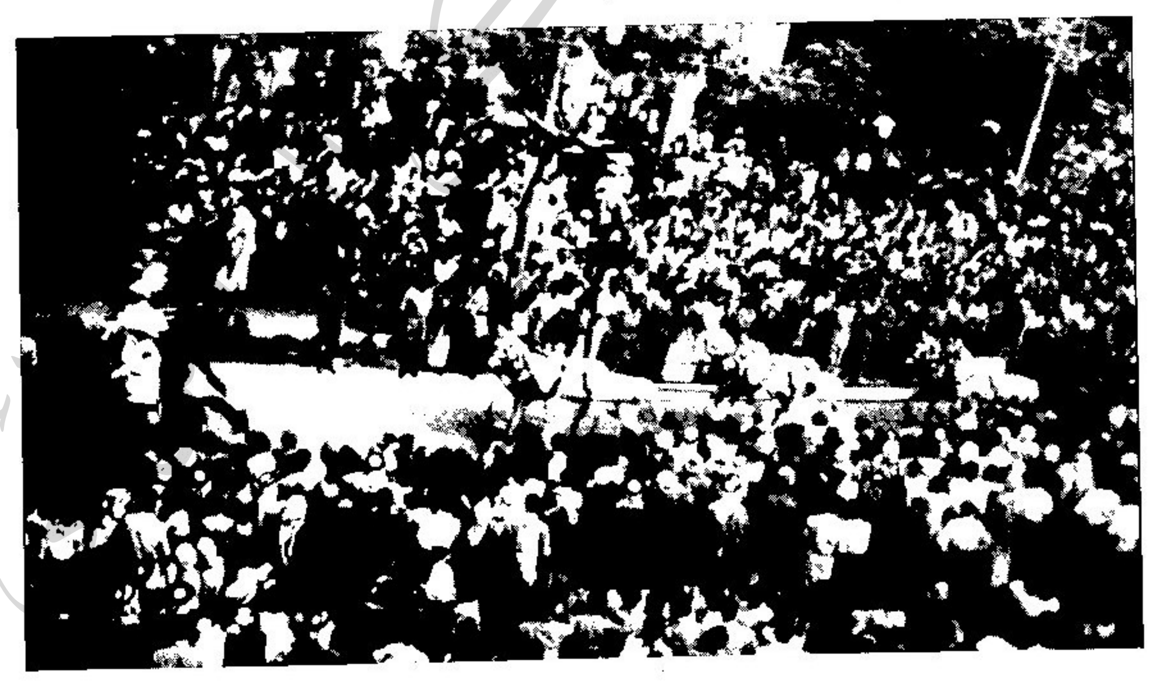


لاحظ والدي من شرفة غرفته المطلة على شارع الامام الأعظم في الصرافية حركة غير اعتيادية في الشارع ، وشاهد سيارة عسكرية تحمل نعشاً ملفوفاً بالعلم العراقي . فأيقظنا في الصباح الباكر وقال لنا : لاحظت الليلة حركة غير اعتيادية في الشارع ، يمكن الملك مات!!



التشييع الرسمي الى المقبرة الملكية في الأعظمية

وقبل ظهر يوم ٤ نيسان ١٩٣٩ انتظمت البغداديات في حلقات مقابل دارنا في الصرافية (×) ونصبن (چاينه) تتوسطهن (عدادّه) تعدّد مناقبَ الملك الشاب، وقد تحزّمن بعبيّهن ولطمن صدورهن، وبعضهن رحن يمزقن (زياگهنّ)، ويصرخن بأعلى أصواتهن (يبو.. يبو)، ثم يتبع ذلك ضرب على الصدور باليدين مصحوب بنفثات وزفرات (أوحّو... أحّو) تخرج من أعماق أفئدتهن. وما فتئت أمثال هذه الحلقات تتكاثر حتى شملت شارع الامام الأعظم من باب المعظم حتى البلاط الملكي.



التشييع الشعبي لجثمان الملك غازي الى المقبرة الملكية في الأعظمية. يوم ٥ نيسان ١٩٣٩



رجال الدولة والعلماء والوجوه يستقبلون نعش المغفور له الملك غازي على مدخل المقبرة الملكية :
الصف الأول من اليسار :
الفريق أمين العمري ، السيد هاشم العلوي مدير الشرطة العام ، ابراهيم چلبي عطارباشي ، الشيخ محمود الملا حمادي ، الشيخ عبدالباقي العاني ، السيد شاكر البدري ، السيد عباس الكلدار ، الشيخ محمد عبدالله مخلص ، الحاج محمود بنيّة ، الشيخ عبدالله الشيخلي ، الشيخ توفيق الخياط ، السيد محمود الوتري .
وفي الصف الخلفي الشيخ جلال الحنفي ، وآخرون .

وقد القى السيد شاكر البدري قصيدة تأبينية في تلك المناسبة ، من أبياتها :

عزّوا [النبي] وعزّوا اليوم عِتْرته ... عزّوا [العروبة] قاصيها ودانيها
عزّوا ملوك الدنا ، عزّوا ملاك السما ... والكائنات وعزّوا كلٍ من فيها
بموت [غازي] مليك العربِ رائده ... ومنقذ [القدس] حقاً من أعاديها



المقبرة الملكية في الأعظمية حيث دفن الملك غازي يوم ٥ نيسان سنة ١٩٣٩ ويرقد في هذه المقبرة حالياً والده الملك فيصل الأول ووالدته الملكة حزيمه وعمه الملك علي وزوجته الملكة عالية ووالدتها الملكه نفيسة ، وإبنتا عمه الأميرة جليلة والأميرة عابدية وابنه الملك فيصل الثاني وجعفر العسكري ورستم حيدر .

ما إن أذيعت هذه البيانات حتى هاجت بغداد عن بكرة أبيها ، فأخذت الجموع الزاخرة تتوجه الى البلاط على شكل مظاهرات ومسيرات تحمل اللافتات الحزينة وتردد الهوسات المثيرة. وكان منظر البغداديات أكثر المشاهد التي تركت في نفسي أثراً بليغاً ، وأبكتني كثيراً . فقد انتظمن أمام دارنا في الصرافية على شكل حلقات وعملن (چاينه) و(لطميّه) تتوسطهن (عَدّاده) تحزمت بعباءتها وكلهن قد لطخن جباههن ورؤوسهن بالطين ، وهن يصرخن (يبو . . يبو) ويكفخن رؤوسهن ويلطمن صدورهن كلما نطقت العدّادة أرجوزة مؤثرة في تأبين الملك الشاب وتعداد مناقبه وبغداديّاته . ومن يسمع تلك العدّادة ومن يشاهد ذلك المشهد لا يتمالك إلا أن (يگهد) بالبكاء مهما حاول ضبط عواطفه والسيطرة على أعصابه .

وما إن انتصف النهار إلاّ وبغداد كأنها في يوم الحشر . لقد كان ذلك النهار كئيباً وحزيناً لفقد الملك الشاب ومغبراً وثقيلاً من جراء الرياح الشرقية ـ الشرجي ـ التي اجتاحت بغداد في ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي الموافق ٥ نيسان جرىٰ التشييع الرسمي لجثمان الملك ، الذي كان مسجّىٰ في صالة العرش في البلاط منذ فجر ليلة ٤ نيسان ، في تشييع مهيب ومنتظم من البلاط الملكي الى المقبرة الملكية في الأعظمية . . وقد اشتركنا أنا وجلال الحنفي في التشييع .

وفي اليومين التاليين استقرت الأحوال في بغداد بعد إعادة تأليف الوزارة ، فأصبح في الامكان الطواف بالسيارات في الشوارع . وكان أول عمل قمت به هو التوجه الى قصر الزهور لأقف بنفسي على تفاصيل تلك الحادثة المروّعة التي رجّت العراق من أقصاه الى أقصاه .

شاهدت السيارة الحمراء المكشوفة (أم التنته) (كونفرتبل) من نوع (هدسون) جاثمة على دواليبها الأربعة الى يمين الشارع على أرض رطبة وغير مبلطة ، وعلى مقعديها الأمامي والخلفي بقع من الدماء ، وشاهدت عمود الكهرباء الملتوي والمقلوع من الأرض مع قاعدته الكونكريتية من شدة الاصطدام ، فوق السيارة وعليه آثار من الدم اليابس والمخ وبعض الشعر ، وشاهدت الأسلاك الكهربائية متقطعة وشاهدت الزجاجة الأمامية محطمة ومقود السيارة (ستيرن) ملتوياً . ولاحظت الشارع المنحدر من تقاطع الطريق مع سكة القطار والذي كان انحداره فيما يبدو السبب في إنزلاق السيارة المسرعة المتوجهة من قصر الزهور الى قصر الحارثية وارتطامها بعمود الكهرباء ، ربما بسبب عدم تمكن الملك من السيطرة عليها في تلك الساعة المتأخرة من الليل وهو مخمور ، مقدمتها باتجاه قصر الحارثية ومؤخرتها باتجاه قصر الزهور .

بعد هذه المشاهدة الدقيقة ، عدت من موقع الحادثة وقد تكونت عندي شبه قناعة عن الحادثة وأسبابها والظروف المحيطة بها . وعلى رغم مرور أكثر من أربعين عاماً على وقوعها ، ورغم كثرة ما قيل وكتب عنها من يوم وقوعها حتى يوم الناس هذا ، فهي لم تتغير . لقد زعم فريق من الناس أنها أمر دُبِّرَ بليل ، وادعىٰ فريق آخر أنها قضاء وقدر . إن الاسترسال بهذا الموضوع

ومناقشة وجهة نظر كل من الفريقين، يبعدني كثيراً عن موضوع هذا الكتاب، غير أني أود أن أورد ثلاثة احتمالات لفائدة الباحثين والمعنيين بهذا الموضوع :

الاحتمال الأول : كنت قد اطلعت في بغداد قبل وقوع الحادثة بأسبوعين أو ثلاثة على مجلة أسبوعية أو نصف شهرية تصدر في لندن أسمها (بريطانيا العظمىٰ والشرق الأوسط) نشرت مقالاً عن الحالة السياسية في العراق يومذاك. فبعد أن استعرض كاتب المقال الوضع السياسي في بغداد اختتم المقال بالعبارة التالية : «أن كثيراً من رجال السياسة في بغداد وفي (وايت هول) يعتقدون بأن تغيير الملك أصبح أمراً لا مناص منه». وبعد مصرع الملك غازي وردت الى وزارة الخارجية من المفوضية العراقية في لندن قصاصات من الصحف البريطانية التي كتبت عن الحادث. ومن ضمنها جريدة (مانجستر كارديان) التي جاء فيها، حسبما أذكره، أن رجال السياسة في العراق، كما هو معلوم لدىٰ الدوائر السياسية البريطانية، كانوا يفكرون منذ مدة في تبديل ملكهم لعدم صلاحيته للحكم، وأن وفاته قد حلت لهم هذه المشكلة خير حل الآن.

الاحتمال الثاني : في سنة ١٩٤٦ حضرت مأدبة أقيمت في أوتيل (كلاردج) في لندن ضمت عدداً من ساسة العراق، أذكر منهم : نوري السعيد، رؤوف الچادرچي، شاكر الوادي. فأقحم موضوع وفاة الملك غازي في الحديث الجاري بين بعض الحاضرين، وكان بينهم عدد من الشخصيات البريطانية. ولما انتبه نوري السعيد الى الحديث، قال بغضب وانفعال : «كل من يگول أن وفاة الملك غازي مو قضاء وقدر هو مغرض».

الاحتمال الثالث : فإن لم يكن ذلك الحادث قضاءاً وقدراً، ولا كان أمراً دبر بليل، فهل هناك احتمال ثالث ياترى؟ وهل لما نسميه بالحظ والبخت وحسن الطالع، دور في ذلك الحادث؟ أني أنقل بهذا الصدد ما كتبه توفيق السويدي في مقدمته لكتابي (الانگليز كما عرفتهم) بتأريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٤ إذ قال : «ولكني أضع دائماً في مقدمتها هذا الشعب الذي رغم محاولاتي فهم كنه العوامل التي جعلت منه شعباً يتزعم حضارة العالم لم أصل الى ما أطمئن إليه من استنتاج علمي واضح. وقد ساورتني عدة هواجس وتيارات كلما حاولت أن أستنبط قاعدة أركن إليها في تدقيقاتي، فلم أقدر على ذلك حتى وصل بي الأمر الى أن أجازف بالقول وأخرج عن نطاق البحث العلمي فأؤمن بالحظ والتوفيق أكثر من أي شيء آخر. لقد صرت أميل الى القول بأن للأفراد في معركة الحياة طالعاً حسناً يكسبهم الفوز، أو طالعاً سيئاً يبعدهم عنه،

وبأن للشعوب كما للأفراد حظاً من ذلك على حدٍ سواء، فهي لا تتساوى جميعها بالتمتع من خيرات الطوالع أو من آثارها. وحسن الطالع لا ينفك يساند الشعب البريطاني في معارك حياته، وإلاّ فكيف نعلل ظواهر وعوامل لا تحصى بحياة هذا الشعب، وهي ليست من شأنها أن تضمن له الفوز في الحياة؟ نعم، إن هذا الشعب قد اتّخذ قواعده من الشواذ وضرب القواعد بركلة، أو أنه لم يحفل بها أبداً»

فإذا كان الأمر كذلك، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار عامل الحظ والبخت والتوفيق وحسن الطالع كما يعتقد توفيق السويدي، أفلا يجب أن يؤخذ ذلك العامل بنظر الاعتبار أيضاً عند البحث عن مقتل الملك غازي؟ فأن الانكليز الذين وهبهم الله نعمة الحظ والبخت والتوفيق وحسن الطالع، لا يحتاجون أن يقتلعوا عمود الكهرباء ويهوون به على رأس الملك في ظلمة الليل، أو أن يلغموا أجهزة سيارته لترتطم بالعمود لحظة اقترابها منه، أو أن يضربه العبد (سعيد) الجالس في المقعد الخلفي بالفأس على رأسه ويهشم يافوخه أو أن (يتنطّرله) أحد القتلة بين البساتين والأحراش ويطلق عليه الرصاص، حتى يتخلصوا من الشخص الذي أقضّ مضاجعهم من إذاعاته من قصر الزهور، حول الكويت، أو لتقربه من السياسيين والعسكريين الذين كانوا يتقرّبون من دول المحوّر (على عنادهم)، أو لاتجاهاته القومية والوحدوية أو لشعبيته العارمة لدى الشعب الذي حكمه (*).

لكل ما تقدم أقول بأنه لا يجوز للباحث أن يقصّر بحثه على واحد من الاحتمالات الآنفة الذكر دون أن يأخذها كلها بنظر الاعتبار والتمحيص ليتوصل الى نتيجة صائبة مجرّدة من التحيّز أو الغرض المبطن (**).

* * *

في ٢٣ نيسان ١٩٣٩ وبينما كنت أتأهب للسفر الى لندن فوجئت بوفاة المرحوم والدي. وبعد إكمال مراسيم الدفن في مقبرة العائلة بجامع عادلة خاتون الكبير والانتهاء من أيام الفاتحة التي أقيمت بدارنا في الصرافية، أبلغت وزارة الخارجية بأن الظروف العائلية التي استجدّت بعد تبليغي بالنقل لم تعد تسمح لي بالسفر الى الخارج، فصرف النظر عن نقلي الى لندن.

* * *

(*) عشيّة تشييع جثمان الملك غازي وزع في بغداد منشور مكتوب باليد ومختوم بعبارة (واغازياه) القيت نسخة منه ليلاً تحت باب داري في الصرافية، يتهم الانكليز وبعض الشخصيات العراقية منهم نوري السعيد ورشيد عالي الكيلاني بتدبير مصرع الملك غازي، واحتفظت بتلك النسخة حتى وقت قريب ثم أودعتها الى الأستاذ عبدالجبار العمر لعلاقتها ببحث كان يعدّه عن نوري السعيد ورشيد عالي الكيلاني.

(**) كنت قد نشرت في مجلة «آفاق عربية» عدد ١٢ لشهر آب ١٩٨٣ تفنيداً لمزاعم وردت ضمن مقال لعبدالرزاق الحسني نشر في العدد ١٠ لشهر حزيران ١٩٨٣ من المجلة المذكورة حول مصرع الملك غازي ختمته بالمناشدة التالية:

«فيا أيها الكتّاب والباحثون والمؤلفون، رفقاً بضمائركم ورفقاً بالتاريخ ولا تلقوا الكلام على عواهنه وتصدروا الأحكام جزافاً واعتباطاً، فتتعرضوا لحساب عسير، «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم».

نحن الآن في سنة ١٩٤٠. فبعد انقضاء فترة الحداد العائلي، عزمت على تحقيق الغرض الذي كنت قد جئت من أجله الى بغداد وهو الزواج. فقدمت طلباً لوزارة الخارجية بتأريخ ١٩٤٠/٧/٤، حسبما يفرضه قانون الخدمة الخارجية، للاستئذان بالزواج من ابنة خالي، وتبلغت بالموافقة الرسمية بتأريخ ١٩٤٠/٧/٨ مذيلة بكلمة (مبروك) بخط المدير العام المرحوم رشيد الخوجه. وتم العقد في ١٩٤٠/٧/٥ ولبست الحلقة.

لم أتبع تقاليد ومراسيم الزواج المرعية في بغداد يوم ذاك، فعروستي ليست غريبة عني فهي أبنة خالي. لذا فلا مشّاية ولا خطّابة ولا چفافي، ولا مهر في بيت العروس، ولا حگّ ملفوف بچفية بيضاء، ولا وگفه، ولا ملافيف ملفوفة ببقچه مطرزة بكلبدون، ولا صواني ولا شمعة عسل ارتفاعها متر ونص، ولا قفل ولا مفتاح، ولا مزيقة ولا جِنّة، ولا حَمّام ولا حَفّافة ولا سردوج ولا چماشور، ولا زفة أم سلاح، ولا جَر خنجر أو دوس رجل ليلة الدخلة، فلا عبرت الجسر ولا حضرت عزيمة عشاء، ولا أكلت بعابيص. فقد استعضت عن كل هذه التقاليد والمراسيم بأقامة حفلة ساهرة في بيتي بالصرافية، وصفها المرحوم مصطفىٰ علي بأنها أروع حفلة أقيمت في المُخَرِم منذ أيام البويهيين والسلجوقيين (الصرافية الحالية هي منطقة المُخرّم المعروفة في تأريخ بغداد). وكل ما في الأمر أننا تلقينا مصباح (الصبحية) مُرْطّباني من كاهي (علوان) يعلوه (شيف) كبير من الگيمر من جارتنا في الدنگچية (أم سلّومي) جاءت للتهنئة والتبريك ولتقول لنا أن بياض الگيمر هو فاتحة خير ومجلبة للحظ والبخت والسعادة.

تحدد يوم ١٥ تموز موعداً لاقامة الحفلة التي دعوت إليها زملائي بوزارة الخارجية وأصدقائي وأصدقاء أخي المرحوم عبدالستار وأصدقاء المرحوم أبو غازي (عبدالقادر المميز) والأقرباء من بغداد والفلوجة والرمادي والصگلاوية. فضاقت حديقة الدار على سعتها بالمدعوين. وقد أحيا الهزيع الأول من الليل چالغي بغداد، فصار الهواة والمحترفون من قراء المقام العراقي يتبارون في المقامات والپستات، وقد نذر المرحوم عبدالقادر أن يعزف على القانون ليلة عرسي، وهو من أبرع هواة العزف على القانون في بغداد، ولكنه أقلهم ممارسة لعزفه إلاّ في المناسبات الاستثنائية.

وما انتصف الليل حتى أقبلت عفيفة أسكندر، تتهادىٰ وتتبختر كالبطّة، وسط هتاف وتصفيق الحاضرين، يصحبها (تخت) أوتيل الجواهري برئاسة صالح الكويتي وبطانته، فغردت ورقصت وأبدعت في ظرائفها ونكاتها ونثرت من ابتساماتها الحلوة على المدعوين.

استمرت الحفلة حتى أخذت الديكة تؤذن تبعاً لأذان ديك العرش. والعصافير تزقزق وبلابل التين تغرد والفخاتي تشدو وتهدر. ولما طلعت الشمس وارتفعت ولم يعد بالامكان الجلوس في الحديقة، انتقل الباقون من المدعوين الى سراديب البيت، وظلوا حتى منتصف النهار يأكلون ويشربون ويغنون ويمرحون ويتبردون بهواء (البادگيرات) البارد، يتقدمهم ظرفاء بغداد

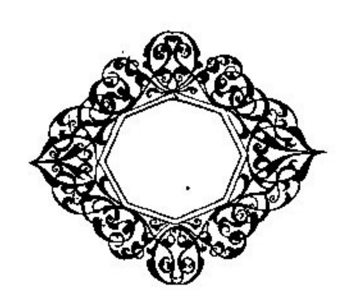
حسين فخري وإبراهيم المتولي.

وفي اليوم السابع من ليلة الزفاف الموافق ٢٢ تموز ١٩٤٠ تلقيت هدية الزواج من وزارة الخارجية. كانت الهدية التي أعدها موسىٰ الشابندر ووقعها نوري السعيد وبلّغني بها رشيد الخوجه، الارادة الملكية والأمر الوزاري بألغاء وظيفتي في وزارة الخارجية، ولم يجد زملائي أنسب من اليوم السابع من زفافي لتقديم تلك الهدية !!

* * * * *



داري في الصرافية ـ شارع الامام الأعظم التي أقيمت فيها حفلة العرس التي تلقيت بعدها بسبعة أيام هدية العرس من وزارة الخارجية، وهي الارادة الملكية بانفكاكي من وظيفتي بالوزارة.



وزارة الخارجيــــــة

شعبة الامور الذاتيـــــة

الرقم ٨٦٨

التاريخ تمــوز ١٩٤٠م

٢٢

السيد امين المميـــز

[illegible]

اشارة للامر الوزارى المرقم ذ/١٥٨/١٩٤٤ والمؤرخ في ١٦/٧/١٩٤٠.

نرسل لكم طيا صورة الارادة الملكية الصـــادرة بانفكاكم من الوظيفة .

رشيد الخوجة

وزير الخارجيـــة

صورة مع صورة الارادة الملكية الى .ـ

وزارة الماليـــــة

مديرية المحاسبات العامـة

مديرية الخزينة المركزيـــة

مميزية حسابات الــوزارة



أنا وعروستي في اليوم السابع من ليلة العرس ، عندما تلقيت هدية الزواج من وزارة الخارجية
وهي الارادة الملكية بفصلي من الخدمة في السلك الخارجي

كانت الفترة من تموز ١٩٤٠ حتى تموز ١٩٤١ (سنة عسل) بكل معنىٰ الكلمة بالنسبة لي ، فلن أصبّح بعد اليوم وعلى مكتبي بوزارة الخارجية أكداس من الأضابير المتعلقة بمشاكل الحدود بيننا وبين إيران. فبعد اليوم ، لا أسماء حمه رشيد وجعفر سلطان وأحمد البرزاني ومصطفىٰ البرزاني والشيخ محمود وفارس آغا الزيباري وخوله پيزا تزعجني ؛ ولا عشائر الهرگية والهورمانية والسنجابية والسورچيّة والپشدرية تقلقني كلما اقترب موعد اصطيافهم وحلّ موسم رعي مواشيهم في الأراضي الايرانية ؛ ولا مخافر كاني سخت والبجيلية ونيّ خضر وقلالان وغيرها التي شيدتها إيران داخل الحدود العراقية تثير حفيظتي كلما ورد ذكرها في المخابرات ؛ ولا نهر گنگير وكنجان جم والوند التي اغتصبت إيران مياهها باقامة سدود عليها وحرمان البساتين والمزارع العراقية منها ، فأفقرت أهاليها وشرّدتهم ، تمرّ أمامي فتوغر صدري ؛ ولا قضية شط العرب وانتهاكات إيران المستمرة للاتفاقيات والمعاهدات التي ثبتت حقوق الطرفين في الملاحة والصيانة والعوائد وأعمال الكري وشؤون الأدلاّء وغير ذلك تهزّ بدني. إذ كان لا يمرّ يوم واحد إلّا ووجهنا مذكرة أو احتجاجاً الى السفارة الايرانية في بغداد أو الى وزارة الخارجية الايرانية بواسطة السفارة العراقية في طهران حول التجاوزات والمخالفات والانتهاكات الايرانية للحدود والحقوق العراقية ولكن دون جدوىٰ. فلم تنفع آلاف المذكرات ومئات الاحتجاجات التي وجهناها لهم ولا نفعت شكوانا الى عصبة الأمم عام ١٩٣٤ لحمل إيران على الانصياع الى الحق وسلوك جادة الصواب ومراعاة القوانين الدولية والمعاهدات والاتفاقيات ومقتضيات حسن الجوار.

وكانت تلك السنة (سنة عسل) من عدة نواحي أخرىٰ. فقد فسحت لي المجال للاطلاع على خفايا بغداد ومجاهلها والتردد على مجالسها ومقاهيها ونواديها وقبولاتها ، وزيارة مواقعها الأثرية ومعالمها التراثية والتجوال في عگودها ومحلاّتها وأسواقها التي لم يتسن لي مشاهدتها أو الطواف فيها من قبل ، إما بحكم بقائي سجين الوظيفة ورهين جدران المدارس والدوائر في بغداد ، أو بسبب وجودي خارج العراق لفترات طويلة ، بداعي الدراسة أو بحكم الوظيفة أو لأسباب أخرىٰ. أما الآن فقد أصبحت حراً طليقاً (مُوكّلْ بفضاء الله أذرعه) فزالت من طريقي كل العقبات.

صرت (أزرْگ) للدنگچية كلما احتصرت أو اكتأبت أو ضاقت بي الدنيا على رحبها ، والدنگچية كانت المفرجة لهمّي واحتصاري والمبددة لكدري واكتآبي.

صرت أجوس عگود بغداد القديمة ، فأعبر الى صوب الكرخ وأتنقل بين الدهدوانة وسوگ الجديد والست نفيسة والجعيفر والشواكة والفحّامة.

صرت أتوغل في عگود الرصافة فأنتقل بين عگد النصارىٰ وعگود اليهود وباب الشيخ وصبابيغ الآل والقاطرخانة وسوگ الشورجة وسوگ الغزل وسوگ الفضل وسوگ حنّون وأسواق الميدان.

أخذت أتردد في الصباح على گهوة (أمين) التي كان يتردد عليها المرحوم الزهاوي قبل وفاته سنة ١٩٣٦ وگهوة بيت عارف آغا التي كان يرتادها الرصافي وخلانه قبل رحيله الى الفلوجة سنة ١٩٣٣.

صرت أتردد عصراً على المقهى البرازيلية التي فتحت حديثاً في شارع الرشيد وأصبحت ملتقى الشباب(*)، أو على محل (شريف وحداد) الواقع في رأس جسر مود القديم، أو على كازينو (بلقيس) في شارع أبي نؤاس للاغتراف من منهل أستاذي المرحوم محمود الملاح، أو للمداولة مع الوكيل العام عن أوقاف عادلة خاتون المرحوم المحامي عباس العزاوي، الذي كان يتردد عليها في بعض الأمسيات.

عكفت في الأمسيات على ارتياد المجالس والقبولات البغدادية، أذكر منها قبولات إسماعيل الجوربه‌چي في شارع الزهاوي ونوري فتاح في شارع العسكري وعبدالعزيز القصّاب في كرادة مريم وعبدالعزيز عريم في الصرافية وعثمان نوري على شاطيء دجلة العظمى في شريعة نجيب پاشا وعبدالله لطفي في شارع الحريري وتحسين علي وعبدالجبار الراوي ورؤوف البحراني ومحمود الشهواني في الوزيرية وسالم مامو في المنصور، وحسن رضا في الكسرة، والسفير السعودي عبدالله الخيّال في سفارته في الوزيرية، وعارف السويدي في خضر الياس، وحكمة سليمان في الصليخ، ومجلس عبدالقادر المميّز في الصرافيّة.

وفي ظهيرة أيام الجمع لم أنفك يوماً واحداً من (صالون الجمعة) المحبب الى نفسي بعد انتقاله من درابين محلة الحيدرخانة بالقرب من جامع حسين پاشا الى محلة الشواكة والمطل على دجلة والذي صار يعرف بين روّاده (بالمسناية). للتمتع بأحاديث المرحوم محود صبحي الدفتري عن تأريخنا وتراثنا وعن شخصيات بغداد أيام زمان.

صرت أقضي بعض الأمسيات في نادي الشباب في البتاويين ضيفاً على أكرم فهمي أو في نادي دجلة في الأعظمية ضيفاً على عبدالرحمن زيوَر، أو في نادي الگمرگ ضيفاً على كامل إبراهيم أو حسيب رشيد. صرت أتناول غداء (الكاري) في نادي العلوية كل يوم أحد ضيفاً على حكمة الجيبه‌چي، أو أتناول غداء (الويك إند) كل يوم جمعة في أوتيل (زيّا) في شارع الرشيد، أو أكلة قوزي في بستان الفحّامة بضيافة باهر فائق وأخيه ماهر فائق، وأقضي المساء في چرداغ جزمي سليمان ويحيى ثنيان في الصليخ، أو «أزرگ» الى أوتيل ميتروبول في شارع الرشيد لتغيير الموسيقى الشرقية والمقام العراقي والچالغي البغدادي بالموسيقى الغربية والرقص على أنغامها.

أما معظم الأمسيات فكنت أقضيها في نادي المحامين في العلوازية للتسلية على مائدة (پوكر رخيص) مع الرباعي سعيد حقي وفؤاد فوزي وعلاء الدين الريّس والداعي.

* * *

(*) وقد قال الملاّ عبّود الكرخي في الگهوة البرازيلية:

الگهوة البرازيلية	اجتكم يا گهوچيه
صرتي اليوم يا گهوه	في كل الملا زهوه
وبهذا القطر شهوه	الى الأمة العراقيه

تجولت في العراق من أقصاه الى أدناه من لواء الموصل شمالاً حتى لواء البصرة جنوباً، ومن لواء ديالىٰ شرقاً حتى لواء الدليم غرباً، وأحطت علماً بجغرافيته على الطبيعة وتعرفت على الكثيرين من أبنائه وشخصياته وجهاً لوجه.

زرت الموصل وطفت في شوارعها وحدائقها وتسوقت من أسواقها فاشتريت السّيسّي وحبّ العزيز والبُطُمْ والبلوط، وأقمت في أوتيل محطتها، ووقفت على أطلال نينوىٰ وتفقدت الحفريات في (تل قويونجق) بدلالة المشرف على التنقيب عبدالجبار عريم. مررت بحمّام العليل، وشممت روائح الكبريت ولمست مياهه المعدنية الساخنة.

قصدت ناحية تلكيف وأكلت كبة البرغل في بيت عبدالكريم سيسّي، وزرت بعشيقا والقوش وارادن وبامرني وسرسنك وصلاح الدين وسائر مصايف الموصل وأربيل. وزرت أديرتها وتعرّفت على بعض رهبانها وقساوستها.

مررت بالسليمانية وحللت بضيافة متصرفها جلال خالد، ووقفت على الاجراءات التي يتخذها في مطاردة الشقي (خوله بيزا).

تجولت في كركوك واطلعت على منشآت شركة النفط، وأمضيت ليلة في دار ضيافتها.

زرت مندلي وأطلعت على ما أحدثه الأيرانيون من دمار وخراب في بساتينها من جراء قطع المياه عنها.

سافرت الى البصرة ثغر الخليج الباسم، وتعرّفت على كرام عوائلها، وحللت ضيفاً على مدير وارداتها حسن عريم، وتصفحت الكتب والمخطوطات في مكتبة عبدالقادر باش أعيان العباسي، وقمت برحلة نهرية في (الخورة) وأكلت سمك الزبيدي والشانك والروبيان والصبور والقوزي المشوي بالتنور، وتسوّقت البهارات من سوگ الهنود، وتعلمت كيف يستخرجون ملح الطعام من مياه الخليج في الفاو التي لم تكن يومئذ ميناءاً لتصدير النفط، بل كانت منفىً للسياسيين المعارضين، وعبرت جسر (أبو فلوس) وأمضيت سحابة نهار في بساتين أبي الخصيب وأكلت (المعسّل الخصيباوي) في بيت بدر شاكر السيّاب وزرت الزبير وتفقدت زراعة الطماطة بين شجيرات الطرفة والأثل في موسم الشتاء إذ لم تكن البيوت الزجاجية معروفة يومذاك.

عبرت شط العرب، وزرت المحمرة واطلعت على شوارعها وسواقي المياه القذرة التي يستعملها السكان لسائر أغراضهم اليومية، وزرت عبادان ولم تسمح لي شركة النفط بالدخول الى مصافيها.

تنقلت كثيراً بين أقضية لواء الدليم ونواحيها وشاهدت أهم معالمها ومشاريعها بدءاً من نادي الزوارق (بوت كلاب) في الحبانية المخصص للقوات البريطانية المرابطة في قاعدتها الذي زرته بتوسط

عبدالحميد عريم ، ومروراً بالرمادي ، حيث حللت بضيافة رئيس بلديتها عبدالمجيد عريم .

زرت هيت ونواعيرها ومنابع قيرها ، وقراها ووصلت الى دربونة (عانة) التي قطعتها من أولها الى آخرها مشياً على الأقدام ، وتذوقت طيب ثمارها وارتويت من عذوبة فراتها وتفيأت بظلّ منارتها الأثرية وعبرت الى جزيرة راوة .

زرت شثاثة والرحالية وعين التمر وأكلت من الدبس الذي تشتهر به بساتينها .(*)

أكثرت من التردد على الفلوجة حيث وجدت فيها ضالتي ، هي شريكة حياتي ورفيقة عمري ومعينتي في شيخوختي .

جالست أكثر من ذي قبل شخصية فذّة في المجتمع العراقي ، هو معروف الرصافي ووقفت على كثير من آرائه وتناقضاته وعبقرياته وحماقاته واقتنيت مقطوعاته الهجائية التي لم تنشر لبذاءتها ، وقرأت عدة (دفاتر) من مخطوطة (الشخصية المحمدّية) أو (حل اللغز المقدّس) .

مررت بالفرات الأوسط وتذوقت گيمر الحلّة ولبن المسيّب وأكلت من سمچ سدة الهندية .

زرت بابل ووقفت على أطلالها وجنائنها المعلّقة وركبت أسدها .

زرت العتبات المقدّسة في كربلاء والنجف والكوفة وسامراء .

تبركت بمراقد الامام أبي حنيفة في الأعظمية والامام موسىٰ الكاظم في الكاظميّة ، والشيخ عبدالقادر الگيلاني في باب الشيخ وزرت قبر السيد مُحمّد في ناحية الدجيل وقبر الحمزة في ناحية الحمزة ، وأوفيت نذراً كان في عنقي لهما .

زرت قبور سلمان الفارسي وحذيفة اليماني وجابر الأنصاري في سلمان پاك ، ووقفت تحت طاق كسرىٰ واشتركت في المهرجانات الشعبية ، فالذي (ما يزوره السلمان عمره خصاره) .

سمعت الشيء الكثير عن قبر (أبو فيّاض) منذ الصغر عندما كنت أتردد بين الصگلاوية والفلوجة ، فعزمت زيارته . يقع القبر في موقع مدينة الأنبار العباسية بين الفلوجة والصگلاوية بالقرب من مقاطعة (الأزرگية) العائدة لآل عريم ، وتضمّه حجرة صغيرة تعلوها قبة ، كان لها أبواب وشبابيك اقتلعها العربان ، وتحيط الموقع سلسلة من التلال يعتقد البعض أنها تخفي تحتها آثاراً عباسية . وتعتقد بعض عشائر الدليم بأن القبر هو لأحد أولياء الله الصالحين ، فيزورونه في الأعياد وهم في أبهىٰ حللهم ، فيعقدون الدبچات والچوبيّات ويتبارون في الفروسية وينحرون الذبائح ويلطخون جدران القبر بدمائها ، ويلتمسون (المراد) من الراقد في القبر ، الذي يطلقون عليه (سبع الأزرگية) . أما أهالي الفلوجة والصگلاوية فيهزأون من معتقدات العشائر ويتهكمون من معجزات أبو فيّاض ويقولون أنه (مطلّع المگرونة من طيز الثور) . أما المعمرون منهم فيقولون بأن القبر هو قبر الخليفة أبو العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية ويظن الدكتور عادل البكري انه قبر الشاعر أبي الطيب المتنبي .

(*) دبس شثاثة هو القطرات التي تتساقط من عثوگ التمر الناضج على شكل بلورات شقراء اللون تشبه (التمر المشورث) حلاوته أقل من حلاوة الدبس المستحضر بالطريقة الاعتيادية . إن دبس شثاثة وگيمر الفلوجة أكلة فائقة اللذة ونادراً ما تتيسر في هذه الأيام .

فسواء كان هذا أو ذاك، ومهما كانت حالة القبر بعد أكثر من أربعين عاماً من زيارتي له فأنه يستحق العناية باعتباره من التراث الشعبي.

* * *

نازعتني رغبة شديدة لزيارة قبور أعلام الصوفية الذين عاشوا في العراق ودفنوا في بغداد. فزرت قبر الشيخ معروف الكرخي وقبر الشيخ جنيد البغدادي وعرجت على مقبرة شيخ الصوفية الغزالي الواقعة في باب الشيخ، غيراني لم أعثر على ما يثبت وجود قبر للغزالي في مقبرته تلك، وربما دفن في مسقط رأسه في (طوس). ومررت بمقبرة الشيخ عمر السهروردي وأعجبت بمنارتها الشبيهة بمنارة السيدة زبيدة (زمرّد خاتون)، وتحريت عن قبر سرى السقطي ومنصور الحلّاج فلم يدلني عليهما أحد من البغداديين، ولو أن الحلّاج سجن وحوكم وأعدم في بغداد. ولما سألت عن قبر رابعة العدوية اصطحبني أحد (المعاظمة) الى قبر يقع في محلة النصّة في الأعظمية مفيداً أنه قبر (رابعة) فتبين بأنه قبر (رابعة المعظماوية) وهي رابعة بنت جميل وليس قبر (رابعة البصراوية) وهي رابعة العدوية، المتصوفة الشهيرة التي عاشت في البصرة وماتت فيها.

زرت قبر أحد أقطاب الصوفية السيد أحمد الرفاعي في جامع السيد سلطان علي برفقة صديقي الشاعر خاشع الراوي، ويقال ان ذلك القبر هو قبر والد أحمد الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية التي ينتمي اليها المرحوم ابراهيم الراوي، والد أحمد ونجيب وجميل الراوي وجدّ عبدالجليل الراوي.

وآخر ما زرت من القبور قبر السيد أدريس في الكرادة الشرقية، وهو ليس في عداد الصوفيّة الذين ورد ذكرهم في تأريخ الفكر الاسلامي، إنما هو أحد الأتقياء الصالحين الذي تزوره النسوة للتبرك وطلب (المراد) فأصبح قبره مزاراً يعجّ بالزوار وطالبات (المراد)!(*)

بعد هذه الجولة في داخل العراق وجدت متسعاً من الوقت للسفر الى خارج العراق، فأمضيت شهراً واحداً في لبنان ويوماً واحداً في الشام.

وبعـــد:

فهل هناك (سنة عسل) أمتع وأسعد من السنة ١٩٤٠؟؟

* * * * *

(*) في الأمثال البغدادية «دخيلك يا سيد ادريس رجّعني شاب وعرّيس».

لقد تولدت في نفسي في السنة ١٩٤٠ أيضاً الرغبة الجامحة للاطلاع على شرائح المجتمع البغدادي وتسقط أخبار مختلف الطبقات والشخصيات، عاليها وسافلها والتي كانت أسماؤها وقصصها واخبارها وممارساتها تتردد على ألسنة الناس يوم ذاك، وأستقصي بصورة خاصة أخبار وقصص المجنونين والمجذوبين والمشخوطين والمردشورية، والگواويد والگوادات والمغنيات والراقصات والمومسات، والدلّلقلّية والحرامية والشلاتية ومن لف لفهم، وها أني أقدمهم الى القارئ الكريم للتعرف عليهم، كما عرفتهم يومذاك.

مجانين بغداد يومئذ كانوا على فئتين: الفئة الأولى هم من المجانين الخطرين الذين يحتجزون في المستشفى المخصص لهم، والذي كان يسمى سابقاً (دار الشفاء) (نقل الآن الى منطقة الشماعية وسمي باسمها، وكان بجوار خان گلبنگيان في باب المعظم (موقع البناية الجديدة لوزارة الصحة). والبعض الآخر يحتجزون في الغرف والسراديب أو يكبلون بالسلاسل في بيوتهم. وعندما كنا نمر في الشارع المؤدي الى خستخانة المجيدية كنا نسمع لغطهم وصياحهم وشتائمهم من الشبابيك العالية القريبة من السقف.

ان جنون مجانين بغداد، فنون، أقلها تسعون، ومن القصص التي تروى عن هؤلاء المجانين الخطرين، القصة التالية:

يروى أن مدير مستشفى المجانين قد زار هذا المستشفى متفقداً أحوال المرضى، وعند طوافه في احد القواويش (الردهات) لاحظ أحدهم جالساً في احدى زوايا القاووش واضعاً يده على خده، يفكر ويتأمل، فاقترب منه المدير وصار يتحدث اليه، فسأله عن أحواله وعن أسباب وجوده في المستشفى، فأفاد المريض بكلام معقول لا غبار عليه، انه قد جلب الى هنا عنوة، وأنه صاحب بيت وعائلة وأولاد وانه عاقل، غير أنهم اتهموه بالجنون، واسترحم من المدير أن ينظر في قضيته ويعيده الى اهله، فتأثر المدير من الظلم الذي لحق بهذا المسكين، ووعد بأنه سينظر في قضيته حالاً. وما كاد المدير يدير ظهره متوجهاً نحو باب القاووش، إلا والمريض العاقل (يشرّف ايده ويصلخ المدير براشدي على علباته) ويقول له:

- الله يطول عمرك بك، ليكون تنسى قضيتي. حينذاك اقتنع المدير بأن ذلك المريض هو في المكان اللائق به.

هـذا مثـل من المجانين الخطـرين المحجوزين في المستشفى. ولكن هناك عـدد من المجانين في بغـداد ممن هـم ليسـوا بدرجة من الخطورة بحيث يسـتوجب الأمر حجزهم في المستشفى أو في البيوت.

ولأضرب مثلاً عن فنون مجانين بغداد السائبين:

يروى أن أحد هؤلاء المجانين قد اختطف طفلاً من أهله وذهب به الى جامع سوگ الغزل (جامع الخلفاء) وصعد الى حوض المنارة وأخذ يهدد أهل الطفل بأنه سيرميه من حوض المنارة إذا لم يلبوا مطاليبه. فما هي مطاليبه ياترى؟

يقول هذا المجنون ان أخته قد لطش في وجهها خشاف الليل، وانه لا يمكن اقتلاع الخشاف من وجهها إلّا إذا نظرت في مراية السلطان، فعليهم أن يجلبوا له مراية السلطان ويضعوها أمام وجه أخته

لتنظر فيها حتى ينْزُفع الخشاف من وجهها.

تجمعت الناس حول جامع سوگ الغزل بين باكٍ ومولول وضاحك، وإذا بمجنون آخر من مجانين بغداد السائبين يمرّ من هناك ويشاهد (اللمّة) فيسأل المجتمعين عن حقيقة الامر، فشرحوه له. فقال لهم: أشتنطوني وأنزللكم الطفل صاغ سليم، فوعدوه بأنهم سيعطونه كل ما يريد.

ذهب المجنون الثاني الى دكان نجار مجاور للجامع واستعار منشاراً كبيراً (تَيس) وجاء به الى الموقع، وأخذ يخاطب المجنون المختطِف وهو على المنارة قائلاً له:

ـ إذا ما تنزل وتجيب الطفل صاغ سليم فآني ساگص المنارة من الچعَب بهذا المنشار فتوگع أنت والمنارة وتموت. فما كان من المجنون الخاطف إلاّ أن يصيح ويستغيث:

ـ يا معوّد، لخاطر الله، لا تسوّيها، والله آني هَسَّه راحْ انزلْ واجيبلكم الطفل صاغ سليم.

هذان مثلان عن فنون مجانين بغداد المحجوزين والسائبين، غير أن الذين كانوا يترددون على الدنگچية وشارع الجسر (عگد الصخر) هم إما من المجانين السائبين غير الخطرين أو من المشخوطين (اللاعب عقلهم شويّه). ومن حسن الحظ أنني لم أسمع ولم أشاهد أن احداً منهم قد قام بعمل مثل الأعمال التي ضربنا مثلين عنهما آنفاً. وكل ما كانوا يفعلونه هو أنهم كانوا يطاردوننا ويهددوننا بالحجار إذا ما أسأنا إليهم أو استفززناهم.

ان المجنونين والمجذوبين والمشخوطين الذين سأتكلم عنهم هم ليسوا كل من وجد في بغداد من هذه الفئة من البشر يومئذ، إنما هم الذين عرفتهم وشاهدتهم وركضت وراءهم أو ركضوا ورائي، ويأتي في مقدمتهم الملّا عبد الفوال.



ملّا عبد الفوّال

يتجوّل في أزقة بغداد وينادي: فوّال.. فوّال ويلاحقه الصبيان ويصيحون:

باع... باع... ماع... ماع

أن للملا عبد مقراً ثابتاً في النهار هو أحدى دجّات جامع السراي الخمس ومبيتاً في جامع الحيدرخانة، ولكن في أغلب الأوقات يتنقل في الدرابين ويصيح : فوّال . . فوّال. فيتجمع حوله الاطفال والصبيان ويصيحون : ماع . . باع . . باع، كما يصيح الصخل، ومردّ ذلك هو أن للملا عبد لحية رفيعة وطويلة تشبه لحية الصخل.

إن للملا عبد سحنة تشبه سحنات المغول أو أقوام ما وراء النهر، قصير القامة يلبس عمامة (مرعبلة) ودشداشة بيضاء ويتحزم بخرق بالية وهو حافي القدمين وفي عبـة عدد كبير من الحجج والأعلامات والوقفيات وأسطوانة من التنك فيها نَسَبَه وشجرة العائلة وصخرة سوداء أسطوانية الشكل مدببة من رأسيها، يستعملها لتخويف الاطفال الذين يتجاوزون عليه، وللدفاع عن نفسه. أنه يدّعي بأنه أحق بالثروة من العائلة التي اغتصبتها منه وأنكرت نسبه. كما أنه يحمل بيده كتاب الخيرة وفتح الفال فيطوف الدرابين ويصيح : فوّال. . فوّال. . فإذا تجمع الأطفال حوله ولاحظ أن أحدهم ينوي به شراً أو يسحب لحيته، يقول له :

ـ ها . . ها . . لا تسوّي قنزة ونزة.

الحاج فرج ـ وهو سوداني أو تكروني أو صومالي، طويل القامة، شعره مفلفل وفي رقبته گلايد من الخرز والوَدِع وتمر الأشرسي وعلى رسغ قدميه سوارين من الخرز، وفي أذنيه (تراچي)، ويغطي عورته بگونية، وبقية جسمه مصلّخ في الصيف، ولم أره كيف يتدفأ في الشتاء. يقول لنا الكبار إن الحاج فرج هو من الأولياء الصالحين فلا تتحرشوا به لأنه يشوّر بيكم، وهو وديع وقليل الكلام، لا يغادر دجة جامع السراي إلا نادراً.

أبـو أمـان ـ وهـو رجـل أعمـىٰ حالك السـمرة، لا يغـادر دجـة جـامـع السراي، وكـل ما يفعله ليـلاً ونهاراً هو أنـه يهـزّ بـرأسـه نحـو اليمين ونحـو الشـمـال، ويـردد كلمتي أمـان. . . زمـان. . . أمـان. . . زمـان. ويظهـر أنّ نقمتـه وحقـده على ذلك الزمان لا نهايـة لها، ولا بد ان الزمان قد غـدر به وقلب له ظهر المجنّ.

حنتوش ـ شخص قبيح الوجه (وجهه مجنّر) وعينه جَلگه وله ثِرِب متدليّ، يرتدي دشداشة بدون حزام ويمشي حافي القدمين فاذا شاهده الاطفال والصبيان ماراً بشارع الجسر لحقوا به وهم يصيحون (حنتوش كُسّه بيبي) وهو يطاردهم حاملاً حجارة وكأنه يهمّ بالقائها عليهم، ولكنه لم يفعل ذلك يوماً من الايام، مما صار يشجع الأطفال والصبيان على التحرش به.

حَسْكي ـ سمعت ممن كانوا في المدارس التركية ان حسكي كان طالباً معهم في (السلطاني) ويقولون انه اصيب بلوثة عقلية عندما فزته (بزّونة) سوداء. فهو لا يفعل شيئاً سوى الطواف في الدرابين يحمل تحت أبطه جريدة اليوم، ويبتسم وكشرته تملأ نصف وجهه، ويتسقط أخبار الفواتح والتهاليل والمواليد.

چقّة ـ وهو هبل وبهلول يعيش على فتات بيت خيوكه، أرسلوه ذات يوم الى عـلاوي الحلة ليشتري لهم سمچ من علوة السمچ، فغاب عِدة أيام فظنوا أنه قد أصيب بالرغّيصة وغرق، وبعد عدة أيام عاد ومعه السمچ، فسألوه :

ـ هاي وين چنت چقة ؟

ـ أجاب : مو أنتو دزيتوني أشتريلكم سمچ من علاوي الحلة، ملگيت سمچ بالحلة فاشتريته

من سدة الهندية وجبته وجيت.

عيشه وقع ـ وهي مجذوبة، تطوف الدرابين وعبايتها براسها ، فيطاردها الأولاد ويرددون: عيشة وقع . . ولج ليوگع . وبعض الخبثاء من الصبيان ينادونها : أم الولد قاقه، تحبل وتتشاقه، وهي تطاردهم وتشتمهم وتضربهم بالحجارة، ولكنها اذا خرجت يوماً ولم تجد من يطاردها، تتكلم مع نفسها، وتتلفت يمنة ويسرة وتقول: وينهم ها المگاميع، مگصوفين الرگبة، أشو ماكو ولا واحد منهم اليوم . . فذهبت تصرفاتها مثلا على من يتصرف على شاكلتها.



رؤوف أبو الصحن
ويطوف في درابين بغداد مهرولاً ، والصبيان يلاحقونه ويصيحون :
بالصحن . . . بالصحن . . . اصعد . . . انزل . . .

رؤوف أبو الصحن ـ وهذا مجذوب مسيحي، فعندما يطوف في عگود النصارىٰ لايتحرش به أحد ، ولكن عندما يصل الدنگچيّة وما جاورها نراه (يهِفّ) في سيره وكأنه ذاهب لقضاء امر مستعجل، فيطارده الأطفال والصبيان، ويصيحون «بالصحن . . أصعد وانزل. . » ولكنه لا يأبه بهم، فيستمر على سيره السريع، ولا يؤذي احداً.

حاجي گصيِّر ـ انه ليس مجذوباً، ولكنه قصير القامة جداً، يلبس يشماغ وعگال وصاية ويحمل عصا أطول منه، وبسبب قصر قامته وطول عصاته، فان الأطفال يلحقونه عندما يعبر من صوب الكرخ الى الرصافة متوجهاً نحو جامع عائشة خاتون في باب المعظم ، ويصيحون :

حجي گصيِّر بالليل يسيّر   فوگ المناره يشرب جگاره

أحمد خريگه ـ كان هذا الشخص (سِكِن) سيارة ويسكن في بيت يعرف في محلة الدنگچية (بيت الكرادي) ويعرف عنه أنه كسلان ومرتخي اليدين وحلگه فكاكه، ولا يستطيع ان يفعل اي شيْ بدقة، وهو على العموم نصف متخلف، فصار يضرب فيه المثل في تعنيف الاطفال والصبيان الذين (ما يطلع من أيديهم شيْ) فيقال عنهم: أنت صاير مثل أحمد خريگه ما يطلع من ايدك شيْ.

دويچ ـ قمرچي مزمن يشاهد على دچات جامع السراي وهو عاري الجسم ويستر عورته (پشطمال) أو خرقة ويرتجف (من چذب) استجداءً للصدقة ليلعب القمار بما يحصل عليه من المحسنين.

حاوي ـ وهو ليس على الملاك الدائم للدنگچية، انما هو على الملاك العام لمدينـة بغـداد. فما إن يسمع حاوي بوجود فاتحة او تهليلة أو مولود، أو يوم ختم أو يوم سبعة، أو يوم أربعين، او يوم مرور السنة على وفاة الميت، في أي محلة من محلّات بغداد، إلاّ وهو في مقدمة المردشورية، ولذلك فقد حَصّل على لقب شيخ المردشورية، وصار اسمه يطلق على اولئك الذين يتهافتون على البيوت بدعوة او بدون دعوة، فيأخذون حريتهم ويطلقون العنان لشهيتهم ويظهرون نهمهم في الأكل على شاكلة حاوي، فبعد أن يتخم حاوي (كرشه) بما لّذ له وطاب، يملأ (عبّه) بما يمكن ان يحمل في العب، كالبورگ وكبة الحلب والدولمة والبقلاوة وخانم گوبگي والفواكه.. الخ ثم يملأ (عليجتـه) بالتمن والمرگ والهبيط والدجاج... الخ. وإذا سمع بوجود مناسبة أخرىٰ في ذلك اليوم فانه يهرع الى بيته ليفرغ ما في عبّه وعليجته، ثم يعود الى حيث وجدت المناسبة الاخرىٰ.

عباس حركاتك ـ وهذا ليس على الملاك الدائم للدنگچية أيضاً، فتراه يدور في الدرابين وهو (محزّم) على الدشداشة فيلاحقه الصبيان وينادون:

يا عباس حـركاتـك والبابو (باس؟) خواتك

وهو يرقص على النغمة وعلى تصفيق الصبية ويهزّ ردفيه.

عباس گزه ـ وهو كسميّه عباس حركاتك ليس على ملاك الدنگچية، فإذا مر منها أو من عگد الصخر يلحقه الأولاد ويرددون:

عباس گِـــزّه بيك أهِـزّه

فيلاحقهم عباس، ولكنه لا ينتقم من الذين يؤذونه بل يهاجم الذين لا دخـل لهم في أذيته فيلحقهم ويضربهم بالحجارة. ولذلك أصبح عباس گزّه مثلاً يضرب على من يؤذي غير الذين يؤذونه.

عباس بيزه ـ وهو متشرد ومدمن، لا هم له سوى استجداء (البيزه) وهي ربع الآنة التي هي جزء من الروبية الهندية، ويجمع ما يجود به المحسنون ليشتري (ربعيّة) عرگ (يقندل بيها). ولم أشاهده في محلتنا غير مرة واحدة وقد صبغ وجهه بالألوان الملونة كالمهرجين الذين يـظهرون بـالسركس او (الهبش) الذي يظهر على المسرح البغدادي.

عبّاس المستعجل: قد يكون عباس هذا شخصيّة حقيقية، غير أنه أصبح شخصية أسطورية، تضرب مثلاً لمن يستعجل الامور، ويلحّ على قضاء حاجته وبلوغ مرامه سريعاً، كأن يقال: أنت صاير مثل عبّاس المستعجل، تريد كل شي بساع.

حسن لوبيا ـ من الظلم ان نضع هذا الرجل في عداد المجذوبين، ولكنه في الحقيقة (شويّة صقيع). أنه يعمل مراسل في دائرة الشرطة ويسكن في بيت حِجّية فطومة اخت صالح افندي الملي، ويرافق الاولاد في سفراتهم او عندما يذهبون الى الگهاوي، ويجمع لهم الطوابع. أما سبب تسميته

(لوبيا) فلأنه طويل القامة ونحيف الجسم، منحني الظهر ويشبه (كزن اللوبيا) فسمي حسن لوبيا.

المجذوب المجهول ـ فهو حقيقة مجهول، لأني لا أعرف اسمه، وكل ما أعرفه عنه أنه يمر بالدرابين والأسواق ويتكلم مع نفسه و(يشومر بأيده) كأنه يخاطب انساناً آخر، يهرول في سيره وهو حاسر الرأس حافي القدمين لا يرتدي سوى الدشداشة.

الملا عليوي ـ المشهور بـ (عل العودة) ويقال انه كان (ملا) في أحد الكتاتيب اما في محلة البارودية أو في الصابونچية، واقترف عملا جنونياً فهام على وجهه في الدرابين وفي الاسواق، طويل القامة على رأسه عمامة رفيعة ذات ذؤابة طويلة متدلية على أحد جانبي الراس، وكنا نركض وراءه عند مروره بالدنگچية ونردد: عل العودة. . عل العودة، وهو يطاردنا بالخيزرانه، ولا أعلم أصل قصه (العودة)(*).

خصيان آغا ـ لا أعلم إذا كان هذا الشخص أسطورة أو شخصية حقيقية، ولكني اعلم ان هناك عائلة بهذا الاسم كانت تسكن قريباً من (لاله هراتي) خلف بناية المتصرفية القديمة. والمهم عن هذا الرجل هي طريقته المبتكرة في الاقتصاد والتجارة والبيع والشراء. فهو يشتري سلال البرتقال من العلاوي، ثم يبيع البرتقال بالمفرد باقل من سعر الكلفة، فيتهافت عليه الناس لشراء البرتقال لرخص ثمنه بالنسبة للسوق. فيقبض الثمن وهو يضحك لكثرة ما يبيع. ولكن عندما يصرّف كل البرتقال ويحسب الدخل، يجد انه خسران، فيبكي على حظه، فصار يضرب فيه المثل، فيقال: مثل خصيان آغا «بيع واضحك وعِدّ الدَخَلْ وأبچي».

شفتالو ـ سبق أن تكلمنا عنه ولا داعي للعودة إليه ثانية.

خليلو ـ ظهر خليلو على مسرح الاحداث البغدادية في الثلاثينات قادماً من الشرجيّة، فهو من المشوهين والمعوقين منذ الولادة: قصير القامة، ملتوت الجسم، عيناه غائرتان، وشفتاه غليظتان وليس على رأسه شعرة واحدة، ذراعاه قصيرتان، وأصابع يديه ورجليه قصيرة جداً وغليظة. فتراه (يتخمّ) في الميدان مرتدياً دشداشة، ويتنقل بين الموائد في اوتيل الجواهري واوتيل الهلال ومقاهي الميدان، ويلذّ للبعض ان يدعوه لمجالستهم واحتساء كأس من العرگ او فنجان گهوة أو استكان چاي معهم، ويسمعهم بعض النكات والاحاديث التي لا يخلو بعضها من متعة يتلذذون بها، فتتعالىٰ ضحكاتهم.

علي قاو ـ كان في بغداد اثنان يحملان اسم (علي قاو) أحدهما كان جندياً في الجيش العثماني، وبعد خدمة ثلاثين سنة رقي الى رتبة جاووش، وبعد مرور اثنين واربعين سنة رقي الى رتبة ملازم ثان (آلايلي)، ثم تولدت في نفسه الرغبة لنظم الشعر السخيف (نامَرْبوط) فصار يتردد على مقاهي الميدان والحيدرخانة وبيده ورقة وقلم وينظم الشعر ويلقيه على مسامع جلسائه ويطلب منهم أن يظهروا اعجابهم وتقديرهم لشعره، فإذا لم يلمس ذلك الأعجاب انتقل من گهوة الى أخرى، وهو قصير القامة، مرعبل الهندام ويلبس فينة بدون حصيرة ولا يحلق وجهه إلّا نادراً. يناديه جلساؤه (علي بك) او (بَك البگوات)، ويحتل مركز الصدارة بين المشخوطين، وقد قال بحقه الملا عبود الكرخي:

---

* الملا عليوي المذكور أعلاه هو ليس لاله عليوي الأفغاني الذي اغتيل في بيته في محلة قمرالدين.

على اهل الشعر داو	صاح حضرة علي قاو
علي بك أسمه الصحيح	ولقبوه بعلي قاو
ثابت وعنده رزانة	ويدبي دبي الخنفسانة
ويلعب ايضاً زورخانة	دائمي وياخذ شناو

وقال فيه ايضاً:

للزهاوي ألف قاط	فاق حضرة علي ضراط

أما علي قاو الآخر فهو شاب يتعاطىٰ الوساطة في الأمور الحقيرة كما سيرد الكلام عنه لاحقاً.

شيخان ابو نورية - هذا الرجل يجمع بين السفاهة والمجذوبية، فهو عربنچي، ذو شوارب طويلة، ويختص بأطول (زيك) يضرب في بغداد مع أنه من مواليد دهوك، برنامجه اليومي يبدأ بالتقاط المومس (زهرة العجمية) من المنزول (الكلّچية) عصر كل يوم ويأخذها بالعربانة في مرحلتين: المرحلة الأولىٰ تبدأ من الميدان وتنتهي في عگد الصخر وراس الجسر، والثانية تبدأ من هناك حتى الباب الشرقي عبر شارع الرشيد. تجلس زهرة وسط مقعد العربة وتضع (رجل على رجل) وتمسك عباءتها بيدها اليسرى من تحت الحنك وبشمرة خاصة بها. أما شيخان فيسوق واقفاً ماسكاً (التربية) بيد والقمچي باليد الأخرىٰ، وأول ما يسوگ الخيل يبدأ باطلاق الزيگ الاول الذي يستغرق عدة دقائق، ثم بالثاني والثالث والرابع و. . . حتى يصل الباب الشرقي، ثم يعود أدراجه بنفس المهرجان. وفي بعض الاحيان يمسك شواربه بيده (ويعفط) لها، والناس يسخرون منه ويستهزئون بالراكبة، وهي تتمضحك. ولشيخان ابو نورية قصة ظريفة وقعت ابان الحرب العالمية الثانية، كثيراً ما يتناقلها البغداديون. فقد تظاهر ذات يوم بأن خيل العربة قد حَرَنَتْ أمام سينما الوطني في شارع الرشيد حيث يزدحم الناس قبل الدخول الى السينما، وذلك في مساء يوم من ايام هجوم (روميل) على مصر وتوقفه في العَلَمينْ. فوقف شيخان في العربة ماسكاً القمچي بيد والتربية باليد الأخرىٰ، وأخذ يصيح بأعلىٰ صوته وهو يضرب الخيل بالقمچي ويهز التربية، متظاهراً بالأنفعال والعصبيّة ويقول: «ولك دي، اتحرّك شويةّ، خوما تبسمرت بالعلمين؟» فيتجمعّ المارة حوله يهتفون ويتضاحكون، معجبين بهذه النكتة اللاذعة التي نادراً ما يجرؤ غيره على التفوه بمثلها في تلك الأيام.

ليس شارع الرشيد وعگد الصخر حكراً على شيخان أبو نورية وزهرة العجمية. إذ تخترق هذا الشارع ذهاباً وإياباً عصر كل يوم سيارتان فخمتان من نوع بيوك آخر موديل ذات سبع مقاعد، سوداوات اللون، تجلس في احداها (بهيّة العُرْبيّة) احدىٰ أشهر الگوادات في الثلاثينات، ومن عادتها انها تتوسط المقعد الخلفي للسيارة، كما يفعل بعض الوزراء والوجهاء، وتضع عباءتها السوداء على كتفها وليس على رأسها المغطىٰ بالچرغد والفوطة السوداء وتوزع ابتساماتها على المارين في شارع الرشيد ودربونة الصابونچيّة حيث تقع دارها.

أما السيارة الثانية فهي سيارة ريجينة مراد، كبرىٰ گوادات بغداد وصاحبة الحول والطول في بعض الأوساط،

والتي كثيراً ما تشاهد واقفة أمام بعض الوزارات والدوائر الرسمية لتمشية الصفقات أوتوقيع الكمبيالات مع وزير أو مدير عام. وكانت ريجينة وسيارتها الفخمة محط انظار البغداديين وشغلهم الشاغل لعدة سنوات في اوائل الثلاثينات، وقد قال عنها الملا عبود الكرخي:

شفتي يا روحي الحزينة — الضخمة سيارة ريجينه
شفتي سيارة الضخمة — بشارع الميدان ضخمه
هل سألتِ لمن ترجع — وصادرة من اي مصنع
فلوسها من أي منبع — نابعه ومن اي خزينه

إن ريجينه مراد وبهية العربية تعتبران گوادات من الطبقة الارستقراطية، اما الطبقة الثانية، اي الگوادات الشعبيات، فتشمل امثال ريمه ام عظام وريمه حكاك وتفاحة بنت مريم خان والحجية رَبيْعَه، قهرمانة الكَلجيّة.

إن ميدان عمل ريمة ام عظام هو محلة الذهب في صوب الكرخ بالقرب من الشيخ معروف، وكانت تشاهد كثيراً في سوق الصياغ وهي ترتدي عباية صوف وكيش وفوطه ونعل اسود، وصدرها وذراعاها ممتلئان بالگلادات والسوارات، والمحابس مكدسة على اصابعها،ورجلاها ويداها مخضبة بالحنة.

أما ريمة حكاك فلا تشاهد كثيراً في الشوارع وتقيم بدارها الواقعة في عگد الجام مقابل سوگ الصفافير.

* * *

وهناك شخصية اخرى اود الاشارة اليها ولكن من ناحية مختلفة. تلك هي (زكيّة العلويّة). هذه الأمرأة كانت تدير داراً للدعارة في محلة گوگ نزر، وأني اذ أتطرق إليها دون غيرها من زميلاتها في تلك المحلة، فانما لأسجل وصمة خزي وعار على بغداد والبغداديين والعراق والعراقيين. ففي دار تعود لهذ الامرأة تقع في دربونة النجفي بالقرب من محلة گوگ نزر سكن معروف الرصافي في أوائل الثلاثينات وقبل أن تستضيفه الفلوجة ويكرمه أبناؤها الكرام من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤١. ولما غادر الرصافي تلك الدار وهاجر الى الفلوجة قال فيه الملا عبود الكرخي:

حضرة الشاعر الأكبر — طار بالفلوجة وكُر
طار معروف الرصافي — الألمعي رب القوافي

ولعل سكنىٰ الرصافي في تلك الدار كان احتجاجاً صارخاً منه على القوم الذين لقي منهم كل اجحاف وجفاء وعقوق. فان العراق بطوله وبعرضه، بدجلته وفراته، بحقول نفطه وباسقات

نخيله، بسهوله ووديانه وجباله، قد فشل وقصرّ عن القيام بأود ذلك الطود الشامخ الذي بنى للعراق مجداً ادبياً عالياً وكوّن له صيتاً ذائعاً ومركزاً فريداً في عالم الأدب والشعر، وزرع في نفوس أجياله الوطنية والعزة القومية، وطبع في عقولهم وأفكارهم أعلى ما في الذهن الحديث من مثل عليا، ما لم يشهد العراق ضريباً له لا من قبل ولا من بعد.

زرت الرصافي في تلك الدار صحبة عبدالقادر المميز سنة ١٩٣٢ على ما اتذكر، فتركت تلك الزيارة في نفسي من الالم والاثر السيئ ما أربأ من استذكاره، فان موقع الدار وحالته والمترددين والمترددات عليه ما تقشعر منه الأبدان. وقد وجدت في رحاب الرصافي من الادباء والشعراء والظرفاء والصحفيين والبوهيميين من اتردد من تعداد اسمائهم الآن تحاشياً من المس بكراماتهم وذكرياتهم، وقد اصبحوا في ذمة التاريخ.

ولّما غادرنا الدار رددت لصاحبي قول أبي نؤاس:

«وحياة راسك لا أعود لمثلها وحياة راسك»

* * *

اما فئة الگواويد الذين كانت أسماؤهم تتردد في العشرينات والثلاثينات، فقد برزت الاسماء التالية:

سيد رجب: وهو العمود الفقري لمحلة الذهب في جانب الكرخ التي تشرف عليها ريمة أم عظام وقد قال بحقه الملا عبود الكرخي:

أعبر التختـه أخي وشـوف العجب	لجانب الكرخ أبمحلة أم الـذهب
وانـدعي لمأمور مـركـزهـا يـديم	عمره ذو الهمة الأبي (سيـد رجب)

فايق خماس: وهو زوج الحجية رَبيْعَة، وميدان عمل الاثنين هو كلچية الميدان وكثيراً ما يشاهدان في شارع الرشيد في سيارة فخمة.

داود اللمپچي: وقد لمع اسمه في العشرينات باعتباره من الگواويد الارستقراطيين، ولما توفي رثاه الملا عبود الكرخي بقصيدة يقول فيها:

مـات اللـمپـچي داود وعـلومـه	گـوموا اليـوم دا نعـزي فـطومـه

وفطومه هذه هي فطومة بنت الصمنچي،(*) أحدى فاتنات بغداد في العشرينات. وقد عاشرها في الثلاثينات معاشرة الأزواج حسين فخري (كاتب عدل بغداد الأسبق) وسكنا وتوفيا بالدار الواقعة في العلوازية، شارع نادي المحامين (مقابل جامع العلوازية) حيث كان يستقبل اصدقاءه كل اسبوع

(*) صمنچي: كلمة تركية معناها بائع التبن.

ليسمعهم نكاته وظرائفه، كما لو كان في عنفوان شبابه.

محمد النجفي : وهذا من ركائز ريمه أم عظام، وهو طويل القامة، ملتوت الجسم يرتدي العگال واليشماغ ويلبس أفخر انواع عبايات المانيرا والنايين، ويشاهد يتبختر في شوارع بغداد وكأنه شيخ من شيوخ الشرجية، وله سميّ يمتهن نفس المهنة ولكنه من الركائز الكبرى لمحلة گوگ نزر والصابونچيّة والميدان.

ورور : يتيم من اهل الصگلاوية جاء الى بغداد وهو صبي نخرت التراخوما عينيه وصار يعمل خادماً في البيوت، ثم جنح وضلّ الطريق حتى وصل الى المبغى العام، وبلغ اعلى المراتب فيه، ثم أصبح مختاراً. وكان يشاهد في محلات الميدان والطوب وباب المعظم وما جاورها، مرتدياً العقال الاسود والغطرة البيضاء وافخر الملابس وكأنه شيخ من شيوخ الدليم، ويصدق بحقه قول الملا عبود الكرخي :

بدله الصبح بدله العصر والمغرب زبون الزرى
والناس من بِني وبِني يچدّون للحبنتري

يروىٰ عن ورور انه عندما كان يعمل خادماً لدى احدى العائلات جاء المبلّغ ليبلغ صاحب البيت بأوراق رسمية، فنادى الرجل (ورور) ليجلب له القلم لتوقيع التباليغ، وما ان سمع المبلغ كلمة ورور) حتى اطلق ساقيه للريح وفر هارباً. ولما دعاه صاحب البيت للعودة قال المبلغ وهو مذعور : «ما طول المسألة بيها ورور وآني سلاح سز، شلون أرجع».

علي قاو : وهذا هو غير علي قاو الضابط المتقاعد والشاعر المتحذلق الذي مر الكلام عنه آنفاً، فهو شاب دون الثلاثين من العمر، يرتدي السدارة واللباس الفرنجي ويطوف على المكاتب المسائية ترويج بضاعته!!

گرجي : وهو اشهر گواد من گواويد اليهود في بغداد في الثلاثينات والاربعينات، وكان يزاول السمسرة بدار تقع في محلة (التورات) اليهودية. وصادف ان توقف عن عمله مؤقتاً اسوة بالآخرين من زملائه وزميلاته في المهنة، عندما قررت وزارة الداخلية سنة ١٩٣٥ على عهد المرحوم رشيد عالي الكيلاني، وهو من احرص رجال السياسة على الاخلاق العامة، تشكيل ما كان يعرف يومئذ بـ (شرطة الاخلاق) التي من واجباتها مراقبة دور الدعارة السرية للقضاء على البغاء بكل اشكاله والمحافظة على الاخلاق العامة من التفسخ والانحلال. ولكن الهدف من ذلك لم يتحقق، وسرعان ما ألغيت شرطة الاخلاق. وكان السبب في الغائها سوء تصرف افراد مفارز شرطة الاخلاق، الذين صاروا يبتزون اصحاب دور الدعارة والزبائن الذين يترددون عليها معاً. وقد فشلت السلطات المختصة من السيطرة على تلك المفارز، بسبب الظروف الشائكة المحيطة بكيفية تنفيذ واجباتها تحت جنح الظلام وفي الازقة الملتوية والمتباعدة، فصار اصحاب دور الدعارة يدفعون الى شرطة الاخلاق اكثر مما يتقاضونه من الزبائن، فارتفعت الشكاوي من الطرفين، الامر الذي ادى الى الغائها فعاد گرجي وزملاؤه الى مزاولة مهنتهم بحرية تامة.

* * *

ان الكلام عن شرطة الأخلاق ودور الدعارة السرية يجرّني الى الكلام عن البغاء في بغداد بصورة عامة. كان البغاء العلني مسموحاً به في العهد العثماني، فان الدولة العثمانية قد اتبعت كثيراً من التقاليد والتشريعات والمؤسسات العامة التي كانت متبعة في فرنسا يومئذ، ومن جملتها البغاء العلني. فمن وجد في باريس قبل الحرب العالمية الثانية لابدّ وان لفت نظره الى ما كان يعرف هناك بـ MAISONS de TOLERANCE(أي (دور التسامح) وأبرزها محل (سفينكس) ذو الشهرة العالمية. وهذه المحلات التي يزخر بها حي (مونمارتر) في باريس هي في الواقع بيوت للبغاء والدعارة معترف بها رسمياً، تمارس اعمالها نهاراً وليلاً، جهاراً وعلناً، ومداخلها منورة بالانوار الملونة الساطعة، وهي خاضعة للرقابة الصحية والتسجيل الرسمي. ولما قامت الحرب العالمية الثانية وانهارت فرنسا بأسرع من لمح البصر سنة ١٩٤٠، عزي انهيارها الى التفسخ والانحلال الاخلاقي في المجتمع الفرنسي، واولى القوانين التي شرعت بعد الحرب كان القانون الصادر سنة ١٩٤٦ القاضي بالغاء البغاء بكل اشكاله وغلق كافة (دور التسامح). غير ان ذلك القانون لم يعالج مشكلة البغاء معالجة جذرية وعلمية باعتبارها مشكلة اجتماعية تستدعي الدراسة العميقة.

فعلى كافة الأمم ومن جملتها عراقنا الحديث ان تأخذ العبرة مما جرى في فرنسا سنة ١٩٤٠ وان تولي الناحية الاخلاقية في المجتمع الأهمية التي تستحقها، فالاخلاق هي الركيزة الاساسية التي تستند اليها كل الأمم الحية:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولما احتل الانكليز العراق بعد الحرب العالمية الاولى، اعترفوا بمؤسسة البغاء، وفي بغداد كان يتمثل في (الكلچية) فغضوا الطرف عنها وسمحوا لها بالاستمرار كما كان عليه الحال في العهد العثماني، وكل ما في الامر انهم علقوا لافتة مكتوب عليها بالاحمر كلمة (Brothel) وعينوا انضباطاً عسكرياً لمنع الجنود من ارتيادها.

ان البغاء ممنوع قانوناً في بريطانيا ولا توجد فيها مواخير أو بيوت للدعارة معترف بها رسمياً وخاضعة للتسجيل والرقابة الصحية، كما هو الحال في فرنسا أو بلدان الشرق الأوسط أو في الاقطار الآسيوية باستثناء بعض الدور السرية في بعض الموانئ التي يكثر تردد البحارة عليها. وأن القانون المرعي كان قانون منع انتشار الأمراض الزهرية الذي شرع في القرن الماضي ولكن ليس للمحاكم أو للشرطة بموجبه سلطة منع تعاطي الدعارة والسمسرة. وقد استمر ذلك الوضع حتى سنة ١٩٥٨ عندما صدر القانون الحالي بمنع السمسرة أو فتح بيوت للدعارة أو التسكع في الشوارع بقصد الدعارة والسمسرة، تحت طائلة الغرامات الكبيرة والسجن الطويل في حالات التكرار.

أما في الولايات المتحدة فان البغاء ممنوع قانوناً أيضاً، ويسمونه هناك (الرق الأبيض) والرقابة عليه شديدة جداً، وتحت طائلة أقسى العقوبات. وأشد المدن صرامة في تطبيق القانون هي مدينة نيويورك، وأكثرها تساهلاً في ذلك هي مدينة (نيو أورليانس) عاصمة ولاية (لويزيانا)، ولا غرابة من ذلك، فقد كانت (لويزيانا) مستعمرة فرنسيّة قبل أن تبتاعها الولايات المتحدة من فرنسة في القرن

التاسع عشر.

لما زار بغداد المستر (ويندل ويلكي) نائب رئيس الولايات المتحدة ومؤلف الكتاب الشهير (عالم واحد) إبّان الحرب العالمية الثانية، كانت (الكلّچية) من المعالم التي أصرّ الزائر على زيارتها لعدم وجود (مؤسسة) تماثلها في (عالمه الجديد)، فطاف فيها، وتحدث الى سماسرتها وسمسيراتها وجاس بيوتها واندس بين مومساتها وجلس في چايخاناتها. فكانت تلك الزيارة من حكايات التندّر في بغداد يومئذٍ.

ولما قام الحكم الوطني في العراق بقي المبغىٰ العام (الكلچيّة) قائماً في محلّه، كما كان إبّان العهد العثماني وعهد الاحتلال البريطاني. تقع الكلچيّة التي كانت ريجينه.مراد تديرها وتمتلك معظم بيوتها، في محلّة الميدان، جوار محلّة (گوگ نزر) المعروفة ببيوتها السريّة (گزلي)، وكان لها مدخل جانبي يقع على طريق رأس الكنيسة، ومدخل آخر يتفرع من طريق الصابونچيّة، الذي يبدأ من شارع الميدان ويؤدي الى محلة الفضل وما جاورها، ومدخل ثالث يقع على شارع الرشيد. ولما كانت محلة رأس الكنيسة(*) من المحلاّت التي يسكنها كثير من كبار ضباط الجيش، وبعض كرام العوائل، أذكر منهم سعيد حقي وبكر صدقي وتوفيق وهبي وإسماعيل نامق، وفوزي أفندي (والد فؤاد فوزي والدكتور مهدي فوزي) ومجيد بك (والد كمال وجمال وجلال عبد المجيد) وغيرهم. ومن العوائل التي كانت تسكن تلك المحلّة عائلة إبراهيم پاشا (والد يوسف إبراهيم پاشا وزير المعارف الأسبق) وعائلة رؤوف الكبيسي، وعائلة عبدالقادر المميّز، وعائلة سعيد أفندي والد نوري السعيد وعائلة سلمان افندي (والد شفيق سلمان) وعائلة الحاج سليم مدير النفوس (والد جواد سليم) وعائلة محمود أديب محمّد، وفي آخر الطريق المؤدي الى محلّة الفضل كان يسكن فهمي المدرس وأمين زكي وصبيح نجيب وأحمد راغب بك والد اللواء عادل أحمد راغب وعسكر أفندي وحسن رضا أفندي وتوفيق پرتو وغيرهم، فقد تضايقت هذه العوائل من وجود مدخل الكلچية في الطريق المؤدي الى دورهم، فقاموا بحملة قويّة لغلقه. وكان الحاج سليم، مديراً عاماً للشرطة في اوائل الحكم الوطني، وكان هو الآخر يسكن محلة رأس الكنيسة، قبل انتقاله الى راس الحواش في الاعظمية ويمر يومياً بسيارته المرقمة (١ بغداد) فأمر بغلق هذا المدخل والاقتصار على المدخل المطل على شارع الرشيد. وفي وقت من الأوقات، شيد جدار عالٍ على هذا المدخل وفتحت فيه باب صغيرة، لحجب منظر المومسات ومنعهم من التعرض بالمارة في الشارع العام.

وقد بقي الحال على ذلك المنوال سنين عديدة، ولما عدت من غياب طويل خارج العراق، وجدت أن وزارة الشؤون الأجتماعية قررت اقتلاع الكلچية وگوگ نزر من الأساس فأزالت تلك الوصمة من جبين بغداد وجعلت من المحلتين ساحة الميدان المخصصة حالياً لوقوف الباصات والسيارات.

* * *

(*) هذه الكنيسة هي كنيسة للأرمن الارثوذكس وهي من أقدم الكنائس في بغداد وما زالت قائمة بالقرب من ساحة الميدان خلف بدالة (باب المعظّم) في الميدان، وتعرف محلياً بكنيسة (مريم العذراء)، وتقام فيها سنوياً مراسيم عيد انتقال العذراء الى السماء، كما يعتقد الأرمن الاورثودوكس ويولعون فيها الشموع للنذر والتبرك.

من النوادر التي يتناقلها البغداديون من جراء كثرة الجرائم التي كانت تقع في المبغى العام في الثلاثينات، النادرة التالية:

أحيل أحد المتهمين الى محكمة جزاء بغداد بتهمة الشجار في المبغىٰ العام واستعمال السلاح تحت تأثير الخمر. فباشر حاكم الجزاء بالمرافعة، وكان من الحكام المعروفين في الثلاثينات بصراحته ومطالعاته اللاذعة وأحكامه الشديدة:

الحاكم للمتهم: اسمك ؟

المتهم: فلان بن فلان.

الحاكم: عمرك؟

المتهم: ثلاثين سنة.

الحاكم: شغلك؟

المتهم: چايچي.

الحاكم: محل سكناك؟

المتهم: العمومخانه.

الحاكم لكاتب الضبط: اكتب گواد.

المتهم: حضرة الحاكم، هذا طعن بشرفي، مهنة الچايچي مهنة شريفة.

الحاكم لكاتب الضبط: أكتب گواد ابن گواد!!

المتهم: حضرة الحاكم، الله ينصرك، ويعلّي سعودك، هذه مهنتي ومهنة آبائي واجدادي.

الحاكم لكاتب الضبط: اكتب گواد ابن گواد من سابع ظهر!!

* * *

واستكمالاً للبحث عن مثل هذه الفئات في المجتمع البغدادي، أود أن اقول كلمة عن الفئة المعروفة بالدلّلقية، أي الفتيان المعروفين بوسامتهم وجاذبيتهم والذين كثيراً ما ترددت أسماء بعضهم في الاغنيات والبستات البغدادية التي كانت تغنىٰ في گهوة المميز او گهوة عزاوي او گهوة الشابندر أو گهوة الشط أو في (الباگله) في الصرافية أو في بستان الخس في البتاويين.

في أواخر العهد العثماني أستقدم أحد أصحاب التياتروات (الملاهي)، المدعو سليم، مغنية حلبية وقد صحبها أخوها المدعو (نعيم) وهو فتىً آية في الجمال وقد خلب جماله وجاذبيته لب كثير من البغداديين. وذات ليلة صعدت الخمرة براس أحد المفتونين به المدعو إبراهيم منيب الپاچه چي، ففقد صوابه وأطلق النار على نعيم وأرداه قتيلا يتخبط بدمه في تياترو (گهوة سبع) في الميدان (قرب المدرسة المأمونية) وعلى مرأىٰ من الحاضرين، فكان لهذه الحادثة صدىً كبير في بغداد لسببين أولهما أن القاتل شخصية معروفة وينتمي الى عائلة بغدادية كبيرة ومتنفذة، والثاني ان الحادث وقع في محل عام وتحت تأثير الخمر الامر الذي يؤثر على هيبة الدولة، فكتبت الصحف عنها كثيراً وقيلت بحقها القصائد والبستات. ومن جملة القصائد التي نظمت قصيدة لمعروف الرصافي بعنوان (وجه نعيم) يقول فيها:

أسبغ الله نعيم الحسن في وجه نعيم
قمر أغني في الاشراق عن ليل بهيم
علّم الناس صحيح الحب بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينيه الى عهد الكليم

وفي قصيدة أخرى بعنوان (اليتيم المخدوع) يرثي فيها نعيماً، ومن جملة ما جاء فيها :

فاطلق من مسدسه رصاصا ... به في الرمي تنخرق الجسوم
فخرَّ الى الجبين به «نعيم» ... كما انقضت من الشهب الرجوم
ولم يقتله «ابراهيم» فيما ... ارى بل ان قاتله «سليم»
أليس «سليم» الملعون أغوى ... «نعيماً» فهو شيطان رجيم
وجاء به الى بغداد حتى ... تخرمه بها قتل أليم
سأبكيه ولم اعبأ بلاحٍ ... واندبه وان سخط العموم

أما البستات التي قيلت عن هذه الحادثة فقد خلدتها البستة الشهيرة التي تقول :

يا دگة المتنحجي ... سوّاها إبن الپاچه‌چي (*)

أما الدللقلّية الذين خلدت البستات أسماؤهم فيحضرني منهم :

١ - سلمان : الذي كان يخلب لب المترددين على گهوة عزاوي في الميدان إذ تقول البستة :

يا گهوتك عزاوي ... بيها المدگدگ سلمان
يا گهوتك عزاوي ... سواها بيّه سلمان

٢ - صبري أفندي : وكان أمين الصندوق في البصرة وخلب الألباب لوسامته وجماله، إذ تقول عنه البستة التي خلدتها صديقة الملاّية :

الافندي ، الافندي ... عيوني الافندي
الله يخلي صبري ... صندوق اميني البصرة
بس ... الي ... وحدي

٣ - جواد المسيبي : وهو دلّلقلي كربلائي إيراني الأصل أسمه (جواد گور) وتقول البستة بحقه :

(*) ابن الپاچه‌چي هذا هو ابراهيم منيب الپاچه‌چي، وهو شاعر وأديب له ديوان شعر مطبوع، وصاحب مجلة (الرياحين) التي كانت تصدر في بغداد قبل الحرب العالمية الأولى واحتجبت بعد مقتل نعيم وسجن ابراهيم منيب الذي ينتمي الى عائلة بيت الپاچه‌چي احدى العائلات البغدادية الموسرة والمتنفذة.

جـــواد جـــواد مـــســيــبــي
انت سبيت اهـل الهــوى عجب أمك مـا تنسبي
جـــواد جـــواد مـــســيــبــي

٤ ـ عبودي النجفي : وهو شاب مشهداني، خلدته البستة القائلة :

عبـودي جـا من الـنـجـف شـايـل مكـنـزيـة
وشـلون گـلبـك صـبـر لُـمـن مِشَـوْا بيّـه

٥ ـ نعمان : وهو فتى حسن الطلعة : جميل الصورة، أشتهر في بغداد في أواخر العشرينات.

وقد نظم بحقه الملا عبود الكرخي قصيدة عنوانها (روحي سلبها نعمان)، وغنّاها محمد الگبنچي ، يقول فيها :

نـعـمـان يـا سـيـد الـولـد	فـراگـك يـفـتـه لـلـچـبـد
غـبـت وذبـل كـل الـورد	ايـضـاً حـزن عـود الـبـان
گـلـبـي مـن فـراگـك سـاف	مـن ربـك أنـت مـتـخـاف
مـسـتـعـجـل دگه تـلـغـراف	يـصـيـبـك اجـر يـا نـعـمـان

٦ ـ ومن فروخ الشرجية، الذين ترددوا على بغداد في الخمسينات، المدعو (عبد) الذي قال بحقه حافظ جميل وكانت تجمعه به ندوات خالد الدرة :

هـو (عبـد) وليس مـثـل العبيـد رشـأ فَـر مـن جـنـان الخـلـود

وام عبد هي التي يتردد اسمها في اغنيات مسعود العمارتلي :(*)

هله يا ام عبد ، هله

٧ ـ عنيّد : أحد فروخ الشرجية أيضاً، وقد خلد أسمه حضيري ابو عزيز في أغنيته الشهيرة البديعة التلحين :

يا عنيّد يا يابه، تسوى هلي وكل الگرابه، يا عنيّد يا يابه

٨ ـ حسن : ان حسن هذا هو من دلّللقلّية بغداد، ايام زمان، وقد خلدت اسمه البسته المشهورة وهي منقولة من أغنية بكتاشية تركية وأضيفت اليها اضافات بغدادية :تقول البستة :

ربـيـتـك صـغـيـرون حـسـن	لـيش انـكـرتـني
بـعـيـونـك الـوسـعـات حـسـن	مـوزر صـبـتـني

(*) مطربة ريفية من محافظة ميسان كانت تعرّف بالاسم المذكّر.

ريت الوصال يكون حسن، ليلي ونهاري
والّلي سعه بفرگاك حسن، يسعر بناري

٩ـ جميل الشعار: الشعار عند البغداديين هو المخنث الذي يتشبه بالنساء زياً ومظهراً، وهو غلام منحرف جنسياً يقوم بدور (الراقصة) ايضاً في المناسبات والافراح. وجميل الشعار هذا كثيراً ما يشاهد في شارع الميدان واسواقه، ومحل اقامته الاعتيادي ونطاق عمله في (الكلچية) فهو مومس ذكر، وإذا خرج الى الشارع يلفت النظر. شاهدته مراراً وانا في طريقي من والى الصرافية يلبس العگال واليشماغ وله (گذله) تبرز من تحت اليشماغ على الطرف الايمن من جبينه، (مپودر) ومسبدج الوجه، مكحل العينين، محمّر الوجنتين والشفتين، في جيدِهِ گلاده، وفي معصمه اساور، وعلى اصابعه خواتم، وفي اذنيه اقراط من ذهب. يخفي في صدره قطنا مكورا ليبرز الصدر وكأنه الثديان، ويلبس (سكاربين) واطي الكعبين، وعندما يمشي (يتمرگص ويتغنج) كما تفعل الغانيات والمومسات، يلبس في الصيف دشداشه (چيناوي) ويلبس في الشتاء (زبون) وحزام، ودشداشه بازه، وچاكيت او پالطو طويل. ان مثل هذه الفئة من المنحرفين يجب ان تصنف بصنف خاص بهم هو صنف الشعارين أو المخنّثين.

١٠ـ محمد الأسود: نشأ دلّلقلي، ثم أصبح شعاراً، ولما تقدم في السن؛ صار گواداً في (گوگ نزر) وفي الكلّچية.

وأني إذ أختتم استعراض هذه الفئات من المجتمع البغدادي بالكلام عن بنات الهوىٰ اللائي اشتهرت أسماؤهن في الثلاثينات والأربعينات او حتى الخمسينات، فانما لاتمام صورة ذلك المجتمع ليس إلا.

١ ـ بدرية السودة: ومن الطبيعي ان أستهل الكلام عمّن كانت على اتصال بأولاد الذوات ومن هم أرفع مقاماً! فبدرية هذه ليست (عبده) وإنما عرفت (بالسوده) لأنها شديدة السمرة و(دمها حار).

٢ ـ بدرية السوّاس: وهي حلبية الأصل، جميلة وجذابة، وكانت راقصة في تياترو نزهة البدور في مدخل سوق الميدان مقابل جامع الأحمدي، ولكثرة المنازعات بين المعجبين بالأغنيات الحلبية فقد تصدرت (الشانو) لافتة مكتوب عليها (طلب البستات ممنوع بأمر مدير الشرطة)! وقد (ستر عليها) أحد الضباط وتزوجها وظلت في عصمته حتى وفاته في الخمسينات.

٣ ـ حمدية: وهذه كانت مغنية وراقصة في أوتيل الهلال مع منيرة الهوزوز(*) وقد استهوت أحد القائممقامين فنقلها من أوتيل الهلال الى ضفاف الفرات وبقيت في عهدته حتى اعتقاله في معتقل العمارة بسنة ١٩٤١ فصارت تضرب بالمثل لوفائها واخلاصها لصاحبها.

٤ ـ نزهت: وكانت تسمى تحبباً (نزهت الحلوة) أو نزهت البغدادية، وكانت راقصة مع جوق سليمة باشا في أوتيل عبدالله ما شا الله، (أوتيل الجواهري). لا تحسن الرقص ولا الغناء ولكنها كانت جميلة وجذّابة، فاستظرفها أحد أثرياء الشباب ونقلها من أوتيل الجواهري في الميدان الى داره في البتاوين وبقيت خليلته الى أن نفدت ثروته.

٥ - لميعة : لم تكن لميعة قد صعدت على خشبة مسرح الغناء في الثلاثينات وحتى الأربعينات، بل اشتهرت بالغناء وأحياء السهرات والحفلات الخاصة في أحد بساتين ديالى بالقرب من بغداد قبل أن تظهر على شاشة التلفزيون وفي الطاحونة الحمراء وخان مرجان بشعرها الأشقر!! وأغنياتها الريفية.

٦ - بنات مريم خان: وهن ثلاث الكبيرة تفّاحة، وقد فتحت لها (بيت گزلي) قرب شارع الأكمكخانه (المتنبي حالياً، جوه الطاگ) بعد ان تقدمت في السن. والثانية (نجيّة) وكانت ذات حظوة عند كثير من الشباب البغدادي (واحد يفكها وواحد يلزمها). والثالثة (رجّو) وكانت في وقت من الأوقات محظية لأحد نواب كربلاء.

٧ - بنات نومه: وهن اثنتان، ليلو وخزنه، وقد ترفعن في المهنة حتى صعدن على خشبة مسرح أوتيل الجواهري.

٨ - فريدة: وعرفت بين شباب بغداد بجاذبيتها الجنسية وطلاوة حديثها وظرافة نكاتها وقد خلد أسمها أحد المعجبين بها بالبيت القائل:

«طيره» و «فريده» بالبلم وحواجبها جرّ القلم

٩ - صبيحة: وقد عرف عنها في الأوساط البغدادية بانها (ساديّة) وسادي (نسبة الى الكونت دي ساد الفرنسي) وهو المصاب بنوع من الشذوذ الجنسي والذي لا يلتذ بالجنس إلاّ إذا صاحبته القسوة والتعذيب. والأطباء أعلم مني بذلك المرض!! وكان قد تزوجها أحد الضباط الأشرار الذي ذاع صيته السيّئ أيام بكر صدقي، ثم اعتلت خشبة مسرح أوتيل ماجستك ثم أصبحت محظيّة!!

١٠- حنيني (حنينه) : وهي يهودية، يحلو لها أن تعتبر نفسها في عداد الأرتيستات اللائي كن يتواجدن في أوتيل متروبول في شارع الرشيد مقابل السينما الوطني لصاحبه صادق حنّا.

١١- بنات مراد، وهن أربع، ريجينه ومسعوده وروزه وسليمه (پاشا)، وسبق الكلام عن الأولىٰ والرابعة في مناسبات سابقة.

١٢- أحلام: وهي ربيبة منيرة الهوزوز (*)، ومن حضن (الطبيب) صعدت الى خشبة المسرح وظهرت على شاشات التلفزيون في بغداد والكويت.

وفي هذا القدر كفاية عنهن!!

* * *

(*) منيرة الهوزوز، وهي منيرة بنت عبدالرحمن وقد لقبت بالهوزوز نسبة الى اغنية شعبية كانت تجيدها ونالت استحسان المجتمع البغدادي، وهي واحدة من ثلاث مطربات لمعت أسماؤهن في الثلاثينات، وهن منيرة الهوزوز وسليمة پاشا (سليمة مراد، أخت ريجينه مراد) وعفيفة أسكندر. وكانت منيرة تغني في أوتيل الهلال في الميدان، وقد اقترن أسمها دون زميلاتها من المطربات، بالشعر والشعراء.

كان معروف الرصافي أحد المعجبين بمنيرة، وقد استهوته بغنائها ورقصها وخفة روحها وطلاوة حديثها، فنظم بحقها قصيدة من تسعة أبيات، مما جاء فيها:

هل سمعتم «منيرة» مذ افاضت — من بديع الغناء في كل فن
هي إن أقبلت بثنية عطفٍ — أقبلت بالمهفهف المطمئن
وهي إن أدبرت بهزّة ردفٍ — أدبرت بالمرجرج المرجحن
سحرتني مذ اقبلت تتثنى — فكأني مذ أقبلت لست مني

كانت محلة جديد حسن پاشا والدنگچية وما جاورهما تعرف في بغداد بأنها محلات تسكنها طبقات (العصمانلي) ولا مكان فيها للشلاتية والسرسرية وأبو جاسم لر والحرامية وضرابين الجيوب ومن على شاكلتهم، وإن وجد فيها أحد من هؤلاء فإنما يكون قد غزاها من محلات أخرى. وقد خطر لأحد حرامية بغداد المشهورين وهو (وحيّد المصري) أن يجرب حظه في السطو على أحد بيوت الدنگچية في ليلة من ليالي الصيف. ولما استفاق أهل الدار، صار الحرامي (يطفّر) من بيت الى آخر ثم (چيّت) الى الدربونة وأطلق ساقيه للريح. فعلا الصراخ والعياط (حرامي.. حرامي) وصار سكان المحلة (يشوبشون) على (التيغ) غير ان أحدهم شاء أن يقضي على هذا الحرامي قضاءاً تاماً (فتناوش التنگه) من على التيغة وألقاها على الحرامي وهو يركض هارباً، غير ان (التنگه) اخطأته، وولد ارتطامها بالأرض صوتاً عالياً يشبه صوت الطلقة. فالتفت وحيّد المصري نحو ضارب (التنگه) (وجابه بزيگ بغدادي) وعندها انقلب الصياح والعياط الى الضحك والقهقهات. وما ان بلغ وحيّد المصري راس الدربونة حتى (تلّگاه) الچرخچي، وألقى القبض عليه واقتاده الى (القوللغ) حيث (تلّگه) حسابه هناك.

هذا ولو چان بيتنا گريب چان جبت للقاريء الكريم طبگ حمص وطبگ زبيب...

* * * *



ومن أوتيل الهلال صارت منيرة تتنقل بين الاحضان حتى اسْتقرت في الاربعينات في حضن شاعر آخر، حيث ترعرعت (أحلامها) هناك!!

أما سليمة وريجينة فيقول العارفون بتأريخ هذه العائلة ان (پاشا) هو ليس اللقب المعروف، والأصل هو (باشا) بالباء وهو اسم والد مراد الذي يقال انه يهودي جاء من تركيا في العهد العثماني، فصارت ريجينة وسليمة تحملان لقب (پاشا) تندراً. أسلمت ريجينة وتزوجت من (محمد) ثم من (عبدالكريم) وأسلمت سليمة وتزوجت من ناظم الغزالي قبل بضع سنوات من وفاته، وتوفيت بعد عدة سنوات من وفاة زوجها وتولت واجبات الدفن زميلتها الوفيّة عفيفة اسكندر.

اجتاحت الجيوش الألمانية بولونيا في اليوم الأول من أيلول سنة ١٩٣٩ وفي اليوم الثالث منه أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا. ثم انضمت إليها إيطاليا، فانقسم العراق وساسته الى فريقين، فريق يرى بأن مصلحة العراق والعرب هي بالوقوف الى جانب بريطانيا وحلفائها، وفريق آخر يرى بأن مصلحتنا هي بالوقوف الى جانب ألمانيا وحليفتها إيطاليا، إذ لم يكن يومئذ في العراق، مع الأسف، فريق ثالث يقول بأن مصلحتنا تقضي عدم الانحياز الى أي من الفريقين المتحاربين. فدبّ الخلاف بين السياسيين وقادة الجيش، وآل الأمر الى حوادث مايس ١٩٤١، وانهيار الحكومة والتجاء أركانها الى إيران وعودة الوصي ومؤازريه من السياسيين من خارج العراق. فتألفت وزارة جديدة برئاسة جميل المدفعي، وتولى منصب وزير الخارجية علي جودة الأيوبي.

من أوائل الأجراءات التي اتخذها وزير الخارجية الجديد اعادتي الى السلك الخارجي. ويشهد الله بأني لم أقابله ولم أوسط أحداً لمفاتحته، غير أنه كان مطلعاً ومستاءاً من إقصائي عن الخدمة، إذ سبق أن عملت بمعيته في لندن ويعلم كل شيء عني. وفي ٢٠ آب ١٩٤١ صدرت الارادة الملكية باعادة تعييني في السلك الخارجي، ونسبني المرحوم صبيح نجيب مدير الخارجية العام يومئذ للعمل في الشعبة الغربية. فكنت سعيداً بهذا التنسيب والابتعاد عن مغثات إيران ومشاكساتها وعنجهيات سفرائها وجربزاتهم وصفاقات مذكراتهم ولجاجة سفارتهم.(*)

* * *

(*) نشرت مجلة (الف باء) في عددها المرقم ٦٦٥ الصادر بتأريخ ٢٤ حزيران ١٩٨١ ذكرياتي التالية عن عنجهية بعض هؤلاء السفراء وجربزاتهم وصفاقات مذكراتهم:

(١) طلبت السفارة الايرانية في بغداد ذات يوم موعداً مني لمقابلة السفير الايراني وكان لقب ذلك السفير (باطمن قليچ). لقد كان هذا السفير (جربزه ولَوْچه) فمشاكله ومتاعبه ومداخلاته لا أول لها ولا آخر. دخل عليّ السفير يتأبط صحيفة عراقية هي جريدة (الحرية) لصاحبها السيد قاسم حمودي. ففتح الجريدة وقال: «لقد اطلعت في هذه الجريدة على مقال بعنوان (الخليج العربي) ورجعت الى الخرائط فلم أعثر على خليج يسمى الخليج العربي، بل هناك خليج اسمه الخليج الفارسي ونهر أسمه شط العرب وبحر أسمه بحر العرب وتساءل مني هل لك أن تدلني أين يقع هذا الخليج العربي؟ فتساءلت منه بنبرة بدا عليها التهكم: هل لك يا معالي السفير أن تخبرني هل أن الخرائط التي أطلعت عليها هي خرائط روسية أو بريطانية أو إيرانية، فأجاب: وقد لاحظ نبرة التهكم: أنها إيرانية طبعاً. قلت له: معالي السفير، لا بد أنك تعلم أن الصحافة عندنا حرة، تكتب حسبما يوحي لها ضميرها وأن صاحب هذه الجريدة معروف بنزعته القومية الصادقة وعروبته الأصيلة وهو لا يعرف من اللغات غير العربية، ولابد أن الخارطة التي كانت بحوزته عندما كتب المقال كانت خارطة عربية، وكل الخرائط العربية تذكر اسم (الخليج العربي) مثلما تذكر خرائطكم اسم (الخليج الفارسي). فلم يبق لي وله ما يقال، فاستأذن وانصرف متأبطاً جريدة

←

في صيف سنة ١٩٤٤ تألفت وزارة جديدة برئاسة حمدي الپاچهچي وتولىٰ منصب وزارة الخارجية أرشد العمري. فبعد عدة أشهر استدعاني الى مكتبه وفاجأني بأنه كان قد أرسل برقية الى جودة بك يرشحني للنقل الى واشنطن. وتلقىٰ جوابه بأنه يرحب بي، وسألني متىٰ أرغب في السفر، فرجوته تأجيل سفري شهرين أو ثلاثة أشهر ريثما أنتهي من طبع كتابي (الانكليز كما عرفتهم) الذي كان يطبع وقتئذٍ في مطبعة السكك الحديدية، وأتهيأ أثناء ذلك للسفر. وبعد انتهاء طبع الكتاب قابلته وقدّمت له نسخة منه، وبيّنت له بأني متهيء الآن للسفر. غير أني لمست من جوابه الفاتر عدم رغبته بتنفيذ ما وعدني به، فصار يذم الأمريكان بأنهم (طوال عراض) وأن أمريكا لا تروق لي، فكل شيء فيها كبير وضخم وسريع ومتعب ومنهك، الى غير ذلك من التبريرات. فقطعت أملي من السفر الى واشنطن وفوّضت أمري الى الله واليه ترجع الأمور.

وفي صيف سنة ١٩٤٥ تحدد موعد اجتماع مؤتمر سان فرنسيسكو لتوقيع ميثاق الأمم المتحدة يوم ٢٦ حزيران ١٩٤٥. فتألف الوفد العراقي برئاسة وزير الخارجية أرشد العمري وعضوية علي جودة الأيوبي ونصرة الفارسي وفاضل الجمالي وعدد من المعاونين من غير وزارة الخارجية. وسافر الوفد الى الولايات المتحدة وهناك دبّ الخلاف بين أعضاء الوفد واستنكف وزير الخارجية ورئيس الوفد أرشد العمري عن التوقيع، ولم يوقع على الميثاق عن العراق سوىٰ فاضل الجمالي، وكان يومئذ مديراً عاماً بوزارة الخارجية وليست له صفة سياسية ومسؤولية أمام البرلمان.

عاد أرشد العمري الى بغداد ليواجه موجة عارمة من الشغب السياسي من خصومه في داخل البرلمان وخارجه، وشاع بأنه سيستقيل من الوزارة. فكثر اللغط حول أعماله واجراءاته في أمريكا. وفي أحد المجالس الخاصة سألني النائب الشيخ حسن السهيل: «أنت بالخارجية وتعرف كل شيء فما هي الحقيقة عن أرشد؟» فشرحت للحاضرين حقيقة الوضع، فقال الشيخ حسن السهيل: «لماذا لا

الحرية كما دخل أول مرة.

(٢) اعتادت السفارة الايرانية في بغداد أن توفد أحد كبار موظفيها الى وزارة الخارجية في فترات معينة من كل سنة ليثير قضية البحرين ومطالبة إيران بها. وبغية وضع حدّ لهذه اللجاجة الايرانية طلبنا عرض موضوع الحماية والوصاية والادعاءات الأجنبية بأيّ جزء من البلاد العربية على مجلس جامعة الدول العربية، فصدر القرار اللازم بذلك ثم استصدرنا قراراً من مجلس الوزراء لتبني هذه السياسة من قبل الحكومة العراقية.

في تلك السنة طلبت السفارة الايرانية موعداً لمقابلة مشاورها، فحضر وأثار كعادتهم في كل سنة موضوع مطالبة إيران بالبحرين، فأبلغته بسياسة الحكومة العراقية بهذا الخصوص.

بعد هذه المقابلة ببضعة أيام استدعاني نوري السعيد الى مكتبه وبادرني قائلاً:

- أمين، هاي شبيك ويا العَجَمْ؟..
- قلت: خير إن شاء الله، پاشا، شبيهم؟
- قال: قابلني السفير الايراني وقدّم لي مذكرة شكوىٰ شخصية عليك. وسلمني المذكرة، ولما قرأتها قلت: إن كل ما ورد فيها صحيح. قال: شْلون. قلت: اعتادت السفارة الايرانية أن تفاتحنا في كل سنة عن موضوع مطالبتها بالبحرين. وفي هذه السنة أصدر مجلس الوزراء قراراً يستند الى قرار مجلس جامعة الدول العربية يفيد بعدم الاعتراف بأيّ ادّعاء أجنبي على أي جزء من البلاد العربية، وأني قد أبلغت مشاور السفارة الايرانية بسياسة العراق هذه تجاه مطالبتهم بالبحرين العربية. قال: هذه هي سياسة العراق، لا تدير لهم بال خلي دَيْوَلُون، وأمرني بأهمال المذكرة.

تكتب مقالاً بالجريدة لتنوير الناس عن الحقيقة؟» فأجبت بأني مستعدّ لكتابة هذا المقال، ولكن أية جريدة تنشره. وكان عادل عوني صاحب جريدة الحوادث أحد الحاضرين، فانبرىٰ يتعهد بنشر هذا المقال إذا ما كتب. فأعددت مقالاً وكان بتوقيع «أ. م».. أوضحت فيه موقف أرشد العمري السليم وأثنيت على جهوده ووطنيته وبرأت ساحته من أي تقصير.(*)



سألني النائب الشيخ حسن السهيل في مجلس خاص عن حقيقة الخلاف مع وزير الخارجية أرشد العمري أثناء وجوده في أمريكا، رئيساً للوفد العراقي الى مؤتمر سان فرنسيسكو، وناشدني أن أكتب مقالاً لتنوير الرأي العام بالحقيقة فكتبت المقال ونشرته في جريدة (الحوادث).

الصورة مأخوذة في مزرعة المرحوم محمود صبحي الدفتري القريبة من بغداد
وفيها الشيخ حسن السهيل يتحدّث إلى صالح جبر

(*) نشـر المقال في جريـدة الحـوادث عـدد ٨٨٤ بتأريخ ١٣ آب ١٩٤٥ بعنوان (وفدنا في سـان فرنسيسـكو وقيمـة النجاح الذي أصـابه) وقـدمت المقـال بكلمـة عن رئيس تحرير الجريدة، جاء فيها: «ونحن إذ ننشر هذا المقال وأمثاله نضع الخصومة الشخصية على الرف ونقول ما هو حق وواقـع، ولا نريـد عليه جـزاءاً ولا شكورا ولا نخطب ودّ أحد ولا نتزلف لأحد، فلسنا في زمرة من يبيعون ضمائرهم في الأسواق السياسية ويؤجرون أقلامهم لهذا وذاك من السياسيين، انما ننشره منتصرين للحق ومتصدّين لمن يبخس الناس أشياءهم» وقد ختمت المقال بالعبارة التالية:
«وعلى كلٍ فأن حكم الرأي العام على معالي السيد أرشد العمري هو أنه قد أدىٰ خدمة وطنية صادقة وأنه قد حصل على أشياء قد يكون من العسير أن يحصل عليها غيره. وعلى هذا يجب أن لا نغمط حق الرجل ونقلل من قيمة عمل أداه خير أداء».

وسبق أن نشرت مقالاً في جريدة البلاد بتوقيع (أ.م) بعددها المرقم ٢٥٢٩ الصادر بتأريخ ١٢ حزيران ١٩٤٥ بعنوان (بادرة سان فرنسيسكو) حذرت فيه من خطورة البند المتعلق بنظام الوصاية الوارد في لائحة ميثاق الأمم المتحدة المعروض على مؤتمر سان فرنسيسكو، على الأقطار العربية الرازحة تحت الانتداب مثل سوريا ولبنان وفلسطين وأهبت بالعراق أن لا يلوث صفحات جهاده السياسي بالتوقيع على وثيقة دولية من شأنها أن تعرّض مستقبل الأقطار العربية الشقيقة للخطر.

كما نشرت مقالين في جريدة البلاد بعدديها المرقمين ٢٥٦٥ و٢٥٦٦ في ٢٥ و٢٦ تموز ١٩٤٥ بعنوان «غداً» و«اليوم» حول الانتخابات البريطانية، أوضحت فيهما تأثير نتيجة تلك الانتخابات على مصالحنا الوطنية والقومية.

ولما اطلع أرشد العمري على المقال استدعىٰ السكرتير الصحفي السيد حسين الگيلاني وطلب إليه الذهاب الى مديرية الدعاية للتحقيق عن كاتب المقال. وعاد الگيلاني ليفاجئه بأن المقال (مكتوب عندك بالوزارة وكاتبه هو أمين المميز). فبهُت وقال لحسين الگيلاني (هذا الولد أشلون آدمي طيّب، وأشقد معدنو صافي، كِنْ يدافع عني وأنا مستقيل من الوزارة بينما أنا تعديتو علينو وبهذلتونو ولغيتو نقلو لواشنطن).



أرشـد العمري

كان أرشد العمري وزيراً للخارجية في وزارة حمدي الپاچه‌چي سنة ١٩٤٥. وقد استدعاني ذات يوم الى مكتبه وأبلغني بأنه كان قد أرسل برقية الى جودة بك سفير العراق في واشنطن يرشحني للنقل اليها، وأن السفير قد رحب بذلك. فرجوته تأجيل سفري لشهرين أو ثلاثة ريثما أنتهي من طبع كتابي «الانگليز كما عرفتهم» ولما تم طبع الكتاب قدمت له نسخة منه وأعربت له عن استعدادي للسفر. فلاحظت من كلامه أنه «گلَبْ» فصار يذم أمريكا والأمريكيين، ويقول بأني سوف أكره تلك البلاد وشعبها، فهم (طوال.. كبار.. عراض..) الى غير ذلك من التبريرات.

وفي صيف سنة ١٩٤٥ عاد من الولايات المتحدة قبل ختام مؤتمر سان فرنسيسكو ودون أن يوقع على الميثاق، لخلاف وقع بينه وبين بعض أعضاء الوفد، فوجد نفسه أمام معارضة شديدة من قبل بعض السياسيين والنواب والأعيان، فعرض على رئيس الوزراء اعفاءه من الوزارة. وفي هذه الفترة انتصرت له بمقال نشرته في جريدة الحوادث أطريت فيه جهوده في أمريكا وخاصة لحمل المؤتمر على دعوة سورية ولبنان للاشتراك فيه رغم أنهما لم تكونا دولتين مستقلتين يومذاك، وكذلك لمعارضته لبعض بنود الميثاق التي تضر بالمصلحة العربية، كما برأت ساحته من أي تقصير بحق البلاد. ولما اطلع على المقال قال للسكرتير الصحفي:

- هذا الولد أشقد طيب.. واشقد معدنو صافي.. كن يدافع عني وأنا مستقيل من الوزارة!!!

تلك هي من شمائلنا نحن البغداديين، نقف الى جانب المظلوم وننتصر له وقت الشدة والضيق والظلم.

بعد استقالة وزارة حمدي الپاچه‌چي، أعاد تأليفها ثانية باستبعاد بعض أعضائها واحتفظ أرشد العمري بوزارة الخارجية، فصار منذ ذلك الحين يسترضيني ويتوددني بمختلف المناسبات وبشتى الأساليب والاغراءات. وان أنس لا أنس مقابلتي له يوم كان رئيساً للوزارة سنة ١٩٥٤ لتلقي تعليماته بمناسبة سفري الى جدة لتسلم مهام منصبي هناك، إذ قال لي إنه غير باق في الحكم إلّا بضعة أيام فقط، ويرغب في مساعدتي بكل ما يلزم لي وللمفوضية، وطلب مني أن أرسل له برقية شخصية حالما أصل الى جدة وبيان كل ما أحتاجه من مخصصات وموظفين وغير ذلك. سافرت وأبرقت ونفذ أرشد العمري كل ما طلبت، بل وأكثر مما طلبت.

* * *



نحن الآن في السنة الأخيرة من الحرب ، وعلى وجه التحديد في شهر مارت سنة ١٩٤٥ . ففي صبيحة يوم الجمعة الواقع في السادس عشر منه ، تلقيت نبأ هزني وهزّ بغداد والعراق وتردد صداه في أرجاء العالم العربي. فقد تلفن لي مصطفىٰ علي ينعي الأستاذ الرصافي ، فهرعت الى بيته الواقع في محلة السفينة في الأعظمية مصطحباً مبلغاً من المال بأمل المساهمة في نفقات الزهاب والدفن ، لعلمي بأن الرصافي لا يملك يومئذ شروىٰ نقير، وقد بلغت به الفاقة حداً جعلته يزاول بيع السكاير في المقهىٰ الذي يرتاده ، لكسب قوت يومه واعالة مساكنيه ومعينيه على العيش، وكانت صحته سيئة، ونفسيته أسوأ وحالته الاقتصادية أسوأ من الاثنتين. فأخبرني علي مصطفىٰ بأن حكمة سليمان قد تكفل بكافة النفقات وليس هناك ما يؤديه غيره.



الرصافي في الفلوجة ، التصوير مأخوذ في الدار التي وضعها تحت تصرفه عبدالعزيز عريم طيلة اقامته في الفلوجة والمطلة على نهر الفرات



الرصافي مسجىً على فراش الموت بداره في الأعظمية يوم ١٩٤٥/٣/١٦

دخلت الغرفـة التي كان الرصـافي مسجىً فيـها ، وكان وجهه مكشوفاً ومحفوفاً بالقطن ، فألقيت عليـه النظرة الأخيرة . لقد استذكرت في تلك اللحظات معرفتي بالرصـافي أول مرة عندما حلّ مع أصحابه عبدالعزيز الثعالبي وعطا الخطيب والفتىٰ اليافع ، ضيوفاً في ديوان عبدالعزيز عريم في الفلوجة في يوم من أيام تموز سـنـة ١٩٢٨ ، ذلك الـديوان الـذي وصفه الرصـافي بأبيـات لم تنشر قبلاً ، فيقول فيه :

ديوان آل عريم	خير الدواوين مبنىٰ
على الفرات مطل	يحكيه فيضاً وحسنىٰ
من قبل كان «علي»	يقوم فيه ويعنىٰ
واليوم بابن علي	فيه الفخار تكنىٰ
بشرىٰ لآل عريم	فذكرهم ليس يفنىٰ

ولما همَّ الضيوف بمغادرة الديوان وتوديع المحتفين بهم ، سمعت الرصافي يقول لمضيفّيه : «إذا قدر الله لي أن أهجر بغداد فلن أسكن بغير الفلوجة» .

كما استذكرت السبع سنوات التي قضاها في تلك البلدة التي أحبها وأحب أهلها وأحبوه وكرموه ، وسكنها من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤١ ، وملازمتي له معظم تلك الحقبة وما بعدها حتى وفاته في الأعظمية سنة ١٩٤٥ ، ووقوفي على كثير من آرائه وطبائعه وتصرفاته وبوهيمياته وشذوذه ونزواته وعبقريته وعقيدته ومتناقضاته وحماقاته . ولو أطلقت العنان لقلمي للكتابة عنها اسهاباً ، لاقتضىٰ تغيير عنوان كتابي هذا من «بغداد كما عرفتها» الى «الرصافي كما عرفته» .



الكرام من أبناء الفلوجة والرمادي والصكلاوية الذين كرموا الرصافي أثناء اقامته بين ظهرانيهم من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤١ ضمن وفد لواء الدليم الذي اشترك في حفلة تأبين المرحوم عبدالمحسن السعدون سنة ١٩٢٩

الصف الأول من اليمين : عبدالكريم ، عبدالمجيد عريم رئيس بلدية الرمادي ، محمد علي الربيعي ، جميل پاشا الراوي نائب لواء الدليم ، عبدالعزيز عريم رئيس بلدية الفلوجة ، سيد جميل الفهد رئيس بلدية الصكلاوية ، حسن بك مصطفىٰ .

الصف الخلفي من اليمين : سيد عبدالوهاب الفهد ، حسين عريم ، اسماعيل الابراهيم المحمود ، خليل الحاج حسين ، جميل الأسود المحمد أمين .

شاركت بتشييع جثمان الرصافي الى مقبرة الأعظمية مع ألوف المشيعين ، حيث دفن في طرف المقبرة وفي أرض مظلومة لم تحفر قبلاً ، كما أوصىٰ بذلك في وصيته المكتوبة(*) ، فرقدت فيها شخصية فذّة ، مثيرة للجدل ، طغت على الأدب والشعر والفكر والسياسة لأكثر من نصف قرن .

بعد بضعة أسابيع من وفاة الرصافي قمت بحملة لأقامة نصب تذكاري له في الفلوجة تخليداً لذكراه فيها . فاستحصلت على قرار من مجلس بلدية الفلوجة بتخصيص مساحة خمسة أمتار مربعة من الحديقة العامة المقابلة لمدخل جسر الفلوجة والمشرفة على الدار التي كان يسكنها ، وقمت بطبع دفتر وصولات لجمع التبرعات لذلك الغرض ، وكلفت المهندس أحمد مختار إبراهيم باعداد تصميم النصب ، وتفاهمت مع بعض النحاتين لنحت تمثال نصفي للرصافي .

ما كاد المشروع يبلغ مراحله النهائية حتى تلقيت تحذيراً من بعض المسؤولين مفاده : «هاي شلك بيها؟ مو أنت موظف في وزارة الخارجية وتعرف علاقة الرصافي بالحكومة وبالانگليز» . فنفضت يدي من تلك المهمة وأعدت التبرعات الى المتبرعين ، وكانت قد بلغت يومئذ (٢٥) ديناراً .

كنت قد علمت من روفائيل بطي(**) أنه يعد دراسة لتأريخ حياة الرصافي فأودعته التصاميم ودفتر الوصولات وقرار مجلس بلدية الفلوجة، كما أودعته مجموعة من الرسائل تلقيتها من السيد علي كمال نائب السليمانية، من جملتها الرسائل المتبادلة بين الرصافي ومحمود السنوي متصرف لواء الدليم (محافظة الأنبار حالياً) ونوري السعيد وتتعلق بالمساعدة المالية التي كان الرصافي يتلقاها من نوري السعيد لضآلة راتبه التقاعدي عندما لا يكون نائباً في المجلس، وكانت مبلغ ثلاثين ديناراً شهرياً يتسلمها محمود السنوي من محاسب مجلس الوزراء عبدالستار عبدالعزيز ويسلمها للرصافي يداً بيد، وقد قطعت تلك المخصصات عن الرصافي عندما أخذ يهاجم نوري السعيد والانكليز والحكم القائم بأقذع ما قاله من الهجو السياسي، ومما قاله عن نوري السعيد:

أن نوري السعيد قد كان قبلاً	آدمياً فردّ بالمسخ قردا
قد أبىٰ أن يعيش حراً مع العرب	فأمسىٰ للتيمسيين عبدا
مثل أبليس ما أطاق سجوداً	وأطاق الهوان لعناً وطردا

وعن الانكليز، قال في إحدىٰ قصائده عن سياستهم الاستعمارية:

لقد جمع الدهر المكايد كلّها	بقِدرٍ كبير صيغ من معدن الخبث
وصبّ عليها من بثار صروفه	سجالاً من الكذب المموّه والحنث
وأنقع فيها ما يعادل ثلثها	من المكر بل ما قد يزيد على الثلث

(*) وبصدد وصية الرصافي، أود أن أميط اللثام عن حقيقة ظلت طي الكتمان حتى الآن. كان الرصافي يعاني من مرض جلدي (حكّة) فأشار عليه الأطباء والأصدقاء بالسفر الى لبنان للمعالجة، وكان ذلك قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بسنة أو سنتين، لا أتذكر ذلك على وجه الدقة. فحضر الى ديوان عبدالعزيز عريم قبل السفر، وبحضوري، ولم يكن بيننا رابع، أخرج من جيبه مظروفاً أزرق اللون وسلمه الى عبدالعزيز وقال له: «هذه وصيتي، فأن عدت من لبنان حياً أعدها لي، وإن مت أفتح الظرف ونفذ ما جاء في الوصية ولك من الله الأجر والثواب». عاد الرصافي من لبنان حياً، وأعاد عبدالعزيز الوصية إليه كما استلمها، بدون أن يطلع عليها أحد، أو يعلم عن مصيرها أحد.

من المؤكد أن هذه الوصية تختلف بظروفها ومنطوقها اختلافاً كلياً عن الوصية التي نشرت بعد وفاة الرصافي. فقدكانت ظروف الرصافي المعيشية والنفسية في الفلوجة غير ما كانت عليه عندما كتب وصيته الثانية في الأعظمية. فلم تكن قد أثيرت حوله يومئذ الضجة بعد نشر كتاب (رسائل التعليقات) سنة ١٩٤٤ وأستهل وصيته الثانية بعبارات (أراهم يهيجون عليّ العوام باسم الدين)، فلم تكن مخطوطة (الشخصية المحمدية) أو (حل اللغز المقدس) قد طبعت أو نشرت ولم يطلع عليها إلّا عدد قليل جداً من المقربين إليه لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة، وهي التي كتبها في الفلوجة وهو بحالة نفسية وفكرية مستقرة. كما أن عبد بن صالح لم يكن قد تزوج ولا أنجب بنات أوصىٰ الرصافي برعايتهن بعد وفاته تاركاً لهن كل ما يملك من أثاث بالية. والواقع هو أن عبد بن صالح لم يكن في خدمة الرصافي في الفلوجة إلّا بضع سنين خلفاً لخادمه الأول (حمدان)، لّما كتب وصيته الأولىٰ موضوع هذه الحاشية. ومن مطالعة الوصية الثانية يظهر بوضوح التألم والتبرّم والتزمت والنفرة من الدنيا والتمسك بالدين والاستجارة بالخالق والتعلق بالآخرة، وهو ما لم يلمسه الذين جالسوه وعاشروه في الفترة التي كتب فيها وصيته الأولىٰ في الفلوجة.

(**) أشغل روفائيل بطي منصب مستشار صحفي بوزارة الخارجية، فترة من الوقت، وعيّن في مثل هذا المنصب في السفارة العراقية في القاهرة في أوائل الخمسينات وقبل تعيينه وزير دولة بوزارة فاضل الجمالي سنة ١٩٥٤، وكنت أنشر معظم مقالاتي في جريدته (البلاد) منذ سنين، وعلاقتي به وطيدة.

وفتت أرطالاً من الغدر فوقها … وعالجها بالدق والدلك والدعث
وأوقد ناراً للخديعة تحتها … يزيد على نار الغضىٰ أو على الرمث
ففارت مليئاً فيه ثم تصعّدت … بخاراً بأنبيق من السحر والنفث
فصاغ طباع الانگليز من الذي … تقاطر في الأنبيق كالمطر الدث

وفي قصيدة عن غزو الجيش البريطاني المؤلف معظمه من الآثوريين للفلوجة في مايس سنة ١٩٤١، وهجرة الرصافي وأهلها من الفلوجة يقول:

أيها الانگليز لن نتناسىٰ … بغيكم في مساكن الفلوجة
ذاك بغي لن يشفي الله إلاّ … بالمواضي جريحه وشجيجه
هو خطب أبكىٰ العراقَين والشام وركن البَنِيّة المحجوجة

وكشاهد على مدىٰ عداء الرصافي لبريطانيا، قال ذات يوم بانفعال شديد، ونحن نستمع الراديو عن أنباء المعارك في الشرق الأقصىٰ: «لو انتصرت بريطانيا في هذه الحرب أيضاً، سأشكك بعدالة السماء في الأرض».

لو لم يمت الرصافي قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بشهرين، لمات حتماً بعدها بشهرين، عندما يسمع بأن بريطانيا قد انتصرت في تلك الحرب ايضاً، وهي ألد ما لديه من أعداء في الوجود.

من الطبيعي بعد كل ما قاله الرصافي عن نوري السعيد وعن الانگليز وعن الحكم في العراق يومذاك، أن ينزل عليه الغضب وتحل به النقمة، وتقطع عنه كل رعاية ومساعدة ليعيش في ضنك العيش حتى وفاته. ولما توفي وأذيع نبأ وفاته من راديو بغداد تعرض المرحوم ناجي القشطيني، مدير المطبوعات يومئذ، وهو الذي أوعز باذاعة النعي في الراديو، الى التأنيب والاحتجاج، وأوعز بمنع الصحف من الاطناب في تأبين الفقيد، ارضاءً لخصومه والناقمين عليه، غير انه لم ينفذ ذلك الايعاز.

* * *

بقيت بديوان الوزارة حتى نهاية الحرب أتابع أخبارها من الراديو ومما يرد من الصحف الأجنبية الى الوزارة. وكانت مصادر الأخبار يومئذ هيئة الاذاعة البريطانية (بي. بي. سي)(*) ومحطة برلين التي كان يذيع منها يونس بحري والمعلّق الانكليزي لورد How How ومحطة أنقرة المحايدة، وكنت من العراقيين القلائل الذين كانوا يعتقدون بأن نتيجة الحرب العالمية الثانية ستكون كنتيجة الحرب العالمية الأولى. ولم يكن مردّ ذلك الرأي العاطفة أو المصلحة الخاصة، إنما كان مرده دراستي للشعب البريطاني وتأريخه ونفسيته. ففي السنين الأولى من الحرب كانت كفة دول المحور راجحة ووضع بريطانيا العسكري ميؤوساً منه لدرجة أن جوزيف كندي السفير الأمريكي في لندن يومئذ (والد الرئيس الأسبق جون كندي) أبرق لحكومته برقيته المشهورة التي يقول فيها إن بريطانيا على وشك الانهيار وأن رقبتها ستقصم كما تقصم رقبة فرخ الدجاجة إن عاجلاً أو آجلاً.

في تلك الفترة كنت ما أزال عند رأيي ذاك، وكنا نلتقي يومياً في مكتبة وزارة الخارجية للاستماع الى نشرات الأخبار وكان أحد الموظفين، الكاتب عبدالحميد الخالدي من أكثر الموظفين تحمساً لهتلر ولألمانيا، فتراهنّا على نتيجة الحرب، ودوّن الخالدي الرهان بالصيغة التالية:

إني الموقع أدناه عبدالحميد الخالدي أتعهد بأنه إذا ربح الحلفاء الحرب وخسرتها ألمانيا، فاني أركب حماراً (بالمگلوبي) وجهي الى الوراء وظهري الى الأمام وأسير أمام وزارة الخارجية.

وقد شهد على ذلك مأمور المكتبة يحيىٰ الپاچه‌چي والمترجم أنيس سهدا والمشاور الحقوقي جبرائيل البنا، ورئيس لجنة تحديد الحدود العراقية ـ الايرانية عبدالحميد الخوجه وطاهر الپاچه‌چي ورشيد رؤوف وإبراهيم معروف، واحتفظنا بالتعهد في درج مأمور المكتبة.

وبعد عدة سنوات من ذلك، وعلى وجه التحديد في ٨ مايس سنة ١٩٤٥ أعلنت نهاية الحرب باستسلام ألمانيا، فأخرجنا التعهد من الدرج وطلبنا من عبدالحميد الخالدي تنفيذه، وصادف أن مرّ من أمام وزارة الخارجية (كرادي) يسوق حماراً فاتفقنا معه على استعارة الحمار لبضع دقائق لقاء مبلغ

(*) بدأت الأذاعة العربية من محطة لندن في ٣ كانون الثاني ١٩٣٨.

قرار

[illegible] السيد امين العميز [illegible]
[illegible] الوزارة الى وظيفة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

الأمر الوزاري بنقلي الى مفوضية لندن ونقل برهان باش أعيان الى وزارة الخارجية

دينار واحد فوافق، وركب الخالدي الحمار (بالمگلوبي) وطاف به في الساحة الخلفية (موقف السيارات) لوزارة الخارجية أمام الشهود الذين شهدوا التوقيع، فنفذ التعهد الذي قطعه على نفسه قبل أربع سنوات بحذافيره.

* * *

لما وضعت الحرب أوزارها في شهر مايس سنة ١٩٤٥، بعثت فكرة نقلي الى لندن من جديد، وكان حمدي الپاچەچي رئيس الوزراء ووزيراً للخارجية بالوكالة. فأصدر أمراً بتأريخ ٦ أيلول ١٩٤٥ بنقلي الى مفوضية لندن ونقل صديقي برهان الدين باش أعيان من مفوضية لندن الى ديوان الوزارة كلا بمحل الآخر (بجايش).



في ٢٠ أيلول سنة ١٩٤٥ غادرت بغداد، بعد أن ودعت الدنگچية والصرافية وداعاً حاراً، ولم أكن لأعلم كم ستطول غيبتي عنها هذه المرة. وقد أقلتنا طائرة عسكرية صغيرة من نوع (دوف) مصطحباً زوجتي وأطفالي متوجهين الى القاهرة. وقد هبطت الطائرة في مطار اللد، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي تطأ فيها قدماي أرض فلسطين المحتلة إذ كانت المرة الأولى سنة ١٩٣٠ عندما زرت فلسطين وشرق الأردن لما كنت طالباً في الجامعة الأمريكية في بيروت وأمضيت العطلة الربيعية أتجول فيهما.



بقينا في القاهرة شهراً واحداً بانتظار (الأسبقية) على طائرة تقلنا الى لندن. وكان نصيبنا طائرة عسكرية من نوع (داكوتا) مقاعدها من الخشب وكانت أقرب الى (پرچقه) منها الى طائرة لسفر الدبلوماسيين.

بقينا في القاهرة شهراً واحداً بانتظار (الأسبقية) على طائرة تقلنا الى لندن. وفي تلك الفترة التقيت ببعض الأصدقاء العراقيين الذين كانوا في معسكرات الأعتقال في أوروبا أثناء الحرب وهم في طريقهم الى أرض الوطن بعد اعتقال دام أربع سنوات. كانت الطائرة العسكرية التي أقلتنا من نوع (داكوتا) أقرب الى (پرشقه) منها الى طائرة لنقل المسافرين الدبلوماسيين. فتوقفت في مطار (العظم) في ليبيا بعد منتصف الليل، ثم حطّت في مطار مرسيليا في فرنسا صباح اليوم التالي حيث كدنا نفقد ولدنا الكبير من دهس سيارة (جيب) يسوقها جندي طائش، ثم هبطت الطائرة في مطار (هيرن) العسكري الواقع في جنوب غرب إنكلترة، (*)، ومنه ركبنا القطار الى محطة (واترلو) حيث كان بانتظاري صديقي وزميلي شاكر الوادي القائم بأعمال المفوضية يومئذ، فاصطحبني بسيارته الخاصة من نوع (رولز رويس) الى أوتيل (دورجستر) حيث حجز لي جناحاً خاصاً ووضع سيارته الخاصة تحت تصرفي.

كان شعوري وأنا أصل الى لندن في شهر تشرين الأول سنة ١٩٤٥ وبعد سبع سنوات من الغياب عنها، شعوراً مختلطاً. فهو شعور السرور لعودتي الى مدينة أحببتها وأحببت أهلها، وشعور الأسى والأسف على مدينة كان قد وصفها الشاعر الانكليزي (وليام دانبار) بأنها (زهرة المدائن وجوهرة الأفراح وفيروزة المرح والمزاح)(**). غير أنها اليوم مدينة كئيبة مظلمة ومدمّرة، أبنيتها مجللة بالسخام، ومعظمها مهدمة، وكثير منها أزيل من الوجود جرّاء القصف الجوّي، وخاصة في حي (السيتي) في شرق لندن؛ معظم نوافذ بناياتها مازالت الستائر السوداء مسدولة عليها؛ حدائقها مهجورة؛ شوارعها مقفرة؛ دكاكينها ومخازنها الكبيرة تكاد تكون خالية من البضائع؛ ووسائط النقل نادرة، وقد أغلقت كثير من محطات قطار تحت الأرض لتكون ملاجيء من الغارات الجوية؛ معظم مسارحها مغلقة؛ وكل صالات الرقص والموسيقىٰ والتزحلق على الجليد وغيرها قد أوصدت أبوابها، والتلفزيون قد أوقف البث منذ بداية الحرب. وحتى تمثال إله الحب (أيروس) الواقع في قلب ميدان (بيكادللي) قد حجب عن أنظار العاشقين، فقد غلف بالخشب لئلا تصيب قلبه أو مزماره شظية فتفجع قلوبهم، وكنت كلما مررت من قاعدة أيروس فشاهدتهم مكدسين على مدرج القاعدة ردّدت قول الشاعر:

مساكين أهل العشق ما كنت أشتري ... جميع حياة العاشقين بدرهم

أما «أم البرلمانات» فلم تسلم من الغارات أيضاً فقد قصفت القاعدة الكبرىٰ التي يجتمع بها النواب، فصاروا يجتمعون بقاعة مجلس اللوردات الأصغر منها سعة؛ حدائق الحيوانات قد أخليت من الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة والثعابين السامة؛ المتاحف أفرغت من كنوزها الثمينة ولوحاتها النادرة.. دوائرها ومكاتبها ومحاكمها ومكتباتها أفرغت من الوثائق المهمة والسجلات السرّية والمجلدات القديمة؛ معظم السكان من الشباب والعجائز تركوا مساكنهم وشققهم ورحلوا الى الريف والمحلات النائية، ولا شيء غاظ الانكليز مثل ما غاظهم رحيل سراة اليهود الى كندا والولايات المتحدة، فكانوا يستشهدون بذلك على الأنانية وحبّ الذات التي أبداها يهود إنكلترة أيام الحرب... والحياة الرياضية، التي هي العمود الفقري للحياة الانكليزية، قد شلّت تماماً، فتوقفت مباريات

(*) لم يكن مطار (هيثرو) مستعداً لاستقبال الطائرات بعد، فقد كان عبارة عن (بناكل) من الانشآءات الجاهزة المؤقتة، ولم يفتح لاستقبال الطائرات الكبيرة إلّا في مارت سنة ١٩٤٦

(**) London... Thou Art the flower of Cities all, Gemme of all joys, Jasper of Jocundities.

William Dunbar

هذا البيت من الشعر منقوش بالسيراميك في فندق (كارلتون تاورز) في سلون ستريت بلندن.

كرة القدم أيام السبت ، وأغلقت معظم ميادين سباق الخيل مثل سباق Derby في مدينة Epsom وسباق (Ascot) الملكي الشهير، وسباق الكلاب (Greyhound Racing) ، وألغي سباق القوارب السنوي بين طلاب جامعتي أوكسفورد وكمبردج (The Blues) والذي هو أهم نشاط رياضي في بريطانيا ، إذ ان شباب الجامعتين المذكورتين لم يسرحوا من الخدمة العسكرية بعد.

ظروف المعيشة في الأشهر التي أعقبت الحرب كانت صعبة جداً ، لا فرق بينها وبين ظروف الحرب إلاّ بالقصف الجوّي الذي عانىٰ منه زملائي في المفوضية ، وعلى الأخص الذين أقاموا في لندن طيلة سنوات الحرب كعوني الخالدي.

البانزين واللحم والدجاج والبيض (عدا مسحوق البيض المجفف) والخبز: بالبطاقات. المطاعم لا تترك لكَ مجالاً لأختيار ألوان وجبات الطعام ؛ بائع السكائر لا يبيعك إلاّ علبة واحدة ذات عشر سكائر؛ معظم الحانات قد أوصدت أبوابها (لا يوجد في لندن مقاهي بالمفهوم المتعارف عليه في أوربا والشرق) ؛ التيار الكهربائي يقطع عدة ساعات في اليوم في شتاء لندن الذي ينفذ برده الى العظم ؛ الغاز شحيح والفحم نادر؛ معظم البضائع التي تباع في المخازن هي من النوع الذي يسمونه بالبضائع التقشفية (UTILITY GOODS) ، أما البضائع غير التقشفية فعليها ضريبة المكس العالية ، (Purchase Tex) وإذا أوصيت على بدلة غير تقشفية فعليك أن تنتظر عدة أشهر قبل ان تستلمها وتدفع عشرة أمثال ثمن البدل التقشفية. وإذا أردت شراء حذاء فعليك أن (تغبّش وتلزم كيو) ، وحين يصلك الدور يقول لكَ البائع (آسف يا سيدي لقد نفدت البضاعة) فعليك أن تكرر التجربة عدة مرات قبل أن تحصل على الحذاء. لا يسعك الدخول الى المسرح أو الى السينما إلاّ إذا حجزت مقعدك قبل عدة أيام ، أو أن تلزم (كيو) لعدة ساعات وأنت تحت الأمطار والثلوج والبرد القارص.

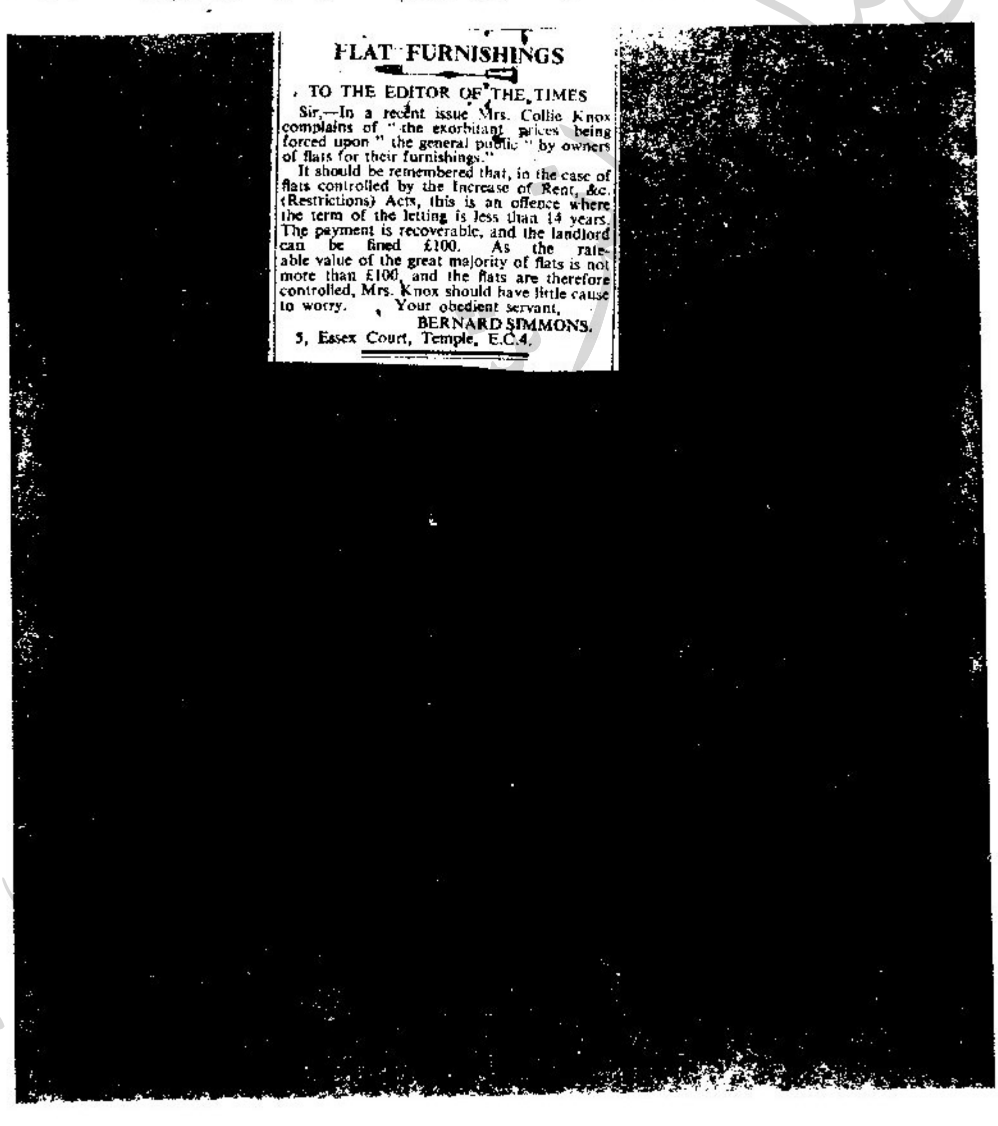
من أصعب التجارب التي مرت عليّ في الأشهر الأولىٰ من وصولي لندن وأنا ألزم (كيو) ، اني عندما أقصد مخازن بيع المواد الغذائية وأقف في صف طويل من العجائز وكلهن يبحلقن في وجهي ، مستغربين وجود هذا الشاب بينهن في الوقت الذي أبناؤهن وأزواجهن ما زالوا في جبهات القتال. وتفادياً من مثل هذا الاحراج صرت أقصد أسواق اليهود التي تقام أيام الأحد ـ فقط ـ في شرق لندن (Peticote Lane) لأتزود بالفواكه والخضار والبيض والدجاج وكل ما يبيعه اليهود في السوق السوداء. فان لم أعثر على ضالتي عند اليهود فأقصد (Portobello Road) في غرب لندن (W.II) حيث تعرض فيه النوادر من بضائع وتحف وأغذية في أيام السبت ـ فقط.

المستشفيات قليلة جداً بسبب ظروف الحرب ومن الصعب أن يجد المريض سريراً شاغراً في أحد المستشفيات. كنّا نتوقع ولادة طفلنا فلم أعثر على دار ولادة (Nursing Home) إلاّ في مدينة تبعد عن لندن بُعد عانة عن بغداد.

المدارس هي الأخرىٰ قليلة جداً ويندر أن يجد الغريب مقعداً لابنه في احداها. كنت قد سجلت أحد أولادي في احدىٰ المدارس الخاصة (Public Schools) وهذه التسمية لها مفهوم مقلوب عند الانكليز، فالمدارس الخاصة يسمونها المدارس العامة (Public Schools). والمدارس الثانوية العامة

يسمونها مدارس القواعد (Grammer Schools). فسجلوا اسمه على قائمة الانتـظار، وراجعت إدارة المدرسة بعد سنة فقيل لي انه ما زال على قائمة الانتظار، وراجعت بعد سنتين فقيل لي انه ما زال على قائمة الانتظار. وفي هذه الأثناء نقلت الى أمريكا وهناك سجلته في احدى المدارس العامة (Public Schools) بالمفهوم الأمريكي. وقد حملني حب الاستطلاع أن أستفسر عن مصير تسجيل ولـدي في المدرسة الانگليزية ومصير رسم التسجيل الذي دفعته، فاتصلت بالمدرسة بعد عشر سنوات من تأريخ التسجيل فقيل لي انه ما زال على قائمة الانتظار!!

أما الشقق والفنادق في لندن فليست بأحسن حالاً من المدارس والمستشفيات، فلا يسمح بالبقاء في الفندق لأكثر من ثلاثة أيام إلا إذا دفع المسافر المبلغ المرقوم (جَوّه العَبا) (Under the Counter) أو أرسل هدية للمدير أو لموظف الحجز، وينطبق ذلك حتى على الفنادق السبعة الكبرى(*). ولا يمكن **الحصول على شقة مؤثثة إلاّ إذا دفع المستأجر مبلغاً خيالياً ـ خلو رجل ـ (سَرْقُفْلِيَّة). وبغية التحايل على الأسعار المقررة من قبل بلدية لندن (L.C.C.) للشقق غير المؤثثة صار المُلاّك يؤثّثون الشقق ببعض الأثاث المستعملة والستائر البالية والسجاد المستهلك ويؤجرونها كشقق مؤثثة وبأجور باهظة. وقد كتبت ذات**



FLAT FURNISHINGS

TO THE EDITOR OF THE TIMES

Sir,—In a recent issue Mrs. Collie Knox complains of "the exorbitant prices being forced upon" the general public" by owners of flats for their furnishings."

It should be remembered that, in the case of flats controlled by the Increase of Rent, &c. (Restrictions) Acts, this is an offence where the term of the letting is less than 14 years. The payment is recoverable, and the landlord can be fined £100. As the rateable value of the great majority of flats is not more than £100, and the flats are therefore controlled, Mrs. Knox should have little cause to worry.

Your obedient servant,

BERNARD SIMMONS.

5, Essex Court, Temple, E.C.4.

علت الشكوى بعد الحرب من غلاء ايجارات الدور والشقق واستغلال الوكلاء والملاّكين للجمهور، فأدليت بدلوي بين دلاء المشتكين. فأرسلت الرسالة المنشورة أعلاه الى جريدة التايمس اللنـدنية، أوضحت فيهـا ما أعـانيه من موضوع السكن واستغلال الوكلاء. ولما نشرت الرسالة، وردتني عشرات الرسائل من ملاكين غير مستغلين يعرضون عليّ دوراً وشققاً مؤثثة وبأرخص الايجار، لما علموا بأن لي عائلة وأطفالاً وأننا نقاسي من موضوع السكن الأمرّين.

يوم الى جريدة التايمس اللندية رسالة فضحت فيها هذا التحايل واستغلال المستأجرين من أعضاء السلك الدبلوماسي وعوائلهم، وبعد يومين من نشر الرسالة انهالت عليّ أكثر من خمسين رسالة من ملاك غير مستغلين يعرضون عليّ شقفاً مؤثثة تأثيثاً كاملاً وبأرخص الأجور، **لما علموا بأن لي أطفالاً.** (**)

ولعل أكثر ما آلم سكان لندن و(أتبرهم) وأقضّ مضاجعهم هي صواريخ V2 التي كانت تطلق على لندن من قواعد نصبها الألمان على ساحل فرنسا الشمالي في السنة الأخيرة من الحرب والتي كانوا يسمونها (البق العابث)(Doodlebugs)، لأنها تطير على غير هدى، فتارة تطير على خط مستقيم، وتارة تتخذ مساراً حلزونياً، وتارة تصعد الى السماء وفجأة تهبط الى مستوى السطوح ومدخنات المنازل ولا يعرف متى وأيّ هدف ستصيب. وقد سببت هذه الصواريخ الشديدة الانفجار دماراً هائلاً في الأبنية**والعمارات السكنية الأمر الذي ضاعف من أزمة السكن في لندن. وبعد انتهاء الحرب عرضت واحدة من هذه الصواريخ في (متحف العلوم) ولم يبق شخص في لندن إلّا وشاهدها وتذكر أيامها السوداء، وكنت أحد المشاهدين.** (***)

(*) وكانت يومئذ فندق دورچستر وفندق (دوچستر) وفندق (كروفنر هاوس) وفندق (ريتز) وفندق (هايدپارك) وفندق (مي فير) وفندق (كلارج).

(**) يحلو لي أن أقارن بين لندن الموصوفة أعلاه، وكانت قد خرجت من حرب دامت أكثر من أربع سنوات، وبين بغداد وقد دخلت السنة الخامسة من الحرب المفروضة على العراق، وكأنها هي عاصمة بلد غير العراق، وفي ظروف غير ظروف الحرب، وذاك من حيث التموين والتعليم والاعمار والبناء، ووسائل التسلية والترفيه، وسائر الظروف المعيشية والخدمات العامة: فلا بطاقات للبنزين واللحم والدجاج والبيض، ولا كهرباء يقطع في الشتاء، ولا مطاعم أومستشفيات تغلق، ولا بضائع تقشفية، ولا ستائر سوداء بالية، ولا علب سكاير ذات عشر سكارات، ولا فنادق توصد أبوابها بوجه المسافر إلّا إذا دفع (المبلغ المرقوم) «جو العباء» الى مأمور الحجز!! وأخيراً لا قنابل ولا صواريخ ولا (بق عابث) ولا صفارات انذار تقلق راحة المواطنين. ولا... ولا... و...

(***) لا أجد حرجاً ولا أشعر خجلاً إن أنا دونت هذه الذكرى الأليمة: في شتاء سنة ١٩٤٥، وهو أول شتاء يمر عليّ بعد وصولي الى لندن قبل شهرين، كنت أسكن شقة من الطراز القديم كانت تدفأ بالفحم الحجري، ثم جهزت بمدافيء كهربائية لصعوبة الحصول على الفحم يوم ذاك. وفي أمسية شديدة البرد انقطع التيار الكهربائي، واستمر الانقطاع عدة ساعات ولم يعد البقاء في الشقة محتملاً ولو لبضع دقائق في برد لندن الرطب الذي ينفذ الى العظم، فصار أطفالي يرتجفون ويولون (بابا.. إشّه بارده). وما عسى لوالد أن يفعل تجاه هذه الصرخات واللوعات والولولات. لقد جمعت كل ما عثرت عليه في الشقة من صحف بائرة وأوراق بالية وكل ما هو قابل للاحتراق وألقيتها في الموقد (FIRE PLACE) لعل لهيبها يخفف من صراخ الأطفال وولولاتهم، غير ان ذلك اللهب سرعان ما خبا، ولم يخفف من وطأة البرد القارس، فما عساي أن أفعل بعد كل ما فعلت؟ لقد تفتق ذهني ان ألقي بآخر سهم في كنانتي، فالتجأت الى بواب المفوضية، وكانت تبعد عن مسكني حوالي ثلاث كيلومترات مشياً على الأقدام مهرولاً، ونخوته أن يسعفني بقليل من الفحم الذي يستعمل لتسخين مرجل المفوضية، على سبيل الاعارة حتى اليوم التالي، فما خيب البواب (لويس) ظني، فملأ (گونيّة) تزن أكثر من عشرين كيلوغراماً من الفحم، فحملتها على ظهري وأنا أكاد أطير فرحاً بهذه الغنيمة، فعدت مسرعاً، وما كدت أقطع ربع المسافة بين المفوضية ومسكني حتى خارت قواي، وأخذ العرق يتصبب من جبيني، على الرغم من برودة الطقس ساعتئذ، فلم أستطع الاستمرار بالمسير، كما لم أجد في الشارع واسطة تنقلني الى مسكني مع حملي الثقيل، وسط الضباب الكثيف، وانعدام الرؤيا بحيث لا أستطيع حتى رؤية (چف ايدي!) فصرت أجلس بين آونة وأخرى على حافة الرصيف لأستريح، ولم أبلغ الشقة إلا بشق الأنفس. ولما دخلتها استقبلني الأطفال وأمهم بالتصفيق والهتاف والضحك على يديّ الملوثتين بالسواد ووجهي المصخم بالصخام، فرفدت الموقد بالفحم وأوقدته بما عثرت عليه في برميل القمامة مما هو قابل للاشتعال. ان الفحم الحجري بطيء الاتقاد ولكنه إذا ما أولع يتقد لآخر ذرة من الرماد. اتقد الفحم وتدفأ الأطفال وسعد الأبوان ونام الجميع باطمئنان، ودفع الله ما كان أعظم! هذه هي احدى تجارب الحياة في السلك الخارجي، فليس السلك الخارجي كله حضور المآدب واقامة الحفلات والتجوال بالسيارات والسفر بالطيارات والسكنى في شقق العمارات الحديثة والاقامة في الفنادق الفخمة، ففيه أيضاً مثل هذا الصخام واللطام وسواد الأيام!!

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية باستسلام المانيا وحليفتها إيطاليا اجريت انتخابات عامة في بريطانيا يوم ١٥ حزيران ١٩٤٥ وظهرت نتائجها في ٢٦ تموز وفاز بها حزب العمال فوزاً ساحقاً وخذل چرچل وحزبه خذلاناً شائناً فأقصي عن الحكم وهو الذي ربح الحرب. ذلك هو شأن الانگليز مع زعمائهم وأبطالهم، فأنهم يستنجدون بهم ايام المحن والشدائد والازمات، ومتى ما انقذوهم منها قلبوا لهم ظهر المجن ونبذوهم ظهرياً، فيعرضون تماثيلهم الشمعية في متحف الشمع (متحف مدام توسود) او يكدسون كتب انتصاراتهم ومذكراتهم على رفوف المكتبات. هكذا فعلوا مع چرچل بعد الحرب العالمية الثانية، وهكذا فعلوا مع لويد جورج بعد الحرب العالمية الاولى، وهكذا فعلوا مع الدوق ويلنكتون Duke of wellington بعد موقعة واترلو وانتصاره على نابليون في القرن التاسع عشر، وهكذا فعلوا مع الدوق مارلبوره Duke of Marlborough جد چرچل، بعد انتصاراته في الحروب الاوربية في القرن الثامن عشر. فهم يخشون ان واحداً من هؤلاء وقد ضربت في رأسه نشوة الانتصارات، قد يعيد عهد (كروموبل) الدكتاتوري فيحرمهم من ديمقراطيتهم التي يعتزون بها كل الاعتزاز.

بعد اعلان النتائج النهائية للانتخابات واعلان فوز حزب العمال بالاغلبية الساحقة قدم المستر چرچل استقالة حكومته وأشار على الملك جورج السادس بتكليف المستر آتلي زعيم حزب العمال بتأليف الوزارة، فقصد الرئيس المكلف قصر بكنكهام وهو يسوق سيارته بنفسه، لقبول التكليف الرسمي، وتقبيل اليد(*).

* * *

الف المستر آتلي وزارته في شهر تموز ١٩٤٥ من اقطاب حزب العمال الذين درسوا وفهموا وهضموا الاشتراكية وسبل تطبيقها في بريطانيا، امثال هربرت موريسون وأرنست بيفن والسر ستافورد كريبس والدكتور هيو دالتون وهيو كيتسكل وفيليب نوئيل - بيكر وهارولد ويلسون وانيورين بيفان وآرثر كرينوود و (إي. ڤي. الكسندر) واليهودي البولوني الاصل إيمانوئيل شنيويل وغيرهم... فأكبّوا على تنفيذ المشاريع الاشتراكية التي كانوا قد أعدّوها عندما كانوا خارج الحكم، كتأميم صناعة الحديد والصلب والسكك الحديدية ومناجم الفحم وتطبيق الضمان الاجتماعي وتأميم الخدمات الطبية وكثير من المصالح العامة الأخرى. وما يهمنا نحن العرب بالدرجة الاولى هو الدور الذي لعبه وزير الخارجية إرنست بيفن منذ سنة ١٩٤٦ وما بعدها.

نشأ آرنست بيفن نشأة عصامية، فقد عمل في صباه مراسلاً في المكاتب والدوائر كما عمل سائق عربة لنقل الفحم، ثم تبوأ مركزاً مرموقاً في نقابات العمال وقد استعان به چرچل في وزارة الحرب الائتلافية لشحذ جهود العمال وراء المجهود الحربي. وهو اول وزير في تاريخ بريطانيا يشغل منصب وزارة الخارجية ولم يدرس في ايتون او هارو أو وينچستر، ولم يتخرج في أوكسفورد أو في كمبردج، وقد غطى بشخصيته القوية على كافة زملائه الوزراء، ويرجع اليه الفضل الكبير في منح الهند وباكستان

(*) إن تقبيل يد الملك من قبل رئيس الوزراء المكلف تقليد قديم في بريطانيا. ويروى أن المستر كلادستون، زعيم حزب الأحرار، فاته تقبيل يد الملكة فكتوريا بعدما كلفته بتأليف الوزارة، فتدارك الأمر عندما قدم أسماء اعضاء وزارته، فأنبّته الملكة قائلة: «كان عليك ان تفعل ذلك ظهر هذا اليوم» والمعروف ان الملكة فكتوريا لم تكن على علاقة شخصية طيبة مع المستر كلادستون، وقد وصفته ذات يوم بانه (ذلك المجوز الهائج الذي لا يُسْبَر غوره وذو الاثنتين وثمانين ونصف من العمر) وكانت تقول على سبيل المقارنة بين دزرائيلي زعيم حزب المحافظين وبين كلادستون «ان الاول كان يخاطبها كسيدة، والثاني يخاطبها وكأنها جمهور من الغوغاء».

استقلالهما، غير أنه ارتكب خطيئتين كبيرتين في حياته السياسية لا تغتفران له، ولكن لكل حصان كبوة، هما ربطه القضية الفلسطينية بالأمم المتحدة وبالتالي بالولايات المتحدة، ومحاولته ربط العراق من جديد بالعجلة البريطانية بمعاهدة بورتسموث.

ان المقربين الى آرنست بيفن يذهبون الى أنه كان خصماً للصهيونية وموالياً للعرب وأنه قد لاقى من جراء ذلك الأمرّين من الصهيونيين، ولولا قوة شخصيته ومركزه السياسي لأقصوه عن الوزارة. ويروى عنه أنه قال: «عندما كنت أجلس على طاولة مجلس الوزراء لا أعلم إذا كان الوزير الجالس الى يميني أو ذاك الجالس الى يساري هو من أنصار الصهيونية.»(*)

* * *

نحن الآن في مطلع عام ١٩٤٦، فقد اخذت لندن تنتقل تدريجياً من حالة الحرب الى حالة السلم، وتكشف عن وجهها الوضاح، واخذ الجنود والمجندات يعودون من جبهات القتال لينضموا الى الاعمال والخدمات المدنية والمكاتب والدوائر والمحلات العامة، وحلت الفساتين البراقة والقبعات الانيقة محل الخاكي والقبعات العسكرية التي كانت تزخر بها شوارع لندن ايام وصولي اليها، وخفّت الضائقات التي كنا نعاني منها قبلا. واخذت لندن تتبوأ مركزها الدولي من جديد وتحفل بالنشاطات الدولية والمناسبات الدبلوماسية. وكانت اول مناسبة دولية تعقد في لندن بعد الحرب هي عقد الاجتماع الاول لهيئة الامم المتحدة.

اجتمعت الهيئة التحضيرية في ٢٤ تشرين الثاني وأنهت اعمالها في ٢٣ كانون الاول ١٩٤٥ برئاسة الوزير البريطاني نوئيل بيكر وتولى منصب سكرتير الوفد البريطاني المستر بيلي(**) ومثل العراق فيها شاكر الوادي وعوني الخالدي، وهي اللجنة المكلفة باعداد مشروعات القرارات التي ستعرضها لجانها المختلفة على الجمعية العمومية للمصادقة عليها، تطبيقاً لميثاق الامم المتحدة الذي سبق اقراره في سان فرانسيسكو، واستغرقت اجتماعات هذه اللجنة شهراً واحداً وكانت اطول المناقشات تدور في (لجنة المقر) وهي اللجنة المكلفة باختيار المقر الدائم للهيئة. وقد تمخضت المناقشات عن اتجاهين، الاول يدعو الى جعل المقر في اوربا، ويؤيد هذا الاتجاه الدول الاوربية والآسيوية، والاتجاه الثاني يطالب بجعل المقر في الولايات المتحدة، ويؤيد هذا الاتجاه الولايات المتحدة والدول السائرة بركابها، وقد أسفر التصويت لصالح الجانب الذي يؤيد جعل المقر الدائم في الولايات المتحدة.

أما الدول العربية، وكانت يومئذ خمس دول هي العراق ومصر والمملكة العربية السعودية وسورية ولبنان، فقد كانت من ضمن الفريق الاول الذي يفضل جعل المقر الدائم إما في لندن او في بروكسل او في جنيف، لابعاد المنظمة الدولية عن النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة، ولم يخرج على

(*) من الطرائف التي تمثل عداء الصهيونيين وأنصارهم من الأمريكيين للمستر بيفن أنهم اخذوا يقاطعون (الويسكي) ويمتنعون عن تقديمه في حفلاتهم وولائمهم، وتعليل ذلك أن الويسكي منتوج بريطاني، وأن أرنست بيفن هو وزير خارجية بريطانيا، وهو ألد أعداء الصهيونية فيجب مقاطعة منتوج بلاده. وقد فعل بعض الأمريكيين نفس الشيء عندما قاطعوا (الفودكا) لما غزا الاتحاد السوفياتي أفغانستان سنة ١٩٧٩.

(**) السر هارولد بيلي، هو الاختصاصي بشؤون الشرق الاوسط وسفير بريطانيا في العراق والمملكة السعودية ومصر، والمتقاعد حالياً.

الاجماع العربي سوى مندوب مصر عبدالحميد بدوي باشا الذي فشلت كافة الجهود التي بذلتها وفود الدول العربية الأخرىٰ لأقناعه على التصويت الى جانب المقر الأوربي. أما أسباب اصرار عبدالحميد بدوي على موقفه فتعود الى ان الولايات المتحدة ومن ورائها الصهيونية العالمية قد وعدته بتأييد ترشيحه لعضوية محكمة العدل الدولية ان هو صوَّت الى جانب الفريق الذي يؤيد جعل المقر في الولايات المتحدة، فصوَّت بدوي باشا الى هذا الجانب الذي أوفىٰ بوعده له وصوّت لانتخابه لعضوية محكمة العدل الدولية ذات الراتب الدسم. لقد باع عبدالحميد بدوي باشا ـ سامحه الله وغفر ذنبه ـ امة العرب بكرسي من الخشب، وتركها تعاني المذلة والمهانة من صهيونيي الولايات المتحدة كلما عقد اجتماع هيئة الامم المتحدة في نيويورك.

* * *



أعضاء الوفد العراقي للاجتماع الأول لهيئة الأمم المتحدة الذي عقد في لندن سنة ١٩٤٦ من اليمين: شاكر الوادي. أمين المميز. بهاء عوني. علي جودة الأيوبي. الدكتور عبدالمجيد عباس. الدكتور نديم الباچه‌چي.

لقد تقرر عقد الاجتماع العام للجمعية العمومية بعد ظهر العاشر من كانون الثاني ١٩٤٦ في قاعة الاجتماعات في Central hall, Westminster وحضره مندوبوا (٥١) دولة هي كافة أعضاء الأمم المتحدة يومئذ. ولا بد ان اذكر ان اجتماع الجمعية العمومية ومجلس الامن والهيئات الاخرى قد قسم الى جزأين، الجزء الأول هو الذي يعقد الآن في لندن وجزء الثاني سيعقد في (ليك سكس) و(فلاشينك ميدوز) في ولاية نيويورك، (قبل تشييد المقر الحالي في مدينة نيويورك). وفي جلسة يوم ١٢ منه انتخب اعضاء المجالس الدائمة، فانتخبت مصر لعضوية مجلس الامن، ولبنان لعضوية المجلس الاقتصادي والاجتماعي. وفي الجزء الثاني من الاجتماع الذي عقد في نيويورك انتخب العراق عضواً في مجلس الوصاية.

لقد مثلت الدول العربية الخمس بنخبة من المندوبين. فقد تألف الوفد العراقي برئاسة علي جودة سفير العراق في واشنطن وعضوية شاكر الوادي ونديم الپاچه‌چي وعبدالمجيد عباس وأمين المميز وعوني الخالدي وبهاء عوني. وتألف الوفد المصري برئاسة عبدالحميد بدوي باشا وعضوية عبدالفتاح عمرو باشا سفير مصر في لندن والدكتور محمود فوزي وممدوح رياض ومستشار السفارة المصرية في لندن محمد عوض. وكان الوفد السعودي برئاسة الامير فيصل وعضوية الشيخ حافظ وهبة ومستشار المفوضية السعودية. اما الوفد السوري فكان برئاسة فارس الخوري وعضوية نجيب الارمنازي وناظم القدسي والدكتور فريد زين الدين. وكان الوفد اللبناني اكبر الوفود من حيث العدد ومن حيث الوزن السياسي للاعضاء، فقد ضم وزير الخارجية حميد فرنجية ورياض الصلح وكميل شمعون ويوسف سالم وفيكتور خوري ونديم دمشقية، وكانت سوريا ولبنان منهمكتين يومئذٍ في موضوع جلاء الجيوش البريطانية والفرنسية عن سوريا ولبنان.

اما الدول الكبرى فقد مثلت بوفود ذات وزن ثقيل. فقد ترأس الوفد البريطاني المستر آتلي رئيس الوزراء وضم المستر أرنست بيفن وزير الخارجية ووزير الدولة المستر فيليب نوئيل - بيكر والمس الن ويلكنسون وزيرة المعارف وكريج جونز وزير المستعمرات وعدداً من المختصين من وزارة الخارجية وبعض العسكريين. اما الوفد الامريكي فقد ترأسه وزير الخارجية المستر جيمس برنز وضم المستر ستيتنيوس والمستر جون فوستر دالاس والمسز الينور روزفلت والمستر ستيفنسون وعدداً كبيراً من الأعضاء والمستشارين يتقدمهم جورج ودسورث زميلي في جدة بعدئذ، وكان يومئذ وزيراً مفوضاً لبلاده في بيروت. اما الوفد السوفيتي فكان برئاسة المستر اندريه ڤيشينسكي وضم في عضويته اندريه گروميكو وزير الخارجية حالياً والذي لازم اجتماعات هيئة الامم المتحدة من ذلك اليوم حتى يوم الناس هذا.

* * *

ترأس المسيو سباك وزير خارجية بلجيكا الجلسة الافتتاحية بعد منافسة حادة بينه وبين وزير خارجية النرويج الذي **يؤيده الاتحاد السوفيتي ولما تفرّس علي جودة في وجهه من بعيد، قال لأعضاء الوفد: ان** رئيسنا يشبه أمين المميز ولكن بدون شوارب!!

وقد اختير المستر كلادوين جب Mr. Galdwynn Gebb وهو من كبار موظفي وزارة الخارجية

البريطانية(*) سكرتيراً عاماً مؤقتاً. وفي ١ شباط ١٩٤٦ وبناءاً على توصية مجلس الامن انتخبت الجمعية العمومية السيّ الصيت (تريگف لي) سكرتيراً عاماً لمدة خمس سنوات. استمرت الاجتماعات حوالي الشهر وصادف ان اجتاح لندن وباء الانفلونزا الذي اصاب معظم اعضاء الوفود. وفي بعض الايام كان لا يشاهد في قاعة الاجتماع غير عضو او عضوين من كل وفد، والباقون طريحوا الفراش في فنادقهم او في بيوتهم ومن جملتهم كاتب هذه الحروف، وكان آخر من طرحه المرض رئيس الوفد علي جودة الذي تأخرت عودته الى واشنطن حتى يوم ٢٢ شباط من تلك السنة بسبب ذلك المرض الذي من اعراضه انه يترك ضحيته هزيلا وضعيفا لا يقوى على الحركة بعد عدة اسابيع من اصابته بذلك المرض الملعون. وكأنه (خرگة) تتقاذفها الرياح!!

وقبل ان اختتم الكلام عن اجتماع الأمم المتحدة، أود أن أسجل حقيقة لوجه الله والتاريخ. فقد كان ألمع وأنشط وأبرز أعضاء الوفود العربية التي شاركت في هذا الاجتماع، كميل شمعون، فانه منذ تعيينه وزيراً مفوضا للبنان في لندن في أيلول عام ١٩٤٤ أبرز من الكفاءة والنشاط والفعاليات سواء في المحيط الدولي أو الدبلوماسي أو في الوسط الاجتماعي الذي ساهمت فيه السيدة زليخا شمعون، ما جعلها نجمي المجتمع الدبلوماسي طيلة إقامتهما في لندن. فلقد اثبت كميل شمعون للعالم ان الدول ليست بسعة مساحة أراضيها ولا بعدد نفوس سكانها ولا بما تمتلكه من قنابل ذريّة وصواريخ نووية، وإنما بما ترسله الى الخارج من رجال يمثلونها أحسن تمثيل ويرفعون رأسها عالياً بين أمم العالم. ذلك كان شأن لبنان البلد الصغير عام ١٩٤٥، وهكذا كان شأن العراق البلد الصغير أيضاً عام ١٩٨١ عندما مثله ورفع رأسه عالياً ممثله في الأمم المتحدة، عصمت كتاني، لما ترأس باسم العراق أكبر ندوة دولية في العالم.

* * *

انتهت اجتماعات هيئة الأمم المتحدة في أواسط شهر شباط ١٩٤٦، فتنفستُ الصعداء فقد قاسيت من الاجهاد والارهاق ومن آثار مرض الانفلونزا الشيّ الكثير، فكان عليّ ان اقوم بواجبات المفوضية الاعتيادية صباحاً، وحضور مآدب الغداء العديدة ظهراً، وحضور اجتماعات اللجان والجمعية العمومية بعد الظهر احياناً، وتلبية دعوات حفلات الاستقبال الرتيبة مساءاً، والتنقل بين الفنادق والسفارات والمفوضيات والمحطات والمطارات. ولم يكن لديّ متسع من الوقت حتى للنهوض بواجباتي البيتية ورعاية شؤون أطفالي.

ما كادت الوفود لاجتماعات الأمم المتحدة تنصرف من لندن حتى بدأت وفود أخرى تصل إليها. فقد تألفت وزارة بريطانية جديدة وبين يديها منهاج طويل لتصفية الترسبات السياسية القديمة بين الامبراطورية البريطانية وممتلكاتها فيها وراء البحار. وأول من وصل الى لندن لهذا الغرض هو المغفور له الأمير عبدالله، للتفاوض على عقد معاهدة جديدة تحل محل المعاهدة القديمة المعقودة عام ١٩٢٨ بين إمارة شرق الأردن وبريطانيا.

(*) هو السر كلادوين جب الذي كان من اعضاء الوفد البريطاني الذي شارك في وضع ميثاق هيئة الامم المتحدة في سان فرنسسكو سنة ١٩٤٥ وأشغل منصب سفير بريطانيا في باريس عدة سنوات وفي أحرج الظروف الدولية.



استقبال الملك فيصل الثاني في محطة فيكتوريا عائداً من فرنسا بعد قضاء العطلة الصيفية لكلية (هارو) في (نيس) بجنوب فرنسا :

من اليمين: المستر دانبار رئيس دائرة البروتوكول بوزارة الخارجية البريطانية، الأمير عبدالإله، الملك فيصل الثاني

وصل الامير عبدالله يوم ٢٥ شباط ١٩٤٦ بصحبة رئيس الوزراء ووزير الخارجية المرحوم إبراهيم هاشم(*) وعدد من المسؤولين الأردنيين وحلّوا في أوتيل هايد بارك. ولم تعترض المفاوضات بين الأردن وبريطانيا صعوبات تذكر، إذ ان بريطانيا كانت مستعدة للاعتراف بـاستقلال إمـارة شرق الأردن، ممتنة من موقفها أثناء الحرب خاصة لمساندتها في اخماد ثورة مايس ١٩٤١ في العراق، وتقديمها المساعدات والتسهيلات للقوات البريطانية المتواجدة في الشرق الأوسط.

زرت الأمير عبدالله يوم ٢٨ شباط ١٩٤٦ بصحبة شاكر الوادي (أخ حامد الوادي الذي كان الأمير عبدالله على وشك تكليفه برئاسة الوزارة الاردنية) وتربطهما بالامير صداقة متينة، واصطحبت معي بهذه الزيارة نسخة من كتابي (الانگليز كما عرفتهم) فقدّمني شاكر الوادي الى الأمير، ثم قدمت بدوري الكتاب اليه، فلما لاحظ العنوان قال: «هذا عربي صحيح» أنها جملة كاملة في لغتنا العربية، الانگليز كما عرفهم المؤلف، وليس كعنوان كتاب المصري عفيفي پاشا (الانگليز في بلادهم)(*) هذه جملة ناقصة «اشبيهم الانگليز في بلادهم؟» وأخذ يتصفح الكتاب ويقرأ عدة أسطر من كل فصل وقرأ أحدى الصفحات بكاملها، فأعجب به، ونادى المرافق لجلب نسخة من مذكـراته التي كـانت قد صدرت في شهر كانون الأول ١٩٤٥، ووقعها ثم أملىٰ علي عبارة الأهداء فكتبتها بخطي، وكانت العبـارة: «أهديـه الى الأديب الكامـل أمين بـك المميز سكـرتير المفـوضيـة العـراقيـة في لـنـدن في ١٩٤٦/٢/٢٨(**)» ثم أمر بمنحي وسام الاستقلال الأردني، وقال لمن في حضرته: «ان هذا الرجل يستحق التقدير». وبعد عودة الأمير الى عمّان أرسل لي رئيس الديوان الهاشمي الارادة الملكية المؤرخة في ٦ حزيران ١٩٤٦ ومعها وسام الاستقلال. وقد علمت بعدئذ بأن هذه الارادة الملكية كانت من أوائل الارادات التي أصدرها الملك عبدالله بعد المناداة به ملكاً على المملكة الأردنية الهاشمية في ٢٥ مايس من ذلك العام.(***)

تشير مفكرتي اليومية الى حضوري يوم ٧ مارت ١٩٤٦ حفلة استقبال في أوتيل سافوي في لندن. أقام هذه الحفلة المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية تكريماً للأمير عبدالله والوفد المرافق له وقد حضرها عدد كبير من المدعوين الانگليز والعرب. فقد دعي إليها من الانگليز كثيرون ممن عملوا في بلاد العرب منذ الثورة العربية الكبرىٰ ومعظم من عمل في فلسطين وشرق الأردن، ممن بقي على قيد الحياة، ومن الصعب التعرف عليهم جميعـاً في مناسبـة لا تتجاوز السـاعتين. غـير أني اتذكـر من المدعوين - عدا صاحب الدعوة المستر بيفن وعدداً من موظفي وزارة الخارجية يتقدمهم وكيل الوزارة

(*) قتل المرحوم إبراهيم هاشم في بغداد صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ مع المرحوم سليمان طوقان وبعض الشخصيات الأردنية التي حضرت الى بغداد للتداول في الشؤون المتعلقة بالأتحاد بين العراق والأردن.

(**) ان هذه الطبعة من مذكرات الامير عبدالله الصادرة في كانون الأول سنة ١٩٤٥ تختلف كثيراً عن الطبعات التي صدرت بعدها، من حيث اللغة والمادة والتبويب وتسلسل الأحداث. ويتبادر للقارئ لأول وهلة أنها كتبت من قبل شخص آخر غير الملك عبدالله وقد تولى نشرها أمين أبو الشعر وطبعت في مطبعة «بيت المقدس» في القدس.

(***) كنت قد أهديت نسخة من كتابي هذا الى الدكتور حافظ عفيفي پاشا مؤلف كتاب «الانگليز في بلادهم» وسفير مصر الأسبق في لندن. وقد زرته بأحدى زياراتي للقاهرة، وكان يومئذ محافظ بنك مصر. وبعد أن شكرني على هديتي بادرني قائلاً: «لو كنت أعلم أن كتابك سيصدر لما أصدرت كتابي». هكذا يكون تواضع المؤلفين.



المغفور له الأمير عبدالله (الملك عبدالله بن الحسين) مع شاكر الوادي القائم بأعمال المفوضية العراقية في لندن، يتحدثان في أوتيل هايد پارك، يوم قدمت للأمير نسخة من كتابي «الانكليز كما عرفتهم» في ١٩٤٦/٢/٢٨.



في حفلة الاستقبال التي أقامها المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا بأوتيل سافوي تكريماً للأمير عبدالله والوفد الأردني لمناسبة توقيع المعاهدة الأردنية ـ البريطانية، التي أصبحت بموجبها إمارة شرق الأردن تعرف بالمملكة الأردنية ـ الهاشمية والأمير عبدالله بجلالة الملك عبدالله بن الحسين:
الى اليمين: أحد الصحفيين اللبنانيين، وفي الوسط أمين المميّز يتحدث الى محرر جريدة التايمس اللندنية عن شؤون الشرق الأوسط وعن جريدة التايمس.

إن جريدة التايمس هي أقدم الصحف البريطانية وقد احتفلت في مطلع عام ١٩٨٥ بمرور قرنين على صدورها. ان شعار هذه الجريدة هو نشر الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وتستقي المعلومات والأخبار والاتجاهات السياسية من مصادرها الأصلية لتنشرها بعد التأكد من صحتها، وتعزف عن نشر الأخبار الاستفزازية والتخرصات المثيرة والفضائح وما شاكل ذلك من الأخبار التي تتسابق الصحف الأخرى للحصول عليها وتتنافس على السبق الصحفي لنشرها. وان ما تنشره التايمس من تقارير مراسليها المنبثين في شتى أقطار العالم يعتبر موثوقاً ويعتدّ به الى أقصى الحدود، ولمقالاتها الافتتاحية وقع كبير في الأوساط الرسمية والمحافل السياسية ولا يمكن تجاهلها. وأثناء الأزمات والحروب فانها توفد مراسلين خاصين الى مواقع الأحداث وميادين القتال لتزويدها بالمعلومات الدقيقة عن مجرى الأحداث وسير المعارك، وقد اشتهر من أولئك المراسلين (وليام راسل) الذي غطى حرب القرم بكفاءة وجرأة نادرتين مما أكسبته شهرة عالمية وتاريخية بين المراسلين الحربيين. وقد منح من أجل ذلك لقب (سر) تقديراً لجهوده. وكانت من احدى نتائج تقاريره المنشورة على صفحة التايمس اسقاط الوزارة القائمة على الحكم يوم ذاك لاتهامها بالتقصير في تموين وتجهيز الجيش البريطاني الذي يحارب في أقسى الظروف في حرب القرم. واشتهر كذلك مراسلها الحربي في الحرب العالمية الثانية (سيريل فولز) الذي بعد تقاعده عن العمل الصحفي كمراسل ومعلق عسكري، عين أستاذاً للتأريخ العسكري في جامعة أوكسفورد. ويغطي الحرب العراقية ـ الايرانية حالياً مراسلها في الشرق الأوسط (روبرت فيسك)، وتمتاز تقاريره بالكفاءة والموضوعية.

ان جريدة التايمس مضمومة في مجلدات ضخمة مودعة في مكتبة الصحف (NEWSPAPER LIBRARY) الواقعة في شارع COLINDALE AVENUE, N. w.q) في ضاحية لندن الشمالية الغربية ويرجع اليها الباحثون في شتى المواضيع. وكنت أقضي ساعات وساعات في تلك المكتبة كلما حللت في لندن لتصفح التايمس ولاستذكار ما جرى من أحداث أيام زمان، منذ وصولي الى لندن سنة ١٩٣٦، أو لاستكمال الدراسات وتدقيق المعلومات التي أحصل عليها من مكتبة المتحف البريطاني أو من مركز حفظ الوثائق في ضاحية (KEW) ـ وتضم هذه المجلدات كافة أعداد الجريدة منذ صدورها، بما فيها العدد الذي صدر يوم الأضراب العام سنة ١٩٢٦، وكان عبارة عن صفحة صغيرة قام المحرر نفسه بطبعها وتوزيعها على المشتركين بواسطة البريد، ولا تحمل سوى شعار الجريدة ورقم العدد وتأريخ صدوره، وبضعة أسطر تفيد بأن الجريدة لم تصدر كالعادة بسبب الاضراب في ذلك اليوم. غير ان الاضرابات العمالية التي تكررت في السنين الأخيرة أرغمت الجريدة على التوقف عن الصدور مرات عديدة ولفترات طويلة.

لقد بحثت عن جريدة التايمس تفصيلاً في مكان آخر من الكتاب.





نحن عبد الله بن الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية

تقديرا للصفات الحميدة التى اتصف بها السيد امين المميز السكرتير الثالث للمفوضية العراقيــة في لندن ولما عرفنا فيه من اخلاص لنا فقد منحناه وسام الأستقلال من الدرجة الثالثة وأمرنا بأصــدار هذه البراءة ايذانا بذلك .

صدر عن قصرنا رغدان في عمان في اليوم السابع من شهر رجب سنة ١٣٦٥ الهجرية واليـــوم السادس من شهر حزيران سنة ١٩٤٦ الميلادية .

بأمر جلالة الملك المعظم

رئيس الديوان الهاشمي



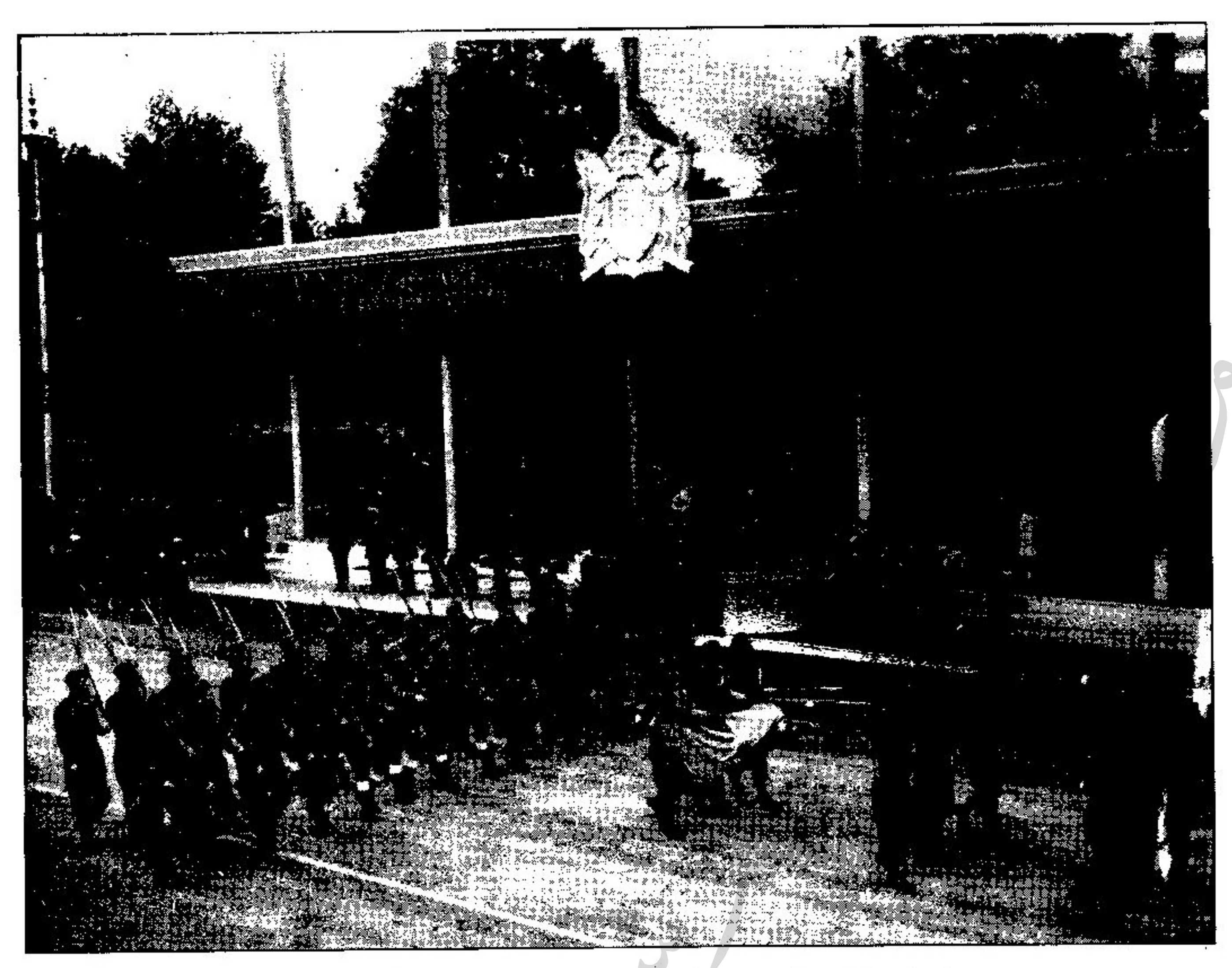
الحفلة التكريمية التي أقامتها البعثات الدبلوماسية العربية في لندن بأوتيل سافوي يوم ٢١ مايس سنة ١٩٤٦ تكريماً للأمير عبدالله بمناسبة عقد المعاهدة الأردنية - البريطانية واستقلال شرق الأردن.
الى يمين المحتفى به عبدالفتاح عمرو باشا سفير مصر والى يساره إبراهيم هاشم رئيس وزراء شرق الأردن، الثالث من **أقصى اليمين، أمين المميّز.**

الدائم السير الكسندر كادوكان والمستر باكستر والمستر نيفيل هندرسون والمستر هارولد بيلي، كما أتذكر السر رونالد ستورز (حاكم القدس سابقاً) والكولونيل نيو كمب وزوجته المرحة (من زملاء لورنس أثناء الثورة العربية) والمستر اليك كير كبرايد (المعتمد البريطاني في الاردن) ولورد وينترتون (من أصدقاء الملك فيصل الأول) والسر هربرت صموئيل (المندوب السامي البريطاني في فلسطين) والسر هارولد مكمايكل وبيك باشا (أحد القواد الانگليز في الأردن) ولا أتذكر أن كان گلوب باشا (أبو حنيج) موجوداً في تلك الحفلة، التي ضمت عدداً كبيراً من رجال الأعمال من العرب والانگليز وأعضاء السفارات والمفوضيات العربية وهيئة المكتب العربي يتقدمهم أدوار عطية. وكنا قد أبدينا رغبتنا في حضور بعض العراقيين الموجودين في لندن يومئذ (لأن العراقيين والأردنيين أهل بيت واحد). كان من بين هؤلاء العراقيين الطبيبة العراقية سانحة امين زكي وزوجها المهندس احسان رفعت. وكان الحوار بين الدكتورة سانحة وبين صاحب الدعوة المستر بيفن قد سيطر على جو الحفلة، فكانت الدكتورة سانحة (بريمادونا) على مسرح أوبرا يضم كبار الممثلين والمغنين. كان موضوع الحوار بينها وبين وزير الخارجية البريطانية يدور حول قضية فلسطين. وقد طغت الحلقة التي ضمتها على الحلقة المحيطة بالمحتفى به وكبار الرسميين الأردنيين. ففي طلاقة لغتها الانگليزية وكلامها الدافئ الهادئ وحجتها المقنعة تمكنت من إفحام المستر بيفن، وهو ذلك الخطيب المفوه والبرلماني القدير والمجادل من الدرجة الأولى، ولكنه بدا ساعتئذ في موقف المدافع والمعتذر والمتهرّب من الجواب وكأنه (بلاع الموس) ولم يكن أحد يتوقع ليلتئذ أنه كان يعدّ العدّة للتخلص من قضية فلسطين وإلقائها بأحضان الأمم المتحدة وبالتالي تسليمها الى الولايات المتحدة ومن ورائها الصهيونية العالمية.

مثل الدكتورة العراقية سانحة امين زكي هم السفراء الحقيقيون لبلادهم عندما يتواجدون في البلاد الاجنبية.



الدكتورة العراقية سانحة أمين زكي (الثانية من اليمين) التي أفحمت المستر ارنست بيڤن وزير خارجية بريطانيا في الجدل حول فلسطين



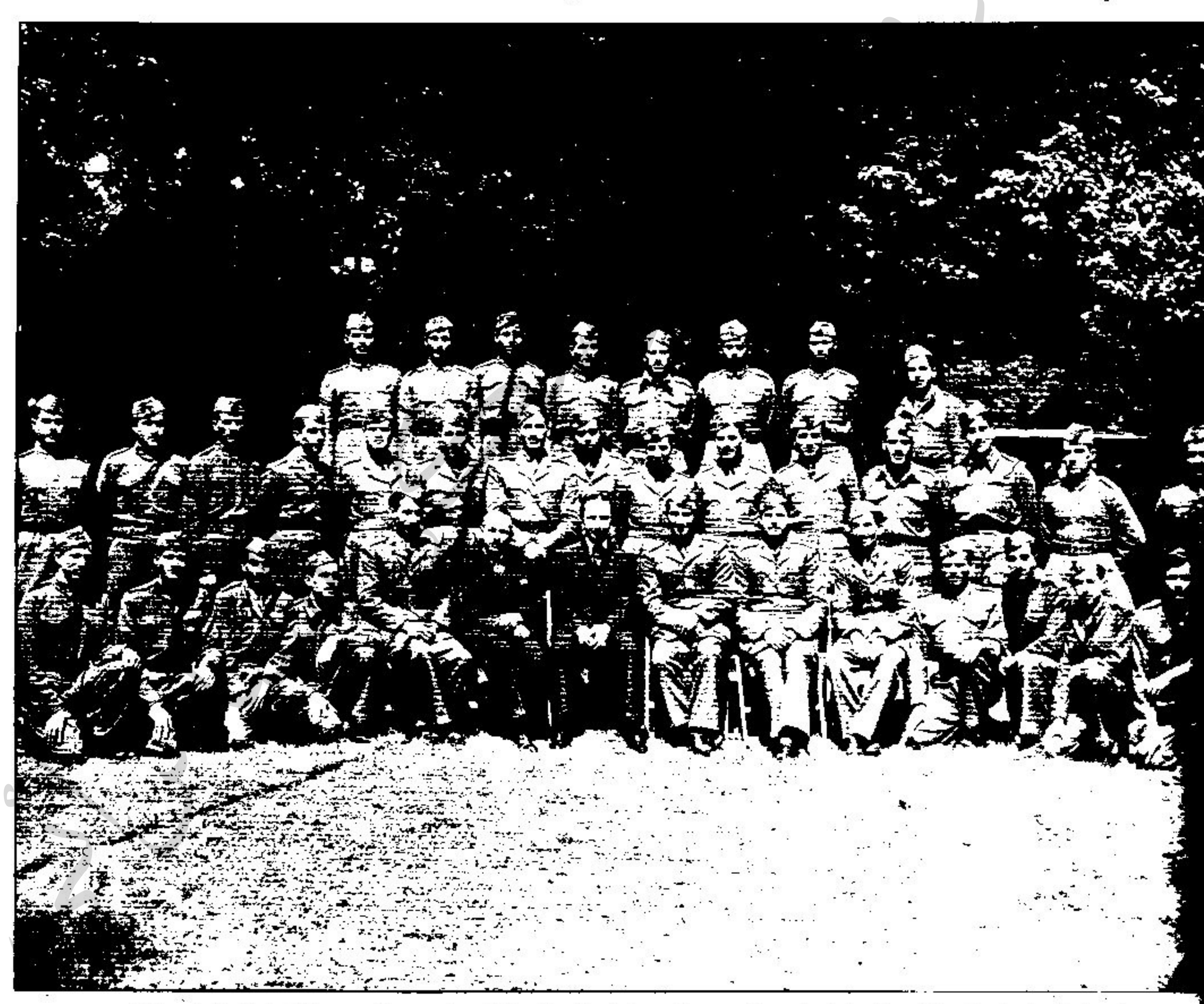
فصيل من الجيش العراقي يشارك في استعراض «يوم النصر» في لندن سنة ١٩٤٦
الثلاثة الأول هم: عبدالرزاق حسين ونوري الدين محمود ورفيق عارف

في اليوم الثامن من حزيران ١٩٤٦ جرت أول مناسبة استعراضية في لندن بعد الحرب وهي استعراض (يوم النصر) الذي اشتركت فيه فصائل من كافة جيوش الدول المتحالفة. وقد اشترك العراق بفصيل من الجيش العراقي في هذا الاستعراض.

* * *

أخذت الشخصيات العالمية تتقاطر على لندن لتصفية الحساب مع الأمبراطورية البريطانية العجوز. فقد حضر وزير خارجية فرنسا المسيو جورج بيدو للاشتراك في المفاوضات الجارية بين بريطانيا وفرنسا من جهة وسورية ولبنان من جهة ثانية حول الجلاء. وقد استغرقت هذه المفاوضات مدة طويلة لتصلّب شديد من فرنسا وخاصة من الجنرال ديگول شخصياً، وانتهت بالأتفاق على جلاء الجيوش البريطانية والفرنسية من سوريا ولبنان في ١٦ نيسان ١٩٤٦، وبذلك حققت هاتان الدولتان العربيتان الشقيقتان استقلالهما التام والناجز. ومنذ ٣٧ عاماً وهما تحتفلان بذكرى ذلك اليوم الأغر. ومن الانصاف أن اذكر ما للسر ادورد سبيرز الوزير البريطاني المفوض في بيروت يومئذ من دور كبير للوصول الى هذه النتيجة السارة.

ثم وضعت قضية الهند وباكستان على بساط المفاوضات، فقد حضر الى لندن وفد المؤتمر الهندي برئاسة جواهر لآل نهرو (والد المسز أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند حالياً) ووفد العصبة الاسلامية برئاسة محمد علي جناح (مؤسس جمهورية باكستان الاسلامية) ولم تسفر المفاوضات المضنية التي جرت بين الأطراف الثلاثة عن الجمع بين وجهتي نظر الهند وباكستان لتأسيس دولة موحدة، فأعلن تقسيمها الى دولتين، وسط صراع طائفي بغيض كان يجري في شبه القارة الهندية وقتئذٍ، على ان يبقيا ضمن (الدومنيون)، وذلك اعتباراً من ١٥ آب ١٩٤٧، كما حصلت سيلان (سري لانكا حالياً) وضعاً مماثلاً في تلك السنة. وفي سنة ١٩٥٠ أعلن استقلال الجمهورية الهندية الديمقراطية، وفي سنة ١٩٥٦ اعلن استقلال جمهورية باكستان الاسلامية، على ان تبقى ضمن (رابطة الكومنويلث البريطاني)، غير ان باكستان قد انفصلت عن الكومنويلث في أوائل السبعينات بعد الحرب التي نشبت بينها وبين الهند والتي أدت الى قيام دولة جديدة في شبه القارة الهندية هي دولة بنغلاديش.



فصيل الجيش العراقي الذي اشترك في استعراض يوم النصر في لندن سنة ١٩٤٦: الى يمين الأمير عبدالإله شاكر الوادي القائم بأعمال المفوضيّة العراقية يومئذٍ، والى يساره المرافق الأقدم ناجي طالب.



THREAT TO BLOW UP IRAKI LEGATION

FLYING SQUAD'S NIGHT CALL TO WAR OFFICE

DAILY TELEGRAPH REPORTER

I learn that the Iraki Legation in Queen's Gate, London, has received a warning that it will be blown up.

A written notice to this effect was posted on the main door of the building a week last Saturday. It is the first direct threat to be made since Scotland Yard discovered, six weeks ago, that Jewish terrorists are planning such attempts.

LEGATION THREAT

Balfour Day Anniversary

The warning at the Iraki Legation was made the day the building was closed officially to commemorate the anniversary of the Balfour declaration as a "day of mourning."

The Legation is at present under the charge of M. Amin Mumayiz, who is acting as Chargé d'Affaires pending its elevation to Embassy status. He contacted the Egyptian Embassy, other Middle East Legations and the Arab Office in London, but none of them had received similar notices.

The threatening note was handed to Scotland Yard and special precautions were taken. An official of the Arab Office in London said: "I would not be surprised to find that some fanatics would carry out any kind of terrorism."

في ٢٣ أيلول ١٩٤٦ نقل القائم بأعمال المفوضية شاكر الوادي الى بغداد حيث عين رئيساً للتشريفات الملكية فتوليت منصب القائم بالأعمال المؤقت. وفي ٢ تشرين الثاني المصادف يوم وعد بلفور عطلتُ اعمال المفوضية، فتلّقيت تهديداً تحريرياً من الصهيونيين بنسف المفوضية عُلّق على بابها. فأبرقت الى الحكومة العراقية بانه إذا صدق وعيدهم فأني وأطفالي نقدم أرواحنا فداءاً لفلسطين. وقد نشرت الصحف البريطانية خبر التهديد بالنسف بعناوين بارزة في ٣ تشرين الثاني (المنشور أدناه).

في ١٨ تشرين الثاني وصل أول وزير مفوض للاردن في لندن، وهو الشريف عبدالمجيد حيدر يصحبه مشاور المفوضية هاني هاشم والملحق العسكري كمال الحمود، ورافقته زوجته التي كان يسميها (السلطانة) لأنتسابها الى العائلة المالكة العثمانية، وقد كانت المفوضية العراقية تقوم بكل التسهيلات والمساعدات لتأسيس المفوضية الأردنية الجديدة(*).

في سنة ١٩٤٦ جرت اتصالات بين الحكومتين العراقية والبريطانية لرفع التمثيل الدبلوماسي العراقي في لندن الى درجة سفارة وتعيين الأمير زيد بن الحسين أول سفير للعراق لدى بلاط سان جيمس، وقد وصل السفير الى لندن في ١٤ كانون الأول سنة ١٩٤٦ وحلّ في أوتيل كلارج. وفي ١٦ منه زار السير جون مونك رئيس التشريفات الملكية في قصر بكنكهام، وفي ١٨ منه قدم السفير أوراق اعتماده الى الملك جورج السادس، يصحبه أعضاء المفوضية (السفارة الجديدة) فقدمهم الى الملك واحداً واحداً حسب الأصول المتبعة في تقديم أوراق الاعتماد.

في ١٤ شباط ١٩٤٧ تلقيت تبليغاً تحريرياً من السفارة بضرورة سفري الى بغداد بصورة مستعجلة بناءاً على برقية تلقتها السفارة من وزارة الخارجية. وحيث أن الظروف لم تكن مؤاتية للسفر فقد تمتعت بأجازة اعتيادية لمدة شهرين. كانت هذه الاجازة ضرورية جداً فهي أول اجازة أتمتع بها بعد جهد وارهاق استمرا سنتين كاملتين، كما أن أطفالي كانوا مصابين بمرض جدري الماي (أبو خريّان) ولا يسعني تركهم في هذه الحالة والسفر الى بغداد، وفضلاً عن ذلك فأن حضوري المستعجل الى بغداد لم يكن واضحاً، فهل أنا منقول الى بغداد أو الى منصب آخر حتى أصفي أموري وأصطحب عائلتي، أم أنا مستقدم الى بغداد ثم أعود لمنصبي في لندن؟ أم أن في ذهن وزير الخارجية إجراءاً آخر غير ما تقدم ذكره؟(**)

(*) الشريف عبدالمجيد حيدر هو ابن الشريف علي حيدر المنافس للشريف حسين بن علي على امارة مكة وقد عاش معظم حياته في تركيا وتزوج من فتاة انكليزية صارت تعرف بالاميرة فاطمة، وسكن في بيروت في اخريات أيامه وتوفي فيها. وكنت يومئذ طالباً في الجامعة الاميركية في بيروت وتعرفت على العائلة. والحقيقة هي أن الشريف علي حيدر غير مؤهل لأمارة مكة من عدة وجوه.

(**) كان وزير الخارجية يومئذ الدكتور فاضل الجمالي.



هيئة السفارة العراقية في لندن، بمناسبة تقديم السفير الجديد الأمير زيد بن الحسين أوراق اعتماده يوم ١٨ كانون الأول سنة ١٩٤٦:

من اليمين: الملحق نجدت فتحي صفوت، السكرتير أمين المميّز، الملحق العسكري حسن مصطفى، المشاور سيف الله خندان، الملحق أحمد كاشف الغطاء

قضيت الاجازة لأستكمل زياراتي ومشاهداتي لمعالم لندن والطواف بأرجاء الريف الانگليزي التي لم تسنح لي الظروف مشاهدتها من قبل، برفقة صديقي وعشير صباي وجاري في الصرافية خالد الچوربه‌چي الذي قضى في لندن بضعة أسابيع في طريقه الى الولايات المتحدة منقولاً الى السفارة العراقية في واشنطن. لقد خصصت بعض الوقت لزيارة الكنائس والمقابر، عملاً بالقول المأثور «إذا ضاقت بكم الصدور فعليكم بزيارة القبور» ولقد اخترت مقبرة (هايگيت) التي دفن فيها (كارل ماركس) واصطحبت الصحفي العراقي يحيى قاسم في هذه الزيارة التي وصفها في جريدة (الشعب) البغدادية بمقال تحت عنوان (على قبر كارل ماركس). قصدت المقبرة بعد سفرة مضنية وفي يوم ممطر وشديد البرودة؛ رجوت حارس المقبرة أن يفتح باب حجرة القبر، فظن أني من الماركسيين، فرحب بي وفتح الباب وهو جدّ محتاط، إذ سبق أن حاول البعض سرقة رفات كارل ماركس. وجدت حجرة القبر على غاية النظافة، لها شبابيك مضيئة وأرضيتها مبلطة بالمرمر، والقبر مغلف بالرخام الأبيض ويحيط به عدد من أكاليل الزهور الاصطناعية، وقد حُفِر على القبر الاسم الكامل لكارل ماركس (Karl Heinrich Marx) وتحت الاسم تأريخ ميلاده (٥ مايس ١٨١٨ وتأريخ وفاته ١٤ مارت ١٨٨٣)، ولما سألت الحارس عن دفنه في مقبرة مسيحية وهو يهودي، أجاب بأن أبويه كانا من يهود ألمانيا في الأصل غير أن والده اعتنق الديانة المسيحية، فأصبحت العائلة كلها تدين بالمسيحية وبالمذهب البروتستانتي، ثم لجأ كارل ماركس الى لندن لأسباب اقتصادية وبقي فيها ثلاثين سنة وتوفي ودفن في هذه المقبرة.

* * *

انتهت اجازتي الاعتيادية في ٤ مايس ١٩٤٧، وتحسنت صحة أطفالي، كما تحسن الطقس في لندن بعد ذلك الشتاء الاستثنائي الذي لم تشهد لندن له مثيلاً منذ عشرات السنين، وأصبحت الظروف في بغداد مؤاتية، فأشار عليّ السفير المغفور له الأمير زيد بالسفر لتسوية الموضوع هناك، وقال إنه لا يمكن تسويته بالبرقيات والمراسلات.

وأود أن أقول كلمة للحقيقة والتأريخ عن المغفور له الأمير زيد والظروف التي أحاطت بالسفارة بعد تعيينه. لقد قابلت وتعرّفت في حياتي على كثير من الشخصيات العراقية والعربية والأجنبية من مختلف الطبقات والمناصب والمشارب، قليل منهم من تنطبق عليه صفة (جنتلمان) كالأمير زيد بن الملك حسين شريف مكة. فقد تعرّفت عليه في بغداد عندما كان يشغل منصب نائب الوصي ونائب الملك، وكنت أزوره في البلاط في المناسبات، ويزورني بين حين وآخر في بيتي في الصرافية، وخاصة في أمسيات الصيف. كما عملت بمعيته في لندن عدة أشهر، فمكنتني تلك الاتصالات من التوصل الى النتيجة المدرجة أعلاه.

وفيما يتعلق بموضوع حضوري الى بغداد بناءاً على برقية وزارة الخارجية الآنفة الذكر فأنه كان مستاءاً من ذلك الاجراء الذي بحسب رأيه، كان يجب أن يتخذ شكلاً آخر، أكثر عقلانية وإنسانية.



مع الأميرة فخر النسا الحسين عقيلة السفير الأمير زيد بن الحسين في الحفلة التي أقيمت في أوتيل هايدبارك في ١٣ شباط ١٩٤٧ تكريماً للوفود العربية الى مؤتمر فلسطين في لندن

الحقيقة أن لرئيس المؤسسة الحق في أن يختار من الموظفين من يرغب في التعاون معهم. وبالنظر لرفع درجة المفوضية الى درجة سفارة فمن الطبيعي أن يزداد عدد الموظفين، وأن يكون للسفارة وزير مفوض(*) يقوم مقام السفير في بعض المهام والمناسبات، أو مشاور، وعدد مناسب من السكرتيرين والملحقين الفنيين والملاحظين والكتّاب العراقيين والمحليين يختارهم رئيس المؤسسة حسبما ينسّب، وحسبما تقتضيه الحاجة والمصلحة. وقد اختار السفير السيد سيف الله خندان مشاوراً للسفارة لأسباب هي في رأيي، لا علاقة لها بالواجبات الرسمية لسفارة عراقية عربية، وأعتقد بأنه من بين الدوافع لاختيار سيف الله خندان اجادته اللغة التركية، وان المغفور له الأمير زيد بسبب نشأته العائلية وثقافته التركية وبيئته كان أكثر انطلاقاً في التعبير عن نفسه باللغة التركية كتابة ونطقاً منها باللغة العربية. وحقيقة أخرى يجب أن أعترف بها، وقد مرّ عليها أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، وهي أنني أشغلت رئاسة المؤسسة قرابة السنة وقمت بمسؤوليتي خير قيام، حسبما أعتقد، فلم يرق لي أن أصبح ثالثاً في تسلسل المسؤولية، خاصة لقناعتي بأن الأعلى مني درجة هو ليس أكفأ مني، ولا مؤهلاً أكثر مني للمسؤولية في تلك الظروف الدقيقة في عاصمة مثل لندن. لذا لم أشأ التعاون مع المشاور الجديد، ففضلت التمتع بالاجازة ريثما ينجلي الموقف وتتوضح الأمور.

غير أن وزير الخارجية الدكتور محمد فاضل الجمالي، سامحه الله، قد حمل طلب نقل خندان الى لندن على غير محمله الصحيح، واستغله استغلالاً سيئاً، فاتخذ اجراء استقدامي الى بغداد الذي سبب أستياء المغفور له الأمير زيد، فقام بكل ما يمكن أن يقوم به (الجنتلمان)، فأشار عليّ بالسفر الى بغداد لتدبير الأمر هناك، وسهّل اجراءات سفري، وطمأنني على راحة عائلتي وصحة أطفالي أثناء غيابي، وزودني بكتاب الى الأمير عبدالإله وبكتاب آخر الى ناظر الخزينة الخاصة في البلاط المرحوم سعيد حقي كما يلاحظ من رسالته المنشورة.(**)

(*) كما حصل فعلاً بعد ذلك، بتعيين النائب طارق العسكري وزيراً مفوضاً في السفارة.

(**) قبل أن أنفك من العمل في السفارة كنت قد اتخذت كل ما في استطاعتي لضمان راحة السفير في سكناه. فعندما وصل الى لندن فضل الاقامة في أوتيل (كلارج) فحجزت له جناحاً خاصاً فيه. وبعد اقامته فيه عدة أسابيع وتقديم أوراق اعتماده ووصول الأميرة عقليته، تطرق ذات يوم الى موضوع السكنى في الأوتيل وبيّن بأنه والأميرة عقيلته غير مرتاحين هناك وحريتهما مسلوبة. فبادرته بأنه إذا كان سكناهما في بناية المفوضية يطمن راحتهما وحريتهما أكثر من الأوتيل فأني سأخلي البناية حالاً. فسكت واستنتجت من صمته بأنه يرغب في الانتقال الى المفوضية، فأخليتها واستأجرت شقة في أحدى ضواحي لندن، على الرغم من أن بناية المفوضية لا تليق لسكنى سفير أمير وعائلته. وبعد انتقاله الى المفوضية بفترة قصيرة وردت برقية من وزارة الخارجية للبحث عن بناية لائقة لسكنى السفير بغض النظر عن التكاليف سواء للشراء أو للايجار. وبعد الاتصال بالشركات العقارية والوكلاء، والاطلاع على عدد كبير من العمارات والشقق التي تقع في الأحياء التي تتواجد فيها الهيئة الدبلوماسية عثرنا بواسطة الوكلاء المشهورين (Kinght, Frank & Rutly) على بناية لائقة ومناسبة جداً وهي البناية رقم (15, Kensington Palace Gardens). إن هذه البناية كانت مؤجرة بالاجارة الطويلة (Long Lease) لأحد كبار الأثرياء الارستقراطيين ومن هواة الفنون المتوفى حديثاً، يدعى (Sir alfred Bait) ولكن لا يمكن شراؤها ملكاً صرفاً (Freehold) لأنها من أملاك التاج (Crown Property) ولا يمكن الحصول عليها إلاّ بشراء ما تبقى من مدة الأجارة الطويلة البالغة ٤٢ عاماً. فتم التعاقد على استئجارها للمدة المتبقية من الاجارة الطويلة. وبعد اجراء الصيانات اللازمة والديكورات المقتضية سكنها السفير، وكان ذلك بعد مغادرتي لندن الى واشنطن، فصار يسكنها بعد سنة ١٩٥٨ السفراء العراقيون المتعاقبون وهي تقع في شارع خاص يضم عدداً من مقرات السفارات الأخرى وتجاور قصر (Kensington Palace) الذي تسكنه حالياً الأميرة (ماركريت). شقيقة الملكة اليزابيث، وهي أليق السفارات في لندن قاطبة.

السفارة العراقية
IRAQI EMBASSY
دائرة الشؤون الخاصة

الرقم ٢٧١
التاريخ ١٤ شباط ١٩٤٧

الى

السيد امين المميز
السكرتير الثاني في السفارة العراقية في لندن

ابرقت الينا وزارة الخارجية بضرورة حضوركم في بغداد بصورة مستعجلة فيرجى اعلامنا بموعد استعدادكم للسفر وفيما اذا كنتم تفضلون السفر بحرا او جوا لنتمكن من طلب الاسبقية اليكم .

يرجى اعلامنا باستلامكم كتابنا هذا .

السفير

IRAQI EMBASSY

سيدي ابي .

اتمنى لك سفرة سعيدة موفقة وقد كتبت احمد

لسمو الامير والاميرة لسعيد جعفر . لا تقلق ان الله

كل شيء لذلك حسب ما

ان شيء ارجو ان تخبرني

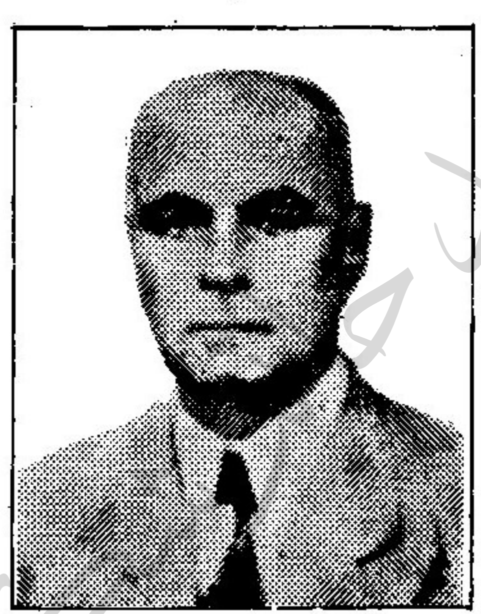
اذا اردت اي شيء ارجو

والاولاد . من ٢٤ من الى

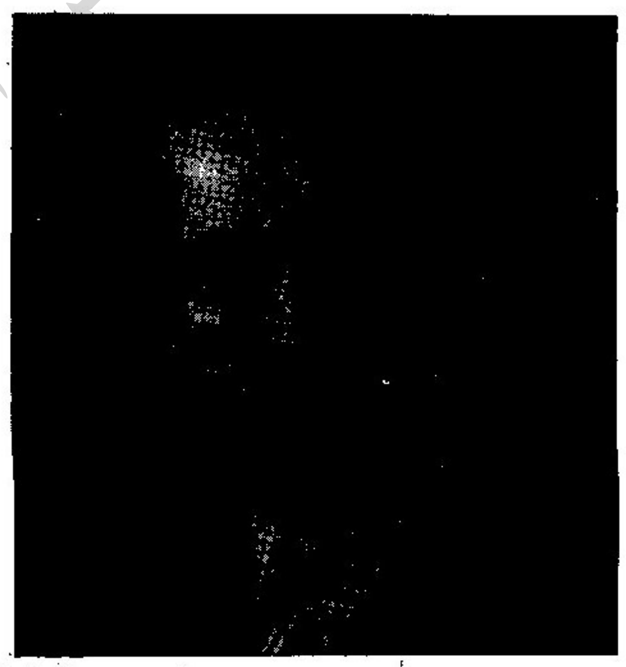
تلفونيا . حتى تصل كل بلغناك

مع تمنياتي لك بصحتك . ١٩٦٠/٢/٢١

غادرت لندن يوم ١٦ مايس على طائرة «جو ـ مائية» من نوع يورك ، هبطت في ميناء (فاليتا) عاصمة مالطا ، ثم نزلت في بحيرة الحبانية ، ومنها سافرت بالسيارة الى الصرافية فوصلتها في ١٧ مايس بعد الظهر وفي اليوم التالي أوصلت الرسائل التي زودني بها السفير الى أصحابها ، وفي اليوم الثالث قابلت زميلي وصديقي شاكر الوادي وزير الدفاع ، وفي اليوم الرابع قابلت جاري القديم في الدنگچية صالح جبر رئيس الوزراء ، وفي اليوم الخامس قابلت وكيل وزير الخارجية عبدالإله حافظ ، فأبلغني بقرار الوزارة القاضي بنقلي الى السفارة العراقية في واشنطن لأتبادل المنصب (بَجايش) مع زميلي



وفي اليوم التالي أوصلت الرسائل الى المرحوم سعيد حقي ناظر الخزينه الخاصه



وفي اليوم الثالث قابلت صديقي وزميلي شاكر الوادي وزير الدفاع



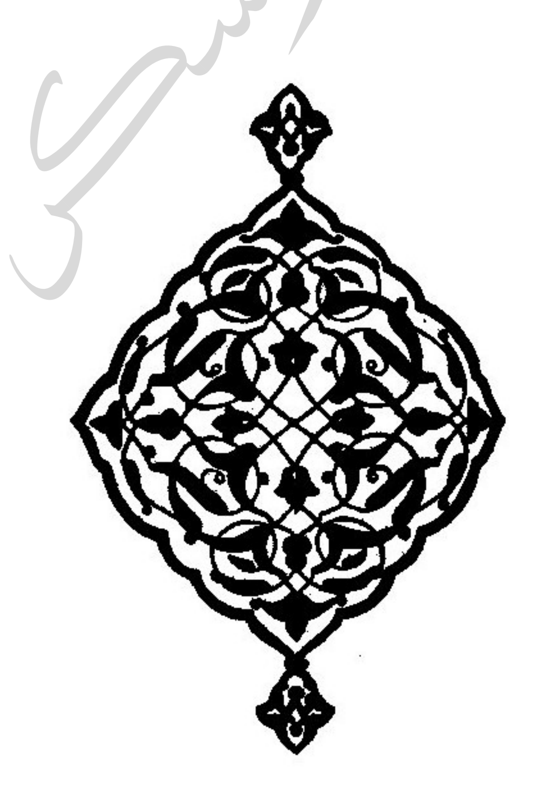
وفي اليوم الرابع قابلت جاري القديم في محلة الدنگچيّة، رئيس الوزراء صالح جبر، الذي كلم وكيل وزير الخارجية عبدالإله حافظ بالتلفون السري لنقلي الى واشنطن. ولما بينت له بأني أخشى ان يلغي الدكتور فاضل الجمالي أمر النقل بعد عودته من الخارج، أجابني بحزم: «أشحدة».



وفي اليوم الخامس قابلت وكيل وزير الخارجية عبدالإله حافظ، فبلّغني بقرار الوزارة القاضي بنقلي الى واشنطن.

وصديقي وعشير صباي عبدالمنعم الگيلاني ، وقد ذكر لي المرحوم عبدالإله بأن الوزارة قد وجدت أن عبدالمنعم قد بقي في واشنطن خمس سنوات وأنه (يمكن كِنْ ضاج منها) . وفي اليوم السادس (زركت) للدنگچية لأتعبّب من ذكرياتها . وفي ٣٠ مايس ١٩٤٧ قررت السفر الى لندن حاملاً أمر نقلي الى واشنطن ، فودعت والدتي التي كانت طريحة الفراش من مرض القلب الذي أصابها من جراء فراق أطفالي الذين تولعت بهم فأنتزعتهم من حضنها ، ولما عرضت عليها تأجيل سفري للبقاء الى جانبها ، قالت لي : «توكل على الله يا ابني وسافر ، راشدة ومهدّية بوجهك إنشاء الله ، خدمة بلادك أبْدَىٰ من خدمة أمك» .

وصلت لندن يوم الأحد الأول من حزيران وفي اليوم الثاني منه قابلت السفير الذي رحب بالاجراء الذي اتخذته الوزارة لتسوية قضيتي ، وكان عند السفير ساعة دخولي وزير الخارجية الأصيل الدكتور فاضل الجمالي عائداً من اجتماع هيئة الأمم المتحدة في نيويورك فأيّد بدوره ذلك الاجراء ، ولكن على مضض ، كما لاحظت من أسلوب تبريره للاجراء الذي اتخذه وكيله أثناء غيابه ، فلربّما كان (حافر لي غير گبر) !! ؟



وزارة الخارجيــــة

شعبة الأمور الذاتيــــة

الرقم د/١٠٢/ ١٦٦٦

التاريخ ٢٩ مايس ١٩٤٧

امــــر وزاري

بناءً على ماتقتضيه المصلحة ينقل السيد أمين المميز السكرتيـــر الثاني في السفارة العراقية في لندن براتبـــ/ ٤٠ دينارا شهريا والسيـــد عبد المنعم الكيلاني السكرتير الثاني في السفارة العراقيه في واشنطن براتب ـــ/ ٤٠ دينارا شهريا كل منهما محل الآخر .

و . وزير الخارجيــــة

صورة منه الى :ــ

السفارة العراقيـــة في ـــ لندن ؛ راجين اعلامنا بتاريخي انفكاكهمـــا
السفارة العراقيــة ـــ واشنطن ومباشرتهمــــــا

مديرية المحاسبات العامة

مديرية الخزينة المركزيــة

مديرية التدريســـات

مديرية حسابات الوزارة

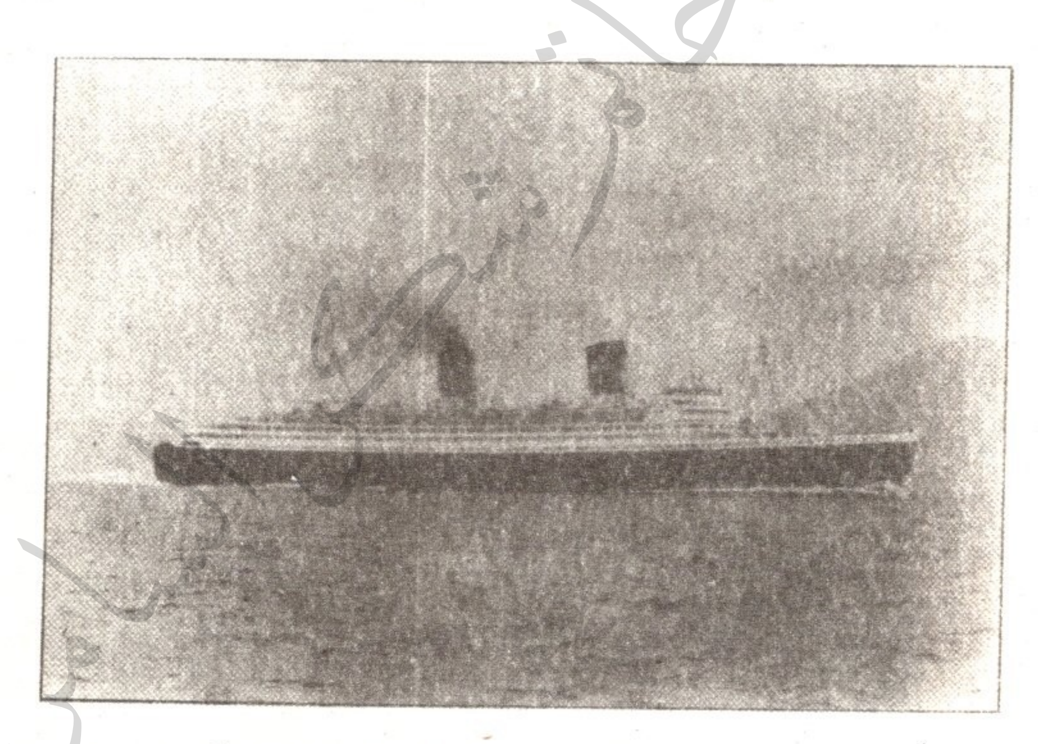
السيد أمين المميـــز

السيد عبد المنعم الكيلاني

م/م/٢٩

أبحرتُ يوم ١١ تموز ١٩٤٧ من ميناء ساوثمتون على الباخرة (الملكة اليزابيث)(*) الى نيويورك فوصلتها يوم ١٥ منه وبقيت فيها أسبوعاً واحداً برعاية صديقي وزميلي عوني الخالدي. وفي ٢٢ منه باشرت عملي في السفارة العراقية بواشنطن، بمعيّة السيد علي جودة الذي سبق أن عملت بمعيّته في مفوضية لندن قبل عشر سنوات. وكانت هيئة السفارة مكونة يومئذ من السفير وخالد الچورپه‌چي وعبدالحميد الخنّاق ويسن العمر ومحمد إبراهيم أدهم والكاتبة المحلية المس لويس، فعملنا معاً بكل انسجام ومودّة.

* * *



سافرنا الى نيويورك على الباخرة المترفة (كوين اليزابيث) واستغرقت الرحلة أربعة أيام، وعدنا منها (سرگن) على باخرة الشحن (اكسگالبير) واستغرقت الرحلة الى بيروت واحداً وعشرين يوماً، قضينا منها عدة أيام طريحي الفراش نعاني من (دوار البحر) قرب جزر الخالدات.

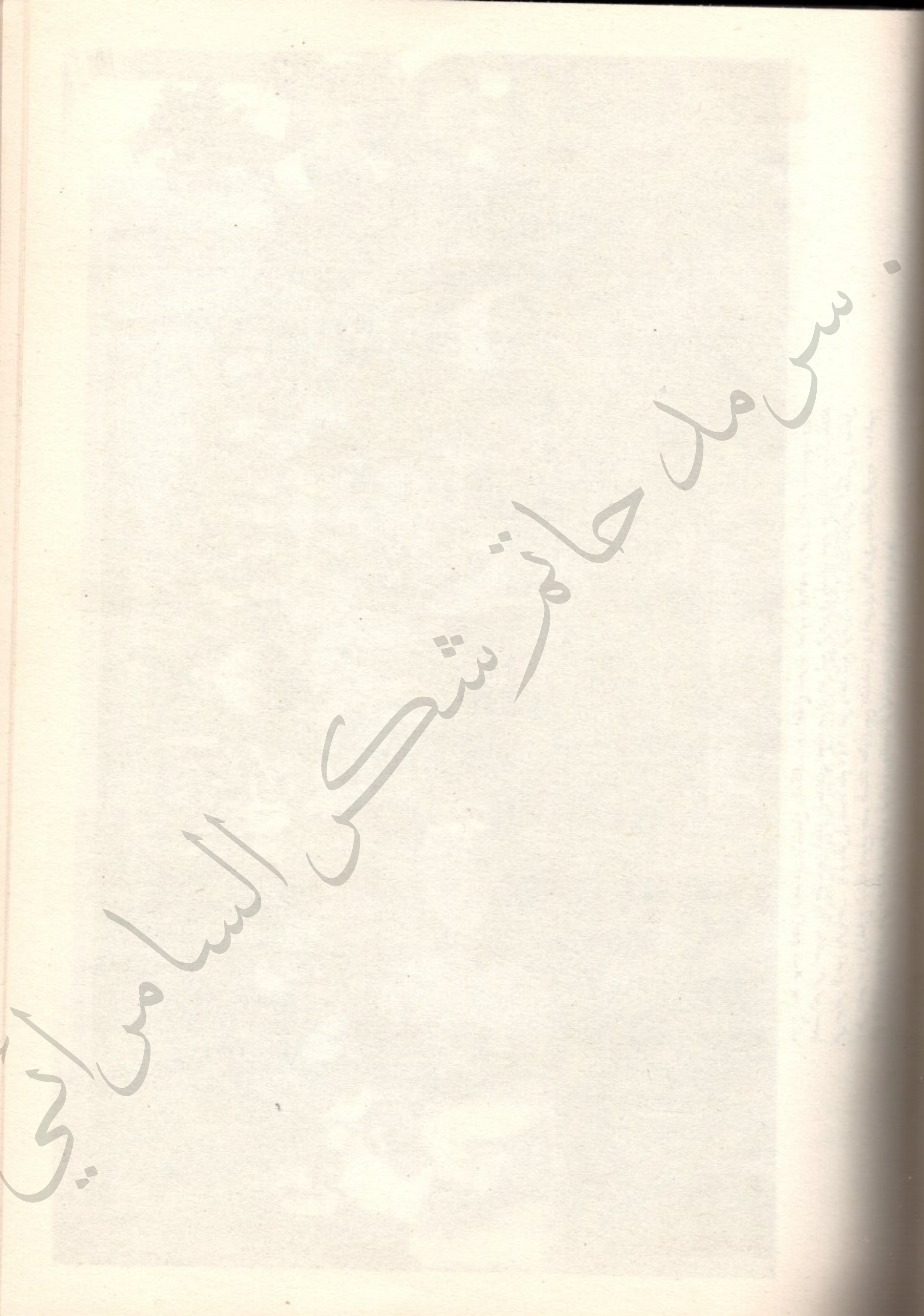
(*) احترقت في هونگ كونگ عام ١٩٦٨، وهي غير الباخرة (الملكة اليزابيث الثانية) الحالية. وقد وصفت هذه السفرة في كتابي (أمريكا كما رأيتها).



هيئة السفارة العراقية في واشنطن، بمناسبة سفر السفير علي جودة الى العراق



«فرح النبط عوّام» الطفل البغدادي باليشماغ والعگال، بين أطفال شعوب العالم، تحيطهم الزهور وأعلام بلدانهم، وبينها العلم العراقي الحبيب. ولما طُلب من الطفل البغدادي اعطاء عنوان محل لبيع الزهور في بغداد، عجز عن ذلك، مع أن بغداد هي موطن الزهور والرياحين. إذ لم يكن في بغداد عام ١٩٤٧ محل واحد لبيع الزهور، سوى ذلك الكرادي الجالس في مدخل اوتيل سميراميس في شارع الرشيد (موقع جسر السنك حالياً) يبيع (شدّات) ورد الجوري والأشرفي وسلطان الورود. أما اليوم فان محلات بيع الزهور على اختلاف أنواعها و ألوانها و روائحها ألزكية منتشرة في طول بغداد و عرضها





الطفل البغدادي بين أطفال بعض شعوب العالم بمناسبة عيد الميلاد سنة ١٩٤٧ . يحيطون بـ (سانتاكلوز) ، ويسمى في انكلترة (فاذر كريسمس) ويسمى عندنا في العراق (بابا نوئيل)، وقد لفت العگال واليشماغ أنظار هيئة التحكيم، فنسبت تصويره ضمن ستة من أطفال شعوب العالم.



أول طائرة هيليكوبتر تطأ أرض العراق : كانت مديرية الزراعة العامة قد أوصت على طائرة هيليكوبتر من شركة (بل) لانتاج الطائرات، لغرض مكافحة الجراد الذي استشرى في العراق عهدذاك. فسافرتُ الى مدينة (بافالو) بأعالي ولاية نيويورك لاجراء معاملة تسلّمها من الشركة وشحنها الى العراق على وجه السرعة. فامتطيت الطائرة، مع ما في ذلك من مخاطرة ومغامرة بالنسبة لي، فأقلعت (المتوفة) من مدرج المطار، وحامت حوله عدة حومات، ثم حلقت لأعلى ارتفاع ممكن، ثم حطّت فوق سطح البناية الرئيسية بسلام. فترجلت منها والتقطت أنفاسي وحمدت الباري على سلامتي، ثم رددت قول أحمد شوقي :

أركب الليث ولا أركبها وأري ليث الشرى أوفى ذماما

فلم أعاود ركوب الهيليكوبتر منذ ذلك اليوم، كما لم تسنح لي الفرصة ـ مع الأسف ـ لتجربة ركوب (السمتيّة) التي كنت أكرهها أيضاً ولكني صرت أحبها لما أبلت من بلاء حسن في الحرب الايرانية العراقية، إذ دوّخت سماء إيران وأرضها لأقارن بين الاثنتين!!



The President and Mrs. Truman
request the pleasure of the company of
Mr. and Mme. Mumayiz
at a reception to be held at
The White House
Tuesday evening, December the second
nineteen hundred and forty-seven
at nine o'clock

بطاقة الدعوة التي وجهها المستر ترومان وعقيلته لحضور الاستقبال في البيت الأبيض في ٢ كانون الأول سنة ١٩٤٧، والتي قاطعتها السفارات العربية في واشنطن بالنظر لموقف المستر ترومان من مشروع تقسيم فلسطين. وقد اعتبرت الأوساط الأمريكية مقاطعة السفارات العربية لتلك الحفلة اهانة لرئيس الولايات المتحدة وبالتالي اهانة للشعب الأمريكي كله. فأثيرت حولها ضجة كبرى في كافة أرجاء الولايات المتحدة بتحريض من الأوساط الصهيونية.

ولقد احتك متطفلاً أحد الأمريكيين البسطاء في أوتيل (ورد مان بارك) بواشنطن، وأقبل عليّ متسائلاً وغاضباً:

- «أنتم العرب هل تقصدون تحقير الشعب الأمريكي بمقاطعتكم دعوة رئيس الولايات المتحدة في البيت الأبيض؟»

إن فترة السنتين اللتين قضيتها في واشنطن قد تضمنها كتابي (أمريكا كما رأيتها) ولا يطاوعني قلمي اعادة ما سبق أن كتبته، إذ إني أمقت الاعادة والتكرار، سواء في الكتابة أو الخطابة أو الكلام، غير اني أود أن أوضح أمرين استجدا بعد نشر ذلك الكتاب وأرى من حق التأريخ عليّ أن أقوم بذلك.

الأمر الأول: في سنة ١٩٦٧ أصدر علي جودة كتابه الموسوم (ذكريات علي جودة ١٩٠٠ - ١٩٥٨) وجاء على الصفحة (٢٧٢) منه ما يلي:

«قبل أن تقع الحرب في فلسطين كنت أصبت بنوبة قلبية اضطررت معها الى

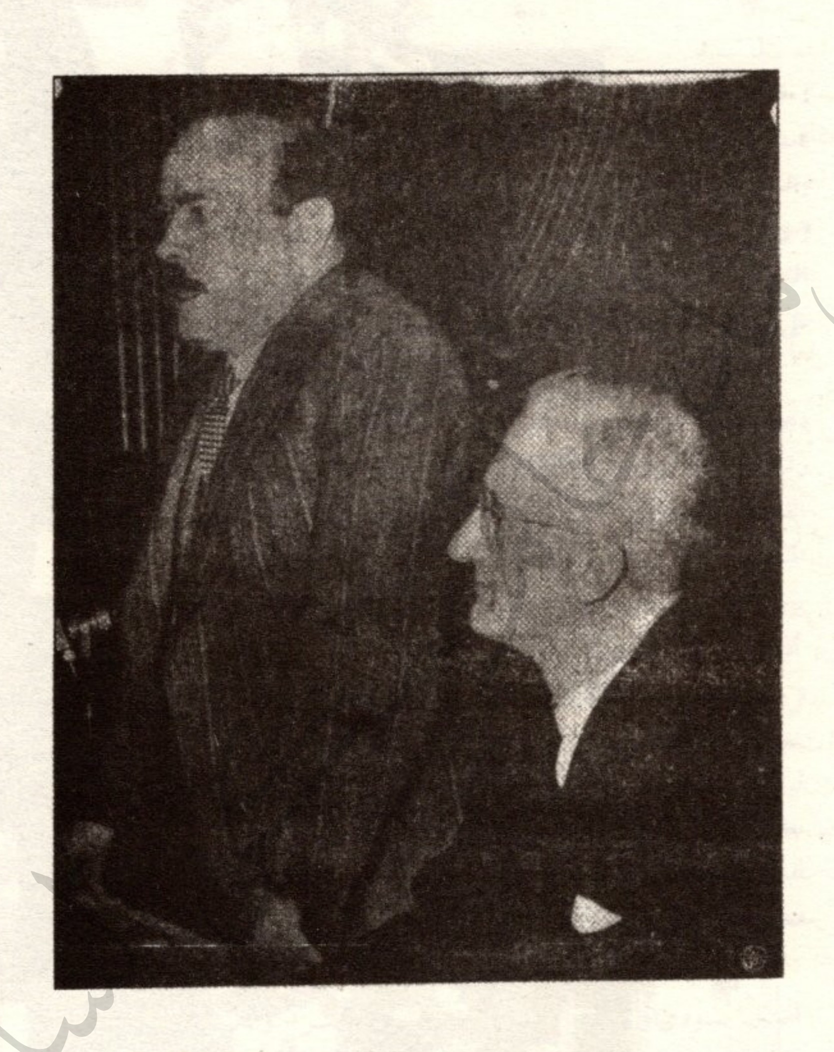
أن أبقىٰ في المستشفىٰ ثم في المصح خارج واشنطن للاستجمام(**). وحين عودتي اتصلت برجل أمريكي يعمل في وزارة الخارجية، وكان معي السكرتير الأول في المفوضية العراقية السيد أمين المميز. وكنت أشعر بأن هذا الرجل (الأمريكي) يحمل شعوراً طيباً نحو فلسطين، ولهذا كانت الجرائد الصهيونية تهاجمه وتنعته بالخائن، وتطلب تنحيته عن عمله بوزارة الخارجية، وأكد لي أن حكومته سوف تتدخل بصورة جدية إذا رأت الجيوش العربية تتدخل، وأن وضعها الداخلي (أمريكا) يضطرها الى أن لا تبقىٰ مكتوفة الأيدي».

لم يذكر علي جودة اسم ذلك الشخص الأمريكي ولا أوفىٰ بكل ما جرىٰ من حديث قمت بترجمته بينهما. والحقيقة أني أجهل سبب عزوف علي جودة عن ذكر اسم ذلك الأمريكي ولعل السبب في ذلك الضجة التي دارت حوله في محكمة المهداوي عام ١٩٥٨ فجعلت من اسمه (حاريم، كما يقول يهود بغداد) أي (Taboo). فالرجل المقصود هو المستر لوي هندرسون أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الأميركية والذي سبق أن عمل وزيراً مفوضاً لبلاده في بغداد. وكما ذكر علي جودة، فأن الموميٰ اليه كان من الذين يعطفون شخصياً على العرب وعلى القضية الفلسطينية. لقد تم ذلك الاجتماع في مسكن السفير في (Woodland Drive) بواشنطن، بعد مدة من صدور قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧، وبعد عودة السفير من منتجعه في أريزونا، حيث كان يقضي دور النقاهة من النوبة القلبية التي أصابته. ولما كان المستر هندرسون موظفاً فعليه أن يدافع عن سياسة حكومته بغض النظر عن آرائه الشخصية. فبيّن أن حكومته لن تقف مكتوفة اليدين إذا تدخلت الجيوش العربية في فلسطين. وكان علي جودة صريحاً ومنفعلاً جداً أثناء الحديث ولعل لحالته الصحية أثراً في ذلك. فترجمت للضيف الأميركي قول السفير «أنكم تقترفون خطأ فادحاً في سياستكم هذه، وعليكم أن تدركوا أن تصويت الاتحاد السوفياتي الى جانبكم أثناء الاقتراع على مشروع التقسيم وخلق دولة يهودية في فلسطين، لم يكن حباً بزرقة عيونكم ولا حباً بسواد عيون اليهود، وإنما هي مصيدة نصبها لكم الاتحاد السوفياتي وأوقعكم فيها، وهو يهدف من وراء تلك المصيدة بسط نفوذه في الشرق الأوسط مستغلاً الصراع الذي سينشأ بين العرب واليهود من جراء خلق دولة يهودية في فلسطين، وأنكم ستطوّحون في مصالحكم ومركزكم في الشرق الأوسط إن عاجلاً أو آجلاً». لم يحاول المستر هندرسون الاجابة على ملاحظة السفير هذه، إما لاعتقاده بصحتها أو لما لاحظه من شدة انفعال مضّيفه المريض(***).

الأمر الثاني: ولأيضاح الأمر الثاني أنشر فيما يلي الصفحات من ص ١٦٧ حتى ص ١٨٠ من كتابي «أمريكا كما رأيتها» لأصل بعد ذلك الى الايضاح المقصود.

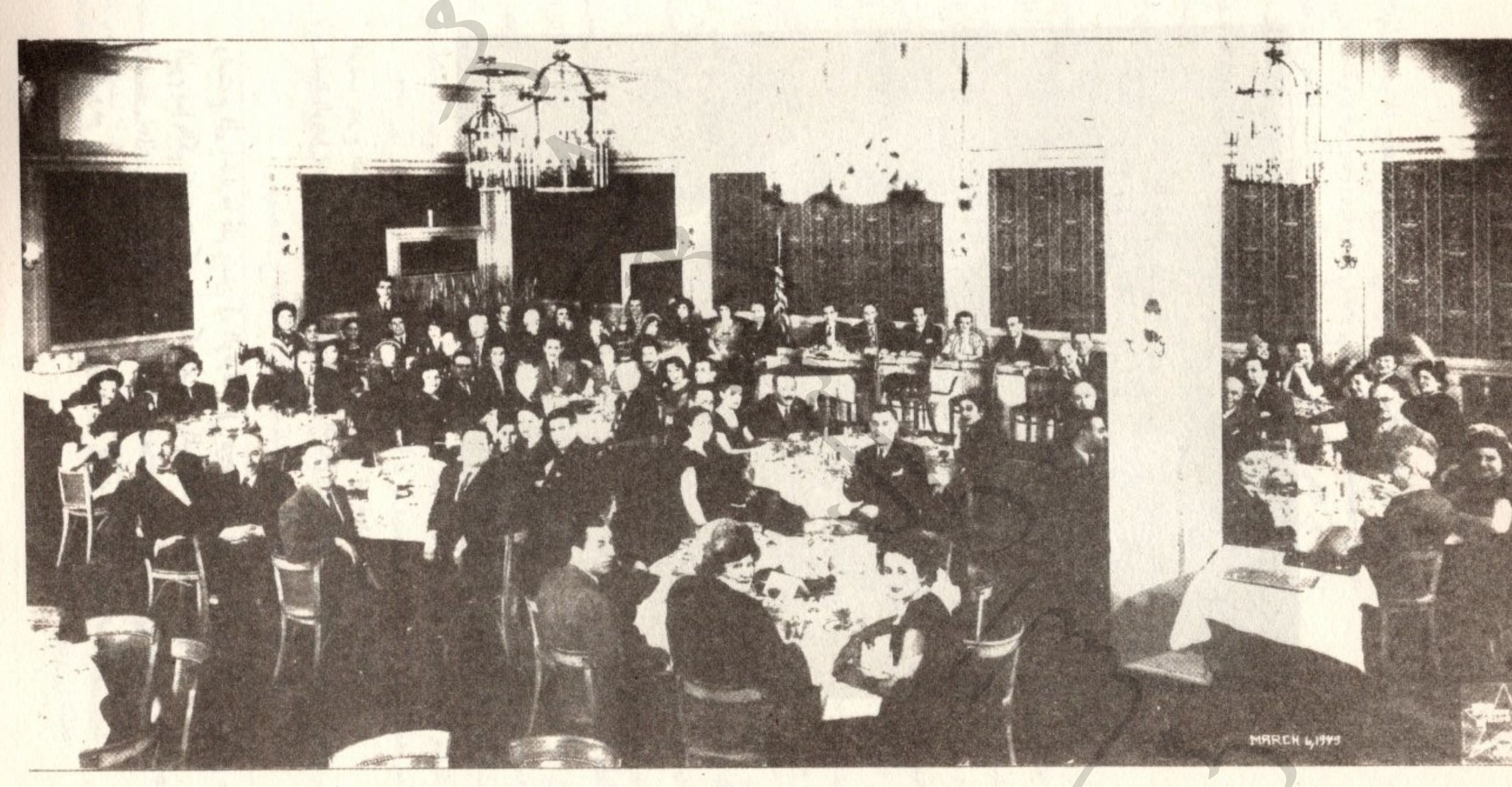
(**) المصح والاستجمام كان بولاية أريزونا الأمريكية.

(***) كان من رأي علي جودة أن لا تتدخل الجيوش العربية النظامية في فلسطين بل ترابط على حدودها بحجة المحافظة على أمن الدول العربية المجاورة لفلسطين، وتغذي حرب العصابات في داخلها. إذ لا سلطة للأمم المتحدة على العصابات ولكن لمجلس الأمن السلطة على الدول الأعضاء فيها، كما حصل في ارغامهم على قبول الهدنتين اللتين عقدتا في رودس سنة ١٩٤٩.



المؤلف يشرح القضية الفلسطينية من وجهة النظر العربية في مجلس العلاقات الدولية بمدينة (لويفيل) عاصمة ولاية كنتاكي والى جنبه مطران وقع عليه الاختيار لشرح وجهة النظر الصهيونية .

واستمع الى اخبارها فلم يتسن لي الوقوف على وجهة نظركم انتم العرب الا اليوم فما بالكم غافلين تاركين خصمكم ينفرد في الميدان»؟ ثم رجاني احد مراسلي الصحف المحلية ان اعطيه خطابي لنشره في صحيفته . فجاءني في اليوم التالي وهو يرتعد غيظا واسفا فقال : « بعد ان كادت الجريدة تصدر للنشر



المحتفى به قنصل العراق في صدر الطاولة الوسطى

وخطابك منشور فيها بنصه الكامل . استدعاني رئيس التحرير وانبني على ما قمت به وامرني اما بحذف الخطاب بكامله واما بنشر الخطابين جنبا الى جنب » .
والسبب ؟ ؟ ان احدى صاحبات الاسهم في الشركة التي تصدر هذه الجريدة (وهي سيدة ثرية) لها علاقات وصلات قوية بالصهيونيين ولذلك فلا يمكن التصرف في شؤون الجريدة بما يغيظها .. فكانت النتيجة ان نشر الخطابان على شكل (مناظرة) في سؤال وجواب وبايجاز .

سافرت الى مدينة (كولومبيا) عاصمة ولاية كارولينا الجنوبية بناءاً على دعوة رسمية تلقتها السفارة العراقية في واشنطن من البروفسور (كارلايل) رئيس جامعة كولومبيا الجنوبية لعرض وجهة النظر العربية في القضية الفلسطينية . فالقيت خطابا في ١٤ آذار سنة ١٩٤٨ امام حفل عظيم من المستمعين ، فندت فيه مدعيات اليهود ودحضت مشروع التقسيم وكان ذلك يوم كان للعربي حرمة عند الاميركيين ويوم كان لما يقوله وقع خطير في أذهانهم نحو أنه إذا اقيمت دولة يهودية في (فلسطين) فأن الدول العربية (ستقلب عاليها سافلها) ؟ .. فرتبت ادارة الجامعة المذكورة مع احدى شركات الاذاعة ان يسجل خطابي وتعاد اذاعته على شبكة الاذاعة ليتسنى لمن لم يتسن له الحضور الاطلاع على وجهة النظر العربية . وفي اليوم التالي جاءني المشرفون على تنظيم ذلك الاجتماع معتذرين من ان تسجيل الخطاب قد فشل ولا يمكن اذاعته بعد حيث اتضح بأن مهندس الاذاعة كان (صهيونيا) فتعمد افساد التسجيل للقضاء على فكرة اذاعته مرة اخرى .

في الولايات المتحدة مئات الالوف من العرب المتأمركين معظمهم من اصل سوري او لبناني يتمتع اغلبهم بنعمة الثراء والملك وبوسعهم تقديم اثمن المساعدات المالية والادبية لاخوانهم في البلاد العربية الا انهم مع الاسف الشديد يضنون بتلك المساعدات مهما كانت طفيفة . اما السبب في ذلك فما أسرّني به احدهم من الذين يملكون الثروة والجاه قال : نحن قد اكتسبنا جنسيتنا الاميركية بعد جهد كبير ونحن معتزون بها اذ لولاها لما كنا بهذه النعمة والثراء . ولنا علاقات مالية واقتصادية وغيرها بالصهيونيين ونخشى ان نظهر أية بادرة تستوجب استفزازهم وسخطهم علينا . فنضيع بذلك ثروتنا

وموارد رزقنا وقد تضيع ايضا جنسيتنا الاميركية ؟ ففى هذا القول نصيب من الصحة اذ بوسع الصهيونيين في اميركا افقار شخص ما بما يمتلكونه من وسائل وطرق جهنمية ، وبوسعهم اغناؤه، ولو ان الله هو المغنى .

وإن أنا مضيت معددا مثل هذه الشواهد والدلائل لما انتهى هذا الفصل (الى يوم يبعثون) وقد يجد القراء من تجاربهم الشخصية او من معلوماتهم شواهد اخرى على هذا الغرار تكون برهانا على ما ذهبت اليه في سياق هذا الفصل .

ان اغلبية الشعب الاميركي لم يتح لها بعد ، لاسباب تعرضنا لها فى مناسبات اخرى من هذا الكتاب ، ان تقف على الطرائق والاساليب الصهيونية لجعل الباطل حقاً والحق باطلاً . وقد لا يتسنى لها ان تسمع بها لأجل بعيد . وربما لن تسمع بها ابدا ، فأن سمعتْ بها فلا شك انها ستحكم بأن هذه الاساليب والطرائق اليهودية هى خارجة عن الذهنية الاميركية وهى فى الحقيقة (لا-اميركية) .

اوردت فى هذا الفصل نتفا متفرقة عن القضية الفلسطينية بعد ان احتضنتها الولايات المتحدة منذ ان القاها (ارنست بيفن) فى احضان هيئة الامم ليتخلص من مسؤولية هذه القضية الشائكة التى سمعته مرة يقول فى مجلس العموم البريطانى بأنه مستعد للمجازفة بمستقبله السياسى فى سبيلها فتبين بعدئذ بأنه قد سلمها الى أيدٍ امينة ؟ . ومن المشكوك فيه ان المستر بيفن قد تآمر وتواطأ مع اميركا بهذه الخطوة فهناك بعض الدلائل بأن الرجل لم يكن ليتصور بأن هيئة الامم المتحدة ستتمكن من ان تفعل اكثر مما فعلته بريطانيا العظمى وعصبة الامم طوال ربع قرن تقريبا . ولكن يظهر ان الرجل اخطأ الحساب وقلل من شأن (بنى اسرائيل) . فكان ما كان .

ما نحن وهذا الدرب الشائك الطويل . ولكنى وددت ان اثبت فى كتاب اكتبه عن الولايات المتحدة يشمل حقبة من الزمن تطورت فى خلالها القضية الفلسطينية ، تطورا تاريخيا - صفحة قد يرغب بعض الباحثين والمعنيين بتاريخ القضية المذكورة فى الاطلاع عليها .



فخامة السيد توفيق السويدى رئيس الوفد العراقى يتحدث الى معالى احمد محمد خشبه باشا رئيس الوفد المصرى، ومعاليه من الداعين لعقد معاهدة صلح بين مصر واسرائيل؟

هذه الصفحة كتبت فى خلال المدة الواقعة بين تدخل الدول العربية العسكرى فى فلسطين فى ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ وبين عقد الهدنة الاولى فى ١١ حزيران ١٩٤٨ ٠ هى صفحة توحى بأن من عاش فى محيط الشرق الأوسط يومئذ هو غير من عاش فى المحيط الاوروبى او الاميركى ، فالاول كان كمن عاش فى القمر ٠ اختلطت عليه سبله ، وضاعت منه مقاييسه واريد به ان يرى الحوادث والامور والوقائع بمنظار معكوس الاتجاه متباين (الابعاد) متناقض الالوان ٠ والاخر كان يرى تلك الامور والوقائع بمنظار طبيعى قد تكون ألوانه باهتة ولكنها ليست متناقضة ٠ بهذا المنظار الاخير رأى « احد العرب » الذين وجدوا فى الولايات المتحدة فى تلك الظروف حقيقة الحال فى فلسطين وفى الشرق العربى ٠ وتوقع النتائج التى يراها العالم العربى اليوم ، فأوحى اليه ضميره واجتهاده ان يستبق هذه

١٧١

النتائج ويلفت انظار بنى قومه اليها • فوضع مقترحات خيل اليه ان فى اتباعها وتنفيـذها خيراً لامته وخلاصاً لبنى قومه الـذين يقاسون اليوم آلام الجوع والتشرد والاضمحلال • واليك تفاصيل ذلك : ـ

١ خزيران ١٩٤٨

مقترحات لحل القضية الفلسطينية •

١ ـ تكون فى فلسطين دولة تسمى (الولايات المتحدة الفلسطينية) تؤلف من الولايات التالية : ـ

(أ) ولاية (شرق الاردن) •

(ب) ولاية (فلسطين الاصلية) •

(ج) ولاية (اسرائيل) •

٢ ـ تكون الولايات المتحدة الفلسطينية اتحاد ديمقراطى دستورى •

٣ ـ يرأس الولايات المتحـدة الفلسطينية ملك تختـاره وتتفق عليه الجامعة العربية •

٤ ـ تكون القدس عاصمة للولايات المتحدة الفلسطينية •

٥ ـ تنضم الولايات المتحـدة الفلسطينية الى الجامعة العربيـة كدولة مستقلة ذات سيادة • ويلغى بعد هذا الملحق (١) من ميثاق الجامعـة العربية المتعلق بعلاقة فلسطين المؤقتة بالجامعة •

٦ ـ يساعد ملك الولايات المتحـدة الفلسطينيـة مجلس (قد يسمى المجلس الاعلى او الجمعية التشريعية او المؤتمر الوطنى • او مجلس الشورى او حتى (سانهادرين) فالتسمية ليست ذات بال) يتألف مثلا• من ستين عضوا يمثلون على التسـاوى الولايات الثلاث ، ويجرى انتخـابه وفق الطـرق الديمقراطية (بمفهومها الغربى) وينتخب المجلس التأسيسى الاول بأشراف الوسيط الدولى ولجنة الهدنة الدولية والجامعة العربية وتقتصر مهمته على وضع الدستور للدولة الجديدة •

٧ ـ تتألف كل ولاية من الولايات الثلاث على الشكل التالى : ـ

(أ) يرأس كل ولاية (نائب ملك) او (رئيس الوزراء) او (الحاكم العام) او (الوالى) وهو الممثل لملك الولايات المتحدة الفلسطينية فى الولاية .

(ب) يساعد ممثل الملك (هيئة وزارة) او (مجلس الولاية) .

(ج) يجرى انتخاب هذا المجلس حسب القواعد التى يتفق عليها فى الدستور .

(د) يكون رئيس الولاية مسؤولا مباشرة تجاه الملك . ويجب ابرام جميع القوانين التى تقررها مجالس الولايات الثلاثة من قبل الهيئة التشريعية العامة للدولة باكثرية اعتيادية . وللملك الحق فى قبول هذه التراريس او رفضها .

(هـ) تتمتع كل ولاية من الولايات الثلاث بالاستقلال الذاتى التام فى الشؤون المحلية للولاية كالتربية والصحة والمحاكم المحلية والامن والضرائب المحلية والخدمات الاجتماعية والطرق وما شاكل ذلك .

٨ ـ تكون اللغة الرسمية فى ولاية اسرائيل هى اللغة العبرية والدين الرسمى هى الديانة الموسوية . واما اللغة الرسمية للولايتين الاخريين وكذلك للحكومة المركزية فهو الاسلام واللغة الرسمية هى العربية .

٩ ـ يكون الملك والمجلس التشريعى المركزى المسؤولين عن ادارة الشؤون التالية : ـ

(أ) الشؤون الخارجية .

(ب) الدفاع الوطنى .

(ج) الشؤون المالية والاقتصادية .

(د) المواصلات .

(هـ) الهجرة والاقامة والجنسية .

(و) الكمارك والمكوس .

(ز) المحاكم المركزية (بما فيها المحكمة العليا التى يجب ان تتمتع باستقلال تام بشؤونها) .

١٠ ـ يعالج كل شأن من الشؤون المبينة اعلاه لجنة من المجلس

التشريعي المركزي ، وتكون صلاحية رئيس كل لجنة من هذه اللجان مماثلة لصلاحيات الوزراء في الدول الاخرى • وبهذا فيكون لممثلي الولايات الثلاث سلطة فعلية مباشرة في ادارة شؤون الحكومة المركزية •

١١ - يلاحظ من هذا المشروع انه يتحتم على دولة شرق الاردن ان تضحي وتسلم سيادتها الحاضرة المعترف بها الى الحكومة المركزية • وفي عين الوقت يجب ان لا تشعر اسرائيل بحيف اذا ما اقتفت اثر الاردن اذ ان ما اعترف بها حتى الان من الدول هم ست دول من مجموع ٥٨ دولة من الدول الاعضاء في هيئة الامم وكان اعتراف البعض منها متوقفا على شروط معينة ومن هذه الناحية فان الولاية الثالثة وهي فلسطين الاصلية لا تربح ولا تخسر شيئا من حيث السيادة •

١٢ - يتمتع جميع رعايا الولايات المتحدة الفلسطينية بالحقوق السياسية والاجتماعية على قدم المساواة • وتكون جنسيتهم هي الجنسية (الفلسطينية) كما هي الحال في جنسية الاميركي من اهالي ولاية كاليفورنيا وهي الجنسية الاميركية وجنسية الايرلندي من اهالي (ارلندة الشمالية) البريطانية • واذا ما تجنس اليهود بهذه الجنسية الفلسطينية فان ذلك لا يمس بغرورهم الوطني او كبريائهم القومي لانهم في هذه الحالة لن يرغموا على قبول (الجنسية العربية) التي يدعون بأنهم لا شأن لهم بها •

تكون لجميع الرعايا حقوق المواطن على قدم المساواة • ويحمل الكل جوازات سفر (فلسطينية) • وعلى مر الايام فأن جميع هؤلاء المواطنين عربا ويهودا سينصهرون في بوتقة واحدة اذا ما تنازل اليهود عن فكرة انشاء الدولة اليهودية المستقلة •

١٣ - يحق للمواطن الفلسطيني من سكان ولاية (اسرائيل) ان يمارس التجارة بصورة حرة في اية ولاية من ولايات الاتحاد الثلاث كما يحق للمواطنين في الولايتين الاخريين العمل والتجارة في ولاية اسرائيل ويستثنى من ذلك حق امتلاك الاموال غير المنقولة من قبل مواطن ولاية في ولاية اخرى والغرض من هذا الشرط ابقاء الحالة الراهنة لوضع الاراضي في جميع البلاد على حاله الحاضر •

١٤ ـ يتمتع جميع المواطنين بحرية العبادة والدخول الى الاماكن المقدسة بصورة حرة • وان وظائف الدولة مفتوحة لجميع المواطنين بغض النظر عن قوميتهم او ديانتهم • فأن قائد الجيش او الخبير الاقتصادى او الممثل الدبلوماسى او الحاكم يمكن ان يكون يهوديا من اسرائيل او مسيحيا من فلسطين الاصلية او مسلما من الاردن •

١٥ ـ كل مواطن سكن فلسطين حتى اليوم الخامس عشر من ايار سنة ١٩٤٨ يعتبر من رعايا (الولايات المتحدة الفلسطينية) ويستثنى من ذلك اولئك الذين دخلوا فلسطين بعد ايار سنة ١٩٣٩ والذين يصدر بحقهم حكم من المحكمة العليا من انهم قاموا باعمال (لا فلسطينية) ضارة بالامن العام• هؤلاء الاشخاص يفقدون جنسيتهم الفلسطينية • ويجب ابعادهم الى الاقطار التى ينتمون اليها قبلا (الغرض من ذلك ابعاد العناصر الهدامة وافراد عصابات شتيرن واركون وغيرهما) •

١٦ ـ تكون الحدود بين الولايات الثلاث حدوداً ادارية صرفة وان التحديد النهائى لحدود كل ولاية يجب ان يتم فى تاريخ قادم • على ان الحدود التقريبية للولايات الثلاث يجب ان تكون كما يلى : ـ

تبقى حدود شرق الاردن كما هى عليه الآن • اما حدود ولاية اسرائيل فتكون بصورة تقريبية الحدود المعينة فى المشروع الاتحادى والتى وضعتها لجنة هيئة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين باستثناء واحد هو ان منطقة النقب التى منحت لليهود بمقتضى مشروع التقسيم والتى جعلت منطقة مستقلة قائمة بذاتها بمقتضى مشروع (موريسون ـ كريدى) يجب ان تلحق بولاية فلسطين الاصلية • اما ولاية اسرائيل فأنها تشمل المناطق الواقعة الى الشمال من يافا والى الجنوب من حيفا • اما الحدود الشرقية فتعين وفقاً لاكثرية السكان فى كل منطقة منها • اما حيفا فتكون ميناءاً دوليا تحت ادارة الحكومة المركزية •

١٧ ـ وهكذا مهما كانت مساحة ولاية اسرائيل فأنها ستحقق احلام اليهود من تأسيس (وطن قومى لهم فى فلسطين يكون لهم فيه شأن وفخر)

وانى كعربى اشعر بأنه يمكن لليهود رعايا (الولايات المتحدة الفلسطينية) ان يثقوا ويعتمدوا على شهامة العرب ونبل مقصدهم سواء الفرد منهم والمجموع اذا ما اغمدت سيوف الطرفين المتحاربين فى قرابها وهيمن السلام فى فلسطين .

١٨ – يلاحظ من هذا المشروع بأنه يمس كثيرا من المشاريع التى وضعت لحل القضية الفلسطينية طيلة العشر سنوات الماضية : –

(أ) فبعض اوجهه تقارب مشروع الاتحاد الذى قدمته (الاقلية) من لجنة هيئة الامم المتحدة لقضية فلسطين . وقد اعرب المندوبون العرب فى فرص مختلفة عن رغبتهم للنظر فى هذا المشروع كأساس للبحث لايجاد حل نهائى للمشكلة الفلسطينية .

(ب) وفى بعض النواحى فأن هذه المقترحات تماثل المشروع الذى قدمه نورى پاشا السعيد احد رؤساء وزراء العراق السابقين الى المستر ريشارد كيسى الوزير المقيم فى الشرق الاوسط سنة ١٩٤٣ ...

(ج) ولمقترحاتى هذه بعض اوجه الشبه بمشروع (موريسون كريدى) الا ان الفرق الاساسى بينهما هو ان مقترحاتى لها صفة الاستقرار النهائى وان المشروع المذكور تعوزه تلك الصفة ولم يحظ بتأييد حتى من العناصر المعتدلة من العرب واليهود .

(د) هذه المقترحات لها بعض الشبه بمشروع الدكتور (ماكنس) رئيس الجامعة العبرية وحزبه المسمى (حزب أيهود) ذلك المسمى بمشروع (الدولتين الموحدتين) . ويمكن ان يوصف هذا المشروع بمشروع (الدول الموحدة الثلاث) والذى يحظى بموافقة معظم الاوساط اليهودية المعتدلة .

(ه) لهذه المقترحات شبه ايضا بمشروع كان قد قدمه المستر (جيمس ماكدونالد) وهو من البريطانيين الذين كانت لهم يد طولى فى تقرير وعد بلفور والاشراف على نظام الانتداب فى فلسطين ومن الخبراء القلائل فى الشؤون العربية – اليهودية. وقد نشر مشروع المستر ماكدونالد على

صفحات جريدة (نيويورك تايمس) بعددها الصادر في ١٨/١٢/١٩٤٧ .
اما الفرق الاساسي بين مقترحاتي هذه والمشروع المذكور فهو ان هذه المقترحات مقدمة في هذه الفرصة المواتية وفي ظروف تختلف كل الاختلاف عن الظروف التي قدمت فيها المشاريع الاخرى .

واشنطن .　　　　　　　　　　　　　　　　عربي

ارسل هذا (العربي) مقترحاته هذه الى جريدة التايمس اللندنية بتاريخ ١ حزيران ١٩٤٨ ثم ارسلت صورة منها الى رئيس الوفد العراقي لهيئة الامم المتحدة في الاجتماع الذي عقدته في صيف تلك السنة.
ومن ثم ارسلت الى الجهات التاليه بتواريخ مختلفة وبصورة شخصية : ـ



دولة السيد فارس الخوري رئيس الوفد السوري وبعض أعضاء الوفد العراقي (الجالسون السيد عوني الخالدي ممثل العراق في مجلس الوصايه والسيد بهاء عوني المشاور الحقوقي لوزارة الخارجية العراقية)

دولة رئيس الوفد السورى ـ نيويورك .

فخامة رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى الحكومة العراقية ـ بغداد .

سعادة الامين العام للجامعة العربية ـ القاهرة .

وزير الدفاع للحكومة الاردنية ـ عمان .

الكونت برنادوت ـ الوسيط الدولى ـ نيويورك .

مدير المكاتب العربية ـ لندن .

جريدة (نيويورك تايمس) ـ نيويورك .

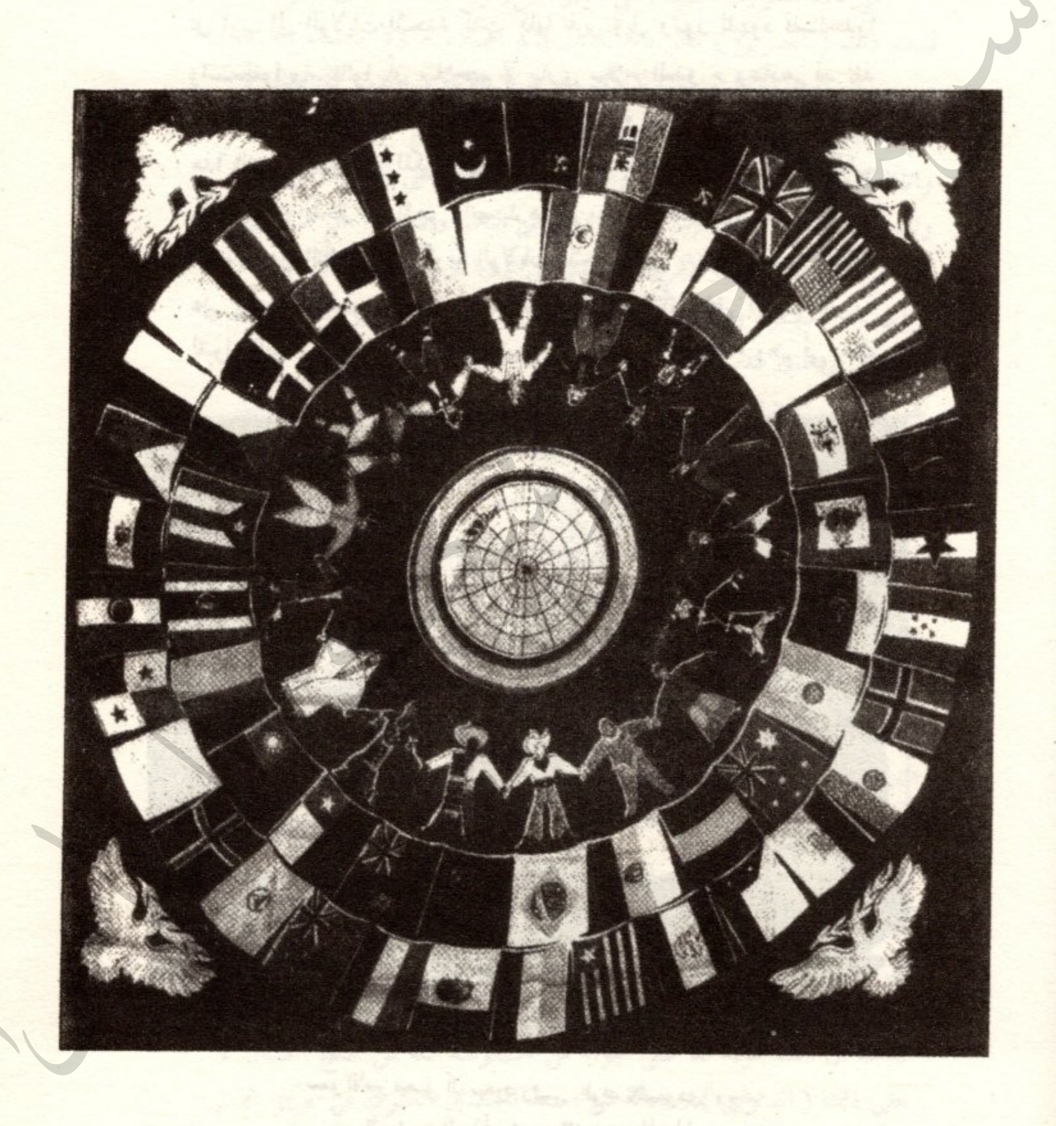
جريدة نيويورك (هرالد تربيون) ـ نيويورك .

جريدة كريستيان سانيس مونيتور ـ بوستن .

والى شخصيات عربية متعددة فى لندن وواشنطن ونيويورك ولبنان .

ليس فى هذه المقترحات شىء مبتكر او جديد بالنسبة الى الحلول المقترحة فى ظروف مختلفة لحل القضية الفلسطينية . انما الظرف الاخير الذى اختاره العرب لحل القضية عن طريق التدخل العسكرى المشترك هو الذى اقتضى ايجاد مخرج من ذلك المأزق . مخرج يتفق تماما مع الظرف القائم يومئذ .

دخلت الجيوش العربية حرب فلسطين ، والتاريخ سيسجل خطأ أو صواب تلك الخطوة ، تحدوها الغيرة الوطنية والشهامة القومية وعامل الدفاع عن النفس . فسارت الامور فى الايام القليلة الاولى من الحرب فى مصلحة العرب وكان بأمكانهم ان يتوصلوا الى غاياتهم فى الاسبوعين الاولين من الحرب . وما ان شعر اليهود بالخطر المحتم يحدق بهم حتى بدأ المكر والخداع والضلالات اليهودية تعمل عملها . فالذى وجد فى الولايات المتحدة وكان المجال مفسوحا له للاتصال بالاوساط المختلفة ومتابعة ما تنشره الصحف أو تذيعه محطات الاذاعة يتلمس حقيقة الوضع فى الشرق الاوسط فى الايام التى سبقت الهدنة الاولى من الحرب الفلسطينية . لا شك كثيرين غيري من الكتاب والمؤرخين و (اعضاء اللجان التحقيقية) قد بحثوا فى ظروف عقد هذه الهدنة ومبرراتها ولست انا هنا بصدد تفنيد أي ادعاء حول هذه الهدنة ولكنى اريد ان اسجل



للتاريخ بأن الوضع العسكرى العربى فى الخمسة عشر يوما الاولى من الحرب الفلسطينية كان فى مصلحة العرب وان ما وصل من الرسائل والتقارير من تل ابيب الى الولايات المتحدة كانت كلها نذير ويل وثبور لليهود فاستنجدوا واستعطفوا واستغاثوا بأن سلاحهم لا يبارى سلاح العدو . وعتادهم قد نفذ او كاد . وتموينهم لا يكفى لصمودهم الا يوما او بعض يوم . قد يكون فى هذا الشيء الكثير من المكر اليهودى والحرب خدعة مع غير اليهود فكيف باليهود ؟ . فأخذ زعماؤهم وانصارهم من الاميركيين فى بذل جهودهم المعهودة فى التأثير على حكومة الولايات المتحدة التى بدورها اخذت تضغط على بريطانيا فقامت الدولتان بتوسطات مشتركة للتأثير على الدول العربية لقبول الهدنة الاولى . وهكذا كان ، فتنفس اليهود الصعداء وهم فى حالة



سمو الأمير فيصل آل سعود رئيس الوفد السعودى وبجنبه
السيد جمال الحسينى ممثل عرب فلسطين

لم يكونوا يتوقعوها ولم يدر في خلدهم ان الدول العربية ستجتمع كلمتها ولو - ولو لمدة وجيزة - على الاقدام على تدخل مسلح لحل القضية الفلسطينية.

في هذه الظروف الضيقة على اليهود والمؤاتية لدرجة ما الى العرب، قدم ذلك (العربي) مقترحاته المدرجة اعلاه . ولا يشك احد في حسن نيته . ووطنيته وعملية تفكيره . اذ ان الايام قد ايدت كل ذلك . نعم قد يقول البعض انه كان بوسع الدول العربية رمي اليهود في البحر وانقاذ فلسطين منهم . هذه امنية وامل كل عربي يغار على الوطن العربي . ولكن هل يسمح العالم للعرب برمي اليهود في البحر وافنائهم ؟ فأن كنت ايها القارىء ممن سنحت لك الظروف واقمت في اوربا او زرت الولايات المتحدة لرأيت بأن اليهود والتأثير اليهودي والطرق اليهودية ليست مما تخولك الوصول الى مثل هذه النتيجة ؟ وعليك وانت تعالج هذا الموضوع ان تجعل نصب عينيك الاعتبارات التي من شأنها ان تجعل تفكيرك عمليا سليما . ليست هذه روح انهزامية كما يحلو للغلاة ان يصموا بها الساسة الواقعين او المفكرين العمليين وانما هي النظرة الواقعية لحقائق الامور .

لو قدر الله للعرب وألهمهم سداد الرأى واتفق ولاة أمرهم على انتهاز الفرصة ما بين تدخلهم العسكري في ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ وقبول الهدنة الاولى في ١١ حزيران من السنة نفسها ففكروا في ايجاد حل عملي حاسم للقضية الفلسطينيه لسجلوا لهم انصع الصفحات في تاريخهم القومي . ولكن الحزازات والمنازعات والمنافسات والاطماع هي التي اوصلت هذه القضية الى المرحلة المؤسفة التي هي عليها الآن واضاعت عليهم فرصة ثمينة قد لا يحظون بمثلها مدى الدهر .

انه لمما يؤيد استعداد اليهود ومن يناصرهم او يؤيدهم من الاوساط والدول لقبول فكرة انضمامهم في اتحاد عربي لهم فيه حكم ذاتي شكلي هو سرعة سريان هذه الفكرة فور اعلان الهدنة الاولى فالمعروف ان اقتراحا بهذا المعنى قد رفع من وفد احدى الحكومات العربية الى حكومته المتبوعة والمعروف كذلك ان ذلك الوفد قد تلقى جوابا من حكومته كله من نسج الخيال . تلقى ذلك (العربي) رسالة من احد الممثلين العرب في هيئة الامم



معالى الدكتور ناجى الاصيل رئيس الوفد العراقى فى أجتماع١٩٤٨ والى جنبه السيد عونى الخالدى

فى تلك الايام جاء فيها (كنت قد اطلعت على مشروعك لحل قضية فلسطين فالمشروع حسن ومعقول وحرى بالدرس والتمحيص على ان مشروع كهذا يمكن ان يكون على الاقل مبدأ بحث او أساس للمفاوضات .....) .

ونشرت جريدة (نيويورك تايمس) فى حينه مقالا بمناسبة قبول الهدنة الاولى قالت فى خاتمته :

فهناك امور يمكن التوفيق بينها وهناك احتمال لضم فلسطين بجزأيها فى اتحاد يشمل شرق الاردن . فاذا ما بذلت الدول الكبرى مساعيها للوصول الى تسوية على اساس التقسيم فسيرون انه لا يعوزهم النفوذ عند العرب وعند اليهود لايصال التوصيات الى نتيجة فعلية ...) .

وقالت جريدة (كريستيان ساينس مونيتور) فى هذه الاثناء ما نصه :

(تقترح الشعوب العربية تقديم مشروع اتحادى يكون اساسا لايجاد حل دائم للقضيــة الفلسطينية ٠٠ ويفكر العرب فى منح الحكم الذاتى الداخلى لجمهورية يهودية تقوم فى جزء من فلسطين ٠٠٠٠ ان معظم المراقبين واعضاء الوفود فى هيئة الامم المتحدة متفقون على ان هذا المشروع له حسنات كبيرة فاذا ما حصل تأييد محسوس من قبل الرأى العام لهـذه المقترحات فمن المشكوك فيه ان اليهود يجازفون فى اتخاذ موقف معارض لهذا المشروع ٠٠٠ ان اكثر اليهود تحمسا صاروا يعترفون الان بأنه لا يمكن استتباب السلام فى فلسطين ان لم يظهر اليهود رغبتهم للتوفيق والتسوية ٠٠٠) ٠

وقد نشرت الجريدة المذكورة بتاريخ ٢٦ حزيران ١٩٤٨ اى بعد مرور بضعة اسابيع على ارسـال نسخ المقترحات المذكورة الى الكونت برنادوت الوسيط الدولى : (يعد الوسيط الدولى مقترحات جديدة لايجاد حل سلمى دائم فى فلسطين ٠٠ وهى محاولة من عنده لحمل اليهود على قبـول حل يقبلون بموجبه وضعا هو دون السيادة التامة لاسرائيل وحمل العرب على قبـول وضع هو غير تأسيس دولة عربيـة يكون فيهـا العرب الاكثرية المطلقة ٠٠٠) ٠



الدكتور شارل مالك مندوب لبنان فى هيئة الامم المتحدة
ورئيس المجلس الاجتماعى الاقتصادى

ثم نشرت جريدة (نيويورك تايمس) رسالة من مراسلها فى القاهرة مؤرخة فى ١ تموز ١٩٤٨ جاء فيها : ــ

تتوقع جميع الأوساط العربية بأن اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية سترفض مقترحات الكونت برنادوت الوسيط الدولي لايجاد تسوية للقضية الفلسطينية على أساس ايجاد دولة موحدة على رأسها مجلس مركزي مؤلف من العرب واليهود مهمتـه توحيد السياسـة الخارجية والدفاع والشؤون الاقتصادية .

انتهى

ذلك العربي، واضع المشروع المدرج أعلاه، يكشف النقاب عن هويته لأول مرة وبعد خمس وثلاثين سنة من وضعه. انه، أنا، أمين المميز السكرتير الأول في السفارة العراقية بواشنطن عام ١٩٤٨(*). أكشف هذا السر الآن علناً ولأضع أمام المعنيين بالقضية الفلسطينية ما وضع من مشاريع منذ تقديم ذلك المشروع حتى الآن، ليقارنوا بينه وبين المشاريع والمبادرات والحلول التي قدمت من بعده، آخذين بنظر الاعتبار تباين الظروف والأحوال بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٨٣، والتي ألخصها بما يلي:

١ - قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة المرقم ١٨١ الصادر بتأريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ القاضي بتقسيم فلسطين الى دولتين مستقلتين، دولة عربية، ودولة يهودية، مع اتحاد اقتصاديّ بينهما، وتدويل مدينة القدس.

٢ - قرار مجلس الأمن المرقم ٢٤٢ الصادر سنة ١٩٦٧ القاضي بانسحاب اسرائيل من (أراضٍ) محتلة بعد حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ (كما يحلو لأسرائيل وأنصارها أن يفسروه) واعتبار القضية الفلسطينية قضية لاجئين، وليست قضية شعب يتمتع بحقوق سياسية وحق تقرير المصير.

٣ - مشروع روجرز، وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق لسنة ١٩٦٩ المستند معظمه الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢.

٤ - مشروع الملك فهد ذو النقاط السبع لشهر آب ١٩٨١ القاضي بالانسحاب التام من كافة الأراضي المحتلة بما فيها القدس، وإزالة المستوطنات، وحق العودة او التعويض، واقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، والحرية الدينية لكافة الديانات في الأماكن المقدسة، ووضع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت اشراف الامم المتحدة لبضعة أشهر فقط وأخيراً الاعتراف بحق جميع دول المنطقة بالعيش بسلام.

٥ - مشروع فاس ذو النقاط الثمانية لشهر أيلول ١٩٨٢ المتضمن انسحاب إسرائيل من كافة الاراضي المحتلة بما فيها القدس العربية وإزالة المستوطنات الاسرائيلية المشيدة في المناطق العربية بعد عام ١٩٦٧ وضمان حرية العبادة لكافة الأديان وتأييد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقه غير المنازع فيه تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي والوحيد والتعويض على من لا يرغب في العودة الى فلسطين ووضع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت اشراف الأمم المتحدة لفترة انتقالية لا تتجاوز بضعة أشهر وإقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس وضمان مجلس الامن الدولي سلامة كافة دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية، وأخيرا ضمان مجلس الأمن احترام المبادئ المذكورة أعلاه. ويلاحظ أن هذا المشروع لا يختلف عن مشروع (فهد) إلّا باقحام مجلس الأمن لضمان سلامة دول المنطقة.

٦ - مبادرة الرئيس الامريكي رونالد ريگان التي تضمنها خطابه المذاع على الشعب الامريكي في ١ أيلول ١٩٨٢ المتضمن المبادئ التالية:

(*) كتب إليّ عبدالرزاق الحسني مؤلف تاريخ الوزارات العراقية رسالة خاصة الى جدة عام ١٩٥٤ يسالني فيها من هو «العربي» الوارد ذكره في «أمريكا كما رأيتها»، وقد بحت له لأول مرة بانه «أمين المميز» ثم استأذنني في رسالته المؤرخة في ١/١١/١٩٥٤ لنشر المشروع في الجزء السابع من كتابه المذكور.

(١) - الالتزام التام باتفاقيات كامب ديفيد.

(٢) - الالتزام بحق اسرائيل بالوجود والعيش ضمن حدود آمنة معترف بها.

(٣) - الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.

(٤) - تحقيق الحكم الذاتي التام للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة وإدارة شؤونهم بأنفسهم خلال فترة انتقالية معينة.

(٥) - الالتزام بفترة الانتقال البالغة خمس سنوات الواردة في اتفاقية كامب ديفيد والتي تبدأ بعد اجراء انتخابات حرة يثبت الفلسطينيون أنهم أهل لأدارة شؤونهم بأنفسهم. ويجري خلالها تنظيم نقل السلطة من إسرائيل الى الفلسطينيين، على أن لا يتعارض ذلك مع مقتضيات الأمن الاسرائيلي.

(٦) - تجميد إنشاء المستوطنات حالاً وطيلة فترة الانتقال.

(٧) - عدم اقامة دولة فلسطينية مستقلة باعتبارها لا تحقق الأمن والسلام للمنطقة وعدم الموافقة على فرض السيادة الاسرائيلية على الضفة والقطاع.

(٨) - ان نوعاً من العلاقة أو الارتباط بين الضفة الغربية وقطاع غزة وبين الأردن هو أفضل وسيلة لتحقيق السلام العادل والدائم.

(٩) - الانسحاب من كافة الأراضي المحتلة(*) مع تعديل بسيط في الحدود وتبادل الأراضي بين إسرائيل وسكان الضفة والقطاع.

(١٠) - بقاء القدس موحدة، على أن يعين وضعها النهائي عن طريق المفاوضات.

(١١) - ان ضمان اسرائيل وأمنها هو التزام أمريكي لا يقبل الأخذ والرد.

٧ - تصور الملك حسين لشهر أيلول ١٩٨٢ حول شكل العلاقة بين الضفة الغربية وقطاع غزة، وبين الأردن، وهل هي على شكل اتحاد فدرالي أو كونفدرالي أو الاندماج التام، أو إبقاء ما كان على ما كان !!

٨ - مبادرة بريجنيف لشهر أيلول لسنة ١٩٨١ والتي لا تختلف كثيراً عن وجهة النظر العربية القاضية بأقامة دولة فلسطينية مستقلة تحت قيادة منظمة التحرير والاعتراف بحق تقرير المصير للفلسطينيين والانسحاب الاسرائيلي من كافة الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧. ودعوة كافة الدول المعنية بما فيها منظمة التحرير لعقد مؤتمر في جنيف باشتراك الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة.

٩ - المبادرة الفرنسية - المصرية لشهر تموز ١٩٨٢ المتمثلة بالمشروع المقدم الى مجلس الأمن والذي نام

(*) يلاحظ أن المبادرة الأمريكية هذه قد استعملت لأول مرة كلمة الاراضي المحتلة وليس (أراض محتلة) كما يفسر الاسرائيليون وأنصارهم قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧.

(**) كان الرئيس الحبيب بورقيبة يدعو الى قيام دولة فلسطينية يتعايش فيها العرب واليهود، وتردد يومئذٍ بأن ما دعا إليه الرئيس بورقيبة كان متفقاً عليه بينه وبين الرئيس جمال عبدالناصر. وفي السبعينات وأوائل الثمانينات دعا الرئيس بورقيبة لأحياء مشروع التقسيم لسنة ١٩٤٧ الذي يعتقد أنه أفضل حل للقضية الفلسطينية.

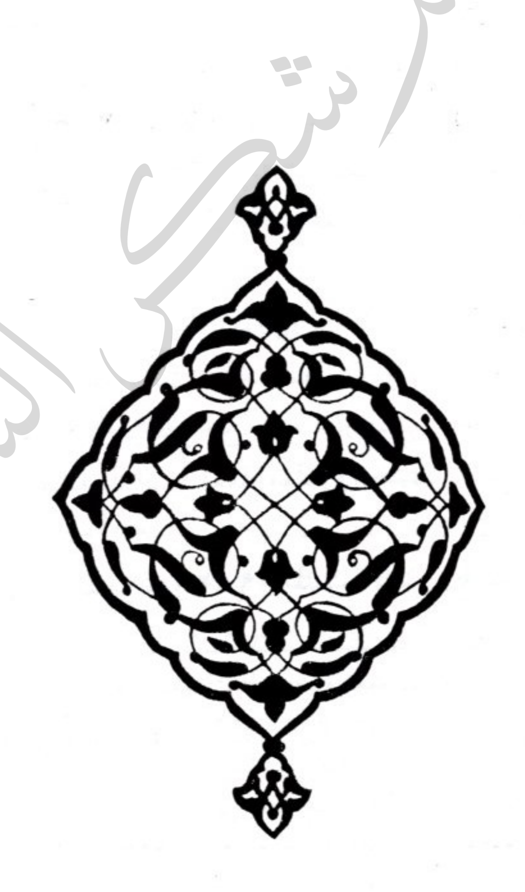
وعندما كان الرئيس بورقيبة يصرح بتلك الآراء خلال جولة قام بها لزيارة بعض الأقطار العربية سنة ١٩٥٧ قامت المظاهرات وأثيرت الأحتجاجات والأعتراضات على تلك التصريحات مما حمل الرئيس بورقيبة على الغاء زيارته لبعض الأقطار. ومن جملة الزيارات التي ألغيت لهذا السبب كانت زيارته للعراق.

فيه (نومة أهل الكهف)، ويدعو هذا المشروع الى الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل.

١٠- بيان البندقية لسنة ١٩٨٠ الصادر عن مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة القاضي بالاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وحق تقرير المصير وإنشاء دولة مستقلة في فلسطين والاعتراف بحقوق كافة الدول بالعيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها.
١١- بيان دبلن لدول السوق الأوروبية المشتركة لسنة ١٩٨٤.
١٢- مشروع الاتفاق الأردني ـ الفلسطيني الموقع بين الملك حسين وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في ١١ شباط ١٩٨٥. ان الأمة العربية بأسرها تواقة الى ما سيتمخض عنه هذا المشروع : (لو هرا، لو ورا)!

تلك هي المشاريع والمبادرات والحلول المطروحة على الساحة في الوقت الحاضر(*) وسوف نرى من سيكون الفائز في الحلبة، هل (الكديش) الاسرائيلي وراكبه الجوكي الامريكي، أم (خيّال الشگره) العربي؟

* * *



في شهر كانون الاول ١٩٤٨ تبلغت بالنقل قنصلاً في نيويورك خلفاً للسيد عبدالله بكر الذي عين قائماً بأعمال السفارة العراقية في واشنطن، فتوالت عليّ برقيات التهنئة من أصدقائي وزملائي في بغداد والخارج، وفيما كنت افض هذه البرقيات عثرت على برقية من أخي ينعىٰ فيها وفاة المرحومة والدتي يوم ١٩٤٨/١٢/٢٣ وهي التي كانت أعزّ ما أملك في بغداد ولا شيْ يؤلم الغريب كألمه من وفاة عزيز عليه وهو في بلاد غريبة.

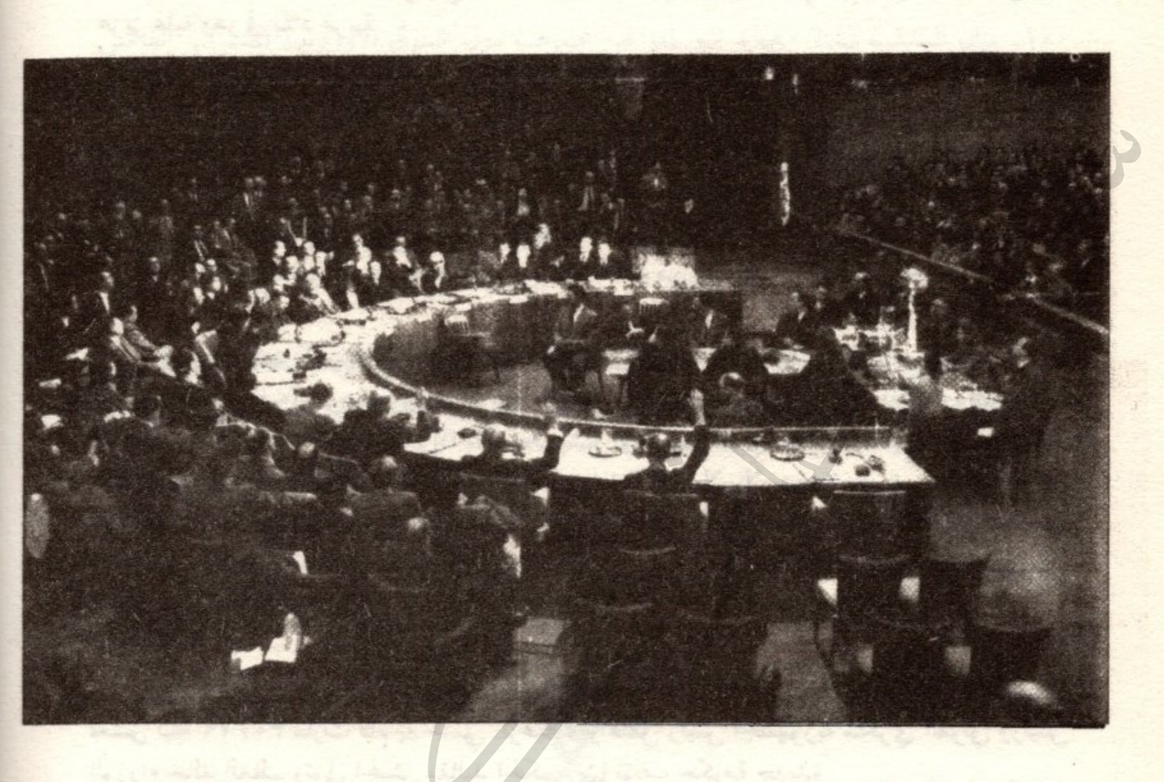
في أوائل شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٩ التحقت بمنصبي الجديد في نيويورك. ان الفترة التي قضيتها في هذه المدينة المحمومة كانت من أشق فترات عملي في السلك الخارجي، فأنّ الحياة فيها مرهقة وأشغال القنصلية كثيرة جداً، وفوق ذلك فأني كنت ممثلاً للعراق في مجلس الوصاية خلفاً لعوني الخالدي الذي نقل الى بغداد لمرافقة لجنة التوفيق الدولية لفلسطين، كما كان عليّ أن أحضر اجتماعات ولجان الأمم المتحدة، وكانت يومئذ تعقد في «ليك سكسس» و(فلاشينكك ميدوز) اللتين تبعدان عن نيويورك ساعة واحدة، فتدهورت صحتي وفقدت الكثير من وزني جراء هذا الارهاق.

في أواخر شهر كانون الثاني حضرت حفلة تكريمية أقيمت لي من قبل الجالية العراقية في نيويورك في أوتيل (والدورف أستوريا) وكانت في هذا الأوتيل سيدة مصرية تقرأ الفنجان للنزلاء والضيوف، فاستدعيتها مازحاً لتقرأ فنجاني، وإذا بالفنجان يشير الى قرب سفري لمحل بعيد، فاستسخفت هذا الفال، لأني لا أؤمن أصلاً لا بقراءة الفنجان ولا بقراءة الكف ولا بالاستخارة ولا بضرب (تحت رمل) ولا بـ (طشّة الكيولّيات) ولا بالأحلام ولا بمثلها من الترهات. لكني قلت في نفسي إن صح هذا الفال فأن المحل البعيد ربما سيكون بغداد الحبيبة، ولكنني في نفس الوقت استبعدت ذلك إذ لم يمرّ على نقلي الى نيويورك غير بضعة أسابيع.

يوم ٣٠ مارت ١٩٤٩ نشرت صحف نيويورك وأذاعت محطات الاذاعة نبأ وقوع انقلاب في دمشق ليلة ٢٩ / ٣٠ مارت قام به حسني الزعيم، واعتقل رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء خالد العظم وتولى الجيش مقاليد الحكم ريثما تؤلف حكومة جديدة.

وفي هذه المناسبة أودّ أن أروي قصة وقعت قبل الانقلاب بأسبوع أو نحوه: فبعد النكبة التي حلّت بالأمة العربية في فلسطين بعد قرار التقسيم وقيام إسرائيل في ١٥ مايس ١٩٤٨ واعتراف الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بها، صادف أن ألتقيت في احدى الحفلات بسيدة أمريكية هي إبنة البروفسور سيلي أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكانت قد سكنت لبنان سنين طويلة وأتقنت اللغة العربية ودرست أحوال المشرق العربي عن كثب. فسألتني عن توقعاتي عما سيحدث في البلاد العربية بعد نكبة فلسطين. فأجبتها بأني أتوقع حدوث سلسلة من الرجّات والانقلابات والثورات في البلاد العربية التي أشتركت في حرب فلسطين. ولما وقع انقلاب حسني الزعيم التقيت بها صدفة بعد عدة أيام من وقوعه، فأقبلت عليّ تسألني قائلة «عندما ذكرت لي قبيل الانقلاب السوري بأنك تتوقع انقلابات وثورات، فهل كنت تتوقعها بهذه السرعة؟» أجبتها: بهذه السرعة أو بعد مدة أطول أو أقصر، ولكنها ستقع حتماً إنْ عاجلاً أو آجلاً، ورددت لها القول المأثور: (أول الغيث قطر ثم ينهمر)، وأكدت لها ان الشعب العربي لا يمكن أن يغفر للمسؤولين جريمتهم عن تلك النكبة.

* * *



جلسة مجلس الأمن المشؤومة التي عقدت في (ليك سكسس) سنة ١٩٤٩ والتي تقرر فيها توصية الجمعية العامة المنعقدة في (فلاشينك ميدوز) بقبول اسرائيل عضواً في الأمم المتحدة. وفي هذه الجلسة صوت الاتحاد السوفياتي الى جانب الولايات المتحدة، وهي المرة الأولى التي يتفقان فيها على ضلال!

كتب الله عليّ وعلى المرحوم الدكتور عبدالمجيد عباس ان نمثل العراق في الجلسة المشؤومة التي عقدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد ظهر يوم ١١ مايس ١٩٤٩ في مقرها القديم في (فلاشينك ميدوز) للنظر في قبول اسرائيل لعضوية الأمم المتحدة.

إلتأمت الجلسة بحضور كافة الأعضاء، وكان عددهم يومئذ ثمانية وخمسين عضواً، (ويبلغ عددهم سنة ١٩٨٣، ١٥٨ عضواً) واكتظت المقصورات والممرات بالمستمعين ومعظمهم من الصهيونيين ومن أنصار إسرائيل من الأمريكيين. فأفتتح الرئيس الجلسة بتلاوة توصية مجلس الأمن

بقبول إسرائيل عضواً فيها، باعتبارها دولة (محبة للسلام؟). وبعد الفراغ من تلاوة التوصية طلبت الوفود العربية الكلام، وكان أول المتكلمين الدكتور محمود فوزي عن مصر، وتلاه جميل بارودي عن المملكة العربية السعودية، ثم الدكتور عبدالمجيد عباس عن العراق (ولا يحضرني الآن من الذي مثل سورية ولبنان في تلك الجلسة). وقد فند المتكلمون توصية مجلس الأمن تفنيداً قانونياً وتأريخياً وانسانياً وطعنوا في أهلية إسرائيل لعضوية الأمم المتحدة باعتبارها كياناً دخيلاً قائماً على الظلم والاغتصاب والعدوان، وطالبوا برفض التوصية.

ثم اعتلى المنبر الميجر (ايبان)(*) رئيس الوفد الاسرائيلي، وأيد توصية مجلس الأمن وأعلن تمسك دولته بالسلام، والتزامها التام بتنفيذ كافة القرارات التي تصدرها الأمم المتحدة. وبعد ختام المناقشة وضعت توصية مجلس الأمن بالتصويت فوافقت عليها الجمعية بالأكثرية، فضجت القاعة والمقصورات والممرات بالتصفيق والهتاف.(**)

كانت الوفود العربية قد اتفقت مسبقاً على مغادرة القاعة بعد اعلان نتيجة التصويت التي كانت متوقعة، وبينما أنا في طريقي الى خارج قاعة الاجتماع، سمعت، ويشهد الله على ما أقول، أحد الصهيونيين يصيح بأعلى صوته:

«أبصقوا عليهم، أبصقوا عليهم».

ويشهد الله أنه لم تمرّ عليّ لحظة في حياتي كلها كمسلم وكعراقي وكعربي، شعرت فيها بذل ومهانة مثل ما شعرت به في تلك اللحظة المشؤومة. ولما بلغت الساحة الخارجية، وإذا بالعلم الاسرائيلي يرفرف على السارية التي تتوسط ساريتي العلم العراقي واللبناني.

وفي مساء نفس اليوم وبينما كانت سيارة أحد الوفود العربية تخترق شوارع نيويورك متجهة الى أوتيل (والدورف أستوريا) وهي تقل أعضاء الوفد بزيهم العربي، انهالت عليها رشقات الطماطة والبيض من جموع الصهيونيين واليهود المحتفلين بذلك اليوم. فتذكرت يومئذ قول الطيّب الذكر السر ظفرالله خان وزير خارجية باكستان يوم قال: «لم يُصَبْ الاسلام بمذلّةٍ ومهانة مثل ما أصابه على عهد هذا الجيل من العرب».

* * *

(*) الميجر أوبري أيبان، قد غير أسمه فيما بعد وصار يسمى (آبا ايبان) (ABBA EBAN) وهو من مواليد مدينة (كيب تاون) في جنوبي أفريقيا وتخرج في جامعة كمبردج في الدراسات الشرقية وعمل أثناء الحرب الماضية ضابط ارتباط مع الجيش البريطاني في فلسطين برتبة رائد لاتقانه اللغة العربية، فلازمه ذلك الاسم سنين طويله الى أن استبدله باسمه الجديد، وقد عمل في الوفد الاسرائيلي بالأمم المتحدة من سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٥٩ وانتخب نائباً لرئيس الجمعية العامة سنة ١٩٥٣ ومن شدة تحمسه لوطنه الجديد إسرائيل أغمي عليه ذات يوم وهو يتكلم في احدى اللجان ونقل الى المستشفى. وقد أشغل منصب وزير الخارجية في وزارات إسرائيل من حزب العمل. وبودّي أن أسال المستر ايبان: كم من مئات القرارات التي أصدرتها الجمعية العامة ومجلس الأمن أو الوكالات المتخصصة وتعهد هو بلسانه وباسم حكومته بتنفيذها، قد نفذتها إسرائيل طيلة الـ ٣٥ سنة التي مرت على صدور قرار قبولها في عضوية الأمم المتحدة؟

(**) لم يستعمل أحد من الدول الخمس الدائمية العضوية في مجلس الأمن حق النقض (الفيتو) ضد هذه التوصية، ولأول مرة منذ تأسيس الأمم المتحدة سنة ١٩٤٦ تتفق الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على مثل هذا القرار المتعلق باسرائيل، بعد اتفاقها الأول على مشروع التقسيم الذي أقرته الجمعية العامة في ١٩٤٧/١١/٢٩.



بعد بضع دقائق من اعلان نتيجة التصويت بقبول اسرائيل عضواً في الأمم المتحدة، رفع العلم الاسرائيلي ليتوسط العلمين العراقي واللبناني بمقتضى الحروف الأبجدية



الوفد الباكستاني برئاسة السر ظفرالله خان وزير الخارجية عند قبول باكستان عضواً في هيئة الأمم المتحدة في الاجتماع الثاني الذي عقد في فلاشينك ميدوز بولاية نيويورك سنة ١٩٤٧ ليصبح العضو السابع والخمسين في المنظمة الدولية التي يبلغ عدد أعضائها الآن ١٥٩ دولة . وفي هذا الاجتماع أيضاً قبلت اليمن عضواً في هيئة الأمم المتحدة لتصبح الدولة العربية السادسة في تلك الهيئة التي تضم الآن أثنان وعشرون دولة عربية :

من اليمين: السر ظفرالله خان، السيد اصبهني، السيدة تصدّق حسين، السيد عبدالستار پيرزاده السيد لائق علي.

لقد قال ظفرالله خان في ذلك اليوم المشؤوم، يوم صدور قرار تقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ كلمةمّا زال صداها يرنّ في الآذان :

«اللهم اشهد : لم يصب الاسلام بالمذلة والمهانة مثل ما أصابه على عهد هذا الجيل من العرب» انه يقصد طبعاً ذلك الجيل من الحكام العرب الذين كانوا على رأس الحكم في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن.

لقد سجل التأريخ أنصع الصفحات لظفرالله خان لدفاعه المجيد عن فلسطين في محافل الأمم المتحدة.

ان محمد ظفرالله خان من أبرز أتباع الطائفة الأحمدية والتي كانت تعرف أيضاً بالقاديانية وهي احدى الفرق الاسلامية التي تأسست في الهند ثم أصبحت من رعايا باكستان بعد التقسيم، ولها معتقدات خاصة تخالف معتقدات الفرق الاسلامية الأخرى. ويتقن ظفرالله خان عدة لغات شرقية وغربية وقد انتخب فيها بعد قاضياً في محكمة العدل الدولية في لاهاي، وتوفي في السبعينات على ما أذكر.

في يوم ١٢ نيسان فوجئت ببرقية من وزارة الخارجية تخوّلني فيها صرف مبلغ ثلاثة آلاف دولار، لأقامة حفلة لمناسبة عيد ميلاد الملك يوم ٢ مايس، ولوجود الوفد العراقي لاجتماعات هيئة الأمم المتحدة، وكان الوفد مؤلفاً من توفيق السويدي وعلي ممتاز ومحمد فخري جميل وعبدالله بكر وعبدالمجيد عباس وهاشم الحلي. فباشرت فوراً باعداد الترتيبات اللازمة وتوجيه الدعوات لآلاف المدعوين. وقد أقيمت الحفلة في دار القنصلية العراقية الواقع في شارع (Riverside Drive) والمطل على نهر (هدسون)، فجمعت بين الشرق بكل نوادره ونفائسه، والغرب بكل أبهته وحضارته. ولو أن «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) ولكنهما التقيا يوم ٢ مايس سنة ١٩٤٩ في شارع (Riverside Drive). !

لقد ساهم في إنجاح تلك الحفلة الرائعة كل بغدادي وكل عراقي وجد في مدينة نيويورك يومئذ، وعلى رأسهم عميد الجالية العراقية مصطفىٰ القاضي. ولا أريد أن أسهب في وصفها، بل



On the Occasion of the Birthday

of

His Majesty King Faisal 2nd of Iraq

The Consul of Iraq and Mrs. Mumayiz

request the honour of your company at a reception

on Monday the 2nd of May 1949

at the Royal Consulate General of Iraq

86 Riverside Drive, New York

(81st Street and Riverside Drive)

6:30 to 8:30 P. M.

R. S. V. P.
Social Secretary
Royal Consulate General of Iraq
86 Riverside Drive, New York 24
Tel. Trafalgar 3-6300

قبل أن أستقبل الضيوف المدعوين بالبطاقة أعلاه، وردتني برقية من وزارة الخارجية تشعرني بنقلي الى مفوضية دمشق. وفي نفس اليوم تلقىٰ خلفي المنقول من سفارة واشنطن برقية بالالتحاق بوظيفته في قنصلية نيويورك فوراً. وقبل انتهاء الدوام الرسمي لذلك اليوم حضر الخلف وقال:

ـ يا الله، سلمني!!

ولم أتبلغ بالأمر الوزاري بالنقل والانفكاك إلاّ بعد التحاقي بوظيفتي في المفوضية العراقية في دمشق بعد أكثر من شهرين؟



الوفد العراقي للاجتماع الرابع للجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة المنعقد في نيويورك سنة ١٩٤٩، والذي أقيمت الحفلة التي جمعت بين الشرق والغرب بمناسبة وجوده يوم ٢ مايس ١٩٤٩

من اليمين: محمد فخري الجميل، عبدالمجيد عباس، علي ممتاز، توفيق السويدي، عبدالله بكر.



الداعي والسيدة عقيلته في استقبال وتوديع المدعوين لحفل ٢ مايس ١٩٤٩ في القنصلية العراقية في نيويورك ، التي وصفت بأنها أروع حفلة أقيمت في أمريكا منذ ان اكتشفها كريستوفر كولومبوس !!
في أقصى اليسار عميد الجالية العراقية في نيويورك مصطفى القاضي



بينما كان قنصل العراق السلف والسيدة عقيلته يستقبلان ويودعان الضيوف لحفلة ٢ مايس ١٩٤٩ ، كان قنصل العراق الخلف يحومي داير ما دايرهم)! هكذا نسب وزير خارجية العراق عهدئذ؟



الأول من اليسار المرحوم فايز الخوري سفير سورية لدى الولايات المتحدة:

لقد قالت السيدة عقيلته (الثانية من اليمين): «لم تشهد نيويورك مثل (هيدي الحفلي) منذ أن اكتشف كريستوفر كولومبس أمريكا».



القنصل أمين المميّز يقطع كعكة عيد ميلاد الملك فيصل الثاني في ٢ مايس ١٩٤٩

في مساء يوم ٣١ مايس ١٩٤٩ أبحرت من نيويورك على ظهر الباخرة الصغيرة EX-CALIBUR الى بيروت وقد استغرقت الرحلة البحرية واحداً وعشرين يوماً قضينا أسبوعاً منها، وأنا وأولادي طريحو الفراش من جراء دوار البحر الذي اصابنا عندما اقتربت الباخرة من جزر الخالدات في أواسط بحر الظلمات.

ان هذه الباخرة هي من بواخر صنف (LIBERTY SHIPS) وتعود للشركة الأمريكية المسماة: (American Export Lines) وهي من البواخر التي كانت تستعمل للشحن السريع أثناء الحرب، ثم طُوّرت وأصبحت من البواخر السياحية التي تعمل بين أمريكا وموانئ البحر الابيض المتوسط، وكانت أربعاً عرفت بـ (the four EX,s) وهي: EXCALIBUR,EXEQUATUR,EXETER,EX-OCHORDA ولا تزيد حمولة الواحدة منها على عشرة آلاف طن. وإذا ما قورنت الباخرة اكسكواتور بالباخرة (كوين اليزابيث) ذات حمولة ٨٥ ألف طن التي أبحرنا عليها من انكلترة الى نيويورك سنة ١٩٤٧ والتي وصفتها في الفصل الأول من كتابي «امريكا كما رأيتها» تحت عنوان (المدينة العائمة) تبدو وكأنها (قارب نجاة) بالنسبة الى الباخرة (كوين اليزابيث).

وصلت الباخرة بيروت عصر يوم ٢١ حزيران ١٩٤٩ بعد ان توقفت في برشلونة بأسبانيا ونابولي بأيطاليا ثم في الاسكندرية، وكانت تقل عدداً كبيراً من الجالية اللبنانية في المهجر، جاء بعضهم لزيارة الوطن الام، وجاء البعض الآخر للزواج من لبنانيات، وجاء بعضهم ليموت ويدفن في تربة لبنان. ولما حاذت الباخرة رصيف الميناء نزل هؤلاء الاحبّة اللبنانيون الى الرصيف، فسجدوا وكأنهم يؤدون الصلاة قصراً وجمعاً، وانهالوا على الأرض يقبلونها كما يقبل الحبيب حبيبته، وكان مشهد ذلك الشيخ العجوز من عائلة (تين) الدمشقية قد ترك أعمق الأثر في نفوس الجميع. فظل ساجداً يقبل الأرض ويبكي وينتحب ولم ينفك عنها إلا بعد الحاح شديد من بقية المسافرين، فكان هذا الشيخ قد غادر بلاده قبل أكثر من خمسين عاماً، ليعود إليها في اخريات أيامه ليموت ويدفن فيها(*).

* * *

(*) وبقدر ما يؤلمني استذكار منظر الشيخ (تين) وهو راكع يقبل الارض، يعجبني استذكار الغادة (تين) التي خلّد اسمها في الشعر العربي حافظ جميل فلم يخلد اسم تلك العائلة الدمشقية المسيحية المغمورة مثل ما خلده حافظ جميل بقصائده المتعددة عن (التين). كان حافظاً طالباً في الجامعة الأمريكية وتخرج فيها سنة ١٩٢٩ وكان هو وزميله ابراهيم طوقان قد ملآ حرم الجامعة بقصائدهما الغزلية بالطالبات فكانت الطالبة (ماري) شيطانة شعر ابراهيم طوقان. والطالبة (ليلي تين) شيطانة شعر حافظ جميل، فقال، من جلة ما قاله فيها:

يا تين يا توت يا رمان يا عنب ... يا خير ما أجنَتْ الاغصان والكُثُبُ
يا مشتهى كل نفس مسّها السَغَبُ ... يا برء كل فؤاد شفّه الوصب

IRAQI EMBASSY

15, Kensington Palace Gardens,
London, W.8.

25th August, 1949.

Dear Mr. Mumayiz,

I was very pleased indeed to receive your letter and the beautiful photographs, which I shall be very pleased to show to ~~H.M.H.~~ ~~The Ambassador~~ Her Majesty The Queen when I have the occasion.

Your wife is very beautiful in this photograph, and the cake looks like a picture!

I wish you very good luck and happiness, and long life in which I hope you will enjoy living in many interesting capitals.

With best wishes to Mrs. Mumayiz, yourself and family,

Yours sincerely,

[signature]

أكتفي بما قالته عنها زوجة السفير السوري فائز الخوري (أخ فارس الخوري شيخ الممثلين العرب في الأمم المتحدة)، وهي تودعنا: «منذ أن اكتشف كريستوفر كولومبس أمريكا لم تشهد نيويورك مثل (هيدي الحفلي)!! ولا غرابة فأن إقامة الحفلات، سواء الشخصية منها والرسمية، هي هوايتي المفضّلة.

* * *

في ٢٣ نيسان سنة ١٩٤٩ ولما يمض على وجودي في نيويورك سوى ثلاثة أشهر ونيف، ولمّا أستقبل الضيوف الذين دعوتهم لحفلة ٢ مايس، وردت برقية من وزارة الخارجية تشعرني فيها بنقلي الى المفوضية العراقية في دمشق. وفي نفس الوقت أبرقت الوزارة الى السفارة العراقية في واشنطن للايعاز الى خلفي للالتحاق بقنصلية نيويورك فوراً. فوصل قبل انتهاء الدوام الرسمي لذلك اليوم وطلب اجراء دور التسليم والتسلم وتخلية المسكن، ولما نتبلغ بعد، لا انا ولا هو بالامر الوزاري القاضي بنقلنا وتحديد مواعيد المباشرة والانفكاك والسفر. وأود ان احيد قليلاً عن سير البحث لأقول كلمة عن ظروف ذلك النقل.

عندما نقلت من واشنطن الى نيويورك، كان وزير الخارجية بوزارة مزاحم الپاچه‌چي المرحوم علي جودة، وهو الذي قرر تعييني قنصلاً في نيويورك. ولما استقالت وزارة مزاحم في اوائل كانون الثاني ١٩٤٩، تألفت وزارة نوري السعيد، وأسند منصب وزارة الخارجية الى الدكتور عبدالإله حافظ، وفي ١٩٤٩/٣/١٧ حل محله الدكتور فاضل الجمالي، لمرور المدة الدستورية على استيزار الأول. وبعد ثلاثين يوماً من توليه منصب وزارة الخارجية أصدر الجمالي أمراً بنقلي من نيويورك الى دمشق (بناء على اقتضاء المصلحة العامة؟)، ولعله توهم يومئذ بان الوزيرين اللذين سبقاه في المنصب، علي جودة وعبدالإله حافظ وأسلافهما من قبلهما، لا يقدرون (المصلحة العامة) مثله!! فلقد تضمن الامر الوزاري نقل تسعة من كبار موظفي وزارة الخارجية من أقصى الغرب الى أقصى الشرق، وبالعكس، ليحشر اسمي بينهم تبريراً لنقلي(*) ولما يمض على بقائي في منصبي سوى بضعة أشهر فقط، فأين بقيت «المصلحة العامة» يا ترى؟

كان أول المستائين من هذا النقل المفاجئ الأميرة (فخر النسا) عقيلة الأمير زيد سفير العراق في لندن ووالدة الامير رعد بن زيد، وكانت قد زارت نيويورك لأسباب عائلية واطلعت عن كثب على مركزي ونشاطي واعمالي سواء في القنصلية او في الامم المتحدة. ولما بلغها خبر نقلي من نيويورك الى

(**) يُنتقد فاضل الجمالي على أمثال هذه التوافه والصغائر في تصرفاته. فقد برر نقلي مستنداً الى وشاية وردته من (وكيله) الملحق الثقافي في القنصلية، من أني أتداخل كثيراً مع الجالية العراقية في نيويورك. وقد أمر بحفظ الرسالة التي استهلها مرسلها بعبارة (عزيزي أبو ليث) في اضبارتي الشخصية الرسمية بوزارة الخارجية. غفر الله للجمالي ذنوبه، ما تقدم منها وما تأخر، وهداه صراطاً مستقيماً.

ولما أبرقت الى تحسين قدري رئيس التشريفات الملكية، مد الله في عمره، أستفسر عن هذا النقل المفاجئ ولما يمض على وجودي في منصبي الحالي غير بضعة أشهر أبرق يقول بأن التنقلات عامة وتشمل عدداً كبيراً من الموظفين ولا تقتصر عليك!!

وبعد عودتي الى العراق تحريت عن سبب ذلك الاجراء الفوري فتبين بأنه لغرض الاسراع بتثبيت الامر الواقع و(قطع الطريق عن تشبثات أمين المميز لالغاء النقل).

(*) صورة ذلك الأمر الوزاري منشورة على الصفحة ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

15 Kensignton Palace Gardens,
London, W.8.

30th July, 1949.

I hope that Your Excellency and Mrs. Jamali are quite well, and that your family, too, are also well and getting on nicely.

I am writing to you to ask about a rather delicate question, but one in which I am interested.

I have heard that Mr. Mumayiz has been appointed to a position in Damascus, and that, in his place in New York, a bachelor has been appointed.

I felt very sorry to hear this news. The reason being that very recently I visited New York, and during that time I saw how very popular Mr. and Mrs. Mumayiz were in their new work. I was astonished that in so short a time they had accomplished so much for their country. They have settled in one of New York's most beautiful houses, in Riverside Street, and Mr. Mumayiz is so full of enthusiasm for his work that he has inspired everyone working with him.

Mrs. Mumayiz also is full of this enthusiasm, and I can recall particularly one supper party she gave. She has no domestic help, but prepared herself a beautiful supper party for thirty guests, and when the preparations were over she was ready to receive everyone with a smile and appeared to be completely unexhausted.

Mr and Mrs. Mumayiz, also, get along extremely well with the Iraqi colony in New York, who seem to like them very much. Because they are so popular, the colony proposed to furnish the upper part of the Consulate for them. I am inclined to feel myself, after visiting the Consulate personally, that a bachelor would find it extremely difficult to carry on this work, of which so much necessitates social activities.

I have mentioned this subject to my husband, but realize of course, that I must not interfere in these things, but, because the well being of our country is uppermost in all our minds. I feel I must bring this subject to your notice.

With kindest regards to your wife, your family and yourself.

H.E. Fadhil Jamali,
Ministry of Foreign Affairs,
Baghdad, Iraq.

أرسل لي صورة هذا الكتاب معالي تحسين قدري رئيس التشريفات الملكية بعد التحاقي الجديد في دمشق، وكان قد اطلع عليه أثناء مروره في لندن في صيف سنة ١٩٤٩.



أطفالي الثلاثة ابراهيم وفيصل وسهى الذين لم يذوقوا الطعام عدة أيام لاصابتهم بدوار البحر عندما اقتربت الباخرة من جزر الخالدات في أواسط بحر الظلمات.



GOOD MORNING

AMERICAN EXPORT LINES S·S·EXCALIBUR

BREAKFAST

Chilled Grapefruit Stewed Figs Sliced Oranges
Baked Apple Stewed Prunes Sliced Fresh Pineapple
Orange, Grapefruit, Pineapple & Sauerkraut Juices

* *

Oatmeal
Assorted Dry Cereal

* *

Tongues & Sounds

* *

Boiled, Poached, Shirred or Fried Eggs w.Ham or Bacon
Scrambled Eggs Plain, Minced Ham or Asparagus Tips
Omelette Plain or Spanish

* *

To Order from the Grill: American Breakfast Bacon
Yorkshire Ham, Brookfield Farm Sausage

* *

Browned Corned Beef Hash

* *

Boiled or Lyonnaise Potatoes

* *

Assorted Cold Meats & Various Kinds of Fresh & Smoked Sausages

* *

Rolls, Tea Biscuits, Corn Bread
Buckwheat or Wheat Griddle Cakes with Maple Syrup

* *

Strained Honey, Marmalade, Assorted Jams

* *

English Breakfast or Orange Pekoe Tea
Coffee, Sanka Coffee, Postum, Cocoa
Fresh Milk, Buttermilk

Wednesday, June 15, 1949

قائمة طعام الفطور على الباخرة اكسكاليبر ليوم ١٥ حزيران سنة ١٩٤٩ والتي لم نذق منها شيئاً لعدة أيام لاصابتنا بدوار البحر

دمشق أرسلت رسالة شخصية الى فاضل الجمالي من لندن بتاريخ ٣٠ تموز ١٩٤٩، وكنت يومئذ قد التحقت بمنصبي في دمشق، أعربتْ له فيها عن أسفها، واستيائها من ذلك النقل للأسباب المبينة في رسالتها المنشورة أعلاه، والتي ختمتْها بالعبارة التالية:

«ولو أني أدرك حق الأدراك بأنه يجب عليّ أن لا أتدخل في مثل هذه الأمور ولكن خير وطننا ورفعته هي الاسمىٰ في أذهاننا جميعاً». وأني إذ انشر رسالتيها الشخصيتين ألتمس العذر من الجميع.

* * *



مع الأحبة اللبنانيين على ظهر الباخرة (اكسكاليبر):
بعضهم جاء ليقبّل تربة وطنه بعد غياب طويل، وبعضهم جاؤا ليتزوجوا من لبنانيات ويعودوا بهن الى أمريكا، وبعضهم جاء ليموت ويدفن في تربة وطنه الأم.

بعد الانتهاء من مراسيم الحفلة، أخليت المسكن الرسمي وسلمته الى خلفي، واتخذت سكناي في الفندق، وصفّيت أموري الشخصية وودعت بعض أصدقائي المقربين على عجل وبصورة لا تتفق لا مع كرامة ممثل دبلوماسي مثّل بلاده خير تمثيل في أكبر مدن العالم ولا مع سمعة ومنزلة البلاد التي مثلها في أكبر هيئة دوليّة في العالم. وتهيأت للسفر بحراً على أول باخرة تبحر من نيويورك إلى بيروت، وكما يقول المثل البغدادي (سفّروني سرگن).

* * * * * *

مكثت في لبنان حتى ٢ آب ١٩٤٩ . ومن عادتي كلما وصلت بيروت زيارة الجامعة الأمريكية والطواف فيها واستذكار السنوات الأربع السعيدة التي قضيتها فيها . كما زرت معظم مصايف لبنان المحببة اليّ ، فامضيت أمسية سعيدة في وادي العرائش وجارته ، وأمسية أسعد في فوار انطلياس ، وعصرية ممتعة في شاغور حمانه ، وعصرية أخرى في (عين النعص) وظهرية أمتع في نبع الباروك يوم ٢٧ تموز ، على مائدة ضمت بعض الاخوان اللبنانيين الذين كانوا على ظهر الباخرة التي أقلتنا من نيويورك ، وكان بينهم ثلاثة من الشعراء هم شاعر الشباب أكرم أحمد ، والشاعر اللبناني شاهين وزميلي في الجامعة الأميركية الشاعر تلحوق . وقد جرت مناظرة ارتجالية بين اكرم وشاهين ، سجلتها في مفكرتي ، ولم تنشر حتى في مجموعة شعر أكرم أحمد ، وفيما يلي بعض أبيات المناظرة :

أكرم :

في ظلال الباروك قد جمعتنا ... ساعة للزمان تفضل عمرا
اطلقت ارضه فكانت سماء ... من بدور الشباب بدرا فبدرا
قد رأينا وقد نزلنا عليهم ... ادبا عاليا وخلقاً أغرّا

شاهين :

في ظلال الباروك ضيف كريم ... من بلاد العراق ينظم شعرا
كان لطفا وكان وحياً الينا ... قد حملناه في المشاعر فخرا
لم يكن ظالما ولكن بليغا ... جعل الصحب في المجالس اسرا
ان يوماً بقربه وحماه ... قد حسبناه في الحقيقة عمرا

أكرم :

في ظلال الباروك طير يغني ... بقصيد يغادر النفس سكرا
نغمات اذا وعتها الندامى ... خلتْ هاروت جاء ينفث سحرا

يا تين يا توت يا رمان يا عنب

حلفت بالكرم يا (ليلي) وبالتوتِ ... وما بصدرك من درٍ وياقوتِ
لاجعلنّ عريش التين تابوتي ... تين الخمائل لا تين الحوانيتِ

يا تين يا توت يا رمان يا عنب

ان للتين الشامي صلة روحية (بالتين الوزيري) فقد حلّت لِلي واختها أليس في بغداد في الثلاثينات وعيّنتا مدرستين في كلية البنات.

وفي قصيدته (تين الشام) يقول حافظ جميل :

ضربت في كل ارض أينعت ثمراً ... فما وجدتُ كارض الشام (للتين)

وفي قصيدته (في الطريق الى جلّق) يقول :

تتحدث الدنيا بطيب ثماركم ... ما بال (تينكم) كطعم الصاب

(*) انتقل حافظ جميل الى جوار ربه في ٤ مايس ١٩٨٤ ، والكتاب تحت الطبع ، فوجدت متسعاً في هذه الحاشية لأخلّد ذكراه بهذه العبارة : رحمك الله يا أبا سمير ، فقد كنت من خير من أنجبت بغداد من أبنائها ، ولعاً واعتزازاً وبراً وفخراً بها .

شاهين :

يـا فتى الـرافـدين مـنـك شعـوري | كـان عـفـواً وليس عـمـداً وقـسـرا
ان مـن انجـب الـزهـاوي يـومـاً | زفّ اهـل الـينـبـوع بحـرا وبـرّا
كـان مـوت «الجميـل» طيـا لحسن | فـغَـدَتْ روحـه بـاكـرم نـشـرا

أكرم :

سـلام ايهـا الـشـادي | لأخـوانـك في الـوادي
لـقـد هـيـجـت «شـاهـين» | أحـاسـيـسـي بـأنـشـادي
الى ابـنـاء لـبـنـان | تحـايـا أهـل بـغـداد

شاهين :

ولـولاكـم لمـا غـنّى | حـيـال الاخـضـر الهـادي
لـه في وصـفـكـم شـنـف | شـدا في وصـفـه الحـادي

أكرم :

أدر لي الـكـأس يـا سـاق | فـقـد طـاب لي الانـس
وغـنى الـشـعـر اهـزاجـا | بهـا تـنـشـرح الـنـفـس
وسـاجـل صـبـيـة الحـي | لهـم في حـيّـهـم عـرس

شاهين :

ربـة الـشـعـر ألهـمـيـني بـيـانـا | ذا حـنـان ونـفّـسـي عـن جـنـان
الهـمـيـني بـلاغـة المـتـنـبـي | أو هـبـيـني عـذوبـة لأبـن هـاني

أكرم :

الأغـاني يـا طـيـب هـذي الأغـاني | هـدهـدت لـذّتي وغـذّت جـنـاني
الـزمـان الـظـنـين جـاد بـيـوم | سـوف يـبـقىٰ تـاجـاً لـكـل زمـان

لقد أزالت الأيام القليلة التي أمضيتها في لبنان كل الكرب الذي ألمّ بي منذ نقلي من نيويورك بتلك الصورة الشائنة.



في (عين النعص) في لبنان وأنا أدخن النركيلة التي اعتدت على تدخينها كلما حللت في سورية ولبنان حيث يوجد (التنباك العجمي) وهو أفضل أنواع التنباك الذي يستعمل لتدخين (النوارگيل) وخير ما يرفّه عن النفس الكئيبة، كنفسي في تلك الأيام!!

وصلت الى دمشق بقلب ثقيل مفعم بالهم والكدر. ومردّ ذلك هو انني لا أحب دمشق اصلاً، ولا اعرف عنها سوى ما كنا نشاهده عند مرورنا بها اثناء السفر من بغداد الى بيروت ونحن طلاب في الجامعة الأميركية. كما أني سأعمل بمعية وزير مفوض ليست لي معرفة سابقة به. فهو طبيب انتدب لهذه الوظيفة وغير مسلكي وبعيد عن أصول التعامل الدبلوماسي، وفوق ذلك فان أخواننا السوريين معروفون بذهنيتهم النرجسية وانفعالاتهم الآنية وخصوماتهم الازلية، فكل سوري هو حزب قائم بذاته فضلاً عن النزعات الاقليمية المنيطرة على المجتمع السوري: هذا شامي وهذا حلبي وذاك حموي والآخر حمصي والآخر لاذقاني، وتتفرع منها النزعات الدينية والمذهبية والطائفية: هذا مسيحي (وهم عدة طوائف) وهذا مسلم (وهم عدة طوائف وقوميات) فذاك درزي والآخر علوي (نصيري)(*) والآخر كردي والآخر (چركسي)، ثم تليها النزعات المحلية: هذا من محلة الميدان وذاك من الشاغور، وذاك من المهاجرين، والآخر من محلة القنوات، وذاك من السنجقدار والآخر من الصالحية وهذا من البحصة وذاك من باب الجابية وذاك من الشويكة والآخر من السنانية، واولئك من سوق الخيل وذاك من القصاع والآخر من باب توما الخ، الخ، تستظل هذه الفرق والطوائف والقوميات والمحاليل تحت خيمة الأحزاب السياسية ظاهرياً: هذا ينتسب الى الحزب الوطني، وذاك الى حزب الشعب والآخر الى الحزب الشيوعي، وذاك الى الحزب القومي السوري والآخر الى الحزب العربي الاشتراكي، وذاك الى حزب البعث العربي وهذا من الحزب التعاوني الاشتراكي، والآخر الى الأخوان المسلمين، والباقون يدعون بانهم مستقلون، ولكنهم في الواقع غير مستقلين، بل تجمعهم المصالح الذاتية والمنافع الشخصية.

(*) النصيرية هي احدى فرق الغلاة الذين يقولون بحلول الأله في شخص بعض عباده الصالحين. ومنذ الاحتلال الفرنسي لسوريا طغى اسم (العلويين) على اسم (النصيرية) لاستبعاد الشبه بين (النصيرية) و(النصرانية) وابعاد محاولة ربطها بالصليبيين. ويقطن العلويون في الوقت الحاضر في سلسلة جبال البهراء في شمال سورية والتي صارت تعرف الآن بجبل العلويين وفي المناطق الواقعة الى الشمال من حمص وفي اللاذقية وحلب وطرطوس وأعالي الفرات ويقل عددهم عن العشرة بالمائة من عموم سكان القطر السوري وكان مستوى معيشتهم وثقافتهم طوال الحكم العثماني أوطأ من مستوى بقية الشعب السوري، وكثيراً ما كانوا يضطرون الى بيع بناتهم وهنّ في سن الطفولة خشية الاملاق واتقاء الفاقة. وقد استوطنت فرقة من النصيرية من مدينة عانة وما جاورها، وكنت أسمع من المرحوم سيد جميل الفهد نقلاً عن بعض المعمرين العانيين ان النصيرية عرفوا هناك باسم (هلاّسين الجدي) ويزعم هؤلاء انهم اباحيون يعقدون الندوات في الليالي المقمرة ثم يختلون في أحد الكهوف في الجبال المحيطة بعانة، حيث تباح الممارسات الجنسية في ظلمة الكهف، حتى بين المحارم، وهناك يحيطون بفروة (الجدي) ويتظاهرون (بهلسها) وإذا كان نصيب أحدهم واحدة لا يميل اليها أو لا يستذوقها أو كانت عجوزاً شمطاء أو كانت احدى المحرمات التي يأبى ضميره مواقعتها ـ وقد يكون من المندسين ـ تركها واستبدلها بغيرها، وحينئذ تصرخ المنبوذة بأعلى صوتها:

بيناتنا غريّب يمسك ويسيّب

تلك القصص سمعتها من قدامى العانيين في لواء الدليم ايام زمان، اما اليوم فلم أعد أسمع بوجود النصيرية، او «هلاسين الجدي» في عانة وما جاورها ولعلهم نزحوا الى سوريا لنضموا الى الطائفة ويستوطنوا ديار العلويين التي ذكرناها أعلاه.



خالي سيد جميل الفهد، الذي روى لي أخبار النصيريّة (هلّاسين الجدي) في عانة

المفوضية الملكية العراقية
دمشق



صورة

الرقم
التاريخ

ـ وزاره الخارجية / الذاتية ـــــــ الرقم ذ / ٣٢٧٨ ـ التاريخ ١٩ نيسان ٩٤٩ ـــ

امـــر وزاري

بناء على اقتضاء المصلحه قررنا اجراء التنقلات التالية من تاريخه :ـ

١ ـ ينقل السيد عبد المنعم الكيلاني السكرتير الثاني براتب ـ/ ٤٠ دينارا شهريا من السفارة العراقية في لندن الى مثل وظيفته في مفوضية بيروت .

٢ ـ ينقل السيد محمد اديب سليمان السكرتير الثالث براتب ـ/ ٢٥ دينارا شهريا الى مثل وظيفته في السفارة العراقيه في لندن .

٣ ـ ينقل السيد عبد الحميد الخناق السكرتير الثالث براتب ـ/ ٢٥ دينارا شهريا من السفارة العراقية في واشنطن الى مثل وظيفته في مفوضيه القاهره .

٤ ـ ينقل السيد امين المميز القنصل الثاني براتب ـ/ ٤٠ دينارا شهريا من قنصليه نيويورك الى وظيفة سكرتير ثاني في مفوضيه دمشق .

ـ ينقل السيد احمد عزت محمد السكرتير الثاني براتب ـ/ ٤٠ دينارا شهريا من السفارة العراقيه في واشنطن الى وظيفة القنصل الثاني في قنصلية نيويورك .

ـ ينقل السيد عبد الجليل الراوى السكرتير الاول براتب ـ/ ٥٠ دينارا شهريا الى مثل وظيفته في السفارة العراقية في واشنطن .

ـ يعين السيد عبد الحق فاضل سكرتيرا ثالثا في مفوضيه طهران براتبه الحالي البالغ ـ/ ٣٥ دينارا شهريا بدلا من مفوضيه دمشق كما جاء في الفقرة الاولى من امرنا الوزاري المرقم ١١ في ٢ / ٢ / ١٩٤٩ .

ـ ينقل السيد حكمت الجادرجي القنصل الثاني براتب ـ/ ٤٠ دينارا شهريا من قنصلية الاسكندرية الى وظيفة سكرتير ثاني في مفوضيه باريس .

ـ ينقل السيد منير رشيد السكرتير الثاني براتب ـ/ ٤٠ دينارا شهريا من مفوضية باريس الى مثل وظيفته في مفوضيه كابل للقيام باعمال المفوضية بصورة وقتية .

التوقيـــع
محمد فاضل الجمالـــي
وزير الخارجيـــة

المفوضية الملكية العراقية
دمشق



الرقم ......
التاريخ ......

— ٢ —

نسخة الى :

السفارة العراقية — لندن

السفارة العراقية — واشنطن

المفوضيات الملكية العراقية — انقرة — باريس — دمشق — بيروت — طهران — كابل — القاهرة .

القنصلية الملكية العراقية — نيويورك — الاسكندرية

مديرية المحاسبات العامة

مديرية الخزينة المركزية

مديرية الحسابات

مديرية التشريفات .

— صورة طبق الاصل —

وصلت الى دمشق في ٢ آب ١٩٤٩ وأقمت في اوتيل خوام (اوريان بالاس) بضعة أيام، إذ لم يكن في دمشق يومئذٍ غير هذا الاوتيل وأوتيل أميّة (القديم)، اما الاوتيلات الأخرى فهي ليست أكثر من (مسافرخانات)، ثم انتقلت الى بانسيون (ماري) الذي ارشدني اليه صديقي الدكتور عبدالمجيد القصاب الذي لديه معلومات وافية عن دمشق حيث تخرج في جامعتها وتردد عليها وله فيها معارف واصدقاء كثيرون. بقيت في هذا البانسيون عدة اسابيع وسكنت في غرفة صغيرة مؤثثة باثاث بالية، وكنت كلما دخلتها رددت مع نفسي المثل البغدادي (بعد حياصتي حزموني بمرش). ولم يكن لديّ من عمل أقوم به في المفوضية أثناء وجود الوزير المفوض ، سوى مطالعة الصحف المحلية وقراءة الكتب عن سورية.

* * *

كانت الصحف المحلية والشخصيات السياسية والهيئآت المختلفة تطبل وتزمّر (للزعيم) حسني الزعيم الى درجة التأليه، فضربت هذه الاغراءات في رأسه فصار يتخبط في تصرفاته وتصريحاته، فبلغت حد السخرية والاستخفاف. وأهوج تصرف سُجّل عليه هو غدره بأنطون سعادة رئيس الحزب ، القومي السوري وتسليمه الى الحكومة اللبنانية لتبطش به غيلة وغدرا.



الزعيم حسني الزعيم، قام بانقلابه يوم ٣٠ مارت سنة ١٩٤٩، ثم صار يسعى الى حتفه بضلفه. ففي ٢٧ نيسان صحب صهره (نذير فنصة) بزيارة مفاجئة الى الملك فاروق في مزرعة (زهراء أنشاص)؛ ليتآمرا بوجه مخططات العراق في سورية. وفي ٦ تموز سلم انطون سعادة الى لبنان ليفتك به رياض الصلح، وفي ١٤ آب من السنة نفسها، اكتمل التحالف بين الحزب القومي السوري، حزب انطون سعادة، وبين الضباط الموالين للعراق بقيادة الحناوي، فأقتيد حسني الزعيم بلباس النوم ليلقى حتفه في المزّة، وليدفع دمه ثمن طيشه بعد أربعة أشهر وأربعة عشر يوماً من انقلابه ضد شكري القوتلي وخالد العظم.

ففي اليوم الرابع من تموز ١٩٤٩ حضر الى دمشق رياض الصلح رئيس وزراء لبنان وقابل الزعيم، وقد شاهدت موكبه يدخل القصر الجمهوري في المهاجرين، المجاور لدار المفوضية العراقية، وعاد الى بيروت في نفس اليوم، بعد ان تفاهما على تسليم انطون سعادة. وفي اليوم السادس من تموز حضر الى دمشق الامير فؤاد شهاب مدير الامن العام اللبناني ونورالدين الرفاعي مدير شرطة بيروت واستلما انطون سعادة من الحكومة السورية، وعادا الى بيروت، وكان المقرر ان يغتالوه قرب وادي الحرير بحجة محاولته الفرار، غير انهما غيّرا رأيهما في آخر لحظة واقتاداه الى بيروت حيث حوكم محاكمة صورية ونفذ فيه حكم الاعدام ليلة ٨ تموز ١٩٤٩.

لقد تركت هذه العملية اثراً كبيراً في نفوس الكثير من الضباط السوريين ذوي الميول نحو الحزب القومي السوري . ولم تمض مدة طويلة على ذلك العمل الأهوج الذي قام به حسني الزعيم حتى دفع ثمن غدره وذلك بالانقلاب رقم (٢) الذي وقع ضده في ١٧ آب سنة ١٩٤٩ . وبعد ذلك بعدة سنوات دفع رياض الصلح هو الآخر نفس الثمن ايضاً فاغتيل من قبل اعضاء الحزب القومي السوري اثناء زيارته لعمّان .

* * *

في يوم ١٧ آب سنة ١٩٤٩ بينما كنت أغط في (نومة الصبح) وإذا بصاحبة البانسيون تطرق باب الغرفة وهي مذعورة لتقول لي بأنها خرجت صباحاً وشاهدت دبابات وسيارات مدرعة وجنوداً في الشوارع ، وسَمِعتْ بأن انقلاباً قد وقع الليلة الماضية وأن الزعيم قد قتل . فبعد الاستماع الى نشرة الأخبار الصباحية من راديو دمشق الذي أذاع خبر الانقلاب والبيان رقم (١) الذي تلته عدة بلاغات رسمية ، ارتديت ملابسي على عجل وهرعت أتسقط الأخبار ، إذ كان الوزير المفوض قد سافر الى بغداد قبل يومين ، دون علمي ، فوجدت المسؤولية ملقاة على عاتقي - فقصدت دائرة الأركان وبعد أن عرّفت نفسي للحرس طلبت مقابلة أحد المسؤولين ، فخرج ضابط إسمه بهيج كلاس ، فبينت له بأني القائم بأعمال المفوضية العراقية وأرغب في مقابلة أحد المسؤولين فدخل الى غرفة جانبية ثم خرج من غرفة أخرىٰ يصحبه الدكتور أسعد طلس عديل سامي الحناوي ومستشاره السياسي فأخبرته بالغرض من حضوري وعما إذا كان لديهم ما يرغبون إبلاغه الى الحكومة العراقية . فأجاب بأن كل شيء هو لدىٰ الوزير المفوض وليس لدينا ما نبلغك به ، فانصرفت ، وفي طريقي عرجت على القصر الذي كان يسكنه حسني الزعيم في شارع أبو رمانة فلاحظت باب القصر الداخلية وقد هشم بصليات الرشاشات ، والباب الخارجي مقفل بالسلاسل ، ويحرس القصر جنود مسلحون .



مسكن حسني الزعيم في شارع أبو رمانة ، الذي اقتحمته ليلة ١٧ آب سنة ١٩٤٩ مفرزة عسكرية يقودها الضابط الدرزي فضل الله أبو منصور ، واقتيد الى سجن المزّة بلباس النوم ، حيث نفذ فيه حكم الاعدام بعد محاكمة صوريّة . تشاهد الباب الداخلي للمنزل مهشماً بالرصاص

عدت الى المفوضية بعد أن مررت بحامد الوادي الذي كان يقيم في دمشق يومئذ وبمن تعرفت عليهم من السوريين، أذكر منهم نبيه العظمة، وسمعت ما لديهم من معلومات عن الانقلاب، فطلب مني نبيه العظمة إرسال برقية الى بغداد فوراً لارسال توفيق السويدي للمداولة معه حول الوضع الجديد(*). أعددت تقريراً ملخّصه أن سامي الحناوي آمر اللواء الأول قد قام بالانقلاب العسكري رقم (٢) يعاونه عدد من الضباط منهم علم الدين القوّاص وعصام مريود ومحمد المعروف ومحمود الرفاعي وبهيج الكلاس وغيرهم، وأن المستشار السياسي للحناوي هو عديله الدكتور أسعد طلس الذي تولىٰ الشؤون السياسية والاتصالات الدبلوماسية، وأن مفرزة من المدرعات يقودها الضابط الدرزي فضل الله أبو منصور(**) قد داهمت قصر الزعيم واقتادته الى المزة، وأن مفرزة أخرىٰ بقيادة عصام مريود قد داهمت بيت محسن البرازي رئيس الوزراء واقتادته الى المزة أيضاً (مع ولده الكبير خالد)،حيث حوكم الزعيم والبرازي محاكمة صورية وأعدما حالاً على يد الضباط الثلاثة أمين أبو عساف وعصام مريود وفضل الله أبو منصور، وأن الوضع هادىء في دمشق حتى إعداد هذا التقرير، والحدود مغلقة والمواصلات مقطوعة. أرسلت التقرير مع قائد الطائرة العراقية التي هبطت في مطار دمشق ظهر ذلك اليوم وأوصيته الابراق من الطائرة الى برج المراقبة في مطار بغداد بأنه يحمل رسالة هامة ومستعجلة من المفوضية العراقية الى وزارة الخارجية، فوصل التقرير الى وزارة الخارجية قبل نهاية الدوام الرسمي. وفي نفس الوقت أرسلت اثنين من الموظفين أحدهما الى بيروت والآخر الى عمان وهما يحملان صيغة برقيتين رمزيتين، فأيهما ينفذ من الحدود يبرق البرقية التي يحملها، إذ لم تكن لدي الشفرة لأبرق بها التقرير إذ كان الوزير المفوض قد سافر الى بغداد وتركني (حداد بليّه فحم)..

* * *

في اليوم التالي للانقلاب الموافق ١٨ آب سنة ١٩٤٩ عاد الوزير المفوض من بغداد على طائرة خاصة عودة المنتصر، وباشر اتصالاته برجال الانقلاب، فلم يبق لي ما أقوم به، فقد أصبحت دولاباً خامساً في عجلة المفوضية، إذ كان الوزير المفوض يعتمد على صهره حارث ناجي شوكت بكل إجراءاته واتصالاته، وحفظ السجلات السرية و(الشفرة). فطلبت اجازة اعتيادية وسافرت الى بغداد يوم ٢٢ آب، وفي اليوم التالي استأنفت عملي في الوزارة، مديراً عاماً للدائرة العربية ـ بمهمة خاصة ـ وأتابع الوضع في سوريا عن كثب.

* * * * *

(*) وفي المساء زرت علي جودة في شتورة حيث اعتاد الاصطياف في (فيلا عقل) فأشار عليّ بمراقبة الوضع عن كثب والاكتفاء بارسال التقارير الى بغداد أولاً بأول، وأكد على لزوم مراقبة الحدود السورية ـ الاسرائيلية، لأن إسرائيل قد تستغل الانقلاب وتقوم بعمل طائش ضد سوريا.

(**) تزعم زوجة حسني الزعيم أن عصام مريود هو الذي اقتاد زوجها من البيت الى المزة على سيارة (جيب)، ويقول البعض ان فضل الله أبو منصور هو الذي اقتحم البيت وطلب مقابلة الزعيم الذي نزل من الطابق الثاني بلباس النوم (البجامة)، فلطمه أبو منصور على وجهه وقال له: كيف تسلم أنطون سعادة الى لبنان يا (عكروت)! وقيل إنه قال له: «يا أزعر»، والصفتان مترادفتان!!

لما استدعي هاشم الأتاسي من حمص لتأليف حكومة مؤقتة تتولى اجراء انتخابات الجمعية التأسيسية لوضع الدستور الجديد، تألفت وزارة برئاسة ناظم القدسي معظم اعضائها من حزب الشعب ومن المستقلين الموالين للعراق، غير أن تلك الوزارة لم تستمر في الحكم سوى يوم ونصف اليوم، اذ إن الجيش (أي الشيشكلي) قد استعمل ضدها حق (الفيتو) فاستقالت.

وعندما وقع انقلاب الشيشكلي بعد تأليف وزارة علي جودة، وقف العراق موقف المراقب، تاركاً الأمر لما سيقوم به رجال الانقلاب من اجراءات، وذلك لما يعرف عن علي جودة من اعتدال في سياسته العربية وعدم جنوحه الى الاستفزازات والمخاصمات مع الدول العربية المتنافسة على سوريا وخاصة مصر. فمن أوائل الاجراءات التي قام بها النظام الجديد في سوريا هو التلميح الى الوفد العراقي الذي كان قد ارسل للدعوة للاتحاد، لمغادرة دمشق حالاً. كان هذا الوفد برئاسة العين السيد عبدالمهدي يصحبه عدد ممن يدّعون بالقوميّة. وقد اتخذ الوفد أوتيل اوريان بالاس مقراً لفعالياته، فجعل من بهو الاوتيل (ربعة عشاير) يتصدرها السيد عبدالمهدي ويحيط به



العين السيد عبدالمهدي، أوفد الى دمشق لاتمام صفقة الاتحاد فعاد الى بغداد خالي الوفاض

كنت في بغداد لما وقع الانقلاب السوري رقم (٣) في ١٩ كانون الأول ١٩٤٩ الذي قام به أديب الشيشكلي، وأطاح باللواء سامي الحناوي زعيم الانقلاب رقم (٢)، ذلك الحصان الخاسر الذي راهن عليه العراق آنذاك. فهو ليس بالشخص الذي يستطيع أن يحكم سوريا في مثل تلك الظروف المضطربة، إذ ليس لديه لا المؤهلات العسكرية ولا الشخصية ولا الشعبية ولا السياسية التي تؤهله لحكم شعب صعب المراس كالشعب السوري(*).

لما ناقشت الجمعية التأسيسية صيغة القسم الذي يؤديه رئيس الجمهورية والوزراء وأعضاء الجمعية الوطنية والذي أعدته لجنة ثلاثية من الموالين للعراق، ورد في القسم فقرة تنص على توحيد البلاد العربية، ولم يرد فيه نص على الاخلاص والمحافظة على النظام الجمهوري، الامر الذي حمل الشيشكلي على استغلاله واثارة نخوة بعض الضباط بأن ذلك النص يعني التطويح بالنظام الجمهوري وتسليم سوريا الى العراق ومن ورائه الى الاستعمار البريطاني، فتآمر مع اللواء المرابط في معسكر (القابون) فزحفت الدبابات على دائرة الأركان في دمشق واعتقلت الحناوي وأنصاره الذين يشغلون المناصب الحساسة وأحيلوا على التقاعد أمثال محمد المعروف ومحمود الرفاعي وبهيج الكلاس وعصام مريود وعلم الدين القواص وغيرهم من الاداريين، وذلك بانقلاب ابيض دون سفك دماء، وأسند منصب رئاسة الأركان الى أحد العسكريين من الرتب العالية هو اللواء أنور بنود وتولى الشيشكلي منصب معاون رئيس اركان الجيش، ولكنه في الواقع كان الكل في الكل، سياسياً وعسكرياً، غير أنه فضّل إن لا يظهر على سطح الأحداث، لما عرف عنه من دهاء وحنكة.

وقبل أن أغادر بغداد الى دمشق في مهمتي الثانية، كنت أتولىّ منصب المدير العام للشؤون العربية، وكنت على اتصال دائم شخصياً ورسمياً بشاكر الوادي وزير الدفاع ووكيل وزير الخارجية في وزارة نوري السعيد التي سبقت وزارة علي جودة، وكنت أسمع منه أن نوري السعيد ليس متحمساً لموضوع الاتحاد، ولا يرغب في الدخول في المزايدات الجارية بين الدول العربية والسوريين، ومن رأيه أن العراق لو أنفق ديناراً واحداً على هذا الموضوع لأنفق السعوديون والمصريون والفرنسيون آلاف الدنانير، التي ستجد في النهاية طريقها لتضخيم ارصدة السياسيين السوريين في البنوك اللبنانية والفرنسيّة والسويسرية وأن كل ما يسعى من أجله هو أن تكون في سوريا حكومة موالية للعراق لتأمين مرور خطوط أنابيب النفط عبر أراضيها الى البحر الأبيض المتوسط.

* * *

(*) اعتقد باني لست متجنياً على الحناوي في هذا التقييم لشخصيته، فلا يجوز لمن يقوم بانقلاب عسكري ويقتل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ان يمنح نفسه كامل حرية التصرف والتنقل، وكأنه ليس (مطلوباً) في بلد ما زال يرزح تحت التقاليد والاعراف القبائلية. فبعد اطلاق سراح الحناوي من السجن في ٧ أيلول ١٩٥٠ أي بعد سبعة اشهر من البرقية التي وردت الى المفوضية بتاريخ ١٥ شباط والتي سيأتي الكلام عنها، للعمل على اطلاق سراحه، اختار الأقامة في لبنان وقد شاهدته ذات يوم في مصيف برمانا جالساً في الحديقة الأمامية للفيلا التي كان يصطاف فيها دون أية حيطة أو حماية، محاطاً بعائلته وأطفاله فقط، وقد منح نفسه (الراي والأمان) وهالني كون الرجل (عبيط) لهذه الدرجة. وبعد شهر واحد من اطلاق سراحه وبينما كان (يتسردح ويتمندل) في باب ادريس ببيروت قبل ظهر يوم ٣١ تشرين الاول ١٩٥٠ أطلق عليه النار أحمد حرشو البرازي ابن عم محسن البرازي رئيس الوزراء الذي أمر الحناوي باعدامه بعد محاكمة صورية ليلة الانقلاب الذي قام به في ١٧ آب ١٩٤٩ فأرداه قتيلاً ثأراً لأبن عمه المغدور. أن الثأر والانتقام وما شاكل ذلك من العادات والتقاليد والاعراف العشائرية ما تزال مرعية في كثير من المجتمعات العربية، فأن الدروز الذين قصف الشيشكلي قراهم وقتل نساءهم واطفالهم قد (لقطوه) وصفوا حسابهم معه وهو في مجاهل غابات الأمازون في البرازيل في ٢٧ أيلول ١٩٦٤ من قبل أحد الدروز المدعو (نوّاس الغزالي) كما سيأتي بيانه تفصيلاً.

أولئك القوميون، يتناقشـون ويتهامسـون ويتشاورون بعضهم مـع بعض ومع من يتصـل بهم من السوريين، يقابلون هذا وذاك، ويغدقون الأموال جزافا هنا وهناك وعلى (عينك يا تاجر) وكأنما الذي يقدم على عمل خطير كالاتحاد بين سوريا والعراق مع وجود خصوم أشداء وأعداء الدّاء ـ سواء في داخل سوريا أو في خارجها ـ يجوز له أن يتصرف كما تصرف ذلك الوفد، فجعل من الموضوع (هوسه يا ريمه)، الامر الذي برر إبعاده من دمشق. وكل ما فعله رئيس الوفد الذي أوفد الى دمشق لأتمام صفقة الاتحاد هو إعداده صيغة اليمين الدستورية، ومن ثم ارساله برقية، دون أن يتلقى طلباً من الأتاسي رئيس الدولة، يطلب فيها ارسال الجيش العراقي الى سوريا، ليتلقى جواباً سلبياً من بغداد بعد أجتماع عقد في البلاط حضره نوري السعيد وأحمد مختار وشاكر الوادي وفاضل الجمالي برئاسة الامير عبدالإله، وذلك بناءاً على رفض رئيس أركان الجيش العراقي صالح صائب الجبوري الذي استدعي لذلك الاجتماع، الأقدام على هذه الخطوة لما سيكون لها من مضاعفات سياسية وعسكرية خطيرة.

باعتقادي أن المسؤولين عن كل ذلك التصرف والتخبط هم أولئك الفريق من السياسيين العراقيين أمثال توفيق السويدي وصالح جبر وفاضل الجمالي والسيد عبدالمهدي وبعض أعضاء حزب الاستقلال أمثال صديق شنشل وفائق السامرائي الطامعين بكراسي الحكم عن طريق استغلال عواطف الامير عبدالإله ومداعبة أحلامه بعرش في سوريا(*)، وكذلك أعضاء حاشية الامير في البلاط أمثال أحمد مختار بابان وعلي حيدر الركابي، وغيرهم من هنا وهناك من أشخاص غير متجانسين ولا وزن سياسي لهم، أمثال عبدالهادي البجاري وعباس حلمي الحلي وكثير غيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم بعد هذه السنين الطويلة. فهم المسؤولون عن مسرحية أوريان بالاس، وكلما غادر فريق منهم دمشق حل محله (الملوم) آخر، لا لشيئ سوى (شم الهوا) على حساب العراق. بحجة الدعوة للاتحاد، وتسدد المفوضية قوائم حساباتهم وحتى مصروفاتهم الشخصية، وان الوحيد الذي كان متواجداً في دمشق لذلك الغرض وأبى تسديد قوائمه ومصروفاته من قبل المفوضية هو الدكتور عبدالمجيد القصاب، أما والوحيد الذي سجل على نفسه الانتهازية والابتزاز فهو الدكتور سعيد الحديثي الذي أجرى عملية جراحية في دمشق وسددت المفوضية أجورها وكافة نفقات المستشفى.

* * *

في ١٠ كانون الثاني ١٩٥٠ بينما كنت أتناول طعام الغذاء، واذا (عزيز) مأمور بدالة وزارة الخارجيـة يبلغني بأن فخامـة الوزير يرغب مقابلتي فـوراً. فنفضت يدي من الطعـام وهرعت الى الوزارة مسـتعيذاً بالله من هـذه المقابلـة، لأني أعلـم بأن وزير الخارجيـة ونائب رئيس الوزراء مزاحم الباچه چي (ما ينحطّ بالعبّ).(**) دخلت عليـه وإذا بـه يفجئني بالخبر التالي قائلا: «عدت الأن من البلاط، وقد أمر سـيدنا أن تسـافر حالاً الى دمشق لتكون قائماً بالأعمال بصورة دائمية AD HOC، إذ ليس في نية الوزارة ارسال وزير مفوض بعد الآن الى دمشق، وسترسل لك دائرة التشريفات أوراق الاعتماد بعد وصولك حالاً. ولما كنت قد فوجئت بهذا الخبر صرت أتبحّر بوجه الوزير عن غير وعي وأنظر اليه نظرة تعجب واستغراب، فقال: «أشبيك دا تخنزر عليّ؟» أجبته: عفواً فخامة الوزير

(*) لم يظفر صديق شنشل بكرسي الوزارة إلاّ بعد عشر سنوات عندما تولى منصب وزير الدعاية لعبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف في ١٤ تموز ١٩٥٨، أما زميله فائق السامرائي فقد اقتنع بمنصب سفير العراق في القاهرة



الدكتور عبدالمجيد القصاب، العراقي الوحيد الذي كان متواجداً في دمشق سنة ١٩٤٩ وأبى أن تُصرف نفقات اقامته من خزينة الدولة. أما الآخرون فقد أكلوا وشربوا وناموا وتطبّبوا و«شمّوا الهوا» و«تخوردوا» على حساب الخزينة العراقية، بدعوى العمل من أجل الاتحاد بين سورية والعراق.

اني قد فوجئت بهذا الخبر، حيث اني قد عدت الى بغداد مؤخراً وبعد غياب خمس سنوات في الخارج، وقد رتبت شؤوني العائلية على هذا الأساس، وسجلت أولادي في المدارس، وتساءلت منه: هل بالامكان إرسال غيري من الموظفين الى دمشق؟ فأجاب: «والله آني ما أعرف، هذا أمر سيدنا. . .» أما الحقيقة كما تبيّنتْ لي بعدئذٍ فهي ان اختياري لدمشق كان بتنسيب علي جودة رئيس الوزراء، الذي

(**) ان اصطلاح (ينحطّ بالعبّ) قد شاع في بغداد، وقصته معروفة لدى بعض الاوساط. ففي احدى الحفلات التي اقيمت في بهو امانة العاصمة كان مزاحم الپاچهچي أحد الحاضرين فأقبل نوري السعيد بصحبه السيد عبدالجليل الراوي، فسأل نوري مزاحم: منو أضرب، عبدالجليل لو خاله نجيب؟ فأجاب مزاحم: عبدالجليل يحطّك ويحط خاله نجيب بعبّه؟ وقد حصلت معي حالة مماثلة، ولم اكن قد سمعت يومئذ بما جرى بين مزاحم ونوري. كانت الوزارة قد استدعت عبدالجليل الراوي عندما كان وزيراً مفوضاً في دمشق للمذاكرة، وكنت يومئذ وكيل الوزارة بالوكالة، ولما حضر عبدالجليل دخلت على نوري السعيد وقلت له: پاشا كنتم قد استدعيتم عبدالجليل، وها هو ذا قد حضر: فقال لي نوري السعيد: عبدالجليل ما يحطك إلك بعبّه؟. ولما كنت لم اسمع يومئذ عن النكتة بين مزاحم ونوري، ابتسمت وخرجت، ثم أدخلت عبدالجليل الى غرفة الوزير وتركتها لوحدهما.

المفوضية الملكية العراقية
١٢/١/٩٥٠
وسجل برقم: ٢/٤٥/٢٦

وزارة الخارجية

شعبة الذاتية

الرقم ذ/ [illegible]

التاريخ   كانون الثاني ١٩٥٠

ـ أمر وزاري ـ

بالاشارة للفقرة الاولى من الامر الوزاري المرقم ذ/ ١٠٢٤ والمؤرخ في ٢١/٩/١٩٤٩ يعاد السيد أمين المميز السكرتير الاول في المفوضية الملكية العراقية في دمشق من الاشتغال الوقتي بديوان الوزارة ويلتحق بوظيفته الاصلية في دمشق ويعمل بصفة قائم بالاعمال ويتسلم الدور من معالي السيد ابراهيم عاكف الالوسي الوزير المفوض هناك الذي تقرر استقدامه للاشتغال بديوان الوزارة وفقا للأمر الوزاري المرقم ذ/٢٤٦/١٢٧٥ والمؤرخ في ١/١٢/١٩٤٩.

[توقيع]
وزير الخارجية

نسخة منه الى :-
وزارة المالية
المفوضية الملكية العراقية/ دمشق
مديرية المحاسبات العامة
مديرية التشريفات العامة
مديرية الخزينة المركزية
معالي السيد ابراهيم عاكف الالوسي
السيد أمين المميز

عملت بمعيته عدة سنوات في مفوضية لندن وسفارة واشنطن وفي ديوان وزارة الخارجية(***) ولمّا عرض وزير الخارجية ترشيحي لدمشق على الأمير وافق على ذلك، اذ سبق للامير أن تعهد لرئيس الوزراء بتسهيل مهمته عندما وافق على تأليف الوزارة. فالمبادرة اذن لم تكن من الامير كما زعم وزير الخارجية ولكنها كانت بتنسيب من رئيس الوزراء وهو الذي كلف وزير الخارجية بعرض الأمر على الوصي لأستحصال موافقته حسب الأصول الرسميّة.

* * *

صدر أمر نقلي الى دمشق في ١٠ كانون الثاني ونويت السفر في ١٥ منه، وكان الوزير مزاحم الپاچه‌چي قد أصدر قبل ذلك أمراً بترفيعي الى درجة أعلىٰ، وفي ١٤ كانون الثاني قصدت البلاط للاستئذان بالسفر والسلام على الحاشية، فقابلت رئيس الديوان أحمد مختار بابان ورئيس التشريفات الملكية تحسين قدري وناظر الخزينة الخاصة سعيد حقي، ثم زرت معاون رئيس التشريفات نوري عبدالوهاب القره‌غولي لأرتب موعداً لمقابلة الوصي، فالتقيت في غرفته بعلي حيدر الركابي الذي كان

(***) وبهذا الصدد أود ان أكتب لمحة عن علي جودة، لوجه الله وللتأريخ: تعرفت عليه سنة ١٩٣٤ عندما زودني برسالة التزكية المؤرخة في ١٣/٣/١٩٣٤ الى الدكتور عبدالله الدملوجي وزير الخارجية يومئذٍ، يرشحني للتعيين في السلك الخارجي اذا نجحت في امتحان المسابقة. وفي سنة ١٩٣٦ طلب نقلي الى المفوضية العراقية في لندن عندما كان وزيراً مفوضاً هناك. وفي سنة ١٩٤١ أعاد تعييني الى وظيفتي بوزارة الخارجية التي كان قد الغاها سلفه نوري السعيد سنة ١٩٤٠. وفي سنة ١٩٤٦ نسبني عضواً في الوفد العراقي الذي كان برئاسته للاجتماع الأول لهيئة الأمم المتحدة الذي عقد في لندن. وفي سنة ١٩٤٧ رحب بنقلي الى واشنطن عندما كان سفيراً هناك. وفي سنة ١٩٤٩ عينني قنصلاً في نيويورك وممثلاً للعراق في مجلس الوصاية التابع للامم المتحدة. وفي سنة ١٩٥٠ رشحني قائماً بأعمال المفوضية العراقية في دمشق في ظروف الاتحاد بين سوريا والعراق الصعبة، وهو رئيس للوزارة ومزاحم الپاچه‌چي وزيراً للخارجية. وفي سنة ١٩٥٧ تقدم بطلب لمجلس الوزراء لتعييني سفيراً بديوان وزارة الخارجية، كما عملت بمعيته مراراً وهو وزير للخارجية ورئيس للوزارة. وبعد ثورة ١٩٥٨ كنا على اتصال دائم وهو جاري في الصرافية، نتبادل الدعوات والزيارات العائلية. وفي سنة ١٩٦٧ أشرفت على طبع كتابه (مذكرات علي جودة) في بيروت. كان يومئذ متردداً في نشر مذكرة الملك فيصل الاول المؤرخة في آذار ١٩٣٣، ففاجأني ذات يوم في أوتيل كناري في ضهور الشوير على غير موعد مستصحباً المذكرة ليستمزج رأيي في نشرها. فحبذت له نشرها لأهميتها التاريخية ولعدم وجود محذور عراقي من نشرها وقتئذٍ، فنشرت في الصفحات الاخيرة من الكتاب بعد ان بذلنا الجهد الجهيد في توضيح الكلمات والعبارات التي عفى عليها الزمن.

ولد علي جودت ونشأ في الموصل وتخرج ضابطاً في الجيش العثماني واشترك في الثورة العربية ورافق الجيش العربي بقيادة الملك فيصل الاول باحتلال دمشق واقامة الحكم الوطني في سورية حيث عين حاكماً عسكرياً لمدينة حلب وتزوج هناك. وبعد تشكيل الحكم الوطني في العراق تقلد منصب متصرف في عدة ألوية، ثم تولى وزارة الداخلية ووزارة المالية والف ثلاث وزارات أولها سنة ١٩٣٤ وآخرها سنة ١٩٥٧.

ثقافته عسكرية صرفة، لا يجيد من اللغات الأجنبية غير التركية، ومن الانگليزية ما يكفي لاستيعاب ما يقرأ وما يسمع. قابليته في الكتابة والخطابة محدودة، يملك موهبة حسن التقدير وحسن التصرف، معتدل في سياسته، يمقت العنف والتطرف والمراشقات والاستفزازات وخاصة في سياسته العربية، يحترم مرؤوسيه ويجاملهم الى أبعد الحدود، عف اللسان لم أسمع منه مرة واحدة أنه أسمع مرؤوساً له كلمة نابية أو اتخذ بحقه أجراءاً قاسياً، وفياً لأصدقائه وصداقته مع جميل المدفعي وعارف قفطان مضرب المثل في بغداد، وإذا وضع ثقته في شخص فمن العسير زعزعة تلك الثقة، مجامل ومؤدب مع كافة الناس، ويفرض على الغير، كائناً من كان، الاحترام والتبجيل. كان علي جودة من اكثر من عرفت من رجالات العراق السابقين حرصاً على القضية الفلسطينية. ففي إحدى المناسبات وأنا أكتب تقريراً لوزارة الخارجية عن ضياع فلسطين بعد صدور قرار التقسيم، وهو يملي عليّ رؤوس الأقلام، توقف هنيهةً و(خنگته العبره) واغرورقت عيناه بالدموع.

اللولب والموجّه والمسيّر لكل الفعاليات المتعلقة بموضوع الاتحاد داخل البلاط وخارجه ، وعلى وجهه وتصرفاته امارات التعالي والاستكبار، فرتب نوري عبدالوهاب موعداً مستعجلاً وقدّمني على قائمة مواعيد مقابلات الأمير لذلك اليوم .

دخلت على الوصي وبينت له «بأني سأسافر الى دمشق ، فأرجو أن أتلقى توجيهاتكم» . فبادرني بطلب أذهلني وأفقدني صوابي ، فقال : «ان ما أريده منك هو أن تبذل أقصى الجهود للحصول على كتاب من هاشم الاتاسي موجه الى الحكومة العراقية يطلب منها ارسال الجيش العراقي الى سوريا لمساعدتها في حفظ الأمن الداخلي ودعم القوات السورية المرابطة على الحدود الاسرائيلية» . لقد وجمت من هذا الطلب الخطير، فاستبقني لساني فسألته : سيدي : أرجو أن تسمح لي بأن أسأل سؤالاً ؟ قال : ماهو:قلت : سيدي : هل تفاهمتم مع الدول الأخرى حول الموضوع ، لأن سوريا مرتبطة مع اسرائيل باتفاقيات الهدنة والعراق لم يوقع على هذه الاتفاقيات ، وان دخول الجيش العراقي الذي هو في حالة حرب مع اسرائيل سيكون مبرراً وذريعة للهجوم على الجيشين العراقي والسوري . فأجاب : «أنت معليك من الدول الأخرى ، بس حصّل الكتاب من هاشم الاتاسي والباقي علينا» .

خرجت من المقابلة وأنا (دايخ) وغادرت البلاط ولا أستطيع السيطرة على مقود سيارتي ، فقلت في نفسي : «خلف الله عليك يا مزاحم الپاچه‌چي ، حفرت لي خوش گبر مشهدي» . انه أمر خطير بالنسبة لي ولمستقبلي ، فلا درجتي المسلكية تتحمل مثل هذه المسؤولية ، لأني لم أكن قد بلغت يومئذٍ لا درجة وزير مفوض ولا درجة سفير، ثم ان منزلتي السياسية لا تؤهلني لمثل هذه المخاطرة ، فأنا لا انتسب الى حزب سياسي ولا الى كتلة معينة ، وان علاقاتي برجال السياسة لاتعدو كونها علاقة صداقات شخصية ، ومعظمها سطحية وعابرة ، ولا أتوقع سنداً من أحد إذا ما لحقني سوء ، إذ سيتبرأ مني حتى أقرب الأصدقاء إليّ إذا ما جدّ الجدّ .

* * *

في مساء ذلك اليوم اجتمعت بالزعيم عبدالمطلب الأمين الملحق العسكري في دمشق في داره بالأعظمية ، إذ كان قادماً من دمشق يومئذٍ ، لأتوكأ عليه لتنويري عن الوضع الحقيقي في دمشق ، لأنه كان القطب والمنفذ الحقيقي لسياسة العراق في سوريا فيما يتعلق بمشروع الاتحاد وغيره ، وكان حاضراً في ذلك الاجتماع صدّيق شنشل الذي كان اللولب الفعال والوسيط بين البلاط وحزب الاستقلال ورجال السياسة الأخرين الذين يعملون في مشروع الاتحاد ، وقد سلمني صديق شنشل بعض المشاريع الاتحادية المقدمة من السوريين والعراقيين ، والتي كانت موضع المفاوضات يومئذٍ ، أنشرها لفائدة المعنيين بهذا الموضوع .

* * *

مسودة المشروع العراقي رقم ١

الذي حمله عمر نظمي نائب رئيس الوزراء الى الشام

في ١٩٤٩/٩/١٧ (بعد عودة احمد مختار بابان) رئيس الديوان الملكي

تثبيتاً للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط القطرين سورية والعراق وحرصاً على دعم هذه الروابط وتوطيدها واستجابة للرأي العام العربي بصورة عامة والراي السوري والعراقي بصورة خاصة وتحقيقاً للأهداف التي ترمي اليها جامعة الدول العربية واستناداً الى المادة التاسعة من ميثاق الجامعة المشار اليها.
تم الاتفاق بين الفريقين على ما يأتي:ـ

١ ـ تتعهد كل من الحكومتين السورية والعراقية بقبول مبدأ توحيد العرش في المملكتين والعمل على تحقيق ذلك على اساس ان يبقى كل قطر محتفظاً بكيانه واستقلاله الدولي ضمن نظام الحكم الدستوري المقرر فيهما.
٢ ـ تتعهد كل من الحكومتين بأن تعقدا فيما بينهما اتفاقيات لغرض تنظيم الدفاع المشترك والشؤون الخارجية والامور الاقتصادية التي تهم البلدين وكل ما تدعو الحاجة اليه من امور تتعلق بمصالحهما المشتركة.
٣ ـ ويكون من المفهوم لدى الطرفين ان ما جاء في المادتين المذكورتين اعلاه يجب ان يتم تحقيقه بالطرق الدستورية المرعية في القطرين السوري والعراقي.
٤ ـ ويكون من المرغوب فيه تأسيس هيئة بشكل وبعنوان يتفق عليهما فيما بعد للنظر والبت في الاختلافات المحتمل حصولها في تفسير احكام الاتفاقات الآنفة الذكر والتشريعات الاخرى التي تتعلق بالقضايا المشتركة.

مسودة المشروع العراقي رقم ٢

بعد المقدمة
تم الاتفاق على ما يأتي:

١ ـ توحيد العرشين في القطرين السوري والعراقي على ان يكون جلالة الملك فيصل الثاني ملك العراق ملكاً دستورياً للمملكتين على أساس ان يبقى كل قطر محتفظاً بكيانه واستقلاله الدولي ضمن نظام الحكم الدستوري المقرر فيهما.
٢ ـ آ ـ تأليف مجلس اتحاد ينتخب اعضاؤه من قبل مجلس الامة لكل من القطرين من بين اعضائها ومن عدد من الخبراء تعينهم كل حكومة على وجه التساوي ويكون وزراء الخارجية والدفاع والمالية لكل من المملكتين اعضاء طبيعيين في المجلس المذكور.
ب ـ لا يزيد اعضاء المنتخبين للمجلس المذكور على (   ) والاعضاء الخبراء المعينين على (   ) على ان ينتخب نصف الاعضاء من قبل البرلمان السوري والنصف الآخر من قبل البرلمان العراقي.
ج ـ ويكون لمجلس الاتحاد رئيسان أول وثان ينتخبان من قبل اعضائه على ان يكون احدهما سورياً والآخر عراقي.
٣ ـ ينظر مجلس الاتحاد في:ـ
آ ـ تنظيم التمثيل الخارجي في المملكتين وتأمين الانسجام في السياسة الخارجية.
ب ـ الامور المتعلقة بشؤون الدفاع العراقي المشترك من تنظيم الخطط وتوحيد القيادة وتأمين وحدة التدريب وتجانس الاسلحة وغير ذلك مما له علاقة بشؤون الدفاع.
ج ـ الشؤون المالية والاقتصادية التي تهم البلدين على اساس تأمين وحدة اقتصادية للمملكتين.
د ـ تغيير احكام هذه المعاهدة والتشريعات الاخرى التي لها علاقة بالقضايا المشتركة.
٤ ـ تكون قرارات مجلس الاتحاد نافذة ومعمولاً بها في المملكتين دون ان تكون تابعة الى اجراءات اخرى ما لم تتطلب

وتمارس السلطات الاتحادية كما يأتي:

١٤- (١) يعين مجلس الوصاية رئيساً لوزارة الاتحاد ووزرائه بناء على اقتراح الرئيس (٢) يكون مجلس الوزراء مسؤولاً امام المجلس التأسيسي (٣) يكلف باتخاذ كافة التدابير لتوجيه الادارات الاتحادية وريثما يتم الوزراء هذا التوجيه تستمر الوزارات الحالية في كل من سورية والعراق على ممارسة أعمالها تحت اشراف الوزير الاتحادي.

محضر ما تم عليه الاتفاق بين ممثل الحكومة العراقية
معالي السيد عمر نظمي نائب رئيس الوزراء وبين معالي السيد عدنان الاتاسي
ممثل الحكومة السورية في الاجتماع المنعقد في القصر الابيض في بغداد
بتاريخ ١٩٤٩/٩/٢٧

١ - بعد تلقي جواب الحكومة البريطانية عن موقف الحكومة الامريكية بخصوص اتحاد القطرين العراقي والسوري تفاتحهما الحكومتان العراقية والسورية بالاشتراك عن امكان ومدى حدود الاتحاد بين سورية والعراق وذلك تجنباً من الاختلاطات والارتباكات الدولية.

٢ - على الحكومة السورية ان تستطلع الراي السوري عن شكل نظام الحكم الذي يرغب به الشعب السوري فاذا كان النظام المرغوب فيه ملكياً وكان ذلك الملك هو ملك الدولة العراقية فما هي الطريقة التي يجب ان تتبع لممارسة حقوق الملك في هذه الحالة.

٣ - يجب ان تحل قضايا المصالح المشتركة بين سوريا ولبنان ومدى تاثير هذه المصالح على الاتحاد المالي والكمركي الذي سيكون بين الحكومتين العراقية والسورية وكل ما له مساس بذلك من قضايا الاتحاد. وعلى العراق ان يتباحث مع حليفته الحكومة البريطانية عن ضرورة حصر شمول المعاهدة العراقية البريطانية على العراق فقط في حالة الاتحاد او استبدالها بمعاهدة جديدة مع الاتحاد.

٤ - اذا تم التفاهم على المواد الآنفة الذكر بالشكل المرضي للطرفين تهيأ حينذاك أسس مشروع الاتحاد (فدراسيون) ويتفق عليه بين الحكومتين العراقية والسورية لعرضه على مجلسي الدولتين التشريعية للمصادقة عليه وبعد المصادقة على الاسس المذكورة اعلاه تؤلف لجان مشتركة ذات اختصاص من قبل الحكومتين العراقية والسورية لوضع دستور الاتحاد وبعد الانتهاء منه وتأييده من قبل الحكومتين تتخذ التدابير الدستورية المتفقة لاكتسابه الصفة الشرعية ليكون نافذ المفعول.

ممثل الحكومة العراقية	ممثل الحكومة السورية
عمر نظمي	عدنان الاتاسي

المشروع العراقي الذي قدم بعد المشاريع المدرجة اعلاه، أثبته ادناه استكمالاً للبحث:

« ليس بخافٍ ان سياسة العراق القومية كانت وما زالت تهدف دائماً الى وحدة العرب وجمع كلمتهم وقد اعلنت الحكومة العراقية في خطاب العرش بتاريخ ١ كانون الاول سنة ١٩٥٢ بأن السبيل الوحيد لانقاذ العرب من محنتهم الحاضرة ومجابهة الخطر الاسرائيلي واقرار السلم في هذا القسم الحيوي من العالم هو تحقيق الاتحاد العربي وهي ماضية في هذه الخطة وقد لاحظت الحكومة العراقية بسرور وابتهاج ما رددته مصر الشقيقة بلسان رئيسها ورجال حكومتها من الرغبة الصادقة في اتحاد البلاد العربية وقد جددت مثل هذه الرغبة في فترات متفاوتة من قبل رؤساء حكومات الدول العربية الاخرى وقد رأى الوفد العراقي تحقيقاً لسياسته واستجابة للرغبة الكريمة التي ترددت في الدول العربية الاخرى تقديم المذكرة التالية وقد حرص على ان تكون اجمالية مختصرة وارجاء التفصيل الضروري الى المفاوضات المرجوة حين قبوله والشروع في تنفيذه.

(1)

١ - لم يعد اتحاد الشعوب العربية خيالاً يداعب مخيلة المعنيين بالمثل العليا بل اصبح ضرورة قومية لازمة للامة

العربية كافة يتوقف عليها وجودها كما تتوقف عليه في الوقت نفسه القدرة الاكيدة على درء الاخطار التي تحدق بالامة العربية وحل المشاكل التي تواجهها.

٢ - واذا ما سلمنا بتلكم الحقائق وأدركنا الخطر الداهم الذي يهدد الكيان العربي فواجب محتوم على الدول العربية ان تبادر الى الأخذ عملياً بمبدأ الاتحاد مع تقدير احتمال انها لا تستطيع كلها مجتمعة وبسرعة واحدة السير في طريق الاتحاد وذلك لعوامل واعتبارات جغرافية وداخلية واجتماعية موقوتة تخص كل قطر من الاقطار العربية.

٣ - ان القول بضرورة السير الاجماعي نحو الاتحاد المنشود بسرعة واحدة من قبل الدول اعضاء الجامعة كلهم قد أخر قضية الاتحاد العربي التي يهدف اليها ميثاق جامعة الدول العربية.

٤ - وعليه فان الواجب على الدول ذات الممكنات الراهنة لتحقيق الاتحاد ان تشرع فوراً وان تمضي قدماً لتحقيقه على ان تساعدها الدول الاخرى ريثما تستطيع بدورها الانضمام الى هذا الاتحاد بصورة طبيعية.

٥ - لا شك في ان اي اتحاد يتم بين دولتين واكثر يجب ان ينبعث عن قناعة شعوب تلك البلاد وحكوماتها بما تمليه وحدة المصالح والاهداف ولا يجوز السير بالاتحاد على اسس غير ديمقراطية ونحن مطمئنون الى ان شعوب الدول العربية سائرة عاجلاً ام آجلاً نحو هذه الغاية.

(ب)

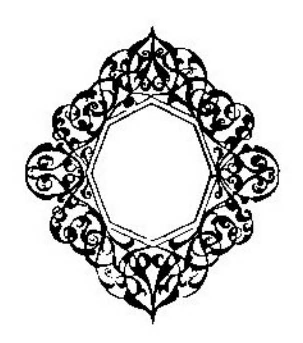
١ - تجرى مفاوضات بين الدول التي تستطيع وتريد الدخول في الاتحاد على الأسس التي يرغب في انشاء الاتحاد عليها وبعد التوصل الى اتفاق في هذا الخصوص تحاط جامعة الدول العربية علماً بذلك وهي بدورها تحيط الدول الاعضاء علماً بذلك.

٢ - تشرع الدول الراغبة في الاتحاد في سن دستور الاتحاد ويعرض على برلماناتها لاقراره ثم تعدل دساتيرها على هذا الاساس.

٣ - يستهدف الدستور الاتحادي وحدة السياسة الخارجية والدفاع والشؤون الاقتصادية المشتركة وغير ذلك مما اتفق عليه المتفاوضون وينص الدستور على الاداة الاشتراعية والتنفيذية للاتحاد.

٤ - ان العراق ليعرب عن استعداده في الدخول في اتحاد مع اي قطر من الاقطار العربية الراغبة فيه ويرجو مخلصاً ان يلقىٰ من لدن الاعضاء مثل الرغبة التي يحسها ويعمل لتحقيقها.

٥ - والى ان تنتهي جميع الدول الاعضاء في الجامعة العربية الى الاتحاد فأن الجامعة العربية تظل أداة تعمل لأرباط المجموعة العربية الكبرى بعضها ببعض.»



« المشروع السوري »

مشروع الفدراسيون المقدم من قبل الحكومة السورية

ان حكومة سورية والعراق عقيدة منهما بوحدة الاهداف القومية ووحدة الاماني لدى كل من شعبي سورية والعراق وبوحدة المصالح السياسية والاقتصادية فيما بينهما، ولما كانت الظروف بحالة من الناحية السياسية تجعل اتحادهما شرطاً اساسياً من شروط الدفاع عن الحياة... الخ:

تتعهدان بالعمل ضمن قواعد الحرية التامة على ان تقر مجالسهما التشريعية باعتبارها مجالس اسسية وفقاً لقوانين كل منهما رغبة، الشعبين بالاتحاد مع المحافظة على استقلالهما وذلك ضمن الشروط التالية

١ - يتكون من دولتي العراق وسورية اتحاد دولي باسم (اتحاد الدول العربية) ذو كيان دولي تام.

٢ - تتنازل كل من دولتي العراق وسورية الى الدولة الاتحادية عن جزء من اختصاصاتها المذكورة ادناه ويحتفظ فيما عداه بالسيادة التامة.

٣ - تنحصر اختصاصات الدولة الاتحادية كما يأتي:

آ - الشؤون العسكرية وحماية الحدود.

ب - الشؤون الخارجية والاتصال بالدول الاجنبية وعقد المعاهدات والتمثيل السياسي.

ج - الشؤون الاقتصادية العامة بما فيه وحدة الحدود الكمركية ووحدة النقد والانحصارات والبترول.

٤ - يرأس الدولة الاتحادية حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني ملك العراق.

٥ - يتمتع صاحب الجلالة ملك الاتحاد بجميع السلطات التنفيذية التي ينص عليها دستور الاتحاد بمعاونة مجلس وزراء الاتحاد المتكون من وزراء عراقيين وسوريين.

٦ - يمارس السلطة التشريعية للاتحاد مجلس ينتخب من العراق وسورية بعدد متساو ويمارس هذا المجلس الرقابة السياسية على مجلس وزراء الاتحاد الذي يكون مسؤولاً امامه.

٧ - تؤلف محكمة دستورية للاتحاد تعين حكومة العراق نصف اعضائها وحكومة سورية النصف الآخر ويتمتع اعضاؤها بالحصانة التامة. ولهذه المحكمة ان تلغي القوانين الدستورية التي يضعها الاتحاد والقوانين التي يضعها كل من مجلس الاتحاد والمجالس التشريعية لدولتي العراق وسورية فيما اذا تجاوز احدهما على اختصاصات الآخر بالنسبة لدستور الاتحاد.

٨ - تمارس حكومة الاتحاد اعمالها بواسطة موظفي الاتحاد السوريين والعراقيين وحكومتي سورية والعراق وتكون موازنة الاتحاد من بعض الواردات في جميع اراضي الاتحاد.

٩ - للاتحاد عاصمتان دمشق منذ ١ نيسان حتى ٣٠ ايلول وبغداد منذ ١ تشرين اول حتى ٣١ آذار.

١٠- العقود والاتفاقات التي تمنح بعض الدول حقوقاً مادية والمعقودة بين احدى دولتي الاتحاد ودولة اجنبية او شركة او أفراد أجانب تبقى ملزمة لتلك الدولة تصفى ضمن مبادئ الحقوق والعدل والتفاهم التام. اما المعاهدات ذات الصبغة السياسية فيتعهد الطرفان على التذاكر بشأنها قبل تكوين الاتحاد فيما بينهما ومع الدول ذات العلاقة قصد الوصول الى تصفيتها او الاستعاضة عنها بمعاهدات يعقدها الاتحاد لتأمين وضمان مصالح الفريقين ضمن حدود السيادة الوطنية.

١١- يحق للدول العربية الاخرى ان تنضمّ الى الاتحاد بأرادة شعوبها وبقرار يتخذه مجلس الاتحاد باكثرية الثلثين.

١٢- بعد ان تقر المجالس التشريعية او التأسيسية لكل من دولتي العراق وسورية وتعلن رغبة الشعبين في إقامة دولة الاتحاد ينتخب مجلس تأسيسي مؤلف من عددٍ متساو من الملكتين العراقيتين والسوريتين (*) لوضع دستور الاتحاد فوراً.

١٣- ريثما يتم المجلس المذكور في المادة السابقة وضع دستور الاتحاد تعتبر دولة الاتحاد قائمة منذ اجتماع المجلس

(*) هكذا وردت في النسخة التي بحيازتي والأصح (المملكتين العراقية والسورية).

غادرت بغداد فجر يوم ١٥ كانون الثاني ١٩٥٠ بسيارتي الخاصة مستصحباً ملاحظ المفوضية عدنان صبري مراد، فوصلت دمشق مساءاً ونزلت في المفوضية العراقية في حي المهاجرين وكانت قد هُيئت لأقامتي، وهي بناية قديمة تعود لعائلة عزت پاشا العابد مشيدة على طراز أبنية القرن التاسع عشر ولا تكفل راحة ساكنيها وخاصة سكنى عائلة ذات عدة أطفال، وعلى وجه الخصوص في فصل الشتاء، لذلك قررت ابقاء عائلتي في بغداد.

لقد وجدت الجوّ السياسي في دمشق مكهرباً ضد العراق، ومع ذلك فان الصحافة السورية وخاصة الموالية للعراق قد نشرت خبر تعييني بعبارات ترحيبية وودية وموضوعية، فذكرت نبذة عن المناصب التي شغلتها في السلك الخارجي، كما ذكرت نبذاً عن مؤلفاتي، ومن هذه الصحف جريدة الايام لصاحبها نصوح بابيل وجريدة القبس لصاحبها نجيب الريس وجريدة النصر لصاحبها وديع صيداوي، اما الصحف الاخرى كالمنار لسان حال الاخوان المسلمين والانشاء لسان حال الحزب التعاوني الاشتراكي الذي يرأسه فيصل العسلي والكفاح وغيرها من الصحف - وكانت يومئذٍ كثيرة - فقد نشرت خبراً مقتضباً دون أي تعليق، غير ان جريدة (بردى) لصاحبها منير الريس المعروف بمواقفه القومية المتطرفة وبعدائه السافر للحكومة العراقية، قد هولت موضوع تعييني، فنشرت الخبر بأسلوب مثير وبأحرف بارزة في صدر عمودين من اعمدتها، وذكرت عن مناصبي السابقة وخاصة اشغالي منصب مدير الشؤون العربية بوزارة الخارجية، وبطنت سطورها بعبارات الغمز واللمز والشكوك والحذر والارتياب ولفتت الانظار الى تعييني في مفوضية دمشق في مثل تلك الظروف الدقيقة، وكأني جئت الى دمشق (لأجيب السبع من ذيله). وكما يقتضيه التعامل الدبلوماسي فقد وجهت مذكرة لوزارة الخارجية السورية عن استقدام الوزير المفوض السابق الى بغداد وتعييني قائماً بأعمال دائم للمفوضية(*) كما وزعت منشوراً على الهيئة الدبلوماسية بنفس المعنى، وبعد ذلك أخذ رؤساء البعثات العربية والاجنبية يطلبون المواعيد لزيارتي زيارة المجاملة الدبلوماسية المعتادة.

* * *

(*) ان القائم بالاعمال الدائم AD HOC يقدم اوراق الاعتماد الى وزير الخارجية وليس الى رئيس الدولة كالوزير المفوض او السفير. أما القائم بالاعمال الموقتAD INTERIMفلا يقدم اوراق اعتماد، فهو ينوب عن رئيس المؤسسة عند غيابه.

كان اول من زارني من رؤساء البعثات الدبلوماسية الوزير المفوض الامريكي، وربما كان متأثراً من التهويل الذي نشرته جريدة (بردى) عن تعييني، فأراد ان يستبق غيره من الدبلوماسيين لرفع تقرير لحكومته. فبعد عبارات الترحيب المعتادة تكلمنا عن امريكا وعن الوظائف التي شغلتُها في واشنطن ونيويورك والامم المتحدة وعن انطباعاتي عن الولايات المتحدة والشعب الاميركي، ثم انتقل الى بيت القصيد من زيارته، فقال انه قد علم بأني قد عينت الى دمشق لأتمام مشروع الاتحاد ووضع اللمسات الاخيرة عليه، واستعمل الجملة الانكليزية (To Consummate the union) فنبهته الى أنه ربما كان حديث عهد بالشرق الاوسط وطبائع أهله، فان مدينة دمشق من أخصب مدن العالم في الاشاعات والتخرصات والقشبات Gossips والقيل والقال، وقلت له: وربما قد وقعت في الشرك بتصديقك احدى تلك الشائعات عن أسباب تعييني في دمشق.

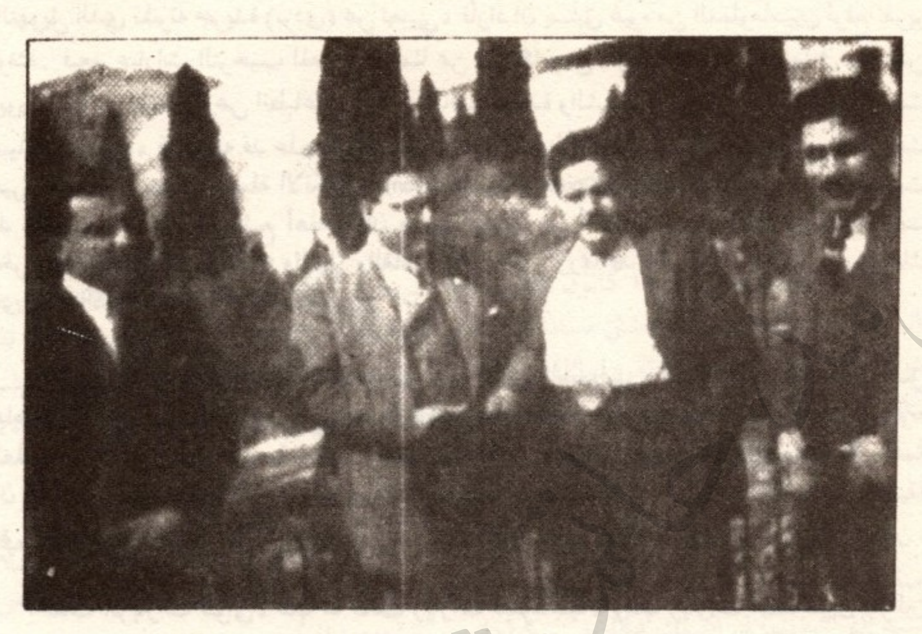
اما الزائر الثاني فكان الشيخ عبدالعزيز بن زيد السفير السعودي، فان هذا الشيخ العجوز يمثل الدهاء والذكاء البدوي الفطري بأجلى صوره وأوسع معانيه وكان البعض من الدبلوماسيين يصفونه (بالثعلب). كانت زيارته طبيعية جداً، وحديثه عام وعابر، وكلامه رزين وهادئ ويزن كل كلمة بميزان الذهب، فلم ينطق بكلمة واحدة يستشف منها بأنه جاء لأستنطاقي او تسقط الاخبار عن حقيقة مهمتي، فلم يترك لديّ أية شك أو شبهة من أن زيارته كانت زيارة مجاملة بريئة من كل غرضٍ مبطّن.

أخذت الزيارات تتوالى، منها ما كانت زيارات دبلوماسية، ومنها زيارات الصحفيين الموالين للعراق، ومنها زيارات الشخصيات السورية المعروفة بصداقاتها مع العراق وشخصياته، وأذكر من أوائل الشخصيات السورية التي زارتني حسني البرازي ومنير العجلاني وزكي الخطيب والأمير حسن الأطرش، ونوري الحكيم، و (الشهابي) وفخري البارودي وصديقه حسني تِللّو ونبيه العظمة وأخوه عادل العظمة والدكتور منيف العائدي وابنه عدنان وأخوه عبدالكريم العائدي وعبدالهادي المعصراني، وعزالدين الصباغ (من أصهار حسن الحكيم رئيس الوزراء الأسبق) وأبو الهدى اليافي مع جماعة عصبة العمل القومي وشخصيات أخرى لا تحضرني أسماؤهم بعد هذه السنوات الطويلة. وكان أكثر المترددين عليَّ جاري في المفوضية محمد الفحام الذي عمل صيدلياً في العراق سنين طويلة، وأخوانه، ومن العراقيين المقيمين في دمشق أحمد الصافي النجفي وعبدالقادر إسماعيل(*) وسعيد زيدان، وبعض الطلاب الذين يدرسون الطب والحقوق في الجامعة السورية.

* * *

عند وصولي المفوضية واستئناف عملي فيها، كانت هيئة المفوضية مؤلفة من نخبة ممتازة من الموظفين. كان الملحق العسكري الزعيم عبدالمطلب الامين وهو من أكفأ من عرفت من الضباط، وذو ذكاء وقّاد وثقافة عالية ومتضلع بكثير من اللغات الاجنبية، وكان اللولب الفعال في كل المشاريع والخطط التي وضعت لتنفيذ السياسة العراقية في سوريا، ودائرته مستقلة عن المفوضية وتحت تصرفه مرسلة لاسلكية للاتصال المباشر مع بغداد، وطيلة وجودي في دمشق لم يتهيأ لي

(*) كان عبد القادر اسماعيل مبعداً من العراق لميوله اليساريّة المتطرفة، وأقام في دمشق فترة طويلة، ولما زارني في المفوضية خارج أوقات الدوام قال إنه يزورني (بصفتي الشخصية وليس بصفتي الرسمية).



هيئة المفوضية العراقية في دمشق في شرفة المفوضية المطلة على الحديقة التي أقيمت فيها الحفلة التاريخية في ٢ مايس ١٩٥٠
من اليمين: الرئيس فاضل عباس حلمي مساعد الملحق العسكري. الزعيم عبدالمطلب الأمين الملحق العسكري. عدنان صبري مراد الملاحظ في المفوضية وعماد أرشد العمري الملحق في المفوضية.

المجال للاطلاع عليها مع انها منصوبة في نفس البناية التي أسكنها. لقد كان عبدالمطلب الأمين دمث الأخلاق كتوماً وحذراً كما كان محتاطاً في كل أعماله وتصرفاته تجاهي على الرغم انه يعتبر قانوناً (ضابط ركن رئيس المؤسسة). وكان مساعده ضابطاً من أنشط الضباط الذين عرفتهم هو الرئيس الركن فاضل عباس حلمي،(*) وفي المفوضية أثنان من خيرة الملحقين في السلك الخارجي هما الملحق عبدالجبار الهداوي(**) والملحق محمد حسن علوان، وأثنان من الملاحظين هما عماد أرشد العمري وعدنان صبري مراد، والمحاسب النزيه حسين محمد علي الهاشمي؛ وأود أن أسجل لهم جميعاً، الأحياء منهم والأموات، الشكر والتقدير على تعاونهم وحسن تأديتهم لواجباتهم في عملهم في أصعب الظروف التي كانت تحيط بالمفوضية يومئذ، فقد عملنا جميعاً كما لو كنا أفراد عائلة واحدة، تسود بيننا روح المودة والتعاون والاحترام.

* * *

(*) وهو اللواء الركن المتقاعد فاضل عباس حلمي، قائد العمليات العسكريه في شمال العراق في الستينات والسفير العراقي في روما ووارشو بعدئذ.

(**) السفير بوزارة الخارجية حالياً.



هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السورية

يدعو ....

لحضور حفلة .... التي يقيمها في قصر الرئاسة في المهاجرين

يوم .... في الساعة ....

تكريماً ....

الرجاء الاجابة في حال الاعتذار — اللباس: عادي



هاشم الأتاسي رئيس الدولة السورية

يتشرف بأن يدعو سعادة ... السيد ... القائم بأعمال المفوضية الملكية العراقية.

الى حفلة الاستقبال التي يقيمها في قصر الرئاسة في المهاجرين

تكريماً لهيئة السلك السياسي في سورية يوم الخميس

الواقع في ... ١٩٥٠ في الساعة ...

اللباس: ...

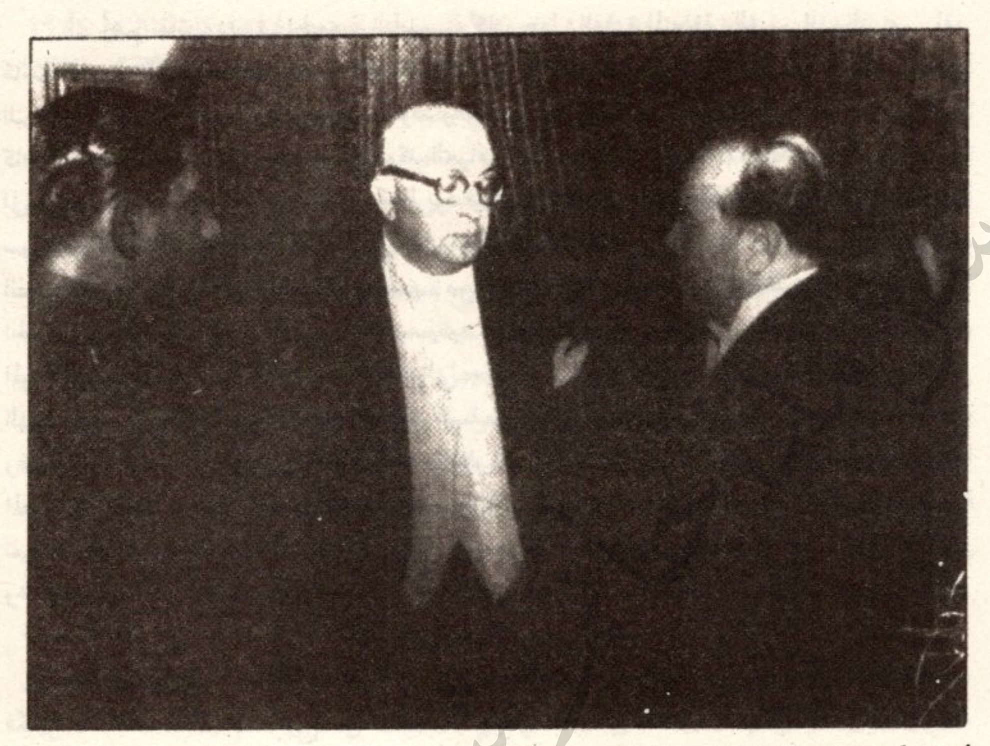
عندما قام حسني الزعيم بالانقلاب رقم (١) سنة ١٩٤٩ اعتقل شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية الشرعي ثم أرغمه على الاستقالة ونصب نفسه رئيساً للدولة وقائداً أعلى للقوات المسلحة واتخذ القصر الجمهوري في المهاجرين مقراً له. ولما قام الحناوي بالانقلاب رقم (٢) سنة ١٩٤٩ وأطاح بحسني الزعيم من رئاسة الدولة، تألفت حكومة مؤقتة تولى رئاستها هاشم الأتاسي لحين اجراء انتخابات جديدة ووضع دستور للبلاد. فاتخذ الأتاسي صفة (رئيس الدولة السورية) لتبقى الرئاسة تتأرجح بين المتمسكين بالنظام الجمهوري والحالمين باقامة النظام الملكي إذا ما تم الاتحاد بين سورية والعراق. وبعد الانقلاب رقم (٣) الذي قام به الشيشكلي سنة ١٩٤٩ ظل هاشم الأتاسي (رئيساً للدولة السورية) الى أن تم انتخابه رئيساً للجمهورية بصورة دستورية سنة ١٩٥٠. وبعد الانقلاب رقم (٤) سنة ١٩٥٣ أصبح الشيشكلي (رئيساً للجمهورية السورية) وبعد الانقلاب رقم (٥) سنة ١٩٥٤ الذي أطاح بالشيشكلي، انتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية للمرّة الثانية. وبعد الانقلاب رقم (٦) وقيام الجمهورية العربية المتحدة برئاسة الرئيس جمال عبدالناصر سنة ١٩٥٨ تنحى القوتلي عن رئاسة الجمهورية ليصبح المواطن العربي الأول فيها وزال اسم الجمهورية السورية. وبعد الانقلاب رقم (٧) في أيلول سنة ١٩٦١ عاد منصب رئيس الجمهورية العربية السورية الى دمشق لتتبادله الانقلابات منذ ذلك الحين!!

فبعد الانقلاب رقم (٨) سنة ١٩٦٣ وقيام الوحدة الثلاثية بين سورية ومصر والعراق بقي الاسم على حاله. وبعد الانقلاب رقم (٩) وفصم تلك الوحدة بعد ثلاثة أشهر من قيامها ظل الاسم كما هو عليه، وبعد الانقلاب رقم (١٠) لم يتغير الاسم، وبعد الانقلاب رقم (١١) احتفظت الجمهورية العربية السورية باسمها وبعد الانقلاب رقم (١٢) وقيام الاتحاد بين مصر وسورية وليبيا في نيسان ١٩٧١ بقي ما كان على ما كان ولم تغير جبهة الصمود والتصدي من الوضع ولا يعلم **إلا الله ماذا** سيكون اسم هذه الجمهورية العربية السورية بعد الانقلاب رقم (١٣) وما سيليه من الانقلابات!!



أمين المميّز القائم بأعمال المفوضية العراقية يتحدث الى هاشم الأتاسي رئيس الدولة السورية في حفلة الاستقبال التي أقيمت لأعضاء الهيئة الدبلوماسية في دمشق في القصر الجمهوري بالمهاجرين مساء يوم ١٩٤٩/٣/٣.

لم أتحدث اليه حول دعوة الجيش العراقي الى سورية، والذي تحدث اليه في هذا الموضوع هو حسني البرازي على مرأى ومسمع رجال الحكومة والأحزاب السياسية والهيئة الدبلوماسية.



أمين المميّز مع رئيس الوزراء خالد العظم والرئيس فاضل عباس حلمي مساعد الملحق العسكري العراقي، في القصر الجمهوري يوم ١٩٤٩/٣/٣، وقد سمع المدعوون حسني البرازي يتحدث مع هاشم الأتاسي حول موضوع استدعاء الجيش العراقي لمساعدة الجيش السوري في حماية الحدود السورية ـ الاسرائيلية وحفظ الأمن الداخلي.

نحن الآن في أواسط شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٠ وأود ان أضع القارئ في الصورة التي كان عليها الوضع في سوريا بعد وصولي الى دمشق. فعندما وقع الانقلاب رقم (٢) واستدعي هاشم الاتاسي من حمص لتأليف حكومة انتقالية مهمتها أجراء الانتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور جديد للبلاد، أعلن رجال الانقلاب انهم سيسلمون مقاليد الامور الى الحكومة المدنية التي ستتألف بعد الانتخابات، وقد جرت الانتخابات يوم ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٩ عندما كنت في بغداد واجتمعت الجمعية التأسيسية في ١٢ كانون الثاني. كان الحزب الفائز بالأكثرية هو حزب الشعب الموالي للعراق، فانتخب رئيسه رشدي الكيخيا رئيساً للجمعية التأسيسية، وعند وصولي دمشق كانت الوزارة، التي تألفت تحت تأثير الشيشكلي، برئاسة خالد العظم الذي احتفظ بوزارة الخارجية وهو من المستقلين، وضمت اعضاءاً يمثلون كافة الأحزاب، غير أن الرجل القوي فيها هو أكرم الحوراني الذي تولى وزارة الدفاع وكان يمثل الجيش في تلك الوزارة. ويليه في المركز السياسي والنفوذ في الوزارة عبد الباقي نظام الدين وزير الزراعة. وباشرت الجمعية التأسيسية بمناقشة مواد لائحة الدستور الجديد، ولم تخل جلسة من جلساتها إلاّ (والهرجة في بيت العرجة).

* * *

أن أهم نقاش دار في الجمعية التأسيسية كان حول الفقرة المتعلقة بالقسم الدستوري. لقد كانت اللجنة المكلفة باعداد صيغة القسم مؤلفة من ثلاثة أعضاء من الموالين للعراق هم حسني البرازي وزكي الخطيب وحسن الحكيم، وقد وضعت اللجنة المذكورة صيغة القسم وفق النص الذي كان قد أعده السيد عبدالمهدي رئيس الوفد العراقي المكلف بالعمل للأتحاد، وذلك بذكر فقرة تشير الى العمل على الاتحاد مع الدول العربية ولم يرد فيها نص يقضي بالمحافظة على النظام الجمهوري في سوريا وكانت هذه المادة من الدستور هي الشرارة الأولى للأنقلاب الذي قام به الشيشكلي كما ذكرناه آنفاً، فقد تآمر مع عدد من الضباط ومعظمهم من مدينته (حماه) واستفز نخوتهم للمحافظة على النظام الجمهوري ومقاومة النفوذ الأجنبي الذي سيعود ثانية الى سوربة المستقلة عن طريق الانظمة الملكية الموالية للأستعمار. ومن المناقشات الحامية التي جرت في الجمعية التأسيسية كانت المناقشة حول دين الدولة الرسمي، فأن الأعضاء من الأخوان المسلمين وعلى رأسهم مصطفى السباعي ومحمد المبارك وغيرهم يهدفون الى جعل دين الدولة الرسمي هو الاسلام وان الفقه الاسلامي والكتاب والسنة هما المصدران الوحيدان للتشريع، في حين هناك فريق آخر يدعو الى التحرر في التشريع ويكتفي بذكر فقرة تفيد الى أن دين رئيس الدولة هو الأسلام، وتؤيدهم في ذلك الأوساط المسيحية منْ داخل المجلس وخارجه.

كان حضوري للمناقشات التي تجري في الجمعية التأسيسية ممتعاً وفي نفس الوقت كان مؤلماً، فكثيراً ما كانت المناقشات تخرج عن الحدود المألوفة في المجالس التشريعية في البلدان الديمقراطية، ويحصل في بعض الاحيان ما يعرف في سوريا (بالخناقات الحموية) التي تتصف بالعنف والشتائم وبذئ الكلام. وكادت تحصل مثل احدى تلك (الخناقات الحموية)(*) في احدى الجلسات التي حضرتها، عندما دار نقاشٍ حادّ بين حسني البرازي ومعروف الدواليبي وزير الاقتصاد، عندما استشهد البرازي، متهكماً بالدواليبي، ببيت المتنبي القائل:

ليس الحداثة من حلم بمانعةٍ   قد يوجد الحلم في الشبان والشيبِ

وأردف الشطر الثاني من البيت بقوله: وبمعروف الدواليبي. فعلا الضحك وساد الهرج والمرج وانفضت الجلسة(**).

* * *

(*) «الخناقة الحموية» هي على النقيض من (عركة الگصاصيب) البغدادية التي لا تعدو تبادل الكلمات والصياح والتلويح بالسكاكين، وتؤدي الى نتيجة واحدة وهي «كل واحد يروح الى دكانه» وينتهي الأمر بالمصالحة.

(**) كانت المشادة مستمرة بين حسني البرازي ومعروف الدواليبي سواء في جلسات المجلس النيابي أو في خارجها. فهما على طرفي نقيض في كل النواحي. فالبرازي هو من ساسة سورية المخضرمين وكان رئيساً للوزارة في عهد الأنتداب الفرنسي، وهو من كبار الأقطاعيين في حماه، وهو من المستقلين لا ينتسب الى أي من الأحزاب السورية المتعددة، ومن الضالعين مع العراق والموالين للعائلة الهاشمية وسندها القوي في سورية. أنه جريْ وصريح وشديد المراس وخطيب مفوه وأديب أريب، وما عرفت أديباً يحفظ ديوان المتنبي من ألفه الى يائه كحسني البرازي. ونقطة الضعف الوحيدة فيه

بعد تأليف وزارة علي جودة في ١٠ كانون الأول ومنذ وصولي في ١٥ كانون الثاني ١٩٥٠ تجمد نشاط وزارة الخارجية ونشاط المفوضية عن الفعاليات المتعلقة بمشروع الاتحاد، وذلك تنفيذاً للبرنامج الوزاري الذي أعلنه رئيس الوزراء في حفلة الاستيزار وهو العمل على تبديد الغيوم المتلبدة في سماء العلاقات العربية. فلم تعد المفوضية تستلم البرقيات بالدفع لفلان أو الاتصال بفلتان أو عِلّان أو أبو سليمان ! كما لم تستلم من الاعتمادات من مديرية المحاسبات العامة سوى ما يتعلق برواتب الموظفين ومصاريف المفوضية الاعتيادية. وعندما وصلت دمشق لم يبق من الاعتماد السابق الذي فتح له رصيد خاص وضخم جداً يصرف بتوقيع الوزير المفوض السابق والملحق العسكري، سوى خمسة آلاف ليرة سورية فقط (أي ما يعادل خمسمائة دينار).

على الرغم من تجميد نشاط المفوضية وموظفيها، باستثناء نشاط الملحق العسكري الزعيم عبدالمطلب والرئيس فاضل عباس حلمي، فأن المفوضية والموظفين قد خضعوا لمراقبة شديدة من قبل رجال المكتب الثاني، يلاحقونهم أينما ذهبوا بسيارات الجيب العسكرية. وكانت احدى تلك السيارات مخصصة لملاحقتي، وكانت تربض في طريق يؤدي الى سفح جبل قاسيون في المهاجرين، فاذا ما خرجت من المفوضية بسيارتي وعليها العلم العراقي، هرعت السيارة العسكرية لملاحقتي بشكل يلفت النظر، وقد تضايقت ذات يوم من هذا التصرف المنافي لأبسط قواعد اللياقة الدبلوماسية. ولما خرجت من المفوضية توجهت بسيارتي التي كنت أقودها بنفسي، نحو السيارة العسكرية، وتوقفت بمحاذاتها وخاطبت من فيها قائلاً لهم: «مرحباً يا شباب: أنا ذاهب الى نادي الشرق، والموعد هناك، فأرجوكم لا تتبعوني بشكل يلفت نظر الجمهور» فخجلوا واحمروا واصفروا وكأني سكبت عليهم (سطل ماي بارد). وحتى سائق السيارة (زكي) قد أستدرجه المكتب الثاني وأستخدمه للتجسس عليّ وعلى المفوضية والموظفين وكنت أعلم ذلك حق العلم ولكني لم أشأ فصله أو أستبداله لأن الخلف لن يكون أفضل من السلف ولئلا يشعر المكتب الثاني بأني واع على

هي جنوحه الزائد للمادة.

أما معروف الدواليبي فهو من الجيل الجديد المثقف ثقافة دينية، وهو من حزب الشعب، غير انه يختلف عن سائر اعضاء ذلك الحزب بعدائه السافر للعائلة الهاشمية ومعارضته العنيفة للاتحاد بين سورية والعراق. أنه ذو ميول تقدمية وتحررية، وكان أول من نادى بكسر طوق احتكار تزويد السلاح لسورية من الغرب وحده، وطالب بشرائه من الدول الشرقية أيضاً، وكان ذلك قبل عدة سنوات من قيام الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بشراء الأسلحة من جيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٥، وكان الدواليبي يدعو لأصدقاء كثيرين وأعداء قليلين في السياسة الخارجية السورية. فلهذه الأسباب رأى أديب الشيشكلي في معروف الدواليبي خير من يسند اليه رئاسة الوزارة سنة ١٩٥١ بعد أن أثبت كفاءة في وزارة الأقتصاد بوزارة خالد العظم، فهو من حزب الشعب ذي النفوذ الشعبي الواسع، وتوآزره الاوساط والأحزاب الدينية وهو تقدمي وغير منحاز ويدعو الى التعاون مع الشرق والغرب على السواء، وترتاح اليه معظم الدول العربية باستثناء العراق. والأهم في كل ذلك انه يقاوم خطط الهاشميين، ويسير في خط السعوديين في سورية، ولهذا سيكون سداً منيعاً تجاه الداعين الى الاتحاد بين سورية والعراق او ايجاد عرش هاشمي في سورية، وهو ما يقاومه الشيشكلي بكل قوة، غير انه ما لبث ان أقصى الدواليبي واعتقله عندما قام بانقلابه رقم (٣) سنة ١٩٥٣.

ولما اعتزل الدواليبي السياسة في سورية تولى مركزاً مرموقاً في المملكة العربية السعودية، وما زال فيه.

أما حسني البرازي فقد توفي في بيروت في أواسط الستينات على ما أذكر، وقد زرته لآخر مرّة بمسكنه في شارع فردان وكان لاجئاً سياسياً في لبنان فوجدته طريح الفراش، وقد أخذ منه المرض كل مأخذ، وبعد مدة نعته الصحافة اللبنانية. لقد كانت تربطني به، رحمه الله، أوثق الروابط الشخصية والعائلية.

التجسس والمراقبة فلذلك كنت أصرف السائق معظم الوقت ولا أستبقيه إلّا في الحالات التي تستدعي وجود السائق.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد راجع المفوضية ذات يوم صاحب محل شريف وحداد في بغداد للحصول على سمات الدخول لفرقة موسيقية تعاقد معها للعمل في محله ببغداد. ولما خرج من المفوضية اختطفه رجال المكتب الثاني وعصبوا عينيه واقتادوه الى محل مجهول حيث حققوا معه تحقيقاً دقيقاً عن اسباب مراجعته للمفوضية وعن الموظفين الذين قابلهم، الى غير ذلك، ثم اقتادوه معصوب العينين أيضاً وأنزلوه في ساحة المرجة. ولما بلغني الأمر قلت في نفسي: «لقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين». فوجهت مذكرة شديدة اللهجة الى وزارة الخارجية السورية، أوضحت فيها ظروف الحادث وهددت بغلق المفوضية وتعطيل أعمالها الرسمية إذا لم يوضع حد لمثل هذه الانتهاكات للحصانات والأعراف الدبلوماسية. وبعد تلك المذكرة خفت المراقبة على المفوضية والمضايقة على الموظفين والمراجعين، لتعود ثانية بعد استقالة وزارة علي جودة الأيوبي وتأليف وزارة توفيق السويدي واستئناف النشاط السياسي المتعلق بموضوع الاتحاد.

* * *

في يوم ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٠ وردني اشعار تلفوني من وزارة الخارجية العراقية يفيد بأن وزير الخارجية السيد مزاحم الپاچه‌چي سيمر في مطار دمشق قبل ظهر ذلك اليوم في طريقه الى القاهرة، وقد خرجت لاستقباله وكان بصحبته السيد نجيب الراوي وزير المعارف. وبعد الترحيب بهما بادرني وزير الخارجية بالسؤال عما إذا كنت قد استلمت أوراق الاعتماد من وزارة الخارجية فأجبته بالنفي، فأمر بالتأكيد على دائرة التشريفات بارسال الأوراق حالاً. سافر مزاحم الپاچه‌چي الى القاهرة وهو كمن يسعى الى حتفه بظلفه، فقد عقد مع الحكومة المصرية اتفاقاً من نوع (اتفاق الجنتلمان) عرف في العراق (باتفاق الكرام) مؤداه امتناع مصر والعراق عن التدخل في شؤون سوريا الداخلية، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة لمدة خمس سنوات (وهي المدة التي ستنقضي خلالها وصاية الأمير عبدالإله على العرش، إذ كان الملك فيصل سيبلغ سن الرشد واعتلاء العرش في ١ مايس ١٩٥٣). ولما عاد الى بغداد يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٠ حاملاً هذا الاتفاق الذي لم يكن قد حصل على تخويل من مجلس الوزراء بعقده وأقدم على هذه الخطوة غير المتوقعة من وراء ظهر الأمير وأنصاره من السياسيين وبوجه خصومة سياسية قوية، بدأت المؤامرة والمناورات لاسقاط وزارة علي جودة.

فنشر علي حيدر الركابي الذي كان صاحب الحظوة الكبرى في البلاط والمشرف المباشر على موضوع الاتحاد مقالاً شديداً في احدى الصحف المحلية هاجم فيه الوزارة بشكل بعيد عن التقليد السياسي المتبع في العراق بين المعارضين والحكوميين، فتألبت الشخصيات السياسية ومنهم اعضاء وزارة علي جودة نفسها وبعض كتل مجلس النواب التي كانت تتحين الفرص لأسقاط الوزارة والعودة الى الحكم. وحتى نوري السعيد قد تألب هو الآخر على صديقه علي جودة، ليس حباً بتحقيق مشروع الاتحاد ولكن رغبة في اسقاط الوزارة، وأبعاد مزاحم الپاچه‌چي والعودة الى الحكم. وفي اليوم الاول من شباط ١٩٥٠، أي بعد خمسين يوماً فقط من تأليف الوزارة قدّم علي جودة استقالته بكتاب

شديد اللهجة تطغى عليه لهجة مزاحم الپاچه‌چي المتصفة بالعنف والتطرف، ولو ان علي جودة قد ذكر في مذكراته (انني لم استشر احداً ولم أطلب الى احد ان يبدي رأيه بضرورة حذف او تبديل شيء مما جاء في كتاب الاستقالة) غير اني اعتقد انه قد ذكر هذا التحفظ لأبعاد الظن عن ان لمزاحم الپاچه‌چي يداً او رأياً في صيغة كتاب الاستقالة غير المألوف عهدئذٍ(*).

* * *

في اليوم الخامس من شهر شباط ١٩٥٠ تبلغنا بتأليف وزارة جديدة برئاسة توفيق السويدي الذي احتفظ بمنصب وزير الخارجية، وقد اعلن في منهاجه الوزاري انه سيعمل على تشجيع المشاريع التي تستهدف تعزيز الكيان العربي عملاً بأهداف العراق القومية، وضمن احكام المادة التاسعة من ميثاق الجامعة العربية التي تخول الدول العربية الاعضاء في الجامعة والراغبة فيما بينها في تعاون أوثق وروابط أقوى مما نص عليه الميثاق، ان تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الاغراض. ومن الواضح ان هذه الفقرة من منهاج وزارة توفيق السويدي تعني استئناف النشاط لتحقيق مشروع الاتحاد الذي كان قد تجمد خلال الشهرين الماضيين اثناء وجود وزارة علي جودة في الحكم. فبعد يومين او ثلاثة ايام من مباشرة توفيق السويدي، أخذ سيل البرقيات ينهمر على المفوضية، بعضها من وزارة الخارجية الى المفوضية وبعضها الى دائرة الملحق العسكري عن طريق المرسلة اللاسلكية المرتبطة بوزارة الدفاع مباشرة. وفي بعض الايام كانت ترد عدة برقيات يومياً، وكلها تتضمن التعليمات والاوامر للسير بالاجراءات المتعلقة بالاتحاد. ولأضرب امثالاً عن البرقيات التي وردت الى المفوضية اثناء وجودي في دمشق في عهد وزارة توفيق السويدي:

- ادفعوا خمسين ديناراً لزوجة الحناوي في حلب.
- ادفعوا (١٥٠) ديناراً الى أسعد طلس.
- ادفعوا (١٤٠) ديناراً شهرياً للسيدين عادل ونبيه العظمة في بيروت.
- ادفعوا (٥٠) ديناراً شهرياً للمقدم محمد معروف في بيروت.
- نخولكم صرف مبلغ (٢٠٠) دينار اعتباراً من اول شباط ١٩٥٠ للدعاية.
- ادفعوا (١٥٠) ديناراً للعقداء الثلاثة في دمشق.
- ادفعوا الى (فلان) مبلغ (كذا) لشراء المطبعة واصدار الجريدة.

(*) من الحق ان اذكر بأن علي جودة ومزاحم الپاچه‌چي يختلفان في كل شيء وليس بينهما أي عامل مشترك سواء من الناحية السياسية او الثقافية او الاخلاقية او الاجتماعية او البيئية، غير انه الذي جمع بينهما في اوائل الخمسينات هو عامل المصاهرة، فقد تزوج عدنان بن مزاحم الپاچه‌چي من سلوى كريمة علي جودة، ومنذ ذلك الحين توطدت العلاقة الشخصية بينهما فشملت التعاون السياسي، إذ لم يسبق لهما ان تزاملا في الحكم منذ تأسيس الحكم الوطني بل كانا على طرفي نقيض في سياستهما. فعندما كان مزاحم الپاچه‌چي يطالب الانكليز بالحاق البصرة بحكومة الهند كان علي جودة يحارب الانگليز في تلعفر سنة ١٩٢٠، وعندما (چيور) مزاحم الپاچه‌چي من الحزب الوطني ليصبح وزيراً للداخلية في وزارة نوري السعيد التي عقدت معاهدة ١٩٣٠، كان علي جودة ويسن الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني قد أسسوا حزب الأخاء الوطني لمعارضة نوري السعيد ومعاهدته، وعندما استقال علي جودة من الوزارة سنة ١٩٢٤ بسبب تصلب الانكليز في مفاوضات النفط، عقد مزاحم الپاچه‌چي وزير الاشغال والمواصلات في الوزارة التي اخلفتها اتفاقية النفط لسنة ١٩٢٥ بغبن فاحش للعراق والمصلحة الوطنية. تلك هي بعض الشواهد وليس كلها عن التباين بين الرجلين!!

- ادفعوا (٣٦٠) ديناراً للرئيس فاضل عباس حلمي لصرفها الى عوائل المعتقلين من السياسيين والضباط.
- اتصلوا بفلان وفلتان وعلان وأبو سليمان واخبرونا بما يطلبون، [السجع هو الذي افترض الدفع، حيث أن معظم المبالغ كانت تدفع من قبل وزير الخارجية في بغداد مباشرة].

وبالنظر لكثرة مثل هذه البرقيات الرمزية واحتمال تعرضها للكشف من قبل السلطات السورية وحرصاً على سلامة اصحاب العلاقة، فقد ارسلتُ لوزارة الخارجية البرقية التالية:

من عراقية ـ دمشق الى خارجية بغداد:

برقيتكم **٣٩**. اننا مستمرون بالاتصالات اللازمة. العمل الاساسي يبدأ بعد الانتهاء من الدستور الجديد وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة جديدة. لا نرى فائدة في الارتباط الآن. قد يصبحون غير مسؤولين بعد الانتخابات المقبلة. يرجى ارسال أجوبتكم على برقياتنا المرسلة لكم بواسطة چفرة الدفاع، بنفس الطريقة، ضماناً للكتمان، ذلك لأن جفرة الخارجية سهلة الحل ولا تؤمن السرية المطلوبة في مثل هذه القضايا الهامة.

غير ان اغرب البرقيات التي استلمتُها من الخارجية والتي دخلت في سجل التاريخ هي البرقية المؤرخة في ١٥ شباط ١٩٥٠، أي بعد عشرة أيام من تأليف وزارة توفيق السويدي. تقول البرقية:

«عراقية. دمشق: ادرسوا كيفية مساعدة الحناوي لانقاذه من السجن وتبرئته وما يكلف ذلك. اتصلوا بجلال السيّد. ويوجد موقوفون لمعارضتهم لتكتيكنا الحاضر. هل يمكن مساعدة عوائلهم؟ اتصالاتكم يجب أن تكون بحذر زائد. بينوا ممنونيتنا لحسني البرازي على موقفه واسألوه ماذا يحتاج للعمل. وبأي طريقة يرتئيها. أتلفوا هذه البرقية بعد الاطلاع على مضمونها».
اطلعت على البرقية واستوعبت مضمونها، ثم مزقتها ثم أحرقتها ثم ذريت رمادها «فذهب مع الريح»، ولم يدُر في خلدي ولا دار في خلد مرسل البرقية انها ستعلن يوماً ما على الملأ بنصها وفصّها وذلك عندما قرئت في محكمة المهداوي في جلستها المنعقدة في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٥٨(*) أثناء محاكمة توفيق السويدي يوم قال كلمته المشهورة: «ان سوريا هي رأس البلاء، فقد شغلت العالم منذ ثلاثين او اربعين سنة» فيقاطعه المهداوي صارخاً بوجهه: «سوريا هي ليست بلاء... سورية هي جنة البلاد العربية»!! فأيهما أصدق قولاً في نظر القارىء يا ترى؟

وبقدر تعلق الامر بتنفيذ تلك البرقية، فقد اجتمعت بجلال السيد في احدى مقاهي دُمّر المعلّقة حول (نفس أرگيله) وأبلغته بمضمونها، كما اني دعوت حسني البرازي لزيارتي في المفوضية لسهرة

(*) ربما تبادر الى ذهن وزير الخارجية ساعة اعداد هذه البرقية بأني (ابن عبدكه) أو غيره من (الشقاوات) أو أحد رجال (الكوماندوز) فيكلفني بكيفية إنقاذ الحناوي من سجن المزه في مثل تلك الظروف!!



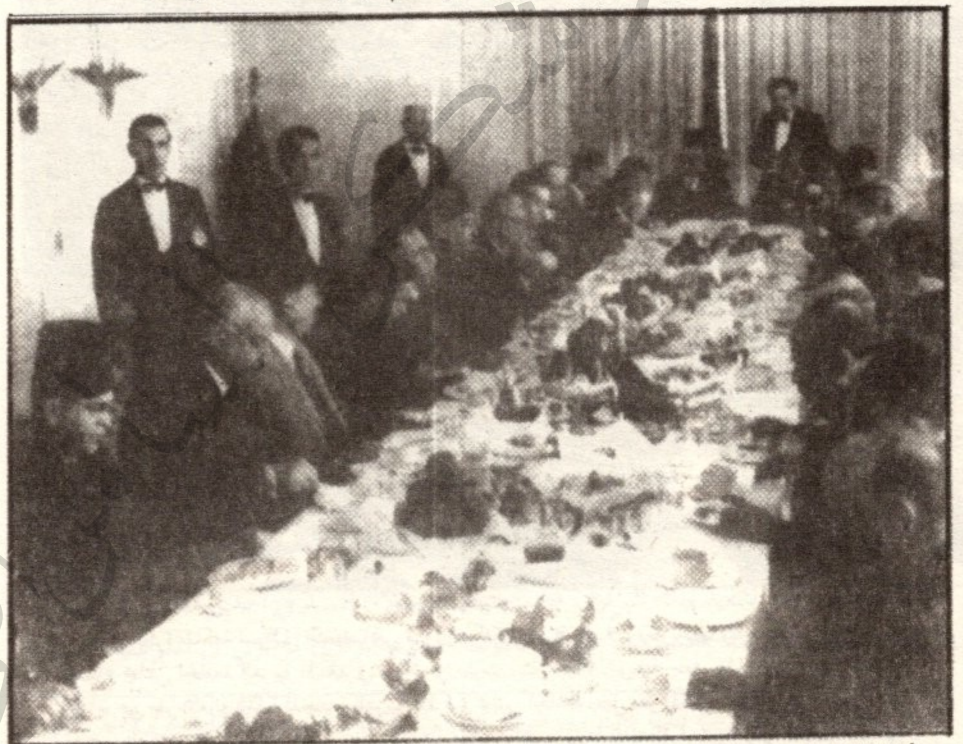
في الحفلة البستانية التي أقامتها وزارة الخارجية السورية تكريماً لوفود الدول العربية المشاركة في اجتماع مجلس الجامعة المنعقد في دمشق في شهر مارت سنة ١٩٥٠ لوضع أسس مقاطعة اسرائيل.
ويشاهد في صدر الصورة المرحوم فارس الخوري



ان فكرة مقاطعة اسرائيل اقتصادياً هي من بنات أفكار العراق أصلاً. وقد تابعها ولاحقها حتى تقررت في اجتماع مجلس الجامعة العربية المنعقد في دمشق في مارت سنة ١٩٥٠. وبغية جعل هذا الجهاز جدياً ومثمراً وابعاده عن مقر الأمانة العامة للجامعة العربية فقد قرر مجلس الجامعة جعل مقر المكتب الرئيسي في دمشق، ولم يعارض الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر ورئيس وفدها ذلك القرار. وما زال المكتب الرئيسي يقوم بنشاطه واجراآته التي أثمرت أكثر من أي جهاز آخر من أجهزة الجامعة العربية منذ تأسيسها سنة ١٩٤٥ حتى الآن.



وصول الملك فيصل الى دمشق في ٣٠ مارت ١٩٥٠ ، على أعلى السلّم ، الأمير زيد سفير العراق في لندن والسيد أمين المميّز القائم بأعمال المفوضية العراقية في دمشق ، وأسفل السلّم المرافق العقيد علاء الدين محمود



مأدبة الافطار الصباحي التي أقيمت يوم ٣٠ مارت ١٩٥٠ بمناسبة مرور الملك فيصل في دمشق بطريقه الى بغداد لقضاء العطلة الربيعية .

(دردشة) وابلغته بمضمونها كذلك. وقد وجدت الفرصة مواتية لأنقل له ما طلبه مني الامير عبدالآله حول موضوع الحصول على كتاب من هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية، بدعوة الجيش العراقي للدخول الى سوريا، لأن حسني البرازي هو سند العراق القوي ومنفّذ سياسته في سوريا، فكان جوابه «هذا ما بيصير، هاشم الاتاسي لا يمكن ان يوقع مثل هذا الطلب وابن العمة(*) مسيطر على البلد، فلا تحاول ان تفاتحه بهذا الموضوع، لأنه اما ان يرفض الطلب رأساً واما ان يتظاهر بأنه لم يسمع حديثك، فاترك الامر لي». (كان المرحوم هاشم الاتاسي ثقيل السمع (أدكن) وعلى المتكلم معه اما ان يرفع صوته عالياً او يقترب منه كثيراً). وفي احدى الحفلات الرسمية التي اقيمت في القصر الجمهوري، وبحضور عدد من الوزراء من حزب الشعب وتحت سمع وبصر عشرات المدعوين والهيئة الدبلوماسية، واذا بحسني البرازي يفاتح هاشم الاتاسي بموضوع تجاوزات اسرائيل على الحدود السورية وضرورة دعوة الجيش العراقي الى سوريا للدفاع عنها. وكانت تلك الساعة من أحرج الساعات لهاشم الاتاسي وزعماء حزب الشعب المتهم بالتآمر مع العراق لتحقيق الاتحاد.

* * *

في ٣٠ مارت ١٩٥٠ وصل مطار دمشق الملك فيصل الثاني في طريقه الى بغداد قادماً من لندن حيث كان يدرس في كلية (هارو) ليقضي عطلة الكلية بمناسبة عيد الفصح في بغداد. وكان يرافقه الامير زيد سفير العراق في لندن والمرافق العقيد علاء الدين محمود، وقد جرى للملك استقبال رسمي كان على رأس المستقبلين هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس الجمعية التأسيسية وعدد من الوزراء وهيئة المفوضية العراقية، ووزير العراق المفوض في بيروت ابراهيم الخضيري وبعض اصدقاء العراق يتقدمهم حسني البرازي. وبعد فترة استراحة وتناول المرطبات غادرت الطائرة البريطانية دمشق متوجهة الى بغداد.

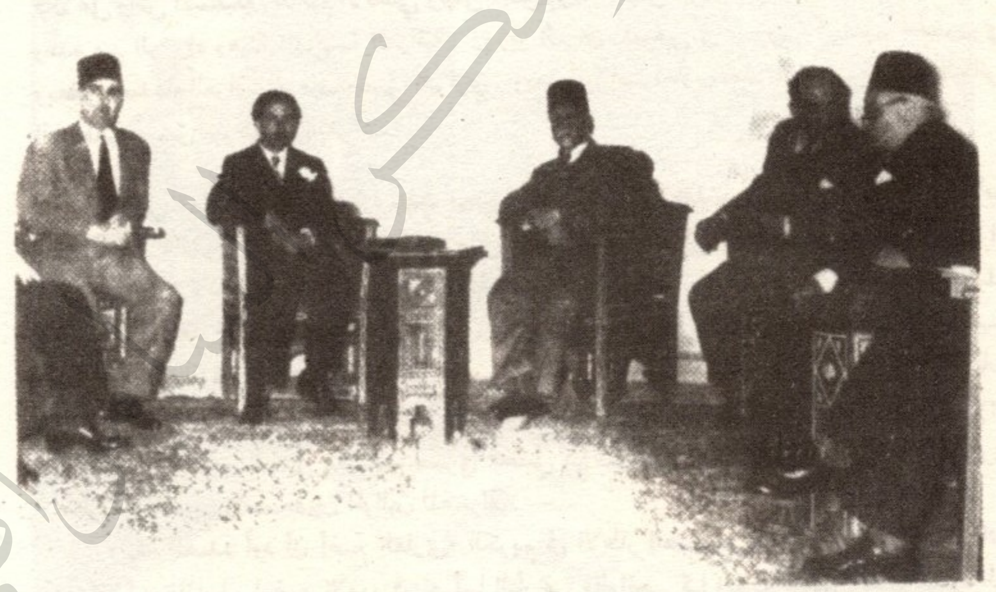
لم تكن هذه الزيارة هي زيارة الملك فيصل الأولى لدمشق، فقد سبق أن مرَّ بصحبة خاله الأمير عبدالإله في ٥ تشرين الأول سنة ١٩٤٩ وهما في طريقهما من لندن الى بغداد، ومن المحتمل جداً ان السفر على طائرة تمرّ في دمشق كان مدّبراً. وقد شاء عبدالإله ان يظهر بمظهر يلفت انظار مستقبليه والمصورين، فقد ارتدى بزة عسكرية انيقة وزين صدره بالأشرطة والأنواط وكأنه خطيب يزور بيت خطيبته لاستمالة قلبها اليه. وفضلاً عن رئيس الجمهورية هاشم الاتاسي ورئيس الوزراء وأقطاب حزب الشعب من الوزراء، فقد شارك في الاستقبال اللواء سامي الحناوي زعيم الانقلاب رقم (٢) وبعض زعماء الحزب الوطني يتقدمهم صبري العسلي كما شارك في الاستقبال المرحوم فارس الخوري وبعض السياسيين والصحفيين الموالين للعراق.

وبهذا الصدد أود أن أضع القارىء الكريم في الاطار الصحيح لهاتين الزيارتين وخلفياتهما وأهدافهما ومغازيهما، لوضع الأمور في نصابها التأريخي والواقعي كما وقفت عليهما خلال الفترة التي قضيتها في دمشق في السنتين ١٩٤٩ و١٩٥٠.

(*) كان حسني البرازي يدعو الشيشكلي (ابن عمتي).



تفتيش حرس الشرف بعد نزول الملك فيصل من الطائرة ، يتقدمه مرافقه العقيد علاء الدين محمود والى يمينه آمر موقع دمشق



في بهو المطار قبيل مغادرة الملك الى بغداد :
من اليمين :
خالد العظم رئيس الوزراء ، الأمير زيد سفير العراق في لندن ، هاشم الأتاسي رئيس الدولة السورية ، الملك فيصل ، رشدي الكيخيا رئيس الجمعية التأسيسية



توديع الملك فيصل

من اليمين :

المرافق علاء الدين محمود ، القائم بأعمال المفوضية العراقية أمين المميز ، الأمير زيد سفير العراق في لندن ، الملك فيصل ، محافظ دمشق. آمر موقع دمشق.



توديع الملك فيصل في مطار دمشق الجوي في المزّة :

من اليمين :

عبدالرحمن العظم وزير الخارجية السورية ، أمين المميز القائم بأعمال المفوضية العراقية ، هاشم الأتاسي رئيس الدولة السورية ، إبراهيم الخضيري وزير العراق المفوض في بيروت ، هاني السباعي وزير المعارف ، فتح الله اسيون وزير الصحة.



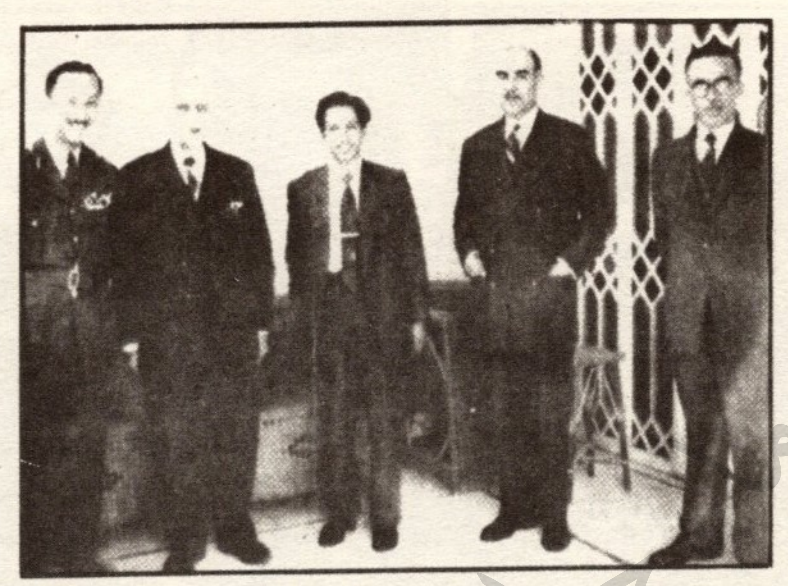
صورة فريدة التقطتُها سنة ١٩٤٩ لتراث قومي ووطني في دمشق ، ذلك هو سراي دمشق القديم الذي أعلن منه قيام المملكة السورية المستقلة برئاسة الملك فيصل الأول في شهر تشرين الأول عام ١٩١٨ ، والذي كان قائماً في موقعه يوم مرّ حفيده فيصل الثاني بدمشق مرتين خلال سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٠ . وقد رفرف على سارية هذا السراي لأول مرة في التأريخ العلم العربي لدولة سورية المستقلة ، التي لم تدم سوى اثنين وعشرين شهراً ، ولا أعلم مصير هذا التراث القيّم بعد توسيع ساحة (المرجه) وتشييد الفنادق والملاهي بالقرب من موقعه .



هيئة المفوضية العراقية في استقبال الملك فيصل الثاني عند مروره في مطار المزّة يوم ١٩٥٠/٣/٣٠ في طريقه من لندن الى بغداد وهم من اليمين : الملحق محمد حسن علوان ، الملحق العسكري الزعيم عبدالمطلب الأمين ومساعده الرئيس فاضل عباس حلمي والملحق عبدالجبار الهدّاوي



في استقبال الملك فيصل الثاني في ميناء دمشق الجوي



الملك فيصل الثاني اثناء مروره في دمشق لقضاء العطلة الربيعية في بغداد، يصحبه الأمير عبدالإله
من اليمين : ناظم القدسي ، رشدي الكيخيا ، الملك فيصل ، هاشم الأتاسي ، الأمير عبدالإله .

ان معظم الذين شاركوا في الاستقبال والتوديع لكلتا الزيارتين هم الآن في ذمة التاريخ، وقد اكون انا من القلائل الذين وقفوا على الظروف والدوافع والعواطف التي رافقت تلكم الزيارتين.

ان الشعور الذي لمسته من المستقبلين والمودعين ومما ذكرته معظم الصحف السورية، وما تناقلته الالسن والافواه في الاندية والمجتمعات والمقاهي وسائر أوساط سواد الشعب السوري، كان شعور العطف والاشفاق والحنان نحو شخص الملك اليافع. انه فتى في عنفوان صباه، ماضيه ناصع ونزيه، وحاضره نقي ونظيف، ومستقبله مرهون بمشيئة الله وهدايته وقضائه وقدره وهو علّام الغيوب. ان الدافع وراء ذلك الشعور تجاه الملك الفتي، حسبما لمسته بنفسي، هو كونه حفيد فيصل الاول الذي ذاق السوريون حلاوة الاستقلال الحقيقي على عهده منذ اليوم الذي استخلص فيه سوريا من الحكم العثماني في تشرين الاول ١٩١٨ وأسس أول دولة سورية مستقلة دامت اثنين وعشرين شهراً فقط وحتى اليوم الذي قضت عليها جيوش الجنرال غورو في تموز سنة ١٩٢٠. ان كثيراً من أبناء الشعب السوري وزعمائه الذين واكبوا عهد الاستقلال ذاك، كانوا ما زالوا على قيد الحياة يوم مرّ حفيده في دمشق بعد ثلاثين عاماً من عهد الاستقلال والذين يعتبرونه الوارث الحقيقي والوحيد للأمجاد والذكريات التي خلفها جدّه في بلدهم. ان السوريين عندما كانوا يتكلمون عن الاتحاد بين سوريا والعراق فان رجل الشارع ومعظم رجال السياسة، كانوا يفهمون ذلك الاتحاد سواء كان اتحاداً فدرالياً أو كونفدرالياً أو وحدة اندماجية، او اي شكل آخر من اشكال التقارب بين البلدين الشقيقين المتجاورين، بأنه نظام ملكي دستوري يرأسه ذلك الملك الشاب حفيد فيصل الاول مؤسس دولتهم المستقلة الاولى ووريث مجده. واني لأقسمها يميناً صادقة ومخلصة، لا مواربة فيها ولا شائبة، وكما يقول المثل البغدادي (باچر شبر وأربع أصابع)، بأني لم أسمع ولم أفهم من أية شخصية سورية مرموقة القدر بان القصد الخفي من وراء الدعوة للاتحاد بين سوريا والعراق هو إقامة عرش مستقل عن عرش العراق

يتربع عليه الامير عبدالآله(*). أما إذا كان في رؤوس بعض الأنتهازيين والأبتزازيين والكلاوچية سواء في العراق او في سوريا بأن تلك الدعوة ما هي إلا شرك سيؤول في النهاية الى إقامة مثل ذلك العرش، فأنهم لعمري مخطئون. فان الشعب الذي يقوم بثلاثة انقلابات عسكرية في ظرف تسعة أشهر، ويقوم بعدها بسلسلة من الانقلابات لا عدّ لها ولا حصر، ويقيم اول وأكبر وحدة عربية قامت في تاريخ الامة العربية الحديث، برئاسة زعيم مثل جمال عبدالناصر، ليفسخها بعد ثلاث سنوات من قيامها، ان مثل ذلك الشعب الملول والمشاكس والمشاغب والمادي (للگشر) والمشهور بذهنيته النرجسية، لا يمكن ان (يَعبر عليه مثل ذلك الكَلَكْ) وان عَبَر عليه لفترة قصيرة فانه لن يدوم طويلاً.

فضلاً عن ذلك، فان العشرينات هي غير الخمسينات، والستينات هي غير الثمانينات، فقد استجد في سوريا وفي دنيا العرب جيل جديد، وقامت فيها أحزاب جديدة، ودخلتها عقائد وأفكار ومبادىء مستحدثة كانت كلها ضد الانظمة الملكية على طول الخط، لاعتقاد القوم بان العروش ليست الأنظمة الوحيدة الصالحة لخدمة الشعوب وتحقيق طموحاتها في الحياة، وتعتبر بعضها نشازاً زمنياً في عصرنا الحديث.

* * *

منذ مدة والملحق العسكري الزعيم عبدالمطلب ومساعده الرئيس فاضل عباس حلمي اللذان كانا على اتصال بالشيشكلي بحكم واجباتهما العسكرية، يلمّحان لي عن رغبة الشيشكلي للتعرف عليّ، ولم أجد في نفسي الرغبة لتحقيق ذلك إلا عندما تحين فرصة مناسبة تبرر اللقاء تفادياً من القيل والقال الذي قد يَنبَعُ من مثل هذا اللقاء. وقد استجدت المناسبة خلال شهر مارت فتحققت الرغبة. ذلك ان ملحق المفوضية السيد محمد حسن علوان كان قد سافر الى بيروت بمهمة رسمية فاحتجز رجال المكتب الثاني في جديدة يبوس سيارة الاجرة التي كان يستقلها مع ما فيها من أمتعة، وظلت محتجزة مدة طويلة على الرغم من المراجعات المتكررة لأسترداد أمتعة الملحق.

كان يومئذ العقيد ابراهيم الحسيني رئيساً للمكتب الثاني وساعد الشيشكلي الايمن فتوسط الملحق العسكري لدى الشيشكلي حول الموضوع، فأصدر أمره الى ابراهيم الحسيني لأعادة الامتعة الى السيد علوان. ومن قبيل ابداء الشكر للشيشكلي على موقفه هذا من أحد موظفي المفوضية، بينت للملحق العسكري بأن فرصة اللقاء بالشيشكلي قد سنحت الآن.

(*) للحقيقة والتاريخ أورد اللمحة التالية:
كان الرئيس الاول فاضل عباس حلمي معاوناً للملحق العسكري عبدالمطلب الامين، وذات يوم اتصل به أحد السوريين يسأله عمّا يشاع من ان مشروع الاتحاد بين سوريا والعراق سيؤدي الى ايجاد عرش للامير عبدالآله في سوريا. فنقل الرئيس فاضل ذلك الاستفسار الى الزعيم عبدالمطلب، فما كان منه إلا ان يجيبه بغلظة «ماكو هيچي شي». وبعد بضعة ايام من ذلك وردت برقية من وزارة الدفاع بنقل الرئيس فاضل عباس حلمي الى مركز الوزارة. فهل ان ذلك النقل كان من قبيل الصدفة أم كان نتيجة للحديث الجاري بين الاثنين عن شائعة إقامة العرش للامير عبدالآله في سوريا؟ علم ذلك عند الله وعند الراقدين في القبور!!



أديب الشيشكلي : «مثل خيط الوبر، ناعم متين»

رتب الزعيم عبدالمطلب والرئيس فاضل موعداً لزيارة الشيشكلي للمفوضية وقضاء (سهرة) خصوصية ضمتنا نحن الاربعة فقط، انا والشيشكلي والزعيم عبدالمطلب والرئيس فاضل. لقد استمرت السهرة الى ما بعد منتصف الليل، جرت خلالها شتى الاحاديث والنكات وصنوف المزاح، ولم يتطرق الضيف ولا تطرق أحد منا الى أي حديث سياسي لا من قريب ولا من بعيد باستثناء ملاحظة أبداها الشيشكلي للرئيس فاضل اثناء توديعه على باب المفوضية قائلاً له: «ان عصام مريود ما زال في المزة وصحته جيدة». لقد سبق الكلام عن عصام هذا، فقد كان الساعد الايمن للحناوي وهو الذي أشرف على اعدام حسني الزعيم ومحسن البرازي في المزة ليلة الانقلاب الذي قام به الحناوي(*) وقد اعتقل جميع رجال ذلك الانقلاب عندما قام الشيشكلي بانقلابه ومن جملتهم عصام مريود الذي أطلق سراحه بعدئذ والتجأ الى العراق وصار يزاول التعهدات الانشائية مع وزارة الدفاع واعتقل في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ثم غادر العراق نهائياً(**).

(*) روى عصام مريود مشهد اعدام حسني الزعيم ومحسن البرازي ليلة انقلاب الحناوي فذكر ان محسن البرازي قد انهار وصار يبكي ويقبل أيادي وأكتاف الضباط الذين سينفذون فيه الاعدام. غير ان حسني الزعيم كان يؤنبه ويصيح به: يا جبان، ثم يفتح حسني الزعيم صدر (بجامته) بيديه ويقول للضباط: اضربوا يا جبناء، إني لا أخاف الموت في سبيل سورية، والمعروف عن حسني الزعيم انه كان شجاعاً وجريئاً.

(**) عصام مريود هو ابن الزعيم الوطني احمد مريود الذي كان أول من رفع العلم العربي فوق سراي دمشق يوم دخول فيصل الاول اليها. وهو شاب مغامر. فعندما قام بانقلاب الحناوي أعدّ طائرة عسكرية في مطار المزة ليستقلها في حالة فشل الانقلاب. وقد روى لي عندما اعتقل معنا بعد ثورة ١٤ تموز انه كان يفكر بالهرب من السيارة المصفحة التي أقلت المعتقلين من سجن ابو غريب الى السجن المركزي، وبعد التفكير والمذاكرة مع زميله محمود الرفاعي قررا صرف النظر عن هذه المجازفة لخطورتها البالغة بالنظر لشدة الحراسة المفروضة ليلتئذ.

ان مطالعتي التالية عن أديب الشيشكلي مستمدة من الساعات الخمس التي قضيناها معاً ليلتئذ. انه لطيف المعشر وجليس أنيس و(أديب) حقاً، حادّ الذكاء واسع الدهاء متوقد الذهن مسيطر على أعصابه متمكن من تصرفاته، عيناه تنمان عن العزيمة والتصميم، ولم يتفوه بكلمة واحدة حتى في الساعات المتأخرة من ليلة السهرة الآ بعد ان يزنها بأدق الموازين، وكما يقول المثل البغدادي انه مثل (خيط الوبر ناعم متين).

أن مثل تلك الخصال عند ذلك (الحموي) هي التي مكنته من السيطرة على مسرح السياسة السورية منذ انقلابه الاول في كانون الاول ١٩٤٩ حتى الاطاحة به في شباط ١٩٥٤، والتي بلغت ذروتها سنة ١٩٥٢ عندما توفق الى كبح جماح الضباط المغامرين، ووجه الجيش والشعب وجهة عسكرية وسياسية لا بأس بها، فبزّ كل الذين سبقوه بالانقلابات التي وقعت في سوريا منذ جلاء الجيوش الاجنبية عنها سنة ١٩٤٦ وحقق لسوريا مركزاً سياسياً ودولياً مستقلاً وبعيداً عن المؤثرات الخارجية، عربية كانت أم اجنبية. غير ان سيطرته على الوضع أخذت تتضاءل تدريجياً، بسبب اجراءاته الصارمة لتقليم اظافر الضباط واحتوائهم ضمن اطار الضبط والربط وعدم التدخل في الشؤون السياسية. فتألب عليه الضباط الذين فقدوا الكثير من امتيازاتهم ونفوذهم، كما تألب عليه الدروز الذين تحدى قوتهم وكسر شوكتهم، كما تضاعف عليه الضغط الخارجي وخاصة من العراق، الذي صار ينفق الاموال الطائلة للاطاحة به. ففقد سيطرته على الحزب السياسي الذي أسسه بأسم حركة التحرير العربية وهو الحزب الذي استند اليه في اعداد دستور جديد لسورية امتاز ببعض الأحكام التقدمية، وقد ساعده ذلك الحزب في الاستفتاء الذي جرى لأقراره وانتخاب رئيس الجمهورية الذي كان الشيشكلي المرشح الوحيد لذلك المنصب، فأصبح رئيساً للجمهورية وأستلم سدة الرئاسة من سلفه (فوزي سلو) وسط معارضة خفيّة من معظم الأحزاب السورية.

في أوائل سنة ١٩٥٣ تبلورت المؤامرات وتدفقت الأموال بغير حساب وتضاعف نشاط الأحزاب على المكشوف في معارضته حكم الشيشكلي الذي اعتبرته كافة الأحزاب السورية، نظاماً دكتاتورياً استبدادياً غاشماً يجافي المبادئ الديمقراطية الصحيحة. فما كان منه إلا ان أقدم على عمل يائس وخطوة طائشة وذلك باعتقاله معظم ساسة البلاد ورجال الاحزاب وزجهم في سجن المزة، كما أمر بحجز هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السابق بداره في حمص.

وفي أوائل سنة ١٩٥٤ تزعم ثلاثة من ضباط القطعات الشمالية المرابطة في حمص وحماة وحلب واللاذقية ودير الزور حركة انقلابية للأطاحة بالشيشكلي، أحدهم مصطفى حمدون من حماة والآخر فيصل الاتاسي (ابن أخ هاشم الأتاسي) من حمص والثالث درزي من السويداء هو أمين أبو عساف، ثم انضم اليهم عدد آخر من أمراء الحاميات الأخرى. وفي ليلة ٢٥ شباط ١٩٥٤ وجه آمر حامية حلب مصطفى حمدون وزميله فيصل الاتاسي إنذاراً من محطة اذاعة حلب، انذروا الشيشكلي بلزوم استقالته من رئاسة الجمهورية ومغادرة البلاد قبل منتصف تلك الليلة وهددوه بالزحف على دمشق إن لم يذعن للانذار. فبعد التشاور مع الملتفين حوله من السياسيين والوقوف على آراء امراء القطعات المرابطة في القابون وقطنا وثكنات دمشق،

وجد الشيشكلي ان القوم قد تخلوا عنه وخذلوه، فقدم ستقالته الى رئيس مجلس النواب الدكتور مأمون الكزبري كما ناط سلطة المحافظة على الأمن الى رئيس الأركان الزعيم شوكة شقير، وغادر دمشق الى بيروت قبل منتصف ليلة ٢٥ شباط، حيث أمضى الليلة في السفارة السعودية في بيروت، وفي اليوم التالي غادرها الى الرياض على متن طائرة سعودية ومنها الى سويسرا، ليتآمر هناك على سورية مع عدوة القديم العراق، ومن سويسرا رحل الى مجاهل البرازيل عام ١٩٦٠ ليمارس هوايته التي درسها في المدرسة الزراعية في حماة قبل انتسابه الى الكلية العسكرية في حمص، ثم الى القبر حيث دفع دمه ثمناً لعدوانه على طائفة الدروز التي فتك بها بقسوة، وعرض حياته للثأر والانتقام، وذلك ما تَمَّ في البرازيل في شهر أيلول عام ١٩٦٤ على يد الدرزي المنتقم لطائفته وأهله المدعو (نواس الغزالي).

* * *

لقد تصلت وتعرفت وقابلت بحكم عملي في السلك الخارجي العراقي سواء في الفترة التي تواجدت فيها في سورية او خلال ملازمتي للجامعة العربية منذ تأسيسها سنة ١٩٤٥ او أثناء خدمتي في انكلترة وأمريكا أو في اجتماعات هيئة الامم المتحدة، على كثير من الشخصيات السورية، وتوطدت علاقتي الشخصية مع عدد كبير منهم، غير ان شخصية واحدة لم يسعفني الحظ ولا سنحت لي الفرصة للتعرف عليها وسبر غورها، على الرغم من المعلومات التي تيسرت لديَّ عنها منذ ظهورها على مسرح الأحداث السورية في الثلاثينات، ذلك هو أكرم الحوراني.



أكرم الحوراني

يصح وصف هذا الرجل بأنه شخصية فذّة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. أنه من مواليد مدينة حماة التي اشتهرت بمواقفها الوطنية والقومية ومقارعتها للأستعمار الفرنسي. وهو وان كان ينتسب لعائلة من العائلات الاقطاعية في حماه، فانه نشأ نشأة مختلفة عن سائر جيله، فاعتنق المبادىء التقدمية وجمع حوله العديد من الشباب الذين بث فيهم تلك المبادىء مستغلاً نقمتهم على الاوضاع الاجتماعية والسياسية والفروق الطبقية التي كانت تسود المجتمع الحموي يومئذ. ثم حمله طموحه السياسي الى تأسيس حزب جديد خاص به وبمن يؤمن به من الناقمين على الأقطاع والتباين الطبقي والمتذمرين، من صغار المزارعين والفلاحين والشباب القومي، سماه الحزب العربي الأشتراكي.

لقد سمعنا الكثير عن أكرم الحوراني يوم تزعم فئة من شباب حماة واشتركوا في حركات رشيد عالي الكيلاني في ثورة مايس ١٩٤١، وسمعنا عنه يوم اشترك في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ مع عدد من أبناء حماة بينهم أديب الشيشكلي وبهيج الكلاّس وعدد من شباب حماة القوميين، فانضموا الى جيش الأنقاذ الذي كان يقوده فوزي القاوقچي.

وفي الأربعينيات تأسس حزب جديد في سورية هو حزب البعث العربي من قبل الاستاذ ميشال عفلق والمرحوم صلاح البيطار، وفي مطلع الخمسينات اندمج حزب أكرم الحوراني بالحزب الجديد وصار يعرف بحزب البعث العربي الأشتراكي، بالنظر لتقارب ذينك الحزبين بالمبادئ والأهداف والمسيرة القوميّة.

وفي الانتخابات التي جرت في سورية سنة ١٩٤٣ انتخب أكرم الحوراني نائباً عن حماة مرشحاً عن حزبه العربي الأشتراكي، فظهر على سطح الاحداث السياسية في سورية على نطاق أوسع، فأشغل عدة مناصب وزارية هامة، منها منصب وزير الدفاع، وصار يلعب دوراً قيادياً وطليعياً في صدّ الانحرافات وفي كل ما يجرى في سورية من أحداث منذ ذلك الحين حتى يوم الناس هذا.

فبعد سلسلة من الأنقلابات العسكرية التي جرت في سورية بدءاً من انقلاب حسني الزعيم سنة ١٩٤٩، والتي كان لأكرم الحوراني دور طليعي ومتميّز فيها، انتخب سنة ١٩٥٧ رئيساً لمجلس النواب، وهو أهم منصب في سورية بعد منصب رئيس الجمهورية لا يرقى اليه الاّ أبرز الشخصيات السياسية، وقد شغله من قبله فارس الخوري ورشدي الكيخيا والدكتور مأمون الكزبري. ولما قامت الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر في شباط ١٩٥٨ كان أكرم الحوراني من أقوى الداعين لها والعاملين لتحقيقها، وفي خطابه المثير الذي ألقاه في الجلسة التاريخية التي عقدها مجلس النواب السوري يوم ٥ شباط، وهو رئيس ذلك المجلس، وقف ليبارك الشعب السوري على تحقيق المرحلة الاولى للوحدة العربية الشاملة. فانتخب نائباً للرئيس الراحل جمال عبدالناصر، وبقي في ذلك المنصب حتى انفصام الوحدة في نهاية أيلول ١٩٦١ بقيام حكومة مأمون الكزبري في سورية.

لم أتابع نشاط أكرم الحوراني منذ الستينات، غير أني أود أن أقرر حقيقة تأريخية، فأقول

بأنه طيلة أكثر من نصف قرن وهو يناضل ويكافح، سياسياً وقومياً ووحدوياً وعربياً وعقائدياً، فهو والحالة هذه شخصيّة فريدة في التاريخ العربي المعاصر. فأذا ما كتب تاريخ سورية الحديث فلا أشك في ان أطول فصل في ذلك الكتاب سيكرس لأكرم الحوراني.

* * *

منذ وصولي الى دمشق وأنا أفكر في مقابلة اكرم الحوراني لاستطلاع آرائه وحقيقة مواقفه تجاه العراق، فلم تسنح لي فرصة لملاقاته او التحدث اليه في احدى المناسبات الرسميّة لأنه كان يتحاشى الظهور في المناسبات العامة، وخاصة التي تحضرها الهيئة الدبلوماسية، وكل ما كنت أراه هو أثناء حضوري المناقشات التي تجري في مجلس النواب عندما كان وزيراً للدفاع في وزارة خالد العظم. فقد كان الحوراني خطيباً مفوّهاً، مقنعاً بحججه، متمالكاً لأعصابه على الرغم من استفزازات المعارضين.

لقد توفقت لترتيب موعد لمقابلته عن طريق أحد أخصّائه من مدينة حماة، وتمت المقابلة في الشقة التي كان يسكنها أثناء تواجده في دمشق. تقع الشقة في عمارة متواضعة في (زاروب(*)) يتفرع من زقاق وصلت اليه من اتجاه محلّة (عرنوس) بسيارة تاكسي أنزلتني بعيداً عن الطريق المؤدي الى العمارة، ولم أشأ سلوك شارع (ابو رمانة) تحاشياً من أنظار المتطفلين او رقباء المكتب الثاني.

رحب بي أكرم الحوراني ترحيباً ودياً ولمست منه المجاملة وحسن الاستقبال فأجلسني الى يمينه على (الصوفة) في صدر بهو الاستقبال الصغير المؤثث بأبسط الأثاث، ثم أديرت علينا القهوة، فاستهل الحديث بالاعتذار عن عدم تمكنه من مقابلة وزير العراق المفوض في بيروت على الرغم من سبق تحديد موعد لمقابلته بسبب ظروف طارئة استجدت وقت موعد المقابلة. فقد كان الوزير المفوض إبراهيم الخضيري قد حدد موعداً لمقابلة الحوراني في مقره الرسمي بوزارة الدفاع، فحضر من بيروت في الوقت المعين وبقي ينتظر حتى نهاية الدوام الرسمي ولم تتم المقابلة وعاد أدراجه الى بيروت. واذا أعطينا لهذه الحادثة معنى اكثر مما تستحق، فيجوز تفسيرها بأن عدم مراعاة الحوراني للموعد مع وزير مفوض هو ابن اخت توفيق السويدي رئيس الوزراء ووزير خارجية العراق، كان مقصوداً ومتعمداً.

وبعد الكلام عن التشابه بين نواعير حماة المنصوبة على نهر العاصي ونواعير هيت المنصوبة على نهر الفرات، انتقلنا الى صلب موضوع المقابلة، فبدأت الحديث بأني سمعت الشئ الكثير عن مواقفه الوطنية والقومية وميوله الوحدوية منذ سنين طويلة، وكنت أتوق لمقابلته والتحدث اليه، وأنا سعيد

(*) الزاروب: أصطلاح دارج في سورية ولبنان يطلق على الدرب الضيق غير النافذ من أحدى جهتيه، ويعرف بالغرب (cul-de-sac) ويعرف في بغداد (دربونة متطلع).

الآن لتحقيق هذه الرغبة، وقلت له: يا أكرم بك دعنا نتجرد من صفتينا الرسمية ونفتح صدرينا وقلبينا لبعضنا البعض ونتحدث دون حرج، أنا أعلم الشيء الكثير عن كفاحك الوطني ومواقفك القومية وايمانك بالوحدة العربية، وأنا أحمل نفس العقيدة والايمان، فأودّ ان أقف على حقيقة موقفك تجاه العراق، وما الذي تأمل ان يقوم به العراق لتحسين موقفه القومي بالنسبة لك، ولماذا تعارض التقارب او الاتحاد بين سورية والعراق؟ لقد وجدته دقيقاً جداً فيما يتعلق بكلمة «العراق» وطيلة الحديث كان يردد عبارات «الحكومة العراقية» او «الملكية» او «نوري السعيد وحكومته» وليس كلمة «العراق» وحدها.

لقد بيّن ان موقفه من العراق يحكمه عاملان، الاول ان العراق مرتبط مع بريطانيا بمعاهدة، وسورية حرة ومستقلة استقلالاً تاماً، «فكيف نرضى ان نكبل أيدينا بأنفسنا بارتباطنا مع العراق المرتبط بدوره مع بريطانيا، مستعمرة الامة العربية وعدوها الأول. أليست بريطانيا هي التي سلخت فلسطين من جسمنا ووهبتها الى الصهيونية؟» ولما قاطعته متسائلاً: وماذا لو أنهى العراق معاهدته مع بريطانيا؟ أجاب: «حينئذ يصبح لكل حادث حديث.»

واستطرد قائلاً: اما العامل الثاني فهو ان النفوذ الاجنبي يدخل البلدان ذات النظم الملكية عن طريق العروش، فاذا ما اتحد العراق وسورية تحت عرش واحد فمعنى ذلك ان النفوذ الاستعماري سيدخل الى سورية ثانية عن طريق العرش وذلك ما نقاومه بكل ما أوتينا من قوة.(*)



عاد الملحق العسكري الزعيم عبدالمطلب الأمين من بغداد ليفاجأني بالخبر التالي:
- تره الجماعة في بغداد زعلانين على «ورد».
- سألته: لماذا؟
- أجاب: يقولون كيف سمح لأكرم الحوراني أن يشكك باخلاص العرش، وكيف جوّز لنفسه تدوين ذلك ببرقية يطلع عليها الكثيرون.

(*) ان مقولة تنازل الملك فيصل الثاني عن العرش لغرض قيام اتحاد بين سورية والعراق لم أسمع بها لا في داخل العراق ولا في خارجه قبل إيرادها في محاكمات المهداوي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

تلكم هي ملخص المقابلة، التي استغرقت قرابة الساعة، كما أذكرها اليوم. ولما عدت الى المفوضية أعددت بها برقية رمزية مفصلة أرسلتها بواسطة المرسلة بالجفرة العسكرية وكادت هذه البرقية (تكسر رگبتي). فبعد ارسالها أُستدعي الزعيم عبدالمطلب الى بغداد، ثم عاد ليفاجأني بالخبر التالي: «تره الجماعة في بغداد زعلانين على ورد» (ورد اسمي المستعار بالجفرة العسكرية)، تساءلت منه لماذا؟ فأجاب: «يقولون كيف فسح المجال لأكرم الحوراني للتشكيك بأخلاص العرش، وكيف جوّز لنفسه ان يدوّن ذلك في برقية يطلع عليها الكثيرون».

لا شك اني أعتبر ما رواه الزعيم عبدالمطلب تأنيباً قاسياً لي، وعليّ ان أدافع عن نفسي وعن سلامة موقفي وحسن نيتي وصدق طويتي. فكتبت رسالة شخصية الى أحمد مختار بابان رئيس الديوان الملكي يومئذ - وبين عائلة (حسن أفندي قول أغاسي) والد أحمد مختار وعائلتنا صداقة قديمة منذ كنا نسكن الدنگچية في العهد العثماني - بينت له فيها باني تلقيت التأنيب الذي نقله لي الملحق العسكري من أنكم (زعلانين عليّ) بسبب ارسال البرقية عن مقابلتي لأكرم الحوراني، وقلت في الرسالة: أن أخلاقي وتربيتي واخلاصي لواجبي «تفرض عليّ ان أنقل لكم ما يجب ان تسمعوه وليس فقط ما تحبون ان تسمعوه، كما يفعل كثير من ممثليكم في الخارج، وبدافع من ذلك الحرص فأني نقلت لكم حرفياً كل ما تفوه به أكرم الحوراني».

وبعد انتهاء مهمتي في دمشق وعودتي الى بغداد، قابلت أحمد مختار بابان وفاتحته بموضوع البرقية فقال: «لا تدير بال، لقد سوينا الأمر مع الأمير».

* * *

في هذا الشتاء الاستثنائي، وعلى وجه التحديد في اليوم الاخير من شهر شباط، اقتضى سفري الى بيروت لمقابلة الاخوين عادل العظمة ونبيه العظمة، اللذين كانا قد التجآ الى لبنان بعد الانقلاب رقم (٣)! وعند العودة الى دمشق سبقتني عاصفة ثلجية هوجاء جعلت سلوك الطريق بين بيروت ودمشق بالسيارة أشبه بالمستحيل، على رغم جهود الآليات التي استخدمت لرفع الثلوج التي تجاوز سمكها المتر الواحد. وبعد اجتيازي ضهر البيدر والمديرج بِشقّ الانفس وبصراع مرير بيني وبين مقود السيارة ودواليبها، وبين الجليد والثلوج التي جعلت «التهور» الى الوديان أقرب اليّ من حبل الوريد، بلغت شتورة، غير اني لم أستطع اجتياز المنطقة الواقعة بين المصنع ووادي الحرير وجديدة يبوس، فهجرت سيارتي مطمورة في الثلوج وساعدني أحد المسافرين العائدين الى شتورة فأوصلني بسيارته الى أوتيل (مسابكي)، وكان يومئذ الفندق الوحيد لأيواء المنقطعين في مثل تلك الاحوال. ليس هذا فقط بل اشتهر الفندق المذكور بأنه الفندق المفضل للعرائس لقضاء شهر العسل فيه!! وكان الخير فيما اختاره الله. فقد التقيت في ذلك الفندق بعدد من المسافرين الذين التجأوا اليه لنفس الاسباب. ومن جملة من تعرفت عليهم في تلك الليلة شخصية شامية سمعت الكثير عنها ولكن لم تسنح لي فرصة للالتقاء بها من قبل. ذلك هو صبحي العمري.

ينتسب صبحي العمري الى الفرع الدمشقي لعائلة العمري الموصلية التي استوطنت دمشق منذ قديم الزمان، وقد تجددت الرابطة بين فرعي العائلة حديثاً بزواج عماد أرشد العمري الموظف في

مفوضيتنا من (العمرية) الدمشقية الآنسة سلمى العمري، وكانت حفلة زواجهما من أروع الحفلات التي أقيمت في دمشق وقتئذ وتعرضت لأنتقاد بعض رجال الدين أمثال الشيخ علي الطنطاوي أمدّ الله في عمره وعافاه.

كان صبحي العمري من الضباط السوريين الذين خدموا في الحجاز أثناء الثورة العربية ورافق الملك فيصل الاول مع الجيش العربي الشمالي الذي احتل دمشق في تشرين الأول سنة ١٩١٨ وساهم في توطيد الامن في دمشق في الأيام الأولىٰ من دخولها. وعندما تولى الملك فيصل الأول عرش العراق، التحق بالجيش العراقي وكان هو ورفيقه راسم سردست من الضباط السوريين الذين ساهموا، مع الضباط العراقيين الذين تسرحوا من الجيش العثماني بعد الهدنة والضباط الذين خدموا في الحجاز وسورية، في التشكيلات الأولىٰ للجيش العراقي. وبالنظر لميوله القومية الوحدوية ومجاهرته بها بين



صبحي العمري في جبهة حلب، بعد دخول الجيش العربي الشمالي الى سورية في تشرين الأول سنة ١٩١٨، بقيادة فيصل الأول

أوســاط الضباط فقد ضايقته البعثة العسكرية البريطانية فاضطر الى مغادرة العراق والاشتراك في النشاط الوطني والقومي في سورية في مختلف العهود، وانتخب نائباً في المجلس النيابي الســوري ســنة ١٩٥٠.

لقد انضم الينا في تلك الليلة الشيخ هايل السرور أحد رؤساء عشائر البدو (المساعيد) السورية التي تقطن منطقة (أم الجمال) على الحدود السورية الاردنية والمعروف بضلوعه مع العراق.

كانت تلك الليلة من أمتع الليالي، أمضيناها نتدفأ حول موقد من نار (عرانيص) الصنوبر وحطبه ذي الرائحة العطرة، ونقارع البرد بمنتوجات (رهبان دير كسارة)،تلفّنا من غربنا مناظر الثلوج المتراكمة على قمم جبال لبنان ومن شرقنا سلسلة الجبال السورية المشرفة على وادي البقاع، فنسيت آنئذ تلك التجربة المرة التي عانيتها في الطريق.

دار حديث السهرة حول الدور الذي قام به صبحي العمري اثناء خدمته العسكرية في الثورة العربية في الحجاز ومع الجيش العربي الشمالي الذي حرر دمشق وحلب وأقام دولة سورية المستقلة برئاسة الملك فيصل الاول. غير ان معظم الحديث دار حول معركة (الـطُّفيلة) التي كان صبحي العمري أحد ابطالها مع زملائه من الضباط العراقيين الذين ذكر منهم عبدالله الدليمي وبهاء الدين نوري واسماعيل نامق بقيادة القائد العام للجيش العربي الشمالي جعفر العسكري وبمعية الامير زيد بن الحسين نائباً عن أخيه الامير فيصل، وقد أسهب في وصف احتلال بلدة الطفيلة وأطنب في وصف معركة الطفيلة وفند مزاعم لورنس عن دوره في تلك المعركة، وقال: لم يكن للورنس أي دور لا في احتلال بلدة الطفيلة ولا في معركة الطفيلة التي وقعت بعد ذلك بعدة أيام. فلم يكن سوى ضابط استخبارات وضابط ارتباط بين رؤسائه في القاهرة وبين قادة الجيش العربي، مهمته الوحيدة رفع التقارير الى المكتب العربي في القاهرة عن سير الاحداث. انه لم يصل الى الطفيلة إلا بعد اربعة أيام من احتلالها. أما معركة الطفيلة نفسها فليس للورنس أي علم او دور فيها. وسخّف ما كتبه لورنس في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) عن دوره في تلك المعركة، وقال ان كل ما كتبه هو من نسج الخيال.

ولقد (كبر راسي) وامتلأ قلبي فخراً واعتـزازاً عندما وجـه صبحي العمـري كلامــه الى الشـيخ هايل قائـلاً لــه بكل تواضع: «الحقيقة هي انــه هــم (أي العراقيون مؤشـراً علـيّ بأصبعه) أبطـال معركـة الطفيلـة الحقيقيــون، لا أنـا ولا لورنـس».

لقد كان وصف صبحي العمري لدخول الجيش العربي الشمالي الى دمشق وصفاً مثيراً حقاً فقال: دخل الامير فيصل دمشق صباح اليوم الثاني من تشرين الاول سنة ١٩١٨ مخترقاً حي الميدان متوجهاً نحو المرجة والسراي، ممتطياً صهوة جواده تحف به الخيالة والهجانة ثم سرايا المشاة التي يقود إحداها صبحي العمري ممتطياً هو الآخر صهوة حصـانه، ووصف الفـرح والابتهاج الـذي غمر الدمشقيين يومئذ، فصاروا يصفقون ويزغردون وينثرون الزهور والرياحين ويرشون ماء الورد من القماقم على الجيش المظفر.

تطرق الحديث الى كتبي، فاستهواه عنوان (كما عرفتهم)، وبعد عشرين عاماً من تلك الليلة، نشر صبحي العمري كتاباً عن لورنس وَسَمَهُ (لورنس كما عرفته).

* * *

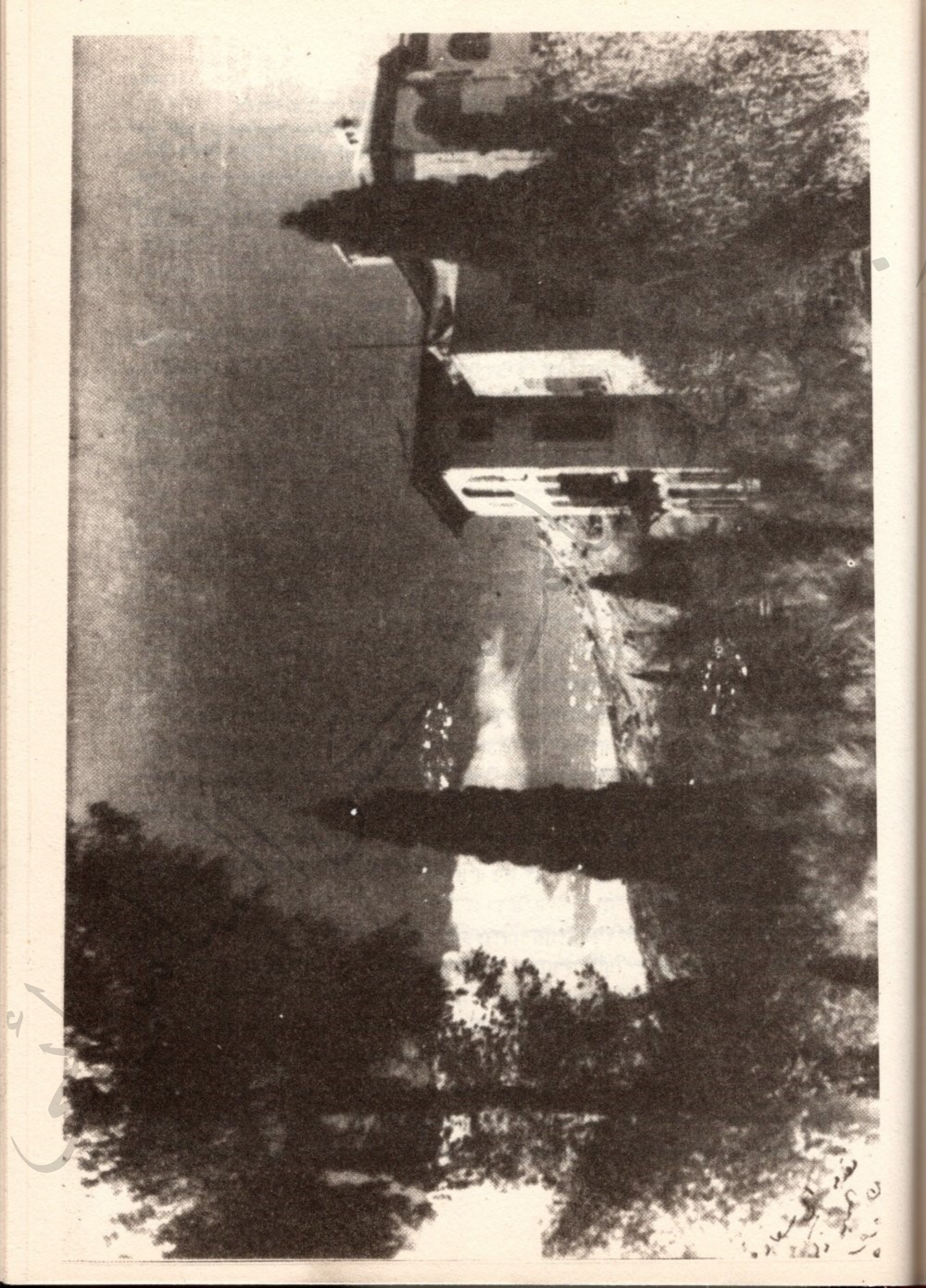
نحن الآن في شهر نيسان وفي أوج موسم الربيع، وخير ما في دمشق ربيعها وقد أقبل ربيع هذا العام (يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلّما) بعد أن قاست دمشق الأمرّين من شتاءٍ قاسٍ عانت فيه من صنوف البرد والصقيع وضروب العواصف والزوابع الثلجية الشيء الكثير. وستحل في اليوم الثاني من الشهر المقبل ذكرى عيد ميلاد الملك فيصل الثاني، فصممت أن أجعل من تلك المناسبة حدثاً تأريخياً في دمشق بإقامة حفلة اتصفت بالأبهة والأناقة والذوق والكرم، انسجاماً مع هوايتي المفضلة، وهي إقامة الولائم والحفلات والوكيرات.(*) وقد وُصفت يومئذ بأنها أروع حفلة أقيمت في دمشق الشام منذ أيام معاوية بن أبي سفيان... وهكذا كانت فعلاً، وقد قال عنها أحد الذين عاصروا عهد الملك فيصل الأول في سورية بأن تلك الحفلة كانت بمثابة بيعة ثانية للملك فيصل الأول وبيعة أولى للملك فيصل الثاني.

أقيمت الحفلة في حديقة المفوضية العراقية الواقعة في حي المهاجرين بجوار القصر الجمهوري وهي بناية فخمة تعود الى عائلة عزة پاشا العابد، وحديقتها هي في الحقيقة بستان واسع مغروس بأنواع الأشجار المثمرة وصنوف الأوراد والزهور والتي ظهرت في أيام الربيع بأزهى ألوانها وأزكى روائحها. تخترق الحديقة (قمرية) تمتد لأكثر من مائتي متر وتتوسطها بركة مثمنة الشكل تنفر منها نافورات المياه المتدفقة الى عنان السماء، وقد زينت الحديقة وبناية المفوضية بالأعلام العراقية والأنوار الكهربائية الساطعة، وصفّت الموائد على امتداد العريشة (القمرية). وقد تعاونت بلدية دمشق في تقديم كل ما كان متيسراً في حدائقها ومشاتلها من سنادين الأوراد والمزهريات وكأن المناسبة هي مناسبة رسمية سورية، فغدت المفوضية وكأنها معرض أزهار «چلسي» المشهور في لندن.

وزِّعت الف بطاقة دعوة على كافة طبقات المجتمع السوري من سياسية واقتصادية ودينية وحزبية وصحفية ودبلوماسية وعلمية وعلى رجال الفكر والأدب والطب والقانون وعلى أفراد الجالية العراقية في سورية والطلاب العراقيين الذين يدرسون في كليتي الطب والحقوق، كما دعوت بعض الشخصيات والأصدقاء من لبنان. غير أن الذين حضروا الحفلة من كلا الجنسين كان ثلاثة أضعاف عدد البطاقات التي وزعت على المدعوين.

تولى الإشراف على تجهيز الطعام والشراب المتعهد صاحب مطعم المطار الذي افتتح حديثاً، وقد خولته التصرف بالتجهيز وفقاً لأرشاداتي، وبغض النظر عن التكاليف والنفقات مهما بلغت. فتولى اعداد الطعام الشرقي والغربي (جورج ريّس) كبير طهاة أوتيل بريستول في بيروت وعميد طهاة لبنان، وتولى إعداد وتجهيز الحلويات الغربية وكعكة عيد الميلاد الحلوياتي السويسري في أوتيل سان جورج، وجهز الحلويات الشرقية بأنواعها محل (البحصلي) في بيروت الذي قال فيه أمير الشعراء أحمد شوقي:

(*) الوكيرات جمع (وكيرة) ومعناها (الطعام يتخذه الرجل عند فراغه من بنيانه، فيدعو إليه، والتوكير هو الطعام). وقد عرف العرب (التوكير) في مختلف أدوار حضارتهم، فكانوا يقيمون (الوكيرة) إذا ما فرغوا من البناء فيدعون إليها ويطعمون ضيوفهم ضروب الطعام والشراب، وربما أخذ الأفرنج هذه العادة الاجتماعية عن العرب، وتعرف في بلاد الإنگليز والأمريكان (House — Warmning Party) وتعرف عند الفرنسيين (Suspendre de la Cremaillere) أي تعليق القدر لطهي الطعام الأول. وكنت أول من أحيا كلمة (الوكيرة) في العراق لتلك المناسبة الاجتماعية.



قالوا إذا جبت البلاد محدثاً   عن حلو بيروت لأفخر معمل
شيئان حدّث بالحلاوة عنهما   ثغر الحبيب وطعم حلو «البحصلي»

وجهز المرطبات والمنعشات والمشهّيات والمُفْرِحات محل (سبينيس) في بيروت خالصة من الرسوم الكمركية. وجهزت أجود وأندر فواكه الموسم من سوق علي پاشا في دمشق ومن محل (حلبي) في شارع ويغان في بيروت.

انشغل خياطو وخياطات دمشق طيلة أسبوعين في إعداد فساتين المدعوات، فلم يبق في سوق الحميدية من قماش (البروكار) والحرير الدمشقي إلا واقتنته سيدات دمشق لصنع فساتينهن، وبعضهن لم يسبق لهن ان حضرن مناسبة عامة من قبل، واحدى السيدات أبلغت زوجتي، التي أستدعيتها من بغداد لتكون الى جنبي في استقبال المدعوين لّما أظهرت زوجتي اعجابها بفستان تلك السيدة، انها استوردته من محل (كريستيان ديور) في باريس خصيصاً لهذه المناسبة.

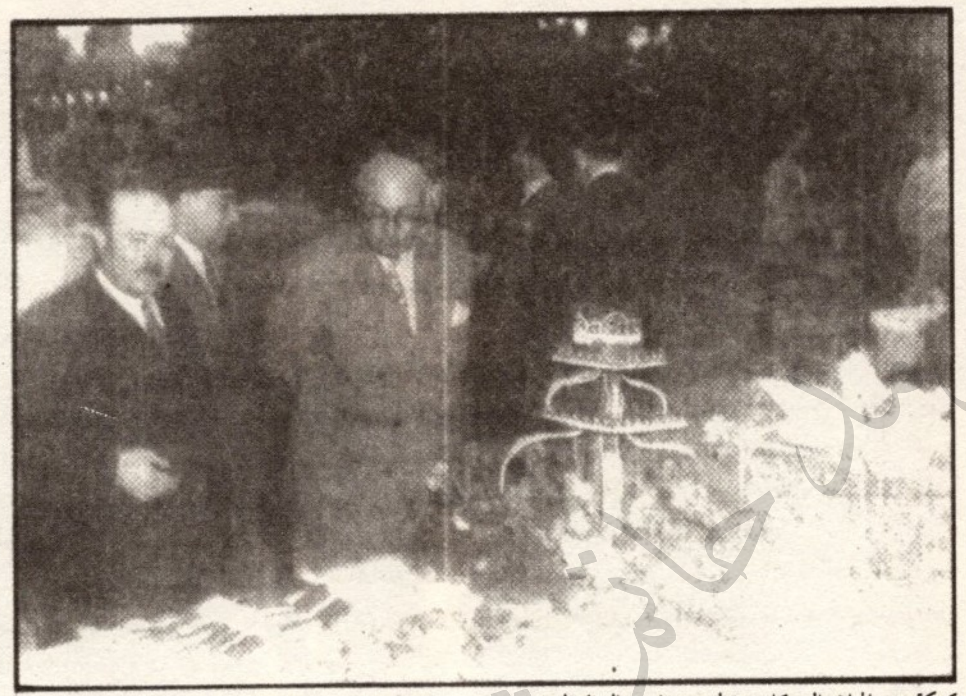
ظلت الموسيقى طيلة ثلاث ساعات تصدح الأنغام الغربية والشرقية وخاصة العراقية وقد تكررت معزوفات (عمي يا بياع الورد) و(خدري الچاي خدري) و(الهجع) عدة مرات بناءاً على طلبات المدعويين.

وفي المساء كانت المفوضية وحدائقها أشبه بعرض للأزياء ومعرض للزهور واستعراض لملكات الجمال، وليلة من ليالي (ألف ليلة وليلة).

اكتمل حضور المدعويين بوصول رئيس الوزراء ووزير الخارجية خالد العظم وعدد كبير من الوزراء يحضرني منهم فيضي الأتاسي وزير العدل، عبدالرحمن العظم وزير المالية، وعبدالباقي نظام الدين وزير الزراعة ومحمد المبارك وزير الأشغال العامة وفتح الله أسيبون وزير الصحة، كما حضر الدكتور شاتيلا الأمين العام لرئاسة الجمهورية وعدد كبير من أعضاء مجلس النواب من مختلف الأحزاب، معظمهم من حزب الشعب الموالي للعراق، وعدد من رجال الدين أذكر منهم الشيخ أحمد كفتارو والشيخ بشير الخطيب أمام وخطيب الجامع الأموي الكبير ولم يتخلف من رجال الدين البارزين سوى الشيخ علي الطنطاوي (أما الله في عمره)، على رغم صداقته مع العراق والعراقيين حيث كان قد درّس في المدرسة الثانوية المركزية في الثلاثينات، كما حضر عدد من المطارنة والخوارنة، وحضر الأستاذ حسني سبح رئيس الجامعة السورية وعدد كبير من أساتذة الجامعة والمدارس والمعاهد، وحتى الشيشكلي قد لبى الدعوة مصطحباً السيدة عقيلته.

ومن الصحفيين الذين وجهت لهم الدعوة ولم يحضروا كان منير الريّس صاحب جريدة (بردى) وبشير العوف صاحب جريدة (المنار).

لقد أعدت مائدة خاصة مستديرة الشكل تتوسطها كعكة عيد الميلاد المتعددة الطوابق. وكنت قد رتبت مع المصور جورج درزي أن يلتقط صورة عندما يقف خالد العظم والوزراء الى جنبي وأنا أقطع الكعكة، ففعل، وبعد إكمال مراسيم قطع الكعكة علا التصفيق، وتوالت عليَّ تهاني المدعوين.



كعكة عيد الميلاد التي كادت تطيح بوزارة خالد العظم :
أمين المميّز وخالد العظم مع عبدالباقي نظام الدين وزير الزراعة وأقوى شخصية في الوزارة بعد أكرم الحوراني وبينهما هاني السباعي وزير المعارف، يشرفون على قطع كعكة عيد الميلاد التي يعلوها العلمان السوري والعراقي.



حسني البرازي يتحدث الى «ابن عمته» أديب الشيشكلي (كما كان يدعوه)، بعد قيامه بالانقلاب رقم ٣



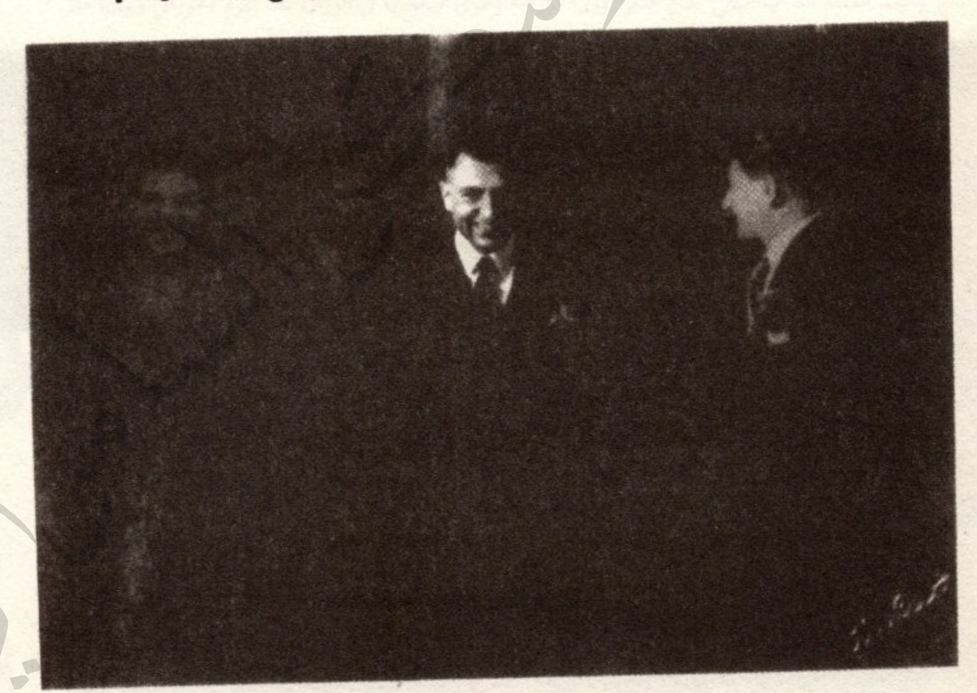
بعض المدعوين والمدعوات الى الحفلة التاريخية، الثاني من اليمين مدير التشريفات بوزارة الخارجية السورية



سقط (الجزدن) ولم ترِد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد



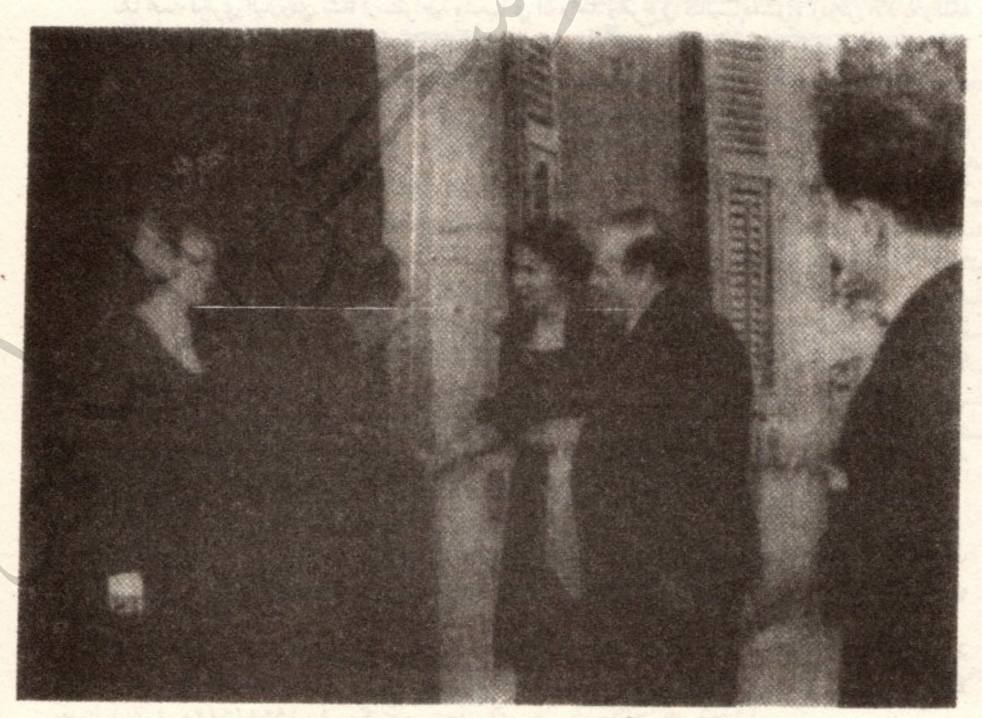
المرحوم فارس الخوري ، يقول لي عند التوديع :
«لقد بايعت جدّه فيصل الأول سنة ١٩١٨ واليوم أبايع حفيده فيصل الثاني»



أديب الشيشكلي والسيدة عقيلته يغادران الحفلة التي أقيمت في المفوضية العراقية في ٢ مايس ١٩٥٠
بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لميلاد الملك فيصل الثاني
الى اليمين فاضل عباس حلمي معاون الملحق العسكري في المفوضية



في الحفلة التأريخية في دمشق يوم ٢ مايس ١٩٥٠
أحد المطارنة ينقل لي تحيات وتبريكات «بطريارك انطاكية وسائر المشرق» بمناسبة عيد ميلاد الملك فيصل الثاني



المدعوون يودّعون القائم بالأعمال والسيدة عقيلته بعد انتهاء الحفلة (التأريخية)

انتهت الحفلة بعد الساعة العاشرة مساءاً على الرغم من تحديد موعدها في بطاقات الدعوة بين الساعة السادسة والثامنة ، فأخذ مكبر الصوت ينادي أسماء أصحاب السيارات ليستقلوها من مدخل المفوضية ، والسوري ينتشي وينتعش عندما يسمع إسمه يلعلع من مكبرة الصوت ، وأخذوا يغادرون تباعاً بعد أن يقدموا الشكر والتهاني لي وللسيدة عقيلتي على الحفاوة البالغة والأناقة الفائقة والضيافة الخارقة التي امتازت بها هذه الحفلة التأريخية .

وإن أنس لا أنس ذلك المطران الجليل وهو بردائه المحترم وقلنسوته المحتشمة ينقل لي تهاني (بطريارك أنطاكية وسائر المشرق) ، بعيد ميلاد الملك فيصل الثاني .

وكان آخر من غادر الحفلة من المدعويين وأكثرهم اغتباطاً واعتزازاً وفخراً هو فخري البارودي(*) ، ولا غرابة لاغتباطه واعتزازه وفخره ، فقد كان مرافقاً لجد المحتفىٰ بعيد ميلاده ، وأقرب أصدقاء المحتفي بذلك العيد .

(*) لا يجوز الكلام عن دمشق إن لم يف الكاتب حق ذلك الشامي الأصيل فخري البارودي . انه علم في رأسه نور ، وكتاب تأريخ دمشق يمشي على قدميه . أن فخري البارودي هو (ابن نص الدنيا) كما يقول المثل البغدادي : أبوه وأجداده من الباشوات والولاة الذين حكموا في سورية وفلسطين . جده الأكبر محمد بن طاهر العمر اختار لقب «البارودي» فاشتهرت العائلة بذلك اللقب منذ القرن الثامن عشر .

آل العلي أخواله وآل البكري أخوال والده وآل العظم أبناء عمة والدته ، وآل العابد وآل الركابي وآل شيخ الأرض وآل الشيخ فضلي وآل الحسيبي وغيرهم كثيرون هم من أصهاره وأنسباء عائلته ، وآل الدالاتي هم عائلة زوجته .

نشأ محمد فخري البارودي نشأة أرستقراطية وشعبية في آن واحد وتخرج في كتاتيب دمشق ، ودرس الأدب واللغة على يد كبار أدبائها ، ونظم الشعر وهو طالب في المدارس الثانوية ، ثم أكمل الخدمة العسكرية الاجبارية ودخل الحياة العامة . ولما حلّ الملك فيصلُ الأول في دار أخواله آل البكري عند دخوله دمشق في تشرين الأول سنة ١٩١٨ وأسس المملكة السورية المستقلة أعجب بفخري البارودي فضمه الى حاشيته واختاره مرافقاً له .

لم يبق حقل من حقول الحياة العامة في دمشق إلاّ ولفخري البارودي باع طويل فيه :

فخري البارودي من أوائل الصحفيين في سورية ، فقد أصدر جريدة فكاهية سمّاها (حط بالخرج) لم تلبث أن احتجبت بعد صدور العدد الثالث منها . ثم عمل محرراً في جريدة المقتبس التي كان يصدرها محمد كرد علي .

فخري البارودي أول من فكر في تأسيس دار للعجزة والأيتام لتعليمهم ورعايتهم من التبرعات التي كان يجمعها من المحسنين وأهل الخير عندما عجزت الدولة عن القيام بهذا الواجب لضيق ذات اليد وعجز ميزانيتها .

فخري البارودي أول من أدرك الخطر الصهيوني في فلسطين عندما لاحظ أن الأراضي صارت تباع لليهود بأثمان خيالية فأسس مشروعه الشهير بمشروع القرش هدفه جمع قرش واحد من كل سوري وعربي لغرض مزاحمة اليهود في شراء الأراضي العربية .

فخري البارودي أسس جمعية تشجيع المصنوعات الوطنية .

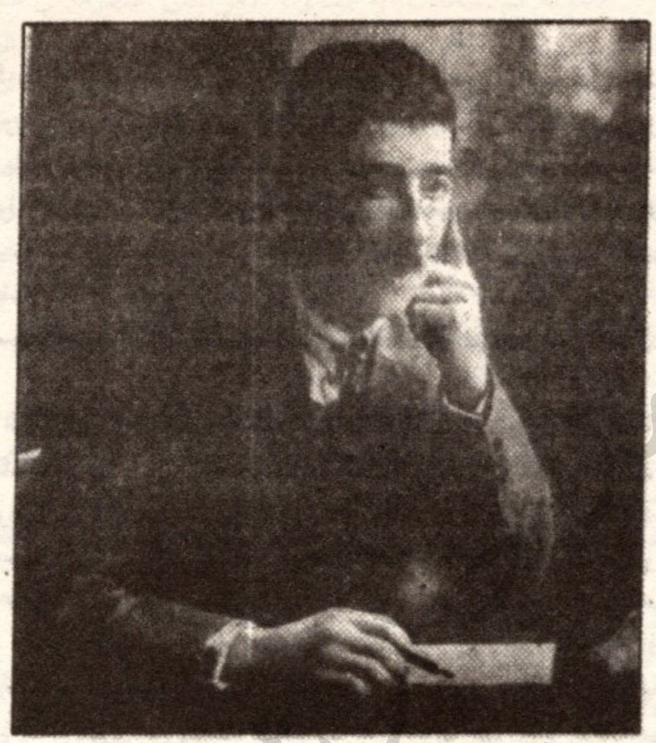
فخري البارودي من أنشط المزارعين وأكفأهم وقد كان ينفق الأموال التي تدرّها عليه زراعة أشجار الحوَر (القوغ) في مقاطعته في قرية (دوما) على المشاريع الخيرية والحركات الوطنية والتبرعات الانسانية .

فخري البارودي من أقوىٰ مقارعي الاستعمار الفرنسي في سورية ومن أبرز أعضاء الكتلة الوطنية .

فخري البارودي هو الذي أسس المعهد الموسيقي في دمشق وأشرف على تدريب عشرات الموسيقيين والمغنين والفنانين ، كان أحدهم ولده بالروح صباح «فخري» ، وهو إنجاز ما بعده إنجاز ، فقد خلد أثمن تراث يعتز به كل عربي حريص على تراث أمته .

فخري البارودي كاتب وأديب وخطيب وأن مكتبته في داره في محلة القنوات كانت من أغنىٰ المكتبات الشخصية بالكتب القيّمة والمخطوطات النادرة . ولما احترقت أثناء القصف في إحدىٰ الانقلابات السورية ، كتب إليّ من بلدة جديتا بلبنان في ١٩٦٤/٦/٢٠ يرثي مكتبته ويستحثني التعويض عن مؤلفاتي التي احترقت .

وفوق كل ذلك فان فخري البارودي شاعر من فحول الشعراء ورسائله نظماً أوفىٰ تعبيراً من رسائله نثراً .



فخري البارودي الذي قال بحقه معروف الرصافي:

من شاء منكم أن يعزّ بلاده فعليسع سعي معزّها البارودي

ولما أهديته كتابي (أمريكا كما رأيتها) كتب إليّ في ١٣/٣/١٩٥٢ يقول:

هديتك المثلى بشوق أخذتها وقيمتها الفضلى بحق قدرتها
ليسعدني أني قرأت كتابكم أمريكا كما قد قلت عنها رأيتها
كتاب بديع جامع كل حكمة مفيد أرانيها كما قد عرفتها
كتاب كآي الحق لاحت سطوره ومن صفحات مشرقات تلوتها
وكاتبه فعلاً «أمين مميّز» لما جاء فيه من فصول درستها
أمين، لقد أتحفتنا ببدائع عن الغرب منكم باشتهاء قطفتها
أفدتم بها أبناء شعبي دراية ومن أحد في سلككم ما سمعتها
ذكرت أموراً قد أعدت لأمتي قديماً على سور الليالي ذكرتها
تهنئك العلياء يا ركن مجدها وهذي قوافي الشكر فيك نظمتها

إن آخر لقاء بفخري البارودي كان في عام ١٩٦٥ أثناء مروري في شتورة حيث لاحظته صدفة وهو جالس في شرفة الفندق الذي يتواجد فيه وقريباً من مزرعة صديقته بديعة مصابني: شيخ أخذ منه المرض كل مأخذ، هزيل الجسم، نحيف البنية، ضعيف البصر، لا يقوىٰ على التحرك من مقعده إلّا بالاستناد الى معين أو التوكأ على عصا.

وبعد أشهر من تلك المقابلة بلغني نبأ رحيله الى الرفيق الأعلىٰ. رحمة الله عليك يا فخري: يا من كنت مثلاً أعلىٰ للانسان العربي والمناضل الوطني والأديب الأريب والشاعر الفحل والعامل المتفاني في خدمة أمته وعزها ومجدها. وانك تستحق عن جدارة ما قاله فيك معروف الرصافي:

من شاء منكم أن يعزّ بلاده فليسع سعي معزّها البارودي

أولستَ أنت الذي حذرتنا من الخطر الصهيوني قبل عشرات السنين يوم قلت:

يا أمة العرب نحن اليوم في خطر هذي فلسطين فيها الهود قد سادوا
إن اليهود بقدس القدس قد عبثوا لا تغفلوا، بعدها الفيحا وبغداد

لم تمر تلك الحفلة بسلام. فقد خلّفت وراءها أزمتين، أزمة في دمشق، وأزمة في بغداد. ففي اليوم التالي صدرت جريدة (بردى) وعلى صفحاتها عناوين بارزة بالمانشيت العريض تطالب باستقالة وزارة خالد العظم، لأن رئيس الوزراء والوزراء قد ازدروا بالشعب السوري ودنسوا كرامته وأهانوا شعوره، الى غير ذلك من العبارات الاستفزازية والمهينة، عندما وقف رئيس الوزراء والوزراء أمام كعكة عيد الميلاد، وأن هذا المشهد يستوجب استقالة الوزارة.. الخ.

غير أن الضجة التي أثارها منير الريّس كانت عاصفة في فنجان، ما فتئت أن ذهبت في مهب الريح.

أما الأزمة الثانية فهي التي حصلت مع بغداد، إذ تلقيت بعد يومين من اقامة الحفلة برقية من وزارة الخارجية جاء فيها: «بلغ الوزارة بأنكم أقمتم حفلة كبرى ليوم ٢ مايس دون أن تستحصلوا على إذن مسبق من الوزارة. بينوا كيفية الصرف على الحفلة وأسباب مخالفتكم للتعليمات.»

كنت متوقعاً مثل هذه البرقية من الوزارة ومستعداً للاجابة عليها، فأجبت الوزارة بما يلي: «أن يوم ٢ مايس هو عيد وطني وعطلة رسمية، واعتادت جميع المؤسسات على تعطيل أعمالها والاحتفال بهذه المناسبة. إن احتفال مفوضيّة العراق بعيد ميلاد ملك العراق ورفع مكانة العراق بين أمم العالم ليس فيه أية مخالفة للتعليمات. إن لرئيس المؤسسة مخصصات شهرية مقطوعة للدعاية فعوضاً عن أن أدسّها في جيبي كما يفعل غيري من رؤساء المؤسسات فقد أنفقتها على الحفلة لرفع اسم العراق عالياً. وأني لم أصرف فلساً واحداً من خزينة الدولة خلافاً للتعليمات.»(*)

وهكذا أسدل الستار على هاتين الأزمتين، ولكن ذكرى الحفلة ظلت عالقة بأذهان الذين حضروها من ذلك اليوم حتى يوم الناس هذا.

* * *

إن موسم الربيع الجميل الذي احتفلنا به قبل بضعة أيام قد أصبح موسماً ساخناً بعد بضعة أيام. فبعد أن عقدت سوريا اتفاقية الهدنة الأولى مع اسرائيل في تموز من العام الماضي(**) شعرت إسرائيل بالاطمئنان فصارت تخرق أحكام الاتفاقية المذكورة بشتى الصوّر بقصد إرغام سوريا على عقد الاتفاقية الدائمة، فصارت تتحرش بالحدود السورية. وفي الربيع الماضي احتلت قوة إسرائيلية بعض المرتفعات السورية قرب قرية (قنيعبة) الواقعة في المنطقة الحرام، واستمرت التجاوزات والاستفزازات الاسرائيلية خلال هذا الربيع أيضاً، وبلغت حدها الأقصى في ربيع ١٩٥١، عندما بدأت بتجفيف مستنقعات الحولة خلافاً لنصوص اتفاقية الهدنة التي اعتبرت تلك المنطقة منطقة حرام ومنزوعة السلاح، زاعمة بأنها داخلة ضمن الأراضي التي خصصت لها بموجب مشروع التقسيم لعام

(*) كان وكيل وزارة الخارجية يومئذ السيد أحمد الراوي منقولاً إليها من منصب مدير الشرطة العام الذي أشغله طيلة أيام الحرب العالمية الثانية.

(**) عقدت اتفاقيات الهدنة الدائمة في رودس سنة ١٩٤٩ بين إسرائيل والدول العربية الأخرى التي اشتركت في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وهي مصر وسوريا ولبنان وشرقي الأردن، ما عدا العراق الذي لم يوقع عليها وما زال من الناحية القانونية في حالة حرب مع اسرائيل.

١٩٤٧. ولم تكن للاحتجاجات السورية لدى الجنرال رايلي كبير المراقبين الدوليين والدكتور رالف بانش ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة، أية جدوى، الأمر الذي اضطرها الى طلب عقد اجتماع الجامعة العربية لتدارس الموقف. فطلبت المعونة العسكرية من مصر والعراق وهما الدولتان العربيتان الوحيدتان القادرتان على تقديم العون العسكري الى سوريا، غير أن مصر لم تحرك ساكناً. أما العراق فقد أعرب عن استعداده لتقديم كافة المساعدات العسكرية التي تطلبها سوريا. فأرسل سرباً من الطائرات المقاتلة العراقية من نوع (FURY) بقيادة الضابط الطيار كاظم عبادي كما أرسل قافلة عسكرية تقل بطاريات المدافع ضد الجو والأسلحة والعتاد والوحدات اللازمة لتشغيل وادامة وصيانة وحراسة الطائرات والبطاريات، غير أن دائرة الأركان السورية أصرّت على أن تسلك القافلة الطريق الدائري السريع (تور دو فيل) نحو مطار المزّة وأن لا تمر في شوارع دمشق لا ليلاً ولا نهاراً. أي (الراك الراك)، تماماً كما فعلت سوريا عندما هرع الجيش العراقي سنة ١٩٧٣ للدفاع عن دمشق وأصرّت على أن يتوجه الجيش الى الجولان مباشرة دون أن يمرّ في دمشق.

بقيت الطائرات والوحدات الملحقة بها في مطار المزّة تحت إمرة القيادة العسكرية السورية أربعة أشهر. ولما شعرت إسرائيل أن العراق جادّ في موقفه خففت من تحرشاتها واستفزازاتها فأوقفت أعمالها في تجفيف مستنقعات الحولة.

وحينئذ طلبت هيئة الأركان السورية سحب الطائرات والقوات العراقية بالنظر لانتفاء الحاجة إليها!!

هكذا كانت صيغة الطلب، وحتى بدون عبارة (خلف الله عليكم)!

ذلك هو قدرنا مع أشقائنا العرب، فأن الطريق الموصل بيننا وبينهم هو طريق باتجاه واحد، فكلما احتاج أخواننا العرب للعراق هبَّ العراق حكومة وشعباً للنجدة والمساعدة، عسكرية كانت أو اقتصادية أو سياسية أو دبلوماسية، دون أن يتوقع مقابلاً لذلك من احد منهم، أو أن يعتبرها مِنّةً عليهم، بل انه يعتبرها واجباً قومياً يحتمه عليه التضامن العربي والمصير المشترك.

واليوم وأنا أسطر هذه الكلمات بقلب مغموم وفؤاد مكلوم أشاهد أولئك الأشقاء القَعَدَة يتفرجون على العراق، وأرواح شبابه تزهق ودماء أطفاله ونسائه وشيوخه تراق، وأمواله تنفق وتهدر، ومدنه ومنشآته الحيوية تُدَك وتدمّر، وحرائره يتدافعن للجود بمدخرات العمر من مال ومصاغ في سبيل الدفاع عن أعراضهن وحماية فلذات أكبادهن من الكواسر والوحوش والمعتدين الايرانيين، وأخواننا العرب قاعدون لا حراك لهم. وأنكى من ذلك، فأن الشقيقة التي هرع العراق بالأمس للدفاع عنها عندما تحرشت بها اسرائيل أثناء حوادث تجفيف مستنقعات الحولة سنة ١٩٥١، وعندما أوشكت اسرائيل على احتلال عاصمتها بعد اجتياح الجولان والقنيطرة سنة ١٩٧٣، والشقيقة الثانية التي بذل العراق كل جهد سياسي ودبلوماسي لتوحيد بلادها المجزأة الى ثلاث ولايات، وتحقيق استقلالها التام، وتأسيس دولة متحضرة فيها على رواسب الاستعمار الايطالي فأرسل لها البعثات العسكرية والقضائية والقانونية والثقافية والدستورية. ومهد السبيل لجلاء الجيوش البريطانية من أراضيها، ورحب باخلاء القوات الأمريكية الجاثمة في قلب قواعدها، ان هاتين الدولتين العربيتين الشقيقتين تضعان اليوم أياديها بأيدي العدو الايراني وتعقدان الأحلاف غير المقدسة معه، وهو الذي يهدد باحتلال بغداد ويتوعد بتقطيع أوصال العراق واذلال شعبه وسبي حرائره.

(*) القَعَدَة في التأريخ هم الخوارج الذين خالفوا بقية المسلمين في التحكيم الذي جرى بين الامام علي كرم الله وجهه ومعاوية بن أبي سفيان حول الخلافة فلم ينضموا الى احد الفريقين وكل ما فعلوه هو انهم كانوا يزينون التحكيم بلسانهم ليس إلا. وقد شبههم أبو نؤاس بقوله:

وكاني وما ازيّن منها ... قعديّ يزيّن التحكيما

ان القَعَدَة في ايامنا هذه هم أولئك العرب الذين تتكون منهم عشرون دولة مستقلة والذين يتفرجون على شقيقهم العراق وهو يقاتل وحيداً وهم قاعدون لا حراك بهم، وبعضهم لم يحرك حتى لسانه، اما البعض الآخر فقد حرك سيفه ولسانه ووسائل اعلامه الى جانب العدو النعتدي على شقيقهم بدون حياء أو خجل لا من بني قومهم ولا من التأريخ!

أما ثالثة الأثافي فهي تلك الشقيقة التي بذل العراق الغالي والنفيس لدعم ثورتها التحررية ضد الاستعمار الأجنبي ، فأرسل (العزيز) من طياريه مخاطرين بأرواحهم واضعين (دمهم برحاة ايدهم) لنقل الأسلحة من سائر أرجاء الدنيا الى المقاتلين الوطنيين ، وقدم الستة ملايين دينار التي سددت يومئذٍ بالدولار ، العملة الصعبة والنادرة ، يوم كان العراق يصطاد الدولار بـ (الگوز والنشاب !) ، وقطع علاقاته الدبلوماسية والتجارية مع الدولة التي له معها أوثق الروابط ، فتحمل من جراء ذلك أفدح الخسائر والأضرار. ولما نالت تلك الشقيقة استقلالها بادر العراق بتقديم الوف المعلمين والمعلمات لتعليم أبناء تلك الشقيقة اللغة العربية وحقوق وواجبات العروبة !!

ان هذه الشقيقة صارت تتغازل اليوم مع عدو العراق بدعوى الوساطة وتتطوع لرعاية مصالحه في الدول التي تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع ذلك العدو اللدود للعراق.

فوالله لو كنت من رعايا احدى تلك الدول العربية الثلاث لتواريت عن الأنظار خجلاً في أي مجتمع يضم عرباً ، غير أنه لله في خلقه شؤون !!

* * *

في أواسط حزيران سنة ١٩٥٠ ، وردت برقية من وزارة الخارجية تطلب فيها استمزاج رأي الحكومة السورية لتعيين موسى الشابندر وزيراً مفوضاً في دمشق . فوجهت في نفس اليوم مذكرة لوزارة الخارجية السورية بهذا الخصوص أرسلت صورة منها الى وزارة الخارجية للعلم . ولم يمر أسبوع واحد على ذلك إلّا وتردني برقية تأكيدية من وزارة الخارجية تطلب موافاتها بالجواب حول تعيين الوزير المفوض على وجه الاستعجال . فقابلت وزير الخارجية السورية مستفسراً عن الجواب ، فرجاني التريث لبضعة أيام . وبعد بضعة أيام اتصلت بي وزارة الخارجية العراقية تلفونياً حول الموضوع فأبلغتها بما أبلغني به وزير الخارجية السورية حول التريث لبضعة أيام .

وبدا لي يومئذٍ بأن وزارة الخارجية كانت تتصور بأني كنت أماطل بإرسال الموافقة على تعيين الوزير المفوض الجديد حُبّاً بالبقاء في دمشق لأطول مدة ممكنة ، ولم تدر بأني كنت أتحرق شوقاً وحنيناً للعودة الى أحضان محبوبتي بغداد يوماً أقدم .

وبعد اللتيا والتي والمراجعات والمخابرات التلفونية وردت مذكرة وزارة الخارجية السورية بالموافقة ، فأبرقت بها في نفس اليوم الى وزارة الخارجية . ولا مندوحة من أن أذكر بهذا الصدد أن تأخير الأجابة على تعيين الممثل الدبلوماسي الجديد في دولة ما يحمل في طياته عدم الأرتياح لتعيين ذلك الممثل ، غير أن رفض التعيين فيه دلالة على مدى سوء العلاقات بين ذينك البلدين . إن تأخير الجواب على تعيين موسى الشابندر مرده الى أنه من المعلوم في سورية بأن الشابندر كان مرشح توفيق السويدي الشخصي ومعلوم عن السويدي تحمسه لمشروع الاتحاد بين العراق وسورية وهو ما تقاومه الوزارة السورية القائمة أشد المقاومة ، فماطلت في إبداء الموافقة على تعيينه .

تهيأت للعودة الى بغداد ، فسفرت عائلتي قبل سفري وأعددت المفوضية إعداداً لائقاً لسكنى الوزير المفوض الجديد وعائلته وضمان راحتها . وقبيل وصوله ببضعة أيام أجريت دور التسليم والتسلم مع الملحق الأقدم في المفوضية وسافرت الى بغداد بسيارتي الخاصة ، وعدت الى قاعدتي في الصرافية سالماً ولله الحمد .

* * *

في اليوم العشرين من تموز ١٩٥٠ صدر الأمر الوزاري بتعييني مديراً عـاماً لـدائرة الشؤون العربية . وبقيت في هذا المنصب من سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٥٤ تخللتها عدة سفرات الى القاهرة ودمشق وبيروت وعمان والقدس بمهام تتعلق باجتماعات الجامعة العربية وشؤون مكاتب مقاطعة إسرائيل .

في كانون الثاني سنة ١٩٥٣ تألفت وزارة جديدة برئآسة جميل المدفعي ضمت أربعة من رؤساء الوزارات السابقين مهمتها التمهيد لتسلّم الملك فيصل الثاني صلاحياته الدستورية ، وأسند منصب وزير الخارجية الى توفيق السويدي .

كان لتوفيق السويدي رأي خاص عنّي . فيصفني تارة بأني (توثية معنجره) ويتهمني تارة أخرىٰ (بالجربزه) و(الجعنكيّه)(*) ويتشكىٰ مني مراراً بأني (مـا أنحط بالعب) الى غـير ذلك من الصفـات والمواصفات التي ما أنزل الله بها من سلطان . والسبب لمثل هذه النعوت و(اللبّوگات(*) السويدية) هو أني كنت شديداً باجراءاتي جريئاً بتصريحاتي لاذعـاً بأنتقـاداتي في الصحف ، عنيفاً بمـطالعاتي في المخابرات الرسمية ، لا أبالي إذا كان المخاطب سفيراً أو سفارة هذه الدولة أو وزيراً مفوضاً أو مشاوراً أو قائماً بأعمال مفوضية تلك الدولة ، وما أدونـه على الورق أو أبديـه من ملاحظـات في المقـابلات الرسمية ، هو ما أعتقد انه الصحيح وانه الموافق لمصلحة العراق كائناً من كان يحكم العراق ، وبغض النظر عن أي اعتبار آخر . (**) وبسبب مواقفي المارّة الذكر لم يتحمل السويدي وجـودي في ديوان الوزارة لئلا أكون قدوة للآخرين ، فاستصدر ارادة ملكية وأصدر أمراً وزارياً بتأريخ ١٩٥٣/٧/١٤ بدون علمي ولا بموافقتي بنقلي مشاوراً في السفارة العراقية في القاهـرة «لأكون قـريباً من الجـامعة العربية» كما برر ذلك الاجراء بعدئذٍ ، على أن ينفذ الأمر بعد تسعين يوماً من تأريخ صدوره ، ولكن الوزير ، أي وزير ، أو الوزارة أية وزارة ـ عهدئذ ـ يدركون حق الادراك بأنهم لا يضمنون البقاء في الحكم حتى صباح اليوم التـالي . فلم ينفّذ ذلـك الأمر ، إذ ان وزارة جميـل المدفعي قـد استقالت في ١٩٥٣/٩/١٥ ، أي قبـل شهـر من التـأريـخ المعيّن لانفكـاكي وسفـري الى القـاهـرة وهـو ١٩٥٣/١٠/١٥ ، فتألفت وزارة جديدة برئآسة فاضل الجمالي الذي أشغل منصب وزارة الخارجية أيضاً ، فبقي ما كان على ما كان ، وكفى الله المؤمنين القتال ولو مؤقتاً .

كان توفيق السويدي يعتد برأيه وبثقافته باعتبـاره المتخرج الـوحيد من بـين سـاسـة العراق من السوربون ، وانه تسنم رئآسة الوزارة ولما يبلغ الأربعين من العمر ، بينما غيره من رؤساء الوزارات هم (ألآيليّه)(*) ، كما كان يسخر منهم ويتهكم بهم ، ويقول بأن غيره من السياسيين لا يعرف العرب

(*) اللبّوگه ، كلمة أو جملة تتردد كثيراً على لســان شخص ما ، وكثيراً ما تستعمل مجازاً ، مثلا : أبوس إيدك ، خلّيني اخـدمك الـخ .

(*) الجعَنكيّه هم أهل الشدة والعنف في التصرف ، مفردها (الجعنكي) .

(*) الآلايلي ، والآلايليّه ، هم ضباط الجيش العثماني الذين لم يتخرجوا في المدرسة العسكرية ، بل تدرجوا من مرتبة الجندي حتى وصلوا الرتب العليا بعد خدمات طويلة في الجيش ، وقد أشغل بعضهم عدة مناصب عليا إبّان الحكم الوطني .

(*) جربزه، كلمة فارسية تعني اللجاجة والمتابعة والملاحقة الزائدة، ومرادفها في العامية البغدادية (لوچه)، وفي معجم اللغة العامية البغدادية للشيخ جلال الحنفي انها من «چهارّبَسَه» أي أربع مرات حتى يكفّ وينتهي . . .

(**) لم يغيّر توفيق السويدي رأيه عني إلا بعد خمس سنوات عندما عين وزيراً للخارجية في وزارة الاتحاد الهاشمي في تموز ١٩٥٨ ، وأصر على اسناد منصب المدير العام للشؤون الخارجية إليّ، وكان ذلك في وجه منافسة شديدة من جانب أحد الزملاء الأردنيين وتأييد حكومته له ، متذرعة بجعل مقر وزارة خارجية الاتحاد في عمان ، وان اسناد ذلك المنصب إليّ دون زميلي الأردني المقيم في عمان يستدعي نقل اقامتي من بغداد الى عمان وان ذلك يكلف خزينة الاتحاد المرهقة نفقات لا مبرر لها ! غير ان وزير الخارجية لم يقنع بهذا (التخريج) وأصر على رأيه الذي لم ينفذ لقيام ثورة ١٤ تموز بعد بضعة أيام من ذلك .

العدد: [illegible]
التاريخ: [illegible]/١٩٥٣

« أمر وزاري »

بناء على منطوق الإرادة الملكية المرقمة ١٠٣ والمؤرخة ٢/٢/١٩٥٣ وبالنسبة لطلب الوزارة [illegible] بكتاب وكالة ديوان [illegible] المرقم ٢٢٢٢ والمؤرخ ١٤/٢/١٩٥٣ [illegible] السيد [illegible] [illegible] [illegible] هذه الوزارة [illegible] المفوضية العراقية في [illegible] على [illegible] في ١٠/١/١٩٥٣.

[illegible]
توفيق السويدي

نسخة منه إلى:
المفوضية العراقية - [illegible]
[illegible]
[illegible]
مديرية [illegible]
مديرية [illegible]
[illegible] الوزارة
[illegible]
السيد [illegible]

ولا يفهم العروبة، ولا عمل أو يعمل في سبيل القومية والوحدة العربية مثله، الى غير ذلك من الآراء التي يعرفها العراقيون عن السويدي.

وأود أن أنقل يوميّة من يوميات كتابي (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) تتضمن مواجهة جرت لي مع توفيق السويدي في ٩ مايس ١٩٥٤ (ص ٣١) عندما كنت أتأهب للالتحاق بمنصبي الجديد في المملكة العربية السعودية:

«لما زرت رئيس الديوان الملكي عبدالله بكر قبل مقابلة الملك، التقيت في مكتبه بعدد من كبار الشخصيات، بينهم رئيس الوزراء ووزير الخارجية الدكتور فاضل الجمالي والسادة توفيق السويدي وأحمد مختار بابان وعبدالمجيد محمود وزير المالية وأحمد الراوي سفير العراق في لبنان. ولمّا علم السويدي بأني عينت الى جدة، أبدىٰ لوزير الخارجية اعتراضه على فصل المفوضية العراقية في جدة عن السفارة العراقية في القاهرة وتعيين وزير مفوض مستقل لها، وقد أسند السويدي اعتراضه هذا بأنه من الصعب أن تجد الحكومة وزيراً مفوضاً يقبل العمل طويلاً في بلد مثل جدة، وأن الموظفين يحاولون التهرب من العمل في أمثال تلك البلاد، وأضاف: «أن هذا الشخص (مشيراً إليّ بأصبعه) سوف لا يبقىٰ هناك أكثر من أربعة أيام»، فأجبت السويدي بحدة قائلاً له: «فخامتك متوّهم، سوف أبقىٰ أكثر من أربعة أيام وأكثر من أربعة أشهر، وأكثر من ذلك بكثير». (وفعلاً بقيت في جدة سبعمائة يوم، فدحضت بذلك مزاعم السويدي من أني لا أبقىٰ فيها أكثر من أربعة أيام.)



توفيق السويدي: أول سياسي عراقي يتخرج من السوربون، وألف وزارته الأولى ولما يبلغ الأربعين من عمره، وكان يصف غيره من رؤساء الوزارات بأنهم (ألآيليّه).
وقال للمهداوي بأن سورية هي أصل البلاء، وقال بأني لن (أصمخ) في جدة أكثر من أربعة أيام ولكني بقيت فيها سبعمائة يوم، فدحضت ذلك الزعم.



آخر مناسبة رسمية أحضرها قبل التحاقي بمنصبي الجديد في المملكة العربية السعودية :
في بهو الأمانة : من اليمين : أمين المميّز، المحامي سلمان الشيخ داود، هاشم خليل، روفائيل بطي، طاهر الباچه‌جي



في بهو الأمانة: من اليمين: السفير الأفغاني، السيد عبدالقادر الكيلاني، طاهر الپاچه‌جي، روفائيل بطي أمين المميّز. أرشد العمري

في اليوم الأول من مارت عام ١٩٥٤ صدرت الإرادة الملكية بتعييني وزيراً مفوضاً لدىٰ المملكة العربية السعودية. وفي اليوم الثاني من شهر مايس باشرت عملي في جدة فخرجت بكتابي الثالث «المملكة العربية السعودية كما عرفتها» المنشور عام ١٩٦٣.(*) ولا أرىٰ موجباً لاعادة ما سبق أن دونته في ذلك الكتاب الذي لقي تقديراً كبيراً لدىٰ القراء، فكتبت الصحف والمجلات العربية والأجنبية الشيء الكثير عنه، كما استلمت مئآت الرسائل من مختلف الشخصيات العربية والأجنبية، وأني لأستميح القراء الكرام الذين تفضلوا عليّ برسائلهم وقصائدهم، عذراً إن أنا اقتصرت على نشر رسالتين فقط، واحدة وردتني من أستاذي وزميلي وصديقي المرحوم ناجي القشطيني، تتضمن بيتين من شعره، أصرّ إلّا أن يخطّهما بخطه الجميل على لوحة أحاطها باطار أجمل، وأصرّ إلّا أن يعلقها بنفسه على جدار مكتبي:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي الأستاذ الحاج أمين المحترم

ما كدت أتم قراءة مذكراتك القيّمة عن (السعودية) حتى بهرتني أشباح تعابيرك الصادقة، وسحرتني ألواح تصاويرك الناطقة، فانبَجَسَتْ قريحتي ببيتين أهديهما إليك ليؤديا الثناء عليك:

لو كان كل (سفيرٍ) في دويلتنا	يفري كفري (أمين) في المهمّات
لصارت الدولة الكبرىٰ لأمتنا	وقاومت كل أحداث الملمّات

الفري: أعجب العجب.

ورد في صحيح البخاري: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما رأيت عبقرياً يفري فَرْيه.(**)

محمد ناجي القشطيني
١٩٦٤/١٢/١٤

* * *

(*) ناشدني صديقي الدكتور مجيد خدوري في عدة رسائل شخصية وعلى صفحات مجلة (Middle East Journal) الصادرة في نيسان سنة ١٩٦٤ أثناء استعراضه لكتابي عن المملكة العربية السعودية أن أكتب عن مهمتي في دمشق سنة ١٩٤٩ وسنة ١٩٥٠، بالنظر لأهمية تلك الفترة في تأريخ سورية. ولم أجد في نفسي يومئذ استعداداً للقيام بذلك لأن تلك الفترة كانت قصيرة لا تؤهلني لكتابة كتاب عنها، إذ لم أشأ أن أكون مثل أولئك الذين يكتبون الكتب ويصدرون الأحكام ويطلقون التعميمات جزافاً عن بلاد مروا بها ساعات معدودة أو أقاموا فيها أياماً محدودة، أو أن أكون مثل ذلك الفرنسي الذي عبر القنال الانكليزي وجلس في احدىٰ مقاهي (دوفر)، وبعد أن قدمت له النادلة (Waitress) الشاي، وكانت حمراء الشعر (Ginger) كتب لصديقته في باريس على بطاقة بريدية: «عزيزتي، هل تعلمين بأن جميع النادلات الانكليزيات حمراوات الشعر؟»
وبعد: أرجو أن أكون قد لبيت مناشدة الدكتور خدوري بهذه الشذرات المقتضبة عن سورية إبّان وجودي فيها سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٠.

ذلك هو رأي عراقي في الكتاب ومؤلفه، أما الرأي السعودي فقد عبر عنه المغفور له الأمير فيصل آل سعود، وكان يومئذ ولياً للعهد ورئيساً لمجلس الوزراء، في الرسالة التالية، لمّا أهديته نسخة من الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية	الرقم: ١١٩٢١
ديوان رئاسة مجلس الوزراء	التاريخ: ٧/٥/١٣٨٣هـ

صاحب السعادة السيد أمين المميز المحترم

بعد التحية:

لقد تلقينا رسالتكم الكريمة المؤرخة في ٥/٩/١٩٦٣ ومعها هديتكم الثمينة نسخة من كتاب «المملكة العربية السعودية كما عرفتها» الذي دبجه قلمكم السيّال وقريحتكم الوقّادة، وأملته عليه نفسيتكم الطيبة. وإننا نقابل ذلك بالشكر ونسأل الله أن يديم على الجميع نعمة التوفيق لصالح الأعمال.

وتقبلوا خالص التقدير.

(فيصل)

═══ ═══ ═══ ═══

إنتهت مهمتي في المملكة العربية السعودية في شهر مارت سنة ١٩٥٦ بصدور أمر نقلي الى بغداد في ٢٨ شباط ١٩٥٦، بعد أن أمضيت فيهاسبعمائة يوم عدّاً، فغادرت جدة في ٢٢ منه الى بيروت وغادرتها الى بغداد في ٨ نيسان.

«في يوم ١١ منه قصدت ديوان مجلس الوزراء لمقابلة رئيس الوزراء. فقابلت أولاً السيد أحمد مختار بابان نائب رئيس الوزراء. وبيني وبين أبي «سراب» من العلاقة الشخصية ما يمكنني من مكاشفته بصراحة تامة عن العلاقات العراقية - السعودية فقلت له: «كفانا هذه الخصومات والمشاكسات بين البلدين والتي لا يستفيد منها إلاّ الأعداء ولا تتضرر منها إلاّ الأمة العربية، فعليكم أنتم أولي الأمر واجب تجاه الله والتأريخ والأمة العربية وعليكم أن تحزموا أمركم وتفعلوا شيئاً لتعديل هذا الوضع المؤلم» فأجابني: «أود أن أبيح لك بأننا مقدمون على تغيير سياستنا تجاه المملكة العربية السعودية بما يرضي المخلصين، وسوف ترى بعض الاجراءات قريباً».

ثم دخلت على رئيس الوزراء السيد نوري السعيد، وكان يتخطى في غرفته ويداعب مسبحته، وعندما شاهدني بادرني باللهجة الدارجة: «هاي شبيك أنت والسعوديين؟ هُمَّه يقدمون عليك مذكرات طويلة وأنت ترسل عليهم برقيات طويلة؟»

أجبته: «پاشا، كانت لعبة «پوكر» بيننا نحن الثلاثة: أنت حرّكت «فيشه» في خطابك في مجلس النواب، «فدوبلك» الشيخ يوسف الياسين، ثم رجعت عليه أنا «بالرست» وانتهت اللعبة وعاد كل واحد الى بيته».

ضحك رئيس الوزراء من هذه المقارنة، وقال: «كل شيء راح يصير على كيفك والعلاقات بيننا وبين السعوديين راح تتغير تغير جذري وسيزول قريباً كل شيء بيننا وبينهم».

شكرته على ذلك وحمدت الله الذي هدى بني قومي الى سواء السبيل.»(***)

* * * * *

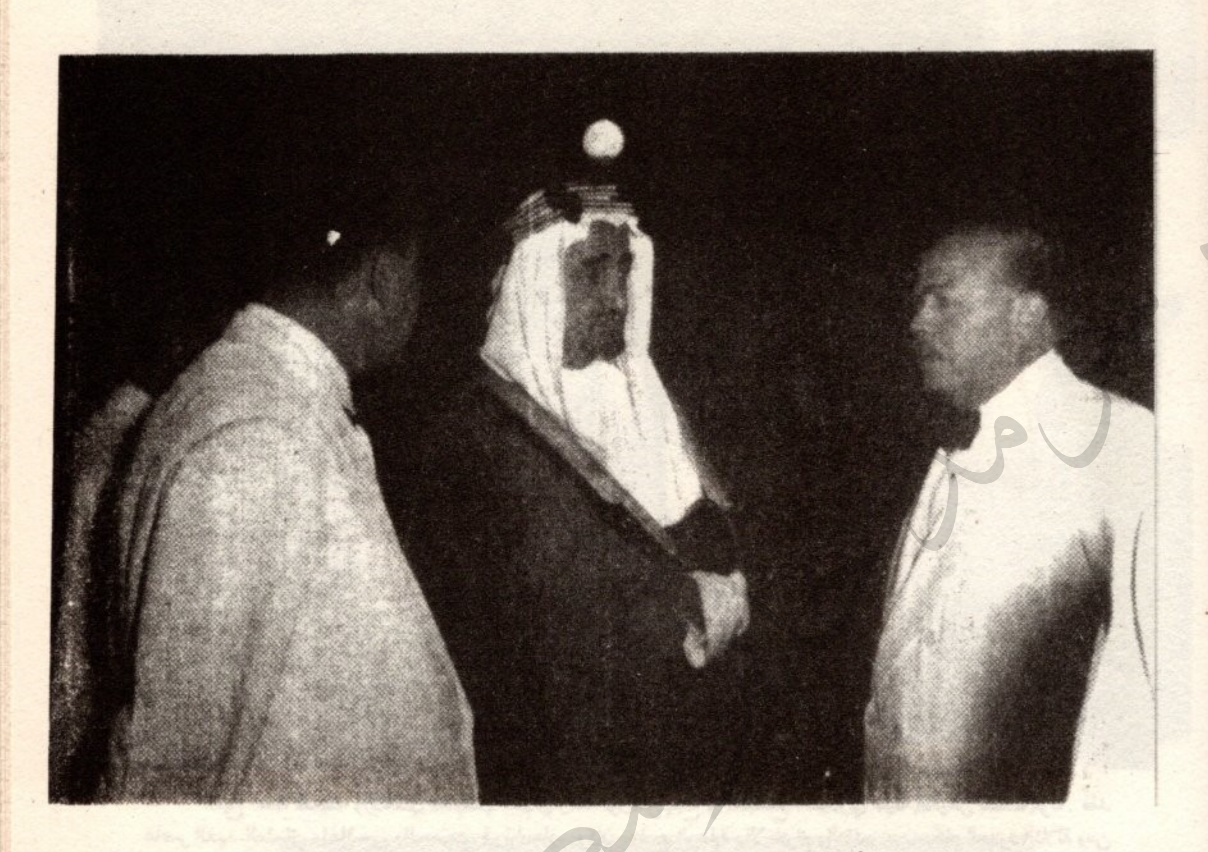
(**) البيتان منشوران في ديوان ناجي القشطيني الموسوم (اللهفات) ص ١٩٩ المنشور في بغداد عام ١٩٦٨.



ملوك المملكة العربية السعودية الذين عاصرتهم :
المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وولي عهده الأمير سعود (الملك سعود) وولي العهد الثاني الأمير فيصل (الملك فيصل آل سعود).



أول مقابلة للمغفور له جلالة الملك سعود بعد تقديم أوراق الاعتماد في الرياض عشية عيد الفطر، فقيل يومئذ ان العيد عيدين ، عيد «الله أكبر» وعيد تقديم أوراق الاعتماد لتوثيق العلاقات بين القطرين العربيين المسلمين الشقيقين



أمين المميز وسمو الأمير فيصل والسفير السوري عمر بهاء الأميري
التقطت هذه الصورة في جدة قبل ارتقاء المغفور له الملك فيصل عرش المملكة السعودية

الفيصل السعودي علم رفرف في سماء الجزيرة العربية حقبة طويلة من هذا القرن. فقد ورث الدهاء والحكمة والفطنة وسداد الرأي وبعد النظر عن والده الملك عبدالعزيز، ونقل المملكة العربية السعودية من دياجير الظلام الى أنوار حضارة القرن العشرين. وكان يمثل وجهة نظر معينة في السياسة العربية والدولية.

لقد تبوأت المملكة العربية السعودية على أيامه مركزاً مرموقاً عندما كان يمثلها في المحافل الدولية والاجتماعات العربية، وان جهوده وموقفه في الدفاع عن فلسطين سجلت له أنصع الصفحات في التأريخ. ولما نوى أن يصلي في المسجد الأقصى قبل أن يلقى وجه ربه، سرعان ما تحققت تلك النية معكوسة، فقد لقي وجه ربه قبل أن يؤدي الصلاة في المسجد الأقصى !!

كنت أحظى من الأمير فيصل عندما كان ولياً للعهد ووزيراً للخارجية برعاية خاصة لمسها كافة أعضاء الهيئة الدبلوماسية والأوساط الرسمية والاجتماعية واستمرت تلك الرعاية حتى بعد مغادرتي المملكة العربية السعودية. ولما أهديته كتابي عن المملكة العربية السعودية كما عرفتها، كتب إليّ شاكراً ومقدّراً النفسية الطيبة التي أملت كتابة الكتاب، كما يلاحظ من رسالته المنشورة في صفحة متقدمة. وقد صادف ان اقتضى دخول ولدي فيصل في كلية البترول والمعادن في الظهران فابرقت له من لبنان التمس مساعدته بهذا الخصوص، فأمر بقبوله وبصورة استثنائية، ولما قصدت جدة للاعراب عن شكري لهذه المكرمة السامية، قال لي بالحرف الواحد: «لا شكر على واجب يا أمين بك، ان ذلك هو جزء من واجبنا تجاهك لما بذلته من جهود للتقريب بيننا وبين العراق»



الشيخ محمد نصيف (الأفندي نصيف) علم في رأسه نور ظل يشع في المجتمع الحجازي طيلة أكثر من نصف قرن. فقد عاصر العهد العثماني والهاشمي والسعودي في الحجاز، وكان موضع الرعاية والاحترام والتقدير من حكام العهود الثلاثة ومن المجتمع الحجازي كافة. كانت دار الأفندي، ذلك القصر المنيف القائم في قلب جدّة (بيت الأمة العربية) بكل معنىٰ الكلمة، إذ كان يحل فيه الملوك والأمراء والوزراء والزعماء والأدباء وعلية العرب والمسلمين الوافدين الى الديار الحجازية. فحل فيه ذات مرة الملك فيصل الأول في إحدىٰ زياراته للحجاز قبل إعتلائه عرش العراق، كما كان يحل فيه الملك عبدالعزيز آل سعود كلما جاء الى جدة بعد احتلاله الحجاز، إذ لم يكن في جدة القديمة فندق أو دار للضيافة تليق باقامة الوافدين، الى أن شُيِّد فندق (قصر الكندره) الحديث في أواسط الخمسينات. وكان الأفندي نصيف في وقت من الأوقات رئيساً لبلدية جدة ووكيلاً لأملاك الأشراف فيها.

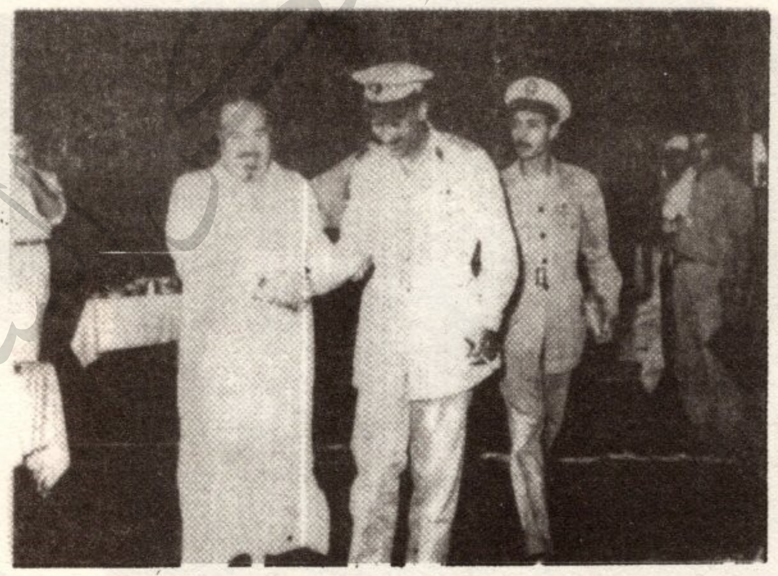
ان الأفندي نصيف سلفيّ العقيدة ولكن دون تعصب أو تـزمّت، فهو لا يدخن السكّارة ولا النـركيلة ويستعيض عن ذلك باستنشاق السعوط (البرنوطي) كما سبقت الاشارة الى ذلك في مكان آخر من الكتاب. مجلسه عامر بالزائرين آناء الليل وأطراف النهار وعلى الخصوص في شهر رمضان حيث تقام مآدب الافطار كل يوم من أيام الصيام. مكتبته عامرة بالكتب والمجلدات والمخطوطات والدواوين وتلي مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة من حيث السعة وندرة الكتب والمخطوطات. وقد قام بطبع عدة كتب ومخطوطات لا يجرأ الناشرون على نشرها، على نفقته الخاصة ليس لغرض الكسب أو الربح وإنما لغرض إهدائها الى المكتبات والأدباء وهواة اقتناء الكتب النادرة ومن جملة تلك الكتب النادرة كتاب «التحفة الاثنى عشرية» تأليف المرحوم محمود شكري الآلوسي واني أعتز كل الاعتزاز بالنسخة التي أهداها لي الأفندي نصيف، رحمة الله عليه.

وفوق ما تقدم فهو صحفي ذو قلم سيال وكانت جريدة (صوت الحجاز) المدرسة الأولىٰ للصحافة في الحجاز، ثم أصدر بعدها جريدة (بريد الحجاز) التي كانت لسان حال الحزب الوطني الذي تألف في الحجاز للدعوة الى استقلال العرب. وهاتان الصحيفتان تختلفان كل الاختلاف عن جريدة (القبلة) التي كان يصدرها الملك حسين شريف مكة.

وخلاصة القول ان الأفندي نصيف هو تأريخ الحجاز يمشي على قدميه. لقد كان رحمه الله يتردد عليّ في كل مناسبة وكان يقول انه يأنس كثيراً بالأحاديث التي نتبادلها، وبالأخص الأحاديث عن الحجاز أيام زمان. غير انه قد استاء من تدوين حديث جرىٰ بيننا عن تلك الأيام، في كتابي عن المملكة العربية السعودية واعتبره إحراجاً له مع رجال العهد السعودي. وقد تلقيت عتابه ذاك بواسطة المرحوم الأستاذ رشيد العبيدي لما زاره في جدة في أواخر الستينات على ما أذكر.

رحم الله (الأفندي نصيف) وحشره مع الصالحين والطيبين من عباده.

القائمقام أنور السادات يبلغني تهاني الرئيس جمال عبدالناصر بمناسبة عيد الأضحى
الواقفان : صادق عبدالكريم محاسب المفوضية وجاسم عبدالله الياسين عضو البعثة **الطبية** للحج .



توديع القائمقام أنور السادات بعد زيارته لي في منى لتقديم تهاني الرئيس جمال عبدالناصر بمناسبة العيد : لقد وصلتني الصورة من القاهرة بعد نشرها في الصحف المصرية، وهي التي جلبت عليّ النقمة عندما وصلت الصحف المصرية الى سرسنك حيث كان رجال الحكومة العراقية يصطافون ، ومن دواعي النقمة انني أطلقت لحيتي ، وكانت يومئذٍ «رز وماش» مراعاة زائدة للسعوديين ، وعندئذٍ رددت المثل الشعبي القائل «واحد شايل لحيته والآخر متعاجز منها» ! الى أقصى يسار الصورة ملحق المفوضية نجم الدين حمودي .



بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

يتشرف رئيس الديوان الملكي بدعوة السيد [illegible]

لحضور حفلة العشاء التى يقيمها جلالته تكريماً

لحضرة صاحب الفخامة

الدكتور احمد سوكارنو

رئيس الجمهورية الاندونيسية

بالقصر الملكي العامر في الساعة [illegible] من مساء يوم الاحد ٤ ذى لحجه ١٣٧٤

٢٤ يوليو ١٩٥٥ .

اللباس رسمى

مع الدكتور أحمد سوكارنو رئيس جمهورية اندونيسيا
في زيارته الرسمية للملكة العربية السعودية سنة ١٩٥٥



بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

يتشرف رئيس ديوان التشريفات الملكية بدعوة السيد أمين المميز

لحضور حفلة العشاء التى يقيمها جلالته تكريماً

لحضرة صاحب الجلالة

الملك حسين

ملك المملكة الاردنية الهاشمية

بالقصر الملكي العامر فى الساعة الواحدة من مساء يوم الاثنين ١٧ محرم ١٣٧٥

٥ سبتمبر ١٩٥٥ .

اللباس رسمي



جلالة الملك حسين بن طلال أثناء زيارته الأولى للمملكة العربية السعودية في ٥ أيلول ١٩٥٥ . وقبل السنوات العجاف التي مرت على المملكة الأردنية الهاشمية ما بين سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٧٠ .



فريق من أعضاء الهيئة الدبلوماسية ووجهاء جدة في الحفلة التي أقامتها عائلة محمد علي رضا تكريماً للملك سعود بمناسبة قدومه الى جدة :

من اليسار : خواجا نظام الدين سفير پاكستان ، حسين الجسر سفر لبنان ، عبدالوهاب عزام سفير مصر، القائم بأعمال المفوضية الايرانية ، الشيخ يوسف زينل ، أمين المميز وزير العراق المفوض ، الشيخ محمد نصيف ، القائم بأعمال المفوضية الهندية .



أمين المميز والمستر جورج ودز ورث سفير الولايات المتحدة في جدة وعميد السلك الدبلوماسي فيها، والخبير الأمريكي الضليع في الشؤون العربية و«كتاب فلسطين يمشي على قدميه» يحفظ تأريخها وجغرافيتها وطوبوغرافيتها واثنولوجيتها ودياناتها وشخصياتها وكل ما يتعلق بها عن ظهر قلب، ويسمونه في فلسطين عندما كان **قنصلاً** عاماً في القدس (وَزْ وَزْ)، ثم عين وزيراً مفوضاً لبلاده في بغداد وبيروت وأنقرة، وعضواً في الوفد الأمريكي للاجتماع الأول لهيئة الأمم المتحدة الذي عقد في لندن سنة ١٩٤٦، خبيراً بالشؤون العربية ومنطقة الشرق الأوسط.

بعد مغادرتي جدة سنة ١٩٥٦ بلغني نبأ وفاته، فتذكرت قولاً سمعته منه قبلاً مفاده ان من يمرض في جدة لا يرتجى شفاؤه، وهكذا أصبح جورج ودز ورث أحد الذين لم يشفوا من أمراض جدة!

إذا كان لأحدٍ من الأمريكيين ان يستحق وصف «الخبير بالشؤون العربية والقضية الفلسطينية» فهو جورج ودز ورث. لقد كان رجلاً نبيلاً وزميلاً متعاوناً ومضيافاً كريماً وانساناً طيباً وقد خفف عني كثيراً من عناء الغربة ومتاعب العمل في بلدة مثل جدة عندما كان عميداً للسلك الدبلوماسي فيها. ولما سمعت بوفاته نشرت كلمة تأبينية بحقه في جريدة الأوقات العراقية التي تصدر في بغداد باللغة الانكليزية، عددت فيها مناقب الرجل وذكرياتي عنه، وبعد مدة تلقيت رسالة شخصية من المستر گولمان السفير الأمريكي في بغداد يشكرني فيها على ما أبديته تجاه زميله الراحل ويذكر بأن تلك الكلمة قد ضُمّت الى اضبارة المستر ودز ورث في مكتبة الكونغرس بواشنطن.



أمين المميز يتحدث الى عبدالرحمن عزام باشا، الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية أثناء احدى زيارات عزام للمملكة العربية السعودية لمتابعة قضية البريمي

عبدالرحمن عزام باشا شخصية عربية عرفت بماضيها القومي ولعبت دوراً بارزاً على المسرح العربي من سنة ١٩٤٥ حتى سنة ١٩٥٢ . فقد إختاره أحمد ماهر باشا أميناً عاماً للجامعة العربية تواً بعد توقيع ميثاقها في ٢٢ مارت ١٩٤٥ .

غير انه تصرف بالجامعة العربية كما لو كانت (عِزْبَه) في الوجه البحري !! فسيطر على مقدراتها ووجه سياستها بصورة كيفية واستبدادية . لقد لعب عزام باشا دوراً نشيطاً ابان استقلال ليبيا بعد الحرب العالمية الثانية وكان يهدف لجعلها دولة اتحادية مؤلفة من ثلاث ولايات هي برقه وفزّان وطرابلس الغرب . وذلك لاعتبارات عاطفية وطموحات شخصية تربطه بتلك البلاد التي كان يناضل لانقاذها من براثن الاستعمار الايطالي منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى . غير انه لم يفلح في مسعاه فتشكلت المملكة المتحدة الليبية المتحدة سنة ١٩٥١ وتولى عرشها الملك ادريس السنوسي ، وخاب ظن عزام باشا .

وفي حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وما بعدها لم يراع عزام باشا واجبه كأمين عام للجامعة العربية ، بل تعداه الى التدخل في الأمور العسكرية . فقد نصب نفسه (مارشالاً) للجيوش العربية في حرب فلسطين وسلاحه في ذلك البيانات المضللة والتصريحات العنترية ، قبل ان ينصب نفسه (امبراطوراً) على سبع دول عربية يصول ويجول من وراء ظهر مجلس جامعتها ورؤساء دولها .

وفي سنة ١٩٤٩ لعب دوراً كبيراً لضم سوريا الى المحور المصري - السعودي على أيام حسني الزعيم ، وكأنه موظفاً في الحكومة المصرية وليس أميناً عاماً لمنظمة اقليمية تضم سبع دول مستقلة وذات سيادة عليه أن يتصرف ويتكلم بأسمها وبموافقتها جميعاً، وان يقصر ولاءه للمنظمة وحدها، لا الى الدولة التي يحمل جنسيتها، كما يفعله كل أمين عام لمنظمة دولية .

ان السلوك الذي سلكه عزام باشا قد أدى الى الاحتكاك المستمر بين العراق وبين الجامعة العربية وأمينها العام ، خاصة عندما يتولى الحكم في العراق نوري السعيد . فكادت المناوشات الكلامية والتصريحات الصحفية والبيانات الرسمية لا تنقطع للمطالبة باصلاح جهاز الأمانة العامة واعادة النظر في أنظمتها ولوائحها وتحديد مسؤولية الأمين العام والحد من تصرفاته . وقد حاول عزام باشا ذات يوم اصلاح ذات البين بينه وبين نوري السعيد، فكتب له الرسالة البليغة التالية :

عزيزي نوري باشا السعيد

السلام عليك : وبعد، فطالما أنصفتك فلم تنصفني ، واحتفظت بودك فلم ترع ودي ، ويعلم الله إنني صبرت استبقاءً لصحبةٍ ووفاءً لعشرةٍ ورغبة في تعاون لخدمة أمتنا ، فأبيت إلا ان تتجاهل ذلك كله ، فهل بقي إلا ما تقتضي به المروءة ، وان أقبل القطيعة التي أردتها :

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

القاهرة في ١٤ مايو ١٩٤٩

عبدالرحمن عزام



أمين المميز، وزير العراق المفوض يلقي كلمة ترحيبية بالضيوف الذين حضروا مأدبة الافطار المقامة في حدائق المفوضية لمناسبة عيد ميلاد الملك فيصل الثاني في ٢ مايس ١٩٥٥

فيجيبه نوري السعيد برسالة لاذعة قام بتنقيحها و(رتوشها) سكرتيره «اللغوي» أحمد ناصفي، وختمها بما يلي:

«وإذا كنت تعتقد حقاً ان «كلانا غنيٌ عن أخيه» فأنني أعتقد اننا لم نكن يوماً ما في حاجة الى بعضنا بعضاً أكثر منا اليوم، وإن كنا في غنىً عن شيء فمن هذه القطيعة البغيضة التي تحاول أن تستدرجني اليها وأنت تحت تأثير تعب أو غضب زائلين. فخير ما تستدرجني اليه هو هَبّة حازمة صادقة لاصلاح الأخطاء ووضع الأمور في نصابها، والله يعصمنا وإياك من عواقب الزلل ويهدينا جميعاً الى سواء السبيل.

نوري السعيد

لقد نشرت جريدة «الأهرام» المصرية بعددها الصادر بتأريخ ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٤٩ رسالة عزام باشا «البليغة» وجواب نوري السعيد «اللاذع» عليها، وكان لنشرهما ضجة كبيرة يومئذ.

لم تنقطع مثل هذه المناوشات بين العراق والأمانة العامة للجامعة العربية إلا بعد رحيل عزام باشا عنها وتولي عبدالخالق حسونة ثم محمود رياض، ثم الشاذلي القليبي لذلك المنصب الخطير في دنيا العرب، فعادت الجامعة العربية منظمة اقليمية تضم كافة الدول العربية وتنطق باسمها جميعاً دون ما تحيّز لدولة أو محاباة لهذا الحاكم أو ذاك.

بعد خروج عزام باشا من الجامعة العربية عينته المملكة العربية السعودية مندوباً عنها لحسم الخلاف بينها وبين بريطانيا حول واحة البريمي، فصار يتردد كثيراً على تلك البلاد.

أما علاقتي بالدكتورعبدالوهاب عزام الذي أشغل منصب وزير مصر في السعودية خلفاً للحسيني الخطيب، منقولاً اليها من باكستان فانها كانت علاقة صميمية وأخوية وكانت أمتن من علاقتي بعبدالرحمن عزام التي كانت عابرة ورسمية استدعتها اجتماعات الجامعة العربية في القاهرة. واني لأعتز بالذكرى القيمة التي تركها عندي عبدالوهاب عزام وهي كتابه القيم (الشوارد) ففيه خطرات من لآليء وجمان صاغها يراعه أثناء وجوده سفيراً في باكستان.



أمين المميز وزير العراق المفوض يقطع كعكة عيد الميلاد، والى جنبه غالب الترك وزير لبنان المفوض

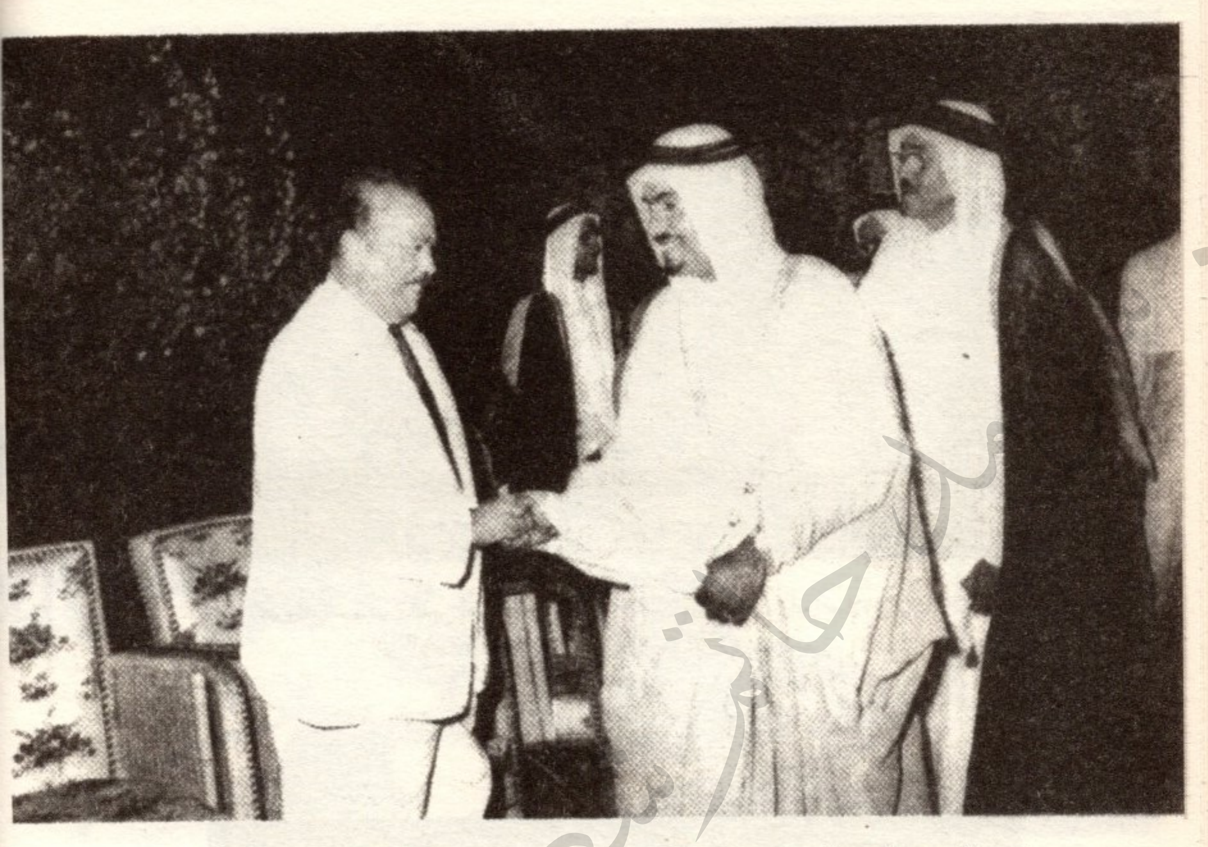
لقد كانت هذه الحفلة من الحفلات المشهورة في جدة بحسن الاختيار والتنظيم . فقد أعدت مائدة افطار خاصة للصائمين عليها جرار من الماء والتمر وكاسات اللبن. كما اعد مصلى خاص لصلاة المغرب في ركن من أركان الحديقة وأمّ المصلين السفير السوري عمر بهاء الأميري. وأعدّت مائدة كبرى للصائمين وغير الصائمين ، فأحضرت جرار الماء من بئر زمزم في مكة المكرمة وجلبتُ التمر من المدينة المنورة واستوردت الزهور من الزمالك في القاهرة وحصلت على الخضر ونوادر الفواكه من أسمره بالطائرة، إذ كانت جدة محرومة من مثل هذه النوادر يوم ذاك. أما كعكة عيد الميلاد ذات الأربعة طوابق فقد أعدها حلواني فندق قصر الكندرة الذي تأسس حديثاً.



بعض الضيوف السعوديين الذين أفطروا على تمر المدينة المنورة وماء زمزم ، وأدوا صلاة المغرب التي أمهم فيها السفير السوري عمر بهاء الأميري .



على مائدة الافطار الكبرى التي اعدت للصائمين وغير الصائمين



توديع الشيخ عبدالرحمن السديري قائمقام جدة ومعاونه علي طه بعد حضورهما مأدبة الافطار يوم ٢ مايس ١٩٥٥

ان الشيخ عبدالرحمن السديري ينتسب الى عائلة السديري وهم أخوال الأمراء وبعض الملوك السعوديين ، وقد بقي في منصبه مدة أطول من أية مدة قضاها موظف في المملكة العربية السعودية في منصبه. وقال لي وهو يودعني بأنه لم يحضر طيلة وجوده قائمقاماً في هذه المدينة حفلة روعيت فيها التقاليد العربية والفرائض الاسلامية مثل هذه الحفلة وأثنى بصورة خاصة على اعداد المصلى الخاص لتأدية صلاة المغرب وتقديم تمر المدينة وماء زمزم لافطار الصائمين.

أما معاونه علي طه فقد لازم منصبه طيلة وجود رئيسه بمنصبه ، وهو مالك العمارة المؤجرة للمفوضية وهي تضاهي قصور الأمراء ووجهاء جدة. فلما قابلت رئيس الوزراء أرشد العمري للاستئذان بالسفر ، فوضني ان أبحث عن عمارة لائقة تصلح لمكاتب المفوضية ولسكنى الوزير المفوض وعائلته واستئجارها بغض النظر عن بدل الايجار المطلوب مهما بلغ البدل. وهكذا كان فقد استأجرت العمارة العائدة الى علي طه معاون القائممقام ، وكانت يوم ذاك أليق وأحدث عمارة شيدت في جدة.



أمين المميز والحاج عبدالله ڤيلبي والحسيني الخطيب السفير المصري

وبعد هذه الوقفة الأخيرة مع الحاج عبدالله ڤيلبي في مكة، التقيت به آخر مرة في أواخر أيلول سنة ١٩٦٠ في أحد شوارع لندن وكان في طريقه الى نادي الأدباء والكتّاب (آثينيوم كلاب)، فذكر بأنه عائد الى المملكة العربية السعودية بعد يومين. وفي صباح يوم الأحد الموافق ٢ تشرين الأول نشرت جريدة (اوبزرڤر) خبر وفاة ڤيلبي. فقد نعاه من بيروت ولده (الجاسوس المزدوج) كيم ڤيلبي. وذكر بأن والده توفي عن ٧٥ عاماً وانه ابنه الوحيد وان والده هو الذي حقق امتياز النفط للشركة العربية ـ الأمريكية (آرامكو) ونقل المملكة العربية السعودية من مجاهل القرون الوسطى الى حضارة القرن العشرين. ولم يرد في الخبر أي ذكر عن اعتناق عبدالله ڤيلبي للدين الاسلامي واختياره الاقامة الدائمة في المملكة العربية السعودية. فوددت أن أوضح ذلك الخبر استناداً الى معلوماتي المستمدة من اتصالاتي الوثيقة بعبدالله ڤيلبي أثناء وجودي ممثلاً للعراق في المملكة العربية السعودية، فكتبت رسالة الى جريدة (التايمس) اللندنية التي كتبت الشيء الكثير عن ڤيلبي في حقل النعي (OBITUARY)، أوضحت فيها بأن (كيم ڤيلبي) هو ليس الابن الوحيد لعبدالله ڤيلبي، إذ له ثلاث بنات من زوجته (دورا) وولدان من زوجته العربية هما خالد وفارس، وقد سمعت منه مراراً انه يرغب في تنشأتهما نشأة عربية اسلامية، وانه أوصى بربع مؤلفاته اليهما دون غيرهما من أبنائه من زوجته الأولى. كما بينت في الرسالة بأني لاحظت عليه في عدة مناسبات وخاصة أثناء تأدية الصلاة معاً في مكة، بأنه مؤمن بالدين الاسلامي ايماناً حقيقياً وصادقاً، وأضفت بأني سمعت منه بأنه يتمنى ان يدفن في كثبان الجزيرة العربية التي قضى معظم حياته فيها.

إن بعض معارف ڤيلبي القدماء يزعمون بأنه كان منذ نشأته وقبل إشهار اسلامه، من المترددين والمتشككين بالعقيدة والايمان (AGNOSTIC) ولو انه نشأ في عائلة مسيحية متدينة كان عليه ان يرافقها الى الكنيسة للصلاة صباح كل يوم أحد.

لقد ذكرت الصحف اللبنانية في حينه ان عبدالله ڤيلبي توفي في مستشفى الجامعة الأمريكية بالسكتة القلبية، وقد تولى الاشراف على غسله وتكفينه والصلاة على الجثمان أحد المشايخ المسلمين، وشيع ودفن في رمال مقبرة الباشورة ببيروت. ولم تتحقق أمنيته بأن يدفن في كثبان الجزيرة العربية !، وقد نقل الجثمان الى المقبرة على أكتاف العتّالين، وسار وراء النعش ولده كيم فقط، ولم يشارك في التشييع أحد من العراق والأردن والمملكة العربية السعودية وهي الأقطار التي قضى ڤيلبي معظم حياته فيها، ولعب على مسارحها أهم وأخطر الأدوار السياسية، **فأسقط** عروشاً وأقام عروشاً !!

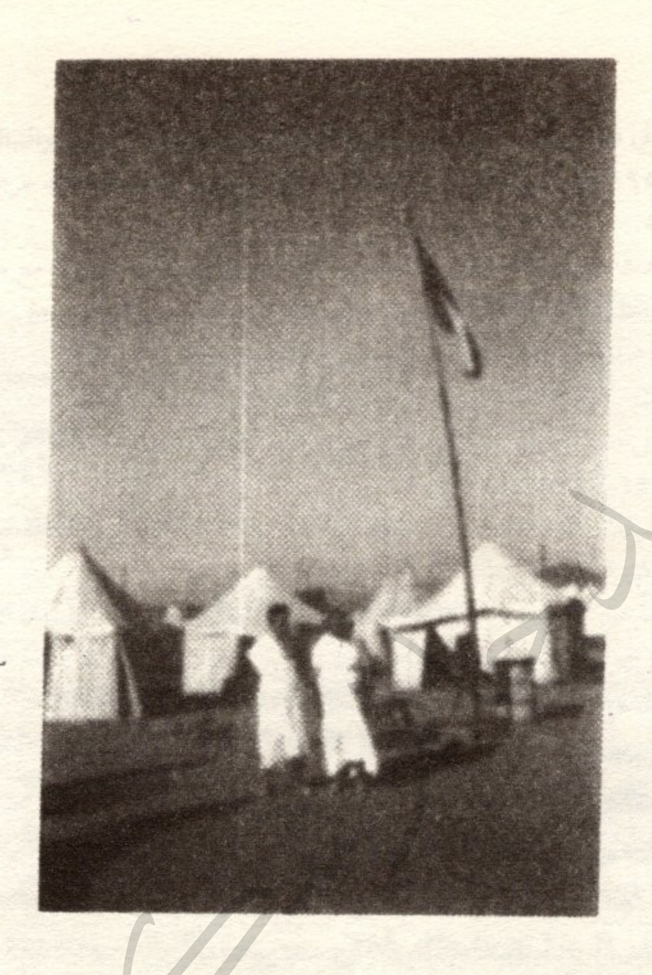
كانت المفوضية العراقية في جدة طيلة السبعمائة يوم التي قضيتها فيها مركزاً للحياة الاجتماعية والدبلوماسية في تلك المدينة ، بشهادة كافة أعضاء البعثات الدبلوماسية والجاليات العربية والأجنبية فيها.

في الصورة بعض سيدات الجاليات العربية في جدة باحدى المناسبات الاجتماعية المقامة في المفوضية العراقية.



المستر فيلبي ، الثاني من اليسار، في احدى المناسبات الدبلوماسية في المفوضية العراقية في جدة والى يمينه القائم بأعمال المفوضية الهولندية، والى يساره : الوزير المفوض الايطالي ، الوزير المفوض الايراني ، القائم بأعمال المفوضية الهندية.

ان هاري سنت جون فيلبي في مثل هذه المناسبات الاجتماعية والدبلوماسية هو غير الحاج عبدالله فيلبي ، قاهر الربع الخالي ومؤلف كتاب «حاج في بلاد العرب»، فهو يبيح لنفسه ما لا يباح لغيره من الحجاج!!



مع ولدي إبراهيم في وقفتنا الأخيرة في عرفة ونحن بلباس الأحرام والعلم العراقي الحبيب يرفرف فوقنا:

اني لأفخر بين المسلمين قاطبة بأني أول من أدخل الكهرباء الى عرفة ومنى في تأريخ الحج. فقد جهزت مخيم المفوضية بمولّد كهربائي (يشاهد في الصورة) وبمراوح ومصابيح وأسلاك وسائر مستلزمات الانارة والتبريد. وفي عرفه، حيث قضينا ذلك النهار من أيام آب اللهّاب، كنا نشاهد مئات الحجاج يتساقطون تساقط أوراق الخريف من ضربة الشمس، وخاصة أولئك الذين يتوجهون الى جبل الرحمة في ظهيرة النهار، فتنقل جثثهم (باللوريّات) على مرآى منا ومن جموع الحجيج لتدفن في مقابر جماعية في (بطن عَرَنَه) فتفتق ذهني ظهيرتئذٍ عن طريقة للتخفيف عن الرمضاء وذلك بتكويم قوالب الثلج الذي زوّدت به البعثة الطبية العراقية لمعالجة حالات ضربة الشمس، وتوجيه المراوح نحو كوم الثلج فيهب الهواء من فوقه نسيماً بارداً عليلاً ليخفف عن وجوهنا ذلك الشواظ اللافح والوهج اللاهف الذي يشوي الوجوه.

وفي منى نوّر سرادق المفوضية العراقية بالأنوار الوهاجة ودارت المراوح الكهربائية طيلة أيام التشريق الأربعة، فصار جموع الحجاج يتوافدون على سرادق المفوضية معجبين بهذا المشهد الذي لم يسبق له مثيل في تأريخ منى.

وأثناء وجودي في الديار المقدسة أديت مناسك العمرة عشر مرات. أثنتان منها كانتا في رمضانين وفي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر فقد ورد في الحديث الشريف (عمرة في رمضان حجة معي)، ووقفت على بطحاء عرفه مرتين أيضاً، المرة الأولى كانت يوم الأحد الموافق ٨ آب ١٩٥٤ والمرة الثانية والأخيرة كانت يوم الجمعة الموافق ٢٩ تموز ١٩٥٥، وكانت (الحج الأكبر) الذي قال فيه الرسول (ﷺ) «أفضل الأيام يوم عرفه وإذا وافق يوم الجمعة فهو أفضل من سبعين حجة في غير يوم الجمعة». فحمدت الله على هذه النعمة التي لا تظاهيها نعمة على مسلم.

وزرت قبر الرسول (ﷺ) مرتين أيضاً، وقبلت شباك المرقد الشريف «المواجهة» الذي تضم رفاة الرسول وأبي بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب، عشرات المرات على الرغم من عشرات (الخيزرانات) التي كانت تنهال على رأسي من يد الشرطي المكلف بمنع الزائرين من لمس الشباك، ناهيك عن تقبيله والتعلق بأهدابه.

وزارة الخارجية
الذاتية
الرقم ذ/١٥٨/٢٠٢
التاريخ ٢٨ شباط ١٩٥٦

أمر وزاري

بناء على مدلول الارادة الملكية المرقمة ١٧٣ والمؤرخة ٢٢/٢/١٩٥٦ وقرار مجلس الوزراء المتخذ بجلسته المنعقدة بتاريخ ٢٢/٢/١٩٥٦ المبلغين بموجب كتاب رئاسة ديوان المجلس المشار اليه المرقم ٨٨٧ والمؤرخ في ٢٦/٢/١٩٥٦ ينقل السيد [illegible] الوزير المفوض [illegible] من الدرجة الاولى من الصنف الاول من اصناف [illegible] السلك الخارجي الى ديوان هذه الوزارة [illegible] ليقوم بوظيفة مدير عام للدائرة السياسية على ان يبقى محتفظا [illegible] المخصصات السياسية والتخصيصات.

وزير الخارجية

نسخة الى:-
المفوضية الملكية العراقية – جدة
دائرة التخصيصات
الدائرة السياسية – شعبة [illegible]
مديرية الحسابات العامة
مديرية الخزينة المركزية
حسابات الوزارة
الذاتية
السيد [illegible]

بقيت في ديوان وزارة الخارجيـة مديراً عاماً للدائرة العربية(*) أصالة والدائرة السياسـية وكالة من نيسان ١٩٥٦ حتى تموز ١٩٥٨ . وخـلال هاتين السنتين وقعت أحداث عراقيـة وعربيـة ودولية كثيرة وخطيرة.

فلما عدت من المملكة العربية السعودية كان العراق في أوج خصومته مع معظم الدول العربية حول ميثاق بغـداد، وفي طليعتها مصر وسوريـا والسعوديـة والأردن على عهـد وزارة سليمان النابلسي). وعندما كانت الخصومة مستعرة بين العراق وشقيقاته حول الميثاق ومحاولة جر الأردن إليه، وقعت حوادث تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر، وقيام الجمهورية العربية المتحدة، والمؤآمرات على سوريا، وقيام الاتحاد الهاشمي ومحاولة ضم الكويت إليه، والحرب الأهلية في لبنان، ثم قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق.

لقد أُشبِعَت تلك الحقبة بحثاً وتحقيقاً وتلفيقاً، ولا أريد الخوض في هذا الخضم الشاسع، إذ إن ذلك يبعدني كثيراً عن أفق كتابي.

وعوضاً عن الخوض في ذلك الخضم المتلاطم الأمواج، فأني قد أمضيت السنتين المذكورتين في صراع وكفاح حول موضوع كان لي فيه دافعان، دافع شخصي ودافع له صبغة عامة تتعلق بالتراث، ذلك هو موضـوع تصـفية الوقف الذري، والذي أفردت له فصلاً خاصاً في آخر الكتـاب.

* * *

في يوم ٢١ تموز ١٩٥٨ بينما كنت في مكتبي بوزارة الخارجية، وقد عدت تواً من مقابلة وزير الخارجية الجديد الدكتور عبدالجبار الجومرد لحثّه على الاتصال فوراً بوزارة الدفاع لاتخاذ الاجراءات اللازمة لحماية المخافر الحدودية التي بين العراق وإيران نزاع طويل حول عائديتها، لئلا تنتهز إيران فرصة قيام الثورة وتغيير نظام الحكم فتقوم بعمل طائش لاحتلالها.

ففي تلك الآونة اقتحم مكتبي الضابط سعيد مطر واقتادني الى المعتقل في السجن المركزي المقابل لوزارة الخارجية، بأمر من تلميذي عبدالسلام محمد عارف وقد وردت تفاصيل ذلك في مقدمة كتابي «المملكة العربية السعودية كما عرفتها».

وفي مساء اليوم نفسه أصدر ذلك التلميذ العاق مرسوماً جمهورياً بفصلي من الخدمة . ومنذ ذلك اليوم حتى يوم الدين انقطعت صلتي وعلاقتي بالوزارة التي أفنيت في خدمتها زهرة شبابي وصببت فيها عصارة فكري وطاقتي، ووهبت لها لباب روحي وبراعة قلمي فلم أدخل بابها منذ أن أخرجني منها ذلك الضابط بقوة السلاح. ولما أقصي عبدالسلام عارف من مناصبه، استأنفت قرار الفصل

(*) وبسبب إشغالي لهذا المنصب سنين طويلة صار الصحفيون، وكان أولهم صبيح الغافقي، يطلقون عليّ صفة (شيخ العروبة).

[انتقل صبيح الغافقي الى جوار ربه يوم ٢١/آب/١٩٨٤ والكتاب تحت الطبع، ففقد العـراق صحفياً من ألمع الصحفيين وأنشطهم وفقدت أنا صديقاً من أوفى الأصدقاء وجاراً من أعز (الجوارين) في العلوازية. رحمة الله عليك يا صبيح، فمن سينادي من بعدك بشيخ العروبة ؟]

الجمهورية العراقية

رئاسة ديوان مجلس الوزراء

بغداد

الرقم : ٣٦٩

التاريخ : ١٩/ ١/ ١٩٥٩

وزارة الخارجيـــة

الموضوع / اعادة موظف مفصول الى الخدمة

في جلسة مجلس الوزراء المنعقدة بتاريخ ١٧/ ١/ ١٩٥٩ درس المجلس العريضة المرفوعة من قبل السيد امين السيز الوزير المفوض المدير العام لوزارتكم سابقا المؤرخة ١٧/ ١/ ١٩٥٩ التي طلب فيها الغاء امر الفصل الصادر بحقه ورفع الحيف الذي لحقه بسبب ذلك نظرا لسبق صدور امر الافراج عنه من قبل الحاكم العسكري ولعدم وجود ما يستدعي اعتقاله او ادانته باية تهمة •

وبعد المداولة قرر المجلس انه نظرا للافراج عن المومأ اليه من قبل الحاكم العسكري والغاء الكفالة المأخوذة منه وغلق التحقيق بحقه فقد حصلت الموافقة على امكان اعادته الى الخدمة في دوائر الدولة وذلك بعد مرور ستة اشهر على تاريخ فصله والغاء فصله اعتبارا من عدم ٢١/ ١/ ١٩٥٩ •

لقد اقترن هذا القرار بمصادقة مجلس السيادة •

ارسل ربطا نسخة من عريضة المومأ اليه ومرفقاتها •

عبد القادر جميل

رئيس الديوان

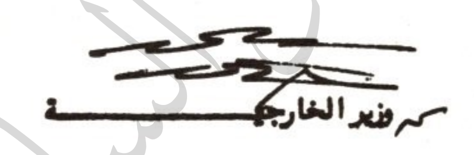
(طبق الاصل)

الجمهورية العراقية
وزارة الخارجية
الذاتية

الرقم ذ/ ١٠٥٨/ ٢٤٢٣٦
بغداد في ٧/ ٨/ ١٩٦٠

السيد امين المميز

اجتمعت (لجنة فحص الاقرارات المالية عن الكسب غير المشروع على حساب الشعب) بديوان الوزارة بتاريخ ٧/ ٨/ ١٩٦٠ ، واطلعت على اقرار الحالة المالية المقدم من قبلكم ، ولدى تدقيقها ، قررت عدم وجود مايدعو للاستيضاح والاستفسار او الشك او الشبهة فيما ورد فيه.



عن وزير الخارجية

صورة منه الى :-

الاضبارة الشخصية

ود أ د/ ٢٧/ ٧ ٠

الجمهورية العراقية

ديوان مجلس الوزراء

بغداد

الرقم ٨٧٢

التاريخ ٥/٢/١٩٦٧

ختم الواردة

وزارة الخارجيـــة

الموضوع / احالة على التقاعد

في جلسة مجلس الوزراء الثامنة المنعقدة بتاريخ ٢٥/١/١٩٦٧ عرض كتابكم [illegible]

المرقم ق/١٥٨/١٤٨٢ والمؤرخ ٢٠/٩/١٩٦٦ ــ المؤيد بكتابكم المرقم [illegible]

والمؤرخ ٦/١١/١٩٦٦ ــ المتضمن استحصال موافقة مجلس الوزراء على اعتبار [illegible]

[illegible] الوزير المفوض والمدير العام في وزارتكم سابقاً محالاً على التقاعد [illegible]

من ٢١/٩/١٩٥٦ للاسباب المذكورة بالكتاب . وعرض كتابا وزارة المالية المرقمين [illegible]

١٠٠٢/٢ و ١٤ والمؤرخين ١٥/٥/١٩٦٦ و ١٨/١/١٩٦٧ ــ المؤيدان له ــ

وبعد المداولة حصلت الموافقة على الاقتراح المذكور .

لتسند مرسوم هذا القرار وفقاً لاحكام المادة (٤٤) من الدستور المؤقت .

أرسل ربطاً نسخة من المرسوم الجمهوري رقم ٢٩ لسنة ١٩٦٧ الصادر في [illegible]

الموضوع .

رئيس ديوان مجلس الوزراء

نسخة منه الى :

وزارة المالية / ٢ ــ مع نسخة من المرسوم

مديرية الارشاد العامة ــ مع نسخة من المرسوم للنشر في الجريدة الرسمية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مرسوم جمهوري

رقم ٧٧

بناءً على ما عرضه وزير الخارجية وبموافقة مجلس الوزراء

رسمنا بما هو آت :-

يعتبر [illegible] الوزير المفوض والمدير العام في وزارة الخارجية سابقاً محالاً على التقاعد من تاريخ ٢١/١/١٩٥٩ .

على وزير الخارجية تنفيذ هذا المرسوم

كتب ببغداد في اليوم الخامس عشر من شهر شوال لسنة ١٣٨٦
الموافق لليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٩٦٧

المشير
عبد الرحمن محمد عارف
رئيس الجمهورية

عدنان الباجه جي
وزير الخارجية

ناجي طالب
رئيس الوزراء

المرسوم الجمهوري الصادر بتاريخ ٢٥/١/١٩٦٧ القاضي باعتباري محالاً على التقاعد من تاريخ ٢١/١/١٩٥٩ وإلغاء الفصل من الخدمة

لدىٰ عبدالكريم قاسم ، فصدر قرار مجلس الوزراء بالغاء كافة الاجراءات التي اتخذها عبدالسلام عارف بحقي ، وردّ لي اعتباري ، (خلف الله عليه) . وقد أكمل رد الاعتبار وإعادة الحق الى كامل نصابه تلميذي الآخر في الكرخ المتوسطة ، عبدالرحمن محمد عارف ، (خلف الله عليه أيضاً) .(**)

ولم يبق في ذهني هذا اليوم غير تلك الذكريات المّرة ، ولم يبق في يدي بعد خدمة الدولة زهاء ربع قرن وفي أعلىٰ مناصبها الدبلوماسية غير الراتب التقاعدي الاسمي البالغ ٥٩٫٠٤٩ ديناراً وشهادة من لجنة (الكسب غير المشروع على حساب الشعب) بوزارة الخارجية (المنشورة على الصفحة المتقدمة) والتي أعتز بها كل الاعتزاز ، تؤيد تزكيتي من الاثراء غير المشروع على حساب الشعب ، والحمد لله .

ومع كل ذلك فأني أعيد استشهادي بقول معروف الرصافي الذي استشهدت به في كلمة «الاستهلال» :

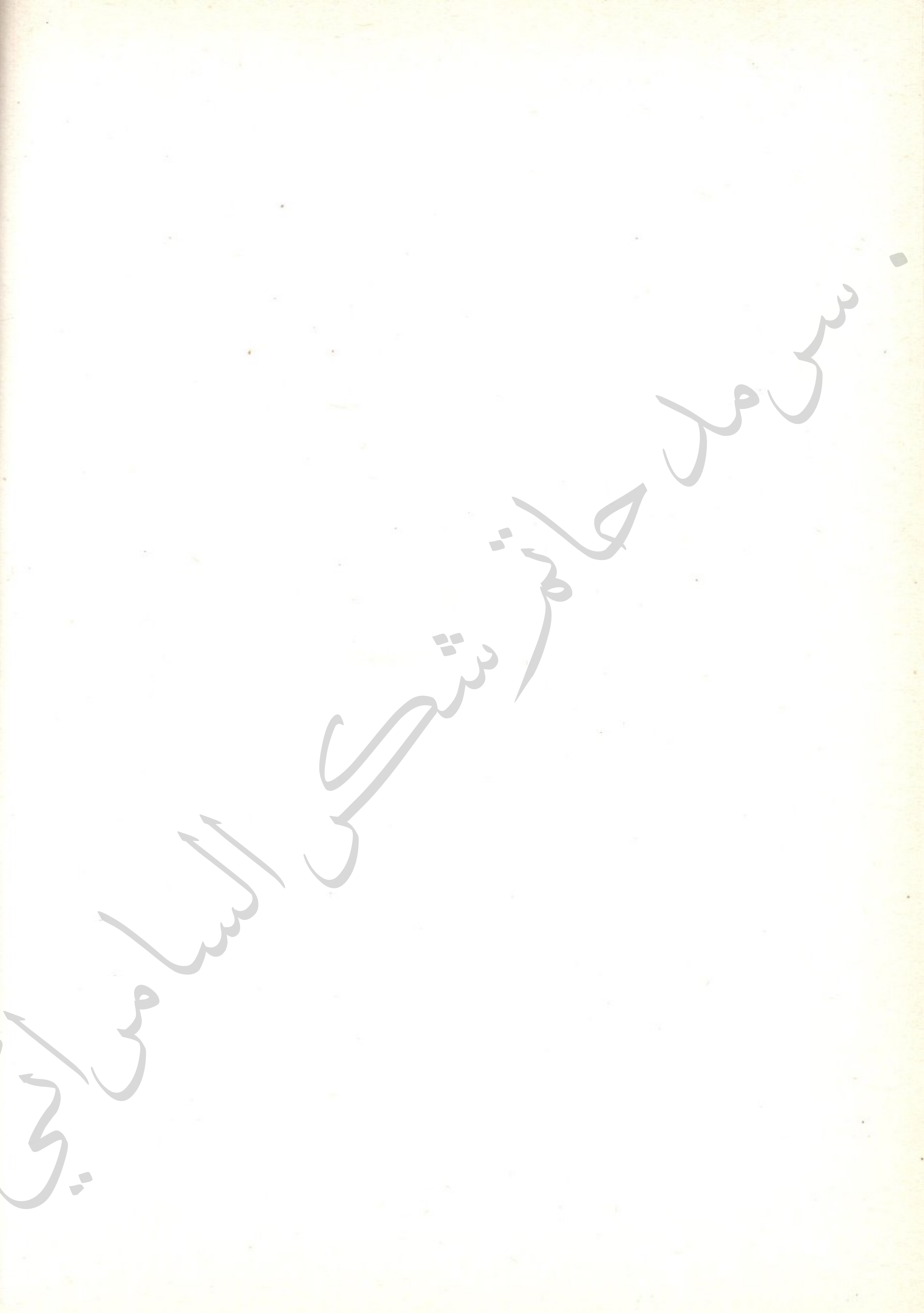
إنما هذه المواطن أمٌّ   مستحق لها علينا الولاء

إن خدمنا فلا نريد جزاءا   ومن الأم هل يراد جزاء

(**) قد يتساءل القارىء لماذا فعل التلميذ بأستاذه ذلك؟

كان عبدالسلام محمد عارف تلميذاً في مدرسة الكرخ المتوسطة عندما كنت مدرساً فيها عام ١٩٣٣ ، وقد عُرِفَ بين زملائه الطلاب ومدرسيه وإدارة المدرسة بشراسته وسوء تصرفاته ، فانتقل الى المدرسة الغربية سنة ١٩٣٤ . وفي تلك السنة نقلت من الكرخ الى الغربية ، ولما دخلت أحد الصفوف وجدته أمامي ، فاستغربت من هذه المصادفة اللعينة . وذات يوم ، وقد أصبحتْ تصرفاته لا تطاق في الغربية أيضاً ، قلت له بحضور زميله في الصف فيصل فاروق الدملوجي : «أنت ما تصير آدمي» . وشاءت الأقدار أن يكون عبدالسلام محمد عارف الرجل الثاني في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، ويحرّض من على الراديو صباح يوم الثورة على سحل البشر في الشوارع ويهيب بالشعب لهدم قيم المجتمع ، وأول قام به لاثبات (آدميته) هو الأمر باعتقال أستاذه وفصله من وظيفته ونكران فضله عليه لّما حال دون طرده من مدرسة الكرخ المتوسطة ، فبسبب تصرفاته وشراسته ومخاصماته اليومية مع الطلاب والمدرسين ، اتجهت نية مدير المدرسة المرحوم أمين الهلالي ومعاون المدير ومجلس المدرسين على وجوب طرده من المدرسة . وبعد مراجعات وتوسلات والده الملا عارف وتوسيطه لأقربائي وأصدقاء العائلة في صوب الكرخ ، المرحوم شهاب الصباغ (أبو حمد) والحاج شكوري ومحمود القدوري والسيد سلّوم المطر و السيد بافي» ، تمكنت من اقناع ادارة المدرسة على صرف النظر عن طرده والاكتفاء باشعاره بالتشبث للانتقال الى مدرسة أخرى . فانتقل الى الغربية المتوسطة . فقابلني على ذلك الاحسان عليه وعلى مستقبله بالاجراء الذي اتخذه بحقي بعد ثورة ١٤ تموز ، ليثبت للملأ بأنه (صار آدمي) !!

الصَّرَّافِيَّة



أمضيت عهد طفولتي وعهد صباي ونصف عهد شبابي في الدنگچيّة ـ وأمضيت النصف الثاني من عهد شبابي وعهد كهولتي وسأمضي ـ إن شاء الله ، ما سيتبقى من أيام شيخوختي في الصرافية .

إن الصرافيّة هي عنصر مكمّل لشخصية البغدادي وللحياة البغدادية ، فلقد صارت مضرب الأمثال والأقوال ومحط الآمال ومركز الأعمال ، ومحجة البغداديين في كل آنٍ وزمان . اشتهرت بحسن موقعها وجمال منظرها وطراز أبنيتها ، واعتدال مناخها وعذوبة مائها ورقة نسيمها وندرة حشراتها ، كما عرفت بطيب ثمارها ونضرة خضرتها وخضرواتها وكثرة وتنوع تمورها ، وجمال زهورها وشدو طيورها ، وتغريد بلابلها وزقزقة عصافيرها :

تينها ما أصفره … تمرها ما أحمره[1]

كرمها ما أطيبه … وتوتها ما أندره[2]

وردها ما أنضره … قدّاحها ما أعطره

سماؤها ما أزرقه … وزرعها ما أخضره

نسيمها ما أعذبه … وماؤها ما أغزره

نهارها ما أطوله … وليلها ما أقصره

بلبلها ما أشهره … عصفورها ما أكبره

فُختيها[3] ما أودعه … غرابها ما أنجره[4]

بعوضها ما أصغره … ذبابها ما أندره

وجسرها ما أطوله … ونهرها ما أنضره

قطارها ما أزعجه … و«فريها»[5] ما أحدره[*]

في العهد البويهي شيّد حكامهم ووزراؤهم ومماليكهم قصورهم الفخمة في الصرافيّة وهي التي

(*) معذرة من الشعراء فأني لست من أهلِ القريض ولا من صنّاع القوافي .

(١) المقصود هو التين الوزيري الأصفر وليس التين الأسود ، والمقصود بالتمر الأحمر هو البربن .

(٢) المقصود بالتوت : هو تكي الشام النادر في بساتين بغداد .

(٣) الفختي : طير رمادي اللون له طوق أسود في رقبته وله شدوٌ خاص به .

(٤) من المثل القائل : «صادوك وأنت النجر يا غراب» .

(٥) الفيري : كلمة إنگليزية (FERRY) معناها المعدّية التي تنقل عربات القطار ، تشبه (الشريمة) ويعود سبب انحداره الى هبوط مستوى النهر في أوقات الصيهود فتكون سكة القطار منحدرة نحوه انحداراً حاداً .

كانت تعرف منذ عهد عمر بن الخطاب بمخرّم الرصافة، وكان اسم المخرّم معروفاً قبل أن يشيّد المنصور عاصمته المدوّرة في الكرخ. ومنطقة المخرّم هي المنطقة التي تعرف حالياً بالصرّافيّة والعلوازيّة والكسرة حتى شريعة نجيب پاشا. وقد ازدهرت في العهد البويهي وأشتهرت في عهد السلاطين السلجوقيين فأطلقوا عليها إسم دار السلطنة التي شُيّد فيها قصر الزهراء، وفيها ما تبقىٰ من قصور البويهيين أشهرها قصر (سبكتكين) مملوك معزالدولة البويهي، والدار التي بقيت من ذلك القصر المنيف والتي كانت تعرف بالستيني. وكان عضدالدولة قد شيّد قصر الزاهر في قلب المخرّم وعلى شاطيء دجلة العظمىٰ وجعله دار ضيافة لكبار ضيوفه، وما زال على شاطيء دجلة في الصرافيّة (سن) أعتقد أنه أساس أحد تلك القصور، ويبدو في مواسم الصيهود نافذاً في كبد دجلة: تتكسر عليه الفؤوس والقزامي فتعجز أن تنال منه طابوقة واحدة، وكأن الضرب في حديد بارد.

في مجلس خاص في الصرّافيّة تكلم المرحوم الدكتور مصطفىٰ جواد عن الصرافيّة والمخرّم، ولما فرغ من كلامه بادرت بتأييده بذكر أخبار ذلك (السن) فقهقه، رحمه الله، قهقهته المعروفة وقال لجلسائنا: «شوفو. شگلتلكم.. هذا السن ربما هو أساس قصر سبكتكين أو الدار الستيني أو قصر الزاهر».

لقد أعاد التأريخ نفسه سنة ١٩٢٠ عندما حلّ الملك فيصل الأول في قصر شعشوع أحد القصور الفخمة التي كانت مشيّدة في المخرّم (الصرافيّة حالياً)، الواقع على ضفاف دجلة العظمىٰ (خلف النادي العسكري الذي يشيّد حالياً) وفي النية الاحتفاظ بما تبقىٰ منه حسبما علمت، وخاصة الأعمدة الرخاميّة البارزة للعيان حتىٰ الآن، واعتباره من التراث الوطني، وهو عمل مشكور.

* * *

كان التنقل بين الدنگچيّة والصرافيّة في أوائل القرن الحالي كما لو كان سفرة بين بغداد والشام، لندرة وسائط النقل وانعدام الطرق. وإليك خط الرحلة الذي كنا نسلكه يوم كنا نقصد بستان الصرافيّة: نتحرك صباحاً مشياً على الأقدام نحو شريعة المكتب (بين القشلة والمحاكم المدنية حالياً) عبر سوگ السراي، ومن هناك نستقل قارباً الى شريعة المجيدية، حيث ينتظرنا الفلاح (سكران) ومعه الفرس (نوفه) والبغلة (نجيّة)، فيمتطي والدنا الفرس وأنا وأخي البغلة واحداً أمام سكران والآخر يحتضنه من الوراء، فنجتاز شريعة المجيدية والسدة الترابية،(*) والغبار الكثيف يتصاعد من حولنا.

(*) الى جنب سدة الري (قرب جامع عادلة خاتون في الصرافيّة) التي شيّدها الانكليز لحماية مركز بغداد من الغرق، أقاموا سلسلة من الاستحكامات والحصون التي تعرف بالمفاتيل (جمع مفتول) وهو حصن أسطواني الشكل تعلوه فتحة كبيرة تستعمل للصعود والنزول الى داخل المفتول بواسطة سلّم خشبي يرفع أثناء الليل. ويحيط المفتول مزاغل تنفذ منها الرشاشات والبنادق، ويحيط المفتول أسلاك شائكة مثبتة في الأرض بواسطة أوتاد حديدية حلزونية الشكل. وشيّدت في الصرافية ثلاثة من هذه المفاتيل، واحد بالقرب من موقع الجسر الحديدي الحالي والآخر مقابل جامع عادلة خاتون والثالث في موقع دار الجماهير للصحافة والنشر والذي شيد لمحافظة مقبرة الانكليز التي دفن فيها الجنرال مود.

مررنا مساء يوم من الأيام من أمام المفتول الثاني، ولما رأيت هذه الأسلاك أخذتني العزة الوطنية لوجود هذه الاستحكامات الانكليزية في أرضي وفي بلادي، فتخلفت عن والدي وأخي الكبير والفلاح (سكران)، وأخذت أقتلع الأوتاد والأسلاك فلمحني (السنتري) الهندي المكلف بحراسة المفترل فهجم عليّ حاملاً (السنگي) أي الحربة المثبتة في فوهة البندقية، وصار يجرّني من ذراعي لتوقيفي، فهرعت الى والدي وأمسكت بعباءته، وأخذت أصرخ

فإلى يسار الطريق يقع شاطيء المجيدية الأمير الذي تقاسمه رجال الحكم يومئذ وشيدوا عليه قصورهم والذي سنتكلم عنه في مكان آخر من الكتاب ، والى اليمين بستان صادق بك والعلوازية ، حيث شيّدت الأوقاف بعدئذ دارين كبيرتين ، شغل أحداهما الدكتور سندرسن ويشغل الآخر مستشارو السفارة البريطانية المتعاقبون (مدينة الطب حالياً) ، ثم نجتاز موقع نادي المحامين القديم ، ثم الدگرمان ، ثم بستان الربع(*) (موقع محطة كهرباء الصرافيّة حالياً) حتى نصل (الجِماعة) (موقع السفارة اللبنانية حالياً) والمبيّنة على خارطة رشيد الخوجه المنشورة في محل آخر تحت اسم (مميّز إبراهيم أفندي جماعتلري) ويتفرع الى اليمين من هذا الشارع الذي سمي بعدئذ بشارع العسكري ، شارع ضيّق نسميه (الدربونه) يقع عليه بيت جاسم الحجيّة الذي كان يستعمله للضيافات ، قبل أن يتملّكه قاسم شكري . وفي مدخل هذا الشارع مقابل (الدگرمان) تقع الدار العائدة الى جعفر العسكري والتي سكنها نوري السعيد مؤقتاً عند مجيئه لبغداد مع الملك فيصل الأول سنة ١٩٢٠ ، ثم اتخذ مدرسة الملاّ محمد عبدالرحمن ، ثم صار مسجداً ، وفي الخمسينات شيّد في محلها المركز الثقافي الفرنسي الذي توقف العمل فيه عدة سنوات بسبب قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا سنة ١٩٥٦ ، ثم استملك من ورثة جعفر العسكري وهدم وأضيف الى مدينة الطب .



السنتري السيك

وأبكي مستنجداً بوالدي وبأخي وبالفلاح سكران . ولم يمكن التفاهم مع (السنتري) لاطلاق سراحي ، فوالدي لا يتكلم الهندية ولكنه يتكلم التركية وقليلاً من الفارسية ، وصار يحاول إقناع السنتري بأني طفل صغير ، ولا أدرك خطورة العمل الذي أقدمت عليه ويقول له :

- بابو . . رفيق . . بچه ـ بچه (أي أنه طفل ، بالفارسية) وعندئذ نزل من المفتول جندي هندي آخر يحمل على ذراعه (ثلاثة شخوط) وأطلق سراحي . ولا زلت أتذكر هذه الحادثة التي ولدت في نفسي كراهية كل مظهر عسكري أجنبي في بلادي .

(*) سمي بستان الربع ، لأنه ربع بستان الصرافية الذي استبدله أحد الأجداد بعقارات داخل بغداد ، لتدر واردات اضافية لادامة جامعي عادلة خاتون الكبير والصغير . وهناك (بستان الربع) المفرز من بستان العلوازية والذي كان يملكه المرحوم الحاج محمد الحجيّة .

تُستغرق هذه الرحلة ساعتين أو أكثر بين تنقل وانتظار.

أما إذا يسرّ الله لنا عربة (رَبَل) من شارع الجسر بعد انتظار يتراوح بين الربع ساعة والساعة، فأن وقت الرحلة الى الصرافية يكون أقصر والعناء أخف والمشقة أقل: .. يتحرك الربل من الدنگچيّة ماراً بباب الآغا ثم العاقولية ودربونة الخشالات ثم الحيدرخانة والميدان ماراً من أمام المحل العام (وله خمسة أسماء أخرى هي: العمومخانة والمنزول والدربونة والكلچيّة والكرخانه) ثم نجتاز محلتي الطوب والسور حتى نصل الى باب المعظم. وكانت بناية باب المعظم وجزء من السور القديم والخندق قائمة حتى أواخر العهد العثماني،(*) ثم نسلك طريق الأعظمية. الى اليمين من الطريق تقع گهوة كان عازف الربابة سعيد عگّار (والد الفنان جبار عگّار) يعزف فيها الربابة ضحىً وعصر كل يوم (موقعها مستشفى حماية الأطفال حالياً) ثم بستان الوقف الذي شيّدت فيه في أواخر العشرينات بناية الجمعية الزراعية والتي أشغلتها وزارة الخارجية ثم مصلحة إسالة الماء.

وقد اتخذت بستان الوقف الواقعة الى اليمين حديقة أقيم فيها في أوائل الثلاثينات معرض بغداد فصارت تعرف بحديقة المعرض. ثم نجتاز قلعة السوارية (الكرنتينة حالياً) حتى نصل الى تقاطع طريق الأعظمية مع سكة الحديد التي توصل محطة شرقي بغداد بمعبر القطار (موقع جسر الصرافية حالياً) ومن هنا يبدأ الشارع بالانحدار انحداراً حاداً، وتتغير درجة الحرارة تغيراً محسوساً يلمسه كل من يجتاز طريق الأعظمية في موسم الصيف.

أما في الجهة اليسرىٰ من الطريق فيقع خان گلبنكيان المعروف كذلك بخان الألمان (موقع بناية وزارة الصحة الجديدة) والى جانبه سجن بغداد المركزي (الذي صيفت فيه ثلاثة أشهر من صيف ١٩٥٨ بعد ثورة ١٤ تموز) والذي هدم وألحق بموقع بناية وزارة الصحة الجديدة ونقل السجن المركزي الى أبي غريب. تشرف على الشارع العام مقبرة باب المعظم وخلفها مقبرة الشهداء الأتراك. ولم تكن الدور الحالية المشيدة بين المقبرة والشارع العام موجودة يومئذ، وبعد المقبرة تشاهد الباب الرئيسي لمستشفى مير الياس. وهنا يتوقف المارة من والى الأعظمية في سبيلخانة الحاج محمد الحجيّة(**) الواقعة بين مجمع الدور التي شيدها بعدئذ جاسم الحجية.

وبعد تناول (دولكة) من الماء البارد وقراءة الفاتحة على روح واقف السبيلخانة، نتوغل في بستان الصرافية مشياً على الأقدام حتى نصل الى (الجماعة) المارة الذكر.

وفي أوائل الثلاثينات شيدت عدة دور على أرض الوقف المحصورة بين السبيلخانة والسجن المركزي والتي استبدلت بالنقد وجرى بيعها بالمزايدة العلنية، وتحضرني منها دور الدكتور عبدالله القصير وبهجة الدليمي والدكتور جلال العزاوي وعلي پاشا دوغرامچي وعبدالله صافي والدكتور

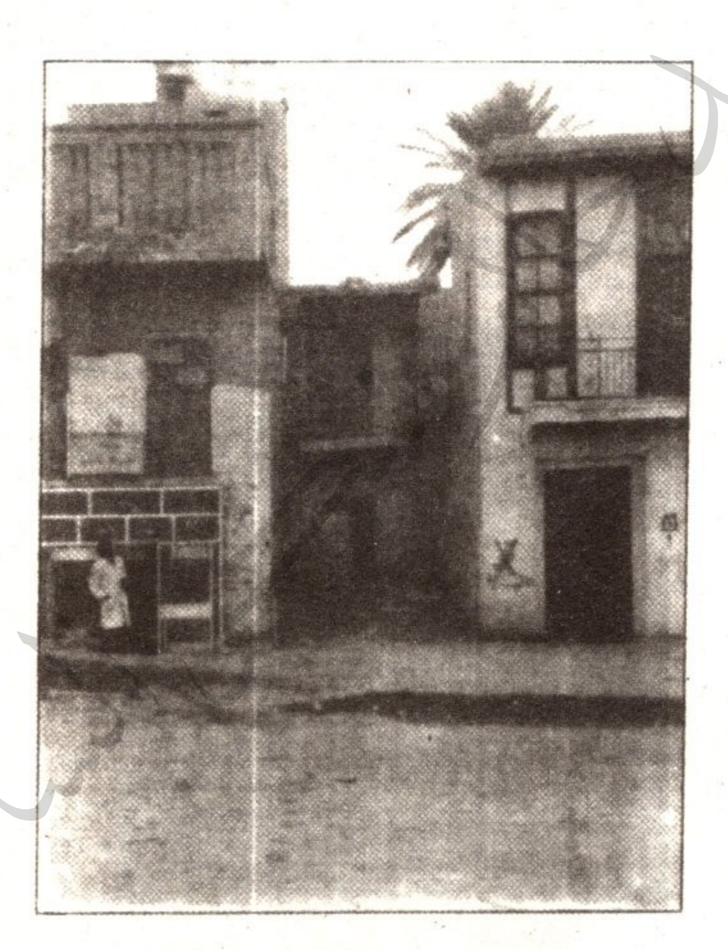
(*) كانت (باب المعظم) تغلق مساءاً وتفتح صباحاً زيادة في الحيطة والأمان وفي سنة ١٩٢٤ هدمت لغرض تنفيذ طريق الأعظمية - بغداد، وفي الثلاثينات شيدت محلها قاعة الملك فيصل (قاعة الشعب حالياً) وكان يقابلها في العهد العثماني دائرة الرديف (الاحتياط العسكري) وهدمت هي الأخرى ثم شيدت بناية مصلحة نقل الركاب حالياً بموقع دار نوري السعيد القديمة التي استملكت من قبل أمانة العاصمة لغرض توسيع ساحة باب المعظم.

(**) كانت فوق السبيلخانة مرمرة مكتوب عليها عدة أبيات نظمها العلامة عبدالوهاب النائب، أرخ فيها انشاء السبيلخانة بموجب حساب (الجُمَّل) مطلعها:

جاسم قد بنىٰ وأحسن صنعاً ... لأبيه محمد خير منهل

حسين حسني وصديق مظهر وسعدي مصطفىٰ والدكتور ضياء محمود وراسم سردست وعارف حكمة ونوري القاضي وعبدالرحمن رؤوف والسيد شاكر العاني ودار الفريق صالح صائب الجبوري الذي يمثل الطراز المعماري البغدادي الأصيل والذي أشرف على بنائه المعمار المعروف الحاج عبداللطيف العاني ، ومقابل تلك الدور والى الجوار من الكرنتينة شيّدت دور مدير الشرطة محمود شكري (والد الدكتور عزيز محمود شكري) ومعاون الشرطة عبدالجبار صدقي والنائب الحاج محمود رامز.

* * *



موقع السبيلخانة قرب بيت جاسم الحجيّة ، كما هي عليه اليوم. وتقع مقابل جامع عادلة خاتون الصغير في الصرافية على مدخل الشارع المؤدي الى مدينة الطب

إن للصرافية وعلاقتها بالحياة البغدادية تأريخاً قديماً وتأريخاً حديثاً ، أما التأريخ القديم فقد ذكرنا نبذة عنه عند الكلام عن المخرّم. أما التأريخ الحديث فيبدأ منذ مطلع القرن الحالي ، ولما ينتهِ حتى اليوم. ففي بستان الصرافية من المعالم والمشاهد والمآثر ولي فيها من الذكريات ، ما لو استعرضتها كلها بدقة وتفصيل لما انتهىٰ هذا الفصل الى يوم يبعثون. غير أني سأتطرق فقط الى ما يجول بخاطري وأنا أدوّن هذه الذكريات :

في الصرافية ثلاثة معالم هي جزء متمم لحياة البغداديين ، فهي بمثابة الرئة التي يتنفسون فيها ، إذ لم يكن في بغداد المحصورة بين الخندق والنهر غير الشرائع السبع الواردة ذكرها في مكان آخر من الكتاب والتي تصلهم بالنهر وبالفضاء المفتوح. كذلك ليس لبغداد منفذ نحو الفلاة من الجهة الجنوبية. فأن أبعد ما يمكن أن يصله البغدادي يومئذ هي محلة السنك وبيت الباليوز (القنصلية البريطانية) وكنيسة سان جورج في الباب الشرقي ، لأن الوصول الى أبعد من ذلك والى گهوة العبد لا يخلو من الأخطار وقد يعرض الناس الى خطر التسليب ، أما بستان الخس التي اشتهرت في الثلاثينات فلم تكن معروفة بهذا الاسم يومئذ.

إن المعالم الثلاثة التي أشرنا إليها في الصرافية هي (التين) و(الباگلة) و(الچراديغ).



الشجرة الكبيرة الباقية من التين الوزيري في الصرافية ، ويلاحظ ان ارتفاعها يربو على ثلاث (گامات)

إن تين الصرافية المشهور بالتين الوزيري (ولنا عودة الى ملابساته في ختام هذا الفصل) وظلاله الوارفة وسواقيه الجارية وأشجار التكي والصفصاف والغرب التي تظلله، هو المقفزّه الوحيد للبغداديين، خاصة في أيام الجمعة، حيث يتقاطرون عليه لعقد جلسات الأنس والطرب والمنادمة، ولا يكتمل عقد هذه الجلسات ما لم يكن الظريف البغدادي حسين فخري كاتب العدل الأسبق، وكاتبه قارئ المقام محمد أبو ندر حاضرين فيها.

لقد اندرس التين الوزيري في الصرافية عند استملاك مصلحة إسالة الماء لموقعه ولم يبق منه إلا بضع شجيرات أعتزّ بها حتى الآن. وفي موقع التين تشمخ نخلة شاهقة نسميها (فحل التين) التي تشاهد من مسافة عشرات الكيلومترات شامخة في أفق بغداد، وتبدو منائر بغداد وكأنها أقزام الى جنب عملاق. ولو قدرنا عمر هذه النخلة استناداً الى صفوف (الكَرَب) لتجاوز عمرها الثلاثمائة سنة تقريباً. ولمّا تآكل الجرف الذي كانت تقوم عليه، بسبب تغير مجرى النهر، والانحناء الحاد في وسط ساقها، انكسر الساق من نقطة الانحناء، فهوت الى النهر في ليلة من ليالي بغداد الهادئة في أوائل الثلاثينات وسببت دوياً هائلاً سمع في كافة أرجاء بغداد، لا يفوقه دوياً إلّا دوي مخزن البارود في (باب الطلسم) الذي فجره الأتراك ليلة سقوط بغداد. !

وفي التين يتردد رجل أعمى اسمه جميل إبن السركال مطلگ، وهو أعمى من الولادة واختصاصه نصب الجزوات لصيد البلابل وبيز أبو العرس (جريدي النخل)، فيقتلع أسنان الصغار منها بوضع (چپنة) قرب فم الحيوان، وعندما يعض عليها بالنواجذ، يسحب جميل (الچپنة) بقوة فيقتلع أسنان الجريدي ويبيعه لمن يرغب أن يجنيه كحيوان أليف. ويشاهد جميل الأعمى يجوب الصرافية ويتنقل بين نگرها كما لو كان سليم البصر ويجوس زوايا بيته، إذ إنّه يندلّ أين تقع الطرفة والطرطيع(*) والتاتولة والصفصاف والغَرب ويدلنا على مواقع تكية الشام والتكيّات الخمرية، وأين يكثر الخبّاز وأين ينبت البطنج والنعناع، ويندل مواقع المطان والعبّارة والمحمولة والنگر، فيتجنبها، ويميّز بين الفلاح الساكن في الجماعة ويعرف (فضّالته أي زوجته) وبين المكرواني المستخدم مؤقتاً بأجور يومية.(**).

ولي كلمة حول (نگر) الصرافية: فعندما أنشئت سدة الري بعد الحرب العالمية الأولى والتي تبدأ من شاطيء دجلة العظمى وتلتقي بسدة ناظم پاشا لغرض حماية مركز بغداد من الفيضان، وأنشئت سكة حديد القطار وأحواض إسالة الماء وميدان الرمي، حصلت جراء رفع الأتربة (نگر) كثيرة في الصرافية، صارت تستعمل من قبل البعض للمنكرات، فأصبحت مضرب الأمثال!!

ليس تين الصرافية مكاناً للتسلية فقط، فهو أيضاً ملاذ لليائسين من هذه الحياة ومتاعبها والناقمين عليها عجزاً منهم عن مواجهتها باعتداد وصمود ومرونة. جئنا ذات يوم الى التين فوجدنا شخصاً متدلياً من أغصانه العالية وقد شنق نفسه منتحراً.

(*) الطرطيع شجيرات كثيفة تنبت عفوياً (خداي نابت)، والتاتوله شجيرة ذات أوراق عريضة يعتقد البعض أن فيها نوعاً من المخدرات فهي (تسطر) من يدخنها.

(**) المكرواني: الفلاح الذي يعمل بأجرة يومية ويسمى أيضاً (سحّاي) أي الذي يعمل بالمسحاة. الفضّالة هي زوجة الفلاح وتعاونه في الحقل، كالحصاد أو الجني أو (الحش)، عدا الأعمال التي تتطلب استعمال (المسحاة)، كالسقي وما شاكل ذلك.

الميدان الآخر في الصرافية الذي يتسلىٰ فيه البغداديون هي (باگلة الصرافية) أي مزرعة الباگلة المحصورة بين طريق الأعظمية وشارع الوزيرية حالياً. هذا المزرع يبدو في الأمسيات وكأنه مسرح كبير تمثل عليه المسرحيات الفولكلورية. ففي عصر كل يوم يتوافد عليه البغداديون من مختلف طبقاتهم ومحلاتهم لاحتساء الخمر بين الباگلة ذات الزهور الملونة والخلّابة ويرددون (فَتَّحْ ورد الباگلة).

يحمل كل منهم ما يطيب له من المـزات والجرزات، وكل يتأبط حصيرة أو بساطْ أو كليْم أو فجّة أو قطعة من القماش أو جريدة قديمة أو يفرش الچفيّة البغدادية المشهورة ذات الألوان الحمراء الزاهية. ثم يعقدون ندواتهم وكل يخرج (ربعيّته أو سراحيّته) فينصبون موائدهم، والذي يحسن منهم الخدمة والعناية بأصحابه يصفونه (خادم طبگة) وأحياناً (هَوَا دار). فيجلسون في حلقات وجوگات تنتشر في طول مزرعة الباگلة وعرضها، يدگون أصبعتين أو يصفگون ويرقصون ويغنون:

- واحد يغني عبودية وآخر زهيري وآخر منصوري، واحد يغني ماهوري وآخر يغني بهرزاوي، وواحد يغني صبا، وآخر أورفه، كما تسمع مختلف المقامات العراقية الأخرىٰ:

فإذا كان المقام رَستْ غنوا جميعاً بصوت واحد پستة:

يا هلخلگ من شاف ولفي وعرفه   طلع خاين بذات ما عنده وفه

وإذا كان المقام لامي غنوا ودگوا اصبعتين على پستة:

يالمنحدر وياك خذني   بذمتك علمجر ذبني

وإذا كان المقام بيات، قام في وسطهم واحد يتمايل ويغني وهم يرددون وا ويله وا ويل:

ما گِتِّلِچْ يا يُمَّه للديچ لا تجنينه   وا ويله وا ويل
فزز حبيبي بغبشه والنوم حالي بعينه   وا ويله وا ويل

وإذا كان المقام حجاز، غنوا پستة:

فوگ النخل فوگ   مدري لَمْع خَدُّه   مدري لَمْع طوگ

وهكذا تعجّ الباگله بالغناء والضحك والتصفيق ودگ الأصبعتين ويغمر السرور الجميع.(*)

البغدادي مؤدب ومجامل ومراعٍ لعواطف وشعور الآخرين، خرجنا ذات يوم نتفقد المزرعة وإذا بأحدهم يقبل نحونا ويبادرنا قائلاً:

- أرجوكم أعذرونا فقد أتلفنا المزرعة وسببنا لكم الضرر، كان الجواب:
- كل الزرع فدوة إلكم، نريدكم تتونسون.

وما يكاد الليل يرخي سدوله وتِظْلَمّ الدنيا (إذا لم تكن الليلة ليلة گمرية) حتى تبدأ الجوگات بالرحيل من الصرافية، ليكملوا الفصل الثاني من سهرتهم:

(*) ليس في (الباگلة) غناء وتصفيق وضحك وسرور فقط: فقد وقعت فيها جريمة من أشهر الجرائم التي أرتكبت في بغداد يومئذ إذ أقدم الشقي المشهور (ملگي) على قتل إبن أخته بذبحه من الوريد الى الوريد، فحكم عليه بالاعدام وأعدم. وكانت حادثة إعدامه أول حادثة اعدام تقع في بغداد عهدئذ.

- جماعة تروح الى تياترو جليلة العراقية (أم سامي) بأوتيل المنير في الميدان.
- جماعة تروح الى حيث تغني صديقة الملاّية، الزهيري والبهرزاوي وبستة: طير وخذني للسماوة وذبني بكاع ما بيها نداوه.
- جماعة تروح الى تياترو بدرية السوّاس في مدخل سوگ الميدان (مغازة الأحمدية لبيع الأثاث حالياً) للتمتع برقصها وأغنياتها الحلبية.
- جماعة تروح الى الفارابي للتمتع بأغنيات صبرية حسين.
- جماعة من هواة المقام يقصدون (زهور حسين) للتمتع بمقام الـ (دشتي) الذي تؤديه زهور أحسن من غيرها.
- جماعة تتوجه الى أوتيل الجواهري للتمتع بأغنيات سليمة باشا
- جماعة تتوجه الى أوتيل الهلال للتمتع بأغنيات منيرة الهوزوز الشرجاوية، ورقصات مديحة سعيد.

- جماعة تروح الى گهوة سبع في الميدان لمشاهدة الراقصة الحلبية رحلو.
- بعض الشباب المتجدد (ولد السقوط) يتوجهون الى أوتيل مود في رأس القرية أو أوتيل بريستول في الصالحية أو الى ليالي الصفا في رأس جسر مود من جهة الصالحية، ليتعببوا (چم بطل) بيرة آمستل أو ستاوت.
- أما البغدادي الأصيل فيذهب الى گهوة عزاوي أو گهوة حسن صفوّ في المصبغة أو گهوة المميز برأس الجسر قرب المستنصرية أو گهوة الشابندر، للتمتع بالجالغي البغدادي والمقام العراقي من نخبة قراء المقام.
- أما البعض الآخر فيذهب الى مايخانات رزاقه أو ميخه أو عتيشا أو طوبيـــا أو صالح پيحه أو عبدالله ما شا الله، أو أوتيل عبدالأحد في شارع الأكمكخانه، ليكمل مشروبه المحبب، العرق العراقي.

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة، كل واحد يروح (لحَرّ أذنه)، وحيثما يشتهي ويهوى.

أما الميدان الثالث الذي يتسلىٰ به البغداديون من الطبقة الوسطىٰ فما فوق، فهي الچراديغ. إن حياة الچراديغ حياة خاصة ببغداد، وملازمة لدجلة العظمىٰ وشواطئها الجميلة التي خلدتها الأغنية المشهورة:

علـى شـواطـي دجـلة مـر	يـا مـنـيـتي وقـت الـفـجـر
شوف الـطبيعـة تـزهـو بـديعـة	گمـره وربيعـه يضـوي البـدر
لأفرش برمله على شاطي دجله	والمـاي دهـلـه يـالمـنـحـدر

فليس في الصرافية شاطيء رملي منذ أن تغير مجرىٰ النهر، ولذلك كانت الچراديغ تنصب في أعلىٰ الشاطيء وتشرف على النهر. وفي الصرافية ثلاث مناطق كانت تنصب فيها الچراديغ: المنطقة الأولىٰ محصورة بين بستان حاجي مهدي الخفاجي ومعبر القطار وتعرف عندنا بـ (حريجه)، والمنطقة الثانية هي منطقة التين التي سبق الكلام عنها، والمنطقة الثالثة هي منطقة الجماعة القديمة (موقع السفارة اللبنانية حالياً) المؤشر عليها في خارطة رشيد الخوجه بـ (مميّز إبراهيم أفندي جاعتلري). وفي الصيف تصبح هذه المناطق الثلاث كما لو كانت چرداغاً واحداً: أنواراً ساطعة، چالغيات بغداد، الدنبك يرگع وصداه ينعكس من الجانب الآخر من دجلة العظمىٰ الذي يعرف عندنا بـ (المتوليات)

وتعرف الآن العطيفية ، ولم تكن المتوليات يومئذ سوى زور كبير تكثر فيه الذئاب والواوية والضباع وغيرها من الحيوانات المفترسة التي كنا نسمع عويلها وعواءها من الصرافية .

ان السمج المسگوف والجراديغ توأمان متلازمان ، فلا چرداغ بدون سمج مسگوف ، ولا يؤكل السمج المسگوف إلاّ في الجراديغ وعلى شاطىء دجلة . لقد ولد السمج المسگوف في الصرافية قبل أن تعرفه الگاورية وقبل أن تنتشر الأغنية الشهيرة :

يعجبني گعـده وياك بـالگـاوريّـه لـو حكم سبع سنين لـو دن[*] عليّه

السمك المسگوف عرف في بغداد منذ أوائل القرن العشرين ، وربما قبل ذلك بكثير ولي شهود على ذلك :

في أوائل الخمسينات أقام بهجة زينل دعوة غداء في مزرعته في الفحامة ضمت عدداً كبيراً من المدعوين ، كان بضمنهم نوري السعيد ، ولمّا قمنا الى المائدة التي ضمت ألوان الطعام ، من القوزي فصاعداً ، وإذا بنوري السعيد يتقدم نحوي وبيده صحن فيه (لگمة الصيّاد) فقط ، ويبادرني قائلاً :

- تعرف أمين ، آني أول ما أكلت السمج المسگوف كان عندكم في الصرافية . فسألته متى وأين ؟ قال :



نوري السعيد في مزرعة بهجت زينل في الفحّامة : إلى يمنيه علي حيدر سليمان وإلى يساره جمال بابان. الواقف عبد الله زريقات القائم بأعمال المفوضية الاردنية في بغداد. وفي هذه المناسبة جرى الحديث عن السمج المسگوف.

كنا مدعوين في قصركم الواقع على النهر وكان ذلك قبل سفري الى أستانبول ، فكان على المائدة ألوان الطعام البغدادي ، ومن جملة ما رأيته صينية كبيرة فيها سمجتين وفوقهما الطماطة والبصل ، وآثار من الرماد والفحم ، وتحيطهما أوراق من الريحان ، فلما تناولت شيئاً من ذلك السمج أعجبني طعمه اللذيذ ، فلم أتناول من الطعام شيئاً غيره

فإذا ما علمنا أن نوري السعيد هو من مواليد ١٨٨٩م وأنه قد سافر الى أستانبول سنة ١٩٠٣ وتخرج ضابطاً سنة ١٩٠٦ والتحق بكلية الأركان سنة ١٩١٠ فيكون السمج المسگوف قد عرف في بغداد منذ أواخر القرن التاسع عشر إن لم يكن قبل ذلك التأريخ بكثير.

(*) الدنّ هي الغرامة ويعرف شعبياً (الجزاء).

في أواسط العشرينات أسس جماعة من اللبنانيين نادي صيد الحمام في الصرافية (موقع تقاطع جسر الصرافية بشارع الامام الأعظم) وهي هواية جذبت إليها كثيراً من البغداديين يومئذ، فهي تجمع بين المراهنة والمقامرة والتمرين على صيد الحمام الطائر. غير أن ذلك النادي لم يستمر طويلاً فأغلق أبوابه بعد غرق الصرافية في فيضان سنة ١٩٢٦.

* * *

ليست الصرافية مكاناً للتسلية فقط، بل تضم الشيء الكثير من تأريخ العراق الحديث والتراث البغدادي الأصيل.

لما تأسس الجيش العراقي سنة ١٩٢١ والذي كنا نسميه محلياً (عسكر الشريف) تدرب في الصرافية الفوج الثاني الذي كان مقره (الكرنتينة)(*) والذي كان يقوده (محمود سامي الأورفه لي) ويضم الضباط العراقيين الذين تسرحوا من الجيش العثماني بعد الهدنة، أذكر منهم الملازم الأول صالح صائب الجبوري والملازمين طاهر الزبيدي وبهاء الدين نوري وشاكر الوادي وسليم عبدالغفور الأعظمي وسعيد سلمان وفاضل عبداللطيف وغيرهم، وكانوا يتدربون على الرماية ولعبة البولو، وسائر الفعاليات العسكرية في ميدان الرمي في الصرافية (موقع كلية الادارة والاقتصاد حالياً) فكان أول ميدان لتدريب الجيش العراقي الفتي وفعالياته العسكرية، وترى البغداديين رجالاً ونساءاً وأطفالاً ملتمّين حول الجنود الذين كانوا يلبسون (الخوذة) التي لم يعرفها البغداديون من قبل، ويهلهلون ويصفقون ويدعون لهم بالنصر مرددين «ينصركم الله يا عسكر الشريف».

وفي الصرافية شيدت كلية الحقوق التي تخرج فيها معظم رجال القضاء والقانون والادارة الذين قامت على أكتافهم محاكم ودوائر الدولة العراقية الفتيّة.

وفي الصرافية شيدت أكبر محطة لتوليد الكهرباء وهي محطة كهرباء الصرافية التي حلت محل العباخانه التي أنشئت تواً بعد الاحتلال البريطاني، وكانت شركة الكهرباء هذه قد أممت عام ١٩٥٥ وهو أول مشروع بريطاني يؤمم في العراق. وقيل في وقته إن الدافع الحقيقي وراء تأميم تلك الشركة هو أن أحد أعضاء مجلس إدارتها في لندن كان المستر كورنواليس ورغب أصدقاؤه في العراق تعويض شركته تعويضاً سخياً!! وقد قال جلال الحنفي عن ذلك التأميم البيتين التاليين يومئذٍ:

أتراكم أممتم الكهرباءا	أم تراكم بدلتم الأسماءآ
قال (ايزاك) إنما الأمر من قبل	ومن بعد لا يزال سواءا

وفي الصرافية أنشيء أول مشروع لأسالة الماء بعد أن كانت بغداد تتزود بالماء من ماكنة صغيرة منصوبة في شريعة الصنايع (قرب قصر الثقافة والفنون حالياً) ولا تتوفر في الماء الذي يضخ الى بيوت البغداديين أبسط المقتضيات الصحية. كان مشروع إسالة الماء الذي شيد في الصرافية يعرف محلياً (بالسبع مكائن) ثم تطور الى المشروع الواسع القائم الآن (يعرف حالياً بمشروع الوثبة)، بعد توسيع المصلحة واستملاكها لمساحات كبيرة من بستان الصرافية عام ١٩٣٢. وكان يدير كافة أعمال إسالة

(*) الفوج الأول سمي بفوج (موسى الكاظم) وكان مقره في خان (الكابولي) في الكاظمية ويتدرب هناك بقيادة المقدم شيخ أمين ثم المقدم محيي الدين واصف.



الضباط العراقيون الذين ساهموا بتأسيس الجيش العراقي الذي كان يتدرب في ميدان الرمي في الصرافية

الجالسون من اليمين:
الرئيس الأول بهجت صالح، الرئيس الأول سليمان فتاح، عقيد بريطاني، الجنرال لوخ، العقيد نوري السعيد، عقيد بريطاني، المقدم صبيح نجيب، المقدم أمين العمري.

الواقفون في الصف الأول من اليمين:
العقيد محي الدين واصف، المقدم اسماعيل نامق، العقيد أحمد كمال، المقدم صالح زكي، المقدم أمين زكي، الرئيس الأول أمين السلام.

الواقفون في الصف الثاني من اليمين:
الرئيس الأول شاكر علي، بهجت مصطفى، الرئيس الأول سليم الجراح، المقدم برقي صدقي، المقدم مهدي الرحّال.

دار التدريب العسكري للضباط في الكرنتينة سنة ١٩٢١
آمر المدرسة العسكرية الكابتن بارستو (BARSTOW) أول الجالسين من اليمين الملازم صالح صائب الجبوري

الماء القديمة سكرتير لجنة إسالة الماء علي رؤوف الطائي المعروف في بغداد (علي أبو المي) يعاونه موظف واحد ليس إلّا أما اليوم فيعمل فيها مئات الموظفين ومثلهم من العمال.

وفي الصرافية أنشيء أول وأطول جسر حديدي للقطار في العراق، وهو جسر الصرافية الحديدي، والذي له عدة أسماء هي: جسر القطار، الجسر الحديدي، وجسر الصرافية، جسر العيواضية.

وفي الصرافية في الدار المقابلة للجسر الحديدي وضعت اللبنة الأولى لمكتبة الجامعة المستنصرية التي أصبحت فيما بعد من كبريات المكتبات، تحت إشراف الأستاذ كوركيس عواد.

وفي الصرافية شيدت عائلة آل المميّز جامع عادلة خاتون الذي حل محل جامع عادلة خاتون الصغير في الدنكچيّة، وهو من أحدث وأنظم وأنظف جوامع بغداد في الوقت الحاضر، ويتولى الامامة والخطابة الشيخ عبدالله الشيخلي

وفي الصرافية في البناية المطلة على ساحتها وضع الحجر الأساس لأول مركز لوسائل الايضاح التابع لوزارة التربية.

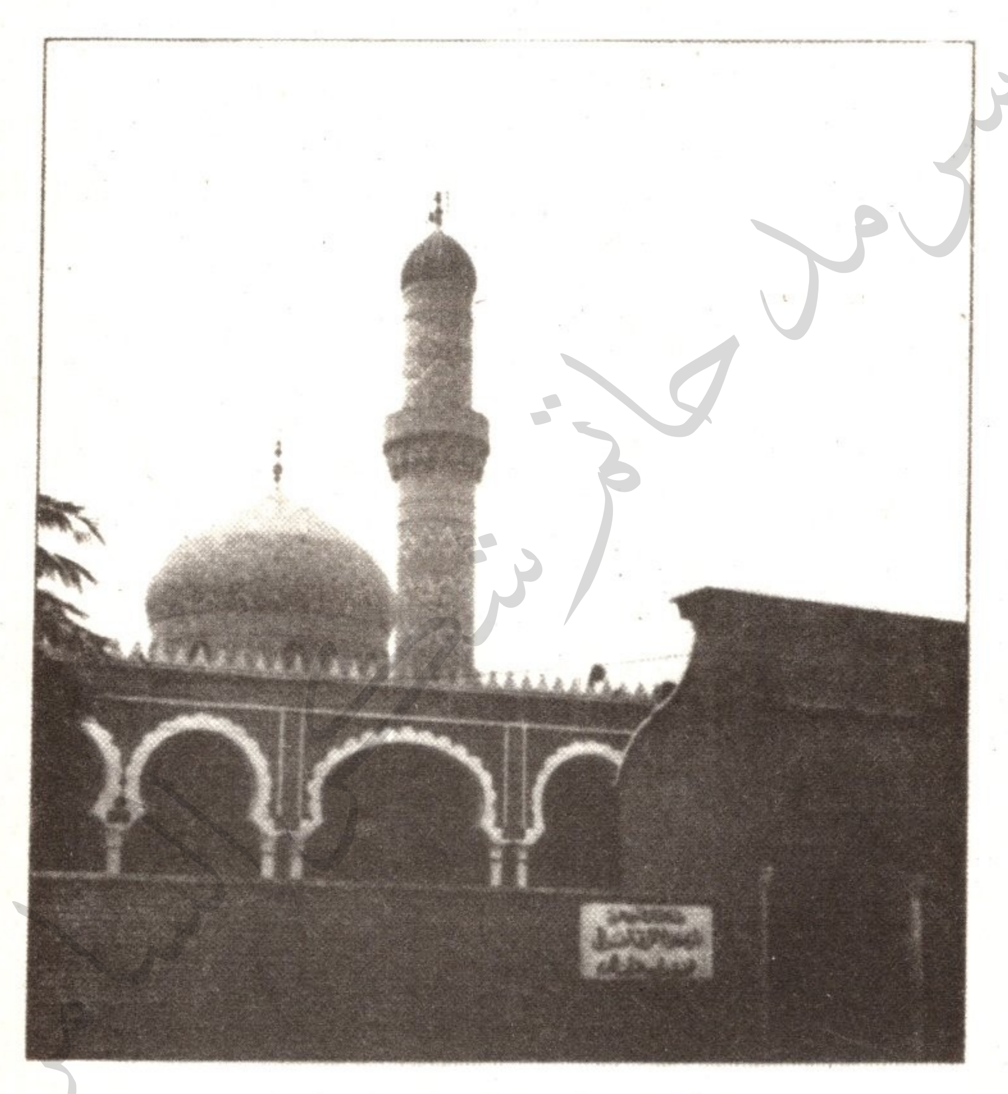
وفي الصرافية شيدت أول محطة لتوزيع البانزين والنفط للقطاع الخاص شيدها السيد توفيق وهبي.

وفي الصرافية أنشئت أول مؤسسة حديثة للطباعة والنشر هي دار الرابطة التي كان يرأس مجلس إدارتها قبل تأميمها السيد عبدالفتاح إبراهيم، وهي الآن دار الجماهير للصحافة.

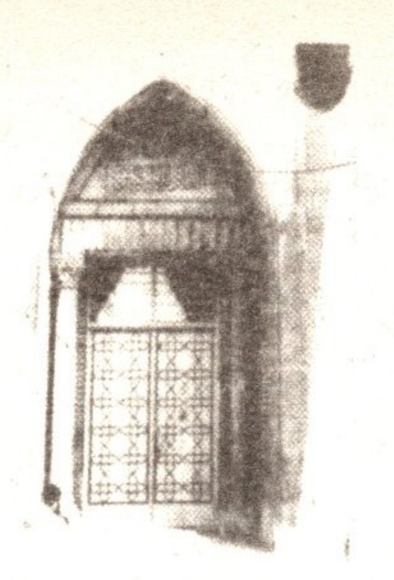
وفي الصرافية تقع مكاتب الأتحاد العام للأدباء والكتاب في القطر العراقي الذي يرأسه خالياً الأستاذ حميد سعيد

وفي الصرافية وضع الحجر الأساس لأول مشروع اقتصادي عراقي هدفه تعزيز الاقتصاد الوطني وكسر طوق الاحتكار الذي فرضته الشركة البريطانية على تجارة وحلج الأقطان، وهي شركة تجارة وحلج الأقطان العراقية المحدودة التي شيدت محلجها في الصرافية عام ١٩٢٩ وكان رئيس مجلس إدارة الشركة جعفر جلبي أبو التمن وأعضاء مجلس الأدارة ياسين الهاشمي وجان بحّوشي وابراهيم الشابندر ونوري فتاح وسليمان فتاح ومنير عباس وعبدالهادي الجلبي ومديرها المفوض إبراهيم جلبي عطار باشي.





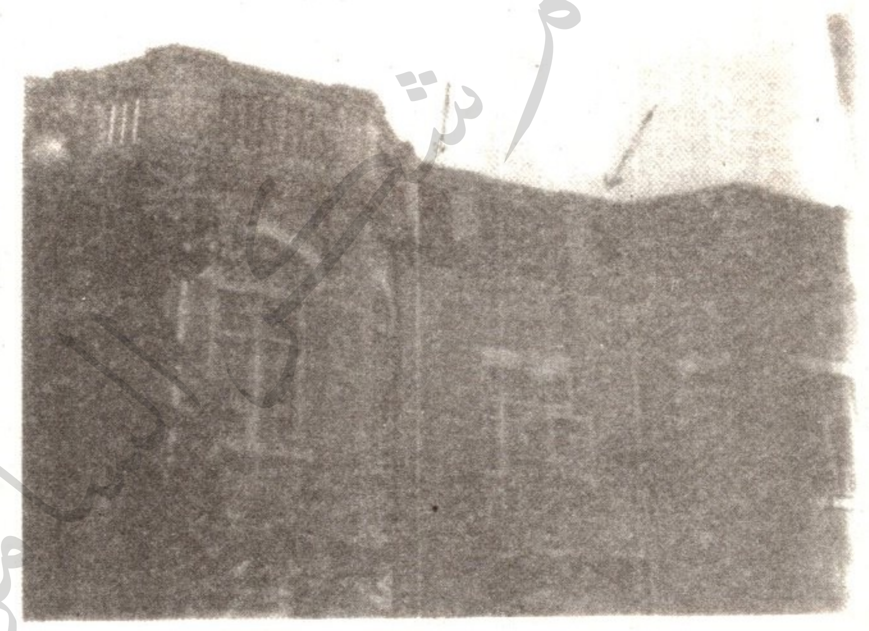
الباب الرئيسية لجامع عادلة خاتون في الصرافية





جامع عادلة خاتون الكبير الواقع في شارع المستنصر مقابل المحكمة الشرعية (محكمة الأحوال الشخصية حالياً) مجاور مصرف الرافدين ـ فرع بغداد، بعد اعادة بنائه سنة **١٩٣٧** من قبل المتولين على وقف عادلة خاتون المرحومين عبدالجبار المميز وعبدالقادر المميز.

(التصوير الوحيد للجامع منذ اعادة بنائه ، صوره المصور نزار السامرائي سنة ١٩٨٥)



الباذكير البغدادي

وفي الصرافية في الدار المنشورة صورتها اعلاه وهي من جملة اعيان وقف عادله خاتون أنشئ في اوائل الثلاثينات احدث بادگير بغدادي على يد عميد المعماريين البغداديين المرحوم الحاج إبراهيم العبطه. وقد صمم تلك الدار وفق الطراز الاندلسي وقصر الحمراء مهندس معماري يهودي اسمه عبدالنبي، واشرف على تنفيذ التصميم المهندس المرحوم عبدالجبار عبدالوهاب، إبن أخ عبدالقادر الرسّام، وتولّى أعمال النجارية وفقاً لنماذج قصر الحمراء عميد النجّارين البغداديين الأوسطه اسماعيل الجَدْعَة، عافاه الله وامد في حياته، والمرحوم الحاج عبداللطيف الفاني.



بانزينخانة الصرافية

وفي الصرافية شيّد أكبر وأحدث مجمع للصحفيين العراقيين.

وفي الصرافية شيدت أمانة العاصمة عمارة من ستة طوابق هي عمارة أصحاب الكفاءات ولكنها لم تشغل من قبل أصحاب الكفاءات!!.

وفي الصرافية أنشأت أمانة العاصمة حديقة من أجمل حدائق العاصمة هي حديقة الصرافية المجاورة لجسر الصرافية الحديدي المشرفة على نهر دجلة العظمىٰ.

وفي الصرافية شيد أحدث مستوصف في بغداد هو مستوصف المنصور العسكري.

وفي الصرافية يسكن الشاعر القومي نعمان ماهر الكنعاني:

وفي الصرافية يسكن أمين العاصمه الحالي عبدالوهاب المفتي.

وفي الصرافية يسكن رائد المقام العراقي يوسف عمر الذي كان يجني أكبر (جوگه) من الطيور الحمراء طارت في بغداد منذ شيّدها المنصور !!

وفي الصرافية شُيدت مدرسة الرسالة المتوسطة للبنين وهي من أحدث المدارس التي شيدت في بغداد في العهود الأخيرة، ومدرسة خولة بنت الأزور الابتدائية للبنات.

وفي الصرافية شيدت محطة الضخ الرئيسيّة لمجاري الأمطار في بغداد.

وفي الصرافية تقع السفارة اللبنانية وتشغل الدار التي شيدها جميل عبدالوهاب بالاجارة الطويلة على القطعة ٧/٧ مقاطعة ٣٨ الصرافية الغربية.

وفي الصرافية وفي مياه دجلة العظمىٰ تروح وتغدو أسراب الأوز والبط بين قصر شعشوع والكسرة وبين المجيدية ومدينة الطب وصدىٰ نقيقها يتردد الى الجعيفر وما جاورها.

وفي الصرافية، فضلاً عن أسراب ذلك الأوز البهي الطافية فوق مياه دجلة العظمى، تكثر طيور الفختي والطوارني والطَبَنْ والزاغ والزرزور والزيطة والططوة، ونصيج الماي وصگير الفار، ويتردد عليها في موسم الخريف زوج من الهدهد، وفي موسم الربيع أزواج من السند وهند، وعلى مدار السنة زوج من العگعك. وليس للكلك والبومه عشوش في الصرافية، ولكن فيها عروش لملوك الطيور كافة، الا وهم بلابل التين الوزيري، وبلبل الهزار المحبب الى قلوب البغداديين لعذوبة صوته وكثرة تغريده، والتي أقامت عروشها بين أغصان التين الوارفة الظلال، ولها امتياز مقصور عليها، فهي تقطف ثمر التين الناضج مع بزوغ الضياء الأول وقبل أن يذوقها أحد من البغداديين، وتبدأ بالتغريد مع طلوع الفجر. ويزعم البغداديّون وأنا منهم، بأنهم يفهمون لغة البلابل فيزعمون أن بلابل التين الوزيري وبلابل بستان العلوازية المجاورة لبستان الصرافية تغّرد بأنغام شجيّة عذبة. وتتبادل بينها عبارة: شدّة ورد، تكي حلو، باگه كرفس، تخته بيار !!

وان بلبل التين الوزيري الذي أجنيه الآن يغرد فجر كل يوم بما يقرب من هذه العباره، ويزيد عليها !

لقد كان الحاج جميع البغدادي مؤذن جامع المراديُة وأستاذ المقام العراقي عميد هواة تربية البلابل والاستاذ في فهم لغتهم !



اسراب الوز في الصرافيّة

وفي الصرافية تقع إدارة أول وأقدم جريدة رسمية للحكومة العراقية هي جريدة (الوقائع العراقية).

وفي الصرافية، في جامع عادلة خاتون، تقع إدارة مجلة الرسالة الاسلامية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ويرأس تحريرها السيد عبدالله فاضل عباس وزير الأوقاف.

وفي الصرافية، في جامع عادلة خاتون أيضاً، يقع المركز الاقرائي العراقي لتحفيظ وتجويد القرآن الكريم الذي يديره الحاج علاء الدين القيسي.

وفي الصرافية، في جامع عادلة خاتون كذلك، يقع المقر العام للرابطة العالمية الاسلامية للقراء والمجودين.

وفي الصرافيّة عدد من الدوائر الرسمية والنقابات والجمعيّات الاستهلاكية والأقسام الداخلية للكليات والمعاهد.

وأخيراً، ففي الصرافية وقع حدث من أهم الأحداث التي غيرت وجه العراق السياسي مؤقتاً في الخمسينات. ففي ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ عقد بدار الوزير جميل عبدالوهاب (دار السفارة اللبنانية حالياً المطل على دجلة العظمى) الاجتماع الرسمي الأول للدول الخمس الموقعة على ميثاق بغداد، وهي العراق وتركيا وباكستان وإيران وبريطانيا(*) ومراقب عن الولايات المتحدة بسرية لم تعهد الاجتماعات الدولية مثيلاً لها بالنظر للمعارضة الشديدة التي لاقاها انضمام العراق لهذا الميثاق، سواء في داخل العراق أو في العالم العربي، باعتباره مشروعاً أستعمارياً.

(*) كان الوفد العراقي في إجتماع الصرافية مؤلفاً من رئيس الوزراء نوري السعيد ووزير الخارجية برهان الدين باش أعيان والسيد عبدالقادر الگيلاني سفير العراق في پاكستان الذي تولى مهمة ممثل العراق في المجلس الدائم بصورة مؤقتة. وتولى منصب السكرتير مؤقتاً خليل إبراهيم مدير التوجيه والاذاعة العام. أما الدول الأخرى الموقعة على الميثاق وحضرت اجتماع الصرافية فهي تركيا وقد مثلها رئيس وزرائها عدنان مندريس ووزير خارجيتها فؤاد كوبروللو، وپاكستان وقد مثلها رئيس وزرائها جودري محمد علي، وإيران وقد مثلها رئيس وزرائها حسين علاء. أما العضو الخامس، بريطانيا، فقد مثلها وزير خارجيتها المستر هارولد مكملان. ومثل الولايات المتحدة بصفة مراقب المستر گولمان سفيرها في بغداد.



في الوسط جميل عبدالوهاب الوزير الذي عقد بداره في الصرافية الاجتماع الاول لميثاق بغداد
الى يمينه جميل المدفعي والى يساره محي الدين المميّز

ومن الصرافية صدر يوم ٢٢ تشرين الثاني البيان الرسمي بأعلان قيام الميثاق المذكور وتشكيل اللجان المنبثقة عنه ، وتأسيس السكرتارية الدائمة ويكون مقرها بغداد. ولكن لم تكن الصرافية المقر الدائم للميثاق ، بل اختيرت له عمارة تعود للادارة المحلية تقع خلف المقر العام لجمعية الهلال الأحمر العراقية سابقاً في شارع أطلق عليه إسم شارع الميثاق (مجاور لمستشفى الدكتور كمال السامرائي سابقاً. قرب ساحة الأندلس حالياً) وقد اندثر اسم ذلك الشارع باندثار الميثاق.

لقد كان إعلان قيام ميثاق بغداد وانضمام العراق إليه خلافاً لرغبات الشعب العراقي اللبنة الأولى لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي أطاحت بالحكم القائم في العراق آنذاك. وكانت باكورة إجراءات حكومة الثورة صباح يوم ١٤ تموز تجميد الميثاق وغلق مقره ووضع اليد على وثائقه كما أغلقت الغرفة السرية المخصصة له في ديوان وزارة الخارجية المكتوب على بابها (الدخول ممنوع) !! وبعد عدة أشهر أعلن العراق انسحابه من الميثاق ، فانتقل مقره الى أنقرة وتغيّر إسمه الى (منظمة المعاهدة المركزية). وبذلك زالت الوصمة التي لوثت إسم بغداد الحبيبة أكثر من ثلاث سنوات .

* * *



في مطار بغداد اثناء استقبال رئيس الوزراء نوري السعيد عائدا من طهران حيث اجتمع المجلس الوزاري للميثاق للبحث في موضوع العدوان الثلاثي على مصر. يشاهد في الصورة احمد مختار بابان وتحسين قدري وعباس علي غالب. مدير الشرطه العام وامين المميّز وكيل وزارة الخارجية بالوكاله سمعت احد المقربين جداً لنوري السعيد يقول
بالله عليكم هسّه وكت سفر الى طهران والدنيا مكلوبه في بغداد



في حفلة ميثاق بغداد بأوتيل سميراميس سنة ١٩٥٧ :
من اليمين :
الدكتور مهدي فوزي. الآنسة جنفييف. عوني الخالدي. المسز آرنو والدة جنفييف خالد الچوربه‌چي.

التقطت هذه الصورة في آخر حفلة استقبال أقامها حلف بغداد بأوتيل سميراميس قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وخروج العراق من الحلف، وبعد عدة أشهر من اعلان خطوبة الملك فيصل الثاني في أيلول ١٩٥٧ من الأميرة فاضلة بنت الأمير محمد علي والتي تنحدر من الخديوي محمد علي باشا الكبير من جهة الأب ومن السلطان العثماني عبدالمجيد من جهة الأم، حسبما سرده لي المرحوم محمود صبحي الدفتري (العارفة) بالأنساب، وخاصة العثمانية.

وتظهر في الصورة المسز آرنو الأمريكية الجنسية وصاحبة مكتب للعقارات في الولايات المتحدة، مع ابنتها الشقراء (جنفييف) التي كانت احدى اللواتي كنّ يتوقعت الزواج من الملك فيصل الثاني، وهن كثيرات يومئذٍ، وكانت الوالدة قد استأجرت دارا في محلة نجيب پاشا (شارع الدهان) يعود لأحد موظفي وزارة الخارجية وسكنتها لفترة من الوقت قبل ان تسفرّ هي وابنتها الى خارج العراق (سركن وبلبله سوده) باجراءٍ إتخذه سامي فتاح وزير الداخليه في وزارة علي جودة الثالثه بحث البنت ووالدتها لحضورهما تطفّلاً وفضولاً مناسبة رسمّية في ساحة الكشافه لتقديم باقة زهور الى الملك فيصل،
فمنعتا من ذلك ثم ابعدتا عن بغداد خلال ثمانٍ واربعين ساعة على الرغم
من تدخل السفير الامريكي المستر گولمان ليتسنى الوزير عن قراره بابعادهما بتلك الطريقه المشينه.
وكانت الوالده وابنتها قد قدمتا الى بغداد بحجة زيارة صديقتهما المسز دريسكول زوجة الكولونيل دريسكول الملحق العسكري الأمريكي الذي توفي في مستشفى الدكتور كمال السامرائي بمرض شلل الأطفال (بوليو) الذي اصيب به في احدى زياراته لالمانيا الغربيه.
وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أقامت البنت دعوىً في المحاكم للمطالبة بالتعويض المدني، استناداً الى ما يعبّر عنه في القوانين الانگليزية والأمريكية (Breach Promise) (أي نكث الوعد بالزواج) وبعد فشلها بأثبات دعواها في المحاكم البريطانية التجأت الى المحاكم الامريكية التي حكمت لها بتعويض فاحش.



في حفلة ميثاق بغداد باوتيل سمير اميس سنة ١٩٥٧:
المسز آرنو وابنتها جنفييف التي اقامت دعوى (حنث الوعد بالزواج) على تركة الملك فيصل الثاني واستحصلت على حكم (قره قوشي) من المحاكم الامريكية بتعويض فاحش. ولي عودة تفصيلية لهذا الموضوع في مطبوع آخر لتنفيذ التخرصات التي رافقت زواج الملك فيصل الثاني من الفتاة الامريكية.



أستدعيت الى محكمة المهداوي يوم ١٥/١٠/١٩٥٨ للادلاء بشهادتي عن المتهم برهان الدين باش اعيان وزير الخارجية في العهد الملكي. وبعد أن أقسمت اليمين القانونية بأني لا أتكلم إلّا الصحيح، تقاطرت عليّ أسئلة المهداوي كما (تقاطرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد).

فسألني عن ميثاق بغداد ودور المتهم فيه وعما إذا كان الميثاق في صالح العراق والبلاد العربية وعن موقفها منه، فنفيت علمي بموضوع الميثاق لأني كنت يومئذٍ في ما وراء الفيافي والقفار في المملكة العربية السعودية. ثم سألني عن سياسة المتهم تجاه الجمهورية العربية المتحدة، فنفيت وجود دور عدائي للمتهم مع تلك الجمهورية، لا بل إنه اتخذ اجراءاً فورياً للاعتراف بها. وسألني عن دور المتهم في عقد الاتحاد الهاشمي بين العراق والأردن، فبينت بأن ذلك الاتحاد كان مجرد رد فعل لقيام الجمهورية العربية المتحدة ولم يكن وفقاً للأماني القومية والوحدة العربية الشاملة التي كنا نطمح اليها ونحن أطفال في المدارس.

ثم أخذ المهداوي (ينغبش) عليّ ويوجه لي الأسئلة المحرجة بمناسبة وبدون مناسبة. فلما ذكرت خبراً قلت عنه انه كان(سري) صرخ بوجهي قائلاً:

- تگول الخبر چان سري، بس شلون عرفت بيه؟
- أجبته:

سيادة الرئيس: سبق لك أن قلت «العراقيين يقرون الممحي» !؟

وكانت هذه العبارة مسك الختام، فابتسم المهداوي وصرفني من المحكمة، ودفع الله ما كان أعظم !!

(تفاصيل الشهادة مدونة في مقدمة كتابي عن [المملكة العربية السعودية كما عرفتها]

وعدت القارىء عند الكلام عن شاطيء المجيدية أن أبحث عن الوزيرية وخلفياتها، وها أني أبر بوعدي مميطاً اللثام عن صفحات ظلت مطوية حتى اليوم.

كانت الحكومة قد ألفت لجاناً سميّت (لجان تسوية حقوق الأراضي)، الغرض منها تصفية المنازعات التي كانت سائدة في العراق منذ العهد العثماني حول الأراضي، وتثبيت الحقوق عليها.

فمن الأراضي ما كانت أميرية، ومنها ما كانت معطاة باللزمة ومنها ما كانت مفوضة بالطابو، ومنها ما كان للغير عليها حق التصرف بشكل أو بآخر كحقوق العُقْر والحِكْر والمغارسة، ومنها ما كانت طابو أي ملكاً صرفاً، ومنها ما كانت رقبتها للوقف. فتألفت عدة لجان في كافة أنحاء العراق وأعطيت صلاحيات مطلقة لتثبيت وتحديد الحقوق على الأراضي، وكانت معظم لجان التسوية برئاسة مفتش إداري أو ضابط سياسي بريطاني، أذكر منهم اثنين هما المستر أستن والمستر ديچبرن؛ وكان الأول رئيساً للجنة التسوية التي تولت تسوية الأراضي القريبة من قصبة بغداد، ومن جملتها المقاطعات الواقعة حول الطريق المعروف حالياً بشارع الوزيرية حتى الطريق المعروف بدرب المنازل.

فعندما قدم الملك فيصل الأول الى العراق سنة ١٩٢١ أنشأ مزرعة لتربية الأبقار ونصب مضخات لأروائها تقع بالقرب من قصر شعشوع (كورنيش الأعظمية حالياً) وكانت المزرعة تعرف محلياً (الدليفان) والكلمة معربة عن (ديري فارم) الانگليزية وهي التي كانت سبباً لغرق بغداد في شهر نيسان سنة ١٩٢٦ عندما فتح مديرها توفيق المفتي(*) أبواب (النهر) المتصل بدجلة العظمى والمؤدي الى تلك المزرعة فتكونت من شدة التيار (ذيبة)(**) أمام أبواب النهر لم تتمكن (البطخات) العديدة والكبيرة التي ألقيت في «الكسرة» من ردمها، فانهارت السدة وأحدثت ما يعرف اليوم «بالكسرة» ووصلت مياه الفيضان حتى باب المعظم؛ أن الأراضي المحيطة بالدليفان لمسافات بعيدة هي البزايز إما لأراض وقفية أو أراض هي ملك صرف لأصحابها. فأن حقوق التصرف واللزمة في بزايز أوقاف الدفاعي ونشأة بك خاجكان ووقف السيد أحمد قنبور، الذي أثبت حق الوقف الذي تحت توليته بعدة أحكام قضائية أكتسبت الدرجة القطعية، ووقف علي أفندي ووقف عادلة خاتون وغيرها يعود الى تلك الأوقاف منذ زمن لا يعرف أوله، وقبل أن تؤسس مزرعة الدليفان بعشرات السنين. كما يعود حق التصرف ببزايز الأراضي التي هي من صنف الطابو الصرف الى ملاكي تلك الأراضي وهم هاتف بك والحاج مهدي الخفاجي والحاج حسين الساجي وبيت الچوربه‌چي وبيت شعشوع وغيرهم، فلما أصدرت لجنة التسوية قرارها اعتبرت كافة تلك البزايز من ضمن (الدليفان) فسميت بالمزرعة الملكية، وسجلت بسجلات الطابو بإسم نظارة الخزينة الخاصة.

(*) وهو صهر صفوة پاشا العوّا ناظر الخزينة الملكية الخاصة يومئذ وقد سببت هذه الكسرة أضراراً فادحة، فوصلت المياه الى باب المعظم، وصار الناس يستعملون القوارب كوسائط نقل عوضاً عن العربات وكانت الصرافية من أكثر المتضررين من هذا الفيضان، فقد تلفت المزروعات وهلكت النخيل المزروعة حديثاً، وتهدمت (الجماعة) التي كان يسكنها الفلاحون وانهار نادي صيد الحمام وتهدم ميدان الرمي للجيش العراقي. فلو وقعت مثل هذه الحادثة في أي بلد في العالم لقاضى المتضررون مسبب الضرر وهو مدير المزرعة الملكية أو ناظر الخزينة الخاصة، ولكن الأمر قد (طمطم) وتحمل الناس الضرر على مضض.

(**) الذيبة: تيار من الماء يدور على نفسه بقوة (كالسوّيره) ويسبب تآكل السداد.
البطخه: حزمة كبيرة من الأحطاب والأغصان والأعشاب مشدودة بحبال من (الليف) أو (الخوص) تلقى في الكسرات التي تحدث أثناء الفيضان لتسهيل ردمها.

وفيما يتعلق ببزايز الصرافية التي تمتد من شارع الوزيرية حالياً حتى درب المنازل المؤدي الى خان بني سعد ، فقـد كان المتولون على وقف عادلة خاتون يتصرفون بها خلفاً عن سلف منذ زمن لا يعرف أوله. وأذكر أنني كنت طفلاً أرافق والدي عندما يخرج لتفقد الزرع في تلك الأراضي ، التي كانت تروىٰ إما من (النهر) في مواسم الفيضان وإما من الكرود ثم بالمضخات في المواسم الأخرىٰ. وبعد الاحتلال البريطاني أذكر أننا اشترينا مضخة من نوع (رستن) من شركة بيت (ستريك) البريطانية لأرواء بزايز الصرافية. وعندما أعد رشيد الخوجه خارطة بغداد سنة ١٩٠٩ ورد فيها إسم (صرافية نهري) الممتد من المنطقة المعروفة محلياً (حريجة) حتى منطقة (الحقول) التي ورد ذكرها في خارطة الرحالين سار وهرزفيلد التي وضعت في أوائل القرن العشرين.

وأذكر حادثة وقعت لنا في أوائل العشرينات في البقعة التي شيدت عليها بناية السفارة السعودية (القديمة) عندما كان الصبي اليتيم (طريح) البالغ من العمر تسع سنوات يرعىٰ فرسنا ، فاغتاله أحد المجرمين وسطا على الفرس وتوجه بها نحو خان بني سعد حيث اختفىٰ أثرهما ، وما تبع ذلك من ملابسات ومخاصمات وتهديدات بيننا وبين عشيرة النداوات التي ينتمي إليها والد الصبي المقتول ، والدية البالغة خمسمائة روبية التي دفعناها لهم لفصل الدم وحسم الخلاف. وفي النتيجة خسرنا الدية وخسرنا الفرس وفقدنا الصبي ثم فقدنا الأرض ذاتها ، كما سيأتي بيانه.

يجد القارىء خارطة الكادسترو التي وضعت لأراضي الصرافية والتي يلاحظ منها عبارة (تحادد مقاطعة رقم (١) الوزيرية ـ المزرعة الملكية) ، فكيف قفزت (الدليفان) من بزايز هاتف بك والدفاعي ووقف السيد أحمد قمبور وأراضي الحاج مهدي الخفاجي وأراضي نشأت بك خاجكان وغيرها ووصلت الى بزايز الصرافية يا ترى ، وهل كان ذلك بقدرة قادر أم بتوقيع المستر أستن ؟

بعد صدور قرار التسوية ووضع خارطة الكادسترو ، وتسجيل أراضي الوزيرية بالطابو بأسم نظارة الخزينة الملكية ، قامت نظارة الخزينة الخاصة بـأفراز الأراضي التي اغتصبتهـا من أصحابها الشرعيين ، ووزعتها على الوزراء والحاشية الملكية والمحسوبين والمنسوبين وحتى سائق سيارة الملك أصابه نصيب منها فشيّد عليها داراً باعها بعدئذ الى عبدالمجيد عريم بسعر خيالي. فذاع الخبر في أوساط بغداد ، وأصبح على كل شفة ولسان ، فتناقلت المجـالس والدواوين والقبـولات والمقاهي عبارات (وزيري يا تين. . لاوي الوزيري يا تين) للغمز من أن التين الوزيري يقع في بستان الصرافية العائدة لوقف عادلة خاتون ، وأن أراضي الوزيرية قد أغتصبت من الوقف ووزعت على المحســوبين والمنســوبين ، فأصبح التين الوزيري موضـع التندر في بغـداد ، فكان كلما حضـر أحدنا في تلك المجتمعـات يثـار موضـوع التين ، أو التين الوزيري.

بعد أن ظلّت أخبار التين الوزيري تتناقلها الألسن عدة سنوات تلقينا ذات يوم اشعاراً بالحضور لمقابلة رئيس الديوان الملكي وناظر الخزينة الخاصة ، فحضـرت أنا نيـابة عن المـرحوم والـدي والمرحوم عبدالقادر المميّز ـ وهما المتوليان على أوقاف عادلة خاتون يومئذ ـ ودخلنا الى غرفة رستم حيدر ، وكان حاضراً صفوة باشا العوّا ناظر الخزينة الخاصة ، فاستقبلانا استقبالاً حسناً ، فبدأت المقابلة بشقشقيات عبدالقادر المميّز المعروفة ، ثم فاتحنا رستم حيدر فقال : لقد بلغت مسامع جلالة الملك أن أراضي الوزيرية تعود لأوقاف عادلة خاتون وأن لجنة التسوية قررت اعتبارها من ضمن المزرعة الملكية وأن ضمير جلالته غير مرتاح من الأقوال التي تتداولها الألسن حول هذا الموضوع ، وأمرني بأن أرجوكم أن (تحللوا وتواهبوا جلالته) حتى لا يبقىٰ مشكول الذمة. فبينَ عبدالقادر بأن حق التصرف في الأرض



تصوير السيد حبيب العيدروسي
(١٩٣٥/٨/٢)

لقد بلغت الضجة حول اغتصاب أراضي الوزيرية والتين الوزيري ذروتها في (صالون الجمعة) عندما دخل مجلس محمود صبحي الدفتري، أحد الموهوب لهم من أراضي الوزيرية وشيد عليها قصراً منيفاً. فلم يجد السيد حبيب العيدروسي مناسبة للمساهمة في تلك الضجة أفضل من تلاوة سورة (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) ثم غادر المجلس يصحبه قريبه المتصرف المتقاعد يوسف ضياء.

ان السيد العيدروسي شخصية ظريفة ومحبوبة ومحترمة في المجتمع البغدادي على اختلاف طبقاته ومشاربه، وعلى الأخص في محلته القراغول وهي من محلات بغداد المشهورة والتي أنجبت معروف الرصافي وشخصيات بغدادية معروفة، منهم ماجد القرغولي وعبدالستار القرغولي، وعبدالوهاب القرغولي (والد زكي ونوري وسعدي وكمال وفؤاد) والحاج شاكر القرغولي والملحن طالب القرغولي وبيت البزركان وبيت محيي الدين البغدادي (والد جلال الحنفي) وكثيرون غيرهم. والعيدروسي معروف بانتقاداته اللاذعة ونكاته الطريفة والغمز واللمز بالحاكمين وتصرفاتهم وبحديثه المتأني الهادىء الهادف.

انه سيد صحيح النسب ينتهي نسبه الى سيدنا الحسين عليه السلام والعيدروسية هي طريقة كالطريقة القادرية والرفاعية والنقشبندية وغيرها من الطرق، وقد التزم بها جده أبو بكر بن السيد عبدالله العيدروسي المدفون في قرية (عيدروس) بجنوب المملكة العربية السعودية. أما السيد عبدالله العيدروسي فعاش في بغداد وتوفي فيها ودفن في مسجد العيدروسي الواقع في محلة (القزّازة) قرب جامع الحلاني.

وللسيد حبيب العيدروسي مواقف وطنية مشهودة في ثورة العشرين ومحاربة الانكليز، وكان حلقة الوصل بين زعماء الثورة وعشائر لواء ديالى، وله في هذا اللواء مصالح وبساتين. وقد اعتقله الانكليز مع زعماء الثورة من بغداد والفرات ونفي معهم الى هنجام. وعندما تألفت الحكومة الوطنية في العراق ساهم العيدروسي في جميع الحركات الوطنية المناهضة للاحتلال والانتداب وكان من المقربين الى ياسين الهاشمي وينتخب نائباً عن لواء ديالى محسوباً على حزب الهاشمي المعارض، وكانت له مواقف جريئة وخطب رنانة في المجلس النيابي في صفوف المعارضة.

توفي العيدروسي سنة ١٩٦١ وشيعناه الى مثواه الأخير في التكية العيدروسية في (صوب الكرخ).
رحم الله أبا صفاء. وأدام لوذعيته في أبنائه وذريته.

المذكورة يعود حقيقة لوقف عادلة خاتون ، ونحن أمناء على هذا الوقف ، تسلمناه من السلف وعلينا أن نسلمه الى الخلف كما استلمناه وليس من حقنا (أن نحلل ونواهب) بشيء لا نملكه. أخذت المناقشة تحتد تدريجياً. فقال رستم حيدر، ولكن قرار لجنة التسوية قد صدر ونشر في الجريدة الرسمية وانتهى الأمر، وليس بالامكان تغييره الآن. فأجاب عبدالقادر بحدة : ما طول القرار قد صدر ونشر وانتهى الأمر، (بس إلويش دازّين علينا) ! ، ثم أخذت الحدة بالارتفاع فقال عبدالقادر: قلت لكم بأن هذه الأراضي هي حق للوقف ، وهذا الوقف موقوف على جامعين من قبل الواقفة عادلة خاتون بنت أحمد پاشا ، وأن أحمد پاشاهو ذلك الرجل الذي خلص العراق من أيدي العجم ، ولولاه لكان العراق الآن جزءاً من إيران ، ثم إنتو تجون من برّه وتصدرون قرارات وقوانين وتغتصبون أراضي

وقبل أن نغادر الغرفة التفت اليهما عبدالقادر وقال : «آني أحذركم من نتيجة عملكم هذا ، فان للوقف حوبة ، ولبيوت الله رب يحميها ، وأنتو وْألله تفتصلون». فخرجنا بدون توديع ولا سلام ولا كلام ، وكانت تلك المقابلة هي المرة الأخيرة التي يدخل فيها عبدالقادر المميّز الى البلاط حتى وفاته عام ١٩٥٤.

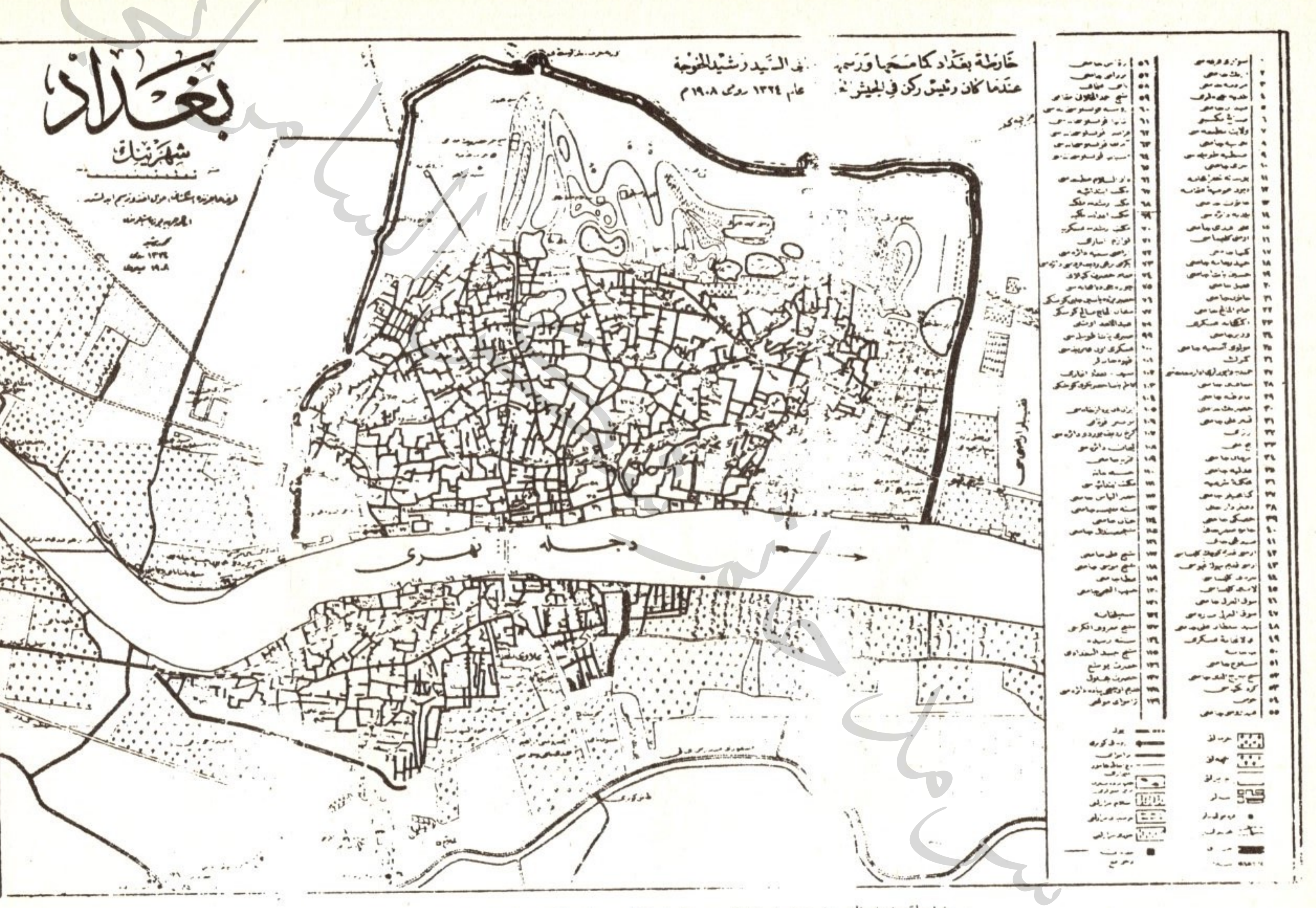
هذا فيما يخص أراضي وقف عادلة خاتون ، أما الأراضي الأخرى التي يعود حق التصرف فيها الى الأوقاف ، فان مديرية الأوقاف العامة لم تحرك ساكناً وكان مديرها العام يومئذ رؤوف الكبيسي ، والشخص الوحيد بين ملاكي الأراضي الأخرى التي اغتصبت والذي بذل جهداً كبيراً للمحافظة على حقوقه وحقوق الوقف الذي تحت توليته هو اسماعيل الچوربهچي الذي التجأ الى كافة الطرق القانونية المتيسرة لديه فلم يوفق ، إذ لا حول له أو لغيره لمعارضة اجراء يريده البلاط والحكومة والانگليز، وكانت آخر محاولة قام بها البلاط مع اسماعيل الچوربهچي هي توسيط الدكتور عبدالله الدملوجي لعرض عدة قطع من الوزيرية عليه، غير انه رفض العرض بكل ما يتصف به البغدادي الأصيل من إباء وانفة وعزة نفس.

(*) من الذين استحوذوا على أراضي الوزيرية المغتصبة تحضرني أسماء نوري السعيد، ياسين الهاشمي، محمد الصدر، رستم حيدر، تحسين قدري ، محمد زكي المحامي ، علي ممتاز الدفتري ، رؤوف الكبيسي ، والسيد محسن أبو طبيخ ، خالد الزهاوي ، محمود سلمان ، رؤوف البحراني ، أحمد شوقي الحسيني ، سعيد حقي ، عبدالجبار أمين ، شاكر حميد ، مصطفى العمري ، وجيه يونس وسائق سيارة الملك وسفرچيّة البلاط وعدد كبير لا تحضرني أسماؤهم ، فمنهم من استحوذ على قطعة أو أكثر عن طريق الهبة. ومنهم من اشتراها أو ورثها من الموهوب اليهم ، ومنهم من اشتراها من الخزينة الخاصة (بفلس ونص) أو كما يقول المثل الدليمي : «سراحت الخال لابن أخته» أي شبه «البلاش». ومنهم من اشتراها من الدلال سليم بلبول وغيره من دلالي الأراضي مباشرة.

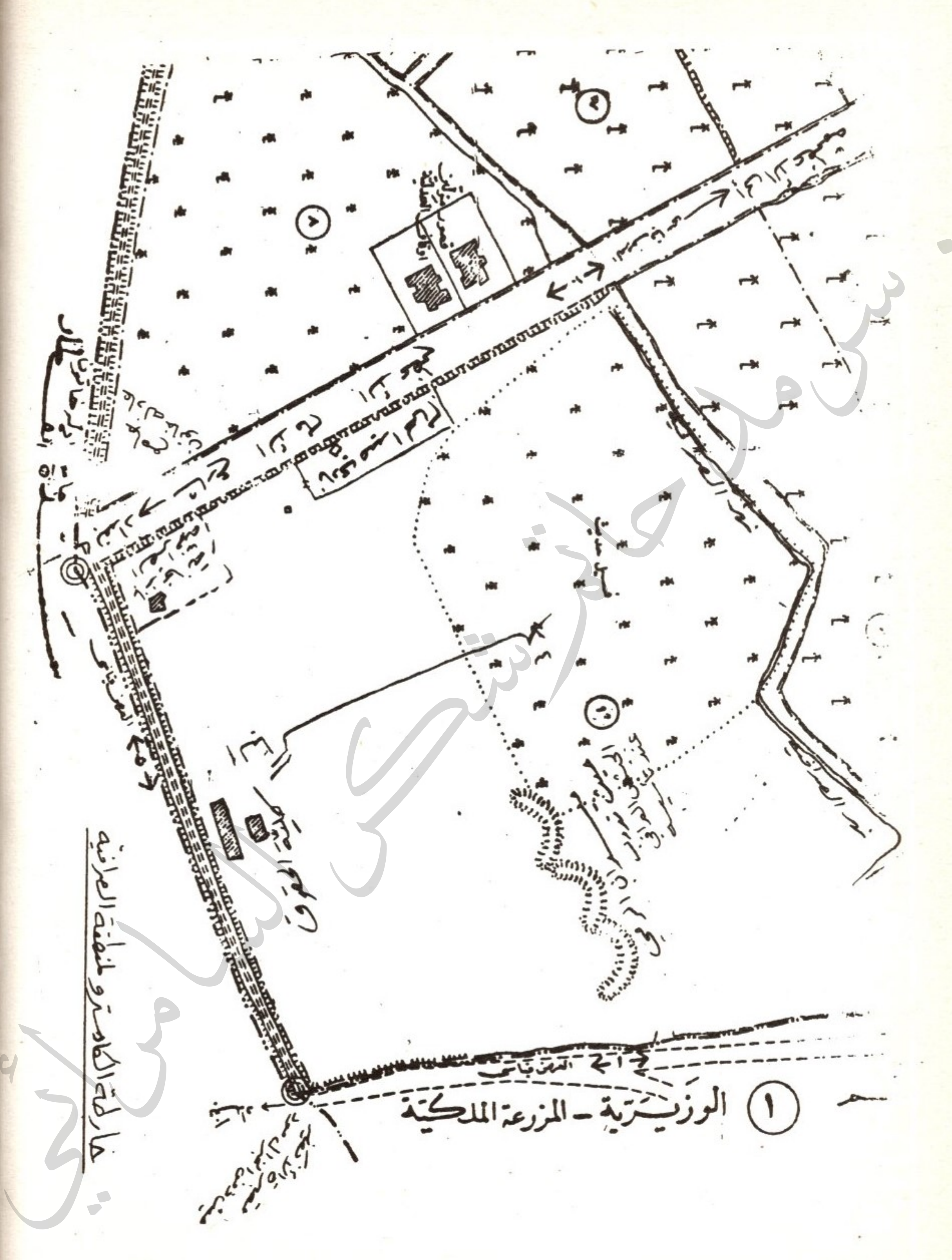
(**) من أطرف ما حصل من هذا القبيل هي الحادثة التالية : كان المرحوم السيد حبيب العيدروسي في زيارة للمرحوم محمود صبحي الدفتري في (صالون الجمعة) فأقبل أحد الموهوب لهم من أراضي الوزيرية. فلم يجد العيدروسي مجالاً لذكر التين سوى تلاوته آية (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) وختم الآية بـ(صدق الله العظيم) وغادر المكان يصحبه المرحوم يوسف ضياء. والعيدروسي معمم ومعروف بانتقاداته اللاذعة ومواقفه الوطنية وكان من بين الذين أبعدوا الى هنجام إبّان ثورة العشرين ، وكان ينتخب نائباً عن لواء ديالى في مجالس النواب محسوباً على ياسين الهاشمي.



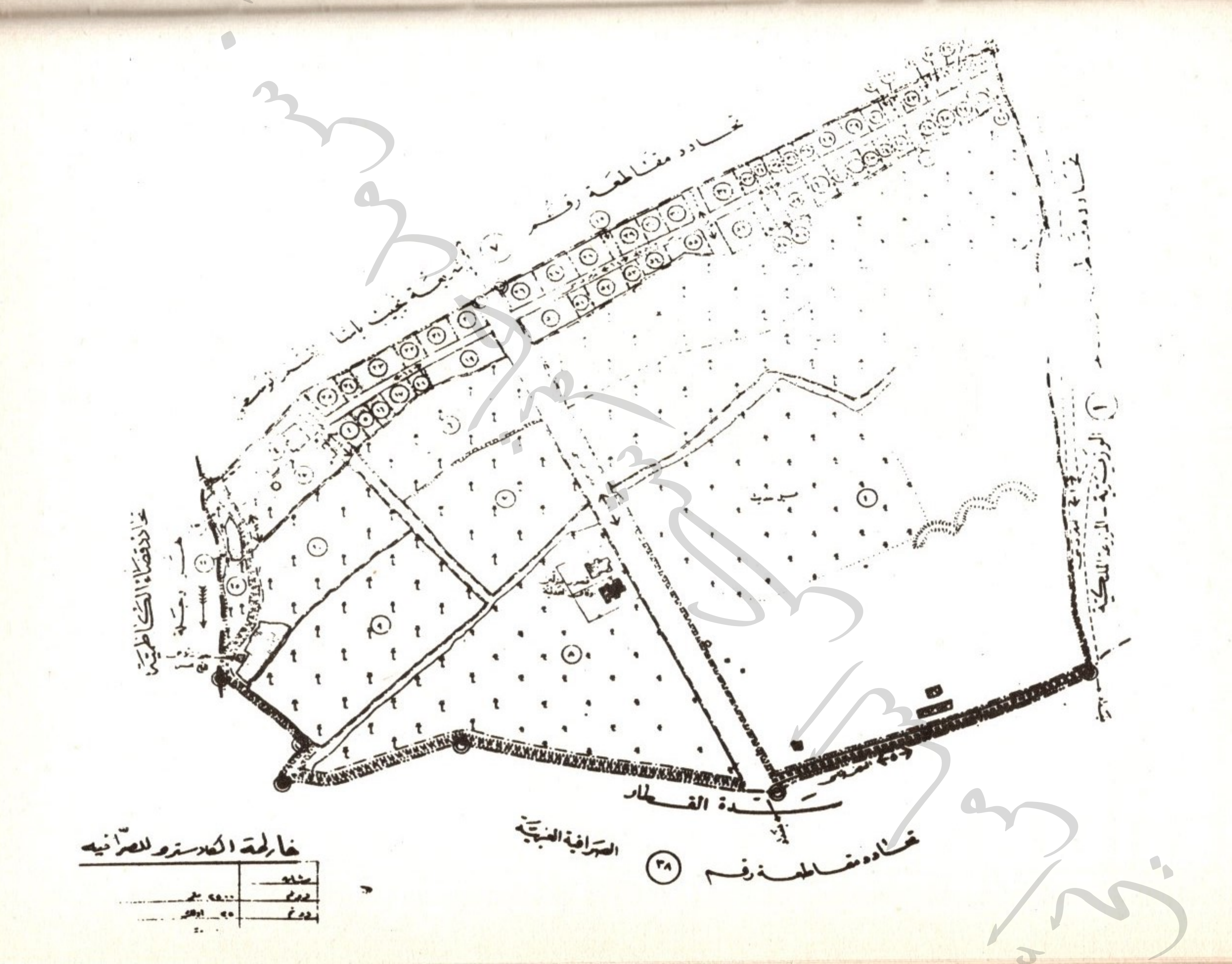
التصوير الوحيد لعبدالقادر المميز، مع كريمته رافدة المميز



خارطة بغداد التي وضعها رشيد الخوجه سنة ١٩٠٨ وورد فيها اسم (صرافية نهري)
الذي كان يعبر بذات الصرافة (الوزيرية الحالية) أثناء مواسم الفيضان



① الوزيرية – المزرعة الملكية


حدود قضاء الكاظمية
دجلة
مقاطعة رقم ٣٨
الصرافية
سدة القطار
الوزيرية - المزرعة الملكية

ما كادت تمرّ بضع سنوات على توزيع أراضي الوزيرية على الوزراء والمحسوبين والمنسوبين، حتى بدأ الشؤم ينشب أظفاره بالموهوب لهم، فصاروا يتساقطون تساقط أوراق الخريف واحداً تلو الآخر(*)، (اللهم اشهد أن لا شماتة مني بهم). ولم يقف الشؤم عند ذلك الحد بل بقي ملازماً للوزيرية حتى يومنا هذا، إذ ابتليت ببلاءين (تبعهما بلاء ثالث بعد حين) وهما بلاء البعوض الذي ينغص حياة سكنة الوزيرية ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاء، وبلاء حشرة الأرضة التي استشرت في كل بيت من بيوتها، فنخرت أخشابها وعبثت بأثاثها، وتبعتهما في الأربعينات حشرة (الهبهابة) التي لا تقل لسعاتها ألماً وسماً من لسعات العقارب وجرار مندلي.

أنا لست من الذين يؤمنون بالخرافات والخزعبلات والترهات والبدع، ولكني أؤمن بعدالة الله سبحانه وتعالىٰ الذي يمهل ولا يهمل.

ما كادت تمر عشرون سنة على حوبة الوقف جراء اغتصاب الوزيرية حتى أنشبت الحوبة أظفارها ثانية عندما تعرض الوقف من أساسه الى الفناء، نتيجة لأصدار التشريع المسمىٰ (مرسوم جواز تصفية الوقف الذري رقم ١ لسنة ١٩٥٥)، وسأتكلم بعد قليل عن ظروف تشريعه ومصير أولئك الذين كانوا وراء ذلك التشريع الظالم.

* * *

بمناسبة ذكر احمد باشا في الفصل السابق وموقفه من العجم أورد التفاصيل التالية للحقيقة والتاريخ:

في سنة ١٩٣٤ سافرت مع عبدالقادر المميز الى مندلي لتفقد بساتين وقف عادلة خاتون هناك. وللوقف بستانان في مندلي هما بستان صاري أحمد وبستان باغياره وكانا من أشهر وأعمر وأينع البساتين ليس في مندلي وحسب بل في كافة أنحاء العراق، إذ المعروف ان تربة أراضي مندلي هي أخصب تربة في وادي الرافدين، وكان أحد الاجداد قد استبدلها بالمقاطعة المعروفة عندنا بالمتوليات وهي المقابلة لبستان الصرافية في جانب الكرخ، والتي تعرف الآن بالعطيفية، والتي كانت (زوراً) تعوي فيه الذئاب والواوية وليس فيها ما يستفاد منه سوى النخيل. وقد اشتهر بستانا صاري احمد وباغياره في حينه بجودة اثمارهما كالبرتقال والنومي الحلو والنومي الحامض ويوسف افندي (لالنگي) والطرنج (الكبّاد) والرارنج والمسكي والسندي من فصيلة الحمضيات(**) وبالرمان والتفاح والمشمش وبالتمور النادرة مثل أزرگ الأزرگ والقرنفلي والبيدراية وغيرها. وأتذكر اننا كنا نستلم (عناقيد) من الحمضيات كمراطلة سنوية (وتسمىٰ في لواء ديالىٰ طليعه)، وهذه العناقيد هي عبارة عن (عثوك) تشبه عثوك الموز الصومالي مصفوفة ومرتبة على شكل حلقات ملفوفة حول (باكورة)، كل حلقة تضم نوعاً من الفواكه الحمضية. وكنا قد ضمّنا هذين البستانين سنة ١٩١٨ بمبلغ ٣٥٠ ليرة ذهبية سنوياً وهو مبلغ طائل بالنسبة لأسعار ذلك الوقت. غير انه في سنة ١٩٣٣ وبعد ان قطعت ايران المياه عن مندلي بلغ الضمان السنوي ثلاثة دنانير فقط، نعم، ثلاثة دنانير فقط، إذ لم يبق من تلك البساتين اليانعة سوى النخيل الهزيلة، ويصعب العثور على من يضمنها بأي مبلغ كان. وفي سنة ١٩٧٥ أجرينا تصفية

(*) أن الذي أشرف على اغتصاب أراضي الوزيرية وأصابته حصة كبرى منها قد لاحقته (حوبة الوقف) وصرعته وهو في مقامه الرسمي بوزارة المالية في شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٠.

(**) لم يكن الـ (گريب فروت) معروفا في العراق وقتئذٍ.

البستانين المذكورين بالمزايدة العلنية فأحيلت بستان صاري احمد التي تبلغ مساحتها حوالي عشرة دونمات بمبلغ الف دينار فقط، وبستان باغياره التي تبلغ مساحتها حوالي خمسة عشر دونماً بمبلغ الف وخمسمائة دينار فقط. هذا مثل واحد لما عانته بساتين مندلي التي تعد بالعشرات وقراها التي تزيد على ثمانين قرية بعد قطع المياه التي تنبع من الجانب الايراني وحرمان مندلي ليس من مياه الري وحسب، بل حرمتها حتى من مياه الشرب وخاصة في فصل الصيف، فكان الجانب الايراني يبني السدود (ويسكر) المياه المنسابة الى مندلي وخاصة نهر (كنكير) الذي تعتمد بساتينها على مياهه والذي ينبع من جبال سومار في الاراضي الايرانية والذي شيدت الجارة؟! ايران سداً عليه لأرواء المزارع التي اغتصبها رضا خان الفهلوي من أصحابها الشرعيين، مع انه لا يحتاج الى كل تلك المياه لأغراضه الزراعية، فلا يصل الى الجانب العراقي من المياه إلا ما يطفح فوق السدود و (السكور) في مواسم الامطار، ولا يكاد يصل الى البساتين والمزارع، ولا يصل اليها في موسم الصيف اطلاقاً، فهلكت وهاجر المندلاويون من بلدتهم ومزارعهم وأصبحوا شذر مذر في أرجاء العراق وكثيراً ما كانوا يرددون المثل البغدادي القائل: (كوم حجار ولا هالجار).

وعند وصولنا الى مندلي استضافنا عزالدين النقيب نائب مندلي ونقيب أشرافها، وكان كريماً مضيافاً وظريفاً يميل الى المزاح مع عبدالقادر المميز، وقال ونحن على مائدة الغذاء:

- لو چان أهالي مندلي يعرفون انتو هنانه، لكان هجموا عليكم وشربوا دمكم.

فأجابه عبدالقادر:

- ليش يابه، بيش يطلبونا، احنا شمسويلهم حتى يشربون دمنا؟ فردّ مضيفنا ابو عدنان:

- شتسوون بعد، مو جدكم احمد پاشا هو الذي فهرجيوش العجم، ودمر بلادهم،وكسّر خشومهم وحرگ گلوبهم واحتل كرمنشاه حتى وصل الى همدان. واليوم الايرانيون دينتقمون من أهل مندلي جزاء ما فعله بيهم أحمد پاشا، فقطعوا المياه عن مندلي وموتوا بساتينها وأفقروا اهاليها بحيث صار الملاك منهم يشتغل كعامل بأجرة يومية قدرها خمسين فلساً ليكسب قوت يومه، وحُرموا حتى من ماء الشرب، فتفشت فيهم الامراض واستفحل (جَرّار مندلي) وأخذ يفتك بأطفالهم. أليس من حقهم ان يشربوا دمكم يا أبو حمد؟.

وعندما يصفي صدام حسين الحساب مع إيران وتنساب مياه نهر گنگير الحبيسة ستعود مندلي الى سابق عهدها الزاهر، إن شاء الله، وتزود العراق بالرمان والحمضيات وأزرك الأزرك وسائر أنواع الفواكه والتمور، وما ذلك اليوم ببعيد عن المندلاويين والمندلاويات.

ان ما يصدق على مندلي يصدق على خانقين وترصاق وزرباطية وبدره وجصان وغيرها من عشرات القصبات الحدودية والقرى والمدن العراقية التي تتوقف حياتها على الانهار التي تنساب من الأراضي الايرانية نحو الاراضي العراقية والتي ضمنت القوانين الدولية والاتفاقيات المعقودة بين الدولة العثمانية وايران حقوق استعمال الطرفين لتلك المياه التي اغتصبتها ايران خلافاً لتلك القوانين والأتفاقيات. غير ان الامر هو أبعد من ذلك بكثير. انه الحقد والانتقام والكراهية التاريخية الدفينة بين الفرس والعرب.

كنت قد قرأت مقالاً في الأشهر الاولى من الحرب لمراسل بريطاني نشره في جريدة (الگارديان) التي تصدر في لندن، وكان المراسل قد عاد لتوه من زيارة القاطع الأوسط للجبهة، فكتب يقول:

«زرت الجبهة بترتيب خاص جرى لي من قبل قيادة الميدان ورافقني ضابط ركن يتكلم الانكليزية بطلاقة، وقد بهرني أمران اثناء تلك الزيارة، الامر الاول اني سافرت على طريق ترابي غير مبلط، وعدت بعد ثلاثة أيام على نفس الطريق وهو مبلط أحسن تبليط. اما الامر الثاني فما أزال محتاراً في تعليله. لقد نسف الجيش العراقي سداً كان مقاماً على أحد الانهر التي تنبع في ايران، فأخذت المياه تسيل في ذلك النهر (وربما يقصد نهر كنجام جم) (والكلال) لأول مرة منذ عشرات السنين، ولكنني عندما دققت حالة الارض من وراء ذلك السد ولمسافات بعيدة داخل الأراضي الايرانية لم أشاهد في تلك الاراضي اي أثر للاشجار، او لأي نوع من الزراعة، فصرت أحتار في تعليل سبب بناء ايران لذلك السدّ على ذلك النهر، مع انهم لا يستفيدون من مياهه لأي غرض كان!؟

ان التعليل يجب ان يصدر عن اولئك الذين يلومون العراق على استعادة حقوقه المشروعة في مياهه وأعادة الحياة لأرضه وصد العدوان عن شعبه، بقوة السلاح، بعد ان استنفد كافة الوسائل السلمية؟ ان كل ذي ضمير حي ووجدان منصف يجب ان لا يلوم صدام حسين ان هو عمل على إزالة ما لحق ببلاده وبشعبه من ظلم واجحاف وابتزاز وحرمان وعدوان اقترفته الجاره؟! ايران بحق العراق. ان السبب الحقيقي الذي يكمن وراء كل ذلك هو الحقد التاريخي المتأصل في نفوس الجانب الآخر منذ القادسية الاولى.

واليوم وبعد أقل من ثلاثة قرون يعيد التاريخ نفسه فينبري المسلم المؤمن صدام حسين لأتباع نادر قلي الأفشاري ويتصدى في القادسية الثانية، لأطماعهم ويفضح نواياهم التوسعية ويصدّ عدوانهم ويبيد أرتالهم ويدمر سلاحهم ويلجم عنجهياتهم ويرد كيدهم الى نحورهم ويمرّغ جباههم في الأوحال، فيعيد الى أذهان البغداديين ما قاله ذلك المسلم المؤمن أحمد باشا لمعاونيه، عندما طلب منه المجوسي المتغطرس نادر شاه تسليم بغداد، بعد الحصار الاول الذي دام سبعة شهور، اكتبوا له: (*) «لو قطعت ارباً ارباً لا أسلم له حجراً من بغداد»، فحال أحمد باشا بينه وبين ما فعله سلفه السيئ الصيت شاه اسماعيل الصفوي عندما اجتاح بغداد وفتك بأهلها فقتل الألاف من علمائها واعلامها وأعيانها، وسبى نساءها ودنّس حرمة مساجدها، وجعل من مراقدها المقدسة اصطبلات لحيوانات جيشه الباغي (**).

* * * * *

وبعد:

لم يكن عز الدين النقيب مجانباً الحقيقة والصواب عندما قال (احمد باشا هو الذي دحر جيوشهم ودمر بلادهم وكسر خشومهم وحرگ گلوبهم واحتل بلادهم حتى وصل الى كرمنشاه وهمدان)، ولا كان عبدالقادر المميز متبجحاً او متفاخراً او متباهياً عندما قال لرجال البلاط الملكي اثناء المقابلة حول اغتصاب اراضي الوزيرية، ان احمد باشا هو ذلك الرجل الذي أنقذ العراق من العجم، ولولاه لكان العراق الآن جزءاً من ايران، ولست أنا كابن عمي متبجحا ولا متفاخراً ولا متباهياً بأنتسابي لذلك الرجل لأقول عنه ان له ولأبيه حسن باشا الفضل الاكبر في إنكفاء جيوشهم الى اعماق بلادهم، وكف شرهم وكسر انوفهم وتقويض امبراطورية نادر

قلي الافشاري ، المجوسي ، الزراداشتي ، المانوي ، المزدكي ، البابكي ، الخرمي ، القرمطي ، الشعوبي ، العنصري ، وكل ما تمثلها ايران من حثالات العقائد الفارسية ، والذي عاث في العراق فساداً وخراباً ، من الموصل وأربيل وكركوك وشهرزور شمالاً حتى البصرة جنوباً ، وحاصر بغداد ثلاث مرات وأذاق أهلها الأمرين حتى صارت حرائرها تباع بأرغفة الشعير ، وتنهش لحوم الاشلاء النتنة والفطائس المتعفنة ، ولا يدخل أجوافهن غير الماء وما يعلسونه من يانع الخوص ، وكل ما لا يغني جوعاً ولا يسد رمقاً ولا يحول دون سغب أو وصب أو نصب ، حتى ان بعض الناس في بغداد صاروا يفضلون اصطياد الكلاب والسنانير وأكلها ، على ان يستسلموا للغزاة العتاة الطغاة أتباع زارادشت وأحفاد كسرى ورستم ، الذين تمرغت جباههم في القادسية الأولى .

(*) قضى أحمد باشا معظم حياته بين القبائل والعشائر العربية وعايشهم طفلاً وكهلاً وشيخاً وتطبّع بطبائعهم وشب على عاداتهم وتمسك بتقاليدهم واكتسب سجاياهم ، وتزوج من احدى بنات أمرائهم ، فكادت شخصيته تكون بدوية بحتة من كافة النواحي .

(**) كان المرحوم أخي عبدالستار، متولي أوقاف عادلة خاتون ، قد أستحصل على نسخة مصوّرة من الجزء الثاني من مخطوطة كتاب (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) تأليف ابو الخير الشيخ عبدالرحمن السويدي من مكتبة المتحف البريطاني في لندن ، وربما كانت النسخة المصورة الأولى التي وصلت بغداد ، وفيها وصف أخاذ لشاهد عيان عن حصار بغداد لمرتين متعاقبتين من قبل شاه العجم نادر قلي الأفشاري ، وموقف أحمد باشا والد عادلة خاتون من غزو الجيوش الأيرانية للعراق وطمعها في أحتلال بغداد. وقد قام الأستاذ محمد بهجة الأثري بتحقيق النسخة الموجودة في مكتبة المجمع العلمي العراقي تحقيقاً علمياً في كتاب نشره المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨١ بعنوان (ذرائع العصبيّات العنصريّة في أثارة الحروب ، وحملات نادر شاه على العراق في رواية شاهد عيان) .

وسبق للدكتور صفاء خلوصي أن حقق الجزء الاول من كتاب (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) الباحث عن سيرة حسن باشا والد أحمد باشا وجد عادلة خاتون ، المشهور تاريخياً بفاتح همدان ، في كتاب نشره في بغداد سنة ١٩٦٢ ، معتمداً كذلك على نسخة مكتبة المتحف البريطاني ، وبصدور هذين التحقيقين يكون كتاب حديقة الزوراء قد بلغ حد الكمال في التحقيق العلمي عن سيرة حسن باشا ، وولده أحمد باشا وأبنته عادلة خاتون وزوجها سليمان باشا ابو ليلة ، الذين تولوا الحكم في العراق لحقبة دامت أكثر من قرن وربع القرن كان العراق فيها شبه مستقل عن السلطنة العثمانية ، ووقفوا تجاه الاطماع الأيرانية للأستيلاء على العراق في حروب استمرت طيلة تلك الحقبة .



كتاب

حروب الايرانيين في العراق

تأليف : سليمان فائق

تعريب : محمد خلوصي بن محمد سعيد الناصري التكريتي

إعداد : عبدالجبار العمر

نشر : "آفاق عربية" عدد ٢ - ٤ لسنة ١٩٨٠

احمد باشا



على جانبي الدهليز الذي يصل الجزء الجنوبي من مصلى الجامع الكبير في الاعظمية بضريح الامام ابي حنيفة وهو ذات المكان الذي اعتاد سادن الجامع المذكور الوقوف فيه كل آخر جمعة من شهر رمضان ليتيح للمصلين كان بعض آثار النبوة الشريفة (شعرات النبي صلى الله عليه وسلم) يقوم قبران وهما اشبه بدكتين داخل جداري الممر المتقابلين ، احدهما لحسن باشا بن مصطفى بك السباهي والآخر لولده احمد باشا وقد نقل القبران قبل عقدين او ثلاثة عقود ـ لا اذكر بالضبط ـ الى مقبرة الخندق وهذه المقبرة اتخذت شكل المثلث تشكل جدران بناية كلية الامام الاعظم القديمة احد اضلاعه ، وتمثل جدران الجامع التي يلتقي طرفها بجدران الكلية ضلعه الثاني ، اما الضلع الثالث فكان بمثابة جدار يفصل المقبرة المذكورة عن المقبرة العامة في الاعظمية .

وقد ادركنا مقبرة الخندق هذه ورخامات شواهد قبور صفحات دقيقة لتاريخ الكثير من ولاة بغداد وقادة جيوشها ومدبري شؤونها في العهد العثماني .

والحقيقة ان الذي يعرف بلاء هذين الرجلين في سبيل كرامة العراق لا يستكثر على قبريهما مجاورة قبر الامام ابي حنيفة رحمه الله ويستهجن نقل رفاتهما في اي وقت من الاوقات .

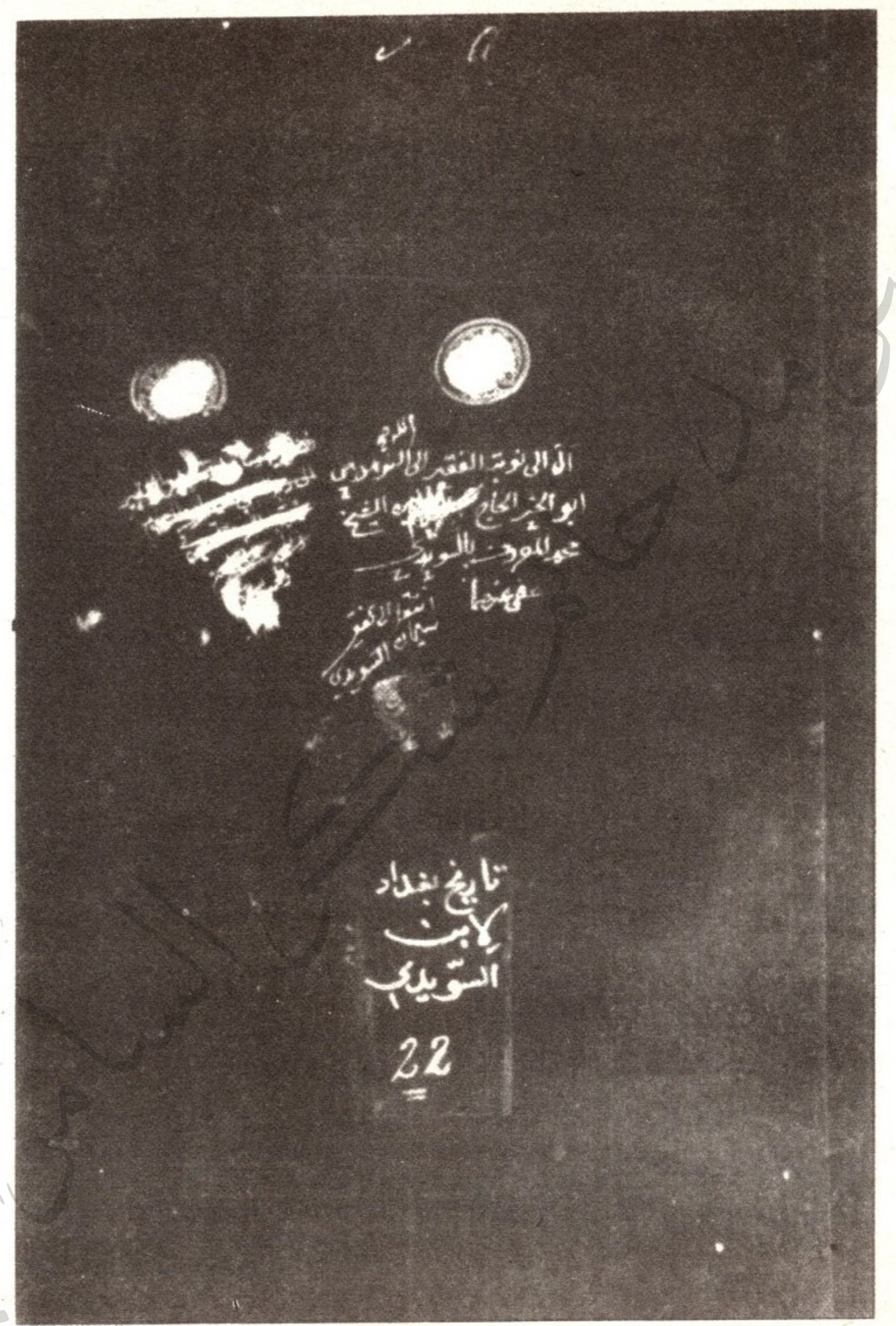
ومع ذلك ، فما زال اسم حسن باشا متداولا في بغداد الى يوم الناس هذا وهو مقترن باسم محلة (جديد حسن باشا) التي كانت



الباشا وحاشيته

أحمد پاشا، تحيط به حاشيته التي استولى عليها الرعب عندما هاجمهم الأسد في عگرگوف ، ولم يبق الى جانب أحمد پاشا سوى (سليمان) الشاب الگرجي الذي كان حسن پاشا والد أحمد پاشا قد رباه ودربه على الفروسية وصيد الوحوش، وأسند اليه أهم المناصب وأشق المهام ووكل اليه قيادة الحملات لقمع عصيان العشائر الثائرة على الحكم. وقد أظهر سليمان هذا كثيراً من الشجاعة والرجولة والجرأة عندما هرع لنجدة سيده وهو ينازل الأسد، إذ بادر الأسد بطعنة نجلاء خر على أثرها صريعاً يتخبط بدمه. وقد وقع ذلك الموقف الشجاع موقعاً حسناً في قلب أحمد پاشا. فزوجه من ابنته الكبرى (عادلة خاتون). وبعد وفاة أحمد پاشا تولى سليمان هذا ولاية بغداد، واشتهر بغدادياً بـ (سليمان پاشا أبو ليله)لمباغتته العصاة بحملات عسكرية في الليالي -وهو غير الوالي سليمان پاشا الكبير- وبقي والياً على بغداد ابان عهد المماليك مدة اثنتي عشرةسنة كما تقدم بيانه في أول الكتاب.

[الصورة منقولة من كتاب «رحلة نيبور الى بغداد في القرن الثامن عشر» ترجمه عن الألمانية سعاد هادي العمري ، وطبعت الترجمة في بغداد عام ١٩٥٤]



صورة غلاف المخطوطة المحفوظة لديّ من كتاب «حديقة الزوراء في سيرة الوزراء» للشيخ عبدالرحمن السويدي ، التي آلت الى أبو الخير الحاج محمد السويدي ، مختومة بختم سليمان السويدي ، وهي محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني في لندن



بسم الله الرحمن الرحيم

إن أحسن ما تحلى به عرائس الطروس ● وأشهى ما
ترتاح إليه نفائس النفوس ● وأجمل [illegible] به صولة
الدهر ● وأكمل ما تحلى به مرآة الفكر حمد من
أحسن كل شيء خلقه ● وبدأ خلق الإنسان من طين
فأتم ماهيته وحققه ● على أتقن شكل وأحكم تكوين
فسطح له الغبراء على تيار الماء ● ومد عليه رواق
الخضراء ● فوق محدب الهواء ● فكثر نوعه في الأوطان
وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار ● حتى كثر
الكدر في أمور المعاش ● وظهر الخصام بينهم بالإنكار

الصفحة الأولى من مخطوطة كتاب «حديقة الزوراء في سيرة الوزراء» للشيخ عبدالرحمن السويدي، أنشرها هنا كشهادة تاريخية لشاهد عيان، تثبت حقيقة معدن البغداديين والبغداديات وصمودهم سبعة شهور، صمود جبل عسيب في بادية نجد، بوجه جيوش نادر شاه الغازية، والذي وجه لأحمد پاشا رسالة تفوح منها عنجهية العجم، يقول فيها : «نحن قادمون الى بغداد على رأس جيشنا المظفر، لنستنشق النسيم العليل من سهولها، ولنستريح في ظلال جدرانها» وجواباً على انذار نادر شاه لتسليم بغداد المحاصرة، قال أحمد پاشا لمعاونيه : «اكتبوا له بأني لو قطعت أرباً ارباً لا أسلمه حجراً من بغداد». لقد انفك الحصار عن بغداد نتيجة لذلك الصمود الرائع، وانكفأت جيوش نادر شاه المندحرة الى عمق بلاد فارس تطاردها جيوش العراق المنتصرة.

ان الاغتصاب والظلم والشؤم الذي حل بالوزيرية قد ألّم بأختٍ لها - من قبل - في الجانب الآخر من بغداد، تلك الأخت المغتصبة المظلومة هي مقاطعة الحارثية.

لما تأسست الدولة العراقية سنة ١٩٢١ ووضع وزير ماليتها ساسون حسقيل ميزانيتها الأولى وكانت يومئذٍ ترصد بألكاك الروبيات، وليس بآلاف الملايين من الدنانير كما هي عليه اليوم(*). كان يتصدر ميزانية الدولة فصل خاص بعنوان (المخصصات الملكية). غير أن تلك المخصصات لم تكن كافية لملافاة التزامات الملك فيصل الأول، أذ كانت عليه التزامات تتعدى حدود واجباته والتزاماته كملك للعراق. فقد كانت عليه التزامات تجاه الحاشية التي صحبته من سورية ومن الحجاز، من خدم وحشم وعبيد والمقربين للعائلة الهاشمية وبعض اللاجئين السياسيين وأقرباء العائلة المالكة كأخيه الملك علي وعائلته وأخته الأميرة صالحة وحاشيته كالشريف شرف وعدد من الأشراف وعبدالله المضايفي ويوسف الفضل العلوي، وكثيرون غيرهم لا تحضرني أسماؤهم. كما كان يمد يد المساعدة لكثير من الجمعيات والمؤسسات الخيرية ولطالبي العون والاحسان من عراقيين وعرب. غير أن أهم التزاماته كانت تجاه والده الملك حسين المنفي في قبرص والذي كان عليه أن يمده بالمساعدة المالية لتقويم أوده في المنفى.(**) تلك الالتزامات قد حملت الملك فيصل ومستشاريه على التفكير في إيجاد موارد مالية ثابتة لملافاة تلك الالتزامات وتخفيف الديون المثقل بها للبنك العثماني، فأشاروا عليه بأيجاد تلك الموارد عن طريق مزاولة الزراعة، وكانت أولى مزارعه مزرعة (الدليفان).

لقد تطرقنا عند الكلام عن الوزيرية الى مزرعة (الدليفان) التي تأسست في الأراضي المجاورة للبلاط العائدة للوقف الذي تحت تولية السيد أحمد قنبور، والتي كانت تستغل باديء الأمر لزراعة (الجت) كعلف لأبقار «الدليفان» ثم توسعت مساحة الأراضي المزروعة الى مسافات بعيدة عن (الدليفان)، فنصبت لها مضخات كبيرة الى جوار «قصر شعشوع»

(*) لك روبية يساوي مائة الف روبية والدينار يساوي ثلاثة عشر روبية وكانت الميزانية لا تتجاوز يومئذٍ ما يعادل ثلاثة ملايين دينار. أما في الوقت الحاضر فان أرقام الميزانية تكاد تكون خيالية، فأن ما أرصد للمنهاج الاستثماري السنوي لسنة ١٩٨٣ يبلغ خمسة مليارات و٣٥٠ مليون دينار، وما أرصد للميزانية العامة للدولة يبلغ سبعة مليارات و٩٤٠ مليون دينار.

(**) وبصدد التزامات الملك فيصل الأول تجاه والده الملك حسين، أورد الحقيقة التالية نقلاً عن نجله الأمير زيد، وقد سبق أن أشرت الى علاقتي به وعملي بمعيته فترة غير قصيرة:
كان الملك فيصل يرسل حوالات شهرية الى والده، وبالنظر للظروف الاقتصادية التي أستجدت سنة ١٩٣١ فقد تأخرت الحوالات عن مواعيدها، وكانت عائلة الملك حسين تتموّن من مخزن يعود الى أحد القبارصة اليونانيين، وقد تراكم مبلغ كبير من المال على الملك حسين. وعلى رغم مطالبات صاحب المخزن لم يستطع وفاء الدين بمواعيده بسبب تأخر الحوالات، فأشتكى صاحب المخزن الى حاكم قبرص وكان يومئذٍ السر رونالد ستورز، الذي استدعى الملك حسين الى مكتبه بصحبة الأمير زيد، وأسمعه كلاماً شديداً لعدم تسديد الدين لصاحب المخزن، فما كان من الملك حسين، وهو شريف مكة، وملك الحجاز، وأبو الملوك، والشخص الذي لم يرضخ لجبروت بريطانيا رغم كل الضغوط والمغريات، إلّا أن خلع الخنجر من محزمه ووضعه على مكتب الحاكم وقال له، كما روى لي ذلك الأمير زيد: «أترك هذا الخنجر رهينة لقاء الدين». والخنجر عند أهل الحجاز وأهل اليمن وغيرهم من أسياد العرب هو رمز شرفهم وكبريائهم ولا يعادل بثمن. فماذا كان جواب حاكم قبرص؟ لقد دفع الخنجر بطرف قلمه، بكل استخفاف وقال للملك حسين: «هذا لا يساوي مبلغ الدين».

[كورنيش الأعظمية] فشملت الزراعة المزروعات الأخرى كالحنطة والشعير والذرة وغيرها والتي صارت تدر على الخزينة الخاصة واردات مجزية الأمر الذي حملها على التوسع في مجال الزراعة والبحث عن أراضٍ أخرى قريبة من بغداد. وهنا يأتي دور مزرعة الحارثية.

تقع أراضي الحارثية في جانب الكرخ في المنطقة المحصورة بين محطة قطار البصرة والى ما وراء نهر الوشاش ونهر الخِرّ، وتشمل الاراضي الواقعة على طرفي الطريق المؤدي الى جسر الخرّ لمسافات بعيدة، وهي أراضٍ زراعية مشهورة بخصوبتها وقربها من مركز بغداد.

المعروف في بغداد يومئذ ان لحمدي بابان حقوقاً على هذه الاراضي اكتسبها منذ العهد العثماني، وفق مستمسكات صادرة من الدولة العثمانية. وقد اعترفت البيانات والتشريعات التي قامت على أساسها الدولة العراقية الحديثة بكل المعاهدات والاتفاقات والقوانين والمستمسكات التي كانت مرعية في العهد العثماني، وكان حمدي بابان أحد الذين في حوزتهم مستمسكات صادرة في ذلك العهد تتعلق بأراضي الحارثية.

عندما تألفت الحكومة المؤقتة ـ قبل تنصيب الملك فيصل الأول ـ برئاسة السيد عبدالرحمن النقيب سنة ١٩٢٠ أختير حمدي بابان لتمثيل الاكراد كوزير دولة في تلك الحكومة. ولا غرو فقد كان أهم شخصية كردية معروفة يومئذ فهو ابن محمد پاشا بابان حامل لقب (الخديوي) وهو أعلى لقب يمنحه السلطان العثماني لأحد رعاياه وسليل الأمراء البابانيين الذين ينحدرون من الشيخ (أحمد الفقيه) كما يذكر «لونگريك»، غير ان حمدي بابان قد أستنكف عن قبول ذلك المنصب الثانوي فلم يباشره.

ولما تم تنصيب الملك فيصل الاول ملكاً على العراق سنة ١٩٢١ وتألفت اول حكومة وطنية برئاسة النقيب ايضاً، أستبعد حمدي بابان عن الحكم الوطني، وقيل ان الانكليز هم الذين استبعدوه لعدم مسايرته لسياستهم، فانصرف الى شؤونه الخاصة وأهمها متابعة أستغلال أراضي الحارثية.

ولنعد الى ما كنّا فيه، فلقد أثيرت تلك القضية في المحاكم ودوائر الدولة الاخرى، فاستقر الرأي على تعويض حمدي بابان عن الحارثية بمبلغ «٣٥٠» الف روبية مع ان قيمتها الحقيقية تتجاوز ملايين الروبيات، غير انه رفض ذلك التعويض، فلم تلتفت السلطات الى

لقد كانت تلك اللحظة هي القاضية، إذ أصيب الملك حسين بصدمة عنيفة هزته من أعماقه، وهو شيخ طاعن في السن يعاني من عدة أمراض. فعاد الى بيته مكلوم الفؤاد ليفارق الحياة في صيف سنة ١٩٣١. بعد فترة وجيزة من تلك المقابلة، ويدفن في باحة الحرم القدسي الشريف.

ان الثلاثة أمتار التي رقد فيها الملك حسين هي كل مابقي لديه لقاء تمسكه بعروبة فلسطين، والوقوف بوجه بريطانيا وجبروتها والصهيونية العالمية ومكايدها!!

وقد رثاه معروف الرصافي بقصيدة يقول فيها:

بدا وجه العروبة في حلوك	غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضى متنازلاً بعد اعتلاءٍ	كذلك الشمس تجنح للدلوك
وأحدث نهضة في العرب هزت	جنوب الأرض كالريح السهوك



حمدي بابان ، أغْتُصِبَتْ منه أراضي الحارثية فهجّ من العراق ، ولسان حاله يقول :

إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع　　　　لمن أشتكي حالي لمن أتوجع

ذلك فأودع التعويض في الخزينة أمانة ، وبعد مضي المدة القانونية على عدم استلامه صودر المبلغ لحساب خزينة الدولة وصارت الخزينة الخاصة تتصرف بالاراضي ، فنصبت المضخات وشقت الجداول والشاخات لأروائها وشيدت فيها قصر خصص لأستقبال ضيوف الملك وزواره ، أشتهر بقصر الحارثية الذي كانت تبث فيه أذاعات الملك غازي قبل نصب المرسلات في قصر الزهور من قبل المهندس طالب رفعت ، وعين لأدارة المزرعة مدير أشتهر بين المزارعين والبغداديين بقسوته وشراسته ، وقصة مقتل الارمني الذي كان مستخدماً هو وزوجته في البلاط الملكي وكيفية (طمطمة) الجريمة معروفة لدى قدامى البغداديين.

لقد وجد حمدي بابان في هذا الاغتصاب لحقوقه المكتسبة في الحارثية ظلماً وعدواناً عليه ، ولكن لسان حاله كان يقول:

اذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع　　　　لمن أشتكي حالي لمن أتوجع

لقد سلك كافة الطرق القانونية لتأييد حقه في الحارثية، وأنفق كل ثروته في سبيل ذلك، غير انه لم يفلح، وأنى له ان يفلح في مقارعة ومقاومة الدولة بكل مؤسساتها، وقيل يومئذ انه كان يفكر في الالتجاء الى محكمة العدل الدولية. ولما باءت كل جهوده وتشبثاته بالفشل (هجّ) من العراق وسكن لندن ومات فيها.

أجل لقد عاف حمدي بابان كل شيْ وهجر العراق وما فيه، ولم يعد يتقبل حتى سماع اسم العراق او الاتصال بأي عراقي. ففي سفرتي الاولى الى لندن سنة ١٩٣٦ كلفني جلال بابان ان أتحرى عن عنوان حمدي بابان وأقف على أحواله المعيشية وأكتب له بذلك. فاتصلت بوزارة الخارجية البريطانية اسألها عن عنوانه، فكتبت الخارجية تقول ان التعليمات التي لديها من حمدي بابان تفيد ضرورة معرفة هوية السائل قبل اعطاء العنوان، ولما أخبرتها بأن السائل هو ابن عمه الوزير جلال بابان، لم أتلق جواباً من وزارة الخارجية البريطانية، فكتبت الى قريبه بالكيفية.

لقد توفي حمدي بابان في لندن سنة ١٩٥٤ معدماً، غريباً عن بلاده ووطنه وقد تكفّلت بلدية لندن بدفنه. وقد وصفه أحد الذين شاهدوه في آخريات ايامه بأنه هيكل عظمي ليس عليه «الاّ بطن مكورة» ويعاني من عدة أمراض، وهو «ابن نعمة» عاش عيشة مترفة ومرفهة في بلاده، وكان اول من أدخل السيارة الى بغداد، وقبل وصول سيارة الوالي خليل پاشا.

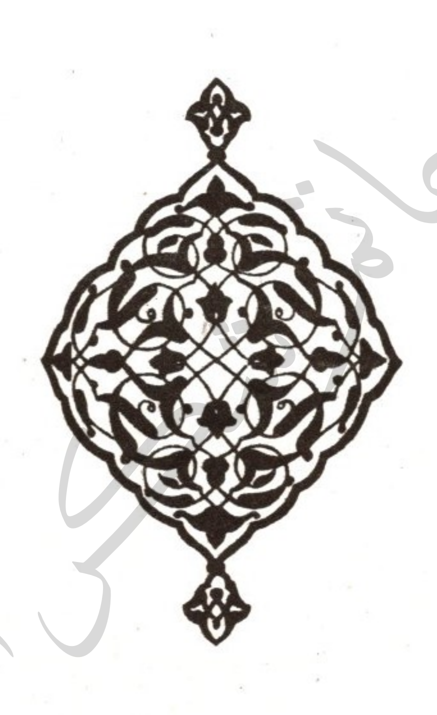
بعد تشكيل لجان التسوية في أواخر العشرينات وصدور قانون التسوية في أوائل الثلاثينات، سجلت أراضي الحارثية في الطابو باسم نظارة الخزينة الخاصة ملكاً صرفاً، ثم توارثها الورثة الشرعيون خلفاً عن سلف، غير أنها آلت بالنتيجة الى بيت المال!!

تلك هي قصة أراضي الحارثية وهي تشبه قصة أراضي الوزيرية التي كان وقف عادلة خاتون أحد أطرافها، ولكن الظلم لايدوم، وان دام دمّر. فكانت نتيجة أراضي الحارثية ومصير قصر الزهور وقصر الحارثية وقصر الرحاب وقصر الاميرة راجحة زوجة الضابط الطيار عبدالجبار محمود، شبيهة بنتيجة ومصير أصحاب القصور التي شيدت على أرض الوزيرية المغتصبة، التي سبق ان قلت عنها: ان الله يمهل ولا يهمل!! ويشهد الله بأني باستذكاري موضوع الحارثية لا أروم محاباة أحد او التجنيّ على أحد أو التشفي بأحد، وانما أروم قول الحق ليس إلاّ، يحدوني بذلك قول الحكيم الأغريقي أرسطو: «إذا اختصم الحق مع أخي فأنا مع الحق.»

* * *

واستكمالاً للبحث عن المزارع الملكية، أود ان أقول كلمة عن مزرعة ثالثة، ولو أن موضوعها يختلف قليلاً عن موضوع الوزيرية والحارثية. تلك هي مزرعة خانقين المعروفة بمزرعة «علياوه». كانت هذه المزرعة تعود الى كوخه كردي أظن اسمه جلال ورثها عن أبيه، وقد انغمس هذا الوريث بالملذات فباع كل ما ورثه، ومن جملتها هذه المزرعة. ولما عرضت للبيع ساومه عليها قائمقام خانقين لحساب نظارة الخزينة الخاصة مساومة مجحفة وظالمة فحال دون ان يتقدم عليها أحد من الراغبين في

شرائها (فغسّله وچقّنه) واشتراها منه بثمن بخس جداً لايتناسب اطلاقاً مع موقعها وخصوبة أرضها ووفرة مياهها المتدفقة من نهر (الوند) وكثرة أشجارها المتنوعة والدار المشيدة فيها. وكان الملك فيصل الاول يقضي بعض عطلات نهاية الاسبوع فيها، وكثيراً ما كان يشاهده سكان خانقين مع سكرتيره الخاص رستم حيدر ومرافقه تحسين قدري عند وصولهم الى محطة قطار خانقين في طريقهم الى المزرعة الملكية المذكورة!!



في سنة ١٩٥٤ تبنت الوزارة القائمة يومئذ لائحة تقضي بتصفية الوقف الذري، وقد أعدت في الظلام، وبصيغة تتفق مع المصالح الشخصية لواضعيها، وخاصة اولئك الذين لهم علاقة بأحد الاوقاف الذرية، فلفلفت اللائحة وصدرت على شكل مرسوم له صفة الاستعجال حتى لا تعرض على مجلس النواب ليقول بعض من لهم وجدان وضمير حيّ رأيهم فيها. وكان يدور على الالسن يومئذ ان الذي كان وراء تلك اللائحة والمرسوم نائب رئيس الوزراء احمد مختار بابان لعلاقته بالوقف المعروف بـ (وقف حيدر) الذي من جملة أعيانه حمام حيدر وأورزدي باك القديم (سوق حيدر حالياً) الواقع في شارع المستنصر. فعقد مجلس الوزراء جلسة مستعجلة برئاسته وأقر اللائحة بتاريخ ١٧ تموز ١٩٥٥ وثم صدرت بمرسوم. وتمهيداً لعرض المرسوم على الاجتماع المقبل لمجلس النواب، فقد عرض على اللجنة الحقوقية، وكان رئيسها المحامي حسن عبدالرحمن قد أستقال قبل عرض المرسوم على اللجنة، فتولى رئاسة اللجنة النائب محمد فخري جميل فأقرته اللجنة بالاكثرية، ولم ينبر للمرسوم ويخالفه سوى



ورد في القول المأثور: «لو خُليت قلبت». فلو خلت الدنيا من أصحاب الضمائر لقلبت. فقد وقف المحامي النائب حسن عبدالرحمن موقفاً مشرفاً لمقاومة تصفية الوقف الذري، ذلك التراث الاجتماعي القيم، أثناء عرض مرسوم جواز تصفية الوقف الذري رقم ١ لسنة ١٩٥٥ على مجلس النواب واللجنة الحقوقية التي استقال من رئاستها احتجاجاً على المرسوم

اثنين من ذوي الضمائر الحية من الاعضاء هما رئيس اللجنة المستقيل المحامي حسن عبدالرحمن والعضو سامي باشعالم، فدون الاول مخالفته للمرسوم للاسباب التالية:

١ - لا يجوز معالجة أمور الاوقاف بمرسوم لأن المادة الدستورية الخاصة بأصدار المراسيم ليس فيها ما يبيح إصدار مرسوم بمثل هذه المواضيع.

٢ - وكذلك فأن تصفية الوقف اعتداء على ارادة الواقفين دون ان يكون هناك مبرر لهذا الاعتداء.

٣ - بالامكان معالجة تذمر المرتزقة من المتولين بقانون آخر تودع فيه الاوقاف المنازع عليها لجهة رسمية أمينة تديرها لحساب المرتزقة.

٤ - ان تصفية الوقف اعتداء على حقوق الاجيال القادمة من المرتزقة والجهة الخيرية التي يؤول اليها الوقف في حالة انقراض الذرية.

٥ - لقد خالف المرسوم قواعد العدالة التي سارت عليها الدول العربية الاخرى التي صفت الاوقاف الاهلية لديها وذلك من ناحية توزيع الوقف المصفى، حيث كانت القواعد التي اتبعت لدى الدول العربية (مصر وسوريا) مثلاً أقرب الى العدالة مما جاء في المرسوم.

أما العضو المخالف الثاني، فقد خالف المرسوم للسببين التاليين:

١ - إن إصدار مراسيم تتعلق بحقوق الوقف من جهة وبحقوق المواطنين المالية من جهة اخرى أمر لا يمكن ان يتفق بحال من الاحوال مع أحكام القانون الاساسي وانه مخالف للدستور كان يجب رفضه.

٢- جلب انتباهي في هذا المرسوم ان المشرع أعطى قاعدتين مختلفتين في توزيع بدلات التصفية على المستحقين قاعدة للوقف الترتيبي وقاعدة أخرى تغايرها للوقف التشريكي وهذا ايضاً عمل لا يأتلف مع الروح التي يجب ان تسود في التشريع ويناقض قاعدة (العمومية) التي يجب ان يطبق المشرّع رأيه بمقتضاها.

لقد حضر نائب رئيس الوزراء أحمد مختار بابان هذه الجلسة للرد على أقوال المخالفين للمرسوم، وهو الذي وضع الاسباب الموجبة لتشريعه. وقد عدّل المرسوم بعد تشريعه بقانونين تلافياً للنواقص التي حصلت فيه جراء الاستعجال وليطابق مصالح من لم يستفيدوا من المرسوم بصيغته الأصلية.

كنت قد أقدمت على حملة لمعارضة مرسوم تصفية الوقف الذري بكافة مراحله، لأعتقادي بأنه ظلم لَحِقَ الاموات والأحياء معاً، وليس باستطاعة الاموات ان يفعلوا شيئاً وهم في قبورهم، ومن حقهم على الأحياء ان يقوموا بما تفرضه عليهم حرمة الاموات وتحقيق إرادة الواقفين فيما اوقفوا، ولأعتقادي بأنه من حق الدولة، اية دولة، ان تشرّع من القوانين ما تشاء وما تراه صالحاً لمواطنيها، ولكن ليس من حقها ان تشرع قانوناً يمس معتقداتهم وينتهك ضمائرهم، ففي ذلك ظلم على الفرد، وافتئات على حقوق الانسان، واني أردد دائماً وأسترشد بالقول المأثور لرئيس الولايات المتحدة في مطلع القرن التاسع عشر، توماس جفرسون، القائل (لقد أقسمت على محراب الله شنَّ حرب أبدية على كل لون من ألوان الظلم على البشر) وهو نفسه القائل (خلق الله الناس متساوين في الحقوق، لا فضل

لواحد على الآخر، وخصهم بحقوق معينة غير قابلة الانتزاع). وبدافع من هذه المبادئ الانسانية والديمقراطية شننت الحرب على مرسوم تصفية الوقف الذري، لأني رأيته ضرباً من ضروب الظلم على فئة من البشر أنا واحد منها، على الرغم من ضعفي في تلك الحرب وعدم امتلاكي السلاح الذي يمكنني من كسبها. فكان كل ما أملكه من سلاح هو المجاهرة بالقول والاعراب بالكتابة، والاتصالات الشخصية بأولي الأمر، لحثهم على الكف عن التمادي بالأساءة الى الاموات وإيقاع الظلم بالأحياء. فكتبت المقالات بالصحف، وطفت المجالس والقبولات والمنتديات، وقدمت المذكرات والعرائض للمسؤولين وأستحصلت الفتاوى من رجال الدين.

من جملة اتصالاتي بالمسؤولين كانت مقابلتي لنائب رئيس الوزراء احمد مختار بابان بمكتبه الرسمي بمجلس الوزراء. وقد اعربت له عن معارضتي للمرسوم وأهبت به وبالحكومة ان يعيدوا النظر في موقفهم من تصفية الوقف الذري، فأجابني بأنه يستغرب معارضتي لتصفية الوقف مع اني، - حسبما ذكر - في مقدمة الذين يستفيدون من تصفية الوقف الذري لجسامة وقف عادلة خاتون، فبينت له بأن معارضتي للتصفية تستند الى أسباب ودوافع أدبية ومعنوية وانسانية ومبدئية ولا دخل للمادة بها، إذ إني أعتقد بأن الوقف الذري هو تراث عائلي واجتماعي يجب الاحتفاظ به. فبين بأنه لم يتصل بالحكومة أحد غيري ممن له علاقة مباشرة بالوقف الذري معارضاً للمرسوم، وقال: لو كان هناك مراجع واحد آخر غيرك لأعدنا النظر في الموضوع. فلم أحصل على نتيجة مقنعة لضميري من هذه المقابلة، لأن احمد مختار هو الذي تبنى موضوع التصفية من الأول الى الآخر.

وقبيل عرض المرسوم على مجلس النواب رفعت لرئيس المجلس المذكرة المدرجة ادناه المتضمنة وجهة نظري حول تصفية الوقف الذري، وأرسلت صورة منها الى رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكي ووزير الدولة لشؤون الأوقاف، وفيما يلي نصها الكامل:

بغداد في ١٩٥٤/١/٣٠

معالي رئيس مجلس النواب المحترم

بعد الاحترام

ينظر مجلسكم العالي بلائحة مرسوم جواز تصفية الوقف الذري وبالنظر لمساس هذا المرسوم بحق طبيعي من حقوقي التي ضمنتها لي ولكثيرين غيري من ذوي العلاقة كافة الشرائع أتقدم اليكم بهذا النداء منادياً به ضميركم وضمائر حضرات اعضاء المجلس العالي.

اني أحد ذوي العلاقة بوقف ذري ورثه الجيل الذي أنا واحد منه من أسلاف خيرين توارثوه خلفاً عن سلف لعدة قرون خلت وقد حافظ الاسلاف على هذه الامانة فأودعت الآن لجيلنا الحاضر المكلف بالمحافظة عليها لتسليمها الى الخلف كما ورثناها بل وأفضل. وقد جاء هذا المرسوم لتهديم هذا التراث ولتشتيت شمل هذه الامانة دون ما مبرر. فالتجأت اليكم بصفتكم رئيساً للهيئة التشريعية المكلفة بالنظر بهذا المرسوم مستجيراً بكم لحمايتي من جور أشعر أنه أحاق بي وتجاوز أشعر انه وقع على حق طبيعي من الحقوق التي ضمنها لي الشرع الشريف وأقرّها دستور البلاد واعترفت بها لائحة حقوق الانسان التي شرعتها أسرة الامم المتحدة التي تنتمي اليها دولتنا، واخيراً أشعر في قرارة

نفسي بان حق الفرد في العقيدة والايمان والاحتفاظ بالتراث العائلي والاجتماعي ، وعلى الاخص اذا كان هذا التراث قد لازم تاريخ الفرد لعدة قرون ، هو حق لا يجوز ان تقيده قوانين الدولة مهما كان الهدف من تشريعها .

سيدي :

اني لن أناقش هذا المرسوم من الناحية الفقهية فالفقهاء مدعوون لقول كلمتهم وأنتم مدعوون لفتح أذهانكم وقلوبكم لأستماعها ، واني لن أناقشه من الناحية الدينية فأن رجال الدين وحماته وعلماءه وأعلامه مدعوون لقول كلمتهم وانتم مدعوون لفتح بصائركم وقلوبكم للاصغاء اليها ، ولن أناقشها من الناحية الاجتماعية او الاقتصادية فقد قال ذوو الرأي والخبرة كلمتهم ولكنها لم تلق أذناً صاغية .

سيدي رئيس الهيئة التشريعية :

ان من لا ماضي له يعتزّ به لا حاضر له يفخر به ولا مستقبل له يتطلّع اليه . والافراد كالأمم فكما انه لا خير في أمة لا ترعى ماضيها فلبئس الفرد الذي يقطع بيديه صلة ماضيه بحاضره وبمستقبله تخبطاً وطمعاً وجهلاً . فالوقف يا معالي الرئيس هو تراث نبيل القصد سامي الهدف ولا شائبة فيه كمؤسسة اجتماعية اقتصادية روحية ، إذا ما عقد اولو الأمر نيتهم لأصلاحها لتطابق مقتضيات العصر . أما ان يكون الاصلاح عن طريق الهدم وازالة المعالم وقطع صلة الماضي بالحاضر وبالمستقبل فهي إساءة لا يغفرها الله ولن تقرها الاجيال المقبلة . اننا يا سيدي الرئيس نعيش ـ مع الأسف ـ في عصر خفت به موازين القيم الروحية وطغت فيه نفثات الروح المادية والنفعية على نفوس البشر وضعف ـ وا أسفاه ـ الايمان وتزعزعت الرحمة في قلوب الناس حتى صاروا يستخفّون بالأحياء وبالأموات معاً . فلا للقديم حرمته ولا للمقدس قدسيته ولا للمجد التليد قيمته ولا للتراث الخالد اعتباره . ولقد ارتفعت معاول الهدم من كل حدب وصوب ولم يسلم منها حتى الموتى في القبور .

سيدي الرئيس :

اني أحد ذوي العلاقة بوقف ذري لو قدر الله وأقر مجلسكم العالي مرسوم الغائه لكنت من أول المتنعمين بخيراته ومن أكثر المستفيدين من مادته . ولو كنت من الذين يرون ان المادة هي كل ما يعيش المرء من أجله لكنت أول المرحبين بهذا المرسوم . ولكن في كل مجتمع من قد يرى ان القيم الروحية هي أغلى من القيم المادية مهما بلغت قيمتها في السوق الدارج . وأني أحد أفراد هذا المجتمع من الذين يرون هذا الرأي . فقد وجدت ياسيدي الرئيس نفسي أمام أمانة سلمت الى الجيل الذي أنا منه فتسلمها طائعاً وتسلمت معها عهداً بلزوم المحافظة عليها وتسليمها الى الجيل الآخر ، واني لأشعر بأن عليَ واجب الدفاع عن هذه الامانة التي هي في الواقع ليست لي وحدي او لأحد آخر غيري من أفراد هذا الجيل ، انما هي وديعة من الاسلاف الى أخلاف ما زالوا في الظهور وفي البطون . لهذا فليس من حق أحد من هذا الجيل حاكماً او محكوماً مشرعاً او مرتزقاً ان يتصرف في أموال شخصية قررتها أجيال سالفة عن طوعها وبرضائها ، وحق الواقف في تنفيذ شرطه كنص الشارع سواء بسواء .

ثم يا سيدي الرئيس ـ انا لست رجعياً ولا ممن يقولون بالخرافات والخزعبلات والبدع ولا ممن يؤمنون بالأدعية وبالتمائم او يذعنون للاوهام ، وانما أنا فرد من المسلمين أؤمن بالله وبكتبه وبرسله

وباليوم الآخر، وفي عنقي لكل ما أؤمن به حق وفي قلبي لكل ما يخص ايماني حرمة ورعاية. ومن جملة ذلك حرمة الموتى ورعاية حقهم في أموالهم ومراعاة رغباتهم فيما ملكوا وأوقفوا. وعندي ايمان قاطع راسخ بأن للوقف حرمة، وان للوقف (حوبة) لا بد ان تصيب كل من يسيئ الى وقف او يضمر له شراً او يحاول به طمعاً او كسباً. فوالله ما من أحد اساء لوقف حتى لقي جزاءه من الله ان عاجلاً او آجلاً فنكب إن بحياته او برزقه او بماله او بمن هو عزيز عليه. والشواهد على ذلك لا تعدّ ولا تحصى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)..

هذا نداء أوجهه الى مجلسكم العالي فليفكر كل نائب أكثر من مرة وليتدبر أمر الله قبل ان يعلن موافقته على إلغاء الوقف الذرّي.

وانتم يا سيدي الرئيس مناشدون بتدبير الأمر ملياً قبل ان تساهموا في خطأ سيحاسبكم الله عليه يوم القيامة حساباً عسيراً (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب).

سيدي الرئيس:

ان اصلاح الوقف ليس بالامر المستحيل فلم تجر أية محاولة جدية لأصلاحه واني لأتحدى كل مدّع بأن الألغاء هو أفضل طرق الاصلاح، فلتجرب الحكومة طرق الاصلاح فاذا لم تتحقق الغاية كان لها أمام الله والتاريخ مبرر لاقدامها على الألغاء.

فارجو ان تتفضلوا بتوزيع عريضتي هذه على حضرات النواب عندما يدعون لأبداء رأيهم بصدد المرسوم حتى يكونوا على بينة من خطورة الأمر الذي سيقررون وحتى لا يشكلوا ذممهم ويظلموا ضمائرهم من حيث لا يعلمون.

وان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

امين المميز

صاحب علاقة بوقف ذري

نسخة منه الى:ـ

فخامة رئيس الوزراء

معالي رئيس الديوان الملكي

معالي وزير الدولة لشؤون الأوقاف

بعد مدة قصيرة من تقديم هذه المذكرة التقيت بالمرحوم محمد شفيق العاني وزير الدولة لشؤون الأوقاف، في يوم قبول المرحوم نوري فتاح، فذكر لي بأن الامير عبدالآله سأله اثناء مقابلته الاسبوعية عما اذا كان قد اطلع على مذكرتي وما هو رأيه فيها. فأجابه الاستاذ شفيق العاني بأنه اطلع على المذكرة وهي رأي امين المميز الشخصي حول تصفية الوقف الذري.



اتصلت بكثير من رجال الدين من كافة المذاهب أستمزج اراءهم حول جواز تصفية الوقف الدري . وفي الصورة أعلاه ثلاثة منهم هم المرحومين الشيخ أمجد الزهاوي رئيس مجلس التمييز الشرعي والحاج نجم الدين الواعظ مفتي بغداد ومدرس الفقه الحنفي في مدرسة عادلة خاتون سابقاً والشيخ عبدالوهاب ملوكي من كبار رجال العلم في محلة باب الشيخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الوقف الذي بها لوقف المجزي نافذ ولازم لبعد الحكم به باتفاق ائمة
وقد اجمعت مذاهب الاسلام على اختلافها مشروعيته وعلى ذلك يكون الغائه
حراماً بعد ان في الغائه مشاكل فاذحة وذلك ان هذه الموقوفات
مسجلة في محاكم بلزومها والتعرض بابطال للاحكام المكتسبة الدرجة
القطعية غير جائز قانوناً

كتبه الفقير الى الله سبحانه امجد
الزهاوي

في جمادى الاولى لسنة ١٣٧٣
الموافق ٢٠ كانون الثاني
سنة ١٩٥٤

فتوى الشيخ أمجد الزهاوي
رئيس مجلس التمييز الشرعي

مقام العلامة الجليل الشيخ قاسم القيسي مفتي بغداد المحترم

بعد التحية: ما قول فضيلتكم في الغاء الوقف الذري وهل يجوز شرعاً
افتونا مأجورين

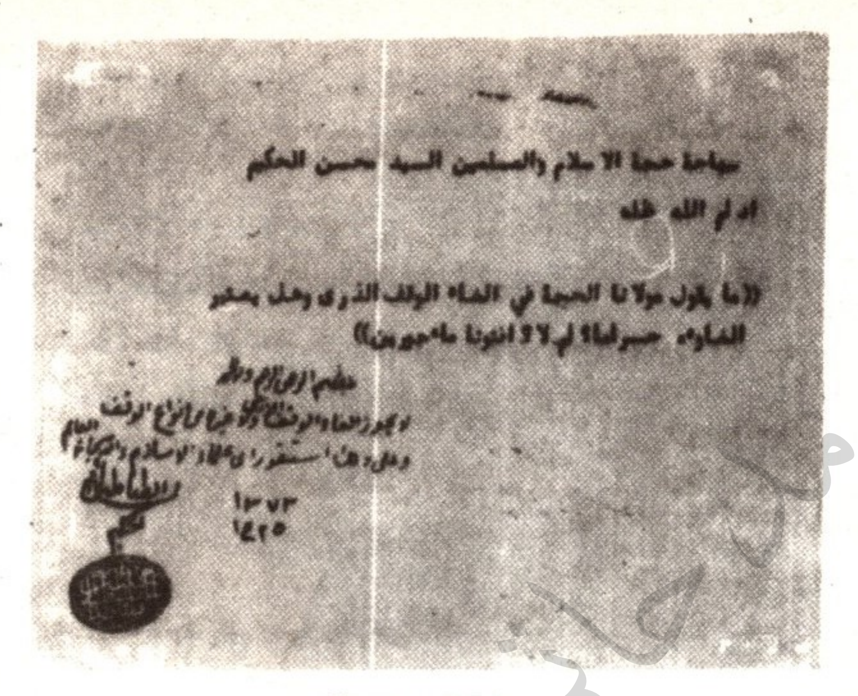
بسم الله الرحمن الرحيم اقول في الجواب بعد حمد الله الملهم للصواب

ان الغاء الوقف لا يجوز قطعاً كما لا يجوز تغييره شرعاً بعد صدور الوقف
من جانب السلف العظام بلا انكار ولا نقض بعد الابرام وتبديله
بعد صدوره مطلقاً مخالف لنصوص الشرع وحرام والله ولي التوفيق

الفقير الى رب العباد
مفتي العاصمة بغداد
قاسم القيسي

٢٧ جمادى الاولى ١٣٧٣
الموافق ١ شباط ٩٥٤

فتوى الشيخ قاسم القيسي مفتي بغداد



سماحة حجة الاسلام والمسلمين السيد محسن الحكيم

دام الله ظله

((ما يقول مولانا الحجة في الغاء الوقف الذري وهل يعتبر الغاؤه حراماً؟ أم لا؟ أفتونا مأجورين))

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يجوز الغاء الوقف ولا غيره من أنواع الوقف ولا [illegible] من أحكام الاسلام [illegible]

محسن الطباطبائي الحكيم

١٣٧٣

١٤٢٥

فتوى السيد محسن الحكيم

سماحة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ محمد الحسين

آل كاشف الغطاء

دام ظله

((ما يقول مولانا سماحة الحجة في الغاء الوقف الذري وهل يعتبر الغاؤه حراماً شرعاً؟ أم لا؟ أفتونا مأجورين..))

بسمه تعالى شأنه

الغاء الوقف الذري باطل مطلق

فيه غضب من الله تعالى والواقف والوقف

والسلطان الذي [illegible] فكيف لا يكون حراماً

كاشف الغطاء

فتوى الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء



برقية داخلية

الرقم

نوع البرقية

وقت تسليمها

وصلت في الساعة ... الدقيقة

من

عدد الكلمات ... التعليمات الأولية ... التاريخ ... دائرة الأصل

الى

البرقية التي وردتني من قضاء سوق الشيوخ بلواء الناصرية وهي واحدة من عدة رسائل وبرقيات بتأييد حملتي لمعارضة الغاء الوقف الذري .



كتبت الى أخي المرحوم عبدالستار المتولي عادلة خاتون رسالة خاتون رسالة من جدّة أبلغته فيها بمعارضتي الشديدة لتصفية الوقف.
كما أبرقت الى المحكمة المختصة أناشدها الحفاظ على تراث عائلي ظل قائماً عدة قرون.

وكنت قد توسطت للحصول على فتاوى كبار علماء الدين، فحصلت على فتاوى من المرحومين الشيخ أمجد الزهاوي والشيخ قاسم القيسي والسيد محسن الحكيم والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. كما تلقيت تشجيعاً من كثير من الاوساط العراقية المختلفة وتسلمت عشرات الرسائل والبرقيات. [الفتاوى واحدى البرقيات منشورة على الصفحات السابقة].

وفي غمرة هذه الاحداث نقلت الى جدة وزيراً مفوضاً لدى المملكة العربية السعودية، وأثناء وجودي هناك أقام أحد المتكالبين على تصفية الوقف الدعوى لتصفية وقف عادلة خاتون استناداً الى المرسوم موضوع البحث. ففي ظل القانون القديم رقم ٢٨ لسنة ١٩٥٤ الذي كان أقرب الى المبادئ الديمقراطية، كان الحق في تصفية الوقف الذري محصوراً باتفاق آراء اكثرية المرتزقة، اما في ظل المرسوم الجديد رقم ١ لسنة ١٩٥٥ فيجوز لأي مستحق في وقف مهما كان استحقاقه ضئيلاً ان يتقدم بطلب تصفيته. فلذلك أقيمت مئات الدعاوي خلال فترة وجيزة، فكانت تقام عشرات الدعاوى يومياً. وعندما أقيمت دعوى تصفية وقف عادلة خاتون من قبل أحد المتكالبين على اقتسام أسلابه، أرسلت البرقية المدونة أدناه الى محكمة البداءة التي تنظر دعوى التصفية، وهي مدونة في يومية ١ حزيران ١٩٥٥ من كتابي «المملكة العربية السعودية كما عرفتها»:

محكمة البداءة ـ بغداد

أرفض تصفية أوقاف عادلة خاتون رفضاً باتاً وأستجير بوجدان المحكمة للمحافظة على تراث اجتماعي ظل قائماً اكثر من قرنين. الوقف لا يعود فقط للماثلين أمامكم المتكالبين على اقتسام أسلابه، انما يعود ايضاً لأفراد ما زالوا في الظهور وفي البطون. ذكروهم بقوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً).

امين المميز

كما اني وكلت اثنين من كبار المحامين هما المرحوم عبدالله الشواف وعبدالرزاق شبيب للحيلولة دون صدور حكم التصفية(*). وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها فقد صدر الحكم بتصفية الوقف واكتسب درجة البتات في ١٩٥٨/١٠/٩ أيام عبدالكريم قاسم، فأصبح وقف عادلة خاتون شذر مذر، كغيره من الاوقاف الذرية في العراق. وقد قال الشاعر:

كل ظلوم تدول دولته ... وليس ما سنّ من أذىً زائل

ولم تمض مدة طويلة على صدور الحكم إلا وحوبة الوقف تصيب ذلك المتكالب على تصفيته واقتسام أسلابه، والذي سبق لي ان حذرته مراراً من (حوبة) الوقف اذا ما قدم طلباً لتصفيته، إذ لقي مصرعه من سيارة مجهولة في ليلة ظلماء، ولما يشف غليله من فتات الوقف المصفى(*):

وإذا «الحوبة» أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

بعد حوالي ثلاث سنوات من تصديق مجلس النواب لمرسوم جواز تصفية الوقف الذري وعلى وجه التحديد في اليوم الثالث عشر من تشرين الاول سنة ١٩٥٨، دعي المتهم احمد مختار بابان الى محكمة المهداوي ليستمع الى بيان المدعي العام، المتضمن التهمة التالية:

«وكانوا في سبيل ذلك يصدرون القوانين والانظمة وتعديلاتها لخدمة أغراضهم ومصالح المحسوبين عليهم، وما قصة تصفية الوقف الذري وتعديلاته الكيفية إلا مثال من آلاف الامثلة على ذلك. وقد لعب المتهم الحاضر في كل ما أسلفنا دوره الفعال».

(*) [illegible]

(*) [illegible]



من جملة التهم التي وجهت الى أحمد مختار بابان نائب رئيس الوزراء
تهمة إصدار مرسوم جواز تصفية الوقف الذري رقم ١ لسنة **١٩٥٥**

لم ينف المتهم في دفاعه هذه التهمة ولم يفندها وكيله المحامي كمال السنوي في لائحته اذ ان المتهم نفسه ووكيله والشعب العراقي قاطبة يعلمون حق العلم بأن احمد مختار بابان كان وراء مرسوم تصفية الوقف الذري، وهدم كيانه، وان وقف (حيدر) هو السبب المباشر والدافع الحقيقي وراء تصفية عموم الاوقاف الذرية في العراق.

ومع كل ذلك فأني أسأل الله عزّ وجل، ان يغفر لأحمد مختار بابان ذنبه جراء ما أقترفه بحق الوقف الذري... فله حق عليّ لأنه جاري القديم في الدنگچية.!!



بعد سنة ١٩٥٨ انصرفت الى المطالعة والشؤون الثقافية والأدبية والفولكلورية والتراثية والتردد على المكتبات والنشر في الصحف والمجلات :
في الندوة الثقافية التي كان يديرها سالم الآلوسي في تلفزيون بغداد، جرى البحث عن مؤلفاتي وعن (الأدب الدبلوماسي).
من اليمين : المرحوم الأستاذ فؤاد عباس . سالم الآلوسي . أمين المميّز



افتتاح المكتبة القادرية الحديثة في ١١/٥/١٩٦٧، التي تضم من الكتب أقدمها ومن المخطوطات أندرها
من اليمين : محمود صبحي الدفتري ، عبدالوهاب مرجان ، برهان الدين الگيلاني ويوسف الگيلاني متوليّا الأوقاف القادريّة وأمين المميّز.

إن الفضل الأكبر في تجديد المكتبة القادرية وتزويدها بأقدم وأندر وأحدث الكتب العربية والأجنبية وباللغات الشرقية والغربية مضافة الى ما فيها من الكتب والمخطوطات النادرة التي كانت في مكتبة المرحوم السيد عبدالرحمن النقيب المشهورة في بغداد، وهي التي كانت نواة الأولى للمكتبة القادرية الحديثة والتي تضم الآن أكثر من خمسين ألف كتاب ومخطوطة ومصاحف نادرة ووثائق تاريخية ودوريات علمية وبحوث وتحف إسلامية لا مثيل لها. يرجع الى السيد يوسف عبدالله الگيلاني حتى يصح الى مظاهاة مكتبة (بودليان THE BODLEAN LIBRARY) في جامعة أكسفورد التي تخرج منها. وهي أقدم مكتبة في بريطانيا يرجع تاريخ تأسيسها الى القرن السادس عشر ومن مميزاتها التي تؤهلها لكسب الحقوق ... مطبوع يطبع في بريطانيا مهما كان موضوعه ولغته في حرمتها

أما بعد :

فقد شمل الكتاب شذرات من ذكرياتي عن بغداد وبعض أرجاء العراق منذ طفولتي حتى شيخوختي ، وعن لبنان ومصر وفلسطين وشرقي الأردن وتركيا في شبابي ، وعن إنكلترا وفرنسا وأمريكا وسورية والمملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية في كهولتي إبّان عملي في السلك الخارجي العراقي . وعدا هذه الأقطار والأمصار والقارات فقد سنحت لي الفرص في فترات مختلفة لزيارة بلاد أخرى لم يتناولها الكتاب وهي ايرلندا والمانيا وإيطاليا واسپانيا وسويسرا والنمسا واليونان وإمارة موناكو وإمارات الخليج العربي ، كما ترددت كثيراً منذ إعتزالي الخدمة الدبلوماسية في تموز ١٩٥٨ على بريطانيا للبحث والتتبع العلمي ولأمور تتعلق بدراسات ولديّ إبراهيم وصالح وإبنتي سهىٰ في كلياتها وجامعاتها، وعلى الخُبَرْ والظهران في المملكة العربية السعودية لأمور تتعلق بدراسة ولدي فيصل في كليتها، وعلى عمان في المملكة الأردنية الهاشمية لأمور تتعلق بدراسة ولدي فؤاد في جامعتها، وعلى بيروت ولبنان للاشراف على طبع مؤلفاتي في مطابعها والاتصال بدور النشر فيها، ولم أبرح بغداد الحبيبة منذ أن إحتضنتني لآخر مرة في ١٩٨٢/١٠/٧ بسبب ظروف هذه الحرب اللئيمة التي فرضها العجم علينا فحرمتني من السفر لمواصلة تتبعاتي العلمية وطبع ما استجد من مؤلفاتي وزيارة أفلاذ كبدي ، غير ان غداً لناظره قريب ، وسأعود، إن شاء الله، الى سيرتي في البحث والكتابة والتأليف والسفر، إذا ما مَنّ الله عليّ ببضع سنوات أخرى من الحياة مقرونة بالصحة والعافية، وهو نعم المنّان ، وسأكون حينئذٍ قد أرضيت نفسي وأرضيت وطني وأرضيت أمتي وأرضيت ربي ، وهو المستعان وعليه التكلان .



مدون الذكريات على عتبة أرذل العمر في تموز ١٩٨٤

ها أنا ذاك : بغدادي من أعماق جذور بغداد ومن صميم فترات تأريخها الغابر والمعاصر، وسأمضي بقيّة عمري فيها ، والأعمار بيد الله . وأني لأوصي بأن أرقد في ثراها الطاهر ، إن شاء الله ذلك ، وهو القائل ـ صدقت كلمته ـ «وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت . »

الطبعة الأولى ـ نيسان ١٩٨٥

* * *

* * *

رقم الايداع في المكتبة الوطنية/ ٥٧٠ لسنة ١٩٨٤

* * *

ثمن النسخة عشرة دنانير عراقية أو مايعادلها

* * *

طبع في مطابع دار آفاق عربيّة للصحافة والنشر
سبع ابكار ـ الأعظميّة

* * *

التجليد الفني في دار الحرية للطباعة
الصرافية ـ بغداد

* * *

FIRST EDITION — APRIL, 1985

* * *

* * *

PUBLIC LIBRARY — INDEX NO: 570/198[illegible]

* * *

PRICE: ID. 10.000 OR EQUIVALENT

AT FOREIGN EXCHANGE RATE

* * *

PRINTED BY AFAQ ARABIYEH

PUBLISHING HOUSE.

SABU — ABKAR, AL — ADHAMIYEH.

* * *

HARD — BACK EDITIONS BY

AL — HURRIYEH PRINTING HOUSE.

AL — SARRAFIYEH, BAGHDAD.

BAGHDAD

AS I KNEW IT

MMES FROM LIFELONG MEMOIRS

EDITED BY

AMIN MUMAYIZ

RETIRED IRAQI DIPLOMAT

AUTHOR OF

ENGLISH PEOPLE AS I KNEW THEM, 1944

AND

AMERICA AS I SAW IT, 1952

GRANTED THE FIRST PRIZE OF THE IRAQI ACADEMY IN 1952

AND

AUDI ARABIA AS I KNEW IT, 1963

تصوير الوجه الخلفي للغلاف:

«النخلات الثلاث الجميلات»، كما وصفها السيد سمير عبدالوهاب الشيخلي- أمين العاصمة السابق الذي استجاب مشكوراً لمناشدة مدوّن الذكريات بالابقاء عليها في موقعها التراثي وهو جامع عادلة خاتون الصغير الواقع في محلة الدنكچية [عكد الصخر - مدخل سوگ الصفافير - شارع المأمون سابقاً - شارع جسر الشهداء حالياً - مقابل المتحف البغدادي] وفي موقع العمارة التي تشيدها امانة العاصمة في الوقت الحاضر كموقف للسيارات ومكاتب ادارية وأسواق عصرية. وكانت على مدخل الجامع قبل تهدمه مرمرة منقوش عليها ستة أبيات من الشعر، منها البيتين التاليين اللذين يؤرخان تاريخ بنائه:

لما زها بنيان باب دخوله
لنا وجلت منه لظمآن من صدى
هناك اتانا آية الذكر أرخوا
لرب السما الهادي ادخلوا الباب سجدا

وبموجب حساب (الجُمّل) يكون تاريخ بناء المسجد سنة ١١٦١ هجرية.

لقد شيدت هذا الجامع صاحبة الخيرات عادلة خاتون بنت أحمد باشا والي بغداد لخمس وعشرين سنة [١١٣٥-١١٦٣هجرية الموافق ١٧٢٣-١٧٤٧ ميلادية] المشهور تاريخياً بقاهر نادر شاه ملك العجم الذي غزا العراق وحاصر بغداد مرتين أطولها سبعة شهور، غير أنه فشل في احتلالها لصمود البغداديين والبغداديات صموداً رائعاً خلدته صحائف التأريخ. ولما وجه ذلك الشاه «النادر!» المتغطرس انذاره العنجهي الى الوالي أحمد باشا يطلب منه تسليم بغداد ويقول له: «ليكن معلوماً لباشا بغداد بأننا قادمون قريباً على رأس جيشنا المظفر لنتنعم باستنشاق نسيم سهولها العليل ونستريح ونتفيأ بظلال جدرانها العالية»، كان جواب الوالي المحاصر داخل بغداد المحصنة بالسور والخندق والنهر وبسواعد رجالها واصرار حرائرها بأن لا يدنس الفرس المجوس أرضها الطاهرة، بأني لو قطعت إرباً إرباً لا أسلمه حجراً من بغداد. وفي أسوأ الاحتمالات فقد آلى الوالي على نفسه اغراق أهل بيته في نهر دجلة إذا ما أفلح العجم في اقتحام بغداد واحتلالها. ولما جاءت النجدة وانفك الحصار انكفأ جيش نادر قلي الأفشاري المدحور مهرولاً نحو أعماق بلاد فارس لا يلوي على شيء، يجر أذيال الخيبة والفشل، يطارده جيش العراق المظفر حتى كرمنشاه وهمدان. وعند ذلك قال الشاه المتعجرف قوله المشهور: «ان الباشا أعقل من الشاه ومن البادشاه كليهما معاً» - ويعني بالبادشاه السلطان العثماني -.

وبعد قرنين ونيف تعاد صيغة ذلك القول على لسان الخميني والخامنئي اللذين يريدان والتنعم بنسيم بغداد العليل والتفيؤ بظلال جدرانها العالية، وهيهات ذلك وصدام وجيشه والعراقيون والعراقيات والبغداديون والبغداديات هم اليوم على ذات الصمود الذي صمدوه في وجه الغزو الايراني الأفشاري قبل أكثر من قرنين من الزمن.

إن الجامع موضوع البحث هو أحد جامعين شيدتهما عادلة خاتون بنت الوالي أحمد باشا. أما الجامع الآخر فيقع في محلة رأس القرية - شارع المستنصر - مقابل المحكمة الشرعية (محكمة الأحوال الشخصية حالياً) والذي كان في مدخله مرمرة كبيرة منقوش عليها قصيدة من تسعة عشر بيتاً ختمت بالبيت التالي الذي يؤرخ تاريخ بنائه:

ولما ان تكمل قيل أرخ
الا بالتمّ حيّ على الصلاة

وبموجب حساب (الجُمّل) يكون تاريخ بناء ذلك الجامع سنة ١١٦٨ هجرية.

ان الجامع الصغير كان قد تداعى للسقوط فجدده المتولي على وقف عادلة خاتون المرحوم ابراهيم أفندي المميّز سنة ١٣١٨ هجرية، وتداعى ثانية في أوائل الخمسينات ولم يعد بالامكان تجديده أو اعادة بنائه في موقعه لدخوله في مشروع توسيع شارع المأمون، فشيدت عائلة آل المميّز جامعاً آخراً بدلاً عنه في الصرافية، التي هي من أعيان وقف عادلة خاتون، سنة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م، ويحمل نفس الاسم (جامع عادلة خاتون).

أما الجامع الكبير فقد أعيد بناؤه وبناء المدرسة الملحقة به، سنة ١٩٣٧ على عهد المتولين على الوقف المغفور لهما عبدالجبار المميز وعبدالقادر المميّز.

أما النخلات الثلاث التي نحن بصددها فقد غرست في حديقة الجامع الصغير من قبل المتولين المتعاقبين بعد بضع سنوات من وفاة عادلة خاتون سنة ١١٨٢هـ، وعادلة خاتون هي زوجة سليمان باشا المشهور بغدادياً بـ(أبو ليله) وعشائرياً بـ(دوّاس الليل) وقد تولى ولاية بغداد اثنتي عشر سنة [١١٦٣هـ - ١١٧٤هـ/ ١٧٤٧م - ١٧٦٠م] خلفاً لوالد زوجته الوالي أحمد باشا بن الوالي حسن باشا.

[التفاصيل الوافية عن هذين الجامعين منشورة في مكانها من متن الكتاب].

بغداد كما عرفتها

امين المميز

للصحافة والنشر
١٩٨٥

Baghdad As I Knew It

By

Amin Mumayiz

"THE THREE BEAUTIFUL PALMTREES
A LANDMARK IN THE HUB OF THE UNIVER